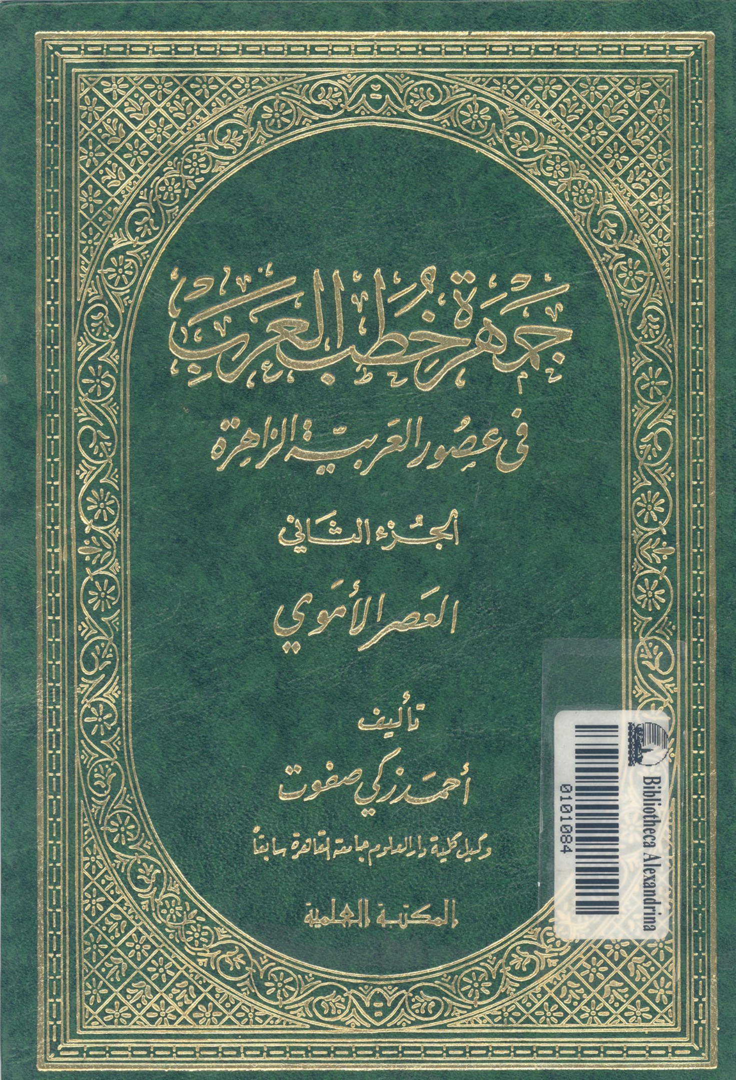

جمهرة خطب العرب
في عصور العربية الزاهرة
الجزء الثاني
العصر الأموي
تأليف
أحمد زكي صفوت
وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقاً
المكتبة العلمية

جمهرة خطب العرب

في عصور العربية الزاهرة

الجزء الثاني

العصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقاً

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

تصدير

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

أبدأ بحمدك اللهم على ما أوليتنى من جزيل تفضلك ، ومزيد تطولك ، وأصلى وأسلم على رسولك الأمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد : فهاهو ذا « الجزء الثانى — من جمهرة خطب العرب » أصدره حاويا ما وصل إلينا من خطب العصر الأموى ووصاياه ، وما دار بمجالس الخلفاء والأمراء والرؤساء من حوار ومجاوبة ، وهو كما ستراه أحفل أجزاء الكتاب الثلاثة ، وأغزرها مادة ، لتوافر دواعى الخطابة فى هذا العصر ، ونَفَاق سوقها .

وقد نهجت فيه نهجى فى سالفه ، من التوفيق بين الروايات ، وتحرير الألفاظ وضبطها وشرحها ، والتعليق عليها بما يميط اللثام عن خفايا مراميها ، وغوامض مغازيها ، فجاء بحمده تعالى وافيا مرضيا ، والله نسأل أن يكلأنا برعايته ، وأن يمنّ علينا بالتوفيق للعمل الصالح ، إنه خير مرتجى ، فنعم المولى ونعم النصير ؟

أحمد زكى صفوت

حرر بالقاهرة فى رجب سنة ١٣٥٢ هـ
نوفمبر سنة ١٩٣٣ م

فهرس

مآخذ الخطب فى هذا الجزء

مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : الجزء الأول ــ الثانى

تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « السادس ــ السابع ــ الثامن ــ التاسع

تاريخ الكامل : لابن الأثير : « الثالث ــ الرابع

مروج الذهب : للمسعودى : « الثانى

الإمامة والسياسة : لابن قتيبة : « الأول ــ الثانى

معجم البلدان : لياقوت الحموى : « الثالث

أسد الغابة فى معرفة الصحابة : لابن الأثير : « الثالث

النجوم الزاهرة، فى ملوك مصر والقاهرة : « الأول

لابن تغرى بردى :

وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول ــ الثانى

معاهد التنصيص : لعبد الرحيم العباسى : « الأول

نفح الطيب ، للمقرّى : « الأول

بلوغ الأرب : للسيد محمود شكرى الألوسى : « الثالث

مواسم الأدب : للسيد جعفر بن السيد : « الثانى

محمد البيتى العلوى

سيرة عمر بن عبد العزيز : لأبى الفرج بن الجوزى

« « « « : لابن عبدالحكم

سرح العيون : شرح رسالة ابن زيدون : لابن نباتة المصرى

أنباء نجباء الأبناء : لابن ظفر المكى

الحسن البصرى : لابن الجوزى

الفخرى : لابن طباطبا

بلاغات النساء : لابن أبى طاهر طيفور

دستور معالم الحكم : للقضاعى

إعجاز القرآن : لأبى بكر الباقلانى

المُنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح



الباب الثالث

الخطب والوصايا

فى

العصر الأموى

الخطب

خطب بنى هاشم وشيعتهم وما يتصل بها

١ — خطبة الحسن بن علىّ بعد وفاة أبيه[1]

خطب الحسن بن علىّ رضى الله عنهما بعد وفاة أبيهِ فنعاه فقال :

« لقد قتلتم الليلة رجلا فى ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رُفِع عيسى بن مريم عليه السلام ، وفيها قتل يُوشَع بن نونٍ ، فتى موسى عليهما السلام ، والله ما سبقهُ أَحَدٌ كَانَ

---

(١) فى الكامل لابن الأثير (٣ : ١٩٧) أن الحسن بن على توفى سنة ٤٩ هـ وفى ابن أبى الحديد (م ٤ : ص ٤) أنه توفى سنة ٥٠ وفى الإمامة والسياسة (١ : ١٢٧) أنه توفى سنة ٥١ .

قبله ، ولا يُدْرِكه أحد يكون بعده ، والله إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لَيبعثه في السَّرِيَّة[1] ، وجبريلُ عن يمينه ، وميكائيلُ عن يساره ، والله ماترك صَفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله ، ثم خنقتهُ العَبْرة فبكى ، وبكى الناس معه ، ثم قال :

« أيها الناس : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت ، الذين أذهب الله عنهم الرِّجْس[2] وطَهَّرَهم تطهيرا ، والذين افترض الله مودّتهم في كتابه إذ يقول : ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ ، فاقترافُ الحسنة مودتنا أهلَ البيت » .

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبيد الله بن العباس بين يديه ، فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا ما أحبّه إلينا وأحقه بالخلافة ! فبايعوه ثم نزل من المنبر .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ١١ ، والعقد الفريد ٢ : ٦)

---

(١) السرية من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة . (٢) الرجس : القذر والمأثم ، وكل ما استقذر من العمل ، والعمل المؤدى إلى العذاب .

تعبئته الجيوش لقتال معاوية

سار معاوية بجيوشه قاصداً إلى العراق ، وبلغ الحسن خبره ، ومسيره نحوه ، فأمر بالتهيؤ للمسير ، ونادى المنادى : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس يثوبون ويجتمعون ، فخرج الحسن ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

٢ — خطبة الحسن بن علىّ فى الحثّ على الجهاد

« أما بعد : فإن الله كتب الجهاد على خلقِه ، وسماه كُرْهًا[١] ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : « اصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون . بلغنى أن معاوية بلغهُ أنا كنا أزمعنا على المسير إليه ، فتحرك لذلك ، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بِالنُّخَيْلَة ، حتى ننظر وتنظروا ، ونرى وتَرَوْا » — وإنه فى كلامه ليتخوف خِذْلان الناس له — فسكتوا ، فما تكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف ، فلما رأى ذلك عدى بن حاتم ، قام فقال :

٣ — مقال عدى بن حاتم

« أنا ابن حاتم ، سبحان الله ! ما أقبح هذا المَقام ! لا تُجيبون إمامكم ، وابن بنت نبيكم ! أين خطباء مُضَرَ الذين ألسِنَتُهُمْ كالمَخاريق فى الدَّعة[٢] ، فإذا جَدَّ الجِدُّ

---

(١) يشير إلى قوله تعالى « كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » .

(٢) جمع مخراق بالكسر : السيف (وهو أيضا المنديل يلف ليضرب به) وفى الدعة : أى وقت الدعة : أى الخفض والسلم .

فرَوَّاغون كالثعالب ، أما تخافون مقت الله ! ولا عَيْبَهَا وعارها[١] ! » .

ثم استقبل الحسن بوجهه فقال : « أصاب الله بك المَرَاشد ، وجَنَّبك المكاره ، ووفَّقك لما تحمد وروده وصدوره ، قد سمعنا مقالتك ، وانتهينا إلى أمرك ، وسمعنا لك ، وأطعناك فيما قلت وما رأيت ، وهذا وجهى إلى معسكرى ، فمن أحب أن يُوَافِيَنِى فليوافِ » ثم مضى لوجهه ، إلى النُّخيلة .

وقام ثلاثة آخرون من أصحاب الحسن ، فأنّبوا الناس ولاموهم وحرضوهم ، وكلموا الحسن بمثل كلام عدىّ بن حاتم ، فقال لهم : صدقتم رحمكم الله ، مازلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة ، فجزاكم الله خيرًا ، ثم نزل ، وخرج الناس فعسكروا ونشِطوا للخروج ، وسار الحسن فى عسكر عظيم ، وعدة حسنة .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٤)

٤ — خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية

ثم نزل الحسن ساباط[٢] ، فلما أصبح نادى فى الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصعد المنبر ، فخطبهم فقال :

« الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، أرسله بالحق ، وأئتمنه على الوحى ، صلى الله عليه وآله ، أما بعد ، فوالله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنّه ، وأنا أنصح خلقه لخلقه ، وما أصبحت محتملا على مسلم ضغينةً ، ولا مريداً له بسوء ولا غائلة[٣] ، ألا وإن ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبون فى الفُرْقة ، ألا وإنى ناظر لكم خيراً من نظركم

---

(١) أى عار فعلتكم هذه : وهى تقاعسهم عن إجابة الحسن إلى مادعاهم إليه ، وفى الأصل : «وعارتها» وأراه محرفا إذ العارة هى العارية ولا معنى لها هنا . (٢) ساباط كسرى بالمدائن .

(٣) الغائلة : الشر والفساد والداهية .

لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمرى ، ولا تردوا علىّ رأيى ، غفر الله لى ولكم ، وأرشدنى وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله » ثم نزل .

فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا ما ترَوْنه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنه يريد أن يصالح معاوية ويكل الأمر إليه ، كفر والله الرجل ، ثم شدوا على فُسطاطه فانتهبوه ، حتى أخذوا مُصَلَّاه من تحته ، وشد عليه بعضهم ، فنزع مُطْرَفه[1] عن عاتقه ، فبقى جالساً متقلداً سيفاً بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراده ، ولاموه وضعّفوه لما تكلم .

فلما مرّ فى مُظْلِم[2] ساباط ، قام إليه رجل من بنى أسد يقال له جَرّاح بن سِنان ، وبيده مِغْوَل[3] ، فأخذ بلجام فرسه وقال : الله أكبر يا حسن ! أشرك أبوك ، ثم أشركت أنت ! وطعنهُ بالمغول ، فوقعت فى فخذه فشقته ، حتى بلغت أُرْبِيَّتَهُ[4] ، وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذى طعنهُ بسيف كان بيده واعتنقهُ فخرّا جميعاً إلى الأرض . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٤)

٥ — خطبته يبرر مصالحته لمعاوية

لما رأى الحسن رضى الله عنهُ تفرق الأمر عنهُ ، بعث إلى معاوية يطلب الصلح ، فبعث معاوية إليهِ رسولين ، قدِما عليهِ بالمدائن ، فأعطياه ما أراد ، وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف — فى أشياء اشترطها — ثم قام الحسن فى أهل العراق فقال :

« يأهل العراق ، إنه سخّى بنفسى عنكم ثلاثٌ : قَتْلُكُمْ أبى ، وطعنكم إياىَ ، وانتهابكم متاعى » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٩٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣)

---

(١) رداء من خز مربع ذو أعلام . (٢) مظلم مضاف إلى ساباط التى قرب المدائن : موضع هناك .
(٣) المغول : الفأس العظيمة التى ينقر بها الصخر . (٤) الأربية : أصل الفخذ .

٦ — خطبته فى الصلح بينه وبين معاوية

وقدم معاوية الكوفة لإنفاذ الصلح بينهُ وبين الحسن (سنة ٤١ هـ) ، وكان عمرو ابن العاص حين اجتمعوا بالكوفة ، قد كلم معاوية ، وأمره أن يأمر الحسن أن يقوم ويخطب الناس ، فكره ذلك معاوية ، وقال ما تريد إلىَّ أن أخطب الناس ؟ فقال عمرو : لكنى أريد أن يبدُوَ عِيُّه للناس[1] ، فلم يزل عمرو بمعاوية حتى أطاعهُ ، فخرج معاوية فخطب الناس ، ثم نادى الحسن ، فقال : قم يا حسن فكلم الناس ، فتشهد فى بديهة أمرٍ لم يُرَوِّ فيهِ ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فإن الله قد هدى أوّلكم بأوّلنا ، وَحَقَنَ دماءكم بآخرنا ، وكانت لى فى رقابكم بيعةٌ ، تحاربون من حاربتُ ، وتسالمون من سالمتُ ، وقد سالمت معاوية وبايعته فبايعوه ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دُول ، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) وأشار إلى معاوية ، فلما قالها قَالَ معاوية اجلس ، فلم يزل ضَرِمًا[2] على عمرو، وقال هذا من رأيك » ولحق الحسن بالمدينة .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٩٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٢٠ ، وأنباء نجباء الأنباء ص ٥٦ وتاريخ ابن عساكر ٤ : ٢٢٤)

٧ — خطبة له بعد الصلح

روى المدائنى قال : سأل معاوية الحسن بن علىّ رضى الله عنهُ بعد الصلح أن يخطب الناس ، فامتنع ، فناشده أن يفعل ، فوضع له كرسى فجلس عليه ، ثم قال :

---

(١) روى أبو الفرج الأصبهانى أنه كان فى لسان الحسن ثقل كالفأفأة (شرح ابن أبى الحديد م ٤ ص ١١) .

(٢) ضرم عليه كفرح : احتدم غضبا فهو ضرم .

« الحمد لله الذى توحّد فى ملكه ، وتفرّد فى ربوبيته ، يُؤْتِى الملك من يشاء ، وينزِعُهُ عمن يشاء ، والحمد لله أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أولكم ، وَحَقَنَ دماء آخركم ، فبَلاؤنا عندكم قديماً وحديثاً أحسن البَلاء[١] ، إن شكرتم أو كفرتم . أيها الناس : إن رَبَّ عَلِيٍّ كان أعلم بعلىّ حين قبضه إليه ، ولقد اختصه بفضل لم تعتدّوا مِثْلَهُ ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فهيهات هيهات ، طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم ، وهو صاحبكم وعدوكم فى بدر وأخواتها ، جرّعكم رَنَقًا[٢] ، وسقاكم عَلَقًا[٣] ، وأذلّ رقابكم ، وأشرقكم بريقكم ، فلستم بملومين على بغضه ، وايم الله لا ترى أمةُ محمد خَفْضاً ما كانت سادتهم وقادتُهم بنى أمية ، ولقد وجه الله إليكم فتنةً لن تَصْدُروا عنها حتى تَهْلِكُوا ، لطاعتكم طواغيتَكم[٤] ، وانضوائكم[٥] إلى شياطينكم ، فعند الله أَحْتَسِبُ ما مضى ، وما ينتظر من سوء دَعَتكم ، وَحَيْف[٦] حكمكم ، ثم قال :

« يأهل الكوفة لقد فارقكم بالأمس سهم من مرامى الله ، صائب على أعداء الله ، نَكَالٌ عَلَى فجّار قريش ، لم يزل آخذاً بحناجرها ، جاثما على أنفاسها ، ليس بالملومة فى أمر الله ، ولا بالسَّرُوقة لمال الله ، ولا بالفَرُوقة[٧] فى حرب أعداء الله ، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجابه ، وقاده فاتبعه ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فصلوات الله عليه ورحمته » ثم نزل .

فقال معاوية : أخطأ عَجِلٌ أو كَاد ، وأصاب متثبت أو كاد ، ما ذا أردتُ من خطبة الحسن ؟ (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٠)

---

(١) البلاء يكون منحة ويكون محنة ، وهو هنا بالمعنى الأول .

(٢) ماء رنق : كمدل وكتف وجبل كدر . (٣) العلق : الدم ودويبة فى الماء تمص الدم .

(٤) الطواغيت : جمع طاغوت ، وهو الشيطان وكل رأس ضلال . (٥) انضمامكم .

(٦) الحيف : الظلم . (٧) الفروق والفروقة : شديد الفزع .

٨ — خطبة لمعاوية فى أهل الكوفة

وروى المدائنى قال : خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله الكوفة وصلح الحسن رضى الله عنه ، فأرسل معاوية إلى الحسن يسأله أن يخرج ، فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركْتُ قتالك — وهو لى حلال — لصلاح الأمة وألفتهم ، أفترانى أقاتل معك ؟ فخطب معاوية أهل الكوفة فقال :

« يأهل الكوفة ، أترانى ، قاتلتكم عَلَى الصلاة والزكاة والحج . وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحُجُّون ، ولكنى قاتلتكم لأتأمَّر عليكم وعَلَى رقابكم ، وقد آتانى الله ذلك وأنتم كارهون ، ألا إن كل مال أو دم أصيب فى هذه الفتنة فمطلول ، وكل شرط شَرَطْته فتحت قدمىَّ هاتين ، ولا يُصْلح الناسَ إلا ثلاث : إخراج العطاء عند محله ، وإقفال[1] الجنود لوقتها ، وغزو العدو فى داره ، فإنه إن لم تَغْزُوهم غَزَوكم » ثم نزل .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ ص ٦)

٩ — ردّ الحسن بن علىّ على معاوية حين نال منه ومن أبيه

وخطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين رضى الله عنهما جالسان تحت المنبر ، فذكر عليًّا عليه السلام ، فنال منه ثم نال من الحسن ، فقام الحسين ليرد عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :

« أيها الذاكر عليًّا : أنا الحسن ، وأبى علىّ ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ، وأمى فاطمة ، وأمك هند ، وجدّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدك عُتْبَة بن ربيعة ،

---

(١) إرجاعهم وردهم .

وجدنى خديجة ، وجدتك قُتَيْلة ، فلعن الله أخملنا ذكراً ، وألأمنا حَسَباً ، وشرنا قديماً وحديثاً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً »

فقال طوائف من أهل المسجد آمين . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ ص ١٦)

١٠ — خطبة سليمان بن صرد فى استنكار الصلح

وذكروا أنه لما تمت البيعة لمعاوية بالعراق ، وانصرف راجعاً إلى الشأم ، أتى سليمان ابن صُرَد — وكان غائباً عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم — فدخل عَلَى الحسن فقال : السلام عليك يا مُذِلّ المؤمنين ، فقال وعليك السلام ، اجلس لله أبوك ، فجلس سليمان ، ثم قال :

« أما بعد : فإن تَعَجُّبَنا لاينقضى من بيعتك معاويةَ ومعك مائة ألفِ مقاتل من أهل العراق ، وكلهم يأخذ العَطاء ، مع مثلهم من أبنائهم ومواليهم ، سوى شيعتك من أهل البصرة وأهْلِ الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك بقية فى العهد ، ولا حَظًّا من القضية ، فلو كنت إذ فعلت ما فعلت ، وأعطاك ما أعطاك بينك وبينهُ من العهد والميثاق ، كنت كتبتَ عليك بذلك كتاباً ، وأشهدتَ عليه شهوداً من أهل المشرق والمغرب ، أنّ هذا الأمر لك من بعده ، كان الأمر علينا أيسر ، ولكنهُ أعطاك هذا ، فرضيت به من قوله ، ثم قال ، وزعم عَلَى رءوس الناس ما قد سمعت : إنى كنت شَرَطْتُ لقوم شروطاً ، ووعدتهم عِدَاتٍ ، ومنيّتهم أمانىّ ، إرادةَ إطفاء نار الحرب ، ومداراةً لهذه الفتنة ، إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفتنا ، فإن كل ما هنالك تحت قدمىّ هاتين ، ووالله ماعَنَى بذلك إلّا نَقْضَ ما بينك وبينهُ فأعِد الحرب جَذَعة[1] ، وأذن لى أُشْخَصْ إلى الكوفة ،

---

(١) هى فى الأصل خدعة ، وصوابها جذعة : أى فتية .

فأخرج عامله منها ، وأظهر فيها خلعه ، وَانبِذْ إِلَيْهِ[1] عَلَى سَوَاء ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » .

ثم سكت ، فتكلم كلّ من حضر مجلسه بمثل مقالته ، وكلهم يقول : ابعث سليمان ابن صرد وابعثنا معهُ ، ثم الحقنا إذا علمت أنا قد أشخصنا عامله ، وأظهرنا خلعه .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١١ — خطبة الحسن يردّ على مستنكري الصلح

فتكلم الحسن فحمد الله ثم قال :

« أما بعد فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، ومَن نعرفه بالنصيحة والاستقامة لنا ، وقد فهمتُ ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا ، وللدنيا أعمَلُ وأنصَبُ ، ما كان معاوية بأبأسَ مني وأشدّ شكيمةً ، ولكان رأيي غيرَ ما رأيتم ، لكني أشهد الله وإياكم أني لم أُرِد بما رأيتم إلا حَقْنَ دمائكم ، وإصلاحَ ذاتِ بينكم ، فاتقوا الله ، وارضَوا بقضاء الله ، وسلموا لأمر الله ، والزموا بيوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح برٌّ أو يُستراح من فاجر ، مع أن أبي كان يحدثني أن معاوية سَيَلِي الأمر ، فوالله لو سرنا إليه بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر[2] ، إن الله لامعقِّب لحكمه ، ولا رادَّ لقضائه ، وأما قولك يا مُذِلّ المؤمنين ، فوالله لأن تَذِلوا وتُعافَوا أحبُّ إليّ من أن تَعِزّوا وتُقْتَلوا ، فإن رَدَّ الله علينا حَقَّنا في عافية ، قَبِلنا وسألنا الله العَوْن عَلَى أمره ، وإن صرَفه عنا رضينا وسألنا الله أن يبارك في صرفِه عنا ، فليكن كل رجل منكم حِلْساً[3] من أحلاس بيته ،

(١) معناه إذا هادنت قوما ، فعلمت منهم النقض للعهد ، فلا توقع بهم سابقا إلى النقض ، حتى تعلمهم أنك نقضت العهد ، فتكونوا في علم النقض مستوين ، ثم أوقع بهم . (٢) يغلب .

(٣) الحلس : بساط البيت ، وفلان حلس من أحلاس البيت : للذي لايبرح البيت ، وفي الحديث : « في الفتنة كن حلسا من أحلاس بيتك حتى تأتيك يد خاطئة ، أو منية قاضية » أي لا تبرح .

ما دام معاوية حيًّا ، فإن يَهْلِكْ ونحن وأنتم أحياء ، سألنا الله العزيمة على رشدنا ، والمعونة على أمرنا ، وأن لا يَكِلنا إلى أنفسنا ، فَإِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١٢ — خطبة له فى عهد خلافته

ومن خطبه رضى الله عنه فى أيامه فى بعض مقاماته أنه قال :

« نحن حزب الله المفلحون ، وَعِتْرَةُ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون . وأهل بيته الطاهرون الطيِّبون ، وأحد الثَّقَلين[2] الذين خلّفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثانى كتاب الله ، فيه تفصيل كل شىء ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه ، والمعوَّل عليه فى كل شىء ، لا يُخْطِئنا تأويله ، بل نتيقن حقائقه ، فأطيعونا ، فإطاعتنا مفروضة ، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مَقرونةً[3] : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ) (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) ، وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان ، إنه لكم عدوٌّ مبين ، فتكونون كأوليائه الذين قال لهم : (لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي

---

(١) العترة : رهط الرجل وعشيرته الأدنون . (٢) الثقل : كل شىء نفيس مصون ، وفى الحديث « إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى » .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) .

أرَى مَالاَ تَرَوْنَ) فتَلْقَون الرماح أُزُرا[١] ، والسيوف جَزَرا[٢] ، وَالْعُمُدُ[٣] حَطًّا ، والسهام غرَضا ، ثم : (لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) . (مروج الذهب ٢ : ٥٣)

١٣ – خطبة أخرى له

ومن خطبةٍ رضى الله عنهُ :

« اعلموا أن الحلم زين ، والوقار مودة ، والصلة نعمة ، والإكثار صَلَف[٤] ، والعَجَلة سَفَه ، والسَّفَه ضعف ، والقلق وَرْطة ، ومجالسة أهل الدناءة شَين ، ومخالطة أهل الفسوق رِيبة » . (صبح الأعشى ١ : ٢١٥)

---

(١) الأزر : جمع إزار ، وهو الملحفة وكل ما واراك وسترك : أى فتكونون أجْربة الرماح تغيب فى أبدانكم وتستقر ، أو هو الأزر بفتح فسكون وهو الظهر : أى تركبكم الرماح وتعلوكم ، والمراد تطعنون وتضربون بها والأول أوجه . (٢) أى قطعا . (٣) عمد بفتحتين ، وعمد بضمتين : جمع عمود ، وهى من الآلات التى كانت تستعمل فى القتال . (٤) الصلف : التكلم بما يكرهه صاحبك والتمدح بما ليس عندك ، و مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا .

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن علىّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة ، وعتبة بن أبى سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، بحضرة معاوية

قال ابن أبى الحديد : روى الزُّبير بن بكار فى كتاب المفاخرات قال :

« اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص ، والوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيْط ، وعُتبة بن أبى سفيان ، والمغيرة بن شعبـــــة ، وقد كان بلغهم عن الحسن بن علىّ عليهِ السلام قوارصُ[1] ، وبلغهُ عنهم مثل ذلك ، فقالوا يا أمير المؤمنين : إن الحسن قد أحيا أباه وذِكْرَه ، وقال فَصُدِّق ، وأمر فأُطيع ، وخَفَقَت[2] له النعالُ ، وإن ذلك لَرَافِعُهُ إلى ماهو أعظم منهُ ، ولا يزال يَبْلُغنا عنهُ ما يسوءنا . قال معاوية : فما تريدون ؟ قالوا: ابعث إليهِ فليحضر لنَسُبَّهُ ونسبّ أباه ونعيِّره ونوبِّخهُ ، ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرِّره بذلك ، ولا يستطيع أن يغيِّر علينا شيئاً من ذلك . قال معاوية : إنى لا أرى ذلك ولا أفعله ، قالوا: عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لتَفْعَلَنَّ ، فقال : ويحكم لا تفعلوا ، فوالله ما رأيته قط جالساً عندى إلا خفت مقامه وَعَيْبَه لى ، قالوا ابعث إليهِ على كل حال . قال : إن بعثت إليهِ لأنصفنهّ منكم ، فقال عمرو بن العاص : أتخشى أن يأتى باطلهُ على حقنا ، أو يُرْبِى قوله على قولنا ؟ قال معاوية : أما إنى إن بعثت إليهِ لآمرنّه أن يتكلم بلسانه كُلِّه . قالوا : مره بذلك ، قال : أما إذا عصيتمونى و بعثتم إليهِ وأبيتم إلا ذاك ، فلا تَمَرَّضُوا[3] له

(١) القوارص من الكلام: التى تنغصك وتؤلمك .

(٢) الخفق : صوت النعل .

(٣) تمرض : ضعف فى أمره .

فى القول ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يَعيبهم العائب ، ولاَ يَلْصَق بهم العارُ ، ولكن اقذفوه بحَجَره ؛ تقولون له إن أباك قتل عثمان ، وَكَرِهَ خلافة الخلفاء من قبله ؛ فبعث إليه معاوية ، فجاءه رسوله . فقال : إن أمير المؤمنين يدعوك . قال : من عنده ؟ فسماهم . فقال الحسن عليه السلام مالهم ؟ خَرَّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون ، ثم قال : ياجارية ابغينى ثيابى ، اللهم إنى أعوذ بك من شرورهم ، وأدرأ[1] بك فى نحورهم ، وأستعين بك عليهم ، فاكفنيهم كيف شئت ، وأنى شئت ، بحَوْل منك وقوة ، ياأرحم الراحمين ، ثم قام ، فلما دخل على معاوية أعظمه وأكرمه ، وأجلسهُ إلى جانبه ، وقد ارتاد[2] القوم ، وخَطَرُوا[3] خطَران الفحول ، بغياً فى أنفسهم وعُلُوًّا ، ثم قال : ياأبا محمد ، إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوْنى . فقال الحسن عليه السلام : سبحان الله ! الدار دارك ، والإذن فيها إليك ؛ والله إن كنتَ أجبتهم إلى ماأرادوا وما فى أنفسهم إنى لأستحيى لك من الفُحْش ، وإن كانوا غلبوك على رأيك إنى لأستحيى لك من الضعف ، فأيَّهما تقِر وَأَيَّهُمَا تُنكر ؟ أما إنى لو علمت بمكانهم جئت معى بمثلهم من بنى عبدالمطلب ، ومالى أن أكون مستوحشاً منك أو منهم ؟ إن وليى الله وهو يتولى الصالحين ؛ فقال معاوية : ياهذا إنى كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملونى على ذلك مع كراهتى له ، وإن لك منهم النَّصَف[4] ومنى ، وإنما دعوناك لنقررك أن عثمان قُتِلَ مظلومًا ، وأن أباك قتله ، فاستمع منهم ثم أجبهم ، ولا تمنعْك وَحدتُك واجتماعهُم أن تتكلم بكلّ لسانك ، فتكلم عمرو بن العاص :

---

(١) أدفع . (٢) الارتياد : الذهاب والمجىء . (٣) خطر الرجل فى مشيته : رفع يديه ووضعها واهتز وتبختر ، وخطر بسيفه ورمحه : رفعه مرة ووضعه أخرى خطرانا (بالتحريك) وخطر الفحل بذنبه : ضرب به يمينا وشمالا . (٤) الإنصاف والعدل .

١٤ - مقال عمرو بن العاص

فحمد الله وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر علياً عليه السلام ، فلم يترك شيئا يَعيبه به إلا قاله ، وقال إنه شتم أبا بكر ، وكره خلافته ، وامتنع من بيعته ، ثم بايعه مُكْرَهًا ، وشَرِكَ فى دم عمر ، وقتل عثمان ظلما ، وادّعى من الخلافة ماليس له . ثم ذكر الفتنة يعيِّره بها ، وأضاف إليه مساوى ، وقال : إنكم يابنى عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك ، على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ماحرّم الله من الدماء ، وحرصِكم على الملك ، وإتيانكم مالا يَحِلّ ؛ ثم إنك ياحسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا لبّه ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك ، وتركك أحمق قريش ، يُسخَر منك ، ويُهزأ بك ، وذلك لسوء عمل أبيك ؛ وإنما دعوناك لنسُبَّكَ وأباك ؛ فأما أبوك فقد تفرد الله به ، وكفانا أمرَه ، وأما أنت فإنك فى أيدينا ، نختار فيك الخصالَ ، ولو قتلناك ما كان علينا إثمٌ من الله ، ولا عيبٌ من الناس ؛ فهل تستطيع أن تَرد علينا وتكذِّبنا ؟ فإن كنت ترى أنا كذَبنا فى شىء فارْدده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

١٥ – مقال الوليد بن عقبة بن أبى معيط

ثم تكلم الوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيْط فقال :

« يا بنى هاشم : إنكم كنتم أخوال عثمان ، فنعم الولدُ كان لكم ، فعَرَف حقكم ، وكنتم أصهاره ، فنعم الصِّهْرُ كان لكم يُكرمكم ، فكنتم أول من حسده ، فقتله أبوك ظلماً ، لا عذر له ولا حجة ، فكيف ترون الله طلب بدمِه ، وأنزلكم منزلتكم ، والله إن بنى أمية خير لِبَنى هاشم من بنى هاشم لبنى أمية ، وإن معاوية خير لك من نفسك » .

١٦ - مقال عتبة بن أبى سفيان

ثم تكلم عُتْبة بن أبى سفيان فقال :

« ياحَسَنُ : كان أبوك شرَّ قريش لقريش، لِسَفْكِهِ لدمائها ، وقطعِهِ لأرحامها ، طويلَ السيف واللسان ، يقتل الحى ويَعيب الميت، وإنك ممن قَتَل عثمان ونحن قاتلوك به . وأما رجاؤك الخلافة فلست فى زَندها[1] قادحا ، ولا فى ميزانها راجحا ، وإنكم يا بنى هاشم قتلتم عثمان ، وإن فى الحق أن نقتلك وأخاك به ، فأما أبوك فقد كفانا الله أمره ، وأقاد[2] منه ، وأما أنت فوالله ماعلينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عُدْوان » .

١٧ — مقال المغيرة بن شعبة

ثم تكلم المغيرة بن شعبة ، فشتم عليا وقال : والله ماأعيبه فى قضية يخون ، ولا فى حكم يميل ، ولكنه قتل عثمان ، ثم سكتوا .

١٨ — رد الحسن بن على عليهم

فتكلم الحسن بن علىّ عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليهِ ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أما بعد يامعاوية ، فما هؤلاء شتمونى ، ولكنك شتمتنى ، فُحْشاً أَلِفْتَهُ ، وسوء رأى عُرِفْتَ به ، وَخُلُقاً سيئاً ثَبَتَّ عليهِ ، وبغيا علينا ، عداوة منك لمحمد وأهله ، ولكن اسمع يامعاوية واسمعوا ، فَلَأقولن فيك وفيهم ما هو دون مافيكم ، أنشُدكم الله أيها الرهط ، أتعلمون أن الذى شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين[3] كلتيهما ، وأنت يامعاوية

(١) الزند : العود الذى يقدح به النار . (٢) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

(٣) كان صلى الله عليه وسلم يستقبل الكعبة وهو بمكة ، فلما هاجر إلى المدينة أمر أن يستقبل بيت المقدس تألفا اليهود ، فصلى إليه ستة أو سبعة عشر شهرا ثم حول .

بهما كافر، تراها ضلالة وتعبد اللاتَ والعُزّى(١) غَوَاية، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كلتيهما بَيْعَة الفتح(٢) و بيعة الرِّضوان(٣)، وأنت يامعاوية بإحداهما كافر، وبالأخرى ناكث، وأنشُدكم الله هل تعلمون أنه أوّل الناس إيمانًا، وأنك يا معاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم، تُسِرُّونَ الكفر وتُظهرون الإسلام، وتُستمالون بالأموال، وأنشدكم الله ألستم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر، وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه؟ ثم لقيكم يوم أُحُد ويوم الأحزاب ومعهُ راية رسول الله صلى الله عليه وآله، ومعك ومع أبيك راية الشرك، وفي كل ذلك يفتح الله له، ويُفْلِج(٤) حجته، وينصر دعوته، ويصدق حَدِيثَه، ورسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلها عنه رَاض، وعليك وعلى أبيك ساخط؛ وأنْشُدك الله يامعاوية أتذكر يوما جاء أبوك على جمل أحمر، وأنت تسوقه، وأخوك عُتبة هذا يقوده، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «اللهم العن الرَّاكب والقائد والسائق» أتنسى يامعاوية الشعر الذى كتبتَه إلى أبيك ـ لما هَمَّ أن يُسْلِم ـ تنهاه عن ذلك:

يَاصَخْرُ لاَ تُسْلِمَنْ يَوْمًا فَتَفْضَحَنَا   بَعْدَ الذِينَ بِبَدْرٍ أَصْبَحُوا مِزَقَا(٥)

خَالِى وَعَمِّى وَعَمُّ الأُمِّ ثَالثهم   وَحَنْظَلَ الخير قد أهدى لنا الأَرَقَا(٦)

---

(١) اللات: صنم ثقيف بالطائف، والعزى: أكبر صنم لقريش، وكان ببطن نخلة.

(٢) روى الطبرى فى تاريخه ـ بعد أن أورد خبر فتحه صلى الله عليه وسلم مكة سنة ثمان الهجرة، وخطبته حين وقف على باب الكعبة ـ قال: «ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله على الإسلام فجلس لهم ـ فيما بلغنى ـ على الصفا، وعمر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجلسه يأخذ على الناس، فبايع رسول الله على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله من الناس على الإسلام، فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء، واجتمع إليه نساء من نساء قريش فيهن هند بنت عتبة أم معاوية» . . . إلى آخر القصة ـ تاريخ الطبرى ٣ : ١٢١ ـ وكان معاوية ممن أسلم بعد الفتح.

(٣) بيعة الرضوان كانت سنة ست هجرية فى غزوة الحديبية حين دعا الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين للبيعة على القتال فبايعوه على الموت تحت شجرة هناك سميت بعد بشجرة الرضوان.

(٤) ينصر.

(٥) المزق: جمع مزقة بالكسر، وهى القطعة من الثوب وغيره.

(٦) أى لشدة الحزن والأسى.

لَا تَحْسَبَنَّ إِلَى أَمْرٍ تُكَلِّفُنَا والرَّاقِصَاتِ بِهِ فِى مَكَّةَ الْخَرَقَا[1]
فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ قَوْلِ الْعُدَاةِ «لَقَدْ حَادَ ابْنُ حَرْبٍ عَنِ الْعُزَّى إِذَا فَرِقَا» [2]

والله لَمَا أخفَيْتُ من أمرك ، أكبر مما أبديتُ ؛ وأنشدكم الله أيها الرَّهط أتعلمون أن عليًّا حرَّم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأنزل فيه : (يٰأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ) . وأن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أكابر أصحابه إلى بنى قُرَيْظَة ، فنزلوا من حصنهم فهزموا ، فبعث عليًّا بالرَّاية ؛ فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل فى خيبَرَ مِثْلَهَا ، ثم قال: يامعاوية أظنك لا تعلم أنى أعلم مادعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما أراد أن يكتب كتاباً إلى بنى جَذِيمة[3] فبعث إليك ونَهَمك[4] إلى أن تموت ، وأنتم أيها الرهط .

---

(١) الخرق محركة: ألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور ، والحمق . (٢) فرق : فزع .

(٣) فى الأصل «خزيمة» ، وهو تحريف ، وهم بنى جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، وقد بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعيا ، ولم يبعثه مقاتلا ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم — وكان بنو جذيمة قد أصابوا فى الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف ، والفاكه بن المغيرة عم خالد ، وكانا أقبلا تاجرين من اليمن حتى إذا نزلا بهم قتلوهما وأخذوا أموالهما — فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ثم قال: اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم دعا على بن أبى طالب ، فقال: ياعلى اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ، فخرج على حتى جاءهم ومعه مال قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم به فودى لهم الدماء ، وما أصيب من الأموال ، حتى إنه ليدى ميلغة الكلب ، (والميلغة بالكسر : الإناء يلغ فيه الكلب) حتى إذا لم يبق شىء من دم أو مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال . قال لهم : هل بقى لكم دم أو مال لم يود إليكم ؟ قالوا لا ، قال : فإنى أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال أصبت وأحسنت ، ثم استقبل القبلة قائما شاهرا يديه ، وهو يقول : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد ابن الوليد ، ثلاث مرات . (٤) الذى فى كتب اللغة : «نهمه : زجره ، وحذفه بالحصى وغيره» ومراده هنا أنه دعا عليه بالنهم وعدم الشبع ، وقد تقدم الكلام عليه .

نشدتكم الله ألا تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان فى سبعة مواطن لاتستطيعون رَدَّها ؟ أولها يوم لقى رسول الله صلى الله عليه وآله خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو ثَقِيفاً إلى الدين ؛ فوقع به ، وسبه وسفهه وشتمه وكذّبه وتوعده . وهمّ أن يبطِشَ به ، فلعنه الله ورسوله وصرف عنه . والثانية يوم العِيرِ[١] إذ عَرَضَ لها رسول الله صلى الله عليه وآله وهى جائية من الشأم . فطردها أبو سفيان وَسَاحَلَ[٢] بها ، فلم يظفر المسلمون بها ، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه ، فكانت وقعة بدر لأجلها . والثالثة يوم أحُد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله صلى الله عليه وآله فى أعلاه ، وهو ينادى اُعْلُ هُبَلُ[٣] مرارا فلعنهُ رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مرات ولعنه المسلمون . والرابعة يوم جاء بالأحزاب وَغَطفَان واليهود ، فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وابتهل . والخامسة يوم جاء أبو سفيان فى قريش ، فصدوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد والهَدْىَ معكوفا أن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ[٤] ذلك يوم الحُدَيبية . فلعن رسول الله صلى الله عليه وآله أبا سفيان ، ولعن القادة والأتباع ، وقال ملعونون كلهم وليس فيهم من يؤمن . فقيل يارسول الله أفما يُرْجَى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة ؟ فقال: لا تصيب اللعنة أحدا من الأتباع . وأما القادة فلا يُفلح منهم أحد[٥] . والسادسة يوم الجمل الأحمر . والسابعة يوم وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله فى العَقَبَة ليستنفروا ناقته وكانوا اثنى عشر رجلا منهم أبو سفيان . فهذا لك يامعاوية .

وأما أنت يابن العاص ، فإن أمرك مشترك ، وضعتك أمك مجهولا من عَهَرٍ[٦]

---

(١) العير : الإبل تحمل الميرة : (٢) أتى بها ساحل البحر . (٣) أى اعل وانتصر ياهبل : وهو صنم كان فى الكعبة . (٤) والهدى معطوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والهدى مايهدى إلى مكة ، ومعكوفا أى محبوسا وهو حال . أن يبلغ محله أى مكانه الذى ينحر فيه عادة وهو الحرم .

(٥) لا يتعارض مع هذا أن أبا سفيان أفلح بعد وأسلم ، إذا النفى فيه بلا ، وليس النفى بلن .

(٦) فجور : ذكروا أن النابغة أم عمرو بن العاص كانت أمة لرجل من عنزة (بالتحريك) فسبيت : فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمى بمكة ، فكانت بغيا ، ثم أعتقها ، فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب ، =

وسِفَاح فتحا كم فيك أر بعة من قر يش. فغلب عليك جزّارها . ألأمهم حسبا، وأخبثهم مَنْصِباً . ثم قام أبوك فقال : أنا شانئ محمد الأبتر[1] . فأنزل الله فيه ما أنزل ، وقاتلت رسول الله صلى الله عليه وآله فى جميع المشاهد . وهجوته وآذيته بمكة ، وكِدْته كيدك كله . وكنت من أشد الناس له تكذيبا وعداوة . ثم خرجت تريد النجاشيّ مع أصحاب السفينة لتأتى بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة[2] . فلما أخطأك ما رجوت ، ورجعك الله خائبا وأ كذبك واشيا ، جعلت حسدك على صاحبك عمارة بن الوليد ، فوشيت به إلى النجاشى حسدا لما ارتكب من حليلته [3] ، ففضحك الله وفضح صاحبك . فأنت عدوّ بنى هاشم

= وأمية بن خلف الجمحى ، وهشام بن المغيرة المخزومى ، وأبو سفيان بن حرب ، والعاص بن وائل السهمى فى طهر واحد ، فولدت عمرا ، فادعاه كلهم ، فحكمت أمه فيه ، فقالت هو من العاص بن وائل ، وذاك لأن العاص كان ينفق عليها كثيرا ، قالوا : وكان أشبه بأبى سفيان ، وفى ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب فى عمرو بن العاص :

أبوك أبو سفيان لاشك قد بدت لنا فيك منــه بينات الشمائل

ويقال إنه جعل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرا وهو على المنبر : من أمه ؟ فسأله فقال: أمى سلمى بنت حرملة تلقب بالنابغة من بنى عنزة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت فأنجبت ، فإن كان جعل لك شىء فخذه.
(ورأيى فيما روى من نسب عمرو بن العاص أن الإسلام يجب ماقبله) .

(١) الشانئ المبغض ويسهل : وذلك أن العاص بن وائل سمى النبى صلى الله عليه وسلم أبتر عند موت ابنه القاسم ، فنزل فيه « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » أى المنقطع من كل خير ، الذى لا يفوز بالذكر الحسن بعد موته ، وأما أنت يامحمد فسيبقى حسن ذكرك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة فهو الأبتر لاأنت .

(٢) يشير إلى هجرة الحبشة الثانية ، وقد هاجر إليها من المسلمين نحو ثلاثة وثمانين رجلا وثمان عشرة امرأة ، وكان من الرجال جعفر بن أبى طالب ، ولما رأت قريش ذلك أرسلت فى أثرهم عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد ، بهدايا إلى النجاشى وبطارقته ، ليسلم المسلمين، فرجعا خائبين ، وأبى النجاشى أن يخفر ذمته.

(٣) وذلك أن عمرا وعمارة ركبا البحر إلى الحبشة كما قدمنا — وكان عمارة جميلا وسيما تهواه النساء ، وكان مع عمرو بن العاص امرأته — فلما صاروا فى البحر ليالى أصابا من خمر معهما ، فانتشى عمارة فقال لامرأة عمرو قبليني ، فقال لها عمرو قبلى ابن عمك ، فقبلته ، فهويها عمارة ، وجعل يراودها عن نفسها، =

فى الجاهلية والإسلام . ثم إنك تعلم ، وكل هؤلاء الرَّهْطِ يعلمون أنك هجوت رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتا من الشعر . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم إنى لا أقول الشعر ولا ينبغى لى . اللهم العنه بكل حرْفٍ ألفَ لعنة . فعليك إذن من الله مالا يُحصَى من اللعن ، وأما ماذكرت من أمر عثمان فأنت سَعَرت[٢] عليه الدنيا نارا ، ثم لحِقْتَ بِفِلَسْطِينَ ، فلما أتاك قتلُه قلت : « أنا أبو عبد الله إذا نــكأْتُ قَرْحةً أدميتها » ثم حبست نفســك إلى معاوية ، وبعت دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بغض ، ولا نعاتبك على ود ، وبالله مانصرت عثمان حَيًّا ولا غضِبتَ له مقتولا ، ويحك يابن العاص ! ألست القائل فى بنى هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشىّ :

تقول ابنتى : أين هذا الرحيل ؟ وما السَّيرُ منى بِمُسْتَنْكَرِ

= فامتنعت منه ، ثم إن عمرا جلس على منجاف السفينة يبول « منجاف السفينة هو سكانها الذى تعدل به » فدفعه عمارة فى البحر ، فلما وقع عمرو سبح حتى أخذ بمنجاف السفينة ، وضغن عمرو عليه فى نفسه ، وعلم أنه كان أراد قتله ومضيا حتى نزلا الحبشة ، فلما اطمأنا بها لم يلبث عمارة أن دب لامرأة النجاشى فأدخلته ، فاختلف إليها ، وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبر عمرا بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لا أصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك ، فلما أكثر عليه عمارة بما كان يخبره ، ورأى عمرو من حاله وهيئته ومبيته عندها حتى يأتى إليه مع السحر ماعرف به ذلك ، قال له إن كنت صادقا فقل لها فلتدهنك بدهن النجاشى الذى لا يدهن به غيره ، فإنى أعرفه وأتى بشىء منه حتى أصدقك ، قال : أفعل ، فسألها ذلك فدهنته منه وأعطته شيئا فى قارورة ، فقال عمرو أشهد أنك قد صدقت لقد أصبت شيئا ماأصاب أحد من العرب مثله قط ، امرأة الملك ! ماسمعنا بمثل هذا ، ثم سكت عنه حتى اطمأن ودخل على النجاشى فأعلمه شأن عمارة وقدم إليه الدهن ، فلما أثبت أمره دعا بعمارة ، ودعا نسوة أخر فجردوه من ثيابه ثم أمرهن ينفخن فى إحليله ثم خلى سبيله فخرج هاربا .

(١) سعر النار : كنع أوقدها . وكان عمرو أول خلافة عثمان واليا على مصر — منذ خلافة عمر ابن الخطاب — ثم إن عثمان ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح — وهو أخو عثمان من الرضاع — خراج مصر ، وولى عمرو بن العاص على الجند فلم يتفقا ، فجمع لعبد الله الخراج والجند وعزل عمرا ، فلما قدم عمرو المدينة جعل يطعن على عثمان ويؤلب عليــه ، وخرج عمرو بعدئذ حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين ، فكان يقول : أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها ، والله إن كنت لألقى الراعى فأحرضه عليه (نكأ القرحة : قشرها قبل أن تبرأ فنديت) .

فقلت : ذَرِينى فإنى امرؤٌ أُرِيد النجاشىَّ فى جعفر
لِأُكْوِيَهُ عنـده كِيَّةً أُقيم بها نَخْوة الأَصْعَرِ (١)
وَشَانِئُ أحمدَ مِنْ بينهم وَأَقْوَلُهُمْ فيـهِ بالمُنْـكَرِ
وأُجْرِى إلى عُتْبَةٍ جاهدا ولو كان كالذهب الأحمرِ (٢)
ولا أنثنى عن بنى هاشم وما اسْطَعْتُ فى الغيب والمَحْضَرِ
فإن قَبِلَ العَتْبَ منى له وإلا لَوَيْتُ له مِشْفَرِى (٣)

فهذا جوابك . هل سمعته ؟

وأما أنت ياوليد ، فوالله ماألومك على بغض علىٍّ ، وقد جلدك ثمانين فى الخمر (٤) ، وقتل أباك بين يدى رسول الله صلى الله عليه وآله صَبْرًا (٥) ، وأنت الذى سماه الله الفاسق

---

(١) الصعر محركة : الميل فى الخد ، صعر : كفرح فهو أصعر ، وصعر خده تصعيرا : أماله من الكبر . (٢) كان من بين المهاجرين من المسلمين إلى الحبشة عتبة بن غزوان ، وهو من بنى نوفل بن عبد مناف ، وعتبة بن مسعود (وهو أخو عبد الله بن مسعود) من هذيل من حلفائهم ، وأظنه يعنى عتبة بن غزوان ، وقوله : ولو كان كالذهب الأحمر : أى فى صعوبة الوصول إليه .

(٣) المشفر للبعير : كالشفة للإنسان ، وقد يستعمل فى الناس . (٤) وذلك أن عثمان رضى الله عنه بعد أن عزل سعد بن أبى وقاص من إمارة الكوفة ، ولى عليها الوليد بن عقبة — وهو أخوه لأمه — ورووا أنه شرب الخمر بالكوفة وسكر حتى دخل عليه ، وأخذ خاتمه من أصبعه وهو لا يعلم وأنه تكلم فى الصلاة والتفت إلى من يقتدون به فيها وهو سكران وقال لهم : أزيدكم ؟ قالوا لا قد قضينا صلواتنا ، وشهد الشهود عليه بذلك عند عثمان فى وجهه فأدخله بيتا وأراد أن يحده فجعل إذا بعث إليه رجلا من قريش ليضربه ناشده الوليد ألا يقطع رحمه ، فلما رأى على ذلك أخذ السوط ودخل عليه فجلده به .

(٥) القتل صبرا : أن يحبس الرجل ويرى حتى يموت ، وكان عقبة بن أبى معيط شديد الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم عظيم الاستهزاء به . صنع مرة وليمة ودعا إليها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : والله لا آكل من طعامك حتى تؤمن بالله ، فتشهد ، فبلغ ذلك أبى ابن خلف الجمحى ، وكان صديقا له ، فقال ماشىء بلغنى عنك ؟ قال لا شىء . دخل منزلى رجل شريف ، فأبى أن يأكل طعامى حتى أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له ، قال أبى : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأ عنقه ، وتبزق فى وجهه ، وتلطم عينه ، فلما رأى عقبة رسول الله —

وسمى عليًّا المؤمن ، حيث تفاخرتما ، فقلتَ له اسكت ياعلىّ ، فأنا أشجع منك جَنَانًا ، وأطول منك لسانًا . فقال لك علىّ اسكت ياوليد ، فأنا مؤمن وأنت فاسق . فأنزل الله تعالى فى مُوافقة قوله : (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ) ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضا (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا[1]) ويحك يا وليد ؟ مهما نسيت فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه :

أنزل الله (والكتابُ عزيزٌ) فى علىّ وفى الوليد قُرَانا[2]
فَتَبَوَّا الوليد إذ ذاك فِسْقًا وعلىّ مُبَوَّأً إيمانا[3]
ليس من كان مؤمناً (عَمْرَكَ اللهَ) كمن كان فاسقا خوّانا
سوف يُدْعَى الوليد بعد قليل وعَلِىٌّ إلى الحساب عِيَانا
فعلىٌّ يُجْزَى بذاك جنانا ووليد يجزى بذاك هَوانا
رب جَدٍّ لعقبةَ بن أبان لابس فى بلادنا تُبَّانا[4]

— صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك ، فأنزل الله فيه (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصلى فى حجر الكعبة فأقبل عقبة فوضع ثوبه فى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبوبكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن الرسول ، وقال : (أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ) فلما كانت غزوة بدر كان عقبة من أسراها وقد قتله عليه الصلاة والسلام وهو راجع .

(١) وذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام كان قد بعث الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق لأخذ الصدقات — وكان بينه وبينهم ترة فى الجاهلية — فلما سمعوا به استقبلوه فحسبهم مقاتليه فرجع ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة ، فهم بقتالهم ، فأتوه منكرين ماقاله عنهم ، فنزلت الآية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) . (٢) مسهل من « قرآنا » . (٣) فتبوا : مسهل من « فتبوأ » .

(٤) أبان : هو والد أبيه عقبة ، فهو الوليد بن عقبة بن أبى معيط أبان بن أبى عمرو ذكوان بن أمية ابن عبد شمس ، والتبان : سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط يكون للملاحين .

وما أنت وقريش ! ، إنما أنت عِلج من أهل صَفُّوريّة[١] ، وأقسم بالله لأنت أكبر في الميلاد وأسن ممن تدعى إليه .

وأما أنت ياعتبة ، فوالله ما أنت بحَصِيفٍ[٢] فأجيبَك ، ولا عاقلٍ فأحاورَك وأعاتبك ، وما عندك خيرٌ يرجى ، ولا شرٌّ يُتقَى ، وما عقلك وعقل أَمَتك إلا سواء ، وما يضر عليًا لو سببته على رءوس الأشهاد ؟ وأما وعيدك إياى بالقتل ، فهلا قتلت اللِّحيانيّ إذ وجدته على فراشك ؟ أما تستحيى من قول نصر بن حجاج فيك :

يا لَلرِّجال وحادثِ الأزمان ... وَلِسُبَّةٍ تُخْزِى أبَا سُفْيَانِ[٣]

نُبِّئْتُ عُتْبةَ خانه فى عِرْسِهِ ... جِنْسٌ لَئيمُ الأصل من لِحْيَانِ[٤]

وبعد هذا ما أربأ بنفسى عن ذكره لفحشه ، فكيف يخاف أحدٌ سيفَك ؟ ولم تقتل فاضحَك . وكيف ألومك عَلَى بغض علىّ ، وقد قتلَ خالك الوليدَ مبارزةً يوم بدر ، وشَرِكَ حمزة فى قتل جدك عتبة ، وأوحدك من أخيك حنظلةَ فى مقامٍ واحد .

وأما أنت يا مغيرة ، فلم تكن بخليق أن تقع فى هذا وشِبهه ، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة : « استمسكى فإنى طائرةٌ عنك » فقالت النخلة : وهل علمتُ بكِ واقعةً عَلَىّ ، فأعلمَ بكِ طائرةً عنى ؟ والله مانشعر بعداوتك إيانا ، ولا اغتممنا إذ علِمنا بها ولا يشُق علينا كلامك ، وإن حد الله فى الزنا لثابت عليك ولقد درأ عمر عنك حقًا ، اللهُ سائله عنه . ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله : هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال : لابأس بذلك يامغيرة مالم يَنْوِ الزنا ، لعلمه بأنك زان . وأما

---

(١) صفورية : بلد بالأردن (بضم الهمزة والدال وتشديد النون) ، والعلج : الرجل من كفار العجم . وذلك أن جده ذكوان كان يلقب بالصفورى . ذكر جماعة من النسابين أن ذكوان هذا كان مولى لأمية بن عبد شمس فتبناه وكناه أبا عمرو ، فبنوه موال وليسوا من بنى أمية لصلبه (شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص١٥٤).

(٢) حصف : ككرم استحكم عقله فهو حصيف . (٣) السبة : العار . (٤) عرس الرجل : امرأته : وبنو لحيان : حى من هذيل ، وهو لحيان بن هذيل بن مدركة .

نخركمُ علينا بالإمارة ، فإن الله تعالى يقول : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا[1] مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) .

ثم قام الحسن فنفض ثوبه فانصرف ؛ فتعلق عمرو بن العاص بثوبه وقال : ياأمير المؤمنين قد شهدتَ قوله فِيَّ وقذفَه أمى بالزنا ، وأنا مطالب له بحد القذف .

فقال معاوية : خلِّ عنه ، لاجزاك الله خيرا ، فتركه ، فقال معاوية : قد أنبأتكم أنه ممن لا تُطاق عارِضته ، ونهيتكم أن تسبُّوه فعصيتمونى ، والله ماقام حتى أظلم علىَّ البيت ، قوموا عنى ؟ فلقد فضحكم الله وأخزاكم بترككم الحزم ، وعُدولِكم عن رأى الناصح المشفق ، والله المستعان . (شرح ابن أبى الحديد م ٢ ص ١٠١)

١٩ — رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن

لما مات الحسن بن علىّ رضى الله عنهما ، أدخله قبرَه الُحسَيْنُ ومحمدُ بن الحنفيَّة[2] وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، ثم وقف محمد على قبره ، وقد اغرَوْرقت عيناه ، وقال :

« رحمك الله أبا محمد فلئن عزّت حياتك لقد هدَّتْ وفاتُك ، ولنِعْمَ الروحُ رُوحٌ تضمّنهُ بدنك ، ولنعم الجسدُ جسد تضمَّنه كَفَنُكَ ، ولنعم الكَفَنُ كَفَنٌ تضمنه لحدُك ، وكيف لا تكون كذلك ، وأنت سليل الهدى ، وخامس أصحاب الكِساء[3] ؛ وَخَلَفُ

---

(١) أى كثرنا ، أمره : كنصره ، وآمره : كثره ، (وفى قراءة : آمرنا) أو المعنى أمرناهم بالطاعة ففسقوا وعصوا ، وقد يكون من الإمارة أى جعلناهم أمراء . (٢) هو محمد بن على بن أبى طالب : والحنفية أمه ، وهى امرأة من بنى حنيفة بن لجيم وتسمى خولة بنت جعفر ، وتوفى سنة ٨١ ، وقيل سنة ٨٣ ، وقيل سنة ٧٢ ، وقيل سنة ٧٣ . (٣) الكساء : هو كساء آل محمد صلى الله عليه وسلم اللى يضافون إليه ، فيقال : « آل الكساء » وهم النبى عليه الصلاة والسلام ، وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين رضى الله عنهم ، قال ديك الجن :

والخمسة الغر أصحاب الكساء معا ... خير البرية من عجم ومن عرب

أهل التقوى ، وجدُّك النبي المصطفى ، وأبوك عليّ المرتضى ، وأمك فاطمةُ الزَّهراء ،

= وقال أبو عثمان الخالدى :

أعاذل إن كساء التـقى كسانيه حبى لأهل الكساء

ومن قصة هذا الكساء ماروت الرواة من أن وفدا من نصارى نجران قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم فكان ماجرى بينهم وبينه أن قالوا : يامحمد لم تعيب عيسى وتسميه عبدا ؟ فقال : أجل عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم ، قالوا : فأرنا مثله ، يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين كهيئة الطير ، وبايعنا على أنه ابن الله ونحن نبايعك على أنك رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن يكون لله ولد أو شريك ، فما زالوا يحاجونه ويلاحونه حتى أنزل الله : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ أى فى عيسى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ فقال لهم : إن الله أمرنى إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم — والمباهلة الملاعنة — فقالوا ياأبا القاسم : بل نرجع فننظر فى أمرنا ثم نأتيك ، فلما رجعوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم « وهو أحد رؤسائهم . قال ياقوت فى معجمه : ووفد على النبى صلى الله عليه وسلم وفد نجران وفيهم السيد واسمه وهب ، والعاقب واسمه عبد المسيح ، والأسقف وهو أبو حارثة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مباهلتهم فامتنعوا . . . الخ » ياعبد المسيح ماترى ؟ فقال « والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمدا نبى مرسل ، ولقد جاءكم بالكلام الحق فى أمر صاحبكم « أى عيسى » والله ماباهل قوم نبيا قط ، فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لكان الاستئصال ، فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود « والمرط بالكسر كساء من صوف أوخز » وقد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلى رضى الله عنه خلفها ، وهو يقول « إذا دعوت فأمنوا » فقال أسقف نجران : « يامعشر النصارى إنى لارى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله لها ، فلا تباهلوا فتهلكوا ، ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة » ثم قالوا . يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نقرك على دينك » فقال عليه الصلاة والسلام : « فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا ، يكن لكم ماللمسلمين وعليكم ماعلى المسلمين » فأبوا ، فقال : فإنى أنا جزكم القتال ، فقالوا : مالنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصالحك على أن لاتغزونا ولا تردنا عن ديننا ، على أن نؤدى إليك فى كل عام ألفى حلة ، ألفا فى صفر وألفا فى رجب ، وثلاثين درعا عادية من حديد ، فصالحهم على ذلك ، وقال : « والذى نفسى بيده ، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادى نارا ، ولاستأصل الله نجران وأهله ، حتى الطير على رءوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا ، وروى =

وعمك جعفر[1] الطيار فى جنةِ المأوى ، وغذَّتك أكُفُّ الحق ، ورُبِّيت فى حِجْرِ الإسلام ، ورضعت ثدى الإيمان ، فطِبْتَ حيا وميتاً ، فلئن كانت الأنفس غيرَ طيبةٍ لفراقك ، إنها غير شاكّةٍ أن قد خيرَ لك[2] ، وإنك وأخاك لسيدا شباب أهلِ الجنة ، فعليك أبا محمد منا السلام » .

(زهر الآداب ١ : ٦٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٥١ ، والعقد الفريد ٢ : ٧)

= أنه عليه الصلاة والسلام لما خرج فى المرط الأسود جاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم على رضى الله عنهم ، ثم قال : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) فمن ذلك الوقت سمى الخمسة أصحاب الكساء (انظر كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى ص ٤٨٣ وتفسير الفخر الرازى مفاتيح الغيب ٢ : ٦٩٩) .

(١) هو جعفر بن أبى طالب ، وقد استشهد فى غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة ، وكان يقول حين أخذ الراية من زيد بن حارثة الذى استشهد قبله فى هذه الغزوة :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وباردا شرابها

ولقب بالطيار لما روى عن عكرمة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « دخلت الجنة البارحة ، فرأيت جعفرا يطير مع الملائكة وجناحاه مضرجان بالدم » — راجع الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام ٢ : ٢٥٨ — .

(٢) خار الله لك فى الأمر : جعل لك فيه الخير .

مقتل الحسين بن على

رضى الله عنه

تأبيه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة

لما وَلِى الخلافة يزيدُ بن معاوية (فى هلال رجب سنة ٦٠هـ) كتب إلى أمير المدينة الوليد بن عُتْبة بن أبى سُفيان أن يأخذ الحسين، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رُخْصة[1]، فبعث الوليد إلى الحسين رضى الله عنه ونَعَى له معاوية ودعاه إلى البيعة، فقال الحسين: «إن مثلى لا يعطى بيعته سراً، ولا أراك تجتزئ بها منى سراً، دون أن تُظهِرها على رءوس الناس علَانيةً، فإذا خرجتَ إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس، فكان أمراً واحداً» فقال له الوليد ـ وكان يحب العافية ـ «فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس».

فلما كان من الغد بعث الرجال إلى الحسين عند المساء، فقال: «أصْبِحُوا ثم ترون ونرى» فكفوا عنه تلك الليلة ولم يُلِحُّوا عليه، فخرج الحسين من تحت ليلته (ليومين بقيامن رجب سنة ٦٠هـ) ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه وجُلُّ أهل بيته إلا محمد بن الحنفية فإنه قال له:

---

(١) الرخصة: التسهيل.

٢٠ — نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما

« يا أخى : أنت أحبُّ الناس إلىّ ، وأعزُّهم علىّ ، ولست أدَّخر النصيحة لأحد من الخلق أحقّ بها منك، تنحَّ بِتَبَعَتِكَ[1] عن يزيد بن معاوية ، وعن الأمصار ما استطعت، ثم ابعث رُسُلَكَ إلى الناس فادْعُهُم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك حَمِدْتَ الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم يَنْقُصِ الله بذلك دينَك ولا عقلك،ولا يُذْهِبُ بِهِ مروءتك ولا فضلك ، إنى أخاف أن تدخلَ مصرا من هذه الأمصار ، وتأتى جماعة من الناس ، فيختلفوا بينهم ، فمنهم طائفة معك ، وأخرى عليك ، فيقتتلوا ، فتكون لأوّل الأسِنَّة ، فإذا خيرُ هذه الأمة كلها نفساً وأبا وأمّا أضيعُها دَمًا، وأذلُّها أهلاً » .

قال له الحسين : « فإنى ذاهب يا أخى » . قال : « فانزل مكة ، فإن اطمأنَّتْ بك الدار فسبيلٌ ذلك ، وإن نَبَتْ[2] بك لَحِقْتَ بالرمال ، وشَعَفِ[3] الجبال ، وخرجت من بلد إلى بلد ، حتى تنظر إلامَ يصير أمر الناس، وتعرف عند ذلك الرأى، فإنك أصْوَبُ ما يكون رأيا ، وأحزَمُهُ عملا ، حتى تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشْكَلَ منها حين تستدبرها استدباراً » .

قال : « يا أخى قد نصحت فأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً مُوَفَّقاً » .

وسار إلى مكة ، فأتاه أهل الكوفة ورسلهم ، إنا قد حَبَسْنَا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضُر الجمعة مع الوالى فاقْدَم علينا[4] — وكان النعمان بن بشير الأنصارى على الكوفة —

---

(١) تبعة جمع تابع . (٢) ضاقت . (٣) الشعف : جمع شعفة محركة ، وهى رأس الجبل .

(٤) اجتمعت الشيعة بالكوفة فى منزل سليمان بن صرد ، فذكروا هلاك معاوية فحمدوا الله عليه ، فقال سليمان : « إن معاوية قد هلك ، وإن حسينا قد تقبض على القوم ببيعته ، وقد خرج إلى مكة ، وأنتم شيعته وشيعة أبيه ، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه و وإن خفتم الوهل (بالتحريك =

بعثه مسلم بن عقيل إلى الكوفة

فبعث الحسين إلى ابن عمه مسلم بن عَقِيل ، فقال له :

« سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلىّ ، فإن كان حقًا خرجنا إليهم ، فخرج مسلم إلى الكوفة ، ونزل دار المختار بن أبى عُبَيد ، وأقبلت الشيعة تختلف إليه ، فقرأ عليهم كتاب الحسين فأخذوا يبكون .

= الضعف والفزع والفشل) فلا تغزوا الرجل من نفسه» قالوا« لا ، بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه » قال: فاكتبوا إليه ، فكتبوا إليه: بسم الله الرحمن الرحيم ، لحسين بن على من سليمان بن صرد ، والمسيب بن نجبة ، ورفاعة ابن شداد ، وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة ، سلام عليك ، فإنا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد الذى انتزى (وثب) على هذه الأمة فابتزها أمرها ، وغصبها فيئها ، وتأمر عليها بغير رضا منها ، ثم قتل خيارها ، واستبق شرارها ، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها ، فبعدا له كما بعدت ثمود ، إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ، والنعمان بن بشير فى قصر الإمارة ، لسنا نجتمع معه فى جمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه ، حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك » وكتبوا إليه أيضا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لحسين بن على من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فحيهلا (أى أقبل) فإن الناس ينتظرونك ، ولا رأى لهم فى غيرك ، فالعجل العجل والسلام عليك » وكتبوا : « أما بعد : فقد اخضر الجناب ، وأينعت الثمار ، وطمت الجمام ، (الجمام: بالكسر جمع جم بالفتح ، وهو معظم الماء وطمى الماء : علا ، وطم : غمر) فإذا شئت فاقدم على جند لك مجند ، والسلام عليك » فكتب إليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من حسين بن على إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فإن هانئا وسعيدا (وهما هانئ بن هانئ وسعيد بن عبد الله) قدما على بكتبكم ، وكانا آخر من قدم على من رسلكم ، وقد فهمت كل الذى اقتصصتم وذكرتم ، ومقالة جلكم إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق ، وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى ، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إلى أنه قد أجمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجا منكم على مثل ماقدمت على به رسلكم وقرأت فى كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله ، فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله والسلام » .

٢١ — خطبة عابس بن أبى شبيب الشاكرى

فقام عابس بن أبى شَبيب الشاكرى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإنى لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم مافى أنفسهم ، وما أغُرُّكَ منهم ، والله أحَدِّثك عما أنا مُوَطِّنٌ نفسى عليه ، والله لأجيبَنَّكُمْ إذا دعوتم ، ولأقاتِلَنَّ معكم عدوَّكم ، ولأضربن بسيفى دونكم حتى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلا ما عند الله .

فقام حبيب بن مُظاهِر الفَقْعَسِىّ فقال :

« رحمك الله قد قضيت ما فى نفسك بِوَاجِزٍ من قولك » ثم قال : « وأنا والله الذى لا إله إلا هو على مثل ما هذا عليه » وقال غيرهما مثل قولهما .

فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فخرج فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

٢٢ — خطبة النعمان بن بشير

« أما بعد ، فاتقوا الله عبادَ الله ، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفُرْقة ، فإن فيهما يَهْلِكُ الرجال ، وتُسْفَك الدماء ، وتُغْصَبُ الأموال — وكان حليما ناسكا يحب العافية — قال : إنى لا أقاتل من لم يقاتلنى ، ولا أثِبُ على من لا يَثِبُ عَلَىَّ ، ولا أشاتمكم ، ولا أتحرَّشُ بكم ، ولا آخذ بالقِرْفة[1] ولا الظِّنَّةِ ولا التُّهَمَةِ ، ولكنكم ، إن أبديتم صَفْحَتَكم[2] لى وَنَكَثْتُمْ بيعتكم ، وخالفتم إمامكم ، فوالله الذى لا إله غيرُه لأضربنكم بسيفى ما ثَبَتَ قائمُهُ فى يدى ولو لم يكن لى منكم ناصر ، أما إنى أرجو أن يكون مَنْ يَعْرِفُ الحقَّ منكم أكثرَ ممن يُرْديه الباطلُ » .

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحَضْرَمى حليف بنى أمية ، فقال :

---

(١) القرفة : التهمة ، وقرفه بالشىء : اتهمه . (٢) أى جاهرتمونى بالعداوة .

« إنه لايُصْلِح ما ترى إلا الغَشْم[1] ، إن هذا الذى أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأى المُسْتَضْعَفِينَ » فقال : « أن أكون من المُسْتَضْعَفِينَ فى طاعة الله أحَبُّ إلىَّ من أن أكون من الأعَزِّينَ فى معصية الله » ثم نزل .

وكتب عبد الله بن مسلم وغيره إلى يزيد أن يبعث إلى الكوفة رجلا قويا غير النعمان، فبعث إلى عُبيد الله بن زياد ـ وكان على البصرة ـ وضمَّ إليه الكوفة ، فسار إليها ، فلما نزل القصر نودى الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخرج إليهم .

٢٣ — خطبة عبيد الله بن زياد

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين (أصلحه الله) وَلاّنى مِصركم وثَغْرَكم[2] ، وأمرنى بإنصاف مظلومكم ، وإعطاء محرومكم ، و بالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدة على مُرِيبكم وعاصيكم ، وأنا مُتَّبِعٌ فيكم أمرَه ، وَمُنْفِذٌ فيكم عهده ، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البَرِّ ، وَسَوْطِى وسيفى على من ترك أمرى، وخالف عهدى، فليُبْقِ امرؤ على نفسه، الصدق يُنْبِئُ عنك لا الوعيد » .

ثم نزل فأخذ العُرَفاء[3] والناس أخذاً شديداً ، و بلغ ذلك مسلم بن عقيل ، فخرج من دار المختار ، حتى انتهى إلى دار هانئ بن عُرْوَة المُرَادِىّ لائذاً به ، وَنَمى خبره إلى ابن زياد ، فبعث إلى هانئ فجاءه ، فأمره أن يأتيه بمسلم ، فقال: لا والله لا أجيئك به أبدا أنا أجيئك بضيفى تقتله ! وطال بينهما اللّجاج فى ذلك ، فضربه ابن زياد بالقضيب ، فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده ، حتى كسر أنفه ، وَسَيَّلَ الدماء على ثيابه ، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته ، حتى كسر القضيب ، ثم أمر بحبسه .

---

(١) الغشم : الظلم ، والمراد الشدة . (٢) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان .

(٣) جمع عريف ، وهو رئيس القوم سمى لأنه عرف بذلك أو النقيب وهو دون الرئيس .

٢٤ ـ خطبة أخرى له

ولما ضرب عبيد الله هانئاً وحبسه ، خَشِيَ أن يَثِبَ الناس به ، فخرج فصعد المنبر ومعه أشراف الناس وشُرَطُهُ وحَشَمه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس : فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم ، ولا تختلِفُوا ، ولا تفرّقوا ، فتَهْلِكُوا وتَذِلُّوا وتُقْتَلُوا ، وتُجْفَوْا وتُحْرَمُوا ، إن أخاك مَنْ صَدَقَكَ ، وقد أعذر من أنذر » .

وبلغ مسلمَ بن عقيل خبرُ ضرب هانئٍ وحبسه ، فأمر أن ينادى في أصحابه وكان قد بايعه من أهل الكوفة ثمانيةَ عَشَرَ ألفًا ، وأقبل نحو القصر ، فتحرز فيه ابن زياد وغلّق الأبواب ، وبعث إلى الأشراف فجمعهم إليه ، ثم قال : « أشرِفُوا على النّاس ، فَمَنُّوا أهلَ الطاعة الزيادةَ والكرامة ، وخوِّفوا أهل المعصية الحِرْمَانَ والعقوبة ، وأعلموهم فُصُول(١) الجنود من الشأم إليهم » .

٢٥ ـ خطبة كثير بن شهاب

فتكلم كُثيِّر بن شِهَاب أول الناس فقال :

« أيها الناس : الحَقُوا بأهاليكم ، ولا تَعَجَّلوا الشر ، ولا تُعَرِّضوا أنفسكم للقتل ، فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت ، وقد أعطى اللهَ الأميرُ عهداً لئن تَمَّمْتُم(٢) على حربه ، ولم تنصرفوا من عَشِيّتكم أن يَحْرِمَ ذريّتكم العطاء ، ويفرّق مُقَاتِلَتَكم في مغازى أهل الشأم على غير طمع ، وأن يأخذ البرىء بالسقيم ، والشاهد بالغائب ، حتى لا يبقَى له فيكم بقيةٌ من أهل المعصية إلا أذاقها وَبالَ ما جرّت(٣) أيديها » .

---

(١) فصل من البلد فصولا : خرج منه . (٢) يقال : تممت على الأمر ، أى استمررت عليه .

(٣) جر جريرة : اجترم جريمة .

وتكلم الأشراف بنحو من كلام هذا ، فلما سمع الناس مقالتهم أخذوا يتفرقون وينصرفون عن ابن عَقيل ، حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون نفسًا ، فخرج متوجهًا نحو أبواب كِندة ، فبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة ، ثم خرج من الباب وإذا ليس معه إنسان ، فمضى على وجهه فى أزِقّة الكوفة ، حتى انتهى إلى باب عجوز فسألها أن تُؤويه فآوته فى دارها .

٣٦ — خطبة عبيد الله بن زياد

ولما انفضت جموع ابن عقيل ، خرج عُبيد الله بن زياد إلى المسجد ، وأمر فنودى « ألَا بَرِئَتِ الذمة من رجل صَلّى العَتَمَة[1] إلا فى المسجد » ، فلم يكن إلا ساعة حتى امتلأ من الناس ، فصلى بهم ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن ابن عقيل السفيه الجاهل ، قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق ، فَبَرِئَت ذمة الله من رجل وجدناه فى داره ، ومَنْ جاء به فله دِيَتُهُ ، اتقوا الله عبادَ الله ، والزموا طاعتكم وبيعتكم ، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا .

يا حُصَيْنُ بن نُمَيْر[2] ، ثَكِلَتْكَ[3] أمك إن صَاحَ[4] باب سِكّة من سكك الكوفة ، أو خرج هذا الرجل ولم تأتنى به ، وقد سَلّطتك على دُور أهل الكوفة ، فابعث مُرَاصِدَة على أفواه السكك ، وأَصْبِح غداً وأَسْتَبِرِ الدُّورَ[5] ، وجُسْ خِلالها حتى تأتينى بهذا الرجل » ثم نزل .

وأصبح ابن تلك العجوز التى آوت مسلما ، فدل على مكانه ، فبعث ابن زياد محمد ابن الأشعث فى ستين أو سبعين رجلا فأتى به ، وأمر به ، فأصعد إلى أعلى القصر ، وضرب

---

(١) العتمة : وقت صلاة العشاء . (٢) وكان على شرط ابن زياد . (٣) ثكله : فقده .

(٤) صاحه يصوحه فانصاح : أى شقه فانشق ، والمراد : فتح باب سكة وهرب .

(٥) سبر الجرح وغيره واستبره : امتحن غوره .

عنقه ، فَهَوى رأسُهُ إلى الأرض ، وَأُتبع جسدُه رَأسَهُ ، ثم أمر بهانئ بن عروة ، فأخرج إلى السوق ، فضربت عنقه .

وكان مسلم حيث تحول إلى دار هانئ ، كتب إلى الحسين : « إنى قد بايعنى من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فعجِّل الإقبال حين يأتيك كتابى ، فإن الناس كلهم معك ليس لهم فى آل معاوية رأى ولا هوًى » .

فسار الحسين من مكة (فى ٨ من ذى الحجة سنة ٦٠ هـ) متوجهاً إلى الكوفة ، وهو لا يعلم بحال مسلم .

خروج الحسين إلى الكوفة

٢٧ - نصيحة ابن عباس له

ولما أجمع الحسين بن علىّ رضى الله عنه المسيرَ إلى الكوفة ، أتاه عبد الله ابن عباس ، فقالَ : « يابْنَ عَمِّ إنك قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق ، فَبَيِّنْ لى ما أنت صانع ؟ » قال : « إنى قد أجمعت المسير فى أحد يومىّ هذين إن شاء الله تعالى » ، فقال له ابن عباس : « فإنى أعيذك بالله من ذلك ، أَخْبِرْنى - رحمك الله - أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم ، وَضَبَطُوا بلادهم ، ونفَوْا عَدُوَّهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فَسِرْ إليهم ، وإن كانوا إنما دَعَوْك إليهم ، وأميرُهم عليهم ، قاهرٌ لهم ، وعُمّالهُ تَجْبى بلادَهُمْ ، فإنهم إنما دَعَوْكَ إلى الحرب والقتال ، ولا آمنُ عليك أن يَغُرُّوكَ ويكَذِّبُوكَ ويُخَالفوك ويَخْذُلوك ، وأن يُسْتَنْفَرُوا إليك ، فيكونوا أشدَّ الناس عليك » فقال له حسين : « وإنى أستخِير الله وَأَنْظرُ ما يكون » .

فخرج ابن عباس من عنده ، وأتاه ابن الزبير ، فحدَّثه ساعة ثم قال :

« ما أدرى ماتَرْكُنا هؤلاء القومَ وكَفُّنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين ، وَوُلاةُ هذا الأمر دونهم ، خبِّرْنى ماتريد أن تصنع ؟ » فقال الحسين : والله لقد حدّثت نفسى بإتيان الكوفة : ولقد كتب إلىَّ شيعتى بها وأشرافُ أهلها ، وأستخير الله » فقال له ابن الزبير : « أما لو كان لى بها مِثْلُ شيعتك ماعَدَلت بها » ثم إنه خشِىَ أن يتَّهِمَه فقال : « أما إنك لو أقمتَ بالحجاز ، ثم أردت هذا الأمر هاهنا ماخُولف عليك إن شاء الله » ثم قام فخرج من عنده . فقال الحسين : « ها ، إنّ هذا ليس شىء يُؤْتاهُ من الدنيا أحَبَّ إليه من أن

أخرج من الحجاز إلى العراق ، وقد علم أنه ليس له من الأمر معى شىء ، وأن الناس لم يَخْذِلوه[1] بى ، فوَدَّ أنى خرجت منها لتَخْلُوَ له » .

فلما كان من العَشِىِّ أو من الغد ، أتى الحسينَ عبدُ الله بن العباس . فقال :

« يابن عم ، إنى أتَصَبَّرُ ولا أصبر ، إنى أتخوف عليك فى هذه الوجه الهلاك والاستئصال ، إن أهل العراق قومٌ غُدُرٌ[2] ، فلا تَقْرَبَنَّهُمْ ، أقم بهذا البلد ، فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب إليهم فَلْيَنْفُوا عدوهم ، ثم اقدَم عليهم ، فإن أبيتَ إلا أن تخرج ، فَسِرْ إلى اليمن ، فإن بها حصونًا وشِعَابًا[3] وهى أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس فى عزلة ، فتكتب إلى الناس وترسل ، وتبثُّ دُعاتَكَ ، فإنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحبُّ فى عافية .

فقال له الحسين : « يابن عم ، إنى والله لأعلم أنك ناصح مُشفق ولكنى قد أزمعت وأجمعت[4] على المسير » فقال له ابن عباس : « فإن كنت سائرا ، فلا تَسِرْ بنسائك وصبيتك ، فوالله إنى لخائف أن تقتَل كما قُتِلَ عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه » ثم قال ابن عباس : « لقد أقررت عينَ ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز ، والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك[5] ، والله الذى لا إله إلا هو ، لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علىَّ وعليك الناس أطعتنى ، لَفَعلْتُ ذلك » ثم خرج ابن عباس من عنده ، فمرَّ بعبد الله بن الزبير . فقال : قرّتْ عينك يا بن الزبير ، ثم قال :

---

(١) أى لم يسووه . (٢) جمع غدور كصبور .

(٣) الشعب بالكسر : الطريق فى الجبل ، وما انفرج بين جبلين .

(٤) يقال : أجمعت السفر ، وأجمعت عليه ، وأزمعت السفر وعليه عزمت عليه وثبت عليه همى .

(٥) أى مع وجودك .

يالكِ من قُبَّرةٍ بمَعْمَرِ خلالكِ الجوفَبِيضى وَاصْفِرِى
ونَقِّرِى ماشِئْتِ أن تُنَقِّرِى[١]

هذا حسين يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز .

٢٨ — نصيحة أبى بكر بن عبد الرحمن المخزومى له

ودخل أبو بكر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام[٢] على الحسين رضى الله عنه . فقال :

« يابن عَمِّ ، إن الرحِمَ يُظَأّرُنى[٣] عليك . ولا أدرى كيف أنا فى النصيحة لك ، فقال: ياأبا بكر ، ماأنت مِمّنْ يُسْتَغَشُّ فقال أبو بكر :

« كان أبوك أشدَّ بأسا ، والناس له أرْجى ، ومنه أسْمَعُ ، وعليه أجمع ، فسار إلى معاوية ، والناس مجتمعون عليه — إلا أهل الشأم — وهو أعزُّ منه ، فخذلوه وتثاقلوا عنه حرصا على الدنيا وضِناًّ بها ، فجرّعوه الغيظ وخالفوه ، حتى صار إلى ماصار إليه من كرامة الله ورضوانه ، ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ماصنعوا ، وقد شَهِدْتَ ذلك كله ورأيتهُ . ثم

---

(١) القبرة واحد القبر : ضرب من الطير ، ويقال القنبراء : بضم القاف والباء ، والجمع قنابر . قال صاحب القاموس : ولا تقل قنبرة (كقنفذة) أو هى لغية ، وقال صاحب اللسان والصحاح : « والعامة تقول : القنبرة وقد جاء ذلك فى الرجز » ورويا شاهدا عليه أنشده أبو عبيدة . والمعمر : المنزل الكثير الماء والكلأ ، وهومثل . وأول من قاله طرفة بن العبد ، وذلك أنه كان مع عمه فى سفر وهو صبى ، فنزلوا على ماء ، فذهب طرفة بفخيخ له ، فنصبه للقنابر وبقى عامة يومه فلم يصد شيئا ، ثم حمل فخه ورجع إلى عمه ، وتحملوا من ذلك المكان ، فرأى القنابر يلقطن مانثر لهن من الحب ، فقال ذلك ، يضرب فى الحاجة يتمكن منها صاحبها .

(٢) هو أبو بكر عمر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشى.

(٣) الرحم : القرابة ، ويظائرنى : يعطفنى . يقال : ظأرنى فلان على أمر كذا، وأظأرنى وظاءرنى: أى عطفنى .

أنت تريد أن تسير إلى الذين عَدَوا على أبيك وأخيك ، تقاتل بهم أهل الشأم وأهل العراق ، ومن هو أعدُّ منك وأقوى ، والناس منهُ أخوف ، وله أرجى ، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطغَوا الناس بالأموال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك ، ويَخذُلُكَ من أنت أحبُّ إليه ممن ينصره ، فاذكر الله فى نفسك .

فقال الحسين : « جزاك الله خيرا يابن عم ، فقد أجهدك رأيك ، ومهما يقض الله يكن » فقال : « وعند الله نحتسب أبا عبد الله » .

٢٩ — خطبة عبيد الله بن زياد

ولما نمى إلى عبيد الله بن زياد خبر الكتاب الذى كتبه الحسين رضى الله عنه إلى أشراف البصرة يستنصرهم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فوالله ما تُقرَنَ بى الصَّعبة ، ولا يقعقع لى بالشِّنان[1] ، وإنى لنِكْلٌ[2] لمن عادانى ، وسُمٌّ لمن حاربنى ، أنصف القارة[3] من راماها .

يأهل البصرة: إن أمير المؤمنين ولانى الكوفة، وأنا غاد إليها الغداة؛ وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبى سفيان ، وإياكم والخلاف والإرجاف ، فوالذى لا إله غيره لئن بلغنى عن رجل منكم خلاف ، لأقتلنه وعريفه ووليه ، ولآخذنَّ الأدنى بالأقصى حتى تستمعوا لى ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مُشاقّ .

أنا ابن زياد ، أشبهته من بين من وطئ الحصى، ولم ينتزعنى شبه خال ولا ابن عم» .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٠٠)

---

(١) القعقعة : تحريك الشىء اليابس الصلب مع صوت ، والشنان : جمع شن بالفتح ، وهو القربة البالية ، وإذا قعقع بالشنان للإبل نفرت. وهو مثل يضرب لمن لا يروعه مالا حقيقة له .

(٢) يقال إنه لنكل شره: أى ينكل به أعداؤه . (٣) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماه .

٣٠ خطبة للحسين رضي الله عنه

ولما بلغ عبيدَ الله بن زياد أمير الكوفة إقبالُ الحسين بعث الحُصَيْنَ بن نُمَيْر التميمى، فأمره أن ينزل القادسية ، وأن يضع المسَالِحَ[1] ، وقدَّم الحُرَّ بن يزيد التميمى بين يديه ، فى ألف فارس من القادسية ، فيستقبل حسينا ، وكان الحسين قد سبقه إلى ذى حُسُم ونزل به ، فسار إليه الحرُّ حتى وقف هو وخيله مُقابله فى حر الظَّهِيرَةِ ، وحضرت صلاة الظهر ؛ فخرج الحسين ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس : إنها مَعْذِرةٌ إلى الله عز وجل و إليكم ، إنى لم آتِكم حتى أتتنى كتبكم ، وقدِمت عَلَىَّ رُسُلكم أنِ اقْدَم علينا ، فإنه ليس لنا إمام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى ، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم ، فإن تُعطونى ما أطمئنُّ إليه من عهودكم ومواثيقكم أقْدَمْ مِصْرَكم ، و إن لم تفعلوا وكنتم لمَقْدَمى كارهين ، انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه إليكم » فسكتوا عنه ، ثم أقيمت الصلاة . فقال الحسين للحر : أتريد أن تصلى بأصحابك ؟ قال : لا بل تصلى أنت ، ونصلى بصلاتك ، فصلى بهم الحسين .

٣١ ـــ خطبة أخرى له

فلما كان وقت العصر ، أمر الحسين أن يتهيئوا للرحيل ، ثم إنه خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر ، وصلى ثم سلم ، وانصرف إلى القوم بوجهه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله ، يكن أرضَى لله ،

---

(١) المسالح : جمع مسلحة بالفتح ، وهى القوم ذوو السلاح .

ونحن أهلَ البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدَّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجوْرِ والعُدوان ، وإن أنتم كَرِهتمونا وجهِلتم حقنا ، وكان رأيكم غير ما أتتنى كتبكم ، وقَدِمت به علىّ رسلكم انصرفت عنكم » .

فقال له الحر : إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب التى تذكر ؟ فأخرج له الحسين خُرْجين مملوءين صُحُفًا ، فنشرها بين أيديهم ، ثم سار الحسين فى أصحابه والحُرُّ يسايره .

٣٢ — خطبة أخرى له

وقام الحسين رضى الله عنه بذى حُسُم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إنه قد نزل من الأمر ما قد تَرَوْن ، وإن الدنيا قد تغيَّرت وتنكَّرت ، وأدْبَر معروفها ، واستمرَّت[(١)] جدًّا ، فلم يبق منها إلا صُبابة كصُبَابة الإناء ، وخسيسُ عيْش كالمرعى الوَبيل ، ألا تَرون أن الحق لا يُعمَلُ به ، وأنَّ الباطل لا يُتناهى عنه ، ليرغب المؤمن فى لقاء الله مُحِقا ، فإنى لا أرى الموت إلا شهادة ، ولا الحياة مع الظالمين إلا بَرَما[(٢)] » .

٣٣ — خطبة زهير بن القين البجلى

فقام زُهَيْر بن القَيْن البَجَلى ، فقال لأصحابه : تَتكلَّمُون أم أتكلم ؟ قالوا : لا ، بل تكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

---

(١) فى كتب اللغة : « مر الشىء يمر بضم الميم وفتحها مرارة وأمر » ولم أر فيها بناء « استمر » ولا مانع منه على أن الهمزة والسين والتاء للصيرورة : أى صارت مرة ، ونظيره استحجر الطين ، واستحصن المهر (صار حصانا) واستعرب القوم . وفى الأمثال : « إن البغاث بأرضنا يستنسر » « كان عنزا فاستتيس » « قد استنوق الجمل » .

(٢) البرم : السآمة والضجر ، برم به كفرح .

« قد سمعنا (هداك الله) يابن رسول الله مقالتك ، والله لو كانت الدنيا لنا باقية ، وكنا فيها مُخلَّدِين ، إلا أن فراقها فى نصرك ومواساتك ، لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها » فدعا له الحسين ، ثم قال له خيراً .

٣٤ — خطبة للحسين أيضا

وخطب الحسين أصحابه وأصحاب الْحرّ بالْبيضة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

«أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى سلطانا جائرا مُسْتَحِلاً لِحُرَم اللهِ ، ناكثًا لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعمل فى عباد الله بالإثم والعُدْوان ، فلم يُغيِّرْ عليه بفعل ولا قول ، كان حقًّا عَلَى الله أن يُدْخله مُدْخله » ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفىء ، وأحلوا حرام الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا أحَق من غيّر ، وقد أتتنى كتبكم ، وقدِمت عَلَىّ رسلكم ببيعتكم أنكم لا تُسلمونى[1] ولا تخذلونى ، فإن تَمَمْتُم على بيعتكم تُصيبوا رُشْدكم ، وأنا الحسين بن علىّ ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسى مع أنفسكم ، وأهلى مع أهليكم ، فلكم فِىَّ أُسْوَة ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتى من أعناقكم ، فلعمرى ما هى لكم بنُكْر[2] ؛ لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم ، والمغرور من اغتر بكم ، فحظّكم أخطأتم ، ونصيبَكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث عَلَى نفسه ، وسيغنى الله عنكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

---

(١) أسلمه : خذله . (٢) النكر بضم وبضمتين : المنكر .

٣٥ - خطبته ليلة قتله

وسيَّر إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبى وقَّاص فى أربعة آلاف ، فعدل الحسين إلى كَرْبَلاء ، وكانت بينهما مقابلات غير مُجْدِية[1] . فنهض عمر إليه عشية الخميس (٩ من المحرم سنة ٦١ هـ) فجمع الحسين أصحابه عند قرب المساء فقال :

« أثنى على الله تبارك وتعالى أحسنَ الثناء ، وأحمدُه عَلَى السَّرَّاء والضَّرَّاء ، اللهم إنى أحمدُك على أن أكرمتنا بالنبوَّة ، وعلمتنا القرآن ، وفقّهتنا فى الدين ، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة ، ولم تجعلنا من المشركين .

أما بعد : فإنى لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيرا من أصحابى ، ولا أهل بيتٍ أبرَّ ولا أوْصَلَ من أهل بيتى ، فجزاكم الله عنى جميعاً خيراً ألا وإنى أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا . ألا وإنى قد رأيت لكم ، فانطلقوا جميعاً فى حِلّ ، ليس عليكم من ذِمام ، هذا الليلُ قد غَشِيَكم فاتخذوه جَمَلا ، ثم ليأخُذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتى ، ثم تفرقوا فى سوَادكم ومدائنكم ، حتى يفرِّج الله ، فإن القوم إنما يطلبوننى ، ولو قد أصابونى لَهَوْا عن طلب غيرى » .

---

(١) التقى عمر بن سعد والحسين مرارا ثلاثا أو أربعا ، وكتب عمر بعدها إلى عبيد الله بن زياد : « أما بعد : فإن الله قد أطفأ النائرة ، وجمع الكلمة ، وأصلح أمر هذه الأمة ، هذا حسين قد أعطانى أن يرجع إلى المكان الذى منه أتى ، أو أن نسيره إلى أى ثغر من ثغور المسلمين شئنا ، فيكون رجلا من المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم ، أو أن يأتى يزيد أمير المؤمنين فيضع يده فى يده فيرى فيما بينه وبينه رأيه ، وفى هذا لكم رضا وللأمة صلاح » فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه نعم قد قبلت ، ولكن شمر بن ذى الجوشن ثناه عن القبول ، فكتب إلى عمر بن سعد كتابا يقول فيه : « أما بعد ، فإنى لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ، ولا لتمنيه السلامة والبقاء ، ولا لتقعد له عندى شافعا ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلى سلما ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوط الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم » .

٣٦ — رد أهل بيته عليه

فقال له أهل بيته: « لِمَ نفعلُ ؟ لِنَبقى بعدَكَ ؟ لاأرانا الله ذلك أبدًا » فقال الحسين: « يابنى عَقيل حَسْبكم من القتل بمسلم ، اذهبوا قد أذنت لكم » قالوا : « فما يقول الناس ؟ يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا و بنى عمومتنا خيرَ الأعمام ، ولم نَرْمِ معهم بسهم، ولم نطعن معهم برُمْح ، ولم نضرب معهم بسيف ، ولا ندرى ماصنعوا ، لا والله لانفعل ، ولكن نَفديك أنفُسنا واموالنا وأهلونا ، ونقاتل معك حتى نَرِدَ مورِدك ، فقبح الله العيش بعدك » .

٣٧ رد أصحابه

وقام إليه مسلم بن عَوْسَجَة الأسدى فقال :

« أنحن نُخَلِّى عنك وَلَمّا نُعْذِرْ إلى الله فى أداء حقك ؟ أما والله حتى أكسِرَ فى صدورهم رمحى ، وأضرِبَهم بسيفى ماثَبَتَ قائمُهُ فى يدى ، ولا أفارقك ، ولو لم يكن معى سلاح أقاتلهم به ، لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » .

وقال سعد بن عبد الله الحنَفِيّ : « والله لانُخَلِّيك حتى يعلم الله أنَّا قد حفِظْنا غَيْبَةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك ، والله لو علمتُ أنى أُقتَلُ ، ثم أحيا ، ثم أُحْرَقُ حياً ، ثم أُذَرّ ، يُفعَلُ ذلك بى سبعين مرة ، ما فارقتك حتى ألقَى حِمَامى دونك ، فكيف لا أفعل ذلك ، وإنما هى قَتلة واحدة ، ثم هى الكرامة التى لا انقضاء لها أبداً » .

وقال زهير بن القَيْن : « والله لوَدِدْت أنى قُتِلت ، ثم نُشرت[1] ، ثم قتلت حتى أقتل كذا ألف قتلة ، وأن الله يدفع بذلك القتلَ عن نفسك ، وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك » .

---

(١) حييت بعد موتى .

وتـكلم جماعة أصحابه بكلام يُشْبه بعضه بعضاً فى وجه واحد ، فقالوا : « والله لا نفارقك ولـكن أنفسنا لك الفِداء ، نَقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا ، فإذا نحن قُتلنا كنَّا وفَيْنا ، وقضينا ما علينا » .

٣٨ — خطبته غداة يوم قتله

وخطب الحسين غداة اليوم الذى استُشهد فيه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ياعبادَ الله ، اتقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حَذَر، فإن الدنيا لو بَقيت على أحد ، أو بقى عليها أحد ، لـكانت الأنبياء أحقّ بالبقاء ، وأولى بالرضاء ، وأرضَى بالقضاء ، غيرَ أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء ، فجديدُها بالٍ ، ونعيمها مُضْمَحِلّ ، وسرورها مُكْفَهِرّ ، والمنزل تَلْعَة[1] ، والدار قُلْعَة[2] ، فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّـكُمْ تُفْلِحُونَ » .

٣٩ - دعاؤه وقد صبحته الخيل

ولما صبَّحته الخيل رفع يديه فقال :

« اللهم أنت ثِقَتى فى كل كرب ، ورجائى فى كل شِدَّة ، وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثِقَةٌ وَعُدَّة ، كم مِنْ هَمّ يَضْعُف فيه الفؤاد ، وتقِلّ فيه الحِيلَةُ ، وَيَخْذُلُ فيه الصديقُ ، ويشمَت فيه العَدُوّ ، أنزلتُه بك ، وشـكوتُه إليك ، رغبةً منى إليك عمن سِواك ، ففرَّجته وَكَشَفْتَه ، فأنت وَلِيُّ كلّ نعمة ، وصاحِبُ كلّ حسَنَة ، ومنتهى كل رغبة » .

---

(١) التلعة : مجرى الماء من أعلى الوادى إلى بطون الأرض ، والنزول بالتلعة مخوف ، لأن من نزلها فهو على خطر إن جاء السيل جرفه . (٢) الدنيا دار قلعة : أى انقلاع ، وهو على قلعة أى رحلة ، ومنزلنا منزل قلعة أى ليس بمستوطن ، أو لا نملكه أو لاندرى متى نتحول عنه .

٤٠ ـ خطبته وقد دنا منه القوم

ولما دنا منه القوم دعا براحلته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته :

« أيها الناس : اسمعوا قولى ، ولا تَعْجلونى حتى أعِظَكم ، بما لِحَقٍّ لكم علىّ ، وحتى أعتذر إليكم من مَقْدَمى عليكم ، فإن قَبِلْتم عذرى ، وَصَدَّقتم قولى ، وأعطيتمونى النَّصَف ، كنتم بذلك أسعدَ ، ولم يكن لكم علىّ سبيل ، وإن لم تقبلوا منى العذر ، ولم تعطوا النصف من أنفسكم . فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ـ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » .

فلما سمع أخَوَاته كلامه هذا صِحْن وبكين وبكى بناته ، فارتفعت أصواتهن ، فأرسل إليهن أخاه العباس بن علىّ وعليًّا ابنه ، وقال لهما : أسْكِتَاهُنَّ ، فلعمرى لَيَكْثُرَنَّ بكاؤهن

٤١ ـ خطبة أخرى

فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه ، وذكر الله بما هو أهله ، وصلى على محمد صلى الله عليه وعلى ملائكته وأنبيائه ، ثم قال :

« أما بعد : فانسِبُونى فانظروا مَنْ أنا ؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتِبُوها ، فانظروا هل يَحِلُّ لكم قتلى ، وانتهاكُ حُرْمَتى ؟ ألستُ ابْنَ بنت نبيكم صلى الله عليه وسلم وابْنَ وَصِيِّهِ ، وابْنِ عَمِّهِ ! وأولِ المؤمنين بالله ، وَالمُصَدِّقِ لرسوله بما جاء به من عند الله ؟ أو ليس حمزةُ سيِّدُ الشهداء عمّ أبى ؟ أو ليس جعفر الشهيد الطَّيَّار ذو الجناحين عمى ؟ أو لم يبلغكم قولٌ مستفيض فيكم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ولأخى :

هذان سيدا شَبَاب أهل الجنة ؟ فإن صدقتمونى بما أقول ـ وهو الحق ـ والله ما تَعمَّدت كذباً مذ علمت أن الله يمقُت عليه أهله ، وَيَضُرُّ به من اختلقه ، وإن كذبتمونى فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم . سَلُوا جابر بن عبد الله الأنصارى ، أو أبا سَعيد الخُدْرِىّ أو سَهل بن سعد الساعدى ، أو زيد بن أرْقَم ، أو أنَس بن مالك ، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لى ولأخى ، أفما فى هذا حاجزٌ لكم عن سفك دمى ؟ » .

ثم قال : « فإن كنتم فى شك من هذا القول ، أفتشُكُّونَ أثراً[1] ما أنِّى ابن بنت نبيكم ؟ فوالله مابين المشرق والمغرب ابن بنت نبىّ غيرى منكم ، ولا من غيركم ، أنا ابن بنت نبيكم خاصةً ، أخبرونى أتطلبوننى بقتيل منكم قتلته ، أو مال لكم استهلكته ؟ أو بقِصاصٍ من جِراحة ؟ » .

فأخذوا لا يكلمونه ، فنادى يا شَبَث بن رِبْعِىّ ، ويا حجَّار بن أبجَر ، ويا قيس بن الأشعث ، ويا يزيد بن الحارث ، ألم تكتبوا إلىّ أن قد أينعت الثمارُ ، واخضرَّ الجنَابُ ، وطَمَّت الجمام ، وإنما تَقْدَم على جندٍ لك مجنّد ، فأقبل ؟ قالوا لم نفعل ، فقال : سبحان الله بلى ، والله لقد فعلتم ، ثم قال : « أيها الناس : إذ كرِهتمونى فدعونى أنصرِفْ عنكم إلى مَأمَنى من الأرض » . فقال له قيس بن الأشعث : أوَلا تنزل على حكم بنى عمك ؟ فإنهم لن يُرُوك إلا ماتحبُّ ، ولن يصل إليك منهم مكروه فقال له الحسين : « أنت أخو أخيك ، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثرَ من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لا أعطيهم بيدى إعطاء الذليل ، ولا أقِرّ إقرار العبيد ، عباد الله ، إنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ، أَعُوذُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ » ، فأقبلوا يزحفون نحوه .

---

(١) أثرا منصوب على نزع الخافض ، أى أفتشكون فى أثر ، وما زائدة ، وأنى ابن بنت نبيكم بدل من أثرا .

٤٢ - خطبة زهير بن القين

فلما زحفوا قِبَله خرج إليهم زهير بن القين على فرس له ذَنوب[١] شاكٍ[٢] فى السلاح فقال :

« يأهل الكوفة ، نَذارِ لكم من عذاب الله نَذارِ ، إنّ حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة ، وعلى دين واحد ، وملة واحدة ، مالم يقع بيننا وبينكم السيف ، وأنتم للنصيحة منا أهل ، فإذا وقع السيف انقطعت العِصْمة[٣] ، وكنّا أمة وأنتم أمة ، إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصرهم ، وخِذلان الطاغيةِ عُبَيْدِاللهِ بن زياد ، فإنكم لاتُدْرِكُون منهما إلا بسوء ، عُمُرَ سلطانهما كلِّه ، لَيَسْمُلَانِ أعينكم[٤] ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم وَيُمَثِّلَانِ بكم ، ويرفعانكم عَلَى جذوع النخل ، ويقتلان أماثلكم وقُرّاءكم ؛ أمثال حُجْرِ بن عَدِيّ[٥] وأصحابه ، وهانئ بن عروة وأشباهه » .

---

(١) الذنوب : الفرس الوافر الذنب . (٢) يقال رجل شاك السلاح وشاك فى السلاح (بتشديد الكاف فيهما) وهو اللابس السلاح التام ، من شك فى السلاح أى دخل ، شك فيه (كرد) شكا أى لبسه تاما فلم يدع منه شيئا ، ويقال : رجل شائك السلاح ، وشاكى السلاح ، وشاك فى السلاح (كراض) وهو ذو الشوكة والحد فى سلاحه ، والشائك : من شاك الرجل يشاك شوكا (كنام نوما) أى ظهرت شوكته وحدته — والشوكة : حدة السلاح — والشاكى مقلوب من شائك ، ويقال أيضا رجل شاك السلاح (بضم الكاف) فإن أردت معنى فاعل قلت شاك (كراض) وإن أردت معنى فعل (كفرح) قلت شاك (بضم الكاف) وهو مثل جرف هار (كراض) وهار (كنار) كما يقال رجل مال ونال (بالضم) من المال والنوال وإنما هو مائل ونائل . (٣) العصمة : القلادة ، أى تفرقت وحدتنا ، وانفرط عقد جماعتنا .

(٤) سمل عينه : فقأها بحديدة محماة .

(٥) هو حجر بن عدى بن جبلة الكندى من كبراء الشيعة بالكوفة ، وذلك أن زياد بن أبيه لما جمعت له الكوفة والبصرة بلغه أن حجرا يجتمع إليه الشيعة ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى معاوية فى أمره فكتب إليه معاوية أن شده فى الحديد ثم احمله إلى ، فشده فى الحديد وحمل إلى معاوية ، وأشهد عليه شهودا =

فسبُّوه وأثنَوا على عبيد الله بن زياد ، ودعَوا له ، وقالوا : والله لا نبرح حتى نقتلَ صاحبك ومن معه ، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلما .

فقال لهم : « عباد الله ، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحقُّ بالود والنصر من ابن سُمَيَّة ، فإن لم تنصروهم ، فأُعيذكم بالله أن تقتلوهم ، فخلُّوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيدَ بن معاوية ، فلعمرى إن يزيدَ لَيرْضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين » .

فرماه شمرُ بن ذى الجَوْشَن بسهم وقال: « اسكت، أسكت الله نَأْمَتَك[1] ، أبرمتنا بكثرة كلامك » فقال له زهير : « يابن البوَّال على عَقِبيه ، ما إياك أخاطب ، إنما أنت بَهيمة ، والله ما أظنك تُحْكِمُ من كتاب الله آيتين ، فأبشِر بالخزى يوم القيامة والعذاب الأليم » فقال له شمر : « إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة » قال : « أفبالموت تخوِّفنى ؟ فوالله لَلمَوْت معه أحبُّ إلىَّ من الخلد معكم » .

ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال : « عباد الله ، لا يَغرَّنكم مِن دينكم هذا الجلف الجافى وأشباهُهُ ، فوالله لا تَنال شفاعةُ محمد صلى الله عليه وسلم قومًا هَراقُوا دماء ذرِّيته وأهل بيته ، وقَتلوا من نصرهم ، وذَبَّ عن حريمهم » .

فناداه رجل فقال له : « إن أبا عبد الله يقول : « أقبِل ، فلعمرى لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه ، وأبلغ فى الدعاء ، لقد نصَحت لهؤلاء ، وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ » .

= أنه خلع الطاعة ، وفارق الجماعة ، ولعن الخليفة ، ودعا إلى الحرب والفتنة ، وجمع إليه الجموع يدعو إلى نكث البيعة وخلع معاوية ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا فى آل أبى طالب ، وحمل معه كبار أصحابه ، فكانوا أربعة عشر رجلا ، فلما قدموا على معاوية شفع فى بعضهم فخلى سبيلهم ، وقال رسول معاوية للباقين إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من على واللعن له ، فإن فعلتم تركناكم ، وإن أبيتم قتلناكم ، فابرءوا من هذا الرجل نخل سبيلكم ، فأبوا وقالوا بل نتولاه ونتبرأ ممن تبرأ منه ، فقتلوا وقتل حجر وستة معه ، وكان ذلك سنة ٥١ هـ .

(١) النأمة : الصوت .

٤٣ – خطبة الحر بن يزيد

ولما زحف عمر بن سعد قال له الحُرُّ بن يزيد : « أصلحك الله : مقاتلٌ أنت هذا الرجل ؟ قال : « إى والله قتالا أيسرُهُ أن تسقط الرءوس ، وتَطيح الأيدى » قال: « أفما لكم فى واحدة من الخصال التى عرض عليكم رضا ؟ » قال عمر : « أما والله لو كان الأمر إلىّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك » .

ثم ضرب الحر فرسه ، ولحق بالحسين عليه السلام وانحاز إليه ، واستقدم أمام أصحابه ثم قال :

« أيها القوم : ألا تقبلون من حسين خَصلةً من هذه الخصال التى عرض عليكم ، فيعافيَكم الله من حربه وقتاله ؟ قالوا : هذا الأمير عمر بن سعد فكلّمه ، فكلّمه بمثل ما كلّمه به من قبل ، وبمثل ما كلم به أصحابه » فقال عمر : « قد حَرَصت لو وجدت إلى ذلك سبيلاً فعلت » .

فقال : « يأهل الكوفة : لِأُمِّكم الهَبَلَ وَالعَبَرُ[1] إذ دعوتموه ، حتى إذا أتاكم أسلمتموه[2] ، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، أمسكتم بنفَسه ، وأخذتم بِكظَمه[3] ، وأحطتم به من كل جانب . فمنعتموه التوجهَ فى بلاد الله العريضة ، حتى يأمنَ ويأمن أهل بيته ، وأصبح فى أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ، ولا يدفع ضرا ، وحَلَّأْتموه[4] ونساءهُ وَأُصَيْبِيَتَه[5] وأصحابه عن ماء الفرات الجارى ،

---

(١) الهبل : الثكل ، هبلته أمه : كفرح ثكلته وفقدته ، والعبر والعبر (كسبب وقفل) سخنة فى العين تبكيها ، عبرت العين كفرح جرى دمعها ، يقال لأمه الهبل ، ولأمه العبر ، والعبر : دعاء عليه .

(٢) خذلتموه . (٣) الكظم : مخرج النفس . (٤) حلأه عن الماء تحليئا وتحلئة: طرده ومنعه .

(٥) مصغر صبية على غير قياس .

الذى يشرب به اليهودى والمجوسى والنصرانى ، وتمرّغُ فيه خنازيرُ السواد وكلابُه ، وهاهم قد صرعهم العطش ، بئسما خلفتم محمدا فى ذريته ، لاأسقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا ، وتنزعوا عما أنتم عليه ، من يومكم هذا ، فى ساعتكم هذه » .

ثم نشب القتال بين الفريقين ، واستمات أصحاب الحسين فى القتال حتى فنُوا ، وقتل الحسين رضوان الله عليه . قتله سِنان بن أنس (وكان قتله بالطَّفّ[٦] يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ) وأمر ابن سعد أصحابه أن يوطئوا خيلهم الحسين ، فوطئوه بخيلهم ، ثم حمل النساء ورأسه إلى يزيد بن معاوية بدمشق .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٨٨ إلى ٢٧٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٨٦ ، وزهر الآداب ١ : ٧١) .

(٦) الطف : أرض من ضاحية الكوفة فى طريق البرية ، وقال عبد الله بن الأحمر من قصيدة :

فأضحى « حسين » للرماح دريئة — وغودر مسلوبا لدى الطف ثاويا

فياليتنى إذ ذاك كنت شهدته — فضاربت عنه الشانئين الأعاديا

سقى الله قبرا ضمن المجد والتقى — بغربية الطف الغمام الغواديا

طلب التوابين بدم الحسين

رضى الله عنه

وفى سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة ، واتعدوا الاجتماع بالنُّخيلة للمسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين بن علىّ رضى الله عنهما ، وذلك أنهم بعد مقتله تلاقوا بالتلاوُم والتندُّم ، ورأوا أنهم قد أخطئوا خطأً كبيراً بدعائهم إياه إلى النصرة وتركهم إجابتَه ، ومَقْتِله إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأوا أنه لا يُغسَل عارهم والإثمُ عنهم فى مقتله إلا بقتل من قتله أو القتلِ فيه وتابوا مما فَرَط منهم فى ذلك « فسُمُّوا التوّابين » وفزعوا بالكوفة إلى خمسة نفَر من رءوس الشيعة : إلى سليمان بن صُرَد الخُزَاعىّ ، وكانت له صحبة مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وإلى المُسَيَّب بن نَجَبَةَ الفَزارىّ ، وإلى عبدالله بن سعد ابن نُفَيْل الأزْدىّ ، وإلى عبد الله بن والٍ التَّيْمىّ ، وإلى رِفاعة بن شداد البَجَلىّ ، ثم إن هؤلاء النفر اجتمعوا فى منزل سليمان بن صرد ، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم ، فبدأ المسيب بن نجَبَة بالكلام فتكلم :

٤٤ — خطبة المسيب بن نجبة الفزارى

فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد فإنا قد ابتُلِينا بطول العمر ، والتعرُّضِ لأنواع الفتن ، فنرغبُ إلى ربنا ألاّ يجعلَنا ممن يقولُ له غدا : (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ) فإن أمير المؤمنين قال : « العمر الذى أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ، وقد كنا مُغْرَمِينَ بتزكية أنفسنا ، وتقريظ شيعتنا ، حتى

بلا الله أخيارنا ، فوَجَدنا كاذبين فى مَوطِنين من مواطن ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغتنا قبل ذلك كتُبه ، وقَدِمَتْ علينا رسله ، وأعذر إلينا يسألنا نَصْرَهُ عَوْدًا وبَدْءا ، وعلانية وسرًّا ، فبخِلنا عنه بأنفسنا ، حتى قُتِلَ إلى جانبنا ، لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جادَلْنا عنه بألسنتنا ، ولا قوَّيناه بأموالنا ، ولا طلبنا له النُّصرة إلى عشائرنا ؛ فما عُذْرُنا إلى ربنا ، وعند لقاء نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ وقد قُتِلَ فينا ولدُه وحبيبه وذريته ونسلُه ، لا والله لا عُذْر دون أن تَقْتلوا قاتله والمُوالين عليه ، أو تُقْتَلُوا فى طلب ذلك ؛ فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك ؛ وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمِنٍ ، أيها القوم ولُّوا عليكم رجلا منكم ، فإنه لابد لكم من أمير تَفْزَعُونَ إليه ، ورَايةٍ تَحُفُّونَ بها ، أقُول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم » .

فَبَدَرَ[1] القومَ رِفاعةُ بن شدّاد بعد المسيَّب الكلامَ .

٤٥ — خطبة رفاعة بن شداد

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الله قد هداك لِأَصْوَبِ القول ، ودعوتَ إلى أرشد الأمور ، بدأت بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ودعوتَ إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم ، فمسموعٌ منك ، مستجابٌ لك ، مقبولٌ قولُكَ : قلتَ وَلُّوا أمركم رجلا منكم تفزَعون إليه ، وَتَحُفُّونَ برايته ، وذلك رأىٌ ، قد رأينا مثل الذى رأيت ، فإن تكن أنت ذلك الرجل تكن عندنا مَرْضِيا ، وفينا متنصّحاً ، وفى جماعتنا مُحبّا ، وإن رأيت (ورأى أصحابنا ذلك) ولَّيْنا هذا الأمر شيخَ الشيعة صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذا السابقة والقِدَم سليمان بن صُرَد ، المحمودَ فى بأسه ودينه ، والموثوقَ بحزمه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

---

(١) عجل واستبق .

ثم تكلم عبد الله بن والٍ ، وعبد الله بن سعد ، فحمدَا ربهما وأثنيا عليه ، وتكلما بنحوٍ من كلام رفاعة بن شداد ، فذكرا المسيب بن نَجَبَة بفضله ، وذكرا سليمان ابن صرد بسابقته ورضاهما بتوليتهِ ، فقال المسيب بن نجَبة : « أصبتم وَوُفقتم ، وأنا أرى مثل الذى رأيتم ، فولوا أمركم سليمان بن صرد » .

٤٦ — خطبة سليمان بن صرد

قال حميد بن مسلم : والله إنى لشاهد بهذا اليوم يوم ولّوا سليمان بن صرد[١] وإنا يومئذ لأكثر من مائة رجل من فُرسان الشيعة ووجوههم فى داره ، قال : فتكلم سليمان فشدد ، وما زال يردِّد ذلك القول فى كل جمعة حتى حفظته ، بدأ فقال :

« أثنى عَلَى الله خيرًا ، وأحمد آلاءه وبلاءه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، أما بعد : فإنى والله لخائف ألاّ يكون أخرنا إلى هذا الدهر (الذى نَكِدَت فيه المعيشة ، وعظُمت فيه الرزيّة ، وشمِل فيه الجوْرُ أولِى الفضل من هذه الشيعة) لِمَا هو خيرٌ ، إنّا كنا نَمُدُّ أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ، ونُمَنِّيهم النصرَ ، ونحُثُّهم عَلَى القدوم ؛ فلما قَدِموا وَنَيْنا وَعَجزْنا وَأدْهَنّا وتَرَبّصْنا وانتظرنا ما يكون حتى قُتِلَ فينا وَلَدِينا وَلَدُ نبينا وَسُلالَته وَعُصارته وَبَضْعَة[٢] من لحمِهِ ودمِهِ ، إذ جعل يستصرخُ ويسأل النَّصَف[٣] فلا يُعْطاه ، اتخذه الفاسقون غَرَضاً لِلنَّبل، وَدَرِيّة[٤] للرماح ، حتى أقْصَدوه[٥] وَعَدَوا عليه فسلبوه ، ألا انهضوا فقد سخِطَ ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل[٦] والأبناء حتى يرضَى الله ، والله ما أظنهُ راضياً دون أن تُناجزوا من قتله أو تُبِيرُوا[٧] ، ألا لا تَهابوا

---

(١) وقد سمى أمير التوابين . (٢) البضعة بالفتح وقد تكسر : القطعة من اللحم .

(٣) الإنصاف . (٤) مسهل عن دريئة ، والدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرمى عليها .

(٥) أقصد السهم : أصاب فقتل مكانه ، وأقصد فلانا : طعنه فلم يخطئه .

(٦) جمع حليلة: وهى الزوجة. (٧) بار يبور بوارا: هلك .وأباره أهلكه، أى تهلكوا أنفسكم.

الموتَ ، فوالله ما هابه امرؤ قطُّ إلاّ ذَلّ ، كونوا كالأولى من بنى إسرائيل إذْ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ « إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ » فما فعل القوم ؟ جَثَوْا على الرُّكَب والله ، وَمَدُّوا الأعناق ، ورضُوا بالقضاء حتى حين عَلِمُوا أنه لاينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبرُ عَلَى القتل ، فكيف بكم لو قد دُعِيتم إلى مثل ما دُعِى القوم إليه ؟ اشْحَذُوا السيوف ، وركِّبُوا الأسنة « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ[(١)] » حتى تُدْعَوا وَتُسْتَنْفَرُوا » .

٤٧ — خطبة خالد بن سعد بن نفيل

فقام خالد بن سعد بن نُفَيْل فقال : « أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلى نفسى يُخْرِجنى مِنْ ذنبى ، وَيُرضى عنى ربى لقتلتها ، ولكن هذا أُمِرَ به قومٌ كانوا قبلنا وَنُهِينا عنهُ ، فَأُشْهِدُ الله ومَنْ حضر من المسلمين أن كلَّ ما أصبحت أملكه سوى سلاحى الذى أقاتل به عدوى صدقة على المسلمين أقوِّيهم به على قتال القاسطين[(٢)] » .

وقام أبو المعتمر حَنَشُ بن ربيعة الكنانى ، فقال : « وأنا أشهدكم على مثل ذلك » فقال سليمان بن صرد : « حَسْبُكم ، من أراد من هذا شيئاً فليأت بماله عبدَ الله بن وال التَّيمى تيم بكر بن وائل ، فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون إخراجهُ من أموالكم ، جهَّزنا به ذوى الخَلَّة[(٣)] والمسكنة من أشياعكم » .

---

(١) اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله فعال بمعنى مفعول ، أو مصدر سمى به كالمرابطة ، أو جمع ربيط فعيل بمعنى مفعول . (٢) الجائرين ، قسط كجلس قسوطا : جار وعدل عن الحق .

(٣) الخلة : الحاجة والفقر ، وفى المثل : « الخلة تدعو إلى السلة» بفتح السين أى إلى الاستلال والسرقة.

٤٨ — خطبة سعد بن حذيفة بن اليمان

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حُذَيفة بن اليمان بالمدائن كتاباً يستنهض فيه همم إخوانه هنالك ، ويدعوهم أن يَجِدُّوا ويستعدّوا ، وضرب لهم غرة ربيع الآخر سنة ٦٥ أجلا يلقَونه فيه ، والنُّخَيْلة مَوْطِناً يوافونه إليه ، فبعث سعد إلى من كان بالمدائن من الشيعة ، فقرأ عليهم كتاب سليمان بن صرد ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإنكم قد كنتم مجمعين مُزْمعين على نصر الحسين ، وقتالِ عدوه ، فلم يفْجَأْكم أولُ من قتله ، والله مُثيبكم على حُسن النية ، وما أجمعتم عليه من النصر أحسنَ المَثوبة ، وقد بعث إليكم إخوانكم يستنجدونكم ويستمدونكم ، ويدعونكم إلى الحق وإلى ما ترجُون لكم به عند الله أفضلَ الأجر والحظ ، فماذا ترون ؟ وماذا تقولون ؟ » .

فقال القوم بأجمعهم : « نجيبهم ونقاتل معهم ، ورأينا فى ذلك مثل رأيهم » .

٤٩ — خطبة عبد الله بن الحنظل الطائى

فقام عبد الله بن الحنظل الطائى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإنا قد أجبنا إخواننا إلى ما دعَونا إليه ، وقد رأيْنا مثل الذى قد رأوا ، فسَرِّحْنِي إليهم فى الخيل » .

فقال له : « رويدا لا تَعْجَل ، استعدوا للعدو ، وأعِدوا له الحرب ، ثم نسير وتسيرون » وكتب سعد إلى ابن صرد بإجابة دعوته ، وأنهم فى انتظار أمره .

٥٠ — خطبة عبيد الله بن عبد الله المرى

وحدّث رجل من مُزَينة قال : « ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبلغ من عُبَيد الله بن عبد الله المُرِّىِّ فى منطق ولا عِظة ، وكان من دُعاة أهل المصر زمان سليمان ابن صرد ، و كان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم ، بدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول :

أما بعد : فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه بنُبوّته ، وخصّه بالفضل كله ، وأعزّكم باتّباعه ، وأكرمكم بالإيمان به ، فحقن به دماءكم المسفوكة ، وآمن به سُبلكم المَخُوفة : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا[1] حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » فهل خلق ربكم فى الأوّلين والآخرين أعظمَ حقًّا عَلَى هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقًّا عَلَى هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، لله أنتم ! ألم تَرَوا ويبلغكم ما اُجْتُرِم[2] إلى ابن بنت نبيكم ؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حُرْمته ، واستضعافهم وَحْدَته ، وترميلهم[3] إياه بالدم ، وتجرارهموه عَلَى الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابتَه من الرسول صلى الله عليه وسلم ! اتخذوه للنَّبْل غرضا ، وغادروه للضِّباع جَزَرا[4] ، فَلِله عيناً مَنْ رأى مثله ! ولله حسين بن علىّ ! ماذا غادروا به ؟ ذا صِدْق وصبر، وذا أمانة ونجدة وحزم، ابن أول المسلمين إسلاماً، وابن بنت رسول رب العالمين، قَلّت حُماتُهُ ، وكثُرت عُداته[5] حوله ، فقتله عدوه وخذله وليُّهُ ، فويل للقاتل ، وملامة للخاذل ، إن الله لم يجعل لقاتله حجةً ، ولا لخاذله معذرةً ، إلا أن يُناصح لله فى التوبة ، فيجاهد القاتلين ، وينابذ القاسطين ، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة وَيُقِيل العَثْرة

---

(١) الشفا : حرف كل شىء . (٢) ارتكب واقترف . (٣) رمله : لطخه بالدم .
(٤) قطعا . (٥) العداة : جمع عاد ، وهو العدو .

إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته ، وإلى جهاد المُحِلين والمارقين ، فإن قُتِلنا فما عند الله خير للأبرار ، وإن ظَهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبينا » .

قال : « وكان يعيد هذا الكلام علينا فى كل يوم حتى حفِظهُ عامّتنا » .

* * *

وكان الشيعة بالكوفة منذ قتل الحسين رضى الله عنه (سنة ٦١ هـ) يَجِدُّونَ فى جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس فى السر من الشيعة وغيرها إلى الطلب بدمه حتى كثر تَبَعهم، وكان الناس إلى اتّباعهم بعد هلاك يزيد بن معاوية (فى ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤ هـ) أسرع منهم قبل ذلك .

وقدم المختار بن أبى عُبيد الثّقفى الكوفة فى النصف من رمضان سنة ٦٤ ، وقد اجتمعت رءوس الشيعة ووجوهها مع سليمان بن صرد ، فليس يَعْدِلونه به ، فكان المختار إذا دعاهم إلى نفسه وإلى الطلب بدم الحسين ، قالت له الشيعة : « هذا سليمان ابن صرد شيخ الشيعة قد انقادوا له واجتمعوا عليه » فأخذ يقول للشيعة : « إنى قد جئتكم من قِبَل المهدىّ محمد بن علىّ (ابن الحَنَفِيَّة) مؤتمناً مأموناً ، مُنْتَجَباً[1] ووزيراً » فما زال بهم حتى انشعبت إليه طائفة تُعظمهُ وتجيبه وتنتظر أمره ، وَعُظْمُ الشيعه مع سليمان بن صرد .

وقدم عبد الله بن يزيد الأنصارى من قِبَل عبد الله بن الزبير أميراً على الكوفة عَلَى حربها وثَغْرِها ، وقدم معه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله التّيمى أميرا عَلَى خراجها (وذلك بعد مَقْدَم المختار بثمانية أيام) وكان سليمان بن صرد وأصحابه يريدون أن يَثِبُوا بالكوفة ، ونمى إلى عبد الله بن يزيد اعتزام الشيعة الخروج ، فخرج حتى صعد المنبر ثم قام فى الناس .

٥١ — خطبة عبد الله بن يزيد الأنصارى

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد بلغنى أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذى دعاهم إلى ذلك ماهو ؟ فقيل لى زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن علىّ ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله دُلِلْتُ على أماكنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل ابدأهم قبل أن يبدءوك ، فأبيت ذلك ، فقلت إن قاتلونى قاتلتهم ، وإن تركونى لم أطلبهم ، وعــلام يقاتلوننى ؟ فوالله ما أنا قتلت حسينا ولا أنا ممن قاتَلَه ، ولقد أُصِبْتُ بمقتله رحمة الله عليه ، فإن هؤلاء القوم آمنون ، فَلْيخرجوا ولينتشروا ظاهرين ، لِيَسِيرُوا إلى من قاتل الحسين فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظَهِير[1] ، هذا ابن زياد قاتِلُ الحسين وقاتِلُ خياركم وأماثلكم ، قد توجه إليكم عَهْدُ العاهد به[2] على مسيرة ليلةٍ من جسر مَنْبِج[3] ، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتلَ بعضكم بعضاً ، ويَسْفِكَ بعضكم دماء بعض ، فيلقاكم ذلك العدو غدا وقد رَقَقْتُم[4] ، وتلك والله أُمْنِيَّةُ عدوكم ، وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلقِ الله لكم ، مَنْ وَلِيَ عليكم هو وأبوه سبع سنين ، لا يُقْلِعان عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذى قتلكم ، ومِنْ قِبَله أُتيتم ، والذى

(١) معين . (٢) وذلك أن عبيد الله بن زياد لما هاجت الفتنة بالبصرة بعد وفاة معاوية الثانى (سنة ٦٤ هـ) لحق بالشام ، وكان مروان بن الحكم قد أراد أن يبايع ابن الزبير لما رأى من إطباق الناس على مبايعته وإجابتهم له ، وبلغ ابن زياد ذلك ، فقال له : استحييت لك مما تريد ، أنت كبير قريش وسيدها تصنع ماتصنعه ! وشد من عزيمته حتى نهض فى طلب الخلافة وتمت له فبويع بها ، فلما استوثقت له الشام بالطاعة بعث جيشا إلى العراق عليه ابن زياد ، وجعل له حين وجهه إلى العراق ماغلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظفر بأهلها ثلاثا . (٣) بين حلب والفرات . (٤) ضعفتم .

قتل من تَشأرُون بدمه قد جاءكم ، فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم ، واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم ، إنى لم آلُكمْ نصحا[1] ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أئمتنا .

٥٢ — خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة [2]

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة :

« أيها الناس : لايغرنّكم من السيف والغَشْم[3] مقالةُ هذا المداهن الموادع ؛ والله لئن خرج علينا خارجٌ لنقتلنه ، ولئن استيقنّا أن قوما يريدون الخروج علينا ، لنأخُذَنّ الوالد بولده ، والمولود بوالده ، ولنأخذن الحميم[4] بالحميم ، والعريفَ[5] بما فى عَرافته ، حتى يَدينوا للحق ، ويَذِلُّوا للطاعة » .

٥٣ — رد المسيب بن نجبة

فوثب إليه المسيب بن نَجَبة فقطع عليه منطقه ، ثم قال :

« يابن الناكثين[6] : أنت تهددنا بسيفك وغَشْمك ؟ أنت والله أذلُّ من ذلك ، إنا لانلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك[7] وجدك ، والله إنى لأرجو أن لا يُخْرِجك الله من بين ظَهْرَانَىْ أهل المصر حتى يثلّثوا بك جدك وأباك ، وأما أنت أيها الأمير ، فقد

---

(١) أى لم أقصر فى نصحكم . (٢) مات سنة عشر ومائة عن أربع وسبعين سنة ، وكان يسمى أسد قريش .

(٣) الظلم ، والمراد هنا القوة والأخذ بالشدة . (٤) حميمك : قريبك الذى تهتم لأمره .

(٥) العريف : رئيس القوم ، سمى لأنه عرف بذلك ، أو النقيب ، وهو دون الرئيس ، عرف ككرم وضرب عرافة صار عريفا . (٦) يشير إلى ما كان من جده طلحة بن عبيد الله إذ بايع الإمام عليا ثم نكث بيعته ، وقد اعتذر عن ذلك بأنه بايع والسيف على عنقه . (٧) قتل محمد بن طلحة يوم الجمل مع أبيه ومر به على ، فقال هذا رجل قتله بره بأبيه وطاعته .

قلت قولا سديدا ، إنى والله لأظن من يريد هـذا الأمر[1] ، مستنصحاً لك ، وقابلا قولك .

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة : « إى والله لَيُقْتَلَنَّ وقد أَدْهَنَ ثم أعلن » .

٥٤ - رد عبد الله بن وال التيمى

فقام إليه عبد الله بن والٍ التَّيْمِيُّ ، فقال :

« ما اعتراضك يا أخا بنى تَيْم بن مرة فيما بيننا و بين أميرنا؟ فوالله ما أنت علينا بأمير ، ولا لك علينا سلطان ! إنما أنت أمير الجزية ، فأقبل على خراجك ، فلعمر الله لئن كنت مفسدا ، ما أفسد أمرَ هذه الأمة إلا والدُك وجدك الناكثان ، فكانت بهما الْيَدَانِ[2] وكانت عليهما دائرةُ السَّوْء » .

ثم أقبل المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن وال على عبد الله بن يزيد فقالا :

« أما رأيك أيها الأمير فوالله إنا لنرجو أن تكون به عند العامة محمودا ، وأن تكون عند الذى عَنَيْتَ واعتريت مقبولا » .

ثم نزل عبد الله بن يزيد ودخل .

فلما استهلَّ هلال ربيع الآخر سنة ٦٥ شَخَص سليمان بن صرد فى وجوه أصحابه ، وقد كان واعد أصحابه عامةً للخروج فى تلك الليلة للمعسكر بالنُّخيلة ، وأقام بها ثلاثاً يبعث ثقاته من أصحابه إلى من تخلف عنه يذكِّرهم الله وما أعطَوْه من أنفسهم ، فقام إليه المسيَّب ابن نجبة ، فقال : « رحمك الله إنه لا ينفعك الكاره ، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته

---

(١) أى الطلب بدم الحسين رضى الله عنه . (٢) تقول العرب : كانت به اليدان ، أى فعل الله به مايقوله لى ، ومرقوم من الخوارج بقوم من أصحاب على وهم يدعون عليهم ، فقالو : بكم اليدان أى حاق بكم ماتدعون به وتبسطون أيديكم .

النية ، فلا تنتظرن أحدا ، وا كْمُش[1] فى أمرك » قال : « فإنك والله لَنِعِمًّا رأيت » فقام سليمان بن صرد فى الناس متوكئاً على قوس له عربية فقال :

٥٥ — خطبة سليمان بن صرد

« أيها الناس : من كان إنما أخرجتهُ إرادةُ وجه الله وثوابُ الآخرة ، فذلك منا ونحن منهُ ، فرحمةُ الله عليه حيا وميتاً . ومن كان إنما يريد الدنيا وحَرْثها[2] ، فوالله مانأتى فَيْئاً نَسْتَفِيئُه ، ولا غنيمة نَغْنَمها ، ماخلا رضوانَ الله رب العالمين ، وما معنا مَن ذهب ولا فضة ، ولا خزّ ولا حرير ، وما هو إلا سيوفنا فى عواتقنا ، ورماحنا فى أكُفنا ، وزادٌ قدر البُلغَة[3] إلى لقاء عدونا ، فمن كان غيرَ هذا ينوى فلا يَصْحَبْنا » .

٥٦ — خطبة صخير بن حذيفة بن هلال

فقام صُخَير بن حذيْفة بن هلال بن مالك المُزَنىّ فقال :

« آتاك الله رشدك ، ولَقَّاك حجتك ، والله الذى لا إله غيره مالنا خير فى صحبةِ مَنِ الدنيا هِمَّتُهُ ونيتهُ . أيها الناس : إنما أخرجتنا التوبةُ من ذنبنا والطلبُ بدم ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، ليس معنا دينار ولا درهم ، إنما نَقْدَم على حد السيوف وأطراف الرماح »

فتنادى الناس من كل جانب : « إنا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا » .

٥٧ — ما أشار به عبد الله بن سعد

وكان الرأى بادىء الأمر أن يسيروا إلى عبيد الله بن زياد ، فقال له عبد الله بن سعد ، وعنده رءوس أصحابه جُلُوسٌ حوله :

---

(١) أسرع ، كش كـكرم كاشة فهو كش (كشهم) وكيش ، أى سريع .

(٢) أى كسبها ومتاعها .   (٣) مايتبلغ به .

« إنى قد رأيت رأياً ، إن يكن صواباً فالله وفّقَ ، وإن يكن ليس بصواب فمن قِبَلى ، فإنى ما آلُوكم ونفسى نُصْحًا ، خطأً كان أم صواباً ، إنما خرجنا نطلب بدم الحسين وقَتَلَةُ الحسين كلهم بالكوفة ، منهم عمر بن سعد بن أبى وقّاص ، ورءوس الأرباع[1] وأشراف القبائل ، فأنّى نذهب هاهنا ونَدع الأقتال والأوتار[2] ؟ » .

فقال سليمان بن صرد : فماذا ترون ؟ فقالوا : « والله لقد جاء برأى ، وإنّ ما ذكر لكما ذَكر ، والله ما نلقَى من قتلة الحسين — إن نحن مضينا نحو الشأم — غيرَ ابن زياد ، وما طَلِبتنا إلا هاهنا بالمصر » .

٥٨ — رأى ابن صرد

فقال سليمان بن صرد : « لكن أنا ما أرى ذلك لكم ، إن الذى قتل صاحبكم ، وعبّى الجنود إليه ، وقال لا أمان له عندى دون أن يستسلم فأُمْضِى فيه حكمى ، هذا الفاسق ابن الفاسق ، ابنُ مَرْجانة ، عبيد الله بن زياد ، فسيروا إلى عدوكم على اسم الله ، فإن يُظْهِركم الله عليه ، رجونا أن يكون مَنْ بعده أهون شوكةً منه ، ورجونا أن يَدين لكم مَنْ وراءكم من أهل مصركم فى عافية ، فتنظرون إلى كل من شَرِك فى دم الحسين فتقاتلونه ولا تَغْشِمُوا[3] ، وإن تُسْتَشْهَدُوا فإنما قاتلتم المُحِلِّينَ ، وما عندَ اللهِ خيرٌ للأبرار والصِّدِّيقين ، إنى لأحب أن تجعلوا حدكم وشوكتكم بأول المُحِلِّين القاسطين ، والله

---

(١) كانت الكوفة مقسمة أربعة أقسام لكل ربع رئيس : ربع تميم وهمدان ، وربع ربيعة وكندة ، وربع مذحج وأسد ، وربع أهل المدينة ، (وتقسيم المدينة أرباعا لايزال إلى اليوم فى بعض بلاد القطر المصرى ، وقد كانت مدينة القاهرة قبل اليوم مقسمة ثمانية أقسام كل قسم ثمن ، وصحفته العامة فقالوا « تمن » ، وأطلق عليه بالتركية قره قول (كراكون) ويحسن أن يستعمل له كلمة مخفر « ككتب »

(٢) الأقتال : جمع قتل بالكسر ، وهو العدو والمقاتل ، والأوتار : جمع وتر ، الجناية والثأر ، أى وندع أعداءنا وذوى ثاراتنا . (٣) غشمه : كضرب ظلمه .

لو قاتلتم غدًا أهل مصركم، ما عَدِم رجل أن يرى رجلا قد قتل أخاه وأباه وحميمه، أو رجلا لم يكن يريد قتله، فاستخيروا الله وسيروا» فتهيأ الناس للشُّخوص.

وبلغ عبد الله بن يزيد، وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن صرد وأصحابه فرأيا أن يأتيام، فخرجا إليهم فى جماعة من أصحابهما، فلما انتهيا إلى ابن صرد دخلا عليه.

٥٩ — خطبة عبد الله بن يزيد

فحمد اللهَ عبدُ الله بن يزيد، وأثنى عليه، ثم قال:

«إن المسلم أخو المسلم، لايخونه ولا يَغُشُّهُ، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا، وأحَبُّ أهل مصرٍ خلقه الله إلينا، فلا تَفْجَعُونا بأنفسكم، ولا تستبدوا علينا برأيكم، ولا تنقُصُوا عددنا بخُرُوجكم من جماعتنا، أقيموا معنا حتى نتيسَّر ونتهيأ، فإذا علمنا أن عدونا قد شارف بلدَنا، خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم».

وتكلم إبراهيم بن محمد بنحو من هذا الكلام.

٦٠ — خطبة سليمان بن صرد

فحمد الله سليمان بن صرد وأثنى عليه، ثم قال لهما:

«إنى قد علمت أنكما قد مَحَضتما[1] فى النصيحة، واجتهدتما فى المَشورة، فنحن بالله وله، وقد خرجنا لأمر، ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد، والتسديد لأصوبه، ولا ترانا إلا شاخصين، إن شاء الله ذلك».

فقال عبد الله بن يزيد: «فأقيموا حتى نعبِّى معكم جيشاً كثيفاً فتلقَوا عدوكم

---

(١) محضه الود وأمحضه: أخلصه.

بكَثَفٍ[1] ، وجَمْع وحَدّ » فقال له سليمان : « تنصرفون ونرى فيما بيننا ، وسيأتيكم إن شاء الله رأى » .

وانصرف عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد إلى الكوفة ، وأجمع القوم على الشخوص ، واستقبال ابن زياد .

٦١ — خطبة أخرى له

ثم إن سليمان بن صرد قام فى الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس ، فإن الله قد علم ما تنوُون ، وما خرجتم تطلبون ، وإن للدنيا تُجَّارًا ، وللآخرة تجاراً ؛ فأما تاجر الآخرة فساعٍ إليها متنصب[2] بتَطْلابها ، لا يشترى بها ثمنًا ، لا يُرَى إلا قائمًا وقاعداً ، وراكعًا وساجداً ، لا يطلب ذهبًا ولا فضة ، ولا دنيًا ولا لذة ؛ وأما تاجر الدنيا ، فمُكِبٌّ عليها ، راتع فيها ، لا يبتغى بها بدَلا ، فعليكم (يرحمكم الله) فى وجهكم هذا بطول الصلاة فى جوف الليل ، وبذكر الله كثيراً على كل حال ، وتقرّبوا إلى الله جل ذكره بكل خير قدَرْتم عليه ، حتى تَلْقَوْا هذا العدو ، والمُحِلّ القاسط فتجاهدوه ، فإنكم لن تتوسلوا إلى ربكم بشىء هو أعظمُ عنده ثوابًا من الجهاد والصلاة ، فإن الجهاد سَنامُ العمل ، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين على اللَّأْوَاء[3] وإنا مُدْلجون[4] الليلةَ من منزلنا هذا إن شاء الله فأدْلِجوا »

فأدلج عشية الجمعة لخمس مضين من ربيع الآخر سنة ٦٥ للهجرة ، وما زال يسير حتى انتهى إلى عَيْنِ الوردة[5] فنزل فى غربيِّها .

---

(١) الكثف : الجماعة . (٢) أى قد نصب نفسه طالبا لها ، نصب الشىء : رفعه فانتصب وتنصب.

(٣) الشدة . (٤) أدلج : سار من أول الليل ، فإن سار من آخره فادلج بالتشديد .

(٥) هى رأس العين : بلد فى وسط الجزيرة .

٦٢ – خطبة أخرى

وأقبل أهل الشأم فى عساكرهم ، حتى كانوا منها على مسيرة يوم وليلة . قال عبد الله ابن غَزِيَّة ، فقام فينا سليمان فحمد الله فأطال ، وأثنى عليه فأطنب ، ثم ذكر السماء والأرض ، والجبال والبحار وما فيهن من الآيات ، وذكر آلاء الله ونعمه ، وذكر الدنيا فزهّد فيها ، وذكر الآخرة فرغّب فيها ، فذكر من هذا مالم أُحْصِهِ ، ولم أقدر على حفظه ، ثم قال :

« أما بعد فقد أتاكم الله بعدوّكم الذى دَأَبْتم فى المسير إليه آناء[1] الليل والنهار ، تريدون فيما تظهرون التوبةَ النَّصُوحَ ، ولقاء الله مُعْذِرين ، فقد جاءوكم بل جئتموهم أنتم فى دارهم وحَيِّزهم ، فإذا لَقِيتموهم فاصدُقوهم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا يولِّيَنَّهم امرؤ دُبُرَه إلا مُتَحَرِّفاً[2] لِقِتَالٍ أوْ مُتَحَيِّزاً[3] إلى فِئَةٍ ، لاَ تَقْتُلُوا مُدْبِرًا ، ولا تُجْهِزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيرًا من أهل دعوتكم[4] إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه ، أو يكون مِنْ قتلة إخواننا بالطَّفِّ رحمة الله عليهم ، فإن هذه كانت سيرة أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب فى أهل هذه الدعوة » .

ودارت رحى الحرب بينهم و بين جيوش عبيد الله بن زياد واسْتُشْهِدَ فى المعركة سليمان بن صرد ، بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وقتل أيضًا من رءوس أصحابه : المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن نفيل ، وعبد الله بن والٍ ، فلما رأى من بقى

---

(١) آناء الليل : ساعاته واحدها إنى (كإلى) أو إنى (كحمل) أو إنو كذلك .

(٢) أى منعطفا يريد الكر بعد الفر وتغرير العدو ، فإنه من مكايد الحرب .

(٣) أى منحازا إلى جماعة على القرب ليستنجد بهم .

(٤) ملتكم .

من التوّابين أن لا طاقة لهم بمن بإزائهم من أهل الشأم انحازوا عنهم وارتحلوا ، وعليهم رفاعة بن شداد الْبَجَلِيّ .

(وكَان ذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ)[١] .

٦٣ — خطبة عبد الملك بن مروان

وأُتى عبد الملك بن مروان ببشارة الفتح ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال:

« أما بعد : فإن الله قد أهلك من رءوس أهل العراق مُلْقِح[٢] فتنةٍ ، ورأسَ ضلالةٍ ، سليمانَ بن صُرَد ، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خَذَارِيفَ[٣] ، ألا وقد قتل من رءوسهم رأسين عظيمين ضالَّين مُضِلَّين : عبد الله بن سعد أخا الأزد ، وعبد الله بن وَالٍ أخا بكر بن وائل ، فلم يبق بعد هؤلاء أحَدٌ عنده دِفاعٌ ولا امتناع » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٤٧ — ٨٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١١٠)

---

(١) وقال المسعودى فى مروج الذهب : « وقيل إن وقعة الوردة كانت فى سنة ٦٦ » .

(٢) أصله : من ألقح النخلة ، وألقح الفحل الناقة ، والريح الشجر . (٣) تركت السيوف رأسه خذاريف : أى قطعا كل قطعة كالخذروف ، والخذروف : كعصفور شىء يدوره الصبى بخيط فى يديه فيسمع له دوى (النحلة) .

طلب المختار بن أبى عبيد الثقفى

بدم الحسين رضى الله عنه

٦٤ — خطبته حين قدم الكوفة

وقدم المختار بن أبى عُبيد الثّقفى[1] الكوفة فى النصف من رمضان سنة ٦٤ هـ ، فأتاه بعض الشيعة ليلا ، فسألهم عن أمر الناس ، وعن حال الشيعة ، فقالوا له : إن الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صُرَد الخُزاعى ، و إنه لن يلبث إلا يسيرًا حتى يخرج .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

---

(١) هو المختار بن أبى عبيد بن مسعود الثقفى ، وقد قدمنا فى الجزء الأول أن أول ما عمل به عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين ولى الخلافة أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيبانى لقتال أهل فارس ، وجعل يندبهم ثلاثة أيام ، فلا ينتدب أحد إلى فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس ، فكان أول منتدب أبو عبيد ابن مسعود والد المختار ، ولم يكن المختار فى تشيعه لآل على بالمخلص ، وكانت الشيعة تنقم عليه ما كان منه فى أمر الحسن بن على رضى الله عنه يوم طعن فى مظلم ساباط وحمل إلى المدائن — وكان عم المختار ، وهو سعد ابن مسعود عاملا على المدائن — فقال له المختار : هل لك فى الغنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوثقه ! بئس الرجل أنت ، ولما قدم مسلم بن عقيل الكوفة من قبل الحسين رضى الله تعالى عنه نزل دار المختار فبايعه المختار فيمن بايعه من أهل الكوفة ، وناصحه ودعا إليه ، ثم ظفر ابن زياد بمسلم وقتله ، وأمر بالمختار فسجن ، وبعث المختار إلى عبد الله بن عمر بالمدينة ، يسأله أن يشفع له عند يزيد بن معاوية — وكانت صفية أخت المختار تحت عبد الله بن عمر — فكتب ابن عمر إلى يزيد يسأله أن يخلى سبيله ، فشفعه فيه ، وخلى ابن زياد سبيله وأخرجه من الكوفة ، فقدم الحجاز وبايع ابن الزبير ، وقاتل معه حين حاصر مكة جيش يزيد — وكان تحت إمرة الحصين بن نمير السكونى — وأقام مع ابن الزبير بعد مهلك يزيد حتى قدم الكوفة فى منتصف رمضان سنة ٦٤ .

« أما بعد : فإن المهدى بن الوصىّ ، محمد بن على ، بعثنى إليكم أمينًا ووزيراً ، وَمُنْتَجَبًا وأميرًا ، وأمرنى بقتال المُلْحدين ، والطلب بدماء أهل بيتـه ، والدفع عن الضعفاء » .

وأقبل يبعث إلى الشيعة ، فيقول لهم : « إنى قد جئتـكم من قِبَل وَلِىِّ الأمر ، وَمَعْدِن الفضل ، ووصِى الوصىّ ، والإمام المهدى ، بأمر فيهِ الشفاء ، وكشفُ الغِطَاء ، وقتلُ الأعداءِ ، وتمـامُ النَّعْمَاء . إن سليمان بن صُرَد يرحمنا الله و إياه ، إنما هو عَشَمَة[1] من العَشَم ، وَحِفْشٌ[2] بَالٍ ، ليس بذى تجربة للأمور ، ولا له علمٌ بالحروب ، إنما يريد أن يخرجكم فيقتلَ نفسهُ ويقتلـكم ، إنى إنما أعملُ على مِثالٍ قد مُثِّلَ لى ، وأمرٍ قد بُيِّنَ لى ، فيه عزُّ وليكم ، وَقتلُ عدوكم ، وشفاء صدوركم ، فاسمعوا منى قولى ، وأطيعوا أمرى ، ثم أبْشِرُوا وتباشَرُوا ، فإنى لـكم بكل ما تأمُلون خيرُ زعيم » .

فما زال بهذا القول ونحوه ، حتى استمال طائفة من الشيعة ، وَعُظْمُهم يومئذ مع سليمان بن صرد ، فلما خرج ابن صرد نحو الجزيرة ، خاف عبد الله بن يزيد الأنصارى — أمير الـكوفة من قِبل ابن الزبير — أن يثب المختار عليه ، فزجّه فى السجن .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٦٤)

٦٥ — ما كان يردده على زائريه فى سجنه

وكان يردِّد على زائريه فى سجنه هذا القول :

« أما وَرَبِّ البحار ، والنخيل والأشجار ، وَالمَهَامَهِ[3] والقِفار ، والملائـكة الأبرار ،

---

(١) العشمة : الشيخ الفانى الذكر والأنثى أو المتقارب الخطو المنحنى الظهر ، وكان عمر بن صرد حين قتل ٩٣ سنة . (٢) الحفش : الشىء البالى ، والجوالق العظيم البالى ، وما كان من أسقاط الآنية كالقوارير وغيرها ، وأحفاش البيت : رذال متاعه .

(٣) المهامه : جمع مهمه كجعفر ، وهو البلد المقفر ، والمفازة البعيدة .

والمُصْطَفَيْنَ الأخيار ، لأقتُلَنّ كلّ جبّار ، بكل لَدْنٍ خَطّارٍ[1] ، ومُهَنّدٍ بتّارٍ[2] ، في جموع من الأنصار ، ليسوا بِمِيلٍ أغْمارٍ[3] ، ولا بعُزْلٍ[4] أشرار ، حتى إذا أقمتُ عمودَ الدين ، ورَأَبْتُ شَعْبَ[5] صَدْعِ المسلمين ، وشَفَيْتُ غليلَ صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبُر عَلَيّ زوالُ الدنيا ، ولم أحْفِل بالموت إذا أتى » .

ثم خلى عبد الله بن يزيد سبيلَهُ ، بشفاعة عبد الله بن عمر فيه ، واختلفت إليه الشيعة بعد خروجهِ من السجن ، واجتمعت عليهِ ، واتفق رأيها على الرضا به ، ولم يزل أصحابه يكثرون ، وأمره يقوى ويشتد ، حتى عزل ابنُ الزبير عبد الله بن يزيد عن الكوفة وولى عليها عبد الله بن مُطِيع العَدَوى . (تاريخ الطبرى ٧ : ٦٥)

٦٦ — خطبة عبد الله بن مطيع العدوى حين قدم الكوفة

وقَدِم عبد الله بن مطيع العدوى الكوفة (لخمس بقين من رمضان سنة ٦٥) فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليهِ وقال :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين عبد اللهَ بن الزبير بعثنى عَلَى مِصْرِكم وثُغُورِكم ، وأمَرَنى بجباية فَيْئكم ، وأن لا أحمِل فضلَ[6] فيئكم عنكم إلا برضا منكم ، ووصيةِ عمر بن الخطاب التى أوصى بها عند وفاته[7] ، وبسيرة عثمانَ بن عفان التى سار بها فى المسلمين ، فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا ، وخذوا على أيدى سفهائكم ، وإلا تفعلوا

---

(١) الرمح اللدن : اللين ؛ وذلك صفة جودة فيه لأن اللدن لا يقصف ، وقد لدن ككرم لدانة ولدونة ، والرمح الخطار : أى المهتز ، خطر كضرب خطرانا . (٢) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند ، والبتار : القطاع . (٣) ميل : جمع أميل ، وهو الجبان ، ومن يميل على السرج فى جانب ، ومن لا ترس معه أو لا سيف أو لا رمح ، والأغمار : جمع غمر (مثلث ويحرك) من لم يجرب الأمور .

(٤) العزل : جمع أعزل ، وهو من لا سلاح معه . (٥) الشعب : الصدع أى الشق ، ومن معانيه الإفساد ، وهو المراد هنا ، ورأب الصدع : أصلحه . (٦) الفضل : الزيادة .

(٧) انظر وصيته للخليفة من بعده . ج ١ : ص ٢٦٣ .

فلُوموا أنفسكم ولا تلومونى ، فوالله لأُوقِعَنَّ بالسَّقِيم العاصى ، ولأُقيمن دَرْأ[1] الأصْعَرِ[2] المرتاب .

٦٧ — رد السائب بن مالك الأشعرى عليه

فقام إليه السائب بن مالك الأشعرى — وهو من رءوس أصحاب المختار — فقال :

« أما أمرُ ابن الزبير إياك ألاّ تحملَ فضلَ فيئنا عنا إلا برضانا ، فإنا نُشْهدك أنا لانرضى أن تحمل فضل فيئنا عنا ، وأن لا يُقْسَم إلا فينا ، وأن لايُسَارَ فينا إلا بسيرة علىّ بن أبى طالب ، التى سار بها فى بلادنا هذه ، حتى هلك رحمةُ الله عليه ، ولا حاجة لنا فى سيرة عثمان فى فيئنا ولا فى أنفسنا ، فإنها إنما كانت أثَرَةً وهَوًى ، ولا فى سيرة عمر بن الخطاب فى فيئنا ، وإن كانت أهونَ السيرتين علينا ضرًّا ، وقد كان لايألو الناسَ خَيْرًا » .

فقال يزيد بن أنس الأسدى : صدق السائب بن مالك وَبَرَّ ، رأيُنا مثلُ رأيه ، وَقَوْلُنَا مثل قوله ، فقال ابن مطيع : نَسِير فيكم بكل سيرة أحببتموها وَهَوِيتموها ، ثم نَزل . فقال يزيد بن أنس : ذهبتَ بفضلها يا سائب ، لايَعْدَمك المسلمون !

(تاريخ الطبرى ٧ : ٩٥)

---

(١) الدرأ : الميل والعوج فى القناة ونحوها . (٢) الصعر محركة : ميل فى العنق وانقلاب فى الوجه إلى أحد الشقين ، صعر كفرح فهو أصعر ، وربما كان الإنسان أصعر خلقة ، وصعر خده بالتشديد : أماله عن الناس إعراضا وتكبرا .

٦٨ — خطبة عبد الرحمن بن شريح

وبعث المختار إلى أصحابه ، فأخذ يجمعهم فى الدور حوله ، وأراد أن يثب بالكوفة فى المحرم ، فجاء رجل منهم يقال له عبد الرحمن بن شُرَيح ، فلقى جماعة من إخوانه ، واجتمعوا فى منزل أحدهم ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايعناه ، ولا ندرى أرْسَلَه إلينا ابن الحنفية أم لا ؟ فانهضوا بنا إلى ابن الحنفية فلنخبرْه بما قَدِم علينا به ، وبما دعانا إليه ، فإن رخَّصَ لنا فى اتباعِهِ اتبعناه ، وإن نهانا عنهُ اجتنبناه ، فوالله ما ينبغى أن يكون شىء من أمر الدنيا آثَرَ عندنا من سلامة ديننا » .

فقالوا له : أرشدك الله ، فقد أصبتَ وَوُفِّقت ، اخرج بنا إذا شئت ، فأجمع رأيهم على أن يخرجوا إليه ، فلما قدموا عليه بدأ عبد الرحمن بن شريح ، فتكلم :

(تاريخ الطبرى ٧ : ٩٦)

٦٩ — خطبة أخرى له

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنكم أهلُ بيتٍ خَصَّكم الله بالفضيلة ، وشرَّفكم بالنبوَّة ، وَعَظَّم حقكم على هذه الأمة ، فلا يَجْهلُ حَقَّكم إلا مغبونُ الرأى ، مخسوس النَّصِيب ، قد أُصبتم بحسينٍ رحمة الله عليه ، عَظُمت مصيبةً ! ما قد خصكم بها ، فقد عمَّ بها المسلمون ، وقد قَدِم علينا المختار بن أبى عبيد ، يزعم لنا أنه قد جاءنا من تِلْقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء فبايعناه على ذلك ، ثم إنا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه ، وَنَدَبَنا له ، فإن أَمَرْتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه » .

ثم تكلموا واحداً واحداً بنحوٍ مما تكلم به صاحبهم وهو يسمع حتى إذا فرغوا .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٩٦)

٧٠ — خطبة محمد بن الحنفية

حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد : فأمّا ما ذكرتم مما خَصَّنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، فلله الحمد ، وأما ماذكرتم من مصيبتنا بحسين ، فإن ذلك كان فى الذكر الحكيم[1] ، وهى مَلْحَمَة[2] كُتبت عليه ، وكرامةٌ أهداها الله له ، رفَعَ بما كان منها درجاتِ قومٍ عنده ، وَوَضَعَ بها آخرين ، وكان أمر الله مفعولا ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وأما ماذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لَوَدِدْتُ أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء مِنْ خلقه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

فخرجوا من عنده ، وهم يقولون : قد أذِنَ لنا ، قد قال : « لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه » ولو كره لقال : « لاتفعلوا » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٩٧)

٧١ — خطبة المختار

وبلغ المختار مخرجُهم فشقّ ذلك عليه ، وخشى أن يأتوه بأمر يُخَذِّل الشيعة عنه ، فكان يقول :

« إن نُفَيْرًا منكم ارتابوا ، وتحيَّرُوا وخابوا ، فإن هم أصابوا ، أقبلوا وأنابوا ، وإن هم

---

(١) يريد أنه سبق به قضاء الله تعالى . (٢) الملحمة : الوقعة العظيمة القتل .

كبَوْا وهابوا ، واعترضوا وانجابوا[1] ، فقد ثَبَرُوا[2] وَحَابُوا[3] » وأقبل القوم فدخلوا على المختار ، فقال لهم : ما وراءكم ؟ قد فُتنتم وارتبتم ، فقالوا له : قد أُمِرنَا بنصرتك ، فقال : الله أكبر ! أناَ أبو إسحق ! اجمَعوا إلىَّ الشيعة ، فجمع له منهم من كان منه قريباً فقال :

« يا معشر الشيعة : إن نفراً منكم أحبوا أن يعلموا مِصْدَاقَ ما جئت به ، فرَحَلُوا إلى إمام الهدى ، والنجيب المرتضَى ، ابن خيرِ من طَشَى[4] ومشى ، حاشا النبيَّ المُجْتَبَى[5] فسألوه عما قَدِمْتُ به عليكم ، فنبأهم أنى وَزِيره وظهيره ، ورسوله وخليله ، وأمركم باتباعى وطاعتى فيما دعوتكم إليه، من قتال المُحِلِّين، والطلب بدماء أهل بيت نبيكم المُصْطَفَيْنَ » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٩٧)

٧٢ — خطبة عبد الرحمن بن شريح

فقام عبد الرحمن بن شريح فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا معشر الشيعة فإنا قد كنا أحببنا أن نستثبتَ لأنفسنا خاصَّةً ، ولجميع إخواننا عامة ، فقدمنا عَلَى المهدىّ بن علىّ ، فسألناه عن حربنا هذه ، وعما دعانا إليه المختار منها ، فأمَرَنا بمظاهرته وموازرته ، وإجابته إلى ما دعانا إليه ، فأقبلنا طيبةً أنفسُنا

---

(١) انجابت السحابة : انكشفت ، والمعنى : وإن هم انسلخوا منا وانشقوا علينا .

(٢) ثبر ، كقعد ثبورا : هلك . (٣) حاب : أثم ، والحوب بالفتح والضم : الإثم ، وفى الأصل خابوا ، وأرى أن تكون بالحاء لتقدم كلمة خابوا فى أول قوله .

(٤) هكذا فى الأصل ، ولم أجد كلمة « طشى » فى كتب اللغة ، وفى لسان العرب « تطشى المريض برىء » وليست مناسبة هنا ، وأرى أن العبارة « ابن خير من مشى وطشى » بتأخير طشى ، وأنه إتباع للفعل قبله لتقويته وتوكيده ، وهو كثير فى كلام العرب ، كقولهم : حسن بسن ، وعفريت نفريت ، وعطشان نطشان وشحيح بحيح ، وكثير بثير ، وحياك الله وبياك ـ وإن قيل إن الإتباع لا يكاد يكون بالواو ـ اقرأ باب الإتباع فى المزهر للسيوطى (١ : ٢٤٤) وفى الأمالى (٢ : ٢١١) . (٥) المختار .

منشرحةً صدورُنا ، قد أذهب الله منها الشك وَالغِلّ والرَّيْبَ ، واستقامت لنا بصيرتنا في قتالنا عدونا ، فليبلِّغْ ذلك شاهدُكم غائبَكم ، واستعدوا وتأهبوا » ثم جلس .

وقاموا رجلاً فرجلاً فتكلموا بنحو من كلامه، فاستجمعت له الشيعة وَحَدِبت[1] عليه.

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٣ — خطبة المختار في دار إبراهيم بن الأشتر

ومضى المختار في بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه إلى دار إبراهيم بن الأشتر[2] يدعوه أن يناصره ، فاستأذن عليه فأذن له ، وألقى لأصحابه وسائِد فجلسوا عليها ، وجلس المختار معه على فراشه ، فقال المختار :

« الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وصلى الله على محمد والسلام عليه ، أما بعد : فإن هذا كتاب إليك من المهدى محمد بن أمير المؤمنين الوصى ، وهو خيرُ أهل الأرض اليومَ ، وابنُ خير أهل الأرض كلها قبل اليوم ، بعد أنبياء الله ورسله ، وهو يسألك أن تنصرنا وتوازرنا ، فإن فعلت اغتبطتَ ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجة عليك ، وسيغنى الله المهدى محمداً وأولياءه عنك[3] » فبايعه إبراهيم .

---

(١) عطفت . (٢) وكان أصحاب المختار قد دعوه أن ينضم إلى زمرتهم فقال : إنى قد أجبتكم إلى مادعوتمونى إليه على أن تولونى الأمر ، فقالوا هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدى، وهو الرسول والمأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعته ، فسكت عنهم ابن الأشتر ، وانصرفوا إلى المختار فأخبروه بما رد عليهم .

(٣) ثم دفع إليه الكتاب ففض خاتمه وقرأه ، فإذا هو « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدى إلى إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنى قد بعثت إليكم بوزيرى ، وأمينى ،ونجيبى الذى ارتضيته لنفسى ، وقد أمرته بقتال عدوى ، والطلب بدماء أهل بيتى، فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك إن نصرتنى وأجبت دعوتى ، وساعدت وزيرى كانت لك عندى بذلك فضيلة ، ولك بذلك أعنة الخيل ، وكل جيش غاز ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد أهل الشأم ، على الوفاء بذلك على عهد الله ، فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل ، =

وجعل المختار وأصحابه يديرون أمورهم حتى اجتمع رأيهم عَلَى أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ ، فثاروا بالكوفة ، ونَشِبَ القتال بينهم وبين جند ابن مطيع . (تاريخ الطبرى ٧ : ٩٨)

٧٤ — خطبة يزيد بن أنس الأسدى

ولما حملت خيل ابن مطيع عَلَى أصحاب المختار خطبهم يزيد بن أنس الأسدى محرِّضاً، فقال:

« يا معشر الشيعة : قد كنتم تُقتَلون وتُقْطَع أيديكم وأرجلكم ، وتُسْمَل أعينكم ، وتُرفعون على جذوع النخل ، فى حُبِّ أهل بيت نبيكم ، وأنتم مقيمون فى بيوتكم وطاعة عدوكم ، فما ظَنُّكم بهؤلاء القوم إن ظَهَرُوا عليكم اليوم ؟ إذن والله لا يَدَعون منكم عيناً تَطْرِف[1] ، وليقتُلُنَّكُمْ صَبْرًا[2] ، وَلَتَرَوُنَّ منهم فى أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموتُ خيرٌ منهُ ، والله لا ينجيكم منهُ إلا الصدق والصبر والطعن الصائب فى أعينهم ، والضرب الدَّرَّاك على هامهم ، فتيَسَّرُوا للشَّدَّة ، وتهيئوا للحَمْلة ، فإذا حركت رايتى مرتين فاحملوا » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٤)

٧٥ — خطبة عبد الله بن مطيع

وحمل أصحاب المختار على جند ابن مطيع فكشفوهم وهزموهم ، فخرج ابن مطيع فقام فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

— الكرامة ، وإن أبيت هلكت هلاكا لا تستقيله أبدا ، والسلام عليك » فلما قضى إبراهيم قراءة الكتاب، قال : قد كتب إلى ابن الحنفية وقد كتبت إليه قبل اليوم ، فما كان يكتب إلى إلا باسمه واسم أبيه ، قال له المختار : إن ذلك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم : فمن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إلى ؟ فشهد من معه بأنه كتاب ابن الحنفية إليه ، فقال إبراهيم : ابسط يدك أبايعك فبسط المختار يده فبايعه إبراهيم .

(١) طرف البصر (كضرب) تحرك، وطرف بصره (كضرب أيضا) أطبق أحد جفنيه على الآخر .

(٢) قتل صبرا : هو أن يحبس ويرى حتى يموت .

« أيها الناس : إن من أعجب العجب عَجْزَكم عن عصبة منكم ، قليلٍ عددُها ، خبيثٍ دِينُها ، ضَالَّةٍ مُضِلّةٍ ، اخرجوا إليهم ، فامنعوا منهم حريمكم ، وقاتلوهم عن مصركم ، وامنعوا منهم فيئكم ، وإلاّ ليشاركُنَّكمْ في فيئكم مَنْ لا حَقَّ له فيه ، والله لقد بلغني أن فيهم خمسمائة رجل من محرَّريكم عليهم أمير منهم ، وإنما ذهابُ عزّكم وسلطانِكم ، وتغيُّرُ دينكم حين يكثرون » . ثم نزل . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٦)

٧٦ — تحريض ابن الأشتر أصحابه

واستنفر ابن مطيع الناس لقتال المختار وصَدِّه ، وأقبل إبراهيم بن الأشتر في أصحابه فقال لهم :

« قرِّبوا خيولكم بعضها إلى بعض ، ثم امشوا إليهم مُصْلِتين[1] السيوف ، ولاَيَهُولَنَّكم أن يقال : جاءكم شَبَثُ بن رِبْعِيٍّ ، وآلُ عُتَيْبة بن النَّهّاس ، وآل الأشعث ، وآل يزيد بن الحارث ، وآل فلان — فسمَّى بيوتاتٍ من بيوتات أهل الكوفة — ثم قال : إن هؤلاء لو قد وجدوا بهم حر السيوف قد انصفقوا[2] عن ابن مطيع انصفاقَ المِعْزَى عن الذئب » ثم قال لأصحابه شُدُّوا عليهم ، فِدًا لكم عمى وخالى .

فما لبّثهم أنْ هزمهم ، فركب بعضهم بعضاً ، ومضى بأصحابه في آثارهم حتى دخلوا السوق والمسجد ، وحصروا ابن مطيع ثلاثا . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٧)

٧٧ — خطبة ابن مطيع وهو محصور

فلما اشتد الحصار على ابن مطيع وأصحابه ، أشار عليه شَبَثُ بن رِبْعِيّ أن يخرج من القصر لايشعر به أحد ، حتى ينزل منزلاً بالكوفة عند من يستنصحه ، ويثق به ، ولا يُعلَمُ بمكانه إلى أن يخرج فيلحق بصاحبه (ابن الزبير) .

---

(١) أصلت السيف : جرده من غمده. (٢) انصفق : انصرف.

وفى مساء اليوم الثالث دعا ابن مطيع أصحابه فذكر الله بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وقال :

« أما بعد : فقد علمت الذين صَنَعوا هذا منكم مَنْ هُمْ ، وقد علمت إنما هم أراذلكم وسُفهاؤكم وطَغَامكم وأخِسّاؤكم ، ماعدا الرجلَ أو الرجلين ، وأنّ أشرافكم ، وأهل الفضل منكم لم يزالوا سامعين مطيعين مناصحين ، وأنا مُبلغ ذلك صاحبى ، ومُعْلِمه طاعتكم وجهادَكم عدوّه ، حتى كان الله الغالبَ على أمره ، وقد كان من رأيكم وما أشرتم به علىّ ماقد علمتم ، وقد رأيت أن أخرج الساعة » .

فقال له شَبَث : « جزاك الله من أمير خيراً ، فقد والله عَفَفْتَ عن أموالنا ، وأكرمت أشرافنا ، ونصَحت لصاحبك ، وقضيت الذى عليك ، والله ما كنا لنفارقَكَ أبداً ، إلا ونحن منك فى إذن » فقال : جزاكم الله خيراً ، ثم خرج ، وخلى القصر ، وفتح أصحابه الباب ، فقالوا : يابن الأشتر ، آمنون نحن ؟ قال : أنتم آمنون ، فخرجوا فبايعوا المختار . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٨)

٧٨ — خطبة المختار بعد هرب ابن مطيع

وجاء المختار حتى دخل القصر فبات به ، وأصبح أشراف الناس فى المسجد وعلى باب القصر ، وخرج المختار ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال :

« الحمد لله الذى وعد وليَّه النصرَ ، وعدوّه الخُسْر ، وجعله فيه إلى آخر الدهر ، وعداً مفعولا ، وقضاء مَقْضِيّا ، وقد خاب من افترى ، أيها الناس : إنه رُفعت لنا رايةٌ ، وَمُدّت لنا غاية ، فقيل لنا فى الراية أنِ ارفعوها ولاَ تَضَعُوهاَ ، وفى الغاية أنِ أجْرُوا إليها ولاَ تَعْدُوها ، فسمعنا دعوة الداعى ، ومقالة الواعى ، فكم من ناعٍ وناعيةٍ ، لِقَتْلى

فى الوَاعِيَةِ[1] وبُعْدًا لمن طغى ، وأدبر وعَصَى ، وَكَذَّب وتولّى ، ألا فادخلوا أيها الناس فبايعوا بيعة هدى ، فلا والذى جعل السماء سقفًا مكفوفًا[2] ، والأرض فِجَاجا[3] سُبُلاً ، ما بايعتم بعد بيعة علىّ بن أبى طالب وآل علىّ أهْدَى منها » .

ثم نزل ، ودخل عليه أشراف الناس ، فبسط يده وابتدره الناس فبايعوه ، وجعل يقول : تبايعوننى على كتاب الله وسنة نبيهِ ، والطلبِ بدماء أهل البيت ، وجهاد المُحِلِّين ، والدفع عن الضعفاء ، وقتالِ من قاتلنا ، وَسِلْمِ من سالمنا ، والوفاء ببيعتنا ، لاَ نُقيلكم ولا نستقيلكم » فإذا قال الرجل نعم : بايعه .

ثم وثب المختار بمن كان بالكوفة من قتلة الحسين رضى الله عنه والمشايعين عَلَى قتله ، فقتل من قَدَر عليه منهم ، وهرب من الكوفة بعضهم فلم يقدر عليه ، وكان ممن قتلهم عمر بن سعد بن أبى وقاص وَابنهُ ، وبعث برأسيهما إلى محمد بن الحنفية .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٨)

٧٩ — خطبة المختار وقد استنصره ابن الحنفية

ولما كتب محمد بن الحنفية رضى الله عنه إلى المختار يعلمه بما ناله هو ومن معهُ من ابن الزبير من سَجْنهم وتوعدهم بالقتل والتحريق بالنار إن لم يبايعوا له[4] نادى المختار فى الناس ، وقرأ عليهم الكتاب وقال :

---

(١) الواعية : الصراخ على الميت ونعيه (ولا فعل له) والمعنى : كم من ناع وناعية لأناس قتلوا بسبب نعيهم وصراخهم على من قتل من الحسين وأصحابه ، فهو يستثيرهم لطلب الثأر من أعدائهم الذين لم يكفهم مااقترفوه من قتل الحسين وشيعته ، بل ضموا إلى جرمهم أن قتلوا من نعى هؤلاء الشهداء وبكاهم .

(٢) الكفة بالكسر ويضم : حبالة الصائد ، وكل مستدر . (٣) الفجاج : جمع فج ، وهو الطريق الواضح الواسع . (٤) وذلك أن محمد بن الحنفية كان قد أبى أن يبايع ابن الزبير إذ كره البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة — وكان ابن الزبير يبغضه ويحسده على أيده وقوته — فحبسه مع أربعة عشر رجلا من

« هذا كتاب مَهْدِيِّكم ، وصريح[1] أهل بيت نبيكم ، وقد تُرِكوا محظورًا[2] عليهم كما يُحْظَر على الغنم ، ينتظرون القتل والتحريق بالنار ، فى آناء الليل وتارات[3] النهار ، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مُؤَزَّرًا[4] ، وإن لم أسرِّبْ إليهم الخيل فى إثْر الخَيْل ، كالسَّيْلِ يتلوه السيل ، حتى يَحُلّ بابن الكاهلية[5] الويلُ » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٦)

بنى هاشم فى سجن عارم وقال : لتبايعن أو لأحرقنكم ، وأعطى الله عهدا إن لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ماتوعدهم به ، وضرب لهم فى ذلك أجلا . فكتب ابن الحنفية إلى المختار مستصرخا ، فوجه إليه جماعة من أصحابه ، وكانوا يسيرون الليل ويكمنون النهار ، حتى انتهوا إلى مكة ، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم ، وكان قد بقى من الأجل يومان . فكسروا سجن عارم واستخرجوا منه ابن الحنفية ومن معه ، وقالوا له: خل بيننا وبين عدو الله ابن الزبير، فقال لهم : إنى لا أستحل القتال فى حرم الله ، وخرج هو وأصحابه إلى شعب على .

(١) الصريح : الخالص من كل شىء . (٢) حظر الشىء وعليه (كقتل) منعه وحجر ، ويقال لما حظر به على الغنم وغيرها ليمنعها ويحفظها حظيرة . (٣) جمع تارة، وهى هنا الحين .

(٤) نصر مؤزر : أى بالغ شديد من التأزير وهو التقوية .

(٥) ابن الكاهلية ، هو عبد الله بن الزبير ، والكاهلية أم أبى جده ، فهو عبد الله بن الزبير بن العوام ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب ، والكاهلية أم خويلد بن أسد ، واسمها زهرة بنت عمرو ابن خنثر بن رويبة بن هلال من بنى كاهل بن أسد بن خزيمة، وروى أن عبد الله بن فضالة بن شريك الوالبى الأسدى — من بنى أسد بن خزيمة — أتى ابن الزبير فقال له : « نفدت نفقتى ، ونقبت راحلتى (نقب الخف كفرح: رق) قال : أحضرها فأحضرها ، فقال : أقبل بها أدبر بها ففعــل ، فقال : « أرقعها بسبت ، واخصفها بهلب ، وأنجد بها يبرد خفها ، وسر البردين تصح » (والسبت كحمل كل جلد مدبوغ. والهلب كقفل: الشعر أو ماغلظ منه أو شعر الذنب أو شعر الخنزير الذى يخرز به، والبردان بفتح الباء وسكون الراء ، والأبردان : الغداة والعشى) فقال ابن فضالة: إنى أتيتك مستحملا ، ولم آتك مستوصفا، فلعن الله ناقة حملتنى إليك (مستحملا أى طالبا أن تحملنى على ناقة أخرى تعطينيها) قال ابن الزبير : « إن وراكبها » (وإن هنا حرف جواب بمعنى نعم كأنه إقرار بما قال ، ومثله قول ابن قيس الرقيات :

ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنه)

فانصرف عنه ابن فضالة ، وقال فيه شعرا منه قوله :

٨٠ – خطبته وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد(١)

وخرج يشيِّع(٢) إبراهيم بن الأشتر حين شخَص لقتال عبيدالله بن زياد(٣) فقال للناس:

أقول لغلمتى شدوا ركابى	أجاوز بطن مكة فى سواد
فمالى حين أقطع ذات عرق	إلى ابن الكاهلية من معاد

فقال ابن الزبير لما بلغه هذا الشعر: «علم أنها شر أمهاتى فعيرنى بها وهى خير عماته» — انظر الأغانى «١ : ٨» وشرح ابن أبى الحديد «م ٤ : ص ٤٩٥» ومجمع الأمثال الميدانى (١ : ٧٥) وفيه «فلما بلغ الشعر ابن الزبير قال: لو علم لى أما ألأم من عمته لسبنى بها» وبهذه المناسبة نقول: إن ابن الزبير كان شديد البخل وكان ذلك من أعظم أسباب إخفاقه وانفضاض الناس من حوله، رووا أنه كان يطعم جنده تمرا ويأمرهم بالحرب فإذا فروا من وقع السيوف لامهم وقال لهم: أكلتم تمرى، وعصيتم أمرى، فقال بعضهم:

ألم تر عبد الله والله غالب   على أمره يبغى الخلافة بالتمر

وكسر بعض جنده خمسة أرماح فى صدور أصحاب الحجاج، وكلما كسر رمحا أعطاه رمحا، فشق عليه ذلك، وقال: خمسة أرماح! لا يحتمل بيت مال المسلمين هذا. وجاءه أعرابى سائل فرده، فقال له: لقد أحرقت الرمضاء قدمى، فقال: بل عليهما يبردا، (ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٨٧) وقدم عليه معن بن أوس بمكة، فأنزله دار الضيفان — وكان ينزلها الغرباء وأبناء السبيل والضيفان — فأقام يومه لم يطعم شيئا، حتى إذا كان الليل جاءهم ابن الزبير بتيس هرم هزيل، فقال: كلوا من هذا وهم نيف وسبعون رجلا، فغضب معن وخرج من عنده، وأتى ابن عباس فقراه وحمله وكساه، ثم أتى عبد الله بن جعفر فأعطاه حتى أرضاه، وأقام عنده ثلاثا حتى رحل، فقال معن فى ذلك:

رمانا أبو بكر (وقد طال يومنا)	بتيس من الشاء الحجازى أعفر
وقال: اطعموا منه «ونحن ثلاثة	وسبعون إنسانا» فيالؤم مخبر!
فقلنا له: لا تقربا، فأمامنا	جفان ابن عباس العلا وابن جعفر
وكن آمنا وارفق بتيسك إنه	له أعنز ينزو عليها، وأبشر

«الأغانى ج ١٠ : ص ١٥٧».

وقال عبد الملك بن مروان: «ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى، وإن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام، ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا» «تاريخ الطبرى ج ٨ : ص ٥٨».

(١) قدمنا لك أن مروان بن الحكم لما تمت له البيعة بعث إلى العراق جيشا عليه عبيد الله بن زياد، وعلمت ما كان من أمره وأمر التوابين من الشيعة بعين الوردة من أرض الجزيرة ثم التقى به ابن الأشتر على شاطئ نهر خازر من أرض الموصل. (٢) وقد خرج يشيعه ماشيا، فقال له إبراهيم: اركب يا أبا إسحاق، فقال: إنى أحب أن تغبر قدماى فى نصرة آل محمد صلى الله عليه وسلم فشيعه فرسخين.

(٣) وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حماما بيضا ضخاما، وقال: إن رأيتم الأمر لنا فدعوها، وإن—

« إن استقمتم فبنصر الله ، وإن حِصْتم حَيْصَةً[1] فإنى أجد فى مُحْكَمَ الكتاب ، وفى اليقين والصواب، أنَّ الله مؤيِّدُكم بملائكةٍ غِضابٍ، تأتى فى صُوَرِ الحمام دُوَيْنَ[2] السّحاب » . (الكامل للمبرد ٢ : ١٦٩)

٨١ — خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير

ولما بلغ المختار مسير مُصْعَب بن الزبير إليه من البصرة[3] ، قام فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يأهل الكوفة ، يأهل الدين ، وأعوانَ الحق ، وأنصارَ الضعيف ، وشيعةَ الرسول ، وآل الرسول ، إن فُرَّاركم الذين بَغَوْا عليكم أتَوْا أشباههم من الفاسقين فاستغوَوْهم عليكم ، لِيَمْصَحَ[4] الحقُّ ، وَيَنتعش الباطلُ ، ويُقتلَ أولياء الله ، والله لو تهلِكون ماعُبد الله فى الأرض إلا بالفَرْى[5] على الله ، واللعن لأهل بيت نبيه ،

= رأيتم الأمر علينا فأرسلوها، فلما التقوا كانت على أصحاب إبراهيم الدائرة فى أول النهار ، فأرسل أصحاب المختار الطير ، فصايح الناس : الملائكة ! فتراجعوا واقتتل الناس حتى اختلط الظلام ، وأسرع القتل فى أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ، ووضع السيف فيهم حتى أفنوا ، وقال ابن الأشتر : لقد ضربت رجلا على شاطئ هذا النهر ، فرجع إلى سيفى فوجدت منه رائحة المسك ، ورأيت إقداما وجرأة فصرعته ، فذهبت يداه قبل المشرق ورجلاه قبل المغرب : فانظروه فالتمسوه فإذا هو عبيد الله بن زياد ، وكان مقتله سنة ٦٧ هـ .

(١) حاص يحيص حيصا : عدل وهرب . (٢) مصغر دون : أى قريبا منه .

(٣) وكان أخوه عبد الله بن الزبير بعثه عليها (سنة ٦٧ هـ) بعد عزل القباع عنها (والقباع كشجاع هو الحرث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى أخو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة الشاعر) فقدم على مصعب شبث بن ربعى ، وجاءه أشراف الناس من أهل الكوفة ، وأخبروه بما اجتمعوا له وبما أصيبوا به، ووثوب عبيدهم ومواليهم ، وشكوا إليه وسألوه النصر لهم ، والسير إلى المختار معهم .

(٤) مصح كمنع : ذهب وانقطع ، والثوب أخلق ، والنبات ولى لون زهره : والظل قصر .

(٥) فرى الكذب كرمى : اختلقه كافتراه .

أَنْتَدِبوا[١] مع أحمر بن شُمَيط : فإنــكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قتل عاد[٢] وإِرَم » .

وتزاحف الجندان ، وانهزم أصحاب المختار ، وقتل (فى رمضان سنة ٦٧)[٣] .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٤٨)

---

(١) انتدب إليه : أسرع . (٢) أى أبدتموهم كما باد هؤلاء .

(٣) قال أبو العباس المبرد فى الكامل (٢ : ١٦٧) وكان المختــار لا يوقف له على مذهب كان خارجيا ، ثم صار زبيريا ، ثم صار رافضيا فى ظاهره ، وكان يدعى أنه يلهم ضربا من السجاعة لأمور تكون ثم يحتال فيوقعها ، فيقول الناس : هــذا من عند الله عز وجل ، فمن ذلك قوله ذات يوم : « لَتَنْزِلَنَّ من السماء نار دَهْماء ، فلتحرِقَنَّ دار أسماء » فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال : أو قد سجع أبو إسحق ؟هو والله محرق دارى ، فتركه والدار وهرب من الكوفة ، وقال فى بعض سجعه : « أمَا والذى شَرَع الأديان ، وجَنَّبَ الأوثان ، وكرَّه العصيان ، لأقتُلَنَّ أَزْدَ عُمَان ، وَجُلَّ قَيْسِ عَيْلاَن ، وتَمِيما أولياء الشيطان ، حاشا النجيب ظَبْيَان » فكان ظبيان النجيب يقول : « لم أزل فى عمر المختار أتقلب آمنا » .

وقال ابن عبد ربه فى العقد الفريد (٢ : ٢٦٥) : « ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة ، وعمر ابن سعد جعل يتتبع قتلة الحسين بن على ومن خذله فقتلهم أجمعين ، فلما أفناهم دانت له العراق ، ولم يكن صادق النية ، ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك بغيته أظهر للناس قبح نيته ، فادعى أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحى من الله ، وكتب إلى أهل البصرة «وبلغنى أنكم تكذبوننى وتكذبون رسلى ، وقد كذبت الأنبياء من قبلى ، ولست بخير من كثير منهم » فلما انتشر ذلك عنه كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير (يعنى مصعبا) وهو بالبصرة فخرج إليه ، وبرز إليه المختار فأسلمه إبراهيم بن الأشتر ووجوه أهل الكوفة ، فقتله مصعب وقتل أصحابه » .

وقال الشهرستانى فى الملل والنحل (١ : ١٥٣) : « ومن مذهب المختار أنه يجوز البداء على الله تعالى ، والبداء له معان ، البداء فى العلم وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبداء فى الإرادة وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبداء فى الأمر وهو أن يأمر بشئ ثم يأمر بعده بخلاف ذلك ، وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبداء ، لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال ، إما بوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام (ابن الحنفية) ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء وحدوث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله =

٨٢ — خطبة محمد بن الحنفية

يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام

خطب ابن الزبير فنال من الإمام علىّ كرّم الله وجهه ، فبلغ ذلك ابنه محمدَ ابن الحنفية رضى الله عنه ، فأقبل حتى وُضع لَهُ كرسىّ قدّامَهُ ، فعلاه وقال :

« يا معشر قريش ، شاهت الوجوه[1] ، أيُنْتَقَص علىّ وأنتم حُضور ؟ إن عليًّا كان سَهمًا صادقًا ، أحَدَ مَرَامى الله على أعدائه ، يقتلهم لكفرهم ، وَيَهُوّعهم[2] مآكلَهم ، فثقلَ عليهم ، فرمَوه بصِرْفة الأباطيل[3] ، وإنا معشر له على نَهْج[4] من أمره بنو الحِسْبة[5] من الأنصار ، فإن تكن لنا الأيام دولة ننثر عظامهم ، ونحسِر[6]

دايلا على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم ، وقد تبرأ ابن الحنفية منه حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس بأنه من دعاته ورجاله ، وتبرأ من الضلالات التى ابتدعها من التأويلات الفاسدة ، والمخاريق المموهة ، فن مخاريقه أنه كان عنده كرسى قديم قد غشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين على عليه السلام ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبنى إسرائيل ، فكان إذا حارب خصومه يضعه فى براح الصف ، ويقول : قاتلوا ولكم الظفر والنصرة ، وهذا الكرسى محله فيكم محل التابوت فى بنى إسرائيل وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مددا لكم أخذا من قوله تعالى : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هٰرُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ويقال إنه اشتراه بدرهمين من نجار — انظر قصته فى تاريخ الطبرى (٧ : ١٤٠) .

(١) شاه وجهه : قبح . (٢) هوعه ماأكل : قيأه إياه . (٣) مؤنث صرف ، والصرف : الخالص من كل شىء ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والأباطيل : جمع أبطولة بضم الهمزة أو إبطالة بكسرها أو هو جمع باطل على غير قياس . (٤) النهج : الطريق الواضح .

(٥) الحسبة : الاحتساب (طلب الأجر) فى الأعمال الصالحات ، وعند المكروهات هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر ، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلبا للثواب المرجو بها . (٦) حسره كنصر وضرب : كشفه .

عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية : « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

فعاد ابن الزبير إلى خطبته وقال : « عذَرت بنى الفواطم يتكلمون ، فما بالُ بنى الحنفية ؟ » فقال محمد : « يابن أمّ رُومَان[1] ، ومالى لا أتكلم ؟ أليست فاطمة بنت محمد حَلِيلَةَ[2] أبى وأمّ إخوتى ؟ أوليست فاطمة[3] بنت أسد بن هاشم جدّتى ؟ أوليست فاطمة[4] بنت عمرو بن عائذ جدة أبى ؟ أما والله لولا خديجة بنت خُوَيلد[5] ما تركت فى بنى أسد عظماً إلا هشمته ، وإن نالتنى فيه المصائب صبرت » .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٢)

٨٣ — عبد الله بن عباس ومعاوية

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قريش ، فلما سلم وجلس ، قال له معاوية : « إنى أريد أن أسألك عن مسائل » قال : « سل عما بدا لك » قال : « ما تقول فى أبى بكر ؟ » قال : « رحم الله أبا بكر ، كان والله لِلقرآن تالياً ، وعن المنكر نَاهياً ، وَبِذَنْبه عارفا ، ومن الله خائفاً ، وعن الشُّبُهَاتِ زاجراً ، وبالمعروف آمراً ، وبالليل قائمًا ، وبالنهار صائِمًا ، فاق أصحابه وَرَعًا وَكَفَافًا[6] ، وسادهم زُهداً وعفافاً ، فَغَضِبَ الله على من أبغضه وطعن عليه » قال معاوية : « إيهًا[7] يابن عباس ، فما تقول فى عمر بن الخطاب ؟ » قال : « رحم الله أبا حفصٍ عمر ، كان والله حليفَ الإسلام ،

---

(١) أم رومان بنت عامر هى زوج أبى بكر رضى الله عنه وأم السيدة عائشة . (٢) زوجته .

(٣) هى فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أم الإمام على كرم الله وجهه ، وقد أسلمت بعد عشر من المسلمين فكانت الحادى عشر ، وهى أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء .

(٤) هى فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم أم أبى طالب ، وهى أم عبد الله والد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . (٥) هى زوج النبى صلى الله عليه وسلم وعمة الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد .

(٦) أى رضا بالكفاف ، والكفاف من الرزق : ماكف عن الناس وأغنى . (٧) أمر بالسكوت أى حسبك .

ومأوى الأيتام، ومنتهى الإحسان، ومحلّ الإيمان، وَكَهْفَ[١] الضعفاء، وَمَعْقِل الحُنَفَاء[٢]، قام بحق الله عزّ وجلّ صابرًا مُحْتَسِبًا[٣]، حتى أوضح الدين، وفتح البلاد وَأمَّنَ العبادَ، فأعقب الله على من يَنْتَقِصُه اللعنة إلى يوم الدين». قال: «فما تقول فى عثمان؟» قال: «رحم الله أبا عمرو كان والله أكرم الجَعَدَةِ[٤]، وأفضل البَرَرة، هَجَّادًا[٥] بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر النار، نَهَّاضًا عند كل مَكْرُمة، سَبَّاقًا إلى كلّ مِنْحَة، حَيِيًّا أبيًّا وَفِيًّا، صاحبَ جيش العُسْرَةِ[٦]، وَخَتَنَ[٧] رسول الله صلى الله عليه وآله، فأعقب الله على من يلعنهُ لعنة اللاعنين، إلى يوم الدين» قال: «فما تقول فى علىّ؟» قال: «رضى الله عن أبى الحسن، كان والله عَلَمَ الهدى، وَكَهْف التُّقى، وَمَحِل الحِجَا[٨]، وَبحر الندى، وَطَود النُّهَى[٩]، وَكَهْف العلا، لِلْوَرَى داعيًا إلى المَحَجَّةِ[١٠]، متمسكا بالعُرْوَةِ الوُثْقى، خير من آمن واتقى، وأفضل من تقمَّصَ وارتدى، وَأبرّ من انتعل وَسَعَى[١١]، وأفصح من تنفَّس وقرا، وَأكثر من شَهِدَ النَّجْوَى — سوى الأنبياء والنبى المصطفى — صاحب القبلتين، فهل يوازيه أحد؟ وأبو السِّبْطَيْنِ[١٢] فهل يقارنه بَشر، وزوج خير النِّسْوان[١٣]، فهل يفوقهُ قاطِنُ بلد؟ لِلأُسُود قَتَّال، وفى الحروب خَتَّال[١٤]، لم تر عينى مثله ولن ترى، فعلى من انتقصهُ

(١) الكهف: الملجأ، وكذا المعقل. (٢) جمع حنيف، وهو الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه.

(٣) احتسب بكذا أجرا عند الله: اعتده ينوى به وجه الله. (٤) الكرام، يقال للكريم: جعد بفتح فسكون، فأما إذا قيل فلان جعد اليدين أو جعد الأنامل فهو البخيل، وربما لم يذكروا معه اليد.

(٥) الهجاد والهجود: بفتح الهاء، والمتهجد: المصلى بالليل. (٦) تقدم شرحه فى خطبة ذى الكلاع الحميرى. راجع الجزء الأول ص ٣٤٠. (٧) أى صهره وقد تزوج السيدة رقية والسيدة أم كلثوم ابنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم. (٨) المحمل فى الأصل: شقان على البعير يحمل فيهما العديلان، والحجا: العقل والفطنة. (٩) الطود: الجبل، والنهى العقل. (١٠) الطريق الواضح.

(١١) فى الأصل «واسماء» وهو تحريف. (١٢) الحسن والحسين رضى الله عنهما، وهما سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم، (والسبط ولد الولد). (١٣) السيدة فاطمة رضى الله عنها.

(١٤) خداع، من الختل: وهو الخداع، والمراد أنه ذو بصر بالحروب.

لعنة الله والعباد ، إلى يوم التّناد[1] » قال : « إيهًا يابن عباس ، لقد أكثرت فى ابن عمك » قال : « فما تقول فى أبيك العباس ؟ » قال : « رحم الله العباسَ أبا الفضل ، كان صِنوَ[2] نبى الله صلى الله عليه وسلم ، وَقُرَّة عين صفىّ الله ، سيد الأعمام ، له أخلاق آبائه الأجواد ، وأحلام أجداده الأمجاد ، تباعدت الأسباب فى فضيلته ، صاحب البيت والسّقاية والمَشاعر[3] والتلاوة ، ولِمَ لا يكون كذلك ، وقد ساسه أكرمُ من دَبّ[4] » فقال معاوية : « يابن عباس ، أنا أعلم أنك كَلْمَانِىٌّ[5] أهل بيتك » قال : « ولم لا أكون كذلك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم فَقِّهْهُ فى الدين ، وَعَلِّمْهُ التأويل » .

ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام : « يا معاوية ، إن الله جل ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه ، خَصّ محمداً صلى الله عليه وسلم بصَحابةٍ آثروه على الأنفس والأموال ، وبذلوا النفوس دونه فى كل حال ، ووصفهم الله فى كتابه فقال : (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) ، قاموا بمَعَالم الدين ، وناصحوا الاجتهاد للمسلمين ، حتى تهذبت طرقه ، وقويت أسبابه ، وظهرت آلاء[6] الله ، واستقرّ دينه ، ووضَحَت أعلامه ، وأذل الله بهم الشرك ، وأزال رُوحه ، ومحا دعائمه ، وصارت كلمةُ الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السُّفْلى ، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية ، والأرواح الطاهرة العالية ، فقد كانوا فى الحياة لله أولياء ، وكانوا بعد الموت أحياء أمحاء ، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها ، وَخرجوا من الدنيا وهم بعدُ فيها» ، فقطع عليه معاوية الكلام ، وقال : إيها ابن عباس ، حديثًا فى غير هذا .

(مروج الذهب ٢ : ٨٤)

---

(١) يوم القيامة . (٢) الأصل فيه أنه إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو والاثنان صنوان والجمع صنوان برفع النون . (٣) شعار الحج بالكسر : مناسكه وعلاماته ، والشعيرة والشعارة بالفتح ، والمشعر : موضعها ، والمشعر الحرام بالمزدلفة .

(٤) فى الأصل : « من دب » أى مشى والمعنى عليه صحيح ، ولكنى أرجح أنه « من أدب » لقوله « وقد ساسه » . (٥) رجل كلمانى بسكون اللام وفتحها وكلمانى بكسرتين مشدد اللام ، وبكسرتين مشدد الميم وتكلام وتكلامة بكسر فسكون وتشد لامهما : جيد الكلام فصيحه . (٦) الآلاء : النعم جمع إلى (بفتح أوله وكسره) وألو (بفتح أوله) وألى (بفتح ثانيه وفتح أوله أو كسره) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

اجتمعت قريش الشام والحجاز عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس ، وكان جريئًا على معاوية حَقَّاراً له[1] ، فبلغه عنه بعض ما غمّه ، فقال معاوية :

٨٤ — مقال معاوية

رحم الله أبا سفيان والعباس ، كانا صَفِيَّيْنِ[2] دون الناس ، فحفظتُ الميت فى الحى ، والحى فى الميت ، استعملك علىّ يابن عباس على البصرة ، واستعمل عُبيد الله أخاك على اليمن ، واستعمل أخاك[3] على المدينة ، فلما كان من الأمر ما كان ، هَنَأتكم[4] ما فى أيديكم ، ولم أكشفكم عما وَعَت غرائركم[5] ، وقلت آخذ اليوم وأعطى غداً مثله ، وعلمت أن بَدْء اللؤم يضر بعاقبة الكرم ، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقيّأتكم ما أكلتم ، لا يزال يبلغنى عنكم ما تبرُك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم ، خذلتم عثمان بالمدينة ، وقتلتم أنصاره يوم الجمل ، وحاربتمونى بِصِفِّين ، ولعمرى لَبَنُو تَيْم وَعَدِىّ[6] أعظم ذنوبًا منا إليكم ، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر ، وسنُّوا فيكم هذه السُّنّة ، فحتى متى أُغضِى الجفون على القَذَى[7] ، وأسحب الذيول على الأذى ، وأقول لعلّ الله وعسى ! ما تقول يابن عباس ؟

---

(١) أى كثير التحقير له . (٢) الصفى : الحبيب المصافى . (٣) لما جاء عليا الخبر عن طلحة والزبير وعائشة أمر على المدينة تمام بن العباس ، وبعث إلى مكة قثم بن العباس (قثم كعمر) وخرج إليهم .

(٤) هنأه كمنع وضرب : أطعمه وأعطاه . (٥) جمع غرارة بالكسر وهى الجوالق (الشوال) .

(٦) يعنى ببنى تيم أبا بكر الصديق (وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى) ويعنى ببنى عدى عمر ابن الخطاب (وهو من عدى بن كعب بن لؤى) . (٧) القذى : مايقع فى العين والشراب .

٨٥ – مقال ابن عباس

فتكلم ابن عباس فقال :

رحم الله أبانا وأباك ، كانا صفيين متفاوضين(١) ، لم يكن لأبي من مال إلا ما فَضَلَ لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبي ، ولكنّ من هنّأ أباك بإخاء أبي أكثرُ ممن هنّأ أبي بإخاء أبيك ، نصر أبي أباك في الجاهليّة ، وحَقَنَ دمهُ في الإسلام(٢) ، وأما استعمال عليّ إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجالا لهواك لا لنفسك ، منهم ابن الحضرَميّ على البصرة فقُتِلَ ، و بُسْر بن أرْطاة على اليمن فخان ، وحبيب بن مرة على الحجاز فرُدَّ ، والضّحّاك بن قيس الفِهري على الكوفة فحُصِبَ ، ولو طلبت ما عندنا وقَيْنا أعراضنا ، وليس الذي يَبْلغك عنا بأعظمَ من الذي يبلغنا عنك ، ولو وُضع أصغر ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لمَحَقَها ، ولو وُضع أدنى عذرنا إليكم على مائة سيئة لحسَّنها ، وأما خذلنا عثمان فلو لزِمنَا نَصْرُهُ لنَصَرْناه ، وأما قتلنا أنصارَه يوم الجمل ، فعلى خروجهم مما دخلوا فيه ، وأما حربنا إياك بصفين ، فعلى تركك الحقّ وادّعائكَ الباطل ، وإما إغراؤك إيانا بتيم وعدي فلو أردناها ماغلبونا عليها » وسكت . (العقد الفريد ٢ : ١١٠)

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٦ — مقال معاوية لابن عباس

أقبل معاوية يوما على ابن عباس ، فقال :

« لو وليتمونا ما أتيتم إلينا ما أتينا إليكم من الترحيب والتقريب وإعطائكم الجزيل، وإكرامكم على القليل ، وصبري على ماصَبَرْت عليه منكم ، إني لا أريد أمراً إلا أظمأتم

---

(١) التفاوض : الاشتراك في كل شيء والمساواة . (٢) يشير إلى ما كان من العباس إذ شفع عند النبي عليه الصلاة والسلام في أبي سفيان يوم فتح مكة .

صَدَره[1] ، ولا آتى معروفا إلا صغَّرتم خَطَره[2] ، وأعطيكم العطية فيها قضاء حقوقكم ، فتأخذونها متكارهين عليها ، تقولون قد نقص الحقّ دون الأمل ، فأى أمل بعد ألف ألف أعطيها الرجل منكم ، ثم أكون أسرّ بإعطائها منه بأخذها ؟ والله لئن انخدعت لكم فى مالى ، وذلّت لكم فى عرضى ، أرى انخداعى كرما ، وذلى حلماً ، ولو وليتمونا رضينا منكم بالانتصاف ، ولا نسألكم أموالكم لعلمنا بحالكم وحالنا ، ويكون أبغضها إلينا أحبّها إليكم أن نُعفيكم » .

٨٧ - مقال ابن عباس

فقال ابن عباس :

« لو وَلِينا أحسنّا المواسَاة ، وامتنَنَّا بالأثَرَة[3] ، ثم لم نَغْشِم[4] الحى ، ولم نَشْتِم الميت[5] ، فلستم بأجْوَدَ منا أكُفّا ، ولا أكرم أنفساً ، ولا أصون لأعراض المروءة ، ونحن والله أعطَى للآخرة منكم للدنيا ، وأعطَى فى الحق منكم فى الباطل ، وأعطى على التقوى منكم على الهوى ، والقَسْم بالسَّويّة والعدل فى الرعية يأتيان عَلَى المنى والأمل ، ما أرضاكم منّا بالكَفَاف ، فلو رضيتم منّا لم نرض بأنفسنا به لكم ، والكَفَافُ رضاً من لاحَقّ له ، فلا تُبَخّلونا[6] حتى تسألونا ، ولا تَلْفِظُونا حتى تذوقونا » .

(العقد الفريد ٢ : ١١١)

---

(١) يقال ورد الماء ليستقى ثم صدر عنه : أى رجع صدرا « بسكون الدال » وصدورا والاسم منه الصدر « بفتحتين » أى أصدرتم ووردتم وارده ظمآن لاريان ، يريد أنهم دائبون على مخالفته فى كل أمر ، يرون ضد رأيه . (٢) قدره وشأنه . (٣) استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة والاسم الأثرة ، والمعنى وامتننا أى وتفضلنا وأنعمنا بما نستأثر به . (٤) غشمه غشما : ظلمه .

(٥) يعرض به فى سبه عليا على المنابر . (٦) لاترمونا بالبخل (بخله بالتشديد : رماه بالبخل، وأبخله : وجده بخيلا) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٨ — مقال معاوية لبنى هاشم

اجتمع بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال :

« يابنى هاشم : والله إن خيرى لكم لممنوح ، وإن بابى لكم لمفتوح ، فلا يَقطع خيرى عنكم علةٌ ، ولا يُوصِدُ[1] بابى دونكم مسألةٌ ، ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمرا مختلفا ، إنكم لترون أنكم أحق بما فى يدى منى ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلتم أعطانا دون حقنا ، وقصَّر بنا عن قَدْرنا ، فصرتُ كالمسلوب ، والمسلوب لاحمد له ، وهذا مع إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم » .

٨٩ — مقال ابن عباس

فأقبل عليه ابن عباس فقال :

« والله مامنحتنا شيئاً حتى سألناه ، ولا فتحت لنا بابا حتى قرَعناه ، ولئن قطعت عنا خيرَك ، فللهُ أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكُفَّنَّ أنفسنا عنك ، وأما هذا المال فليس لك منه إلا مالرجل من المسلمين ، ولنا فى كتاب الله حقان : حق فى الغنيمة وحق فى الفىء . فالغنيمة : ماغَلَبْنَا عليه . والفىء : ما اجتبيناه ، ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منا زائر ، يحمله خُفٌّ ولا حافر ، أكفاك أم أزيدك ؟ قال : كفانى فإنك لا تُعزَّ[2] ، ولا تُشَجُّ[3] » . (العقد الفريد ٢ : ١١١)

---

(١) أى ولا يغلق وفى الأصل « ولايوجد » وهو تحريف .

(٢) لاتعز أى لاتغلب ، عزه يعزه (كنصره) عزا (بالفتح) غلبه وفى الأصل « لاتغر » وهو مصحف .

(٣) شج رأسه : جرحه ، والمراد لاتغلب ولا تهزم .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٩٠ — مقال معاوية

وقال يومًا معاوية وعنده ابن عباس : « إذا جاءت بنو هاشم[١] بقديمها وحديثها ، وجاءت بنو أمية[٢] بأحلامها وسياستها ، و بنو أسد[٣] بن عبد العُزَّى بوافدها ودِيَاتها ، و بنو عبد الدار[٤] بحِجَابتها ولوائها ، وبنو مخزوم[٥] بأموالها وأفعالها ، و بنو تَيْم[٦] بِصِدِّيقها وجَوادها ، و بنو عَدِيّ[٧] بفارُوقها ومتفَكِّرها ، و بنو سَهم[٨] بآرائها ودهائها و بنو جُمَح[٩] بشرفها وأنوفها[١٠] ، وبنو عامر بن لُؤَيٍّ بفارسها وقَرِيعها[١١] ، فمن ذا يُجَلِّ مِضمارها ، ويجرى إلى غايتها ، ماتقول يابن عباس ؟ » .

---

(١) بنو هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة الخ . (٢) بنو أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف . (٣) بنو أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب . (٤) بنو عبد الدار بن قصى ، والحجابة : سدانة البيت الشريف؛ أى تولى مفاتيحه وخدمته ، واللواء راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة لعسكر إذا توجهوا إلى محاربة عدو فيجتمعون تحتها ويقاتلون عندها ، وكان قصى بن كلاب قد ولى البيت الحرام وأمر مكة والحكم بها ، وابتنى دارا بها وهى دار الندوة : وكانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها ، وقد ولد له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد ، فلما كبر قصى ورق ، قال لابنه عبد الدار — وهو أكبر ولده ، وكان فيما يزعمون ضعيفا ، وكان عبد مناف قد شرف فى زمان أبيه ، وذهب كل مذهب وعبد العزى ، وعبد — « أما والله لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها ، ولا يعقد لقريش لواء لحربهم إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمورها إلا فى دارك ، فأعطاه داره دار الندوة ، وأعطاه الحجابة واللواء والندوة والسقاية والرفادة ، (وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها إلى قصى به ، فيصنع طعاما للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ممن يحضر الموسم) . (٥) بنو مخزوم بن يقظة (بالتحريك) بن مرة بن كعب بن لؤى .

(٦) بنو تيم بن مرة بن كعب بن لؤى . (٧) بنو عدى بن كعب بن لؤى . (٨) بنو سهم ابن هصيص (كزبير) بن كعب بن لؤى ، ومنهم عمرو بن العاص السهمى . (٩) بنو جمح بن هصيص ابن كعب . (١٠) جمع أنف : وهو السيد . (١١) القريع : المقارع .

٩١ — مقال ابن عباس

قال : « أقول ليس حي يَفْخَرون بأمر إلا وإلى جنبهم من يشْرَكهم إلا قُرَيْشاً ، فإنهم يفخرون بالنبوة التي لايشارَكون فيها ، ولا يُسَاوَوْن بها ، ولا يُدفعون عنها ، وأشهد أن الله لم يجعل محمداً من قريش إلا وقريش خير البرية ، ولم يجعله في بني عبد المطلب إلا وهم خير بني هاشم ، يريد أن يفخر عليكم إلا بما تفخرون به ، إنّ بنا فُتح الأمر وبنا يُختم ، ولك مُلْك مُعَجَّل ، ولنا ملك مُؤَجَّل ، فإن يكن ملككم قبل ملكنا ، فليس بعد ملكنا ملك ، لأنّا أهل العاقبة ، والعاقبة للمتقين » .

(العقد الفريد ٢ : ١١٢)

٩٢ — عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

لما بلغ معاويةَ نَعْي الحسن بن عليّ رضي الله عنهُ أظهر الفرح والسرور ، حتى سجد وسجد من كان معهُ ، فبلغ ذلك عبد الله بن عباس ، وكان بالشام يومئذ ، فدخل على معاوية ، فلمّا جلس قال معاوية : يابن عبّاس هلك الحسن بن عليّ ، ولم يظهر حزنا؛ فقال ابن عباس :

« نعم هلك ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ترجيعاً مُكَرَّرًا ، وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ما سد جسدُه حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله في عمرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أُصِبْنَا به لقد أصبنا بمن كان خيراً منه ، جدِّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجبر الله مصيبته ، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة .

فقال له معاوية : كم كانت سِنّه ؟ قال : مولده أشهر من أن تُتعرّف سنّه ! قال : أحسبه ترك أولادا صغارا ؟ قال : كلنا كان صغيرا فكبِر . ولئن اختار الله لأبي محمد

ما عنده وقبضه إلى رحمته ، لقد أبقى الله أبا عبد الله (يعنى الحسين) ، وفى مثله الخلف الصالح ، ثم شهق وبكى ، وبكى من حضر فى المجلس ، وبكى معاوية » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٢ والبيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

٩٣ — عبد الله بن عباس وعتبة بن أبى سفيان

قال عُتبة بن أبى سفيان لابن عباس : « ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبى موسى يوم الحَكَمَين ؟ » قال : « منعهُ والله من ذلك حاجز القدَر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء ، أما والله لو بعثنى مكانه لاعترضت له فى مَدَارج نَفَسِه ، ناقضاً لما أبرم ، ومبرماً لما نقض ، أُسِفّ[1] إذا طار ، وأطير إذا أسَفّ ، ولكن مضى قدر ، وبقى أسف وَمع يومنا غد ، والآخرة خير لأمير المؤمنين من الأولى » .

(إعجاز القرآن ١٢٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٩٥ ، وأمالى المرتضى ١ : ٢٠٧) .

---

(١) أسف الطائر : دنا من الأرض فى طيرانه .

مخاصمة

بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

قال ابن أبى الحديد : «روى المدائنى قال : وفَدَ عبد الله بن عباس على معاوية مرة ، فقال معاوية لابنه يزيد . ولزياد بن سُمَيّة . وعُتْبَةَ بن أبى سفيان . ومَرْوان بن الحكم . وعمرو بن العاص . والمُغيرة بن شُعبة . وسعيد بن العاص . وعبد الرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس . وما كان شَجَرَ[1] بيننا وبينه وبين ابن عمه ، ولقد كان نَصَبه للتحكيم فدُفِع عنه[2] ، فحرِّكوه على الكلام لنبلغ حقيقة صفته ، ونقِفَ على كُنْهِ معرفته ، ونعرف ماصُرِف عنا من شَبَا[3] حدّه . ووُورِى عنا من دهاء رأيه ، فربما وُصِف المرء بغير ماهو فيه . وأُعطى من النعت والاسم مالا يستحقه . ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس . فلما دخل واستقر به المجلس . ابتدأه ابن أبى سفيان فقال : يا بن عباس مامنع عليا أن يُوَجِّه بك حكما ؟

٩٤ — جواب ابن عباس

فقال : « أما والله لو فعل لقَرَن عمرًا بِصَعْبَةٍ من الإبل ، يُوجِع كتفيه مِرَاسُها[4] ولأذهلت عقله ، وأجرَضْتُهُ بريقه[5] ، وقَدَحْتُ فى سُوَيْدَاء قلبه ، فلم يُبْرِم أمرًا ،

---

(١) شجر بينهم الأمر : تنازعوا فيه. (٢) لما رأى على إصرار من قبلوا التحكيم من قومه وتشبثهم بقبوله أشار عليهم أن يختاروا ابن عباس أو الأشتر النخعى حكما من قبلهم فأبوا إلا أبا موسى الأشعرى .

(٣) الشبا : جمع شباة ، وهى حد كل شىء . (٤) أى علاجها وقيادتها . (٥) جرض بريقه كفرح ابتلعه بالجهد على هم ، وأجرضه بريقه : أغصه .

ولم ينفض تراباً إلا كنت منه بمرأى ومسمع ، فإن نَكَثه أرَمْتُ[1] قواه ، وإن أرَمه فَصَمْتُ[2] عُرَاه ، بِغَرْبٍ[3] مِقْوَلٍ لا يُفَلُّ حَدُّه ، وأصالةِ رأيٍ كمُتَاحِ[4] الأجل لاوَزَر منه ، أصْدَعُ[5] به أدِيمَهُ ، وَأفلُّ به شَبَا حدِّه ، وَأشحَذ به عزائمَ المُعتَزِ[6] ، وأزيحُ به شُبَه الشاكِّين » .

٩٥ — مقال عمرو بن العاص

فقال عمرو بن العاص : « هذا والله يا أمير المؤمنين نُجوم[7] أول الشر ، وأفول آخر الخير ، وفى حَسْمه قطعُ مادَّته ، فبَادِرْه بالحملة ، وانتهز منه الفرصة ، واردعْ بالتنكيل به غيرَه ، وشرِّد به مَن خَلْفه » .

٩٦ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « يابن النّابغة ، ضلّ والله عقلُك ، وسَفه حلمك ، ونطق الشيطان على لسانك ، هلاّ توليت ذلك بنفسك يوم صِفِّين حين دُعِيَتْ نَزَالِ[8] وتكافحَ الأبطال ، وكثرت الجِراح ، وتقصّفت الرِّماح ، وبرزْت إلى أمير المؤمنين مُصَاوِلاً ، فأنكفأ نحوك بالسيف حاملاً ، فلما رأيت الكواثر[9] من الموت ، أعددت حِيلة السلامة

---

(١) أرم الحبل : فتله شديداً .   (٢) حللت .   (٣) الغرب : حد كل شىء ، والمقول : اللسان .

(٤) من إضافة الصفة للموصوف أى كالأجل المتاح : أى المقدر . والوزر : الملجأ .   (٥) أشق ، والأديم : الجلد ، وهو كناية عن غلبته إياه وانتصاره عليه .   (٦) فى الأصل « المتقيز » وقد بحثت فى كتب اللغة عن مادة « قيز » فلم أجد هذه المادة ، فقلبت الكلمة على الأوجه التى يظن أنها محرفة عنها ، ورجح لدى أنها محرفة عن « المعتز » من اعتز : أى تنحى وانفرد ، يريد الذين تنحوا عن الفتنة والنزاع بين على ومعاوية وكانوا محايدين .   (٧) ظهور (مصدر نجم) .   (٨) نزال : اسم فعل بمعنى انزل . أى حين قال الأبطال بعضهم لبعض نزال .   (٩) جمع كوثر ، وهو الكثير من كل شىء والنهر .

قبل لقائه ، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه ، فمنحته رجاء النجاة عورتك ، وكشفت له خوفَ بأسه سَوءتك ، حذراً أن يصطلمك[١] بسطوته ، أويلتهمك بحملته ، ثم أشرت على معاوية كالناصح له بمبارزته ، وحسّنت له التعرض لمكافحته ، رجاء أن تكتفى مئونته ، وتعدَم صورته ، فعلم غلّ صدرك ، وما انحنت عليه من النفاق أضلُعُك ، وعرف مقرّ سهمك فى غرضك ، فا كفُف غَرْب لسانك ، واقمَعْ عَوْراء[٢] لفظك ، فإنك بين أسد خادر[٣] ، وبحرٍ زاخر ، إن تبرزت للأسد افترسك ، وإن عُمْت فى البحر قَمَسَك[٤] » .

٩٧ — مقال مروان بن الحكم[٥]

فقال مروان بن الحكم : « يابن عباس إنك لَتَصْرِف[٦] بنابك ، وَتُورى نارك ، كأنك ترجو الغلَبَة ، وتؤمِّل العاقبة ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، لتناولكم بأقصر أنامله ، فأوردكم مَنْهَلاً بعيداً صَدَرُه[٧] ، ولعمرى لئن سطا بكم ليأخذن بعض حقه منكم ، ولئن عفا عن جرائركم لقديما مانُسِب إلى ذلك » .

---

(١) اصطلمه : استأصله . (٢) العوراء : الكلمة أو الفعلة القبيحة . (٣) الخدر : أجمة الأسد ومنه قيل أسد خادر . (٤) غمسك وأغرقك . (٥) هو مروان بن الحكم بن أبى العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة ، واستعمله معاوية على المدينة ومكة والطائف ، وولى الخلافة بعد موت معاوية الثانى سنة ٦٤ هـ ومات بالشام فى ٣ رمضان سنة ٦٥ ، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوما . (٦) صرفت البكرة تصرف كضرب صريفا : صوتت عند الاستقاء ، وهو أيضا صرير الباب وناب البعير . (٧) الصدر : الرجوع .

٩٨ – جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « وإنك لتقول ذلك يا عدو الله ، وطريدَ رسول الله[١] صلى الله عليه وسلم ، والمبَاح دمُه[٢] ، والداخل بين عثمان ورعيته بما حملهم على قطع أَوْداجه[٣] ، وركوب أثبَاجِه[٤] ، أما والله لو طلب معاوية ثأره لأَخَذَكَ به ، ولو نظر فى أمر عثمان لوجدك أوَّلَه وآخرَه ، وأما قولك لى : إنك لتَصْرِف بنابك ، وتورى نارك ، فسل معاوية

(١) يريد « وياطريد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبيك » أو « ويابن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فإن المحقق أن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أبوه الحكم بن أبى العاص ، وذلك أنه قدم المدينة بعد الفتح — وكان قد أسلم يوم الفتح — فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وقال : « لاتساكنى فى بلد أبدا » لوقيعته فيه ، قيل : كان يتسمع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلع عليه من باب بيته ، وإنه هو الذى أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفقأ عينه بمدرى فى يده لما اطلع عليه من الباب ، وقيل كان يحكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشيته وبعض حركاته — وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتكفأ فى مشيته — فالتفت يوما فرآه وهو يتخلج فى مشيته ، فقال « كن كذلك » فلم يزل يرتعش فى مشيته من يومئذ ، وطرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعنه وأبعده حتى صار مشهورا بأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يزل منفيا حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما ولى أبو بكر الخلافة قيل له فى الحكم ليرده إلى المدينة ، فقال : « ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكذلك عمر ، فلما ولى عثمان الخلافة — والحكم عمه — رده ، وقال : « كنت قد شفعت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدنى برده » وقد توفى فى خلافة عثمان . أما مروان فلم ير النبى عليه الصلاة والسلام ، لأنه خرج إلى الطائف طفلا لا يعقل لما نفى النبى أباه — وقد ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة — وقيل إنه ولد بالطائف إبان نفى أبيه بها . (٢) أى فى فتنة عثمان ، وذلك أن الثوار بعد أن هدأ الإمام على ثائرتهم خرجوا عن المدينة ، ولكنهم فى أثناء رجوعهم ضبطوا غلام عثمان ، ومعه كتاب إلى عامل مصر يأمره فيه بقتلهم ، فعادوا إلى المدينة ثانية وكانوا يعتقدون أن مروان هو الذى كتب ذلك الكتاب ، وقد سألوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فأبى أن يسلمه وخشى عليه القتل . (٣) جمع ودج (محركة) وهو عرق الأخدع الذى يقطعه الذابح ، فلا يبقى معه حياة . (٤) جمع ثبج (محركة) وهو ما بين الكاهل إلى الظهر .

وعمرًا يخبراك ليلة الهرير[١] كيف ثباتنا للمَثُلات[٢] ، واستخفافنا بالمُعضِلات ، وصدق جِلادنا عند المصاولة ، وصبرُنا على اللأواء[٣] والمطاولة ، ومصافحتُنا بجباهنا السيوفَ المُرْهَفَة[٤] ، ومباشرتُنا بنحورنا حدَّ الأسنَّة ، هل خِمْنا[٥] عن كرائم تلك المواقف ؟ أم لم نَبْذُل مُهجَنا[٦] للمتالف ؟ وليس لك إذ ذاك فيها مقامٌ محمود ، ولا يوم مشهود ، ولا أثر معدود ، وإنهما شَهِدا مالو شَهِدتَ لَأقلقك ، فارْبَع على ظَلْعِك[٧] ، ولا تتعرض لما ليس لك ، فإنك كالمغروز فى صَفَد[٨] ، لا يَهْبِط بِرِجل ، ولا يَرْقَا[٩] بيد » .

٩٩ — مقال زياد

فقال زياد : « يابن عباس : إنى لأعلم ، ما منع حَسَنًا وحُسَيْنًا من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ماسوّلت لهما أنفسهما، وغرّهما به مَن هو عند البأساء يُسْلِمهما[١٠] ، وايم الله لو وَلِيتَهُما لأدأبا[١١] فى الرِّحْلة إلى أمير المؤمنين أنفسَهما ، ولقل بمكانهما لُبْثُهُمَا » .

١٠٠ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « إذن والله يَقْصُر دونهما باعُك ، ويضيق بهما ذِراعُك ، ولو رُمْت ذلك لوجدت من دونهما فِئَةً صِدْقًا صُبْرًا[١٢] على البلاء ، لا يَخيمون عن اللقاء ،

---

(١) هى ليلة العاشر من صفر سنة ٣٧ ، وفيها حمل جيش علىّ على جيش معاوية فى وقعة صفين حملة عنيفة ، واقتتلوا تلك الليلة كلها حتى الصباح ، وأوشك جيش على أن تكون له الغلبة .

(٢) جمع مثلة (كغرفة) من مثلت بالقتيل : إذا نكلت به . (٣) اللأواء : الشدة .

(٤) المرققة . (٥) خام عنه يخيم : جبن ونكص . (٦) جمع مهجة ، وهى الدم أو الروح .

(٧) ربع كمنع : وقف وانتظر وتحبس ، وظلع ظلعا كمنع : غمز فى مشيه ، واربع على ظلعك أى أنك ضعيف فانته عما لا تطيقه واسكت على ما فيك من عيب . (٨) الصفد : القيد ، وفى الأصل « كالمغرور فى صفد » وأراه « كالمقرون فى صفد » . (٩) أى يصعد ويعلو : رقأ فى الدرجة صعد : يقال رقأت ورقيت (كرضيت) وترك الهمزة أكثر . (١٠) أسلمه : خذله . (١١) أجهدا وأتعبا .

(١٢) أى ذات صدق وصبر على البلاء أو هو « صدقا صبرا » بضمتين جمع صدوق وصبور .

فلعرَكُوك بكلاكِلهم[١] وَوطئوك بمناسِمِهم[٢] وأوْجَروك[٣] مَشْق رماحهم ، وَشِفَار[٤] سيوفهم ، وَوخْزَ أسِنَّتهم ، حتى تشهد بسوء ما أتيت ، وتتبين ضياعَ الحزم فيما جنيت ، فَحَذَارِ حذارِ من سوء النية ، فإنها ترد الأُمنيَّة ، وتكون سببًا لفساد هذين الحيَّين بعد صلاحهما ، وسعيًا فى اختلافهما بعد ائتلافهما ، حيث لا يضرهما إبْساسُك[٥] ، ولا يُغنِى عنهما إيناسك » .

١٠١ — مقال عبد الرحمن بن أم الحكم

فقال عبد الرحمن بن أم الحَكَمَ :

« لله درُّ ابن مُلْجَم[٦] ، فقد بَلَّغَ الأملَ ، وأمَّنَ الوَجِل ، وأحدَّ الشَّفْرَةَ ، وألان المُهْرَةَ ، وأدركَ الثار ، وَنَفَى العار ، وفاز بالمنزلة العليا ، وَرَقِىَ الدرجة القصوى » .

١٠٢ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« أمَا والله لقد كَرَعَ[٧] كأسَ حَتْفِهِ بيده ، وعَجَّل الله إلى النار بِرُوحه ولو أبدَى لأمير المؤمنين صفْحَته ، لخالطهُ الفحلُ القَطِم[٨] ، والسيف الخَذِم ، ولألْعَقَه صابا[٩] ، وسقاه سِمَاما[١٠] ، وألحقه بالوليد وَعُتْبَة وحَنظلة[١١] ، فكلهم كان أشدَّ منه شَكيمة[١٢] ،

---

(١) جمع كلكل وهو الصدر . (٢) جمع منسم (كمجلس) وهو خف البعير .

(٣) أوجره الرمح : طعنه به فى فيه ، والمشق : سرعة فى الطعن والضرب أو هو بمعنى مفعول ، قضيب ممشوق : أى طويل دقيق . (٤) جمع شفرة : وهى حد السيف . (٥) الإبساس: التلطف بالناقة وقت حلبها ، بأن يقال لها بس بس (بفتح فسكون) تسكينا لها . (٦) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنه الله قاتل الإمام على . (٧) كرع فى الماء : تناوله بفيه من موضعه . (٨) قطم الفحل كفرح فهو قطم : اشتهى الضراب . (٩) عصارة شجر مر . (١٠) جمع سم مثلث السين .

(١١) الوليد بن عتبة : خال معاوية ، وعتبة بن ربيعة : جده لأمه ، وحنظلة بن أبى سفيان أخوه ، وقد قتلهم على يوم بدر . (١٢) الشكيمة : الأنفة ، وهو شديد الشكيمة : أى أنف أبى لا ينقاد .

وأمضى عزيمــةً ، فَفَرَى بالسيف هامَهم[١] ، وَرَمَّلَهم[٢] بدمائهم ، وقَرَى الذئابَ أشلاءهم[٣] ، وفرق بينهم وبين أحبّائهم ، أولئك حَصَب[٤] جهنم هم لها واردون ، فهل تُحسُّ منهم مِن أحدٍ أو تسمع لهم رِكْزاً[٥] ؟ ولا غرْوَ إن خُتِل ، ولا وَصْمَةَ إن قُتِل ، فإنا لَــكما قال دُرَيد بن الصِّمَّة :

فإنّا لَلحْمُ السيفِ غيرَ مُــكَرَّهٍ وَنُلْحِمُه طوراً وليس بذى نُــكْرِ[٦]

يُغار علينا واترين فَيُشْتَــفَى بنا إن أصبنا أو نُغير على وِتْرِ[٧]

١٠٣ — مقال المغيرة بن شعبة

فقال المغيرة بن شعبة :

« أما والله لقد أشرتُ على عَلِىّ بالنصيحة ، فآثر رأيَه ، ومضى على غُلَوائه[٨] ، فــكانت العاقبة عليه لا له ، وإنى لأحسب أن خلَفَه يقتدون بمنهجه » .

١٠٤ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« كان والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلمَ بوجوه الرأى ، ومعاقِد الحزم ، وتصريف الأمور ، من أن يقبل مَشورتك فيما نهى الله عنه ، وعنَّف عليه ، قال سبحانه وتعالى :

---

(١) هام : جمع هامة ، وهى الرأس . (٢) رمل الثوب : لطخه بالدم ، ويجوز أن يكون وزملهم أى لفهم بدمائهم (على المجاز) . (٣) أشلاء : جمع شلو ، وهو العضو ، وقرى الضيف قرى (بالكسر) : أضافه . (٤) الحطب ، وما يرمى به فى النار . (٥) الصوت الخفى .

(٦) ألحمه : أطعمه اللحم . (٧) الوِتر : الثأر ، وقد وتره يتره . (٨) الغلواء : الغلو ، وذلك أن المغيرة جاء عليا بعد مقتل عثمان ، وقال له : إن النصح رخيص وأنت بقية الناس وأنا لك ناصح ، وأنا أشير عليك أن ترد عمال عثمان عامك هذا ، فاكتب إليهم باثباتهم على أعمالهم ، فإذا بايعوا لك ، واطمأن —

« لَاتَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ[١] اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » ولقد وقفك على ذكر مبين وآية متلوّة ، قوله تعالى : « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا » . وهل كان يسوغ له أن يُحَكِّم فى دماء المسلمين ، وَفَىْء المؤمنين ، من ليس بمأمون عنده ، ولا موثوق به فى نفسه ؟ هيهات هيهات ، هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يُبْطِن خلافَ ما يُظْهر إلا للتَّقِيَّة[٢] ، ولات حينَ تقيةٍ ، مع وضوح الحق ، وثبوت الجنان ، وكثرة الأنصار ، يمضى كالسيف المُصْلَت[٣] فى أمر الله ، مُؤْثِراً لطاعة ربه والتقوى ، على آراء أهل الدنيا » .

١٠٥ — مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد بن معاوية :

« يابن عباس ، إنك لتنطق بلسان طَلِق[٤] ، ينبئ عن مكنون قلبٍ حَرِق[٥] ، فاطوِ على ما أنت عليه كَشْحًا[٦] ، فقد محا ضوء حقّنا ظلمة باطلكم » .

= أمرك عزلت من أحببت ، وأقررت من أحببت ، فقال له : والله لا أداهن فى دينى ، ولا أعطى الرياء فى أمرى ، قال : فإن أبيت فانزع من شئت واترك معاوية فإن له جراءة وهو فى أهل الشأم مسموع منه ، ولك حجة فى إثباته فقد كان عمر ولاه الشأم كلها ، فقال له : لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبدا . (وقد كان ابن عباس يرى إثبات معاوية حتى يبايع ، وقال لعلى : فإن بايع لك فعلى أن أقلعه من منزله ، فقال على : لا والله لا أعطيه إلا السيف) . (١) حاده : غاضبه وعاداه وخالفه . (٢) التقية : المحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء إذا كانت العداوة بسبب الدين . (٣) المسلول .

(٤) لسان طلق : (بسكون اللام وكسرها) ذلق . (٥) الحرق : المحروق وفى الحديث « الحرق شهيد » وفى رواية « الحريق » أى الذى يقع فى حرق النار (بفتحتين) فيلتهب ، والحرق محركة: النار ولهبها ، وفى الحديث « الحرق والغرق والشرق شهادة » وحرق شعره كفرح: تقطع ونسل . (٦) الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف ، وطوى كشحه على الأمر أضمره وستره .

١٠٦ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« مهلا يزيدُ ، فوالله ما صَفَت القلوب لكم ، منذ تكدرت بالعداوة عليكم ، ولا دنَت بالمحبة إليكم ، مذ نأت بالبغضاء عنكم ، ولا رضيت اليوم منكم ، ما سَخِطت بالأمس من أفعالكم ، وإن تُدِل[1] الأيامُ نستقضِ ماشَذّ عنا، ونسترجع ما ابتُزَّ[2] منا ، كَيْلاً بكيل ، ووزناً بوزن ، وإن تكن الأخرى ، فكفى بالله وليًّا لنا ، ووكيلا على المعتدين علينا » .

١٠٧ — مقال معاوية

فقال معاوية :

« إن فى نفسى منكم لَحَزازاتٍ يابنى هاشم ، وإنى لخليق أن أُدْرِكَ فيكم الثّار ، وَأَنفِى العار ، فإن دماءنا قِبَلكم ، وظُلامتنا فيكم » .

١٠٨ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« والله إن رمْتَ ذلك يامعاوية لَتُثِيرَنّ عليك أُسدًا مُخْدِرَة[3] ، وأفاعى مُطْرِقَة ، لَا يَفثَؤُها[4] كثرة السلاح ، وَلَا تَعَضُّهَا نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم،

---

(١) أداله الله من عدوه : نصره عليه . (٢) ماسلب . (٣) أخدر الأسد : لزم الأجمة ، وأخدر العرين الأسد: ستره فهو مخدر (بكسر الدال وفتحها) . (٤) فثأ الغضب كمنع : سكنه وكسره ، والقدر سكن غليانها .

يضربون قُدُمًا قدمًا من ناوأهم[1] ، يهون عليهم نُباح الكلاب ، وعُواء الذئاب ، لا يُفاتون بوترٍ ، ولا يُسْبقون إلى كريم ذكر ، قد وطّنوا على الموت أنفسهم ، وسمت بهم إلى العلياء هممهم ، كما قالت الأزدية :

قومٌ إذا شَهِدُوا الهِياج فلا ضربٌ يُنَهْنِهُهُمْ وَلا زَجْرُ[2]
وكأنهم آسادُ غِينــــةَ قد غَرِثَتْ وَبَلَّ مُتونَها القَطْرُ[3]

فلتكونَنَّ منهم بحيث أعددتَ ليلة الهرير الهرب فرسَك ، وكان أكبر همك سلامة حُشاشَةِ[4] نفسِك ، ولولا طَغامٌ[5] من أهل الشأم وَقَوْكَ بأنفسهم ، وبذلوا دونك مُهَجهم ، حتى إذا ذاقوا وخْزَ الشِّفَار ، وأيقنوا بحلول الدَّمار ، رفعوا المصاحف مستجيرين بها ، وعائِذين بعصمتها ، لكنت شِلْوًا مطروحًا بالعَراء[6] ، تَسْفِي عليك رياحُها[7] ، ويعتورك ذئابُها ، وما أقول هذا أريد صَرْفك عن عزيمتك ، ولا إزالتك عن معقود نيّتك ، لكن الرَّحِم التي تعطِف عليك ، والأواصر[8] التي توجب صرف النصيحة إليك » .

فقال معاوية : « لله درك يابن عباس ، مَا تكشف الأيام منك إلا عن سيف صقيل ، ورأى أصيل ! وبالله لو لم يلد هاشم غيرك ، لَمَا نَقَص عددهم ، ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثّرهم » ! ثم نهض فقام ابن عباس وانصرف » .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٥)

---

(١) القدم : الشجاع والمضى أمام أمام، وناوأهم: عاداهم . (٢) نهنهه عن الأمر : كفه وزجره .
(٣) الغينة : بالكسر الأجمة ، والغينة بالفتح : الأشجار الملتفة فى الجبال وفى السهل بلا ماء ، فإذا كانت بماء فهى غيضة ؛ وغرث : كفرح جاع فهو غرثان . (٤) الحشاشة : بقية الروح فى المريض والجريح .
(٥) الطغام : أوغاد الناس . (٦) العراء : الفضاء لا يستتر فيه بشيء . (٧) سفت الريح التراب تسفيه : ذرته ، أو حملته . (٨) فى الأصل « والأوامر » وهو تحريف .

عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص

قام عمرو بن العاص فى موسم من مواسم العرب ، فأطرى معاوية بن أبى سفيان و بنى أمية ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مَشَاهِدَه بصِفِّين ، واجتمعت قريش فأقبل عبد الله ابن عباس على عمرو فقال :

١٠٩ — مقال ابن عباس

« يا عمرو إنك بعت دينك من معاوية ، وأعطيته ما بيدك ، ومَنَّاك ما بيد غيره ، فكان الذى أخذ منك أكثر من الذى أعطاك ، والذى أخذت منه دون الذى أعطيته ، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى(١) ، فلما صارت مصر فى يدك كَدَّرها عليك بالعزل والتنغيص(٢) ، حتى لو كانت نفسك فى يدك ألقيتها إليه ، وذكرت يومك مع أبى موسى ،

(١) وذلك أن عمرا لما لحق بمعاوية بعد أن بلغه مقتل عثمان سأله معاوية أن يتبعه ، قال عمرو فاكتب لى مصر وكورها طعمة فكتب له ، وقال عمرو فى ذلك :

معاوى لا أعطيك دينى ولم أنل ... به منك دنيا فانظرن كيف تصنع

فإن تعطنى مصرا فأربح صفقة ... أخذت بها شيخا يضر وينفع

ثم إنه بعثه سنة ٣٨ فى جيش لغزو مصر ، وكان عليها محمد بن أبى بكر من قبل الإمام على فهزمه وقتله ، وصارت مصر فى حوزة معاوية فولاه عليها أميرا . (٢) روى ابن سعد فى كتاب الطبقات الكبير (ج ٤ : ص ٥) قال :

« لما صار الأمر فى يدى معاوية استكثر طعمة مصر لعمرو ماعاش ، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وبتدبيره وعنائه وسعيه فيه ، وظن أن معاوية سيزيده الشام مع مصر ، فلم يفعل معاوية ، فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا . وتميز الناس ، وظنوا أنه لايجتمع أمرهما ، فدخل بينهما معاوية بن حديج وأصلح أمرهما ، =

فلا أراك فَخَرت إلا بالغدر ، ولا مَنَنْت إلا بالفجور والغش ، وذكرت مشاهدك بصِفّين ، فوالله ما ثقُلت علينا يومئذ وَطْأتك ، ولا نَكَتنا[1] فيها حربك ، ولقد كَشَفتَ فيها عورتَك ، وإنْ كنتَ فيها لَطويلَ اللسان ، قصير السِّنَان ، آخر الخيل إذا أقبلت ، وأولها إذا أدبرت ، لك يدان : يد لا تَبسُطها إلى خير ، وأخرى لاتقبضها عن شر ، ولسان غَرور ووجهان : وجه مُوحِش ، ووجه مُؤنِس ، ولعمرى إن من باع دينه بدنيا غيره لحَرِىّ أن يطول حزنه على ما باع واشترى ، لك بيان وفيك خَطَل ، ولك رأى وفيك نكد ، ولك قدر وفيك حسد ، وأصغر عيب فيك أعظم عيب فى غيرك .

١١٠ — رد ابن العاص

فأجابه عمرو بن العاص : والله مافى قريش أثقلُ علىّ مسألةً ، ولا أمرُّ جواباً منك ، ولو استطعتُ ألاّ أجيبك لفعلت ، غير أنى لم أبع دينى من معاوية ، ولكن بعت اللهَ نفسى ، ولم أنسَ نصيبى من الدنيا ، وأما ما أخذت من معاوية وأعطيته فإنه لاتُعَلَّمُ العَوَانُ الخِمْرَةَ[2] . وأما ما أتى إلىّ معاوية فى مصر فإن ذلك لم يغيِّرنى له ، وأما خفة وطأتى عليكم بصفين ، فلما استثقلتم حياتى واستبطأتم وفاتى . وأما الجبن فقد علمتْ قريش أنى أول من يبارز ، وآخر من ينازل . وأما طول لسانى ، فإنى كما قال هشام بن الوليد لعثمان ابن عفان رضى الله عنه :

= وكتب بينهما كتابا ، وشرط فيه شروطا لمعاوية ، ولعمرو خاصة ، وللناس عليه ، وأن لعمرو ولاية مصر سبع سنين، وعلى أن على عمرو السمع والطاعة لمعاوية ، وتواثقا وتعاهدا على ذلك ، وأشهدا عليهما به شهودا ، ثم مضى عمرو بن العاص على مصر واليا عليها ، وذلك فى آخر سنة تسع وثلاثين ، فوالله مامكث بها إلا سنتين أو ثلاثا حتى مات » . (١) نكى العدو نكية: قتل وجرح. (٢) فى المثل « إن العوان لا تعلم الخمرة » والعوان من النساء التى كان لها زوج ، والخمرة اسم من الاختمار ، واختمرت المرأة ، لبست الخمار بكسر الخاء (الطرحة) يضرب للرجل المجرب.

لسانى طويل فاحترس من شَذَاتِهِ عليك ، وسيفى من لسانىَ أطول[1]

وأما وجهاى ولساناى ، فإنى ألقى كلَّ ذى قدر بقدره ، وأرمِى كلَّ نابح بحجَره ، فمن عرف قدره كفانى نفسه ، ومن جَهِل قدره كفيتُه نفسى ، ولعمرى ما لأحدٍ من قريش مثل قدرك ما خلا معاويةَ ، فما ينفعنى ذلك عندك ، وأنشأ عمرو يقول :

بنى هاشمٍ مالى أراكم كأنكم بىَ اليومَ جُهَّالٌ ؟ وليس بكم جهل

ألم تعلموا أنى جَسُور على الوَغَى سريعٌ إلى الداعى إذا كثُر القتل

وأول مَنْ يدعو « نَزَالِ » طبيعةٌ جُبلتُ عليها ، والطِّباع هو الجَبْلُ[2]

وأنى فَصَلتُ الأمر بعد اشتباهه بدُومَةَ إذ أعيا عَلَى الحَكَمِ الفَصْلُ[3]

وأنىَ لا أعيا بأمر أريده وأنى إذا عَجَّت بِكارٌ كُمُ فَحْلُ[4]

(العقد الفريد ٢ : ١١٢ ، وشرح بن أبى الحديد م ١ : ص ١٩٦ والبيان والتبيين ٢ : ١٥٩)

١١١ — عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضاً

حج عمرو بن العاص فمرّ بعبد الله بن عباس ، فحسده مكانه وما رأى من هَيبة الناس له ، وموقعه من قلوبهم ، فقال له يابن عباس : « مالك إذا رأيتنى ولَّيْتنى القَصَرة[5] ، وكان بين عينيك دَبْرة[6] ، وإذا كنت فى ملأ من الناس كنت

---

(١) الشذاة : الحدة ، والشدا والشذا بالدال والذال : حد كل شىء . (٢) أى نازلونى أيها الأقران ، والطباع : الطبيعة والسجية جبل عليها الإنسان ، والجبل : مصدر جبل . (٣) هى دومة الجندل التى اجتمع فيها الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى . (٤) البكار : جمع بكرة (بالفتح) وهى الناقة الفتية ، وعجت : أى صاحت ورفعت صوتها . (٥) القصرة : أصل العنق فى مركبه فى الكاهل ، ويقال لعنق الإنسان كله قصرة ، والمعنى وليتنى عنقك إعراضا عنى . (٦) الدبرة : بسكون الباء وفتحها الهزيمة فى القتال : وهو اسم من الإدبار والمراد بها هنا الإغضاء وعدم الإقبال .

الْمَوْهَاةَ[1] الْمُمَزَّةَ ؟ فقال ابن عباس : « لأنك من اللئام الْفَجَرَة ، وقريشٌ الكرام الْبَرَرة ، لاينطقون بباطل جهلوه ، ولا يكتمون حقًّا علموه ، وهم أعظم الناس أحلامًا ، وأرفع الناس أعلامًا . دخلتَ فى قريش ولست منها ، فأنت الساقط بين فِراشين ، لا فى بنى هاشم رَحْلُكَ ، ولا فى بنى عبد شمس راحلتك ، فأنت الأثيم الزَّنيم[2] الضالّ المُضِلّ ، حملك معاوية على رقاب الناس ، فأنت تسطو بحلمه ، وتسمو بكرمه » فقال عمرو : أما والله إنى لمسرور بك ، فهل ينفعنى عندك ؟ قال ابن عباس : حيث مال الحق مِلْنا ، وحيث سلك قَصَدْنا » . (العقد الفريد ٢ : ١١٢)

١١٢ — عمرو بن العاص وابن عباس

قال عمرو بن العاص لعبد الله بن عباس :

« إن هذا الأمر الذى نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وقد بلغ الأمر منا ومنكم ما ترى ، وما أبقت لنا هذه الحرب حياء ولا صبرا ، ولسنا نقول: ليت الحرب عادت ، ولكنا نقول : ليتها لم تكن كانت ، فانظر فيما بقى بغير ما مضى ، فإنك رأس هذا الأمر بعد علىّ ، وإنما هو أمير مطاع ، ومأمور مطيع ، ومشاوَر مأمون ، وأنت هو » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨)

١١٣ — مفاخرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس

تزوج عبد الله بن الزبير أمَّ عمرو بنت منظور بن زَبَّان الفَزَارية ، فلما دخل بها قال لها تلك الليلة : أتدْرين من معك فى حَجَلَتِك[3] ؟ قالت : نعم ، عبد الله بن الزبير بن

---

(١) قال صاحب اللسان : وفى حديث عمرو بن العاص : « كنت الموهاة الممزة » الموهاة: الأحمق ، وقال أيضا : « رجل هوهاء وهوهاءة وهوهاة بفتح الأول ضعيف الفؤاد جبان ، ورجل هوهة بضم الأول جبان أيضا . (٢) الزنيم: المستلحق فى قوم ليس منهم والدعى . (٣) الحجلة: كالقبة، وموضع يزين بالثياب والستور للعروس.

الْعَوّام بن خُوَيلد بن أسد بن عبد الْعُزّى . قال : ليس غير هذا ؟ قالت : فما الذى تريد ؟ قال : معكِ من أصبح فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس . قالت : أمَا واللهِ لو أن بعض بنى عبد مَنَاف حَضَرَك ، لقال لك خِلَافَ قولك ، فغضب وقال: الطعام والشراب علىّ حرامٌ حتى أُحْضِرَكِ الهاشميين وغيرهم من بنى عبد مَنَاف ، فلا يستطيعون لذلك إنكاراً ، قالت : إن أطَعْتَنى لم تفعل ، وأنت أعلم وشأْنَك ، فخرج إلى المسجد فرأى حَلْقَة فيها قوم من قريش ، منهم : عبد الله بن العباس ، وعبد الله ابن الحُصَين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فقال لهم ابن الزبير : أُحِبُّ أن تنطلقوا معى إلى منزلى ، فقام القوم بأجمعهم ، حتى وقفوا على باب بيته، فقال ابن الزبير : يا هذه اطرَحى عليك سِتْرَكِ ، فلما أخذوا مجالسهم دعا بالمائدة فَتَغَدّى[1] القوم ، فلما فرغوا قال لهم : إنما جمعتكم لحديثٍ ردّته علىّ صاحبةُ الستر ، وزعَمَتْ أنه لو كان بعض بنى عبد مناف حضرنى لما أقَرَّ لى بما قلت ، وقد حضرتم جميعاً ، وأنت يا بن عباس ماتقول ؟ إنى أخبرتها أن معها فى خِدْرِها مَنْ أصبح فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس ، فردّت علىّ مقالتى .

فقال ابن عباس : أراك قَصَدت قَصْدى ، فإن شئت أن أقول قلتُ ، وإن شئت أن أكفَّ كففتُ . قال: بل قل وماعسى أن تقول؟ ألست تعلم أن أبى الزبيرَ حوَارِىُّ[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأن أمى أسماء بنت أبى بكر الصِّدِّيق ذات النِّطاقين[3] ؟

---

(١) تغدى : أكل أول النهار ، والغداء : الطعام الذى يؤكل أول النهار ضد العشاء ، (وسمى السحور غداء ، لأنه للصائم بمنزلة الغداء المفطر) . (٢) الحوارى : الناصر أو ناصر الأنبياء . قال عليه الصلاة والسلام : « الزبير بن العوام ابن عمى ، وحوارى من أمتى » . (٣) كان يقال لأسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها ذات النطاقين ، قيل : لأنها كانت تطارق نطاقا على نطاق (طارق بين ثوبين : طابق) وقيل : إنه كان لها نطاقان تلبس أحدهما ، وتحمل فى الآخر الزاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه وهما فى الغار . قال الأزهرى : وهذا أصح القولين ، وقيل : إنها شقت نطاقها نصفين ، فاستعملت أحدهما وجعلت الآخر شدادا لزادهما. وجاء فى العقد الفريد (ج ٢ ص ٢٧٠) أن الحجاج لما حصر ابن الزبير =

وأن عمتى خديجة سيدة نساء العالمين ؟ وأن صفيّة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جَدتى[1] ؟ وأن عائشة أم المؤمنين خالتى ، فهل تستطيع لهذا إنكاراً ؟

قال ابن عباس : لا ، ولقد ذكرتَ شرفاً شريفاً ، وفخرًا فاخرًا ، غيرَ أنك تفاخر مَن بِفخره فخرتَ ، وبفضله سموت . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك لم تذكر فخرا إلا برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا أوْلَى بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شئتُ لفخَرتُ عليك بما كان قبل النبوة . قال ابن عباس : قد أنصف القَارَةَ مَنْ راماها[2] ، نَشَدتكم الله أيها الحاضرون ، أعبدُ المطلب أشرفُ أم خُوَيلد فى قريش ؟ قالوا : عبد المطلب . قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد؟ قالوا : بل هاشم . قال : أفعبد مناف أشرف أم عبد العُزّى ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تُنَافِرُنى يابن الزبير ! وقد قَضَى　　عليك رسولُ الله لا قولَ هازِلِ

= بمكة ناداه ويلك يابن ذات النطاقين ، اقبل الأمان ، وادخل فى طاعة أمير المؤمنين ، فدخل على أمه أسماء ، فقال لها : سمعت رحمك الله مايقول القوم ، ومايدعوننى إليه من الأمان؟ قالت : سمعتهم لعنهم الله ! فما أجهلهم! وأعجب منهم إذ يعيرونك بذات النطاقين ، ولو علموا ذلك لكان ذلك أعظم فخرك عندهم ، قال : وما ذاك ياأماه ؟ قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره مع أبى بكر (وروى عن عائشة رضى الله عنها أنه خرج معه مهاجرين كما جاء فى لسان العرب) فهيأت لها سفرة ، فطلبا شيئا يربطانها به فما وجداه ، فقطعت من مئزرى لذلك ما احتاجا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن لك به نطاقين فى الجنة ، وفى القاموس المحيط : لأنها شقت نطاقها ليلة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار ، فجعلت واحدة لسفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأخرى عصاما لقربته .

(١) هى جدته لأبيه .

(٢) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة . ويزعمون أن رجلين التقيا ، أحدهما قارى ، فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال الآخر : قد اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتنى ، وأنشأ يقول :

قد أنصف القارة من راماها　　إنا إذا مافئة نلقاها

نرد أولاهـــا على أخراها

ثم انتزع له بسهم ، فشك به فؤاده .

ولو غيرَنا يابنَ الزبير فخرتَه   ولكنما ساميتَ شمسَ الأصائلِ[1]

قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالفضل فى قوله : « ما افترقت فرقتان إلا كنتُ فى خيرهما » فقد فارقناك من بعد قُصَىٍّ[2] بن كِلاب ، أفنحن فى فرقة الخير أم لا ؟ إن قلتَ نعم خُصِمْتَ ، وإن قلت لا كفرتَ ، فضحك بعض القوم ، فقال ابن الزبير : أما والله لولا تحرُّمُك[3] بطعامنا يابن عباس لأعرقت[4] جبينك قبل أن تقوم من مجلسك . قال ابن عباس : وَلِمَ أبباطل ؟ فالباطل لا يغلِب الحق ، أم بحق ؟ فالحق لا يخشى من الباطل .

فقالت المرأة من وراء الستر : إنى والله لقد نهيته عن هذا المجلس فأبى إلا ما ترَون ، فقال ابن عباس : مَهْ أيتها المرأةُ ، اقنعى ببَعْلِك ، فما أعظمَ الخطرَ ، وما أكرم الخبَر ، فأخذ القوم بيد ابن عباس وكان قد عَمِى ، فقالوا : انهض أيها الرجل فقد أفحَمْتَه غيرَ مرة ، فنهض وقال :

ألا يا قومنا ارتحِلوا وسِيروا   فلو تُرِكَ القَطَا لغفَا وناما[5]

فقال ابن الزبير : يا صاحب القطا أقبِلْ علىّ ، فما كنتَ لِتَدَعنى حتى أقول : وَأيمُ الله لقد عرَف الأقوام أنى سابق غير مسبوق ، وابن حَوَارِىّ وصِدِّيق ، مُتَبَجِّحٌ[6] فى الشرف الأنيق ، خيرٌ من طَلِيق[7] وابن طليق ، فقال ابن عباس : رُسِغْتَ

---

(١) الأصائل: جمع أصيل، وهو العشى « مابعد صلاة العصر إلى الغروب » . (٢) كان من أولاده عبد العزى بن قصى (ومن سلالته ابن الزبير) وعبد مناف بن قصى (ومن سلالته بنو هاشم) . (٣) تحرم منه بحرمة : تمنع وتحمى بذمة . (٤) أى لذكرت لك من المساوئ مايعرق له جبينك ويندى خجلا .

(٥) غفا وأغفى : نام نومة خفيفة . (٦) من تبجح به: إذا افتخر وتعظم، وأرجح أنه «متبحبح» من تبحبح: أى تمكن فى المقام والحلول. (٧) يعرض بأبيه العباس بن عبد المطلب ، وكان خرج مع المشركين فى غزوة بدر الكبرى ووقع أسيرا ، وقد أطلقه عليه الصلاة والسلام بعد أن أخذ منه الفدية « ويروى أنه لما طلب منه الفداء قال : علام يؤخذ منى الفداء ، وكنت مسلما ؟ ولكن القوم استكرهونى ، فقال له صلى الله عليه وسلم : الله أعلم بما تقول إن يك حقا ، فإن الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا » .

بِجُرْتِكَ[١] فلم تُبْقِ شيئاً ، هذا الكلام مردود ، من امرئٍ حَسُود ، فإن كنتَ سابقاً فإلى من سبقت ؟ وإن كنت فاخراً فبمن فَخَرْتَ ، وإن كنت أدركت هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا . وإن كنت إنما أدركته بأسرتنا فالفخر لنا عليك ، وَالْكَثْكَثُ[٢] فى فمك ويديك ، وأما ما ذكرتَ من الطَّليق ، فوالله لقد ابْتُلِيَ فَصَبَرَ ، وَأُنْعِمَ عليه فَشَكَرَ ، وإنْ كان والله لوفيًّا كريماً ، غيرَ ناقضٍ بَيْعَةً بعد توكيدها ، ولا مُسْلِمٍ كَتِيبَةً بعد التأمُّر عليها[٣] ، فقال ابن الزبير : أتعيِّر الزبيرَ بالجبن ؟ والله إنك لتعلم منهُ خِلافَ ذلك ، قال ابن عباس : والله إنى لا أعلم إلاّ أنه فرَّ وما كرَّ ، وحارب فما صَبَرَ ، وبايع فما تَمَّمَ ، وقطَعَ الرَّحِم ، وأنكر الفضلَ ، ورام ما ليس له بأهل[٤] :

وأدركَ منها بعضَ ما كان يرتجى ۝ وَقَصر عن جَرْيِ الكرام وبَلَّدَا

وما كان إلا كالهَجِين أمامَه ۝ عِتَاقٌ ، فجاراه العِتاق فَأُجْهِدَا[٥]

فقال ابن الزبير : لم يَبْقَ يابنى هاشم غيرُ المشاتمة والمضاربة ، فقال عبد الله بن الحصين

---

(١) الجرة بالضم والفتح : عصا تربط إلى حبالة ، تغيب فى التراب للظبى يصطاد بها ، فيها وتر ، فإذا دخلت يده فى الحبالة انعقدت الأوتار فى يده ، فإذا وثب ليفلت فد يده ، ضرب بتلك العصا يده الأخرى ورجله فكسرها ، ورسغ البعير : شد رسغ يديه بخيط . والمعنى وقعت فى حبالتك ، وعاد مافخرت به حجة عليك لا لك ، وفى الأصل « رسعت » بالعين ، ولا يستقيم المعنى بذلك (يقال : رسع الصبى كمنع : شد فى يده أو رجله خرزا لدفع العين ، ورسعت أعضاؤه : فسدت واسترخت) وربما كان الأصل « رصعت بجرتك » من رصعه بالرمح إذا طعنه طعنا شديدا غيب السنان كله فيه ، أى طعنت بسهمك وارتدت إليك حجتك ، ومعناه كالأول . (٢) الكثكث (بفتح الكافين وكسرهما) : التراب وفتات الحجارة .

(٣) يعرض بالزبير وقد بايع الإمام ثم نكث بيعته ، وخرج لقتاله مع أصحاب الجمل ثم اعتزلهم .

(٤) أى رام الخلافة ، وقد قال للإمام حين حاوره قبل نشوب وقعة الجمل : « لا أراك لهذا الأمر أهلا ولا أولى به منا » . (٥) فرس هجين : إذا لم يكن عتيقا ، وفرس عتيق : أى كريم والجمع عتاق ، وفى الأصل « عناق » بالنون ، وهو تصحيف .

ابن الحرث : أقناه عنك يابن الزبير ، وتأبى إلا منازعته ؟ والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ، ما كنت إلا كالسَّغِب[1] الظمآن ، يفتح فاه يستزيد من الرِّيح ، فلا يَشْبَع من سَغَب[2] ، ولا يَرْوَى مِنْ عَطش ، فقل إن شئت أو فَدْع ، وانصرف القوم.

(شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ٥٠١)

ابن عباس وابن الزبير فى مجلس مروان بن الحكم

وكان يوضع إلى جانب سرير مَرْوان بن الحكم ـ وهو يومئذ أمير المدينة ـ سرير آخر أصغر من سريره ، فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل ، وتُوضَع الوسائد فيما سوى ذلك ، فأذن مروان يومًا للناس ، وإذا سريرٌ آخر قد أُحْدِث تجاهَ[3] سرير مروان ، فأقبل ابن عباس فجلس على سريره ، وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المُحْدَث ، وسكت مروان والقوم ، فإذا يد ابن الزبير تتحرك ، فعلم أنه يريد أن ينطق ، ثم نطق فقال :

١١٤ ـ مقال ابن الزبير

« إن ناساً يزعمون أن بيعة أبى بكر كانت غلطاً وفَلْتَةً ومُغَالَبَةً ، أَلَا إن شأن أبى بكر أعظمُ من أن يقال فيه هذا ! ويزعمون أنه لولا ما وقع لـكان الأمر لهم وفيهم ، والله ما كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحَدٌ أثبت إيمانًا ، ولا أعظم سابقةً من أبى بكر ، فمن قال غير ذلك فعليه لعنة الله ، فأين هم حين عَقَد أبو بكر لعمر فلم يكن إلاّ ما قال ، ثم ألقى عمر حظّهم فى حظوظ ، وجَدّهم فى جدود ، فقسمت تلك الحظوظ ،

---

(١) الجائع . (٢) جوع . (٣) تجاهه وجاهه مثلثين : تلقاء وجهه .

فأخر الله سَهْمَهم ، وأدحض جَدَّهم ، ووَلِى الأمر عليهم من كان أحقَّ به[١] منهم ، فخرجوا عليه خروج اللصوص على التاجر خارجًا من القرية ، فأصابوا منه غِرَّة[٢] فقتلوه ، ثم قتلهم الله به كل قِتلة ، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب » .

١١٥ — مقال ابن عباس

فقال ابن عباس : « على رِسلك[٣] أيها القائل فى أبى بكر وعمر والخلافة ، أما والله ما نالا ولا نال أحد منهما شيئًا ، إلا وصاحبنا خيرٌ ممن نالا ، وما أنكرنا تقدم من تقدَّم لعَيب عِبْناه عليه ، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلاً وفوق الأهل ، ولولا أنك إنما تذكر حظَّ غيرك ، وشرف امرئٍ سواك لكلمتك ، ولكن ماأنت وما لاحظ لك فيه ؟ اقتصر على حظك ، ودع تَيْمًا لِتَيْم ، وعَدِيًّا لعدى[٤] وأُمَيَّة لأمية ، ولو كلمنى تَيْمِى أو عَدَوِىّ أو أموى ، لكلمته وأخبرته خبرَ حاضر عن حاضر ، لا خبرَ غائب عن غائب ، ولكن ما أنت وما ليس عليك ، فإن يكن فى أسد بن عبد العُزَّى شىء فهو لك ، أما والله لنحن أقرب بك عهداً ، وأبيض بك يداً ، وأوفر عندك نعمة ، ممن أمسيتَ تظن أنك تصول به علينا ، وما أخلقَ ثوبُ صفيةَ بعدُ، والله المُستَعان على ما تصفون » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ٤٩٠)

١١٦ — خطبة عبد الله بن عباس

يردّ على عبد الله بن الزبير وقد عاب بنى هاشم

لما كاشف عبد الله بن الزبير بنى هاشم ، وأظهر بغضهم وعابَهم ، وهمَّ بما همَّ به فى أمرهم ، ولم يذكر رسولَ الله صلى الله عليه وآله فى خطبه ، لا يومَ الجمعة ولا غيرها ،

---

(١) يشير إلى اختيار عمر رضى الله عنه أصحاب الشورى الستة ، وفيهم الإمام على كرم الله وجهه ، وما كان من مبايعة عثمان رضى الله عنه بالخلافة . (٢) غفلة . (٣) الرسل : الرفق والتؤدة .

(٤) تيم رهط أبى بكر الصديق ، وعدى رهط عمر الفاروق .

عاتبه على ذلك قوم من خاصَّته ، وتشاءموا بذلك منه ، وخافوا عاقبته ، فقال : « والله ما تركت ذلك عَلَانِيَةً إلا وأنا أقوله سرًّا وأُكْثِر منه ، لـكنى رأيت بنى هاشم إذا سمعوا ذِكْرَه ، اشْرَأَبُّوا[١] واحْمَرَّت ألوانهم ، وطالت رقابهم ، والله ما كنت لآتِىَ لهم سرورًا وأنا أقدر عليه ، والله لقد هَمَمت أن أحظُر لهم حَظِيرةً ، ثم أُضْرِمَها عليهم نارًا ، فإنى لا أقتل منهم إلا آثمًا كفَّارًا سحَّارًا ، لا أَنْماهم الله ، ولا بارك عليهم ! بيتُ سوء لا أولَ لهم ولا آخِرَ ، والله ما ترك نبى الله فيهم خيرًا ، استفرغ[٢] نبىُّ الله صدقَهم ، فهم أكذب الناس ، فقام إليه محمد بن سعد بن أبى وَقَّاص فقال : « وَفَّقك الله يا أمير المؤمنين ! أنا أول من أعانك فى أمرهم » . فقام عبد الله بن صَفْوان بن أُمَيَّة الجُمَحِىّ فقال : والله ما قلتَ صوابًا ، ولا هممتَ بِرُشْد ، أَرَهْطَ رسول الله صلى الله عليه وآله تَعِيبُ ، وإياهم تقتُل ، والعربُ حولك ؟ والله لو قتلت عِدَّتَهم أهلَ بيت من الترك مسلمين ، ما سوَّغه الله لك ، والله لو لم ينصرهم الناس منك لنصرهم الله بنصره ، فقال : اجلس أبا صفوان فلست بناموس[٣] ، فبلغ الخبر عبد الله بن العباس ، فخرج مُغْضَبًا ومعه ابنه ، حتى أتى المسجد ، فَقَصَدَ قصد المِنْبر .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أيها الناس : إن ابن الزبير يزعم أنْ لا أولَ لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا آخِر ! فياعَجبا كلَّ العجب ، لافترائِه وتَكذُّبه[٤] ! والله إن أول من أخذ الإيلافَ[٥]

---

(١) اشرأب إليه : مد عنقه لينظر أو ارتفع . (٢) فى الأصل « استفرع » وهو تحريف . يقال استفرغ فلان مجهوده : إذا لم يبق من جهده وطاقته شيئا ، والمراد أنه حوى مافيهم من صدق فلم يبق لهم منه شىء ، فهم أكذب الناس (كذا !) . (٣) الناموس : الحاذق ، وهو أيضا صاحب السر المطلع على باطن أمرك . (٤) تكذب : تكلف الكذب . (٥) روى أبو على القالى فى أماليه قال :

« كانت قريش تجاراً ، وكانت تجارتهم لاتعدو مكة ، إنما تقدَّم عليهم الأعاجم بالسلع ، فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا =

وحَمَى عِيرَات[1] قريش لهاشم ، وإن أول من سَقَى بمكة عَذباً ، وجعل باب الكعبة

= كذلك ، حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشأم ، فنزل بقيصر ، فكان يذبح كل يوم شاة ، ويصنع جفْنة ثريد ، ويجمع من حوله فيأكلون ، وكان هاشم من أجمل الناس وأتمّهم ، فذُكر ذلك لقيصر ، فقيل له : هاهنا رجل من قريش يَهْشِم الخبز ثم يصب عليه المرق ويُفْرِغ عليه اللحم — وإنما كانت العجم تصب المرق فى الصِّحاف ثم تأتدم بالخبز — فدعا به قيصر ، فلما رآه وكلمه أعجِب به ، فكان يبعث إليه فى كل يوم ، فيدخل عليه ويحادثه ، فلما رأى نفسه تمكن عنده ، قال له : « أيها الملك إن قومى تجّار العرب ، فإن رأيتَ أن تكتب لى كتابا تؤمِّن تجارتهم فيقدموا عليك بما يُستطْرَف من أدَم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو أرخص عليكم » فكتب له كتاب أمان لمن يقْدَم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مر بحيّ من العرب بطريق الشأم أخذ من أشرافهم إيلافا — والإيلاف أن يأمنوا عندهم فى أرضهم بغير حِلْف ، إنما هو أمان الطريق — وعلى أن قريشا تحمل إليهم بضائع ، فيكفونهم حُمْلانها ، ويؤدون إليهم رءوس أموالهم وربحهم ، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشأم حتى قدم مكة ، فأتاهم بأعظم شىء أتَوا به بركة ؛ فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم يجوِّزهم ، يُوفيهم إيلافَهُم الذى أخذ لهم من العرب ، حتى أوردهم الشأم ، وأحلهم قراها ، ومات فى ذلك السفر بغَزّة ، وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن ، فأخذ من ملوكهم عهدا لمن تجَر إليهم من قريش ، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم ، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف ، وكان يسمى الفَيْض ، وهلك بِرَدْمان من اليمن ، وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة فأخذ إيلافاً كفعل هاشم والمطلب ، وهلك عبد شمس بمكة فقبره بالحَجُون ، وخرج نوفل بن عبد مناف ، وكان أصغر ولد أبيه ، فأخذ عهدا من كسرى لتجار قريش ، وإيلافاً ممن مر به من العرب ، ثم قدم مكة ورجع إلى العراق فمات بسَلْمان ، واتسعت قريش فى التجارة فى الجاهلية وكثرت أموالها ، فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منّة فى الجاهلية والإسلام » — ذيل الأمالى ص ٢٠٤ .

(١) العير بالكسر الإبل تحمل الميرة : بلا واحد من لفظها ، أو كل ماامتير عليه إبلا كانت أو حميرا أو بغالا وجمعه كعنبات ويسكن .

ذَهَبا ، لَعَبدُ المطلب[1] والله لقد نشأت ناشئتنا مع ناشئة قريش ، وَإنْ كنَّا لَقَالَتَهُم[2] إذا قالوا ، وخطباءهم إذا خَطَبوا ، وما عُدَّ مجدٌ كمجد أوَّلنا ، ولا كان فى قريش مجدٌ لغيرنا ، لأنها فى كفر ماحِقٍ ، ودينٍ فاسقٍ ، وَضِلة وضلالة[3] فى عَشْوَاء[4] عَمْيَاء ، حتى اختار الله تعالى لها نورًا ، وبعث لها سِراجًا ، فانتجبَه[5] طيِّبًا من طيبين ، لا يُسَبُّ بمَسَبَّة ، ولا يُبْغَى عليه غائلةٌ ، فكان أحَدَنا وولدَنا وعمنا وابن عمنا ، ثم إنَّ أسبقَ السابقين إليه، منَّا وابنُ عمنا[6] ، ثم تلاه فى السَّبْق أهلُنا وَلُحْمَتُنَا[7] واحدًا بعد واحد ، ثم إن لَخَير الناس بعده أكرمهم أدبًا ، وأشرفهم حسبًا ، وأقربهم منه رَحِما » .

واعَجَباَ كلَّ العجب لابن الزبير! يعيب بنى هاشم ، وإنما شَرُفَ هو وأبوه وجَدُّه بمصاهرتهم ، أما والله إنه لمصلوب قريش ، ومتى كان العوَّام بن خُوَيلد يطمع فى صفية بنت عبد المطلب ؟ قيل للبغل : من أبوكِ يا بغل ؟ فقال : خالى الفرس » ثم نزل .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٤٨٩)

١١٧ — خطبة ابن الزبير يتنقص ابن عباس

وخطب ابن الزبير بمكة على المنبر ، وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر ، فقال : « إنَّ هاهنا رجلاً قد أعمى الله قلبَه كما أعمى بَصَره ، يزعم أن مُتْعَة النساء حلالٌ من

---

(١) قال الطبرى : « وعبد المطلب هو الذى كشف عن زمزم بئر إسمعيل بن إبراهيم ، واستخرج ما كان فيها مدفونا ، وذلك غزالان من ذهب كانت جرهم دفنتهما فيما ذكر حين أخرجت من مكة وأسياف قلعية « ومرج القلعة محركة: موضع بالبادية إليه تنسب السيوف » وأدراع ،فجعل الأسياف بابا للكعبة ، وضرب فى الباب الغزالين صفائح من ذهب ، فكان أول ذهب حليته فيما قيل الكعبة » تاريخ الطبرى ٢ : ١٧٩ »

(٢) القالة جمع قائل . (٣) الضلة والضلالة: ضد الهدى . (٤) أى فى جهالة وفتنة عشواء ، من العشى (كعصا) وهو سوء البصر بالليل والنهار ، وقيل ذهاب البصر . عشى يعشى (كفرح) فهو أعشى وهى عشواء (والعشواء أيضا الناقة التى لا تبصر أمامها فهى تخبط بيدها كل شىء ، لأنها ترفع رأسها فلا تتعهد مواقع أخفافها) . (٥) انتجبه : اختاره . (٦) يعنى الإمام عليا كرم الله وجهه .

(٧) اللحمة: القرابة .

الله ورسوله ، وَيُفْتِي فى القَمْلة والنَّملة ، وقد احتمل بيت مال البصرة[1] بالأمس ، وترك المسلمين بها يرتضِخُون[2] النَّوى ، وكيف ألُومُهُ فى ذلك : وقد قاتل أمَّ المؤمنين وَحَوَارِيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومَن وَقَاه بيده[3] » .

---

(١) ذكر بعض المؤرخين أن ابن عباس كان من أحب الناس إلى عمر ، وكان يقدمه على أكابر الصحابة ولم يستعمله قط ، فقال له يوما : كدت أستعملك ، ولكن أخشى أن تستحل الفىء على التأويل ، فلما صار الأمر إلى على استعمله على البصرة ، فاستحل الفىء على تأويل قوله تعالى « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى » ، واستحله لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : ومر ابن عباس على أبى الأسود الدؤلى فقال : لو كنت من البهائم لكنت جملا ، ولو كنت راعيا مابلغت من المرعى ولا أحسنت مهنته فى المشى ، فكتب أبو الأسود إلى على كتابا يقول فيه : « إن ابن عمك قد أكل ماتحت يديه بغير علمك ، فلم يسعنى كتمانك ذلك ، فانظر رحمك الله فيما هنالك » فكتب على إلى ابن عباس « أن ارفع إلى حسابك » فرد عليه ابن عباس : إن كل الذى بلغك باطل » . فكتب إليه على : « إنه لا يسعنى تركك ، حتى تعلمنى ما أخذت من الجزية ، من أين أخذته ، وما وضعت منها ، أين وضعته » فلما رأى أن عليا غير مقلع عنه كتب إليه « ابعث إلى عملك من أحببت ، فإنى ظاعن عنه » ورحل عن البصرة ، وقد حمل ما كان فى بيت مالها حتى قدم الحجاز فنزل مكة ، وتبودلت الكتب بين على وبينه ثانية ، وكانت خاتمتها أن كتب إليه ابن عباس : « والله لئن لم تدعنى من أساطيرك لأحملنه إلى معاوية يقاتلك به » فكف عنه على ، — انظر العقد الفريد ج ٢ : ص ٢٤٢ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٨١ ، ونهج البلاغة ج ٢ : ٤٦ — .

وقال آخرون : إن ابن عباس مافارق عليا ولا باينه ، ولم يزل أميرا على البصرة إلى أن قتل على وبعد مقتل على حتى صالح الحسن معاوية ، ثم خرج حينئذ إلى مكة ، وليس هذا موضع بحث تلك المسألة — انظر كلمة عنها فى شرح ابن أبى الحديد ج ١٦ ص ٦٤ ، وأمالى السيد المرتضى ج ١ ص ١٢٣ . (٢) رضخ النوى (كمنع وضرب) كسره ، وفى لسان العرب : « فظلوا يترضخون أى يكسرون الخبز فيأكلونه ويتناولونه » ولم أجد فى كتب اللغة « يرتضخ » بهذا المعنى ، وإنما الذى جاء « وهو يرتضخ لكنة عجمية إذا نشأ معهم ثم صار إلى العرب ، فهو ينزع إلى العجم فى ألفاظه ولو اجتهد » وقول ابن الزبير كناية عن شدة القحط والفاقة.

(٣) كان طلحة بن عبيد الله ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحامى عنه فى وقعة أحد وقد انهزم المسلمون ، ووقاه بيده من سيوف المشركين ، وقد رمى بسهم فى يده فيبست ، وقال عليه الصلاة والسلام يومئذ « اليوم أوجب طلحة الجنة » .

١١٨ — رد ابن عباس عليه

فقال ابن عباس لقائده سعيد بن جُبَيْر مولى بنى أسد بن خُزَيمة — وكان ابن عباس قد كُفَّ بصره — استقبِلْ بى وجْهَ ابن الزبير وارفع من صدرى ، فاستقبل به قائدُه وجه ابن الزبير وأقام قامته ، فَحَسَر عن ذراعيه ، ثم قال : « يابن الزبير :

قد أنصف القَارَةَ من رَاماها ... إنَّا إذا مافِئَةٌ نَلْقَاها

نردُّ أولاها على أُخراها ... حتى تصيرَ حَرَضًا دَعْوَاها[1]

يابن الزبير : أما العمى ، فإن الله تعالى يقول : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » ، وأما فُتْيَاىَ فى القملة والنملة ، فإن فيها حُكْمين لاتعلمهما أنت ولا أصحابك . وأما حَمْلى المالَ ، فإنه كان مالًا جبَيْناه ، فأعطينا كلَّ ذى حق حقه ، وبقيت بقيةٌ هى دون حقنا فى كتاب الله ، فأخذناها بحقنا ، وأما المُتْعَة فَسَلْ أمك أسماء إذ نزلت عن بُرْدَىْ عَوْسَجَةَ ، وأما قتالنا أمَّ المؤمنين ، فبنا سُمِّيت أمَّ المؤمنين ، لا بك ولا بأبيك ، فانطلق أبوك وخالك[2] إلى حجابٍ مَدَّه الله عليها ، فهتَكاه عنها ، ثم اتخذاها فتنةً يقاتلان دونها ، وصانا حلائلهما فى بيوتهما ، فما أنصفا الله ولا محمدًا من أنفسهما أنْ أبْرَزَا زوجةَ نبيه وصانا حلائلهما ، وأما قتالنا إياكم ، فإنا لقينا كم زَحْفًا ، فإن كنا كفارًا فقد كفرتم بفراركم منا ، وإن كنا مؤمنين فقد كفرتم بقتالكم إيانا ، وايم الله لولا مكانُ صفيةَ فيكم ، ومكان خديجة فينا ، لما تركتُ لبنى أسد بن عبد العُزَّى عظما إلا كَسَرته » .

---

(١) الحرض : الفساد فى المذهب والعقل والبدن . (٢) يعنى طلحة وهو ابن عم جده أبى بكر الصديق ، فهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عبيد الله بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤى ، وأبوبكر هو عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب . . . الخ ، وإنما جعله خاله باعتبار القرابة النسوية .

فلما عاد ابن الزبير إلى أمه سألها عن بُرْدَىْ عَوْسَجة ، فقالت : ألم أنْهَكَ عن ابن عباس ، وعن بنى هاشم ؟ فإنهم كُعُم[١] الجواب إذا بُدِهوا[٢] » فقال : بَلَى وعصيتُكِ ، فقالت : يا بُنى احذر هذا الأعمى الذى ما أطاقته الإنس والجن ، واعلم أن عنده فضائحَ قريش ومخازيَها بأسْرِها ، فإياك وإياه آخِرَ الدهر » .

ورواية صاحب العقد : « أن ابن عباس قال لِعِكْرِمَة : أقم وجهى نحوه يا عكرمة ، ثم قال :

إن يأخذ الله من عَيْنَىَّ نورَهما ... فنى فؤادى وعقلى منهما نور

وأما قولك يابن الزبير : إنى قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك ، وبنا سميت أم المؤمنين ، فكنا لها خيرَ بنين، فتجاوز الله عنها ، وقاتلت أنت وأبوك عليًّا، فإن كان علىٌّ مؤمنًا فقد ضَلَلتم بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافرًا فقد بُؤتُم بسخط من الله بفراركم من الزحف . وأما المتعة فإنى سمعت علىَّ بن أبى طالب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رخَّص فيها فأفتيتُ بها ، ثم سمعته ينهى عنها فنهيت عنها[٣] .

---

(١) كعم البعير كمنع : شد فاه لئلا يعض أو يأكل ، والكعام ككتاب : ما يجعل على فمه ، والجمع كعم ككتب . والمعنى أنهم ذوو أجوبة مسكتة مخرسة تلجم أفواه مناظريهم .

(٢) بدهه بأمر كمنعه: استقبله به أو بدأه به . (٣) جاء فى المصباح المنير : « المتعة اسم التمتع ، ومنه متعة الحج ، ومتعة النكاح ، ومتعة الطلاق ، ونكاح المتعة هو المؤقت فى العقد ، وقال فى العباب : كان الرجل يشارط المرأة شرطا على شىء إلى أجل معلوم ، ويعطيها ذلك فيستحل بذلك فرجها ، ثم يخلى سبيلها من غير تزويج ولا طلاق ، وقيل فى قوله تعالى « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » المراد نكاح المتعة ، والجمهور على تحريم نكاح المتعة ، وقالوا معنى قوله : « فما استمتعتم » فما نكحتم على الشريطة التى فى قوله تعالى : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ » أى عاقدين النكاح ، واستمتعت بكذا وتمتعت : انتفعت ، ومنه تمتع بالعمرة إلى الحج : إذا أحرم بالعمرة فى أشهر الحج وبعد تمامها يحرم بالحج فإنه بالفراغ من أعمالها يحل له ما كان حرم عليه ، فمن ثم يسمى متمتعا » اه . —

وأول مِجْمَرٍ[1] سطع فى المُتْعة مِجْمَرَ آل الزبير[2] » .

(شرح ابن أبى الحديد م٤ : ٤٨٩ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٦٩ — ١١٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٣)

١١٩ — عبد الله بن جعفر (المتوفى سنة ٨٠ هـ) وعمرو بن العاص

قال ابن أبى الحديد : روى المدائنى قال :

« بينا معاوية يومًا جالسًا وعنده عمرو بن العاص إذ قال الآذن : قد جاء عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب . فقال عمرو : والله لأسُوأنَّه اليوم ، فقال معاوية : لا تفعل يا أبا عبد الله ، فإنك لا تنتصف منه ، ولعلك أن تُظهر لنا من مَنْقَبته[3] ما هو خفى عنا ، وما لا نحب أن نعلمهُ منه ، وغَشِيهم عبد الله بن جعفر ، فأدناه معاوية وقرَّبه ، فمال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فنال من علىّ عليه السلام جهارا غير ساتِرٍ له وَثَلَبَهُ ثَلْبا[4] قبيحًا ، فامْتُقِع[5] لون عبد الله ، واعتراه أفْكَل[6] ، حتى أُرْعِدَت خصائله[7] ثم نزل عن السرير كالفَنِيق[8] ، فقال عمرو : مَهْ يا أبا جعفر ، فقال له عبد الله : مه لا أمّ لك ، ثم قال :

أظن الحلمَ دلَّ علىَّ قومى   وقد يتجهل الرجل الحليم

= وجاء فى التفاسير : « وقيل نزلت الآية فى المتعة التى كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت : لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ، ثم أصبح يقول : « يأيها الناس إنى كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ، ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة » وهى النكاح الموقت بوقت معلوم سمى بها ، إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة وتمتيعها بما تعطى ، وجوزها ابن عباس رضى الله عنهما ثم رجع عنه » .

(١) المجمر : العود ، واستجمر بالمجمر : تبخر بالعود . (٢) قال المسعودى فى مروج الذهب : « وقد تنازع الناس فى ذلك ، فمنهم من رأى أنه عنى متعة النساء ، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج ، لأن الزبير تزوج أسماء بكرا فى الإسلام ، زوجه أبو بكر معلنا ، فكيف تكون متعة النساء ؟ » .

(٣) المنقبة : المفخرة . (٤) ثلبه : عابه . (٥) تغير لونه . (٦) الأفكل : الرعدة .

(٧) جمع خصيلة : وهى لحم الفخذين والعضدين والذراعين ، أو كل عصبة فيها لحم غليظ .

(٨) الفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .

ثم حَسَر عن ذراعيه ، وقال :

« يامعاوية حتّامَ تتجرّع غيظَك ، وإلى كَمَ الصبر على مكروه قولك ، وسيئ أدبك ، وذميم أخلاقك، هَبِلتك الْهَبول (١) ، أما يزجرك ذِمام(٢) المجالسة عن القَذْع(٣) لجليسك إذا لم تكن لك حُرمة من دينك تنهاك عما لا يجوز لك ، والله لو عطفتك أواصِرُ(٤) الأرحام ، أو حاميت على سهمك من الإسلام ، ما أرعيتَ بنى الإماء الْمُتكِ(٥) ، والعبيدِ السُّكِّ(٦) أعراضَ قومك ، وما يجهل موضعَ الصَّفوة(٧) إلا أهلُ الجفوة ، وإنك لَتَعرف وشائج(٨) قريش ، وصفوة غرائزها ، فلا يدعوَنّك تصويب مافَرَط من خطئك فى سفك دماء المسلمين ، ومحاربة أمير المؤمنين ، إلى التمادى فيما قد وضح لك الصواب فى خلافه ، فاقصِد لمنهج الحق فقد طال عَمَهُك(٩) عن سبيل الرشد ، وخبطك فى دَيْجُور(١٠) ظلمة الغى ، فإن أبيت أن لاتتابعنا فى قبح اختيارك لنفسك ، فأعْفِنا عن سوء القَالَة (١١) فينا ، إذا ضمّنا وإياك النَّدِىّ (١٢) ، وشأنك وما تريد إذا خلوت ، والله حسيبك ، فوالله لولا ماجعل الله لنا فى يديك لما أتيناك ، ثم قال : إن كلفتنى ما لم أطق ، ساءك ما سُتِرَ منى من خلق » .

---

(١) هبلته أمه : ثكلته ، والهبول : المرأة لايعيش لها ولد. (٢) الذمام : الحرمة . (٣) قذعه وأقذعه : رماه بالفحش وسوء القول. (٤) جمع آصرة ، وهى القرابة وحبل صغير يشد به أسفل الخباء. (٥) المتك : جمع متكاء (كحمراء) وهى البظراء والمفضاة والتى لاتمسك البول. (٦) السك جمع أسك من السكك (محركة) ، وهو صغر الأذن ولزوقها بالرأس ، أوصغر فوف الأذن وضيق الصماخ. (٧) أى صفوة القوم وسادتهم .

(٨) فى الأصل « وشائك » وقد بحثت فى مادة « وشك » فوجدت فيها « والوشيك السريع والقريب ، وامرأة وشيك : أى سريعة » فلو جعلنا وشائك جمع وشيكة « أو وشيك على التأنيث » لم يستقم معنى العبارة ، وأراه محرفا عن « وشائج » بالجيم . جمع وشيجة ، وهى عرق الشجرة ، فمعنى وشائج قريش أصولها وعروقها « والعرق أصل كل شىء » أى وإنك يامعاوية لتعرف أصول قريش الكريمة الزاكية التى تأبى الضيم ولا تحتمل الثلب والإهانة « والوشيج أيضا شجر الرماح » ونظير هـذا التعبير قول الفرزدق « مشتقة من رسول الله نبعته » — والنبع : شجر تتخذ منه القسى والسهام . (٩) العمه محركة : التردد فى الضلال .

(١٠) الديجور : الظلام. (١١) القول فى الخير ، والقال والقيل والقالة فى الشر. (١٢) النادى .

فقال معاوية : يا أبا جعفر نغيِّر الخطأ ، أقسمت عليك لتَجلسنّ ، لعن الله من أخرج ضَبّ صدرك من وَجاره[1] ، محمول لك ماقلت ، ولك عندنا ما أملت ، فلو لم يكن مَحْتِدك[2] ومنصِبك لـكان خُلُقك وَخَلْقك شافعين لك إلينا ، وأنت ابن ذى الجناحين وسيد بنى هاشم ، فقال عبد الله : كلا بل سيد بنى هاشم حسن وحسين لاينازعهما فى ذلك أحد ، فقال : أبا جعفر أقسمت عليك لَمّا ذكرت حاجة لك إلا قضيتُها كائنة ما كانت ، ولو ذهبت بجميع ما أملك ، فقال : أما فى هذا فى المجلس فلا ، ثم انصرف ، فأتبعه معاوية بصره فقال : والله لـكأنه رسول الله صلى الله عليه وآله مشيُه وخَلْقه وخُلُقه ، وإنه لمن مِشْـكاته[3] ، لوَدِدت أنه أخى بنفيس ماأملك .

ثم التفت إلى عمرو فقال : أبا عبد الله ما تراه منعه من الـكلام معك ؟ قال : مالا خفاء به عنك . قال : أظنك تقول : إنه هاب جوابك ؟ لاوالله ولـكنه ازدراك واستحقرك ولم يرك للـكلام أهلا ، أما رأيت إقباله علىّ دونك ، ذاهباً بنفسه عنك ؟ فقال عمرو : فهل لك أن تسمع ما أعددته لجوابه ؟ قال معاوية : أرغب إليك أبا عبد الله ، فلاتَ حين جوابٍ فيما يُرى اليوم ؛ ونهض معاوية وتفرق الناس .

(شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ١٠٤)

١٢٠ – الحسن بن علىّ وعمرو بن العاص

وَوَفَد الحسن بن علىّ رضى الله عنه على معاوية ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين إن الحسن رجل أفَهّ[4] ، فلو حملتَه على المنبر فتكلم وسمع الناس كلامه عابوه وسقط من عيونهم ففعل ، فصعِد على المنبر وتكلم فأحسن ، ثم قال : أيها الناس لو

---

(١) جحره . (٢) أصلك . (٣) المشكاة : الـكوة التى ليست بنافذة .

(٤) أفه : وصف من الفهاهة ، وهى العى ، وفعله فهه كفرح ، وقياس الوصف منه أفة على أفعل لأنه يدل على خلقة « عيب » كعور وعمى وعرج ، ولـكن الذى فى كتب اللغة : فه كعذب وفهيه وفهفه .

طلبتم ابنا لنبيكم مابين جابَرْسَ إلى جابَلْقَ[1] لم تجدوه غيرى وغيرَ أخى : (وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) فساء ذلك عمرًا ، وأراد أن يقطع كلامه ، فقال له : أبا محمد ، هل تنعت الرُّطَب[2] ؟ فقال : « أجلْ تلقحه الشَّمال ، وتُخرِّجه الجَنُوبُ ، ويُنْضِجه بَرْدُ الليل ، بحَرِّ النهار[3] » قال : أبا محمد ، هل تنعت الخَرَاءة[4] ؟ قال : « نعم ، تُبْعِد المَمْشَى فى الأرض الصَّحْصَح[5] ، حتى تتوارى من القوم ، ولا تستقبل القِبلة ، ولا تستدبرها ، ولا تستنج بالرَّوْثة ، ولا العظم ، ولا تبُلْ فى الماء الراكد » وأخذ فى كلامه .

(العقد الفريد ٢ : ١١٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ١٧٢ ، ومعجم البلدان ٣ : ٢٢)

١٢١ — الحسن بن على ومروان بن الحكم

بينما معاويةُ بن أبى سفيان جالِسٌ فى أصحابه إذ قيل له : الحسنُ بالباب ، فقال معاوية : إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه ، فقال له مروان بن الحكم : ائذن له ، فإنى أسأله ماليس عنده فيه جَوَاب ، قال معاوية : لاتفعل ، فإنهم قوم قد أُلهِموا الكلام وأذن له ، فلما دخل وجلس ، قال له مروان : أسرع الشيب إلى شاربك ياحسن ، ويقال إن ذلك من الخُرْق[6] ، فقال الحسن : ليس كما بلغك ، ولكنا مَعْشَرَ بنى هاشم ، أفواهنا عَذْبةٌ

---

(١) جابرس : مدينة بأقصى المشرق ، وجابلق : مدينة بأقصى المغرب ، وضبطها ياقوت فى معجمه بسكون اللام ، وفى القاموس ولسان العرب بفتحها ، قال ياقوت : « وفى رواية : جابلص » وضبطها صاحب اللسان بفتح اللام . وفى القاموس بفتح اللام أو سكونها : بلد بالمغرب ليس وراءه أنسى ، وفى العقد الفريد : « لو طلبتم أبناء أبيكم مابين لابتيها » ولا بتا المدينة : حرتان تكتنفانها . (٢) يسأله هذا وما بعده تعجيزا له . (٣) وفى العقد : « وتنضجه الشمس ، ويصبغه القمر » . (٤) خرئ كسمع خراءة بفتح الخاء وكسرها : سلح . (٥) الصحصح : ما استوى من الأرض . وفى العقد الفريد « الصحيح » وهو تحريف . (٦) الخرق كسبب : الحمق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور والاسم الخرق كقفل .

شِفاهُها ، فنساؤنا يُقبِلْنَ علينا بأنفاسهن وقُبَلِهنَّ ، وأنتم معشرَ بنى أميـة فيكم بَخَرٌ[١] شديد ، فنساؤكم يَصْرِفن أفواههن وأنفاسهن عنكم إلى أصداغكم ، فإنما يشِيب منكم موضع العِذَار[٢] من أجل ذلك . قال مروان : إن فيكم يابنى هاشم خَصْلَةَ سوء . قال : وما هى ؟ قال : الغُلْمة[٣] . قال : أجَلْ ، نُزِعت الغُلْمةُ من نسائنا ، ووُضِعت فى رجالنا ونزعت الغلمة من رجالـكم، ووضعت فى نسائـكم، فما قام لِأُمويَّةٍ إلاهاشمىٌّ؛ فغضب معاوية وقال : قد كنت أخبرتكم ، فأبيتم حتى سمعتم ما أظلم عليكم بيتَـكم ، وأفسد عليكم مجلسكم » (العقد الفريد ٢ : ١١٥)

١٢٢ — عقيل بن أبى طالب ومعاوية

وكان عَقِيل بن أبى طالب قد خرج إلى معاوية مُغَاضِباً لأخيه الإمام علىّ كرم الله وجهه[٤] ، فأكرمه معاوية ، وقرّبه إليه ، وقضى حوائجه ، وقضى عنه دينه ، ثم قال له فى بعض الأيام : « والله إن عليًّا غيرُ حافظ لك ، قطع قَرابتك ، وما وصَلك ، ولا اصطَنَعك » قال له عقيل : « وَالله لقد أجزل العطية وأعظَمَهَا ، ووصل القَرَابةَ وحَفِظَهَا ، وحَسَّن ظنه بالله إذ ساء به ظنك ، وحفِظ أمانته ، وأصلح رعيته ، إذ خُنتم وأفسدتم وجُرْتم ، فاكفف لاأبَالكَ فإنه عما تقول بمَعْزِل » .

وقال له معاوية يوما : « أبا يزيد ، أنا لك خير من أخيك علىّ » قال« صدقت ، إن

---

(١) البخر : النتن فى الفم وغيره . (٢) العذار : جانبا اللحية .

(٣) الغلمة : شدة الشهوة كالشبق بالتحريك . (٤) وكان قد قدم عليه بالكوفة ، فسأله أن يقضى عنه دينه ، قال : وكم دينك ؟ قال : أربعون ألفا ، قال : ماهى عندى ، ولكن اصبر حتى يخرج عطائى فإنه أربعة آلاف فأدفعه إليك ،قال : بيوت المال بيدك وأنت تسوفنى بعطائك ؟ قال : أتأمرنى أن أدفع إليك أموال المسلمين وقد ائتمنونى عليها ؟ قال: فإنى آت معاوية ، فأذن له فقدم عليه » انظر أسد الغابة ٣ : ٤٢٣ والفخرى ص ٧٦ » اقرأ أيضا كلمة فى هذا الصدد فى شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ٨٢ وفى ترجمة على ابن أبى طالب للمؤلف ص ٨٣ .

آخى آثَرَ دينَه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير لى من أخى ، وأخى خير لنفسه منك[١] » .

وقال له مرة : « أنت معنا ياأبا يزيد » قال : « ويوم بدر قد كنت معكم ! » .

وقال له يوما : إن عليًّا قد قطَعَك ووصَلْتُك ، ولا يُرضيني منك إلا أن تلعَنه على على المِنبر . قال : أفعلُ ، فأَصْعِد فصعِد ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيهاالناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعَنَ علىّ بن أبى طالب فالعَنُوه ، فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناس أجمعين » ثم نزل ، فقال له معاوية : إنك لم تبيِّن — أبا يزيد — مَن لعنتَ بينى وبينه . قال : والله لا زِدتُ حرفًا ولا نقصتُ آخر ، والكلام إلى نيّة المتكلم » .

ودخل عقيل على معاوية وقد كف بصره ، فأجلسه على سريره ، ثم قال له : « أنتم معشرَ بنى هاشم تُصابون فى أبصاركم » قال : « وأنتم معشر بنى أمية تصابون فى بصائركم » .

وقال له يوماً : ما أبينَ الشَّبَقَ فى رجالكم يابنى هاشم ! قال : لكنه فى نسائكم أبينُ يابنى أمية .

وقال معاوية يوما : « يأهل الشأم ، هل سمعتم قول الله تبارك وتعالى فى كتابه : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ[٢] وَتَبَّ » ؟ قالوا : نعم ، قال : فإن أبا لهب عمه ، فقال عقيل : فهل سمعتم قول الله عز وجل : (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ[٣]) قالوا : نعم ، قال : فإنها عمته ، ثم

---

(١) وفى البيان والتبيين أن معاوية قال : هذا أبو يزيد ، لولا أنه علم أنى خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه ، فقال له عقيل : « أخى خير لى فى دينى ، وأنت خير لى فى دنياى » . (٢) هو أبو لهب ابن عبد المطلب عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان شديد الإيذاء له ، يرى القذر على بابه .

(٣) هى أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان ، وقيل لها حمالة الحطب ، لأنها كانت تحمل الشوك والسعدان وتلقيه فى طريق النبى عليه الصلاة والسلام إيذاء له وكانت جارته ، أو هو النميمة إذ كانت تسعى عليه بالنمائم وتوقد بذلك نار الخصومة ، أو حطب جهنم ، فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاداته ، وتحمل زوجها على إيذائه .

قال « يامعاوية ، إذا دخلتَ النار، فاعدلْ ذات اليَسار، فإنك ستجد عمى أبا لهب ، مفترشا عمتك حمالة الحطب ، فانظر أيُّهما خيرٌ ؟

وقال له معاوية يوما : والله إن فيكم لخَصْلةً ما تُعجبنى يابنى هاشم . قال : وما هى ؟ قال : لِينٌ فيكم . قال : لينُ ماذا ؟ قال : هو ذاك . قال إيانا تُعَيِّر يامعاوية ؟ أجَلْ والله إن فينا لَلِينًا من غير ضَعف ، وعزا من غير جَبَرُوت ، وأما أنتم يابنى أمية ، فإن لِينكم غَدْر ، وعزكم كُفْر . قال معاوية : ما كلَّ هذا أردنا ياأبا يزيد .

وقال معاوية لعقيل : لِمَ جفوتنا ياأبا يزيد ؟ فأنشأ يقول :

إنى امرؤٌ منى التكرُّمُ شِيمةٌ إذا صاحبى يوما على الهُون أضْمرا

ثم قال « وايم الله يا معاوية ، لئن كانت الدنيا مَهَّدتك مِهَادَهَا ، وأظَلَّتك بحَذَافير[1] أهلها ، ومَدَّت عليك أطنابَ سلطانها ، ما ذاك بالذى يَزيدك منى رغبة ، ولا تخشُّعًا لرهبة » قال معاوية : « لقد نَعَتَّهَا أبا يزيد نَعْتًا هَشَّ لها قلبى ، و إنى لأرجو أن أن يكون الله تبارك وتعالى مارَدَّانى برداء ملكها ، وَحَبَانى بفضيلة عيشها ، إلا لكرامة ادَّخرها لى ، وقد كان داود خليفة ، وسليمان ملكا ، و إنما هو المِثال يُحْتَذَى عليه ، والأمورُ أشباه ، وايم الله يا أبا يزيد ، لقد أصبحتَ علينا كريمًا ، و إلينا حبيبا ، وما أصبحتُ أضْمِر لك إساءة » .

(العقد الفريد ٢ : ١١٠ — ١١٩ ، البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

---

(١) الحذافير : جمع حذفور أو حذفار (كعصفور وقرطاس) وهو الجانب .

١٢٣ — خطبة السيدة أم كلثوم بنت عليّ فى أهل الكوفة
بعد مقتل الحسين عليهم السلام

لما قُتل الحسين بن عليّ عليهما السلام ، وأُدخِلَ النِّسْوة من كَرْبَلاَء إلى الكوفة جعلت نساؤها يلتَدِمْن[١] ، ويَهْتِكْنَ الجُيُوبَ عليه ، فرفع عليّ بن الحسين عليهما السلام رأسه ، وقال بصوت ضئيل — وقد نَحَلَ[٢] من المرض — يا أهل الكوفة إنكم تبكون علينا ، فمَنْ قتلَنا غيرُكم ؟ وأومأتْ أم كلثوم بنت عليّ عليهما السلام إلى الناس أن اسكتوا ، فلما سكنت الأنفاس ، وهَدَأَتِ الأجْراس[٣] ، قالت .

« أبدأ بحمد الله ، والصلاة والسلام على أبيه[٤] ، أما بعد : يأهل الكوفة يأهْلَ الخَتْر[٥] والخَذْل ، لا ، فلا رَقَأَتِ[٦] العَبْرة ، ولا هَدَأَتِ الرَّنَّة[٧] ، إنما مَثَلُكم كمَثَل الّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا[٨] ، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا[٩] بَيْنَكُمْ ، ألاَ وهل فيكم إلا الصَّلَفُ[١٠] وَالشَّنَف[١١] ، ومَلَق[١٢] الإماء ، وغَمْزُ الأعداء ، وهل أنتم

---

(١) لدمت المرأة (كضرب) ، والتدمت : لطمت وضربت صدورها فى النياحة ، ويهتكن : يمزقن ، والجيوب جمع جيب : وهو طوق القميص . (٢) كنع وعلم ونصر وكرم .

(٣) الأجراس جمع جرس كشمس : وهو الصوت . (٤) تريد جدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية : « والصلاة على جدى سيد المرسلين » . (٥) الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر .

(٦) رقأ الدمع : جف وسكن ، والعبرة : الدمعة قبل أن تفيض . (٧) الرنة : الصوت .

(٨) أنكاثا : جمع نكث كحمل ، وهو مانقض ليغزل ثانية — حال من غزلها ، أو مفعول ثان لنقضت لأنه بمعنى صيرت — وقيل هى ريطة بنت سعد بن تيم القرشية ، وكانت خرقاء تغزل طول يومها ثم تنقضه .

(٩) الدخل : مايدخل فى الشئ وليس منه ، وما داخل من فساد فى عقل أو جسم ، والغدر والمكر والخديعة . (١٠) الصلف : التمدح بما ليس عندك ، أو مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا . (١١) الشنف : النظر بمؤخر العين ، أو النظر إلى الشيء كالمعترض عليه ، أو كالمتعجب منه ، أو كالكاره له ، وشنف له كفرح فرحا : أبغضه وتنكره . (١٢) ملق الجارية : جامعها ، أو هو ملق بالتحريك ، والملق : التملق .

إلا كمَرْعًى على دِمْنة(١) ، وكفضَّة على مَلْحودة(٢) ، ألا ساء ما قدّمت أنفسكم أنْ سَخِطَ الله عليكم ، وفى العذاب أنتم خالدون ، أتبكون ؟ إى والله فابْكُوا ، وإنكم والله أحْرِياء(٣) بالبكاء ، فابكوا كثيرا ، واضحكوا قليلا ، فلقد فزتم بعارها وَشَنارها(٤) ولن تَرْحِضوها(٥) بِغَسْلٍ بعدها أبدًا ، وأنّى تَرْحِضُون قتلَ سَليل خاتَم النبوّة ، ومَعْدِن الرسالة ، وسيد شبّان أهل الجنة ، ومَنار مَحجّتكم ، ومِدْرَه(٦) حُجّتكم ، ومُفْرِخ(٧) نازلتكم ، فتَعْسًا وَنُكْسًا(٨) ، لقد خاب السعى ، وخَسِرَت الصَّفْقة (٩) ، وبُؤْتم (١٠) بغضبٍ من الله ، وضُرِبَتْ عليكم الذِّلّةُ والمَسْكَنةُ . لقدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إدًّا (١١) ، تَكادُ السَّمٰواتُ يَتفَطَّرْنَ مِنهُ ، وتَنْشَقُّ الأرْضُ ، وتَخِرُّ الجِبالُ هدًّا (١٢) ؛ أتدْرُون أىَّ كَبِد لرسول الله فَرَيتم ، وأىَّ كَرِيمةٍ له أبرزتم ، وأىَّ دم له سَفَكتم ؟ لقد جئتم بها شَوْهاء خرْقاء(١٣) ، شرُّها طِلاعُ (١٤) الأرض والسماء ؛ أفعجبتم أن قَطَرت السماء دماً ، ولَعَذابُ الآخِرَةِ أخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ؛ فلا يستخفنّكم المهلُ ، فإنه لا تَحفِزُه المُبادرة(١٥) ، ولا يُخاف عليه فوْت الثار ، كلا ، إن ربك لنا ولهم لبالمِرْصاد (١٦) » ثم

---

(١) الدمنة : آثار الدار بعد الرحيل عنها من البعر والرماد وغيرهما ، أخذت هذا القول من قول جدها عليه الصلاة والسلام : « إياكم وخضراء الدمن » وهى المرأة الحسناء فى منبت السوء .

(٢) ملحودة : مدفونة فى لحدها ، تريد أنهم لا ينتفع بهم . (٣) جديرون .

(٤) الشنار : أقبح العيب . (٥) رحضه كنعه وأرحضه : غسله . (٦) دره عن القوم كنع : إذا تكلم عنه ودفع فهو مدره . (٧) أى مذهب ومزيل ، يقال : « أفرخ روعك » — على الأمر وبضم الراء من روعك — أى اسكن وأمن ، والروع : القلب . (٨) التعس : الهلاك ، ونكسه نكسا : قلبه على رأسه ، والنكس بالضم عود المرض بعد النقه ، ويقال : تعسا له ونكسا ، بضم النون وقد يفتح ازدواجا . (٩) البيعة . (١٠) رجعتم . (١١) أى فظيعا منكرا . (١٢) يتشققن ، وتخر : تسقط ، هدا : أى تهد هدا . (١٣) بها أى بفعلتكم هذه ، وخرقاء من الخرق : وهو ألايحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور . (١٤) طلاع الشىء : ملؤه . (١٥) أى لا تدفعه إلى العقوبة المبادرة إلى الذنب ، والضمير لله تعالى . (١٦) المرصاد : الطريق والمكان يرصد فيه العدو ، ورصده : رقبه ، أى يرصد أعمال العباد فلا يفوته منها شىء .

ولّت عنهم ، فظلّ الناس حيَارَى ، وقد ردّوا أيديهم إلى أفواههم . وقال شيخ كبير من بنى جُعْفِىّ — وقد اخضَلّت(١) لحيته من دموع عينيه .

كُهُولُهُمُ خيرُ الكهولِ ونَسْلُهُمْ إذا عُدّ ، نسلٌ لايبُورُ ولايَخْزَى

(بلاغات النساء ص ٢٧)

١٢٤ — خطبة السيدة زينب بنت علىّ عليهما السلام

بين يدى يزيد

ولما وجّه عُبَيد الله بن زياد آل الحسين عليه السلام إلى يزيد بدمشق ، وَمَثُلُوا بين يديه أمر برأس الحسين فأبرِز فى طَسْت ، فجعل ينكُت ثناياه بقَضِيب فى يده ، وهو يقول من أبيات(٢) :

ليت أشياخى ببَدْرٍ شَهِدُوا جزَعَ الخزرَجِ مِنْ وَقع الأَسَلْ(٣)

لأَهَلُّوا وَاُسْتَهَلُّوا فَرَحًا ثم قالوا : يا يزيدُ لا تَشَلْ(٤)

فجزَيناهم ببدرٍ مِثْلَها وأقمنا مَيْلَ بدرٍ فاعتدل(٥)

فقالت زينب بنت علىّ عليهما السلام : صدق الله ورسوله يايزيد ! (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ) أظننتَ يايزيدُ أنه حين أُخِذَ علينا بأطراف الأرض وأكنافِ السماء فأصبحْنا نساق كما يساق

---

(١) ابتلت . (٢) تمثل يزيد بهذه الأبيات وهى لعبد الله بن الزبعرى ، قالها فى غزوة أحد ، وهو يومئذ مشرك ، وكان يهجو المسلمين ، ويحرض عليهم كفار قريش فى شعره ، ثم أسلم بعد فتح مكة .

(٣) كانت الغلبة يوم بدر للمسلمين ويوم أحد للمشركين ، والأسل : الرماح والنبل ، والخزرج : قبيلة من الأنصار . (٤) كل من رفع صوته فقد أهل إهلالا واستهل استهلالا ، وشلت يده تشل كتعب يتعب ، وأشلت وشلت مبنيين للمجهول : يبست وهى جملة دعائية ، يقال فى الدعاء : « لا تشلل يدك ولا تكلل » — والبيت من قول يزيد — . (٥) لاتنس ماقدمناه لك من أن عليا كرم الله وجهه كان قد وتر آل أبى سفيان ببدر ، فقتل حنظلة بن أبى سفيان أخا معاوية ، والوليد بن عتبة خاله ، وعتبة بن ربيعة جده لأمه .

الأُسَارَى ، أنّ بنا هَوانا على الله ، وبك عليه كَرامةً ؟ وأن هـذا لِعظيم خَطَرِكَ ؟ فَشَمَخْتَ بأنفك ، ونظرت فى عِطْفَيْك(١) ، جَذْلانَ فَرِحًا ، حين رأيت الدنيا مستوسِقَةً لك ، والأمور متّسقةً(٢) عليك ، وقد أُمْهِلْتَ وَنفَّسْتَ(٣) ، وهو قول الله تبارك وتعالى : (وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي(٤) لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِين) أَمِن العدل ، يابن الطُّلَقاء تخديرُك(٥) نساءَك وإماءَك وسَوْقُك بناتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هَتَكْتَ ستورهن ، وأصْحَلْتَ(٦) صوتَهن ، مكتئباتٍ تَخْـدِى(٧) بهن الأباعرُ ، ويَحْدُو(٨) بهن الأعادى ، من بلد إلى بلد ، لايُرَاقَبْن ولا يُؤْوَيْن ، يتشوَّفُهُنَّ(٩) القريب والبعيد ، ليس معهن وَلِيّ(١٠) من رجالهن . وكيف يُسْتَبْطَأُ فى بغضتنا من نظر إلينا بالشَّنَف(١١) والشَّـنَآن ، والإِحَنِ والأضغان ؟ أتقول « ليت أشياخى ببدر شهدوا » غيرَ متأثّمٍ ولا مستعظم ؟ وأنتَ تنكت ثنايا أبى عبد الله بمِخصرتك(١٢) ، ولم لاتـكون كذلك وقد نَـكَأْتَ(١٣) القَرْحَةَ ، واستأصلتَ الشَّأْفة(١٤) ، بإهْراقك دماء ذُرِّيَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونُجُومِ

---

(١) أى جانبيك ، وهو كناية عن إعجابه بنفسه . (٢) من استوسقت الإبل : أى اجتمعت ، ومتسقة : منتظمة . (٣) أى فسح لك فى أمرك ، من نفس الله كربته : فرجها . (٤) نمهل .

(٥) صونهن فى خدورهن . (٦) أبححته ، صحل صوته كفرح : بح .

(٧) خدى البعير والفرس كجرى : أسرع وزج بقوائمه ، أو هو ضرب من سيرهما .

(٨) يسوق . (٩) يتطاول وينظر إليهن ويشرف عليهن . (١٠) قريب أو نصير .

(١١) سبق تفسيره ، وفى الأصل « بالشنق » وهو تحريف (والشنق : أن تكف البعير بزمامه حتى تلزق ذفراه بقادمة الرحل ، والذفرى بكسر الذال : العظم الشاخص خلف الأذن) ، والشنآن : الكراهية ، والإحن : الأحقاد . (١٢) المخصرة : مايأخذه الملك يشير به إذا خاطب . (١٣) نكأ القرحة كمنع : قشرها قبل أن تبرأ فنديت ، كناية عن نبشه عما كاد ينسى من العداوة بين بنى هاشم وبنى أمية .

(١٤) الشأفة : قرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب ، واستأصل الله شأفته : أذهبه كما تذهب تلك القرحة .

الأرض من آل عبد المطلب ، ولَتَرِدَنّ عَلَى الله وَشِيكاً(١) مَوْرِدَهُم ، ولتودّنّ أنك عَميت وَبَكِمْتَ وأنك لم تقل : « فاستهلوا وأهلوا فرحا » اللهم خذ بحقنا ، وانتقم لنا ممن ظَلَمَنَا . والله مافَرَيْتَ إلا فى جلدك . ولا حَزَزْتَ إلا فى لحمك ، وستَرِدُ عَلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم برَغْمك(٢) . وَعِتْرَتُه وَلُحمته فى حَظيرة القُدُس(٣) يوم يجمع الله شَمْلَهم ملمومين من الشَّعَث(٤) . وهو قول الله تبارك وتعالى : (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وسيعلم من بوّأك(٥) ومكّنك من رقاب المؤمنين — إذا كان الحَكَمَ اللهُ ، والخصمَ محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، وجوارحُك شاهدة عليك فَبِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً — أيُّكم شرٌّ مكاناً وأضعفُ جنداً ، مع أنى والله ياعدوَّ الله وابنَ عدوِّه ، أستصغر قدرَك ، وأستعظم تقريعَك(٦) ، غير أن العيون عَبْرى والصدور حَرّى(٧) ، وما يَجزِى ذلك أو يُغنى عنا ؛ وقد قتل الحسين عليه السلام ، وحزبُ الشيطان(٨) يقرّبنا إلى حزب السفهاء(٩) ، ليعطوهم أموال الله على انتهاك محارم الله ، فهذه الأيدى تَنطِف(١٠) من دمائنا ، وهذه الأفواه تتحلّب(١١) من لحومنا ، وتلك الجثث الزّواكى يعتامُها عَسَلان الفَلَوَات(١٢) ، فلئن اتخذتنا مَغْنماً لتتخذَنّ مَغْرَمًا ، حين لا تجد إلا ماقدّمت يداك ، تستصرخ(١٣) : يابن مرجانة ، ويَستصرخ بك ، وتتعاوَى وأتباعك

---

(١) سريعا . (٢) الرغم : الذل . (٣) العترة : رهط الرجل وعشيرته الأدنون ، واللحمة : القرابة ، والقدس : الطهر ، — أى فى الجنة — . (٤) التفرق .

(٥) أى أحلك فى كرسى الخلافة وهو معاوية . (٦) التقريع : التأنيب . (٧) عين عبرى : جرت عبرتها ، والصدور حرى : شديدة الحرارة ، كناية عن شدة الحزن . (٨) تريد عبيد الله بن زياد ورجاله.

(٩) أى إلى يزيد وشيعته . (١٠) نطف الماء كنصر وضرب : سال ، ونطف كفرح ، وعنى : تلطخ بعيب . (١١) تحلب العرق : سال وتحلب بدنه عرقا : سال عرقه . (١٢) الزواكى : جمع زاكية من زكا إذا صلح وتنعم ، واعتام : أخذ العيمة بالكسر وهى خيار المال ، وعسل الذئب عسلانا كجرى جريانا : أعنق وأسرع ، والعاسل : الذئب وجمعه كركع وفوارس ، والمراد هنا معنى الجمع لا المصدر : أى ذؤبان الفلوات ، ولم أجد فى كتب اللغة لعاسل جمعا غير هذين ، إلا أن يراد بالمصدر الوصف .

(١٣) تستغيث .

عند الميزان ؛ وقد وجدت أفضلَ زادٍ زوَّدك معاويةُ فتلك ذريةَ محمد صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما اتقيتُ[١] غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ، فكِدْ كيدَك ، واسعَ سعيَك ، وناصبْ جُهْدَك[٢] . فوالله لا يُرْحَض عنك عارُ ما أتيتَ إلينا أبدا ، والحمد لله الذى ختم بالسعادة والمغفرة لسادات شبَّان الجِنان ، فأوجبَ لهم الجنة . أسأل الله أن يرفع لهم الدرجاتِ ، وأن يوجب لهم المزيد من فضله ، فإنه ولىٌّ قدير » .

(بلاغات النساء ص ٢٥)

١٢٥ — رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام

وقال الحسين بن علىّ عند قبر أخيه الحسن عليهما السلام :

« رَحِمَك الله أبا محمد ، إن كنت لتناصِرُ الحقّ مَظانَّه[٣] ، وتؤثِرُ اللهَ عند تَدَاحُضِ[٤] الباطل فى مَوَاطن التَّقيَّة بحُسْنِ الروية ، وتستَشِفّ[٥] جليلَ مَعاظِم الدنيا بعينٍ لها حاقِرةٍ ، وتُفيض عليها يدا طاهرةَ الأطراف ، نقيَّة الأسِرَّةِ[٦] ، وتردَع بادِرَة غَرْبِ أعدائك بأيسر المئونة عليك . ولا غَرْوَ وأنت ابن سُلالة النبوة ، ورضيعُ لِبان الحكمةِ . فإلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَجَنَّةِ نَعِيمٍ . أعظمَ الله لنا ولكم الأجر عليه ، ووهب لنا ولكم السَّلوةَ وَحُسْنَ الأُسَى[٧] عنه »

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣١٤)

---

(١) أى لا أخاف إلا الله . (٢) ناصبه العداوة : أظهرها له .

(٣) فى الأصل « لتباصر » بالياء وأراه بالنون ، وقوله « مظانه » أى فى مظانه ، أو هو بدل .

(٤) هى تفاعل من الدحض ، دحض برجله كمنع : فحص بها ، ودحضت رجله : زلقت ، والمعنى : عند تطاحن الباطل ومغالبة بعضه بعضا . (٥) استشفه : نظر ماوراءه . (٦) الأسرة جمع سرار ككتاب : الخطوط التى تبدو فى ظاهر اليد والجبهة . (٧) الأسى بضم الهمزة وكسرها جمع أسوة بالضم والكسر أيضا : مايتعزى به .

١٣٦ — عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص في مجلس معاوية

روى المسعودى فى مروج الذهب قال :

« لما قُتِلَ علىّ كرّم الله وجهه ، كان فى نفس معاوية من يوم صِفين عَلَى هاشم ابن عُتْبَةَ بن أبى وَقَّاص المِرْقال وولدِه عبد الله بن هاشمٍ إحَنٌ ؛ فلما استعمل معاويةُ زياداً على العراق ، كتب إليه : « أما بعد : فانظر عبد الله بن هاشم بن عُتْبة فشُدَّ يده إلى عنقه ، ثم ابعث به إلىَّ » فحمله زياد من البصرة مُقيَّدًا مَغلولا إلى دِمَشق ، وقد كان زيادٌ طرَقه بالليل فى منزله بالبصرة ، فدخل إلى معاوية ، وعنده عمرو بن العاص ، فقال معاوية لعمرو بن العاص : هل تعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا الذى يقول أبوه يوم صفين[1] :

إنى شَرَيْتُ النفسَ لمّا اعتلاّ ... وأكثرَ اللَّوْمَ وما أقلاّ[2]

أعورُ يَبْغِى أهْلَهُ مَحَلاّ ... قد عالج الحياةَ حتى مَلاّ[3]

لابد أن يَفُلَّ أو يُفلاّ ... يَتُلُّهم بذى الكُعُوبِ تَلاّ[4]

لاخير عندى فى كريمٍ وَلّى

---

(١) وذلك أن عمار بن ياسر جاء إلى هاشم بن عتبة (وكان هاشم أعور فقئت عينه يوم اليرموك بالشأم) فقال : ياهاشم ، أعورا وجبنا ! لا خير فى أعور لا يغشى البأس ، اركب ياهاشم ، فركب ومضى معه وهو يرتجز : إنى شريت النفس . . . الخ وعمار يقول : تقدم ياهاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت تحت أطراف الأسل ، وقد فتحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين ، اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه .

(٢) شريت النفس : أى بعتها فى سبيل الله ، واعتله : تجنى عليه (أى ادعى ذنبا لم يفعله) ، وفاعله ضمير عمار بن ياسر ، فمعنى لما اعتل أى لما رمانى عمار بالجبن . (٣) يبغى أهله محلا : أى يبغى محل أهله أى يطلب مصير أهله الذين استشهدوا فى سبيل الله فسكنوا جنات الخلد، فهو يبغى لقاءهم والاجتماع بهم هناك .

(٤) يفل : يهزم ويغلب ، وتله صرعه، أو ألقاه على عنقه وخده (وفى الأصل : أسلهم بذى الكعوب سلا وهو تحريف ، إذ رواية الطبرى ، وابن الأثير يتلهم بالتاء ، أوهو صحيح على معنى : أسل أرواحهم وانتزعها) ، وذو الكعوب : الرمح ، وكعوب الرمح : النواشر فى أطراف الأنابيب .

فقال عمرو متمثلا :

وقد يَنبُتُ المَرْعَى على دِمَنِ الثَّرَى وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا[١]

« دونك يا أمير المؤمنين الضبَّ الضبَّ[٢] ، فاشْخُبْ أوداجَه[٣] على أسباجه[٤] ، ولا تردَّه إلى أهل العراق ، فإنه لايصبر عَلَى النفاق ، وهم أهل غَدْرٍ وشقاق ، وحزبُ إبليسَ ليومِ هيجَانِه ، وإن له هوًى سيُودِيه[٥] ، ورأيًا سيُطْغيه[٦] ، وَبِطانةً ستُقَوِّيه ، « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » .

---

(١) الدمن : جمع دمنة ، وهى ما اسود من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهما ، وهذا البيت لزفر بن الحارث الكلابى من قصيدة قالها ، وقد قتل ابناه يوم وقعة مرج راهط ، التى نشبت بعد موت معاوية الثانى بين مروان بن الحكم وبين من خالف على الأموية ودعا إلى الزبيرية من الضحاك بن قيس الفهرى وأتباعه ، ومنهم زفر الكلابى ، وقد دارت عليهم الدائرة ، وقتل الضحاك « انظر تاريخ الطبرى ، ومروج الذهب ، والعقد الفريد » . (٢) الضب : حيوان برى يشبه الورل ، وهو يتلون ألوانا بحر الشمس كما تتلون الحرباء ، وقد ضرب به المثل فقالوا : « أخدع من ضب » ، وذلك أنهم كانوا يصيدونه ، فيأتى الحارش (حرش الضب واحترشه : صاده) ويحرك يده على باب جحره ليظنه حية فيخرج ذنبه ليضربها فيأخذه ، ولكن الضب شديد الحذر فإنه يعمد بذنبه باب جحره ليضرب به حية أو شيئا آخر إن جاءه ، فيجىء المحترش ، فإن كان الضب مجربا أخرج ذنبه إلى نصف الجحر ، فإن دخل عليه شىء ضربه وإلا بقى فى جحره ، فهذا هو خدعه — يعنون به شدة حذره — وقيل إن معناه أن جحره قلما يخلو من عقرب ، لما بينها من الألفة والاستعانة بها على المحترش ، فإذا أدخل المحترش يديه لدغته وأنشدوا :

وأخدع من ضب إذا جاء حارش أعد له عنـد الذنابة عقربا

ويقولون : « فلان خب ضب » (والخب بالفتح وبكسر المخادع) فيشبهون الحقد الكامن فى قلبه الذى يسرى ضرره ، بخدع الضب فى جحره (ومن أمثالهم فيه أيضا) « أعق من ضب » — يريدون الأنثى ، وعقوقها أنها تأكل أولادها ، وذلك أن الضبة إذا باضت حرست بيضها من كل ماقدرت عليه من ورل وحية وغير ذلك ، فإذا نقبت أولادها ، وخرجت من البيض . ظنتها شيئا يريد بيضها ، فوثبت عليها تقتلها ، فلا ينجو منها إلا الشريد — وقالوا : « أعقد من ذنب الضب » ذكروا أن فيه إحـدى وعشرين عقدة — « وأجبن من ضب » ، « وأبلد من ضب » ، « وأحيا من ضب » — أى أطول عمرا .

(٣) الأوداج جمع ودج بالتحريك : عرق فى العنق ، وشخبت أوداج القتيل دما من بابى قتل ونفع : جرت ، وشخب اللبن وكل مائع : در وسال ، وشخبته أنا يتعدى ولا يتعدى . (٤) الأسباج جمـع سبجة « كغرفة » وسبجة القميص : لبنته — بنيقته . (٥) أى وإن له ميلا إلى آل على سيهلكه .

(٦) طغى : جاوز القدر وارتفع وغلا فى الكفر وأسرف فى المعاصى والظلم .

فقال عبد الله : « يا عمرو إن أُقتَلْ فرجلٌ أسْلَمَهُ[١] قومُه ، وأدركه يومُه ، أفلا كان هذا منك إذ تَحِيد عن القتال ، ونحن ندعوك إلى النِّزال ، وأنت تَلُوذ بِشِمال النِّطَاف[٢] ، وعقائق الرِّصَاف[٣] ، كالأَمَة السوْداء ، والنعجة القَوْداء[٤] لاتَدْفع يَدَ لَامِسٍ » .

فقال عمرو : « أما والله لقد وقعتَ فى لَهَاذِمِ[٥] شَدْقَمِ الأقران ذى لِبَدٍ ، ولا أحسبك مُنْفَلِتا من مخاليب أمير المؤمنين » .

فقال عبد الله : « أما والله يابن العاص ، إنك لبَطِر فى الرَّخاء ، جبان عند اللِّقاء ، غَشُومٌ[٦] إذا وَلِيتَ ، هَيَّاب إذا لَقِيتَ ، تَهْدِر[٧] كما يَهْدِر العَوْدُ المَنْكُوسُ ، المُقَيَّدُ بين مَجْرَى الشَّوْلِ ، لا يُسْتَعْجَل فى المُدّة ، ولا يُرْتَجَى فى الشِّدَّة ، أفلاَ كان هذا منك ، إذ غَمَرَك أقوام لم يُعنِّفُوا صغاراً ، ولم يُمَزَّقوا كباراً . لهم أيدٍ شِدَادٌ ، وألسِنَةٌ حِدَادٌ ،

---

(١) خذله .   (٢) النطاف جمع نطفة (كفرصة) وهى الماء الصافى ، قل أو كثر ، وفى الحديث « قطعنا إليهم هذه النطفة » أى البحر وماءه ، وفى حديث على : « وليمهلها عند النطاف والأعشاب » يعنى الإبل والماشية . يريد أنها إذا وردت على المياه والعشب يدعها لترد وترعى .   (٣) الرصفة بالتحريك الحجارة التى يرصف بعضها إلى بعض فى مسيل فيجتمع فيها ماء المطر ، والعقائق : الغدران . يقال لكل مسيل شقه ماء السيل فأنهره ووسعه عقيق ، والجمع أعقة وعقائق ، وقيل العقائق هى الرمال الحمر .

(٤) مؤنث الأقود : وهو الذلول المنقاد .   (٥) جمع لهذم كجعفر : وهو القاطع من الأسنة ، والشدقم : الأسد ، والواسع الشدق ، وشدقم للأقران أى أسد مبتلع للأقران ، واللبد جمع لبدة بالكسر ، ولبدة الأسد : ماتلبد من شعره على منكبيه ، وكنيته « ذو لبدة » ويكنى أيضا أبا الأبطال ، وأبا شبل ، وأبا العباس ، وأبا الحارث ، وأبا حفص ، وأبا الزعفران .   (٦) ظلوم ، غشمه كضربه غشما ظلمه .

(٧) هدر البعير وهدر بالتشديد : صوت ؛ وفى المثل « كالمهدر فى العنة » والعنة بضم العين وتشديد النون : الحظيرة . يضرب لمن يصيح ويجلب ولا ينفذ قوله ولا فعله ، كالبعير يحبس فى الحظيرة ممنوعا من الضراب وهو يهدر ، والعود : المسن من الإبل ، والمنكوس : الذى عاوده المرض بعد النقه ، والشول جمع شائلة ، وهى من الإبل ماأتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها .

يَدْعُونَ الْعَوَجَ[١] ، وَيُذْهِبون الحرَجَ[٢] ، يُكَثِّرُون القليل ، وَيَشْفُون الغَلِيل ، ويُعِزُّون الذليل » ؟

فقال عمرو : « أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تخفُق[٣] أحشاؤه ، وَتَبُق[٤] أمعاؤه وتضطرب أصلاؤه[٥] ، كأنّما انطبق عليه ضُمُد[٦] » .

فقال عبد الله : « يا عمرو ، إنا قد بَلَوْناك ومقالتك ، فوجدنا لسانك كَذُوباً غادراً ، خلوت بأقوام لايعرفونك ، وجند لايسأمونك ، ولو رمتَ المنطق فى غير أهل الشأم ، لجَحَظ[٧] إليه عَقْلُك ، ولتلجلج لسانُك ، ولاضطرب فَخِذاك اضطراب القَعود[٨] الذى أثقله حِمْله » .

فقال معاوية : « إيهاً[٩] عنكما ، وأمر بإطلاق عبد الله ، فقال عمرو لمعاوية :

أمَرْتُكَ أمرًا حازمًا فعَصَيْتَنِي ... وكان من التوفيق قَتْلُ ابن هاشم

أليس أبوه (يامعاويةُ) الذى ... أعان عَليًّا يومَ حزِّ الغَلاصِم[١٠]

فلم يَنْثَنِي حتَّى جرَتْ من دمائنا ... بصِفِّين أمثالُ البحور الخضَارِم[١١]

وهذا ابنهُ ، والمرء يُشبِه سِنْخَه ... وَيُوشِكُ أن تقرَعْ بِه سِنَّ نادم[١٢]

---

(١) العوج : بالفتح ، فى كل ما كان منتصبا مثل الإنسان والعصا والعود وشبهه ، والعوج : بالكسر ، ماكان فى بساط أو أرض أو معاش أو دين ، وقيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، ودعه (كنعه) مال فأقامه . (٢) حرج صدره كفرح حرجا : ضاق . (٣) تضطرب .

(٤) تخرج ، بق النبت بقوقا : طلع . (٥) جمع صلا بالفتح : وهو وسط الظهر من الإنسان ومن كل ذى أربع ، وقيل هو ماانحدر من الوركين . (٦) ضمد جرحه : شده بالضماد والضمادة (بالكسر) أى العصابة ، والجمع ضمد ككتب . (٧) من جحظت العين جحوظا : إذا برزت مقلتهـا ، والمراد اضطرب عقلك وشرد ولم يسلس لك قياد التفكير . (٨) القعود من الإبل : الذى يقتعده الراعى فى كل حاجة.

(٩) أمر بالسكوت . (١٠) الغلاصم : جمع غلصمة بفتح الغين والصاد ، وهى رأس الحلقوم — الموضع الناتئ فى الحلق — أو أصل اللسان . (١١) الخضارم جمع خضرم بكسر الخاء والراء : البحر العظيم . وإثبات الياء فى ينثنى مع الجازم لغة أو للضرورة أو إشباع والحرف الأصل محذوف للجازم .

(١٢) قرع فلان سنه : حرقه ندما (حرق نابه — كنصر وضرب — سحقه حتى سمع له صريف) وسكن الفعل للضرورة ، والسنخ : الأصل من كل شىء ، (وفى الأصل شيخه وهو تصحيف) .

فقال عبد الله يجيبه :

مُعَاوِىَ : إنّ المَرْءَ عَمْرًا أبَتْ له ضغينةُ صَدْرٍ غِشُّها غيرُ نائم
يرَى لك قَتْلِى (يابْنَ هِنْدٍ) وإنما يَرَى ما يَرَى عمرٌو مُلوكُ الأعاجم
عَلَى أنهم لايقتُلُون أسيرَهم إذا مُنِعَتْ منه عهودُ المُسالم
وقد كان منّا يومَ صِفِّينَ نَعْرَةٌ عليك جناها هاشم وابن هاشم[١]
قَضَى ما انقضى منها،وليس الذى مضى ولا ماجرَى إلا كأضْغَاثِ حَالِمِ[٢]
فإن تَعْفُ عنى تعفُ عن ذى قرابةٍ وَإنْ تَرَ قتلى تستحلّ مَحَارِمى[٣]

فقال معاوية :

أرى العفوَ عن عُلْيا قريشٍ وسيلةً إلى الله فى اليوم العَصيب القُمَاطر[٤]
ولست أرى قتلَ العُدَاةِ ابْنَ هاشمٍ بإدراكِ ثأرى فى لُؤَىٍّ وعامرِ[٥]
بل العفوَ عنه بعد ما بَانَ جُرْمه وزلّتْ به إحدى الجدود العوائر
فكان أبوه يومَ صِفِّينَ جَمْرةً علينا فأردته رماحُ نَهَابِرِ[٦]

---

(١) نعر القوم كنع : هاجوا واجتمعوا فى الحرب ، ونعر الرجل خالف ، وفى الأصل « نقرة » وهو تصحيف . (٢) قضى : مات وذهب ، وأضغاث حالم : رؤيا لايصح تأويلها لاختلاطها .

(٣) كان عبد الله بن هاشم من أقرباء معاوية ، إذ هو ابن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص مالك بن وهيب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ومعاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ، فهو يجتمع مع معاوية فى جده كلاب . (٤) يوم عصيب : شديد ، ويوم قاطر وقطرير : شديد أيضا . (٥) العداة جمع عاد : وهو العدو ، ولؤى هو الجد التاسع لمعاوية وعبد الله بن هاشم (والجد الثامن للنبى عليه الصلاة والسلام) وعامر : هو عامر بن لؤى .

(٦) النهابر : المهالك جمع نَهبرة بضم النون والباء وكذا النهابير جمع نهبورة .

١٢٧ — عبد الله بن هاشم فى مجلس معاوية

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلسَ معاوية ، فقال معاوية :

« مَنْ يخبرنى عن الجود والنجدة والمُرُوءة » ؟ فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ، أما الجود : فابتذالُ المال ، والعطيةُ قبل السؤال : وأما النجدة : فالجراءة على الإقدام ، والصبر عند ازْوِرار الأقدام[1] . وأما المروءة فالصلاح فى الدين ، والإصلاح للمال ، والمحاماة عن الجار » . (مروج الذهب ٢ : ٥٧)

قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية

ودخل قيسُ بن سعد بن عُبَادَة بعد وفاة علىّ ووقوع الصلح ، فى جماعة من الأنصار على معاوية ، فقال لهم معاوية :

١٢٨ — مقال معاوية

« يا معشر الأنصار ، بِمَ تطلبون مَا قِبَلِى ؟ فوالله لقد كنتم قليلا معى ، كثيراً مع علىّ ، ولقد فَلَلْتُم حَدِّى يوم صِفين ، حتى رأيت المنايا تَلَظَّى[2] فى أسِنَّتكم ، وهجوتمونى فى أسلافى بأشدَّ من وقع الأسِنَّة ، حتى إذا أقام الله منا ما حاولتم مَيْلَه ، قلتم ارْعَ فينا وصيةَ رسول الله[3] صلى الله عليه وسلم ، هيهات يأبى الحقير الغَدْرة » .

---

(١) أى عند انحرافها وتزلزلها . (٢) تتلظى : أى تتلهب . (٣) وقد وصى عليه الصلاة والسلام بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم .

١٢٩ — رد قيس بن سعد

فقال قيس : « نطلب ما قِبَلك بالإسلام الكافى به اللهُ ، لا بما تَمُتُّ به إليك من الأحزاب . وأما عداوتنا لك فلو شئت كففتها عنك . وأما هجاؤنا إياك فقولٌ يزول باطله ، ويثبت حقه . وأما استقامة الأمر فَعَلى كُرْه كان منا . وأما فَلُّنا حَدَّك يوم صفين فإنا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعةً ، وأما وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا فمن آمن به رعاها بعده . وأما قولك يأبى الحقير الغَدرة ، فليس دون الله يد تحجُزك منه يا معاوية » .

فقال معاوية يموِّه : « ارفعوا حوائجكم »

(مروج الذهب ٢ : ٦٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١٢١)

١٣٠ — معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء

روى المسعودى فى مروج الذهب قال :

حبس معاوية صَعْصَعة بن صُوحان العبدى ، وعبد الله بن الكَوَّاء اليَشْكُرِىَ ورجالاً من أصحاب علىّ ، مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوماً ، فقال : « نشدتكم بالله إلاَّ ما قلتم حقًّا وصدقا ، أىّ الخلفاء رأيتمونى » ؟ فقال ابن الكواء : « لولا أنك عَزَمت علينا ماقلنا ، لأنك جبار عنيد ، لاتراقب الله فى قتل الأخيار ، ولكنا نقول : إنك — ما عَلِمْنَا — واسع الدنيا ضيِّق الآخرة[1] ، قريب الثّرى بعيد المَرْعَى[2] ، تجعل الظلماتِ نوراً ، والنور ظلمات » . فقال معاوية : « إن الله أكرم هذا الأمر

---

(١) أى إنك ذو حظ وافر فى الدنيا وليس لك من ثواب الآخرة من نصيب .

(٢) قريب الثرى : قريب الحلول فى الثرى : أى قريب الأجل ، وبعيد المرعى : كناية عن أنه بعيد الأمل . والمعنى أنك واسع الآمال بعيد مرعى الأمانى ، مع يقينك أن الارتحال عن هذه الدار وشيك .

بأهل الشأم ، الذابّين عن بيضته ، التاركين لمحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق ، المنتهكين لمحارم الله ، وَالمُحِلِّينَ ما حرّم الله ، والمُحَرِّمين ما أحل الله » . فقال عبد الله ابن الكواء : « يابن أبى سفيان ، إن لكل كلام جوابا ، ونحن نخاف جَبَرُوتَكَ ، فإن كنت تُطْلِق ألسنتنا ذَبَبْنا عن أهل العراق ، بألسنة حِداد ، لا يأخذها فى الله لومةُ لائم وإلاّ فإنا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فَرَجه » . قال : « والله لَا يُطْلَقُ لك لسان » .

ثم تكلم صعصعة فقال : « تكلمْتَ يابن أبى سفيان فَأَبْلَغْتَ ، ولم تُقَصِّر عما أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت ، أنَّى يكون الخليفةَ مَنْ مَلَكَ النَّاس قهراً ، ودانهم[1] كِبْرًا ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرًا ؟ أما والله مالك فى يوم بدر مَضْرَب ولا مَرْمى[2] ، وما كنت فيه إلاّ كما قَال القائل : « لَا حُلِّي وَلَا سِيرِى » ، ولقد كنت أنت وأبوك فى العِير والنَّفير[3] ممن أَجْلَبَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما أنت طليق ابن طليق[4] ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنّى تصلح الخلافة لطليق ؟ » ، فقال معاوية : « لولا أنى أرجع إلى قول أبى طالب حيث يقول :

---

(١) دانه : ملكه وأذله واستعبده . (٢) أى مالك ضرب ولا رى . (٣) العير : الإبل تحمل الميرة ، والمراد بها هنا عير قريش التى كان يقودها أبو سفيان بن حرب — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحين انصرافها من الشأم — فلما دنا أبو سفيان من المدينة ، وعرف أن عيون رسول الله صلى الله عليه وسلم ترصده ساحل بعيره (أتى بها الساحل) وترك بدرا يسارا ، وقد كان بعث إلى قريش حين فصل من الشام يخبرهم بما يخافه من محمد ، فأقبلت قريش من مكة ، فأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد أحرز العير (أى حصنها) ويأمرهم بالرجوع ، فأبت قريش أن ترجع ، ورجعت بنو زهرة وعدلوا إلى الساحل منصرفين إلى مكة فصادفهم أبو سفيان فقال : يابنى زهرة لا فى العير ولا فى النفير (فذهبت مثلا) قالوا أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ، ومضت قريش إلى بدر فقاتلهم النبى وأظفره الله بهم ، والنفير : القوم يستنفرون للحرب وهم هنا مشركو مكة الذين خرجوا يستنقذون العير ، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه .

(٤) الطلقاء : هم الذين عفا عنهم النبى صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة ، فقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء .

قابلتُ جَهْلَهُمُ حِلْمًا وَمَغْفِرَةً وَالْعَفْوُ عَنْ قُدْرَةٍ ضَرْبٌ مِنَ الْكَرَمِ

لقتلتكم » (مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣١ — صعصعة بن صوحان ومعاوية

ودخل صعصعة بن صُوحان على معاوية ، فقال له :

« يابن صوحان ، أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها ، فأخبرنى عن أهل البصرة ، وإياك والحَمْلَ على قوم لقوم » قال : « البصرة واسطة[1] العرب ، وَمُنْتَهَى الشرف والسُّودَد ، وهم أهل الخِطَط[2] فى أول الدهر وآخره ، وقد دارت بهم سَرَوَات[3] العرب كَدَوَرَان الرَّحَى على قُطْبها » ، قالَ : فأخبرنى عن أهل الكوفة ، قالَ : « قُبَّةُ الْإِسْلَامِ ، وَذِرْوَةُ الكلام ، وَمَصَانُ ذوى الأعلام ـ إلا أن بها أجلافاً[4] تَمْنَع ذوى الأمرِ الطاعة ، وتخرجهم عن الجماعة ـ وتلك أخلاق ذوى الهيئة والقناعة » . قال : فأخبرنى عن أهل الحجاز ، قال : « أسرعُ الناس إلى فتنة ، وأضعفهم عنها ، وأقلُّهم غَنَاء[5] فيها ، غير أن لهم ثَباتاً فى الدين ، وَتَمَسُّكاً بعُرْوَة اليقين ، يتبعون الأئمة الأبرار ، ويَخْلَعُون الْفَسَقَة الْفُجَّار » فقال معاوية : مَن الْبَرَرَة وَالْفَسَقَة ؟ فقال : « يا بن أبى سُفيان ، تَرَكَ الخِدَاعَ ، مَنْ كَشَفَ الْقِناعَ ، علىٌّ وأصحابه من الأئمة الأبرار ، وأنت وأصحابك من أولئك » ثم أحب معاوية أن يمضى صعصعة فى كلامه ، بعد أن بان فيه الغضب ، فقال : أخبرنى عن القُبَّة الحمراء فى ديار مُضَر[6] ، قال :

---

(١) هو على التشبيه بواسطة العقد : وهى الجوهرة الفاخرة التى تجعل وسطه . (٢) الخطط جمع خطة بالكسر : وهى الأرض تنزل من غير أن ينزلها نازل قبل ذلك ، ومنه خطط الكوفة والبصرة . وقد خطها لنفسه واختطها : وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها . (٣) السرو بالفتح : المروءة فى شرف ، سرو فهو سرى وجمعه أسرياء وسرواء كفضلاء والسراة بالفتح اسم جمع وجمعه سروات .

(٤) جمع جلف بالكسر : وهو الرجل الجافى . (٥) غناء : كفاية . (٦) ذكروا أن نزار ابن معد لما حضرته الوفاة جمع بنيه : مضر وإيادا ، وربيعة ، وأنمارا ، فقال : يابنى، هذه القبة الحمراء =

« أُسْدُ مُضَر بُسَلاءُ بين غِيلَين[1] ، إذا أرْسَلتَهَا افْتَرَسَتْ ، وإذا تركتها احترست » .
فقال معاوية: « هنالك يابن صوحان ، العز الرّاسى ، فهل فى قومك مِثْلُ هذا » ؟ قال : هذا لأهله دونك يابن أبى سفيان، ومن أحب قومًا حُشرمعهمْ» قال: فأخبرنى عن ديار ربيعة، ولا يَسْتَخِفَنَّكَ الجهلُ، وسابقة الحَمِيّة بالتعصب لقومك[2] ، قال: « والله ما أنا عنهم براض ، ولكنى أقول فيهم وعليهم ، هم والله أعلام الليل ، وأذناب فى الدين والمَيْل ، لن تُغْلَب رايتها إذا رُشِّحَت ، خوارج الدين ، برازخ اليقين ، من نصروه فَلَجَ[3] ، ومن خذلوه زَلِجَ[4] » . قال : فأخبرنى عن مضر ، قال : « كِنانة[5] العرب، ومَعْدِن العز والحسَب، يقذف البحر بها آذِيُّه[6] ، والبَرُّ رَدِيّه » ثم أمسك معاوية ، فقال له صعصعة : سَلْ يامعاوية ، وإلا أخبرتك بما تَحِيد عنه ، قال : وما ذاك يابن صوحان ؟ قال : « أهل الشأم » قال : « فأخبرنى عنهم » ، قال : « أطوع الناس لمخلوق ، وأعصاهم للخالق ، عُصاة الجبّار ، وخِلفة[7] الأشرار ، فعليهم الدّمار ، ولهم سوء الدار » . فقال معاوية : « والله

= — وكانت من أدم — لمضر — وهذا الفرس الأدهم والخباء الأسود لربيعة ، وهذه الخادم — وكانت شمطاء — لإياد ، وهذه البدرة (بالفتح : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار) والمجلس لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم كيف تقتسمون ، فأتوا الأفعى الجرهمى ، ومنزله بنجران ، فتشاجروا فى ميراثه ، فاختصموا إلى الأفعى الجرهمى ، وهو حكم العرب ، فقصوا عليه قصتهم ، وأخبروه بما أوصى به أبوهم فقال : ماأشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدنانير والإبل الحمر ، فسمى مضر الحمراء لذلك ، وقال : وأما صاحب الفرس الأدهم والخباء الأسود ، فله كل شىء أسود ، فصارت لربيعة الخيل الدهم ، فقيل ربيعة الفرس ، وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد ، فصار له الماشية البلق من الحبلق والنقد (الحبلق : بفتح الحاء والباء وتشديد اللام : غنم صغار لا تكبر ، أو قصار المعز ودمامها ، والنقد كسبب : جنس من الغنم قبيح الشكل) فسمى إياد الشمطاء ، وقضى لأنمار بالدراهم وبما فضل : فسمى أنمار الفضل فصدروا من عنده على ذلك . — مجمع الأمثال ١ : ١٠ .

(١) بسلاء جمع باسل : وهو الأسد والشجاع والغيل بالكسر ويفتح : الشجر الكثير الملتف والأجمة .

(٢) وكان صعصعة من بنى عبد القيس ابن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار .

(٣) فلج على خصمه : ظفر وفاز .

(٤) زلق وزل .

(٥) الكنانة فى الأصل : جعبة السهام .

(٦) الآذى : الموج .

(٧) الخلفة فى الأصل : ماعلق خلف الراكب ، والمراد بها هنا أتباع .

يابن صوحان ، إنك لحامل مُدْيتك منذ أزمان(١) » إلا أن حلم ابن أبى سفيان يردُّ عنك .
فقال صعصعة : « بل أمر الله وقدرته ، إن أمر الله كان قَدَرًا مقدورًا » .

(مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣٢ — صعصعة بن صوحان وعبد الله بن عباس

وروى المسعودى فى مروج الذهب أيضاً ، قال :

« عن مَصْقلة بن هُبَيْرة الشَّيْبانى قال : سمعت صَعْصَعَة بن صُوحان وقد سأله ابنُ عباس : ما السُّودَدُ(٢) فيكم ؟ فقال : إطعامُ الطعام ، ولين الكلام ، وَبَذْلُ النَّوال ، وكفُّ المرءِ نَفْسَه عن السؤال ، والتودُّدُ للصغير والكبير ، وأن يكون الناس عندك شَرَعا(٣) » . قال : فما المُرُوءة ؟ قال : « أخَوَان اجتمعا ، فإن لَقِيَا قَهَرا ، (و إن كان)(٤) حارسُهما قليل ، وصاحبهما جليل ، محتاجان(٥) إلى صيانة ، مع نزاهةٍ وديانة» . قال : فهل تحفظُ فى ذلك شعراً ؟ قال : نعم ، أما سمعتَ قول مُرَّةَ بنِ ذُهلِ بن شَيْبانَ حيث يقول :

إن السِّيادَةَ والمُرُوءة عُلِّقَا حيثُ السَّماءُ من السِّماكِ الأعْزَلِ(٦)
وإذا تقابَلَ مُجْرَيانِ لِغَايَةٍ عَثَرَ الهَجِينُ وأسْلَمَتْه الأرجُلُ(٧)
وَيَجِى الصَّرِيحُ مَعَ العِتَاقِ مُعَوَّدا قربَ الجيادِ فلم يَجِئْه الأفْكَلُ(٨)

(١) كناية عن مجاهرته بالعداوة . (٢) السودد بفتح الدال غير مهموز ، والسؤدد بضم الدال مهموزا والسيادة والسودد . (٣) شرعا بسكون الراء وفتحها أى سواء . (٤) أى أنهما قوتان عظيمتان لصاحبهما ، تقهران مايلقاه من الشدائد والصعاب . وقوله « وإن كان » أى وإن كان مالقياه عظيما ، ولعله زيادة من خطأ النساخ أو الطباع . (٥) فى الأصل « لحاجان » وهو تحريف .

(٦) السما كان الأعزل والرامح : نجمان نيران ، وسمى أعزل لأنه لا شىء بين يديه من الكواكب كالأعزل الذى لا سلاح معه كما كان مع الرامح . (٧) فرس هجين : إذا لم يكن عتيقا كريما ، وأسلمته : خذلته .

(٨) لم يجئه الأفكل : أى لم تصبه الرعدة « ويلاحظ أن فى هذا الشعر عيبا من عيوب القافية وهو الإقواء ، لأن حركة الروى فى البيت الأول كسر ، وفى الثانى والثالث ضم ، وقد وقع فى شعر النابغة الذبيانى ، وحسان ابن ثابت ، وبشر بن أبى خازم . . . » .

فى أبيات . فقال له ابن عباس : لو أن رجلا ضرب آباطَ[١] إبله ، مُشَرِّقاً وَمُغَرِّباً لِفائدة هذه الأبيات ماعَنَّفْتُهُ ، إنا منك يابن صُوحان لَدَلَى عِلْمٍ وَحِلْمٍ واستنباطٍ ماقد عَفَا[٢] من أخبار العرب ، فمن الحليمُ فيكم ؟ قال : « مَنْ مَلَكَ غَضَبَهُ فلم يَفْعل ، وسُعِى إليه بحقّ أو باطلٍ فلم يَقْبَلْ ، ووجد قاتل أبيه وأخيه ، فصفح ولم يقتُل ، ذلك الحليم يابن عباس » . قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيراً ؟ قال : « ولا قليلا ، وإنما وصفت لك أقواماً لا تجدهم إلا خاشعين راهبين ، لِلّهِ مُرِيدين ، يُنِيلون ولا ينالون ، فأما الآخَرُونَ فإنهم سَبَق جهلُهم حلمَهم ، ولا يبالى أحدهم (إذا ظَفِر ببُغيته) حين الحفيظة[٣] مَن كان ، بعد أن يُدرك زعمه ، ويقضى بُغْيته ، ولو وَتَرَه أبوه لَقَتَل أباه ، أو أخوه لَقَتَل أخاه ، أما سمعت إلى قول رَيَّان بن عَمْرِ بن رَيَّان ، وذلك أن عمراً أباه قتله مالكُ بن كُومَة ، فأقام رَيَّانُ زماناً ثم غزا مالـكا ، فأتاه فى مائتى فارس صَبَاحاً ، وهو فى أربعين بيتاً ، فقتله وقتل أصحابه وقتل عمه فيمن قتل ، — ويقال بل كان أخاه — وذلك أنه كان جاوَرَهم ، فقيل لريان فى ذلك : قتلت صاحبنا ، فقال :

فلو أُمِّى ثَقِفْتُ بحيثُ كانوا ... لَبَلَّ ثيابَهَا عَلَقٌ صَبِيبُ[٤]
ولو كانت أُمَيَّـة أُختُ عمرو ... بهذا الماء ، ظَلَّ لها نَحِيبُ
شَهَرْتُ السيفَ فى الأَدْنَيْنَ مِنِّى ... ولم تَعْطِف أَوَاصِرَنا قُلُوبُ[٥]

فقال ابن عباس : فمن الفارسُ فيكم ؟ حُدَّ لى حَدًّا أسمعه منك ، فإنك تضع الأشياء مواضعها يابن صوحان ، قال : « الفارس مَنْ قَصَر أَجَلَه فى نفسه ، وَضَغَمَ[٦] على أمله بِضِرْسه ، وكانت الحرب أهونَ عليه من أَمْسِه ، ذلك الفارس إذا وَقَدَت[٧] الحروب ،

---

(١) آباط جمع إبط كحمل وإبل : باطن المنكب . (٢) درس وامحى . (٣) الحمية والغضب.

(٤) ثقفه كسمعه : صادفه ، والعلق : الدم ، أو الشديد الحمرة ، وصبيب : أى مصبوب .

(٥) أواصر جمع آصرة : وهى القرابة، وحبل صغير يشد به أسفل الخباء . (٦) ضغمه كمنع : عضه .

(٧) وقدت النار (كوعد) توقدت .

واشتدت بالأنفس الكروب ، وتداعَوا للنِّزَال ، وَتزاحفُوا لِلْقِتَال ، وتخالسوا المُهَج[١] ، واقتحموا بالسيوف اللُّجَج » ، قال : أحسنتَ والله يابن صُوحان ، إنك اَسَلِيلُ أقْوَامٍ كِرامٍ ، خُطَبَاء فُصَحاء ، ما وَرِثت هذا عن كَلاَلَة[٢] ، زِدْنِى ، قال : « نعم ، الفارس كثير الحَذَر ، مُدِير النَّظَر ، يلتفت بقلبه ، ولا يدير خَرَزَاتِ صُلْبِه[٣] » . قال : أحسنت والله يابن صُوحان الوصفَ ، فهل فى مثل هذه الصفة من شعر ؟ قال : نعم ، لزهير بن جَناب الكَلْبى[٤] يرثى ابنه عمراً حيث يقول :

فَارِسٌ تُكْلأُ الصَّحَابَةُ مِنْه بِحُسَامٍ يَمُرُّ مَرَّ الحَرِيقِ[٥]
لاَ تَرَاهُ لَدَى الْوَغَى فى مَجَالٍ يُغْفِلُ الضَّرْبَ لاَ ، ولا فى مَضِيق
مَنْ يَرَاه يَخَلْهُ فى الحَرْب يوما أنه أَخْرَقٌ مُضَلُّ الطريق[٦]

فى أبيات ، فقال له ابن عباس : فأين أخواك منك يابن صوحان ؟ صِفْهُمَا لِأَعْرِفَه وِرْثكم ، قال : أما زيد فكما قال أخو غَنِىّ[٧] :

---

(١) المهج جمع مهجة : وهى الروح ، وتخالسوها تبادلوا اختلاسها واستلابها .

(٢) تقول العرب : لم يرثه كلالة أى لم يرثه عن عرض بل عن قرب واستحقاق ، قال الفرزدق :

ورثتم قناة الملك غير كلالة عن ابنى مناف عبد شمس وهاشم

والكلالة : مالم يكن من النسب لحًا ، وبنو العم الأباعد ، وحكى عن أعرابى أنه قال : مالى كثير ويرثنى كلالة متراخ نسبهم ، وكل وارث ليس بوالد الميت ولا ولد له فهو كلالة موروثة . (٣) أى فقرات ظهره . (٤) شاعر جاهلى ، وهو أحد المعمرين . (٥) كلأه : حفظه وحرسه .

(٦) الأخرق : الأحمق ، أما قوله فى أول البيت « من يراه » فهو مثل : « ألم يأتيك والأنباء تنمى » ومثل : « كأن لم ترى قبلى أسيرا يمانيا » . . . . الخ ، وقد قال النحويون فى ذلك إن إثبات حرف العلة مع الجازم لغة ، وقيل ضرورة ، وقيل هو حرف إشباع ، والحرف الأصلى محذوف للجازم . وعندى أنه ربما كان الأصل « من رآه » وعليه فلا محذور ، مع استقامة وزن البيت . (٧) هو كعب بن سعد الغنوى (شاعر جاهلى) والأبيات المذكورة من قصيدة له يرثى بها أخاه أبا المغوار وأولها :

تقول سليمى مالجسمك شاحبا كأنك يحميك الطعام طبيب

(انظرها فى الأمالى ٢ : ١٥٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٩) .

فَتًى لاَ يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بوجهه (إذا نالَ خَلاَّتِ الكِرَامِ) شُحُوبُ[1]

إذا ما تَرَاءاهُ الرِّجالُ تَحَفَّظُوا فلم ينطقوا العَوْرَاء وهو قريبُ[2]

حليفُ النَّدَى ، يَدْعو النَّدَى فَيُجِيبُه قَرِيباً ، وَيَدْعُوهُ النَّدَى فَيُجِيبُ[3]

يَبِيتُ النَّدَى (يا أُمَّ عَمْرٍو) ضَجِيعَهُ إذا لم يكن في المُنْقِيَاتِ حَلُوبُ[4]

كأَنَّ بُيُوتَ الحَيِّ (مالم يكن بها) بَسَابِسُ ما يُلْفَى بهن غَرِيبُ[5]

في أبيات ، كان والله يابنَ عباس ، عظيمَ المرُوَّة[6] ، شريفَ الأُخُوَّة ، جليل الخَطَر ، بعيد الأَثَر ، كَمِيش[7] العُرْوَة ، أليف النَّدْوَة[8] ، سايم جوانح الصدر ، قليل وَسَاوِسِ الدَّهر ، ذا كَرًّا لِلّهِ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً[9] مِنَ الليل ، الجوعُ وَالشِّبَعُ عنده سِيَّانِ ، لا يُنَافِسُ في الدنيا، وَأَقَلُّ أصحابه مَنْ يُنَافِس فيها، يُطِيلُ السكوتَ، ويحفظ الكلام، وإن نطق نطق بِعُقَامٍ[10] يَهْرُب منه الدُّعَّار[11] الأشرار ، ويألفه الأحرار الأخيار » .

قال ابن عباس : « ما ظنك برجل من أهل الجنة ، رحم الله زيداً ، فأين كان عبد الله منه ؟ » ، قال : كان عبد الله سيداً شجاعا ، مُؤْلَفاً[12] مُطَاعا ، خَيْرُهُ وَسَاعٌ[13] ، وشره

(١) خلات جمع خلة بالفتح : وهي الخصلة ، وشحب لونه كجمع ونصر وكرم وعني شحوبا : تغير من هزال أو جوع أو سفر . (٢) العوراء : الكلمة القبيحة . (٣) الندى : الجود .

(٤) المنقيات : ذوات النقي (بالكسر) وهو الشحم ، ناقة منقية أي سمينة .

(٥) بسابس جمع بسبس كجعفر : وهو القفر الخالي (وفي الأصل بسائس وهو تصحيف) .

(٦) مسهل عن المروءة . (٧) يقال رجل كميش الإزار : أي مشمر جاد، ورجل كميش : عزوم ماض سريع في أموره . (٨) الندوة والنادي والمنتدى والندى : مجلس القوم ومتحدثهم ، وفي الأصل « البدرة » وأراه مصحفا ، أو هو فعلة من البدو وهو الظهور ، أي ذو مظاهر حسن يؤلف ولا يمج .

(٩) جمع زلفة بالضم : وهي الطائفة من الليل . (١٠) داء عقام : لايبرأ ، أي نطق بقوارص من الكلم جارحة مؤلمة لادواء لها . (١١) جمع داعر وصف من الدعارة بفتح الدال وكسرها : وهي الخبث والفسق . (١٢) ألفته وآلفته : أنست به فهو مألوف ومؤلف . (١٣) على التشبيه بالفرس الوساع : وهو الجواد الواسع الخطو والذرع ، والدفاع : السيل العظيم ، والشيء العظيم يدفع به مثله « وفرس دفاع كشداد . إذا تدافع جريه » .

دُفّاع ، قَلْبِيّ النَّحِيزَة[١] ، أحْوَذِيّ[٢] الغريزة ، لا يُنَهْنِهُ[٣] مُنَهْنِهٌ عما أراده ولا يركب من الأمر إلاّ عتادَه[٤] ، سِمَام عِداً[٥] ، وَبَاذِل قِرًى[٦] ، صعب المَقَادَة ، جَزْل الرِّفادة[٧] ، أخو إخْوَان ، وَفَتَى فِتْيَان ، وهو كما قال البُرْجُميّ عامرُ بن سنان :

سِمَامُ عِداً ، بالنَّبْل يَقْتُلُ مَنْ رَمَى ... وبالسيف والرُّمْح الرُّدَيْنِيّ يَشْعَبُ[٨]

مَهِيبٌ مُفِـــيدٌ لِلنَّوَال مُعَوَّد ... بِفِعْلِ النَّدَى وَالْمَكْرُمَاتِ مُجَرَّب

فى أبيات ، فقال له ابن عباس : أنت يابن صوحان باقِر[٩] علم العرب » .

(مروج الذهب ٢ : ٨٠)

١٣٣ — صعصعة بن صوحان ورجل من بنى فزارة

ووقف رجل من بنى فَزارة على صعصعة ، فأسمعه كلامًا (منهُ) :

« بَسَطْتَ لسانَك يابنَ صُوحانَ على الناس فَهيَّبُوك ، أما لئن شئتُ لأكونَنَّ لك لِصَاقًا[١٠] ، فلا تنطق إلا جَدَدتُ[١١] لسانك بأذْرَبَ[١٢] من ظُبَة السيف ، بِعَضْب قَوِىّ ، ولسان عَلِىّ ، ثم لا يكون لك فى ذلك حَلٌّ ولا تَرْحال » فقال صعصعة : « لو أجد

---

(١) القلب : محض كل شىء ، والنحيزة : الطبيعة ، أى خالص الطبيعة صافيها . (٢) الأحوذى : الخفيف الحاذق ، والمشمر للأمور القاهر لها لايشذ عليه شىء . (٣) نهنهه : كفه وزجره .

(٤) العتاد : العدة . (٥) سمام جمع سم مثلث السين ، والعدا بالكسر والضم اسم جمع عدو أى هو للأعداء سم قاتل . (٦) قرى الضيف (كرمى) قرى : أضافه ، والقرى أيضا : ماقرى به الضيف .

(٧) رفده (كضربه) أعطاه ووصله ، والرفادة فى الأصل خرج كانت تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها فيصنع به طعام الحاج ، والمراد بها هنا العطية . (٨) الرديني نسبة إلى ردينة امرأة سمهر ، وكانا يقومان الرماح بخط هجر ، ويشعب : أى يمزق ويصدع . (٩) أصل البقر : الفتح والشق والتوسعة ، وكان يقال لمحمد بن على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم محمد الباقر ؛ لأنه بقر العلم وعرف أصله واستنبط فرعه . (١٠) اللصاق : مايلصق به . والمعنى لأكونن لك ملاصقا ملازما .

(١١) جد الشىء من باب رد : قطعه . (١٢) أذرب : أحد، من ذرب كفرح صار حديدا ماضيا ، والظبة : حد السيف .

غَرَضًا[١] منك لرميت ، بل أرى شَبَحًا ، ولا إخال مِثَالاً إلا كَسَرَابٍ[٢] بقيعَةٍ ، يَحْسَبُهُ الظَّمْآنَ مَاء ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، أمَا لو كنتَ كُفْئًا لرميتُ حَصَائلك[٣] بأذربَ من ذَلِق[٤] السنانِ ، ولرشقتُكَ بنبالٍ ، تَردَعُك عن النِّضال ، ولَخَطَمتُكَ بخِطام[٥] ، يَخْزِم منك موضع الزِّمام[٦] » . فاتصل الكلام بابن عباس ، فاستضحك[٧] من الفزارى ، وقال : « أما لو كلَّف أخو فَزارة نفسه نقلَ الصخور من جَبَلِ ثَمَامٍ[٨] إلى الهضاب ، لكان أهون عليه من منازعة أخى عبد القيس ، خابَ أبوه ، ماأجهله ! يستجهل أخا عبد القيس وَقُوَاهُ المَرِيرة[٩] ! ثم تمثل :

صُبَّتْ عليه ولم تنصبُّ من أَمَمٍ ... إن الشقاء عَلَى الأَشْقَيْنَ مَصْبوبُ[١٠]

(مروج الذهب ٢ : ٨٢)

١٣٤ - رجل من آل صوحان يجبه[١١] عبدالملك بن مروان وهو يخطب

وخطب عبد الملك بن مروان ، فلما بلغ الغِلْظَةَ[١٢] ، قام إليه رجل من آل صُوحان ، فقال : « مهلا مهلا يابنى مروان ، تأمرون ولا تأتمرون ، وتَنْهَوْنَ ولا تُنْهَوْن ، وتعظون

(١) الغرض : الهدف . (٢) السراب : مايرى نصف النهار كأنه ماء ، والقيعة جمع قاع : وهو أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، ويجمع أيضا على قيع (بالكسر) وقيعان وأقواع وأقوع .

(٣) الحصائل جمع حصيلة ، يقال حصل الشيء تحصيلا والاسم الحصيلة ، قال لبيد :

وكل امرئ يوما سيعلم غيبه ... إذا حصلت عند الإله الحصائل

والمعنى : لرميت ماحصلته من العلم والمعرفة . (٤) ذلق السنان واللسان كفرح : ذرب فهو ذلق وأذلق ، وذلق السنان من إضافة الصفة إلى الموصوف . (٥) الخطام : كل ماوضع فى أنف البعير ليقتاد به ، وخطمه بالخطام جعله على أنفه ، أوجرّ أنفه ليضع عليه الخطام ، وخطمه بالكلام قهره ومنعه حتى لاينبس . (٦) خزم البعير : جعل فى جانب منخره الخزامة (ككتابة) والزمام : مايزم به . (٧) استضحك الرجل وتضاحك بمعنى . (٨) جبل بالعالية . (٩) أى القوية ، يقال رجل مرير أى قوى ذومرة ، والمرة بالكسر القوة » . (١٠) الأمم : القرب . (١١) جبهه كقطعه : لقيه بما يكره . (١٢) وربما كان صوابها « العظة » أى مقام العظة والنصح بدليل قوله « وتعظون ولا تتعظون » .

ولا تتعظون . أفنقتدى بسـيرتكم فى أنفسكم ، أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإن قلتم اقتدوا بسيرتنا ، فأنَّى وكيف ؟ وما الحجةُ ؟ وما المَصِيرُ من الله ؟ أنقتدى بسيرة الظَّلَمَة الفَسَقَة ، الجَوَرة الخونة ، الذين اتخذوا مال الله دُوَلا[١] ، وعبيده خَوَلا[٢] ؟ وإن قلتم اسمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا ، فـكيف ينصح لغيره مَنْ يَغُشُّ نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عَدَالته ؟ وإن قلتم خذوا الحـكمة من حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها . فعلامَ ولينا كم أمرنا ، وحكَّمنا كم فى دمائنا وأموالنا ؟ أما علمتم أن فينا من هو أنْطَق منكم باللغات ، وأفصح بالعظات ؟ فتخلوْا عنها[٣] ، وأطلِقوا عِقالها ، وخلُّوا سبيلها ، يَنتَدِب[٤] إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين شرَّدتموهم فى البلاد ، ومزقتموهم فى كل واد ، بل تَثْبُتَ فى أيديكم لانقضاء المدة ، وبلوغ المُهلة ، وعظم المِحْنة ، إن لـكل قائم قدرا لايَعدوه ، ويوما لا يَخطوه ، وكتاباً بعده يتلوه : (لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إلا أحْصَاهَا) (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون) ثم التُمِس الرجل فلم يوجد   (نهاية الأرب ٧ : ٢٤٩)

١٣٥ — وصف عقيل بن أبى طالب لآل صوحان

قال معاوية لعَقِيل بن أبى طالب : « مَيِّزْ لى أصحاب علىّ وابدأ بآل صُوحان ، فإنهم مَخَارِيقُ الـكلام[٥] » . قال :

---

(١) جمع دولة بالضم : أى جعلوه متداولا بينهم . (٢) الخول : ماأعطاك اللهتعالىمن النعم (محركة) والعبيد والإماء وغيرهم من الحاشية للواحد والجميع والذكر والأنثى ، ويقال للواحد خائل . (٣) أى عن الخلافة . (٤) انتدب إليه : أسرع . (٥) مخاريق جمع مخراق بالـكسر : وهو السيف ، والسيد والمتصرف فى الأمور الذى لايقع فى أمر إلا خرج منه (والثور البرى يسمى مخراقا لأن الـكلاب تطلبه فيفلت منها ، وفلان مخراق حرب أى صاحب حروب يخف فيها) .

« أمَّا صَعْصَعَةُ فعظيم الشان ، عَضْب اللسان[1] ، قائد فُرسان ، قاتل أقران ، يَرْتُق[2] ما فُتق ، ويَفْتُق مارُتِق ، قليل النظير . وأما زيد وعبد الله فإنهما نهران جاريان يصب فيهما الخُلْجان[3] ، ويُغاثُ بهما البُلدان ، رجلا جِدٍّ لالَعِبَ معه ، وأما بنوصُوحان فكما قال الشاعر :

إذا نزل العدو فإن عندى أُسُودًا تَخْلِسُ الأُسْدَ النفوسا[4]

(مروج الذهب ٢ : ٧٥)

١٣٦ — وصية محمد الباقر[5] لعمر بن عبد العزيز

دخل أبو جعفر محمد الباقر ، بن علىّ زين العابدين ، بن الحسين عليهم السلام ، على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فقال : ياأبا جعفر أوصنى ، قال :

« أُوصيك أن تتَّخِذ صغير المسلمين ولدًا ، وأوسطَهم أخًا ، وكبيرهم أبًا ، فارحَم ولدك ، وَصِلْ أخاك ، وَبَرَّ أباك ، وإذا صنعتَ معروفًا فَرَبِّه[6] » .

(الأمالى ٢ : ٣١٢)

---

(١) العضب : القاطع . (٢) الرتق : ضد الفتق . (٣) الخليج : نهر فى شق من النهر الأعظم .
(٤) خلس الشىء كضرب خلسا : استلبه . (٥) توفى سنة ١١٣ هـ . (٦) أى أدمه ، يقال رب بالمكان وأرب : أقام به ودام .

خطب الزبيريين وما يتصل بها[1]

خطب عبد الله بن الزبير (قتل سنة ٧٣ هـ)

عبد الله بن الزبير ومعاوية

دخل الحسين بن عليّ رضى الله عنه يوما على معاوية ، ومعه مولى له يقال له ذَكْوان وعند معاوية جماعة من قريش ، فيهم ابن الزبير ، فرحَّب معاوية بالحسين ، وأجلسه على سريره وقال : ترى هذا القاعد (يعنى ابن الزبير) فإنه لَيُدْرِكه الحسد لبنى عبد مناف[2] فقال ابن الزبير لمعاوية : قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن إن شئت أعلمتُك فضل الزبير عَلَى أبيك أبى سفيان فعلتُ ، فتكلم ذكوان مولى الحسين بن عليّ ، فقال :

---

(١) تقدم لك فى باب خطب بنى هاشم وشيعتهم ، خطب أمراء الكوفة من قبل ابن الزبير – انظر خطب عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وعبد الله بن مطيع فى ص ٦٥ – ٧٠ – ٧٦ – ٨٢ – ٦٦ – ٨٣ – . (٢) عبد مناف جد يجمع بنى هاشم وبنى أمية ، فالرسول عليه الصلاة والسلام هو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ومعاوية هو معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأما عبد الله بن الزبير : فمن بنى أسد أبوه الزبير بن العوام بن خلويد بن أسد بن عبد العزى ابن قصى .

١٣٧ — مقال ذكوان

« يابن الزبير : إن مولاى مايمنعهُ من الكلام إلا أن يكون طَلْق اللسان ، رابط الجَنان ، فإن نطَقَ نطق بعلم ، وإن صَمَتَ صمت بحلم ، غير أنه كفَّ الكلامَ ، وسبق إلى السَّنام ، فأقرت بفضله الكرام ، وأنا الذى أقول :

فيمَ الكلام لِسابِقٍ فى غايةٍ ... والناس بين مُقصِّرٍ وَمُبَلِّدِ [1]
إن الذى يَجْرِى ليُدْرِكَ شَأْوَه ... يُنْمَى لِغَيْرِ مُسَوَّدٍ وَمُسَدَّدِ [2]
بل كيف يُدْرِك نورَ بَدْرٍ ساطع ... خيرِ الأنامِ وَفَرْعِ آل محمد

فقال معاوية : صدق قولك ياذكوان ، أكثر الله فى موالى الكرام مِثْلَكَ ، فقال ابن الزبير : إن أبا عبد الله [3] سكتَ وتكلم مولاه ، ولو تكلم لأجبناه ، أو لكففنا عن جوابه إجلالا له . ولا جوابَ لهذا العبد . قال ذكوان : هـذا العبد خير منك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَوْلَى القوم منهم » ، فأنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت ابن العوام بن خويلد، فنحن أكرم وَلَاءً ، وأحسن فعلا . قال ابن الزبير : إنى لست أجيب هذا ، فهات ما عندك .

١٣٨ — مقال معاوية

فقال معاوية :

« قاتلك الله يابن الزبير ! ما أعْيَاكَ [4] وأبغاك ! أتَفْخَرُ بين يَدَىْ أمير المؤمنين وأبى عبد الله ! إنك أنت المتعدى لطَوْرك ، الذى لاتعرف قدرك ، فقس شِبْرَكَ بِفِتْرِكَ [5]

---

(١) بلد تبليدا : لم يتجه لشىء ، والفرس : لم يسبق ، والسحابة لم تمطر .

(٢) الشأو : الغاية ، وينمى : ينسب . (٣) كنية الحسين . (٤) ماأعجزك .

(٥) الفتر : مابين الإبهام وطرف السبابة .

ثم تَعَرَّفْ كيف تقع بين عَرانين[١] بنى عبد مناف ، أما والله لئن دَفَعَتَ فى بحور بنى هاشم وبنى عبد شمس ، لَيَقْطَعَنَّك بأمواجها ، ثم لتُوهِيَنَّك[٢] بك فى أُجاجِها ، فابقاؤك فى البحور إذا غَمَرَتك ، وفى الأمواج إذا بَهَرَتك[٣] ؟ هنالك تَعْرِف نفسك ، وتندم على ما كان من جُرْأتك ، وتُمَسِّى[٤] ما أصبحت إليه من أمان ، وقد حِيلَ بين العَيْر والنَّزَوان[٥] » . فأطرق ابن الزبير مَلِيًّا ، ثم رفع رأسه ، فالتفت إلى من حوله ، ثم قال :

١٣٩ — مقال ابن الزبير

« أسألكم بالله : أتعلمون أن أبى حَوَارِىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أباه أبا سفيان حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأن أمى أسماء بنت أبى بكر الصديق ،

---

(١) جمع عرنين بكسر العين : وهو السيد الشريف (وفى الأصل : الأنف أو ماصلب من عظمه) .

(٢) أوهاه : أسقطه ، والأجاج : الملح المر . (٣) بهره بهرا (بالفتح) : غلبه .

(٤) مساه تمسية : قال له كيف أمسيت أو مساك الله بخير ، والمراد : وتودع ماكنت فيه من أمان نادما آسفا عليه ، وربما كان الأصل « وتمَنّى » بحذف إحدى التاءين أى وتتمنى ، أو الأصل « ويتمسى » من تمسى : إذا تقطع أى يمحى ويندثر ما كنت فيه مز أمان . (٥) العير : الحمار وغلب على الوحشى ، والنزوان : الوثوب . وهو مثل يضرب للقوى تخور قواه ، وأول من قاله صخر بن عمرو أخو الخنساء ، وذلك أنه غزا بنى أسد ، فاكتسح إبلهم ، فجاءهم الصريخ فركبوا ، فالتقوا ، فطعن أبو ثور الأسدى صخرا طعنة فى جنبه ، وجوى منها فرض حولا حتى مله أهله ، فسمع امرأة تقول لامرأته سلمى : كيف بعلك ؟ فقالت : لاحى فيرجى ، ولا ميت فينعى ، لقد لقينا منه الأمرين ، وفى رواية أخرى : فرض زمانا حتى ملته امرأته ، وكان يكرمها فر بها رجل وهى قائمة ، وكانت جميلة ، فقال لها : يباع الكفل ؟ فقالت : نعم عما قليل ، وكان ذلك يسمعه صخر ، فقال : أما والله لئن قدرت لأقدمنك قبلى ، ثم قال لها : ناولينى السيف أنظر إليه ، هل تقله يدى ؟ فناولته ، فإذا هو لايقله ، فقال :

أرى أم صخر لاتمل عيادتى   وملت سليمى مضجعى ومكانى

فأى امرئٍ ساوى بأم حليلة   فلا عاش إلا فى شقا وهوان

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه   وقد حيل بين العير والنزوان

فلما طال به البلاء ، وقد نتأت قطعة من جنبه فى موضع الطعنة ، قيل له لوقطعتها لرجونا أن تبرأ ، فقال شأنكم ، وأشفق عليه قوم فنهوه فأبى ، فأخذوا شفرة فقطعوها فمات .

وأمه هند آكلة الأكباد ؟ وجدِّى الصدِّيق ، وجده المشدوخ[1] ببدر ، ورأس الكفر وعمتى خديجة ذات الخطَر[2] والحسب ، وعمته أم جميل حمّالة الحطَب ؟ وَجدّتى صفية[3] وجدته حَمَامة[4] ؟ وزوج عمتى خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم ، وزوج عمته شر ولد آدم أبو لهب ، سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ؟ وخالتى عائشة أم المؤمنين ، وخالته أشقى الأشقَيْن ؟ وأنا عبد الله ، وهو معاوية » .

---

(١) هو جد معاوية لأمه عتبة بن ربيعة قتله علىّ يوم بدر ، والمشدوخ : المكسور : أى المقتول .

(٢) القدر ، أو المنزلة وهى السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية عمة أبيه ، وزوج الرسول عليه الصلاة والسلام . (٣) هى صفية بنت عبد المطلب أم الزبير وعمة الرسول عليه الصلاة والسلام .

(٤) روى ابن أبى الحديد (م ١ : ص ١٥٧) قال :

« لما ارتحل عقيل بن أبى طالب عن على عليه السلام أتى معاوية ، فكان فى مجلسه يوما وجلساء معاوية حوله ، فقال : يا أبا يزيد : أخبرنى عن عسكرى وعسكر أخيك ، فقد وردت عليهما ، قال : «أخبرك : مررت والله بعسكر أخى ، فإذا ليل كليل رسول الله صلى الله عليه وآله ونهار كنهار رسول الله صلى الله عليه وآله ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس فى القوم ، مارأيت إلا مصليا ، ولا سمعت إلا قارئا ، ومررت بعسكرك فاستقبلنى قوم من المنافقين ممن نفر برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة » ثم قال : من هذا عن يمينك يامعاوية ؟ قال : هذا عمرو بن العاص ، قال : هذا الذى اختصم فيه ستة نفر ، فغلب عليه جزار قريش ، فن الآخر ؟ قال الضحاك بن قيس الفهرى : قال : أما والله لقدكان أبوه جيد الأخذ لعسب التيوس « وكان يبيع عسب الفحول فى الجاهلية ، والعسب كمذب : الكراء الذى يؤخذ على ضراب الفحل ، أو ضرابه ، أو ماؤه ، وعسب الرجل كضرب : أعطاه الكراء على الضراب ، وفى الحديث : ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن عسب الفحل فإن إعارة الفحل مندوب إليها » فن هذا الآخر ؟ قال أبو موسى الأشعرى ، قال : هذا ابن السراقة ، فلما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه ، علم أنه إن استخبره عن نفسه قال فيه سوءا ، فأحب أن يسأله ليقول فيه مايعلمه من السوء ، فيذهب بذلك غضب جلسائه ، قال : يا أبايزيد فما تقول فى ؟ قال : دعنى من هذا ، قال لتقولن ، قال أتعرف حمامة ؟ قال : ومن حمامة ياأبا يزيد ؟ قال : قد أخبرتك ، ثم قام فمضى ، فأرسل معاوية إلى النسابة فدعاه ، فقال : من حمامة ؟ قال : ولى الأمان ؟ قال نعم ، قال حمامة جدتك أم أبى سفيان كانت بغيا فى الجاهلية صاحبة راية ، فقال معاوية لجلسائه : قد ساويتكم وزدت عليكم ، فلا تغضبوا » .

١٤٠ — مقال معاوية

فقال له معاوية :

« وَيْحك يابن الزبير ! كيف تَصِف نفسك بما وصفتها ، والله مالَكَ فى القديم من رياسة ، ولا فى الحديث من سياسة ، ولقد قُدْناك وسُدناك : قديماً وحديثاً ، لاتستطيع لذلك إنكاراً ، ولا عنه فِراراً ، وإن هؤلاء الحضور لَيَعلَمون أن قريشاً قد اجتمعت يوم الفِجَار[1] على رياسة حرب بن أُمَيَّة ، وأن أباك وأسرتك تحت رايته ، راضون بإمارته ، غير منكرين لفضله ، ولا طامعين فى عزله ، إن أمَرَ أطاعوا ، وإن قال أنصتوا فأنزل فينا القيادة ، وعزَّ الولاية ، حتى بعث الله عزَّ وجل محمداً صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) حرب الفجار : هى حرب هاجت بين قريش وكنانة ، وبين هوازن (من قيس عيلان) وسببها أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق عكاظ فى كل عام لطيمة (واللطيمة كصحيفة : العير التى تحمل الطيب والبز للتجارة) لتباع له هناك ، ويشترى له بثمن ذلك أدم من أدم الطائف ، وكان يرسل تلك اللطيمة فى جوار رجل من أشراف العرب ، فلما جهز اللطيمة كان عنده جماعة من العرب فيهم البراض بن قيس — وهو من بنى كنانة ، والبراض كشداد — وعروة الرحال بن عتبة — وهو من بنى هوازن والرحال كشداد أيضا — فقال ، من يجيرها ؟ قال البراض : أنا أجيرها على بنى كنانة يعنى قومه ، فقال له النعمان : ماأريد إلا من يجيرها على أهل نجد وتهامة ، فقال له عروة الرحال : أنا أجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم من أهل نجد وتهامة ، فقال البراض : أعلى بنى كنانة تجيرها ياعروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم ، فدفعها النعمان إلى عروة ، فخرج بها ، وتبعه البراض ، وتربص به وقتله ، فهاجت الحرب بين كنانة وهوازن ، وعاونت قريش كنانة ، وكان على كل قبيلة من قريش وكنانة سيدها ، والقائد العام للجميع حرب بن أمية والد أبى سفيان ، وقد قتل فى هذه الحرب العوام بن خويلد والد الزبير ، وقد حضرها النبى صلى الله عليه وسلم وله من العمر أربع عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة ، وقيل عشرون ، والفجار بمعنى المفاجرة كالقتال بمعنى المقاتلة ، سمت قريش هذه الحرب فجارا ، لأنها كانت فى الأشهر الحرم فقالوا : قد فجرنا إذ قاتلنا فيها أى فسقنا ، وقيل إنها لم تكن فى الشهر الحرام وإنما سببها كان فى الشهر الحرام ، وهو قتل البراض لعروة الرحال ، هذا هو الفجار الرابع وهو الأكبر ، وكان قبله ثلاثة أفجرة أخرى — انظر السيرة الحلبية ١ : ١٢٢ ، والعقد الفريد ٣ : ٩١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١١٦ ، ومجمع الأمثال ٢ : ٢٦٠ —.

فانتخبه من خير خلقه ، من أُسْرَتى لا أسرتك ، و بنى أبى لا بنى أبيك ، فجحدته قريش أشد الجحود ، وأنكرته أشد الإنكار ، وجاهدته أشد الجهاد ، إلا من عصم الله من قريش ، فما ساد قريشًا وقادهم إلاّ أبو سفيان بن حرب ، فكانت الفئتان تلتقيان ، ورئيسُ الهدى منا ، ورئيسُ الضلالة منا ، فمَهْدِيُّكم تحت راية مهدينا ، وضالُّكم تحت راية ضالنا ، فنحن الأرباب ، وأنتم الأذناب ، حتى خلَّص الله أبا سفيان بن حرب بفضله من عظيم شركه ، وعَصَمه بالإسلام ، من عبادة الأصنام ، فكان فى الجاهلية عظيماً شأنُه، وفى الإسلام معروفاً مكانُه، ولقد أُعطى يوم الفتح مالم يُعْطَ أحد من آبائك ، وإن مُنَادِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وكانت داره حرَمًا ، لا دارُك ولا دار أبيك ؛ وأما هند فكانت امرأة من قريش ، فى الجاهلية عظيمة الخطَر ، وفى الإسلام كريمة الخبَر ، وأما جدك الصِّدِّيق فبتصديق عبد مناف سُمِّىَ صدِّيقًا ، لابتصديق عبد العُزَّى ، وأما ما ذكرت من جدى المشدوخ ببدر ، فلعمرى لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه ، فلو برَزْت إليه أنت وأبوك ما بارزوكم ، ولا رَأوْكم لهم أكفاء ، كما قد طلب ذلك غيرُكم ، فلم يقبلوهم، حتى برز إليهم أكفاؤهم من بنى أبيهم ، فقضى الله منايام بأيديهم ، فنحن قُتِلْنا ، ونحن قَتَلْنا ، وما أنت وذاك ؟ وأما عمتك أم المؤمنين فبنا شَرُفت ، وسُمِّيت أم المؤمنين ، وخالتك عائشة مثل ذلك ، وأما صفية فهى أدْنَتْك من الظِّلِّ ، ولولا هى لكنتَ ضاحِيا[1] ، وأما ما ذكرت من ابن عمك وخال أبيك[2] سيد الشهداء ، فكذلك كانوا رحمهم الله ، وفخرُهم وإرثُهم لى دونك ، ولا فَخْرَ لك فيهم ولا إرث بينك وبينهم.

---

(١) ضحا كسعى ورضى : أصابته الشمس ، والظل : العز والمنعة ، أى أن شرفهم جاء من مصاهرة العوام لبنى هاشم ، وزواجه بصفية بنت عبد المطلب . (٢) ابن عمه : هو عبد الله بن عبد الرحمن ابن العوام ، وقد قتل يوم الدار ، وخال أبيه هو حمزة بن عبد المطلب ، وقتل يوم أحد .

وأما قولك أنا عبد الله وهو معاوية ، فقد علمت قريش أيُّنا أجود فى الإزَم[١] ، وأحزم فى القدم ، وأمنع لِلحُرَم ، لا والله ما أراك منتهيًا حتى تروم من بنى عبد مناف ما رام أبوك ، فقد طالَعهم الذُّحولَ[٢] ، وقدَّم إليهم الخيولَ ، وخدعتم أمَّ المؤمنين ، ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ مَدَدتم على نسائكم السُّجُوفَ[٣] ، وأبرزتم زوجته للحُتُوف ، ومُقَارعة السيوف ، فلما التقى الجمعان نكَص أبوك هاربًا ، فلم يُنْجِه ذلك أن طَحَنه أبو الحسين بِكَلْكَلِه طحْن الحَصِيد[٤] ، بأيدى العبيد ، وأما أنت فأفلَتَّ بعد أن خَمَشَتْكَ[٥] بَرَاثِنُه ، ونالتك مخالبه ، وايم الله ليقوِّمنك بنو عبد مناف بثِقَافها[٦] أو لتُصبحنَّ منها صباح أبيك بوادى السِّباع[٧] ، وما كان أبوك المُدْهَنَ حَدُّه[٨] ، ولكنه كما قال الشاعر :

تناول سِرْحَانٌ فريسةَ ضَيْغَمٍ فقضقضه بالكفِّ منه وحطَّما[٩]

(العقد الفريد ٢ : ١١٣)

١٤١ — عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال :

« يا أمير المؤمنين ، لا تَدَعَنَّ مَرْوَانَ يرمى جماهيرَ قريش بمشاقصه(١٠) ، ويضرب صَفَاتَهم بِمِعْوَله ، أمَا والله لولا مكانُك ، لكان أخفَّ على رقابنا من فَرَاشَة ، وأقلَّ

---

(١) الأزمة (بالفتح ويحرك) الشدة ، وجمعها إزم (كشمس وعنب) . (٢) جمع ذحل (بالفتح) وهو الثأر ، والعداوة ، والحقد : أى كاشفهم بذلك . (٣) جمع سجف (بالفتح ويكسر) الستر .
(٤) الحصيد : الزرع المحصود . (٥) خمشه : خدشه . (٦) الثقاف : ماتسوى به الرماح .
(٧) مقتل أبيه الزبير . (٨) حده : بأسه ، والمدهن : المغشوش ، من أدهن أى غش ، والمعنى أنه كان شديد البأس لم تشب بسالته شائبة خور ولكنه . . . الخ » وفى الأصل « المدهن خده » بالخاء وأراه مصحفا » . (٩) السرحان : الذئب ، والضيغم : الأسد ، وقضقضه فتقضقض : كسره ودقه ، والقضقضة : صوت كسر العظام . وفى الأصل فقضفضه بالفاء، وهو تصحيف . (١٠) المشاقص: جمع مشقص كمنبر ، وهو النصل الطويل، أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش .

فى أنفسنا من خَشَاشَةَ(١) ، وايْمُ الله لئن مَلَكَ أعِنَّة خيل تنقاد له ، لَتَرْكَبَنَّ منهُ طَبَقًا(٢) تخافه » . فقال معاوية : « إن يطلب مروان هذا الأمر ، فقد طَمِع فيه من هو دونه ، وإن يَترُكه يتركه لمن فوقه ، وما أراكم بِمُنْتَهِينَ حتى يَبعث الله عليكم من لا يعْطِف عليكم بقرابة ، ولا يَذْكُركم عند مُلِمَّة ، يَسُومكم خَسْفًا(٣) ، ويسوقكم عَسْفًا(٤) » . فقال ابن الزبير : « إذن والله يُطلَق عِقَالُ الحرب بكتائبَ تَمُورُ(٥) كَرِجْل الجراد ، حَافَاتُها الأَسَلُ ، لها دوىٌّ كدوىّ الريح ، تتبع غِطْرِيفًا(٦) من قريش ، لم تكن أمُّه رَاعِية ثَلَّة(٧) » . فقال معاوية : « أنا ابن هند ، أطلقت عِقَال الحرب ، فأكلتُ ذِرْوَة السَّنام ، وَشَرِبْتُ عُنْفُوان المَكْرَع(٨) ، وليس للآكل بعدى إلاّ الفِلْذَة(٩) ، ولا للشارب إلا الرَّنْق(١٠) » . فسكت ابن الزبير .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٤٩٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١١٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٤)

١٤٢ — عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص

قَدِمَ عبد الله بن الزبير على معاوية وافداً ، فَرَحَّبَ به وأدناه ، حتى أجلسه على سريره ، ثم قال : حاجتك أبا خُبَيْب(١١) ؟ فسأله أشياء ، ثم قال له : سَلْ غير ماسألت قال :

« نعم ، المهاجرون والأنصار تَرُدُّ عليهم فَيْئَهم ، وتحفظ وصية نبىِّ الله فيهم ، تَقْبَل

---

(١) الخشاشة : واحدة الخشاش بتثليث الخاء ، وهى حشرات الأرض والعصافير ونحوها (وفى الأصل حشاشة وهو تصحيف) . (٢) الطبق : الحال ومنه قوله تعالى : « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ »

(٣) أى يوليكم ذلا . (٤) العسف : الظلم ، وسلوك الطريق على غير هداية .

(٥) تمور : تضطرب . (٦) الغطريف : السيد الشريف . (٧) الثلة : جماعة الغنم أو الكثيرة منها . (٨) عنفوان الشىء : أوله أو أول بهجته ، والمكرع : المورد ، مفعل من كرع فى الماء أو فى الإناء . (٩) الفلذة : القطعة من اللحم . (١٠) ماء رنق كعدل وكتف وجبل : كدر.

(١١) هى كنية ابن الزبير كنى بإبنه خبيب ، وكان أسن ولده ، ويكنى أيضا أبا بكر .

من مُحْسِنهم ، وتتجاوز عن مُسِيئهم » فقال معاوية : « هيهات هيهات ؟ لا والله ما تأمن النعجةُ الذئبَ وقد أكل أَلْيَتَها(١) » . فقال ابن الزبير : « مهلا يامعاوية ، فإن الشاة لَتَدِرُّ(٢) للحالب ، وإن المُدْيَةَ فى يده ، وإن الرجل الأريب ليصانع ولده الذى خرج من صُلبه ، وما تدور الرَّحاء إلا بِقُطْبها(٣) ، ولا تَصْلُح القوسُ إلا بعَجْبها(٤) »فقال : « يا أبا خُبَيْب ، لقد أجْرَرْتَ الطَّرُوقَةَ قبل هِباب الفَحْل(٥) ، هيهات ! وهى لا تَصْطَكّ لحيائها اصطكاكَ القُرُوم السَّوامى(٦) » . فقال ابن الزبير : « العَطَنُ بعد العَلِّ ، والعلُّ بعد النَّهَلِ(٧) ولابد للرَّحاء من الثِّفَال (٨)ثم نهض ابن الزبير » ، فلما كان العِشاء أخذت قريش مجالسها ، وخرج معاوية على بنى أمية ، فوجد عمرو بن العاص فيهم ، فقال : ويحكم يا بنى أمية ! أفيكم من يَكْفِينِى ابن الزبير ؟ فقال عمرو: أنا أكفيكه يا أمير المؤمنين قال: ما أظنك تفعلُ ، قال : « بَلَى ، والله لأُرْبِدَنّ(٩) وجهه ، ولأُخْرِسَنَّ لسانه ، ولأُرُدَّنّهُ ألين من خَمِيلة(١٠) » . فقال : دونك فاعْرِض له إذا دخل ، فدخل ابن الزبير — وكان قد بلغهُ كلام معاوية وعمرو — فجلس نُصْب عَيْنَى عمرو ، فتحدثوا ساعة ، ثم قال عمرو :

وإنى لنارٌ مايُطَاقُ اصطِلاؤُها ... لدَىَّ كَلامٌ مُعْضِل مُتَفَاقِم(١١)

فأطرق ابن الزبير ساعة ينكُت فى الأرض، ثم رفع رأسه وقال :

---

(١) الألية : ماركب العجز من شحم ولحم . (٢) در اللبن وغيره من بابى ضرب وقتل ، ودرت الناقة بلبنها أدرته . (٣) قطب الرحا : ماتدور عليه ، والرحاء ممدود الرحا . (٤) العجب : مؤخر كل شىء . (٥) ناقة طروقة الفحل : بلغت أن يضربها الفحل ، وأجره رسنه : جعله يجره ، وهب الفحل من الإبل وغيرها هبابا وهبيبا : أراد السفاد . (٦) تصطك : تضطرب . والقروم : جمع قرم بالفتح وهو الفحل ، والسوامى جمع سام : وصف من سما الفحل سماوة : تطاول على شوله « والشول كركع جمع شائل وهى الناقة تشول بذنبها للقاح » . (٧) العطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والعل والعلل : الشرب الثانى ، والنهل : الشرب الأول . (٨) الثفال : جلد أو نحوه يبسط تحت الرحى ليقع عليه الطحين.

(٩) أى لأصيرنه أربد ، من الربدة بالضم : وهى لون إلى الغبرة . (١٠) الخميلة : القطيفة ، وفى الأصل : « ولأوردنه » وهو تحريف . (١١) تفاقم الأمر : عظم .

وإنى لبحرٌ ما يُسَامَى عُبَابُهُ ... متى يَلْقَ بحرى حرّ نارك تخمُد

فقال عمرو : والله يابن الزبير إنك ما علمتُ لمتُجَلْبِب جَلابيبَ الفتنة، مُتأزِّر بوَصَائل[1] التِّيه ، تتعاطى الذُّرَى الشاهقة ، والمعالى الباسقة ، وما أنت منْ قريش فى لُباب جَوْهرها ولا مُؤْنِق[2] حَسَبها » . فقال ابن الزبير : « أما ما ذكرت من تعاطى الذرى . فإنه طال بى إليها وسما مالا يطول بك مِثْلُه ، أنف حَمِىّ ، وقلب ذكىّ ، وصارم مَشْرَفِىّ ، فى تَليدٍ فارع[3] ، وطريفٍ مانع ، إذ قعد بك انتفاخ سَحْرِك[4] ، ووَجيب[5] قلبك ، وأما ما ذكرت من أنى لست من قريش فى لباب جوهرها ، ومؤنق حسبها ، فقد حضرتنى وإياك الأكفاء ، العالمون بى وبك ، فاجعلهم بينى وبينك . فقال القوم : قد أنصفك ياعمرو . قال : قد فعلت . فقال ابن الزبير : « أمَا إذ أمكننى الله منك فلأُرْبِدَنّ وجهك . ولأُخْرِسَنّ لسانك ، ولترجِعَنّ فى هذه الليلة ، وكأنّ الذى بين مَنْكِبيك مشدود إلى عروق أخْدَعيك[6] » ، ثم قال : أقسمتُ عليكم يامعاشر قريش ، أنا أفضَلُ فى دين الإسلام أم عمرو ؟ فقالوا : اللهم أنت ، قال : فأبى أفضل أم أبوه ؟ قالوا : أبوك حَوَارِىُّ رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمته ، قال : فأمى أفضَلُ أم أمه ؟ قالوا : أمك أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وذات النِّطَاقين ، قال : فعمتى أفضل أم عمته ؟ قالوا : عمتك سَلْمَى بنة العوّام صاحِبة رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من عمته ، قال : فخالتى أفضل أم خالته ؟ قالوا : خالتك عائشة أم المؤمنين ، قال : فجدّتى أفضل أم جدته ؟ قالوا : جدتك صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فجدِّى أفضل أم جده ؟ قالوا : جدك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال :

قَضَت الغَطَارِفُ من قريش بيننا ... فاصبر لفَضْل خِصَامها وقَضَائها

---

(١) الوصائل : جمع وصيلة ، وهى ثوب مخطط يمان . (٢) آنقنى الشىء إيناقا : أعجبنى ، فهو مؤنق وأنيق : أى حسن معجب . (٣) فارع عال . (٤) السحر ويحرك ويضم : الرئة ، وانتفخ سحره : عدا طوره وجاوز قدره . (٥) خفقان واضطراب . (٦) الأخدعان : عرقان فى موضع الحجامة .

وإذا جَرَيْتَ فلا تُجارِ مُبَرِّزًا ... بَذَّ الجِيادَ على احتفالِ جِرائِها[1]

أما والله يابن العاص . لو أن الذى أمرك بهذا وَاجَهَنى بمثله لقَصَرْتُ إليه من سامِى بصره ، ولتركته يتلجلج لسانُه ، وتضطرم النار فى جوفه ، ولقد استعان منك بغير وافٍ ، ولجأ إلى غير كافٍ » ثم قام فخرج .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٤٩٣)

١٤٣ — خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام

لمَّا قتل الحسين عليه السلام ، قام عبد الله بن الزُّبير فى أهل مكة ، وعَظَّمَ مَقْتَله ، وعاب على أهل الكوفة خاصَّةً ، ولام أهل العراق عامَّةً ، فقال بعد أن حَمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم :

« إن أهل العراق غُدُرٌ فُجُر إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شِرَار أهل العراق ، وإنهم دَعَوا حُسَيْنًا لينصروه ويُوَلُّوه عليهم ، فلما قَدِم عليهم ثاروا إليه ، فقالوا له : إما أن تضع يدك فى أيدينا ، فنَبْعث بك إلى ابن زياد بن سُمَيَّة سِلْمًا ، فيُمْضِيَ فيك حكْمُهُ ، وإما أن تحارَب ، فرأى والله أنَّه هو وأصحابه قليل فى كثير — وإن كان الله عزَّ وجلَّ لم يُطْلِع على الغيب أحدا — أنه مقتول ، ولكنَّهُ اختار المِيتة الكريمة على الحياة الذميمة ، فرحم الله حسيناً ، وأخزى قاتل حسين . لعمرى لقد كان من خِلافهم إياه وعِصيانهم ما كان فى مثله واعظ وناهٍ عنهم ، ولكنهُ ما حُمَّ[2] نازلٌ ، وإذا أراد الله أمرا لن يُدْفَع .

أفبعد الحسين نطمئنُّ إلى هؤلاء القوم ، ونصدِّق قولهم ، ونَقبل لهم عهدا ؟ لا ، ولا نراهم لذلك أهلاً ، أمَا والله لقد قتلوه ، طويلاً بالليل قيامُه ، كثيرا فى النهار

---

(١) برز تبريزا : فاق أصحابه . وبذ : فاق وغلب ، واحتفل القوم : اجتمعوا ، والجراء والمجاراة : مصدر جارى . (٢) ماقدر .

صيامُهُ ، أحقّ بمـا هم فيه منهم ، وأولى به فى الدين والفضل ، أمَا واللهِ ما كان يبدِّل بالقرآن الغِناءَ ، ولا بالبكاء من خشية الله الحُداءَ ، ولا بالصيام شربَ الحرام ، ولا بالمجالس فى حَلَق الذكر الركضَ فى تَطْلاَبِ الصيد (يعرِّض بيزيد) فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّا[1] » .

فثار إليه أصحابه ، فقالوا له : أيها الرجل أظْهِرْ بيعتك ، فإنه لم يبق أحد ، إذ هَلك حُسين ينازعك هذا الأمر ، وقد كان يبايع الناس سرا ، ويظهر أنه عائذ بالبيت .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٧٣)

١٤٤ — مناظرة ابن الزبير للخوارج

اجتمعت الخوارج حين ثار عبد الله بن الزبير بمكة (سنة ٦٤) وسار إليه مسلم ابن عُقْبة المُرِّى فى جيش من أهل الشأم ، بعد أن غزا المدينة ، وكان منه فى وقعة الحَرَّة ما كان ، فقال لهم نافع بن الأزرق : اخرجوا بنا نَأْتِ البيت ، ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك فى أمورنا ، فخرجوا حتى قدموا على عبد الله بن الزبير ، فُسرَّ بِمَقْدَمهم ونبأهم أنه على رأيهم ، وأعطاهم الرضا من غير توقف ولا تفتيش ، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشأم عن مكة .

ثم إن القوم لَقِىَ بعضهم بعضاً فقالوا : إن هذا الذى صنعتم أمس بغير رأى ولا صواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لاتدرون لعله ليس على رأيكم ، إنما كان أمس يقاتلكم هو وأبوه ، ينادى يالثارات عثمان ، ندخل إليه فننظر ما عنده ، فإن قدّم أبا بكر

---

(١) أى شرا وخسرانا ، وكل شر عند العرب غى ، وكل خير رشاد ، وقيل هو على حذف مضاف أى جزاء غى كقوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » ، والأثام : الإثم ، أى يلق جزاء إثمه (والأثام أيضا جزاء الاثم) .

وعمر ، وبرئ من عثمان وعلىّ ، وكفّر أباه وطلحة بايعناه ، وإن تكن الأخرى ، ظهر لنا ما عنده ، فتشاغلنا بما يُجْدِى علينا .

فدخلوا عَلَى ابن الزبير وهو مُبْتذل[1] ، وأصحابه متفرقون عنه ، فقالوا : إنا جئناك لتخبرنا رأيك ، فإن كنت عَلَى الصواب بايعناك ، وإن كنت عَلَى غيره دعوناك إلى الحق ، ما تقول فى الشيخين ؟ قال: خيراً . قالوا : فما تقول فى عثمان الذى أحمى[2] الحِمَى ، وآوى الطّريد[3] ، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه ، وأوطأ آلَ أبى مُعَيط[4] رقابَ الناس ، وآثرهم بفَىْء المسلمين ، وفى الذى بعده ، الذى حَكَّمَ فى دين الله الرجالَ ، وأقام عَلَى ذلك غير تائب ولا نادم ، وفى أبيك وصاحبه ، وقد بايعا عليًّا وهو إمام عادل مرضىّ لم يظهر منهُ كفر ، ثم نكثا بعَرَض من أعراض الدنيا ، وأخرجا عائشة تقاتل ، وقد أمرها الله وصواحبها أن يقَرْن[5] فى بيوتهن، وكان لك فى ذلك ما يدعوك إلى التوبة فإن أنت قلت كما نقول فلك الزُّلفَى[6] عند الله والنصر عَلَى أيدينا ، ونسأل الله لك التوفيق وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول ، وتصويبَ أبيك وصاحبه ، والتحقيقَ بعثمان والتوَلّى فى السنين الست التى أحلّت دمه ، ونقضت أحكامه ، وأفسدت إمامته ، خذلك الله

---

(١) المبتذل : لابس البذلة (بالكسر) أو المبذلة : وهى الثوب الخلق ومالا يصان من الثياب .

(٢) أحمى المكان : جعله حمى لايقرب ، وكان من المطاعن التى وجهت إلى عثمان رضى الله عنه أنه حمى الحمى عن المسلمين مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم سواء فى الماء والكلأ ، ولما سئل فى ذلك قال إنما فعلت ذلك لإبل الصدقة ، وقد أطلقته الآن ، وأنا أستغفر الله . وروى الواقدى أن عثمان كان يحمى الربذة والشرف والبقيع . فكان لا يدخل الحمى بعير له ولا فرس ولا لبنى أمية حتى كان آخر الزمان ، فكان يحمى الشرف لإبله وكانت ألف بعير ولإبل الحكم بن أبى العاص ، ويحمى الربذة لإبل الصدقة . ويحمى البقيع لخيل المسلمين وخيله وخيل بنى أمية . شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢٣٥

(٣) هو الحكم بن أبى العاص — انظر ص ١٠٤ . (٤) ممن ولاهم عثمان الوليد بن عقبة بن أبى معيط ولاه الكوفة ، وهو أخو عثمان لأمه . (٥) من قر بالمكان يقر (بالكسر والفتح) قرارا أى استقر . أصله يقررن حذفت الأولى من الراءين ونقلت حركتها إلى القاف . (٦) الزلفة والزلفى: القربة والمنزلة .

وانتصر منك بأيدينا ، فقال ابن الزبير : « إن الله أمر (وله العزّة والقدرة) فى مخاطبة أكفر الكافرين ، وأعتى العُتاة ، بأرأفَ من هذا القول ، فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما : « اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تُؤْذوا الأحياء بِسَبِّ الموتى » . فنهى عن سبّ أبى جهل من أجل عِكرِمَة ابنِه ، وأبو جهل عدوّ الله وعدوّ الرسول ، والمقيم عَلَى الشّرك ، والجادّ فى المحاربة ، والمتبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، والمحاربُ له بعدها ، وكفى بالشرك ذَنْبًا ! وقد كان يُغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة وأبى أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين ؟ » فإن كانا منهم دخلا فى غُمار(١) المسلمين، وإن لم يكونا منهم لم تُحْفِظُونى(٢) بسبّ أبى وصاحبه ، وأنتم تعلمون أن الله جلّ وعزّ قال للمؤمن فى أبويه : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » ، وقال جلّ ثناؤه : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » وهذا الذى دعوتم إليه أمرٌ له ما بعده ، وليس يُقنعكم إلا التوقيف والتصريح(٣) ، ولعمرى إن ذلك لأحرى بقطع الحجج ، وأوضح لِمنهاج الحق ، وأولى أن يعرف كلٌّ صاحبه من عدوه ، فرُوحوا(٤) إلىّ من عشِيَّتكم هذه ، أكشِفْ لكم ما أنا عليه إن شاء الله تعالى .

فلما كان العَشِىُّ راحوا إليه ، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نجدةُ(٥) قال : هذا خروج منابِذٍ(٦) لكم ، فجلس على رفيع من الأرض ، فحمِد الله ، وأثنى عليه ، وصلى عَلَى نبيه ، ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر ، ثم ذكر عثمان فى السنين الأوائل من خلافته ، ثم وصلهن بالسنين التى أنكروا سيرتَه فيها ، فجعلها كالماضية ، وخبَّر أنه

---

(١) بالضم ويفتح جماعتهم . (٢) تغضبونى . (٣) تبيين الأمر .

(٤) الرواح : العشى ، وراح إلى القوم : ذهب إليهم رواحا . (٥) هو نجدة بن عامر الحنفى من كبار زعمائهم . (٦) نابذه : كاشفه بالعداوة .

آوى الحكم بن أبي العاص بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر الحِمَى وما كان فيه من الصلاح ، وأن القوم استعتبوه من أمور ، وكان له أن يفعلها أولا مُصيباً ، ثم أعتبهم بعد ذلك محسنًا ، وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه ، بعد أن ضَمِن لهم العُتْبَى[1] ثم كُتِب لهم ذلك الكتاب بقتلهم ، فدفعوا الكتاب إليه ، حلف بالله أنه لم يكتبه ، ولم يأمر به ، وقد أمر الله عزَّ وجلَّ بقَبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته ، مع ما اجتمع له من صِهرِ رسول الله ، ومكانِهِ من الإمامة ، وأن بيعة الرِّضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه[2] ، وعثمان الرجل الذى لزِمَته يمين ، لو حَلَف عليها لحَلَف عَلَى حق ، فافتداها بمائة ألف ولم يحلف ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حَلَف بالله فليَصْدُق ، ومن حُلِف له بالله فليَرْضَ » . فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه ، وأنا وليُّ وليِّه ، وعدوُّ عدوِّه ، وَأَبِى وصاحبه صاحبا رسول الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن اللهِ عزَّ وجلَّ يوم أُحُد ، لما قُطِعت إصْبَع طلحة : « سَبَقَتْهُ إلى الجَنَّةِ » ، وقال : « أوجَبَ طلحة[3] » ، وكان الصِّدِّيق إذا ذكر يومَ أُحُد قال : « ذاكَ يومٌ كله أو جُلُّه لطلحة » . والزبيرُ حوَارِيّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصَفوته ، وقد ذَكر أنهما فى الجنة ، فقال جلَّ وعزَّ : « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » . وما أخبرَنا بعدُ أنه سَخِط عليهم ، فإن يكن ما سَعَوا فيه حقًّا ، فأهلُ ذلك هُمْ ، وإن يكن زلة ففى عفو الله تمحيصُها ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وَسلم ، ومهما ذكرتموها فقد بدأتم بأمكم عائشة رضى الله عنها ، فإن أَبَى آبٍ

---

(١) العتبى : الرضا . (٢) وذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام فى غزوة الحديبية اختار عثمان ابن عفان رسولا من قبله إلى قريش ، يعلمهم بمقصده ، وأنه أتى مكة معتمرا ، فقالوا : إن محمدا : لايدخلها علينا عنوة أبدا ، ثم إنهم حبسوه . فشاع عند المسلمين أنه قتل . فقال عليه الصلاة والسلام حينما سمع بذلك : لا نبرح حتى نناجزهم الحرب . ودعا المسلمين إلى البيعة على القتال فبايعوه هناك تحت شجرة سميت بعد شجرة الرضوان . (٣) الموجبة من الحسنات التى توجب الجنة . وأوجب : أتى بها .

أن تكون له أمًّا نبذ اسم الإيمان عنه ، وقد قال الله جلّ ذكره ، وقوله الحق : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم انصرفوا عنه .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٧٣ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٢ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٥٥)

١٤٥ — أبو صخر الهذلى وعبد الله بن الزبير

وروى أبو الفرج الأصبهانى قال :

لما ظهر ابن الزبير بالحجاز ، وغلب عليها بعد موت يزيد بن معاوية ، وتشاغل بنو أمية بالحرب بينهم ، فى مَرْج راهط وغيره ، دخل عليه أبو صَخْر الهُذَلىّ فى هُذَيْل ، وقد جاءوه ليقبضوا عطاءهم ، وكان عارفاً بهَوَاه فى بنى أمية ، فنعه عطاءه ، فقال : عَلاَمَ تمنعنى حقا لى ؟ وأنا امرؤ مُسْلم ما أحدثتُ فى الإسلام حَدَثاً ، ولا أخرجت من طاعةٍ يداً . قال : عليك بنى أمية ، فاطلب عندهم عَطَاءك . قال :

« إذن أجدَهم سِبَاطاً(١) أكُفُّهم ، سَمْحةً أنفسُهم ، بُذَلاء لأموالهم ، وهّابين لِمُجْتَدِيهم(٢) كريمةً أعراقُهم ، شريفةً أصولهُمْ ، زاكيةً فروعُهم ، قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم نَسَبُهم وسَبَبُهم ، ليسوا إذا نُسِبوا بأذناب ولا وَشائِظ(٣) ولا أتباع ، ولا هم فى قريش كفقَعَة القَاع(٤) ، لهم السُّودَد فى الجاهلية ، والملكُ فى الإسلام لا كن لا يُعَدُّ فى عِيرِها ولا نَفِيرها(٥) ، ولا حَكَمَ آباؤه فى نَقِيرها ولا قِطْميرها(٦) ليس

---

(١) رجل سبط اليدين : سخى (وسبط كشمس) . (٢) المجتدى : طالب الجدوى، وهى العطية .

(٣) وشائظ جمع وشيظة ، يقال : هم وشيظة فى قومهم أى حشو فيهم ، وفى الأصل : « وسائط » وهو تصحيف . (٤) الفقع (بالفتح والكسر) البيضاء الرخوة من الكمأة وجمعه فقعة كعنبة ، والقاع : أرض سهلة مطمئنة ، قد انفرجت عنها الجبال والآكام . ويضرب المثل بالفقع فى الذل ، لأنه لا يمتنع على من اجتناه ، أو لأنه يوطأ بالأرجل . (٥) أخذا من المثل وهو « لا فى العير ولا فى النفير » وأول من قاله أبو سفيان بن حرب ، يضرب للرجل : يحط أمره ، ويصغر قدره . وقد تقدم شرحه .

(٦) النقير : النكتة فى ظهر النواة ، والقطمير : القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة .

من أحلافها(١) المطَيَّبين ، ولا من سادتها المُطْعِمين ، ولا من جُوَدائها(٢) الوهّابين ، ولا من هاشمها المنتخَبين ، ولا عبد شمسها المسوَّدين ، وكيف تقاتل الرءوس بالأذناب ، وأين النَّصلُ من الجفن(٣) والسِّنان من الزُّجِّ(٤) ، والذُّنابَى(٥) من القُدَامَى(٦) وكيف يُفَضَّل الشحيح على الجواد ، والسُّوقة على المَلِك ؛ والجامع بُخلا على المطعِم فضلا ؟ » .

فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائصه(٧) ، وعَرِق جبينهُ ، واهتز من قَرْنه إلى قدمه ، وامتقَع لونه ، ثم قال له : يابن البوَّالة على عقِبيها ، وياجِلْف(٨) ، ياجاهل . أما والله لولا الحُرُمات الثلاث : حُرْمة الإسلام ، وحُرمة الحَرَم ، وحُرْمة الشهر الحرام . لأخذت الذى فيه عيناك ، ثم أمر به إلى سجن «عارم» فحُبِس به مدة ، ثم استوهبته هذيل ، ومن له من قريش خُئُولة فى هذيل ، فأطلقه بعد سنة . وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبدا .

فلما ولِيَ عبد الملك ، أمر له بما فاته من العطاء ، ومثله صِلَةً من ماله وكساه وحمله .

(الأغانى ٢١ : ٩٤)

١٤٦ — خطبته وقد قدم عليه وفد العراق

قَدِم وفد من العراق على عبد الله بن الزبير ، فأتَوْه فى المسجد الحرام فى يوم جمعة ، فسلموا عليه . فسألهم عن مصعب أخيه ، وعن سيرته فيهم . فقالوا : أحسن الناس سيرةً ،

---

(١) الأحلاف فى قريش ست قبائل : عبد الدار ، وكعب ، وجمح ، وسهم ، ومخزوم ، وعدى ، لأنهم لما أراد بنو عبد مناف أخذ مافى أيدى عبد الدار من الحجابة والسقاية ، وأبت عبد الدار ، عقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا ، فأخرجت عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعتها لأحلافهم وهم أسد ، وزهرة ، وتيم عند الكعبة ، فغمسوا أيديهم فيها وتعاقدوا ، وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤها حلفا آخر مؤكدا فسموا الأحلاف ، وقوله المطيبين : لغمس أيديهم فى الطيب . (٢) جوداء : جمع جواد ، وهو السخى ، ويجمع أيضا على أجواد وأجاود . (٣) غمد السيف . (٤) الحديدة فى أسفل الرمح .
(٥) الذنب . (٦) أربع أو عشر ريشات فى مقدم الجناح . (٧) جمع فريصة ، وهى اللحمة بين الجنب والكتف . (٨) الجلف : الرجل الجافى .

وأقضاه بحق ، وأعدَله فى حكم ، فصلى عبد الله بالناس الجمعة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه . ثم قال :

قد جرَّبونى ثم جرَّبونى   من غَلْوَتين ومن المِئين[1]

حتى إذا شابوا وشيَّبونى   خلَّوْا عِنَانى ثم سيَّبونى[2]

أيها الناس : « إنى قد سألت هذا الوفد من أهل العراق ، عن عاملهم مصعب بن الزبير ، فأحسنوا الثناء عليه ، وذكروا عنه ما أُحِب . ألاَ إنّ مصعباً أطَبَى[3] القلوبَ ، حتى ماتَعْدِل به ، والأهواء حتى ماتَحُول عنه ، واستمال الألسن بثنائها ، والقلوب بنُصْحها ، والنفوس بمحبّتها . فهو المحبوب فى خاصّته . المحمود فى عامته . بما أطلق الله به لسانه من الخير . وبَسَط يده من البَذْل » . ثم نزل .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٤٩٢ ؛ والأمالى ١ : ٢٨٦)

١٤٧ — خطبته لما بلغه قتل مصعب

لما قتل عبدُ الملك بن مرْوان مُصْعَب بن الزبير (سنة ٧١ هـ) وانتهى خبر مَقْتَله إلى عبد الله بن الزبير ، أضرب عن ذكره أياما ، حتى تحدّث به إماء مكة فى الطريق ، ثم صعِد المنبر فجلس عليه مَلِيًّا لايتكلم ، والكآبَة على وجهه ، وجبينهُ يَرْشَح عرقا . فقال رجل من قريش لرجل إلى جانبه : ماله لايتكلم ، أتُراه يهاب المنطق ؟ فوالله إنه للبيبُ الخطباء . قال : لعله يريد أن يذكر مقتل مصعب سيد العرب ، فيشتد ذلك عليه ، وغير مَلوم ، ثم تكلم فقال :

« الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، ومُلْك الدنيا والآخرة ، يُؤتِى المُلْكَ من يشاء ، ويَنزِع الملك ممن يشاء ، ويُعِزّ من يشاء ، ويُذِلّ من يشاء . أما بعد : فإنه لم يُعِزَّ اللهُ

---

(١) الغلوة : الغاية ، وهى رمية سهم أبعد مايقدر عليه ، ويقال هى قدر ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة .

(٢) تركونى .   (٣) اطبى : استمال .

مَنْ كان الباطلُ معه ، وإن كان معه الأنَامُ طرًّا[1] ، ولم يُذِلَّ مَنْ كان الحق معه وإن كان مُفْرَدًا ضعيفا ؛ ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق ، بلد الغَدْر والشقاق ، فساءنا وسَرَّنا ، أتانا أن مصعباً قتِل رحمةُ الله عليه ومَغْفِرَتُه ؛ فأما الذى أحزننا من ذلك ، فإن لِفراق الحميم لَذْعَةً ولوعةً يجدها حميمُه عند المصيبة ، ثم يَرْعَوِى من بعدُ ذوالرأى والدين إلى جميل الصبر ، وكريم العَزَاء . وأما الذى سَرَّنا منه فإنا قد علمنا أن قتله شهادةٌ له ، وأنه عزَّ وجلَّ جاعل لنا وله فى ذلك الخيرة إن شاء الله تعالى .

أسلمه الطَّغَامُ[2] ، الصُّمُّ الآذان ، أهل العراق ، إسلام النَّعَمِ المُخَطَّمَة[3] ، وباعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه ، فإن يُقْتَلْ فقد قُتِل أبوه وعمه وأخوه[4] ، وكانوا الخيار الصالحين ، إنا والله لانموت حَتْفَ آنافنا[5] ، ولكنْ قَعْصًا[6] بالرماح ،

---

(١) جميعا . (٢) الأوغاد . (٣) خطم البعير بالخطام : جعله على أنفه ، والخطام ككتاب : ما وضع فى أنف البعير ليقتاد به . (٤) بعد أن اعتزل الزبير بن العوام أصحاب الجمل ، انصرف إلى وادى السباع ، وقد تبعه عمرو بن جرموز فقتله فى الصلاة ، ويعنى بعمه عبدالرحمن بن العوام بن خويلد ، وقد استشهد يوم اليرموك ، وفى رواية « وابن عمه » ويعنى به عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام، وقد قتل يوم الدار « انظر أسد الغابة ٣ : ٢١٣ » .

وأما أخوه فهو المنذر بن الزبير ، وذلك أن جيش يزيد بعد أن أوقع بأهل المدينة فى وقعة الحرة كاقدمنا ، سار إلى مكة لغزو ابن الزبير ، فقال لأخيه المنذر : مالهذا الأمر ولدفع هؤلاء القوم غيرى وغيرك — وكان أخوه المنذر ممن شهد الحرة . ثم لحق به — فجرد إليهم أخاه فى الناس ، فقاتلهم ساعة قتالا شديدا ، ثم إن رجلا من أهل الشأم دعا المنذر إلى المبارزة ، فخرج إليه ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة خر صاحبه لها ميتا . وكان مقتله سنة ٦٤ هـ — تاريخ الطبرى ٧ : ١٤ — . (٥) الحتف : الموت ، ويقال مات حتف أنفه : أى على فراشه من غير قتل ، ولا ضرب ، ولا غرق ، ولا حرق ، وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه ، أو لأنهم كانوا يتخيلون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، والجريح من جراحته . (٦) القعص : الموت الوحى (أى السريع كقعْى) ومات قعصا : أصابته ضربة ،أورمية فمات مكانه ، وفى الكامل ، وعيون الأخبار : « إنا والله مانموت حبجا » وزاد الكامل « كيتة آل أبى العاص » والحبج محركة : انتفاخ بطن البعير من أكل لحاء العرفج (كجعفر) ، وربما قتله ذلك ، يعرض ببنى مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم فى ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالتخمة .

وموتاً تحت ظِلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قطُّ ؛ ألا وإنما الدنيا عاريةٌ من الملكِ القهّار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يَبِيد ملكه ، فإن تُقبِل الدنيا عليّ لم آخذها أخذَ الأشِرِ البَطِر[1] ، وإن تُدْبِر عني لم أبكِ عليها بكاء الخَرِق المَهِين[2] . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » ثم نزل .

(الأغاني ١٧ : ١٦٦ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٣٢٠ — م ٤ ص ٤٩٢ ، والعقد الفريد ٢ : ص ١٥٠ و ٢٦٨ ، وتاريخ الطبري ٧ : ١٩٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٠ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٢٣)

١٤٨ — خطبة أخرى له

وقال الجاحظ : لما جاءه قتل أخيه مصعب ، قام خطيبا بعد خطبته الأولى ، فقال: «إن مصعباً قَدّم أيْرَه ، وأخّر خيرَه ، وتشاغل بنكاح فلانة وفلانة[3] ، وترك حَلْبة[4] أهل الشأم ؛ حتى غَشِيَته في داره ، ولئن هلك مُصْعَب إن في آل الزبير خَلَفًا منه » .

(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٩ — خطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق

وروى الجاحظ أيضاً أنه لما بلغه قتلُ عبد الملك بن مروان عمرَو بن سعيد الأشدق، قام خطيباً فقال :

---

(١) الأشر : البطر . (٢) من الخرق محركة وهو الدهش من خوف أو حياء ، أو أن يبهت فاتحا عينيه ينظر ، والمهين : الحقير ، ويروى : « بكاء الخرف المهتر » والخرف : من فسد عقله من الكبر ، والمهتر : من ذهب عقله من كبر ، أو مرض ، أو حزن ، من الهتر بالضم ، وقد أهتر فهو مهتر (بضم الميم وفتح التاء) : شاذ وقد قيل أهتر بالبناء للمجهول (٣) كان تحته عقيلتا قريش عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين . (٤) الحلبة : خيل تجتمع للسباق من كل أوب للنصرة .

« إن أبا ذِبّان[١] ، قتل لَطِيم الشيطان[٢] ، كَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٥٠ - عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبى بكر ، فى اليوم الذى قتل فيه ، وقد رأى من الناس ما رأى من خذلانهم ، فقال :

يا أمّه : خَذَلنى الناس حتى ولدى[٣] وأهلى ، فلم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثرُ من صبر ساعة ، والقوم يُعطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيُك ؟ فقالت: أنت والله يابنى أعلمُ بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قُتل عليه أصحابك ، ولا تمكِّنْ من رقبتك يتلعَّب بها غِلمان بنى أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبدُ أنت ، أهلكتَ نفسك ، وأهلكت من قُتل معك ، وإن قلتَ كنتُ على حق ، فلما وَهَنَ أصحابى ضَعُفتُ ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خُلُودُك فى الدنيا ؟ القتلُ أحسن ، والله لَضَرْبةٌ بالسيف فى عزّ ، أحبُّ إلىَّ من ضربة بسَوْطٍ فى ذلّ ، قال : إنى أخاف إن قتلونى أن يُمَثِّلوا بى ، قالت : يا بنى إن الشاة لايضرها سَلْخُها بعد ذبحها .

فدنا منها وقبل رأسها ، وقال : هذا والله رأيى ، والذى قمت به داعياً إلى يومى هذا ،

---

(١) الذبان : الذباب ، والعرب تكنو الأبخر « أبا دباب » وبعضهم يكنيه « أبا ذبان » وقد غلب ذلك على عبد الملك بن مروان ، لفساد كان فى فمه ، وقيل لأن لثته كانت تدمى فيقع عليها الذباب .

(٢) هو عمرو بن سعيد الأشدق ، سمى بذلك لميل كان فى فمه ، فقيل له من أجله : « لطيم الشيطان » قال الوزير الكاتب ابن عبدون فى مرثيته المشهورة لدولة بنى الأفطس بالأندلس التى مطلعها :

« الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور »

ولم تدع لأبى الذبان قاضيه ليس اللطيم لها عمرو بمنتصر

(٣) وكان قد خرج إلى الحجاج ابناه حمزة وخبيب فأخذا منه لأنفسهما أمانا .

ما ركَنتُ إلى الدنيا ، ولا أحببتُ الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضبُ لله أن تُستَحل حُرَمُه ، ولكننى أحببت أن أعلم رأيكِ ، فزدتِنى بصيرةً مع بصيرتى ، فانظرى يا أمه ، فإنى مقتول من يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلِّمى لأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمَّدْ إتيان مُنكَر ، ولا عملا بفاحشة ، ولم يَجُرْ فى حكم الله ، ولم يَغْدِر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهَد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به ، بل أنكرته ، ولم يكن شىء آثَرَ عندى من رضا ربى ، اللهم إنى لا أقول هذا تزكيةً منى لنفسى — أنت أعلم بى — ولكن أقوله تعزيةً لأمى لتَسْلُوَ عنى ، فقالت أمه : إنى لأرجو من الله أن يكون عَزَائى فيك حسناً إن تقدَّمتنى ، وإن تقدمتك ففى نفسى حَرَجٌ حتى أنظر إلامَ يصير أمرك . قال : يا أمه جزاك الله خيراً ! فلا تَدَعى الدعاء لى قبلُ وبعدُ ، فقالت : لا أدعه أبداً ، فمن قُتل على باطل فقد قُتلتَ على حق ، ثم قالت : « اللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النَّحِيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة ، وبرَّه بأبيه وبى ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيتَ ، فأَثِبْنِى فى عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين » . ثم ودَّعها وخرج .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٢ ، والفخرى ١١١ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٧١ ، وبلاغات النساء ص ١٣٠)

١٥١ — خطبته يوم قتله

وخرج من عندها فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إن الموت قد تغشَّاكم سحابُه ، وأحدق بكم رَبابُه[1] ، واجتمع بعد تفرُّق ، وارجَحَنَّ بعد تَمَشُّق[2] ، ورَجَس[3] نحوكم رَعْدُه ، وهو مُفْرِغ عليكم وَدْقَه[4]

---

(١) الرباب : السحاب الأبيض . (٢) ارجحن : مال من ثقله واهتز ، وتمشق ثوبه : تمزق .

(٣) رجست السماء : رعدت شديدا وتمخضت . (٤) الودق : المطر .

وقائِد إليكم البلايا ، تتبعها المنايا ، فاجعلوا السيوف لها غَرَضًا ، واستعينوا عليها بالصبر » .

وتمثل بأبيات ، ثم اقتحم يقاتل وهو يقول :

قد جَدَّ أصحابُك ضربَ الأعناقْ وقامت الحربُ لها على ساقْ[1]

(العقد الفريد ٢ : ٢٧١)

١٥٢ - خطبة أخرى

وروى الطبرى قال :

لما كان يوم الثلاثاء صَبِيحة سبْعَ عشرةَ من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ وقد أخذ الحجاج على ابن الزبير بالأبواب ، صلى بأصحابه الفجر ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا آل الزبير : لو طِبْتم لى نفسًا عن أنفسكم ، كنَّا أهل بيتٍ من العرب اصْطُلِمْنا[2] فى الله ، لم تُصبنا زَبَّاء بَتَّة[3] ، أما بعد يا آل الزبير : فلا يَرُعْكُمْ وقع السيوف ، فإنى لم أحضُر مَوْطِنًا قطُّ إلا ارْتُثِثْتُ[4] فيه من القتل ، وما أجد من دواء جِراحها أشدُّ مما أجد من ألم وَقْعِها ، صُونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ؛ لا أعلم امرأً كسر سيفه ، واستبقى نفسه ، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزلُ ، غُضُّوا أبصاركم عن البارقة[5] ، ولْيَشْغَلْ كل امرئٍ قِرْنَه ، ولا يُلهينَّكم السؤالُ عنى ، ولا تقولُنَّ : أين عبد الله بن الزبير ، ألا من كان سائلاً عنى فإنى فى الرَّعيل[6] الأول :

أَبَى لابن سَلْمَى أنه غيرُ خالد مُلاَقِى المنايا أىَّ صَرْفٍ تيَمَّمَا

---

(١) هو من مشطور السريع الموقوف . (٢) أى استؤصلنا . (٣) الزباء من الدواهى : الشديدة ، ويقال لا أفعله ألبتة : وبتة ، لكل أمر لارجعة فيه . (٤) ارتث (مبنيا للمجهول) حمل من المعركة رثيثا أى جريحا وبه رمق . (٥) البارقة : السيوف . (٦) الرعيل : القطعة من الخيل القليلة ، أو مقدمتها .

فلستُ بمبتاعِ الحياة بسُبَّة ولا مُرْتَقٍ من خشية الموتِ سُلَّما

احملوا على بركة الله » ثم قاتل حتى أُثخِن بالجراحات وقتل .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٤)

١٥٣ — خطبة مصعب بن الزبير

بعث عبد الله بن الزبير أخاه مُصْعَبًا واليًا على البصرة سنة ٦٧ هـ ، فصعِد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم طسم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ « وأشار بيده نحو الشام » وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ « وأشار بيده نحو الحجاز » وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ « وأشار بيده نحو العراق » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ١٤٦)

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموى

خطب معاوية (توفى سنة ٦٠ هـ)

١٥٤ — خطبته بالمدينة عام الجماعة

قدم معاوية المدينة عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) فتلقاه رجال قريش، فقالوا: الحمد لله الذى أعز نصرك، وأعلى كَعْبَك، فما رد عليهم شيئًا حتى صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد فإنى والله ما وَلِيتُها بمحبة علمتُها منكم، ولا مسرّةٍ بوِلاَيتى، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مُجالدةً، ولقد رُضْتُ[1] لكم نفسى على عمل ابن أبى قُحافة، وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نِفاراً شديدًا، وأردتها على سُنَيات[2] عثمان، فأبت علىّ، فسلكت بها طريقًا لى ولكم فيه منفعة: مؤاكلةٌ حسنة ومشاربة جميلة، فإن لم تجدونى خيركم، فإنى خيرلكم ولايةً، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائلُ بلسانه، فقد جعلت ذلك له دَبْرَ[3] أذنى،

---

(١) من راض المهر: إذا ذلله. (٢) سنية مصغر سنة، والمراد حكم عثمان.

(٣) جعل كلامك دبر أذنه: لم يصغ إليه، ولم يعرج عليه.

وتحت قدمى ، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله ، فاقبلوا منى بعضه ، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يُترِى ، وإذا قل أغنى ، وإياكم والفتنةَ ، فإنها تُفْسِد المعيشة وتُكدِّر النعمة » ثم نزل . (العقد الفريد ٢ : ١٣٩)

١٥٥ — خطبة أخرى له بالمدينة

وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، إنا قدمنا عليكم ، وإنما قدمنا على صديق مستبشر . أو على عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون . فإن أُعطُوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطَوا منها إذا هم يَسْخَطون ، ولست واسعاً كل الناس ، فإن كانت مَحْمَدة ، فلا بد من مَذَمَّة ، فلَوْماً هَوْنًا إذا ذكر غفر ، وإياكم والتى إن أُخفيتْ أوْ بقت ، وإن ذُكِرَت أوثقت » ثم نزل . (العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٦ — خطبة له بالمدينة

وصعِد منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يأهل المدينة ، إنى لست أحب أن تكونوا خَلقًا كخَلق العراق ، يَعيبون الشىء وهم فيه ، كل امرئٍ منهم شيعةُ نفسه ، فاقْبَلونا بما فينا ، فإن ما وراءنا شر لكم ، وإن معروف زماننا هذا مُنكَرُ زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروفُ زمانٍ لم يأت ، ولو قد أتى فالرَّتق خير من الفَتق ، وفى كلٍّ بلاغٌ ، ولا مُقَام على الرَّزِية » .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٧ — خطبته حين ولى المغيرة بن شعبة الكوفة

ولما وَلَّى معاويةُ المُغيرَةَ بن شعبة الكوفة فى جمادى سنة ٤١ هـ دعاه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنّ لِذِى الحِلْم قبلَ اليوم ما تُقرَع العَصَا(١) ، وقد قال المتلمِّس :

لذى الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا وما عُلِّمَ الإنْسَانُ إلا لِيَعْلَمَا

وقد يُجْزِى(٢) الحكيمُ بغير التعليم ، وقد أردتُ إيصاءك بأشياء كثيرة ، فأنا تارِكُها اعتماداً على بَصَرِك بما يُرضِينى ، ويُسْعِد سلطانى ، وتصلُح به رعيتى ، ولست تارِكاً إيصاءك بخَصلةٍ : لاتَتَحَمَّ(٣) عن شَتْمِ علىّ وذمّه ، والترحُّمِ على عثمان ، والاستغفار له ، والعيبِ على أصحاب علىّ ، والإقصاء لهم ، وترك الاستماع منهم ، وبإطراء شيعةِ عثمان رضوانُ الله عليه ، والإدناء لهم ، والاستماع منهم » .

فقال المغيرة : « قد جرَّبْتُ وَجُرِّبْتُ ، وعَمِلت قبلك لغيرك ، فلم يُذْمَمْ بِى دَفْعٌ ولا رَفْعٌ ، ولا وَضْع ، فستَبْلُو(٤) فتحمَد ، أو تذُمّ » قال : « بل نحمَد إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٤١)

---

(١) من أمثال العرب المشهورة : « إن العصا قرعت لذى الحلم » وهو مثل يضرب لمن إذا نبه انتبه ، وأول من قرعت له العصا عامر بن الظرب العدوانى ، وقيل هو قيس بن خالد ، وقيل ربيعة بن مخاشن ، وقيل عمرو بن حممة الدوسى ، وقيل عمرو بن مالك . ذكروا أن عامر بن الظرب كان أحد حكام العرب المشهورين : لاتعدل بفهمه فهما ، ولا بحكمه حكما ، فلما طعن فى السن أنكر من عقله شيئا ، فقال لبنيه : إنه قد كبرت سنى ، وعرض لى سهو ، فإذا رأيتمونى خرجت من كلامى ، وأخذت فى غيره ، فاقرعوا لى المجن بالعصا ، وقال المتلمس يريده :

لذى الحلم قبل اليوم ماتقرع العصا . . . . . . البيت .

(٢) يجزى مسهل من يجزئ أى يغنى ، يقال : أجزأت عنك مجزأ فلان : أى أغنيت عنك مغناه .

(٣) احتمى وتحمى : امتنع . (٤) أى تختبر .

١٥٨ — خطبة له فى يوم صائف

وخطب الجمعة فى يومٍ صائفٍ شديد الحر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله عزّ وجلّ خلقكم فلم ينسَكم ، ووعظكم فلم يُهْمِلكم ، فقال : « يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . قوموا إلى صلاتكم

(العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٩ — آخر خطبة له

صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قبض على لحيته ، وقال :

« أيها الناس : إنى مِن زرع قد استَحْصَدَ[١] ، وقد طالت عليكم إمرتى ، حتى مَلِلتكم ومللتمونى ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى ، وإنه لا يأتيكم بعدى إلا من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيرًا منى ، وإنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم إنى قد أحببت لقاءك ، فأَحْبِبْ لقائى » ثم نزل، فما صعِد المنبر حتى مات[٢] .

(الأمالى ٢ : ٣١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦)

١٦٠ — خطبته وقد حضرته الوفاة

ولما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ قال : نفر من قريش يتباشرون بموتك ، قال : ويحك ؟ ولم ؟ قال : لا أدرى . قال فوالله ما لهم بعدى إلا الذى يسوءهم وأذن للناس فدخلوا ، فحمد الله وأثنى عليه ، وأوجز ثم قال :

---

(١) استحصد الزرع وأحصد : حان أن يحصد . (٢) سيرد عليك بقية خطبه بعد فى موضعها.

« أيها الناس : إنا قد أصبحنا فى دهر عَنُود[١] ، وزمن شديد[٢] يُعَدّ فيه المحسن مسيئًا ، ويزداد فيه الظالم عُتُوًّا ، لا ننتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جَهِلناه ، ولا نتخوف قارعة[٣] حتى تحُلَّ بنا؛ فالناس على أربعة أصناف : منهم من لا يمنعه من الفساد فى الأرض إلا مَهانَةُ نفسه ، وكَلال حَدّه ، ونَضِيض وَفْره[٤] ومنهم المُصْلِت[٥] لسيفه ، المُجْلِب بخيله ورَجِله ، المعلن بشرّه ، قد أشرط نفسه ، وأوبق دينه ، لحطام ينتهزه[٦] ، أو مِقْنَب[٧] يقوده ، أو مِنبر يفْرَعه[٨] ، ولبئس المتجر أنْ تراها لنفسك ثمنًا ، ومما لك عند الله عوضًا ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ، قد طامَنَ من شخصه ، وقارب من خَطْوه ، وشمّر من ثوبه ، وزخرف نفسه للأمانة ، واتخذ سِتر الله ذريعة للمعصية ، ومنهم من قد أقعده عن طلب الملك ضُئُولة نفسه ، وانقطاع سببه ، فقصرت به الحال عن أمله . فتحلى باسم القناعة . وتزيّن بلباس الزهاد . وليس من ذلك فى مَراح ولا مَغْدَى ، وبقى رجال غَضَّ أبصارَهم ذكرُ المرجع ، وأراق دموعهم خوفُ المَحْشَر ، فهم بين شريد نافر ، وخائف منقمع[٩] ، وساكت مكعوم[١٠] ، وداع مخلص ، ومُوجَع ثَـكْلاَن ، قد أخملتهم التَّقِيَّة[١١] ، وشملتهم الذلّة ، فهم بحر أجاج[١٢] ، أفواههم ضامزة[١٣] ، وقلوبهم قَرِحة ، قدْ وَعَظوا حتى مَلّوا ، وقُهِروا حتى ذَلّوا ، وقتلوا

---

(١) جائر . من عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : إذا مال . (٢) وفى نهج البلاغة : وزمن كنود وهو الكفور . (٣) الداهية التى تقرع أى تصيب . (٤) أى قلة ماله .

(٥) أصلت السيف : سله . (٦) هيأها وأعدها (من الشرط (محركة) وهو العلامة) أى هيأها للفساد فى الأرض . وأوبقه : أهلكه . والحطام : المال . وأصله ما انكسر من اليبيس . (٧) المقنب من الخيل : بين الثلاثين إلى الاربعين أو زهاء ثلثمائة . (٨) يعلوه . (٩) مقهور .

(١٠) من كعم البعير كمنع : شد فاه لئلا يعض أو يأكل ، وفى البيان والتبيين معكوم ، من عكم المتاع يعكمه : شده بثوب . (١١) التقية : المداراة . (١٢) الأجاج : الملح . (١٣) ساكتة من ضمز كنصر وضرب : سكت ولم يتكلم . والبعير أمسك جرته فى فيه ولم يجتر .

حتى قَلّوا ، فلتكن الدنيا فى أعينكم أصغر من حُثَالة القَرَظ(١) وقُرَاضَة الجَلَمين ، واتعظوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم ، فارفضوها ذميمةً فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم » .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤١ : ونهج البلاغة ١ : ٤٠ وإعجاز القرآن ٢١٣)

١٦١ — وصيته لابنه يزيد

لما حضرت معاويةَ الوفاةُ ، ويزيدُ غائبٌ ، دعا معاوية مُسْلِم بن عُقْبَة المرِّيّ ، والضَّحَّاك بن قيس الفِهْرِيّ ، فقال : أبلغا عنى يزيد وقولا له :

« يابنى ، إنى قد كفيتك الشَّدَّ والتَّرْحال ، ووطَّأْت لك الأمور ، وذلّلت لك الأعداء وأخضعت لك رِقابَ العرب ، وجمعت لك مالم يجمعْه أحدٌ ، فانظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك وعِتْرَتك(٢) ، فمن أتاك منهم فأكْرِمْه ، ومن قعد عنك فتعهَّدْه ، وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فإنَّ عَزْلَ عاملٍ أهونُ عليك من سلِّ مائة ألف سيف ، ثم لاتدرى علامَ أنت عليه منهم ؟ ثم انظر أهل الشأم ، فاجعلهم الشِّعار(٣) دون الدِّثَار ، فإن رَابك من عدوك رَيْبٌ ، فارْمِهِمْ(٤) بهمْ ، فإن

---

(١) القرظ : ورق السلم أو ثمر السنط يدبغ به ، والجلم : مقراض يجز به الصوف . والقراضة : مايسقط منه عند الجز .

قال الجاحظ : « وفى هذه الخطبة أبقاك الله ضروب من العجب . منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب الذى من أجله دعاهم معاوية . ومنها أن هذا المذهب — فى تصنيف الناس ، وفى الاخبار عنهم ، وعما هم عليه من القهر والإذلال ، ومن التقية والخوف — أشبه بكلام على وبمعانيه ، وبحاله منه بحال معاوية . ومنها أنا لم نجد معاوية فى حال من الحالات يسلك فى كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد ، وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه ، والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم » .

ونسبها الشريف الرضى إلى الإمام على ، وقال هى من كلامه الذى لا يشك فيه .

(٢) عترة الرجل : عشيرته الأدنون . (٣) الشعار : الثوب يلبس على شعر الجسد ، والدثار : الذى يلبس فوق الشعار . (٤) الضمير للعدو ، وهو للواحد والجمع ، والذكر والأنثى ، وقد يثنى ويجمع ويؤنث .

أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشأم إلى بلادهم ، ولا يُقيموا فى غير بلادهم ، فيتأدبوا بغير أدبهم .

وإنى لست أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن علىّ ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وَقَذَه[1] الورع ، وإذا لم يبق أحدٌ غيرُه بايعك ؛ وأما الحسين بن علىّ فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيَكه الله بمن قتَل أباه وخذل أخاه ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يُخرجوه فإن خرج وظفِرت به ، فاصفح عنه ، فإن له رَحِما[2] ماسّة ، وحقًّا عظيما ، وقرابة من محمد صلوات الله عليه وسلامه ؛ وأما ابن أبى بكر ، فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليست له همةٌ إلا فى النساء واللهو ؛ وأما ابن الزبير ، فإنه خَبٌّ ضَبٌّ[3] ، فإن ظفِرت به فقطِّعْه إرْبًا إرْبًا[4] . « أو قال » وأما الذى يجثِم لك جُثُوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنَته فُرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو وثب عليك ، فظفرت به فقطعهُ إرْبًا إرْبًا ، واحقنْ دماء قومك ما استطعت » .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٦ وتاريخ الطبرى٦ : ١٧٩ ، العقد الفريد ٢ : ١٤١ — ٢٤٩ الفخرى ص ١٠٢)

(١) وقذه : صرعه وغلبه ، وتركه عليلا كأوقذه . (٢) قرابة . (٣) انظر تفسيرها فى صفحة ١٤١ . (٤) أى عضوا عضوا .

خطب يزيد بن معاوية (توفى سنة ٦٤ هـ)

١٦٢ – خطبته بعد موت معاوية

« الحمد لله الذى ما شاء صنع : من شاء أعطى ، ومن شاء منع ، ومن شاء خفَض ومن شاء رفع . إن أمير المؤمنين كان حَبْلا من حبال الله ، مدَّه ما شاء أن يمُدَّه . ثم قطعه حين أراد أن يقطعه ، وكان دون مَنْ قَبْلَه ، وخيرًا ممن يأتى بعده . ولا أزكّيه عند ربه وقد صار إليه . فإن يعفُ فبرحمته . وإن يعاقبه فبذنبه . وقد وَليت بعده الأمر . ولست أعتذر من جهل ، ولا أشتغل[1] بطلب علم ، وعلى رِسْلِكم ، إذا كره الله شيئاً غيَّره ، وإذا أحب شيئاً يسَّره » .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ – ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٨)

١٦٣ – خطبة أخرى له

« الحمد لله أحمده وأستعينهُ ، وأومن به ، وأتوكل عليهِ ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهدِ الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله اصطفاه لوحيه ، واختاره لرسالته ، بكتاب فصَّله وفضَّله ، وأعزه وأكرمهُ ، ونصره وحفِظه ، ضرب فيهِ الأمثال ، وحلل فيهِ الحلال ، وحرّم فيهِ الحرام ، وشرع فيهِ الدين إعذاراً وإنذاراً ، لئلا يكون

---

(١) فى العقد الفريد : ولا آسى على طلب علم ، ولا أنى عن طلب علم .

الناس على الله حجة بعد الرسل ، ويكون بلاغاً لقوم عابدين[1] . أوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذى ابتدأ الأمور بعلمه ، وإليه يصير مَعادها ، وانقطاع مدّتها ، وتصرّم دارها ، ثم إنى أحذركم الدنيا ، فإنها حُلوة خضِرة[2] ، حُفّت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وأينعت بالفانى ، وتحببت بالعاجل ، لايدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجيعتها ، أكّالة غوّالة غرّارة ، لا تبقى على حال ، ولا يبقى لها حال . لن تعدو الدنيا إذا تناهت إلى أمنيّة أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله عزّ وجلّ : (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) نسأل الله ربنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم من فزع يومئذ آمنين ، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ[3] ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) . (العقد الفريد ٢ : ١٤٢)

١٦٤ — خطبة معاوية بن يزيد[4] (توفى سنة ٦٤)

أمر معاوية بن يزيد بن معاوية بعد ولايته ، فنودى بالشأم : الصلاة جامعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد : فإنى قد نظرت فى أمركم فضعُفت عنهُ ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر ابن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة فى الشورى

---

(١) أى همهم العبادة . (٢) ناضرة . (٣) أى عنتكم (مشقتكم) .

(٤) استخلف فى شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، ولم يلبث فى الخلافة إلا ثلاثة أشهر وقيل أربعين يوما .

مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختاروا له من أحببتم ، فما كنت لأتزوَّدَها ميتاً ، وما استمتعت بها حيًّا » .

ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتغيب حتى مات[1] .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٣٤ ، والفخرى ص ١٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٧)

١٦٥ - وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبد العزيز ابنه على مصر ، وقال له حين ودعه :

« أرسل حكيما ولا توصه ، أى بنى انظر إلى عمالك فإن كان لهم عندك حق غُدوةً فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان لهم عشيةً فلا تؤخره إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب ، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستبِن لك فا كتب إلىّ يأتك رأيى فيه إن شاء الله تعالى ، وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سَورة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطفئ الجمرة ، فإن أول من جعل السجن كان حليما ذا أناة ، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك، ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا انقباض ، أقول هذا وأستخلف الله عليك » .

(العقد الفريد ١ : ٤٩)

---

(١) قيل دس إليه فسقى سما ، وقال بعضهم طعن ، وتوفى وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يوما ، وقيل ابن إحدى وعشرين سنة .

خطب عبد الملك بن مروان (توفى سنة ٨٦ هـ)

١٦٦ ــ خطبته بمكة

خطب بمكة فقال فى خطبته :

« أيها الناس : إنى والله ما أنا بالخليفة المستضعَف (يريد عثمان بن عفان) ولا بالخليفة المداهِن (يريد معاوية بن أبى سفيان) ولا بالخليفة المأفون[1] (يريد يزيد بن معاوية) فمن قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا » . ثم نزل[2] .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ و ٢٦٣ والبيان والتبيين ٢ : ٨٥)

١٦٧ ــ خطبة له موجزة

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس إن الله حدّ حدوداً ، وفرض فروضاً ، فما زلتم تزدادون فى الذنب ، ونزداد فى العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف » . (العقد الفريد ٢ : ٢٦٣)

---

(١) المأفون : الضعيف الرأى والعقل . (٢) قال أبو إسحق النظام : « أما والله لولا نسبك من هذا المستضعف وسببك من هذا المداهن لكنت منها أبعد من العيوق (بفتح العين وتشديد الياء نجم أحمر مضىء يتلو الثريا) والله ما أخذتها بوراثة ، ولا سابقة ، ولاقرابة ، ولا بدعوى شورى ، ولا بوصية » .

١٦٨ — خطبته حين قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص [١]

« ارمُوا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجعلوا سَلَفكم لمن غَبَر منكم عظة ، ولا تكونوا أغفالاً [٢] من حسن الاعتبار ، فتنزلَ بكم جائحة [٣] السَّطَوات ، وتجوس خلالكم بوادرُ النَّقِمات ، وتطأ رقابكم بثِقلها العقوبةُ ، فتجعلكم هَمَدًا رُفاتاً [٤] ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتاً ، فإياى من قول قائل ، وَرَشْقة جاهل ، فإنما بينى وبينكم أن أسمع النَّغْوَة [٥] ، فأصمِّم تصميم الحُسَام المطرور [٦] ، وأصول صِيال الحَنِق الموتور [٧] ، وإنما هى المصافحة والمكافحة ، بظُبات السيوف وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم بسوء الصَّباح ، فتاب تائب ، وهَدِل خائب [٨] ، والتوب مقبول ، والإحسان مبذول ،

---

(١) وذلك أنه لما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثانى ، وانحاز الضحاك بن قيس الفهرى عن مروان ابن الحكم ، واستمال الناس ودعا إلى ابن الزبير ، التقى مروان وعمرو بن سعيد الأشدق (وهو عمرو بن سعيد ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) فقال الأشدق لمروان : هل لك فيما أقوله لك ؟ فهو خير لى ولك ، فقال مروان : وماهو ؟ قال : أدعو الناس إليك وآخذها لك على أن تكون لى من بعدك . فقال مروان : لا بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية ، فرضى الأشدق بذلك ودعا الناس إلى بيعة مروان فأجابوا ، وبايع مروان بعده لخالد بن يزيد ، ولعمرو بن سعيد بعد خالد ، ثم مات مروان وخلفه ابنه عبد الملك ، ولما اعتزم عبد الملك أن يخرج إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير بنفسه . قال له عمرو : إنك تخرج إلى العراق ، وقد كان أبوك وعدنى هذا الأمر من بعده ، وعلى ذلك جاهدت معه ، وقد كان من بلائى معه مالم يخف عليك ، فاجعل لى هذا الأمر من بعدك ، فلم يجبه عبد الملك إلى شىء ، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أغلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه ، فرجع إلى دمشق وحاصرها حتى صالح عمرو ابن سعيد على أنه الخليفة بعده ففتح له ، ثم إن عبد الملك احتال له حتى قتله سنة ٦٩ .

(٢) غبر : بقى ، وأغفال جمع غفل كقفل . (٣) الجوح والاجتياح : الإهلاك والاستئصال .

(٤) الهامد : البالى من كل شىء ، والرفات : الحطام . (٥) النغوة والنغمة : أول الخبر قبل أن تستثبته . (٦) المشحوذ ، من الطر : وهو تحديد السكين وغيرها . (٧) صاحب الوتر : وهو الثأر . (٨) هدله يهدله كضربه : أرخاه ، وهدل المشفر كفرح : استرخى أى ضعف الخائب وخار ، ولعله حائب من الحوب بفتح الحاء وضمها وهو الإثم . حاب بكذا أثم حوبا أى ضعف الأثيم المذنب .

لمن عرف رُشده ، وأبصر حظه ، فانظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، وليكن أهل الطاعة يداً على أهل الجهل من سفهائكم ، واستديموا النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ، ونفيس زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجلِ الخَفض والدَّعة ، وآجل الجزاء والمَثُوبة ، عصمكم الله من الشيطان وفتنته ونَزْغه[1] ، وأمدكم بحسن معونته وحفظه ، انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعطياتكم ، غيرَ مقطوعةٍ عنكم ، ولا مكدَّرة عليكم » .

(صبح الأعشى ١ : ٢١٨)

١٦٩ — خطبته لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير[2]

لما قتل عبد الملك مُصْعَب بن الزبير سنة ٧١ هـ دخل الكوفة فصعِد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أيها الناس إن الحرب صعبة مُرّة ، وإن السِّلمَ أمْنٌ ومَسَرّة ، وقد زَبَنَتنا الحرب وزَبَنَّاها[3] فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهي أمُّنا . أيها الناس فاستقيموا على سُبُل الهدى ، ودَعُوا الأهواء المُرْدية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شرًّا ، ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجةِ عليكم إلا عقوبةً ، فمن شاء منكم أن يعود بعدُ لمثلها فليَعُدْ ، فإنما مَثَلي ومثلكم كما قال قيس بن رِفاعة الأنصاري :

من يَصْلَ ناري بلا ذنب ولا تِرَةٍ … يَصْلَ بنار كريمٍ غير غدّار[4]

أنا النذير لكم مني مجاهَرَةً … كي لا أُلَامَ على نهي وإنذار

---

(١) نزغ بينهم : أفسد وأغرى . (٢) نسب القلقشندي هذه الخطبة إلى معاوية وذكر أنه خطبها بصفين (صبح الأعشى ١ : ٢١٥) وعزاها القالي في الأمالي إلى عبد الملك بن مروان وهو ما نرجحه لما يدل عليه سياق الخطبة . (٣) أي دفعتنا ودفعناها ، والزبن : الدفع ، ومنه اشتقاق الزبانية (جمع زبنية أو زبني بكسر الزاي وسكون الباء) لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار ومنه أيضا حرب زبون بفتح الزاي .

(٤) الترة والوتر : الثأر .

فإن عَصَيْتم مَقَالى اليوم فاعترفوا ... أنْ سوف تلقون خِزْيًا ظاهر العار
لتَرْجِعُنّ أحاديثا مُلَعّنَـــــــة ... لَهْوَ المقيم ولهو المُدْلج السّارِى[1]
من كان فى نفسه حَوْجاء يطلبها ... عندى فإنى له رَهْن بإصحار[2]
أُقيم عَوْجته إن كان ذا عِوَج ... كما يقوّم قِدْحَ النّبْعَة البارى[3]
وصاحب الوِتْر ليسَ الدهرَ مدركَه ... عنـــــدى ، وإنى لدرّاك بأوتار

(الأمالى ١ : ١٢)

١٧٠ — خطبته عام حجه

وحج عبد الملك فى بعض أعوامه ، فأمر للناس بالعطاء ، فخرجت بَدْرة[4] مكتوب عليها من الصدقة ، فأبى أهل المدينة قبولها ، وقالوا : إنما كان عطاؤنا من الفىء ، فقال عبد الملك وهو على المنبر :

« يا معشر قريش ، مَثَلنا ومثلـكم أن أخوين فى الجاهلية خرجا مسافرين ، فنزلا فى ظل شجرة تحت صَفَاة[5] ، فلما دنا الرّواح خرجت إليهما من تحت الصفاة حية تحمل دينارًا ، فألقته إليهما ، فقالا : إن هذا لَمِن كَنْز ، فأقاما عليها ثلاثة أيام ، كل يوم تخرج إليهما دينارًا ، فقال أحدهما لصاحبه : إلى متى ننتظر هذه الحية ؟ ألاَ نقتلها ونَحفِر هذا الـكنز فنأخذه ، فنهاه أخوه ، وقال : ما تدرى لعلك تَعْطَب ولا تدرك المـال ، فأبى عليه

---

(١) أدلج : سار من أول الليل ، فان سار من آخره فقد ادلج بالتشديد ، والسارى : الذى يسير بالليل .

(٢) الحوجاء : الحاجة . وقوله باصحار : أى لا أستتر عنه ، ولا أمتنع فى الأماكن الحصينة ، من أصحر القوم : برزوا إلى الصحراء . (٣) العوج بالفتح فى كل ما كان منتصبا مثل الإنسان والعصا والعود وشبهه ، والعوج بالـكسر : ما كان فى بساط أو أرض أو معاش أو دين ، قيل بالفتح مصدر وبالـكسر اسم منه ، والقدح : السهم قبل أن يراش وينصل جمعه قداح ، والنبعة واحدة النبع وهو شجر القسى والسهام .

(٤) البدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار . (٥) الصفاة : الحجر الصلد الضخم .

وأخذ فأسًا معه ، ورصد الحية حتى خرجت ، فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها . فثارت الحية فقتلتهُ . ورجعت إلى جحرها . فقام أخوه فدفنه وأقام حتى إذا كان من الغد خرجت الحية معصوبًا رأسُها ، ليس معها شيء . فقال لها : ياهذه إنى والله ما رضيت ما أصابك ، ولقد نهيت أخى عن ذلك ، فهل لكِ أن نجعل الله بيننا أن لا تضرينى ولا أضرك وترجعين إلى ما كنت عليه ؟ قالت الحية : لا ، قال : ولم ذلك ؟ قالت : إنى لأعلم أن نفسك لاتطيب لى أبداً وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسى لاتطيب لك أبدًا وأنا أذكر هذه الشَّجَّة[1] ، وأنشدهم شعر النابغة :

فقالت أرى قبرًا تراه مُقابلى   وضَرْبَةَ فأس فوق رأسىَ فاغره

فيامعشر قريش وَليكم عمر بن الخطاب ، فكان فظًا غليظًا مضيّقًا عليكم ، فسمِعتم له وأطعتم ، ثم وليكم عثمان فكان سهلا ، فعَدَوتم عليه فقتلتموه ، وبعثنا عليكم « مُسلمًا »[2] يوم الحرّة فقتلناكم ، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبدًا ، وأنتم تذكرون يوم الحرّة ، ونحن لا نحبكم أبدًا ونحن نذكر قتل عثمان » .

(مروج الذهب ٢ : ١٢٩)

١٧١ — خطبته وقد علم بخروج ابن الأشعث

ولما ورد إليه كتاب الحجاج ينبئهُ بخروج ابن الأشعث خرج إلى الناس فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

---

(١) راجع مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ٦١ فى المثل : « كيف أعاودك وهذا أثر فاسك » .

(٢) هو مسلم بن عقبة المرى صاحب وقعة الحرة . وذلك أن أهل المدينة كانوا كرهوا خلافة يزيد ابن معاوية وخلعوه وحصروا من كان بها من بنى أمية وأخافوهم ، فوجه إليها مسلم بن عقبة فحاصرها من جهة الحرة ، « موضع بظاهر المدينة » ودخلها ، ودعا الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم ماشاء ، وقد أباح المدينة ثلاثا : فقتل ، ونهب ، وسبى قيل إن الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان إذا زوج ابنته لايضمن بكارتها ، ويقول لعلها افتضت فى وقعة الحرة . « وكانت فى ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ » .

« إن أهل العراق طال عليهم عمرى ، فاستعجلوا قَدَرى ، اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشأم حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك » ثم نزل .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

١٧٢ — وصيته لبعض أمرائه

وأوصى عبد الملك أميرًا سيَّره إلى أرض الروم ، فقال :

« أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارِب الكيِّس الذى إن وجد ربحًا اتَّجر ، وإلاّ تحفظ برأْس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تُحْرِز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك أشدَّ حذرًا من احتيال عدوك عليك » . (العقد الفريد ١ : ٤١)

١٧٣ — وصيتـــه للشَّعْبى

وروى المسعودى فى مروج الذهب قال :

ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، تاقت نفسهُ إلى محادثة الرجال والأشراف فى أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمنادمته غير الشَّعْبىّ ، فلما حُمِل إليه وَنادمهُ ، قال له :

« يا شَعْبىُّ ، لا تساعِدْنى على ما قَبُح ، وَلا تَرُدَّ علىَّ الخطأ فى مجلسى ، وَلا تكلِّفنى جوابَ التشميت[1] والتهنئة ، وَلا جوابَ السؤال والتعزية ، ودع عنك (كيف أصبح الأمير ، وكيف أمسى) . وكلمنى بقدر ما أستَطْعِمُك ، واجعل بدل المدح لى صوابَ الاستماع منى ، واعلم أنَّ صوابَ الاستماع أكثر من صواب القول ، وإذا سَمِعْتَنى أتحدث فلا يفوتنَّك منهُ شىء ، وأرِنى فهمك من طَرْفك وسَمْعك ، ولا تُجْهِد نفسك فى نَظَرِ[2]

(١) التشميت : الدعاء للعاطس . (٢) فى الأصل « فى نظرية صوابى » وأراه محرفا ، والنظر : الانتظار .

صوابى . ولا تستدع بذلك الزيادة فى كلامى ، فإن أسوأ الناس حالا من استكدّ الملوك بالباطل ، وإن أسوأ الناس حالا منهم من استخف بحقهم ، واعلم يا شعبى أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان ، ويُسقط حق الحرمة . فإن الصمت فى موضعه ربما كان أبلغ من النطق فى موضعه وعند إصابته وفرصته » .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٩)

١٧٤ — وصيته لأخيه عبد العزيز بن مروان

وأوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز حين ولاه مصر فقال :

« ابسُط بِشْرَك ، وألِن كنفَكَ . وآثِر الرفق فى الأمور ، فإنه أبلغ بك . وانظر حاجبك ، فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يَقِفَن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه ، لتكون أنت الذى تأذن له أو تَرُده ، وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام ، يأنسوا بك ، وتثْبُت فى قلوبهم محبتك ، وإذا انتهى إليك مُشْكِل ، فاستظهر عليه بالمشاورة ، فإنها تفتح مغاليق[1] الأمور ، وإذا سخِطت على أحد فأخِّر عقوبته ، فإنك على العقوبة بعد التوقف عنه أقدرُ منك على ردِّها بعد إمضائها » .

(الفخرى : ١١٣)

١٧٥ — وصيته لولده عند وفاته

نظر عبد الملك إلى ابنه الوليد وهو يبكى عليه عند رأسه ، فقال :

« يا هذا أحَنين الحمامة ؟ إذا أنا مِتُّ فشمِّر واتَّزِر ، والبَسْ جلد نَمِر ، وضع سيفك على عاتِقك ، فمن أبدى ذات نفسه لك ، فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائِه ،

---

(١) جمع مغلاق بكسر الميم : وهو ما يغلق به الباب .

ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا ، فقال : « إن طويلكِ لقصير ، وإن كثيرك لقليل ، وإن كنا منك لفى غرور » . ثم أقبل على جميع ولده فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجُنَّة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل فى المعاد ، وهى أحصن كهف ، وليَعْطِف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذِ بجميل الأمور . وإياكم والبغىَ والتحاسد ، فيهما هلك الملوك الماضون ، وذوو العز المكين يا بَنِىّ : أخوكم مَسْلمة نابكم الذى تَفِرُّون[1] عنه ، ومِجَنُّكم[2] الذى تستجنُّون به ، اصدُرُوا عن رأيه ، وأكرموا الحجّاج فإنه الذى وطّأ لكم هذا الأمر ، كونوا أولادا أبراراً ، وفى الحروب أحرارًا ، وللمعروف مَنارًا ، وعليكم السلام » .

(مروج الذهب ٢ : ١٥٤)

١٧٦ — خطبة للوليد بن عبد الملك بعد دفن أبيه (توفى سنة ٩٦ هـ)

لما رجع الوليد من دفن عبد الملك لم يدخل منزله حتى دخل المسجد ، ونادى فى الناس الصلاة جامعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس إنه لامؤخِّر لما قدَّم الله، ولا مقدِّم لما أخر الله ، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ، وما كتب على أنبيائه ، وحَمَلة عرشه من الموت موتُ ولىّ هذه الأمة ، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار ، الذى كان عليه من الشدة على المُرِيب ، واللين على أهل الفضل والدين ، مع ما أقام من مَنار الإسلام وأعلامه ، وحجِّ هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ، وشنِّ الغارات على أعداء الله فلم يكن فيها عاجزًا . ولا وانيًا ، ولا مفرِّطًا ، فعليكم أيها الناس بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، فإن الشيطان مع الفذِّ ، وهو من الجماعة أبعد ، واعلموا أنه من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه » . ثم نزل .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ٥٩)

---

(١) فرّ الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ماسنها . (٢) المجن : الترس .

١٧٧ — خطبة لسليمان بن عبد الملك (توفى سنة ٩٩ هـ)

« الحمد لله . ألاَ إن الدنيا دار غُرُور ، ومنزلُ باطل ، تُضْحك باكيًا ، وتُبكى ضاحكا ، وتخيف آمنًا ، وتُؤْمن خائفًا ، وتُفقر مثريا ، وتُثْرى مُقْترا[1] مَيَّالة غَرَّارة ، لَعَّابة بأهلها . عباد الله ، فاتخذوا كتاب الله إمامًا ، وارتضُوا به حَكَمًا ، واجعلوه لكم قائداً ، فإنه ناسخ لما كان قبله ، ولم يَنْسَخه كتاب بعده . واعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان ، كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس ظلامَ الليل إذا عَسْعَس[2] » .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٣ ؛ وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٦)

---

(١) من أقتر ، أى افتقر . (٢) تنفس الصبح : أسفر ، وعسعس الليل : أقبل ظلامه (أو أدبر) .

خطب عمر بن عبد العزيز (توفى سنة ١٠١ هـ)

١٧٨ – أولى خطبه

قال العُتْبِيّ : أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله :

« أيها الناس ، أصلِحوا سرائركم ، تَصْلُح لكم علانيتكم ، وأصلحوا آخرتكم ، تصلح دنياكم ، وإن امرأً ليس بينه وبين آدم أب حى لمُعْرِق فى الموت » .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢١٧)

١٧٩ – خطبة له بالمدينة

وفى سنة ٨٧ هـ ولّى الوليد عمر بن عبد العزيز المدينة فلما قدمها صلى الظهر ودعا عشرة من فقهائها ، فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« إنى إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأى من حضر منكم ، فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم عن عامل لى ظُلامة فأَحَرِّج[1] الله على من بلغه ذلك إلا بلّغنى » .

فخرجوا يجزونه خيرا .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٦١)

---

(١) التحريج : التضييق ، أى فأشدد عليه بالله .

١٨٠ - خطبة أخرى

وروى المسعودى فى مروج الذهب ، أنه لما أفضى إليه الأمر ، كان أول خطبة خطب الناس بها أن قال :

« أيها الناس ، إنما نحن من أصول قد مضت فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ وإنما الناس فى هذه الدنيا أغراض تنتضِل[1] فيهم المنايا ، وهم فيها نُصْب المصائب ، مع كل جَرْعة شَرَق[2] ، وفى كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يُعَمَّر مُعَمَّر منكم يوماً من عمره إلا بِهَدْم آخر من أجله » .

وأورد القالى فى الأمالى هذه الخطبة بصورة أطول ، وهى :

« ما الجَزَع مما لابُدَّ منه ، وما الطمع فيما لا يُرْجَى ، وما الحيلة فيما سيزول ؟ وإنما الشىء من أصله ، فقد مَضَت قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ إنما الناس فى الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نَهْب المصائب ، مع كل جَرْعة شَرَق ، وفى كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمَّر مُعمَّر يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، وأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم ، فأين المَهْرَب مما هو كائن ؟ وإنما نتقلب فى قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبةَ اليوم ، مع عظيم الفائدة غداً ، وأكبر خيبةَ الخائب فيه ، والسلام » .

(مروج الذهب ٢ : ١٦٨ ، والأمالى ٢ : ١٠٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢١٣)

---

(١) جمع غرض : وهو الهدف ، وانتضلت : تناضلت وتبارت فى الرمى .

(٢) شرق بريقه : غص .

١٨١ - خطبة أخرى

وروى أنه لما دَفَن سليمانَ بن عبد الملك ، وخرج من قبره ، سَمع للأرض رَجَّة ، فقال : ما هذه ؟ فقيل : هذه مَرَاكبُ الخلافة يا أمير المؤمنين ، قُرِّبت إليك لتركبها ، فقال : مَالي ولَها ؟ نحُّوها عنى ، قرِّبُوا إلىَّ بغلتى ، فقربت إليه فركبها . وجاءه صاحب الشُّرْطة يسير بين يديه بالحَرْبة ، فقال : تنحَّ عنى ، مالى ولك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين ، فسار وسار معه الناس ، حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فقال :

« أيها الناس : إنى قد ابتُليتُ بهذا الأمر عن غير رأىٍ كان منى فيه ، ولا طِلبة له ، ولا مَشُورة من المسلمين ، وإنى قد خلعت مافى أعناقكم من بَيْعتى ، فاختاروا لأنفسكم » .

فصاح الناس صيحةً واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضِينا بك ، فَلِ أمرَنا باليُمْن والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأتْ ، ورضى به الناس جميعًا ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خَلَفٌ من كل شىء ، وليس من تقوى الله عزَّ وجلَّ خَلَفٌ ، واعملوا لآخرتكم ، فإنهُ مَن عَمِلَ لآخرتِه كفاه الله تبارك وتعالى أمرَ دنياه وأصلِحُوا سرائرَكم ، يُصْلح الله الكريم عَلاَنيتكم ، وأكثِروا ذكرَ الموت وأحسِنوا الاستعدادَ قبل أن ينزل بكم ، فإنهُ هادِمُ اللذات ، وإن من لايذكر من آبائِه فيما بينهُ وبين آدم عليه السلام أبًا حَيًّا لمُعْرِق فى الموت ، وإن هذه الأمة لم تختلف فى ربها عزَّ وجلَّ ، ولا فى نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا فى كتابها ، وإنما اختلفوا فى الدينار والدرهم ، وإنى والله لا أُعْطِى أحدًا باطلا ، ولا أمنع أحدًا حقًّا ، إنى لست

بخازن ، ولكنى أضع حيث أُمِرْتُ . أيها الناس : إنهُ قد كان قبلى ولاة تَجْتَرُّون[1] مودتهم ، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعتهُ ، ومن عَصَى الله فلا طاعة له ، أطيعونى ما أطعْتُ الله فيكم ، فإذا عصَيْت الله فلا طاعةَ لى عليكم . أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٥٣ — ٢٠١ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٩)

١٨٢ — خطبة أخرى

وروى أنه لما ولى الخلافة صعِد المنبر ، وكان أول خطبة خطبها : حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يأيها الناس مَن صَحِبنا فَلْيَصْحَبْنَا بخَمْس ، وإلا فلا يَقْرَبْنا : يرفع إلينا حاجة مَنْ لايستطيع رَفْعَها ، ويُعيننا على الخير بجهده ، ويدلّنا من الخير على مالا نَهتدى إليه ، ولا يغتابَنَّ عندنا الرعيةَ ، ولا يعترض فيما لا يَعنيه » .

فانقشع عنه الشعراء والخطباء ، وثبت الفقهاء والزُّهاد ، وقالوا : ما يسعُنا أن نفارق هذا الرجل ، حتى يخالف قولُه فعلَه .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٦)

١٨٣ — خطبة أخرى

وصعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم صلى الله عليه وسلم نبى ، وليس بعد الكتاب الذى أنزِل عليه كتاب ، فما أحلّ الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة

(١) تجتذبون .

وما حرّم اللهُ عَلَى لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا إنى لست بقاضٍ ، ولكنى منفّذ لله ، ولست بمبتدِع ، ولكنى متّبِع ، ألا إنه ليس لأحد أن يُطاعَ في معصية الله عز وجل ، ألا إنى لست بخيركم ، وإنما أنا رجل منكم ، غير أن الله جعلنى أثقلَكم حِمْلاً . يأيها الناس : إن أفضل العبادة أداء الفرائض ، واجتناب المحارم . أقول قولى هذا، وأستغفر الله العظيم لى ولكم » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٥٦ ، وص ١٩٨ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٨)

١٨٤ — خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، إنكم ميتون ، ثم إنكم مبعوثون ، ثم إنكم محاسَبون ، فلعمرى لئن كنتم صادقين لقد قصَّرتم ، ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم . يأيها الناس ، إنه من يقدَّر له رزق برأس جبل ، أو بحَضِيض أرض يأته ، فأجمِلوا فى الطلب » :

(إعجاز القرآن ص ١٢٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٨)

١٨٥ — خطبة أخرى

وخطب فقال :

« إن الدنيا ليست بدار قرار ، دارٌ كَتَبَ الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظَّعَن ، فكم عامرٍ مُوَثَّق عما قليل يَخْرَب ، وكم مُقيمٍ مُغْتَبِط عما قليل يظعَن ، فأحسِنوا رحمكم الله منها الرِّحْلة، بأحسن مايحضُركم من النُّقْلة : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . إنما الدنيا كفَىْءِ ظِلَالٍ قَلَص[1] فذهب ، بينا ابنُ آدم فى الدُّنيا منافِس ، وبها قريرُ عَين ،

---

(١) الفىء : ما كان شمسا فينسخه الظل ، وقلص الظل كضرب : انقبض .

إذ دعاه الله بقَدَره ورماه بيوم حَتْفِهِ ، فسَلَبه آثاره ودياره ودنياه ، وصيّر لقوم آخَرين مَصانعه ومَغْناه[1] ، إن الدنيا لاتسرّ بقدر ماتضُرّ ، إنها تسُرّ قليلا ، وتجرّ حزنا طويلا » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ١٩٧ وص ٢٢١)

١٨٦ — خطبة له يوم عيد

وخطب يوم عيد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله عزّ وجلّ ثم قال :

« يأيها الناس ، إنى وجدت هـذا القلب لايعبّر عنهُ إلا اللسان ، وَلَعَمْرِى — وإن لِعمرى منى لحقًّا[2] — لوَدِدْت أنه ليس من الناس عبد ابْتُلِىَ بِسَعَةٍ ، إلا نظرَ قَطِيعاً من ماله ، يجعله فى الفقراء والمساكين ، واليتامى والأرامل ، بدأت أنا بنفسى وأهل بيتى ، ثم كان الناس بعدُ » .

ثم كان آخر كلمة تـكلم بها حين نزل : « لولا سُنَّة أحييتُها ، أو بِدعة أمتُّها ، لم أبالِ أن لا أبقى فى الدنيا إلا فُوَاقًا[3] » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢٠١)

١٨٧ — خطبة له

وخطب فقال :

« أما بعد : أيها الناس ، فلا يَطُولَنّ عليكم الأمَدُ ، ولا يبعُدنّ عنكم يومُ القيامة ، فإن من زافت[4] به منيّتُه ، فقد قامت قيامته ، لايَسْتَعْتِبُ من سَيِّئٍ ، ولا يَزِيد فى حَسَن ،

(١) المصانع : المبانى من القصور والحصون ، والمغنى : المنزل . (٢) العمر بالفتح والضم : الحياة ، والتزموا المفتوح فى القسم خاصة تخفيفا ، لـكثرة استعماله فيه . (٣) الفواق كغراب ويفتح : مابين الحلبتين من الوقت ، أو مابين فتح يدك وقبضها على الضرع . (٤) من زافت الحمامة : إذا نشرت جناحيها وذنبها وسحبتها على الأرض ، وفى رواية : « وافته » .

ألا لا سلامةَ لامرئٍ فى خِلاف السُّنة ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الله ، ألا وإنكم تَعُدُّون الهارب مِنْ ظُلْم إمامه عاصياً ، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم ، ألا وإنى أعالج أمراً لايُعين عليه إلا اللهُ ، قد فنِى عليه الكبير ، وكَبُر عليه الصغير ، وفَصُح عليه الأعجمىّ ، وهاجر عليه الأعرابىّ ، حتى حسِبوه دِيناً ، لايَرَون الحقَّ غيرَه » . ثم قال :

« إنه لَحَبيبٌ إلى أن أوفِّر أموالكم وأعراضكم إلاَّ بحقِّها ، ولا قوّة إلا بالله » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٤٠ ، ولابن الجوزى ص ٢٠٤)

١٨٨ — خطبة أخرى

وصعد ذات يوم المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنما يُراد الطبيبُ للوَجع الشديد ، ألا فلا وجَعَ أشَدُّ من الجهل ، ولا داءَ أخبثُ من الذنوب ، ولا خوفَ أخوفُ من الموت » . ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢٠٧)

١٨٩ — خطبة أخرى

وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطَونا عَطايا[1] ، واللهِ ما كان لهم أن يُعطُوناها ، وما كان لنا أن نقبَلَها ، وإن ذلك قد صار إلىَّ ، ليس علىَّ فيه دون الله محاسِبٌ ، ألا وإنى قد رَدَدْتها ، وبدأت بنفسى وأهل بيتى » اقرأ يا مُزاحم — وكان مولاه —

وقد جىء قبل ذلك بسَفَط فيه تلك الكتب ، فقرأ مزاحم كتاباً منها ، ثم ناوله

---

(١) يريد آباءه وما ورثوه إياه .

عمر ، وهو قاعد على المنبر وفى يده جَلَمٌ[1] ، فجعل يقُصّه ، واستأنف مزاحم كتاباً آخر فقرأه ، ثم دفعه إلى عمر فقصهُ ، فما زال حتى نُودى بصلاة الظهر .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٨)

١٩٠ — خطبة له

وكان يخطب فيقول :

«أيها الناس: من ألَمّ بذنب فلْيَسْتَغفر الله عز وجل وليتب، فإن عاد فليستغفر وليتب، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإنما هى خطايا مطوّقة فى أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرارُ عليها » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٨)

١٩١ — خطبة له

وخطب الناس بعد أن جمعهم فقال :

« إنى لم أجمعكم لأمرٍ أحدثته ، ولكنى نظرت فى أمر مَعادكم ، وما أنتم إليه صائرون ، فوجدت المصدِّقَ به أحقَ[2] ، والمكذِّب به هالكا » ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ص ٣٩)

١٩٢ — خطبة له

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لاتستصغِروا الذنوب ، والتمسوا تمحيصَ ما سَلَفَ منها بالتوبة منها إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ . وقال عزَّ وجلَّ: « وَالَّذِينَ

---

(١) مقص . (٢) أى أحق بثواب الله ونعيم جنته .

إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

١٩٣ — خطبة له

وخطب فقال :

« إن لكل سَفَر زاداً لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فرَغِبوا وَرَهِبوا ، ولا يطولَنَّ عليكم الأمَد ، فتقْسُوَ قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله ما بُسِط أمل من لايدرى لعله لايُصبح بعد إمسائه ، ولا يُمْسِى بعد إصباحه ، وربما كانت بين ذلك خَطَفات المنايا ، فكم رأينا ورأيتم مَن كان بالدنيا مغترًّا ، فأصبح فى حبائل خطوبها ومناياها أسيراً، وإنما تقرُّ عين[1] من وَثق بالنجاة من عذاب الله، وإنما يفرح مَن أمِن من أهوال يوم القيامة، فأما من لايبرأ من كَلْم إلا أصابه جارح من ناحية أخرى ، فكيف يفرح ؟ أعوذ بالله أن آمُرَكم بما أنهى عنه نفسى ، فتَخْسَرَ صَفْقتى ، وتظهَر عورتى ، وتبدوَ مَسْكنتى ، فى يوم يبدو فيه الغنى والفقير ، والموازين منصوبة ، والجوارح ناطقة ، فلقد عُنيتم بأمر لو عُنِيَت به النجوم لانكدرت ، ولو عنيت به الجبال لذابت ، أو الأرض لانفطرت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرون إلى إحداهما ؟ » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٦)

---

(١) قرت عينه : بردت وانقطع بكاؤها ، أو رأت ما كانت متشوفة إليه .

١٩٤ — خطبة له

وروى أنه قال :

« من وصل أخاه بنصيحة له فى دينه ، ونظر له فى صلاح دنياه ، فقد أحسن صِلَتَه ، وأدّى واجب حقه ، فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم فى دينكم ، فاقبلوها ، وموعظة مُنْجِيَة فى العواقب ، فالزَموها ، الرزق مقسوم ، فلن يعْدو[1] المؤمنَ ما قُسِم له ، فأجْمِلوا فى الطلب ، فإن فى القُنوع[2] سَعَةً وبُلْغة ، وكَفافاً ، إن أجل الدنيا فى أعناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى فكأنْ لم يكن وكلٌّ أمواتٌ عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت وهو يَسُوق[3] ، وبعد فراغه وقد ذاق الموت ، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله ، وعاينتم تعجيل إخراجه ، وقِسْمة تُرَاثه ، ووجهه مفقود ، وذكره مَنسِىّ ، وبابه مهجور كأن لم يخالط إخوان الحفاظ[4] ، ولم يَعْمُر الديار ، فاتقوا هول يوم لا يُحقر فيه مثقال ذرة فى الموازين » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٤٠ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٢٠٥)

١٩٥ — خطبة له

وقال : « من عمِل على غير علم كان ما يُفْسد أكثر مما يُصْلح ، ومن لم يَعُدَّ كلامه من عمله كثُرت ذنوبه ، والرضا قليل ، ومُعَوَّل المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منهُ ، فأعاضهُ مما انتزع منهُ الصبر ، إلا كان ما أعاضهُ خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٤١ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢١٣)

---

(١) وفى رواية : « فلن يغدر » ، أغدره وغادره : تركه . (٢) القنوع : الرضا بالقسم (وهو أيضا السؤال والتذلل) . (٣) ساق المريض : شرع فى نزع الروح .
(٤) أى المحافظة على وده .

١٩٦ — خطبة له

وحدّث شبيب بن شَيْبة ، عن أبي عبد الملك قال : كنت من حرس الخلفاء قبل عمر ، فكنا نقوم لهم ، ونبدؤهم بالسلام ، فخرج علينا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فى يوم عيد ، وعليه قميص كَتّان ، وعِمامة على قلنسُوَة لاطِئة[1] ، فمَثَلنا بين يديه ، وسلمنا عليه ، فقال : مَهْ أنتم جماعة وَأنا وَاحد ، السلام علىّ ، وَالرد عليكم ، وَسلم فرددنا ، وَقُرِّبت له دابته فأعرض عنها ، ومشى ومشينا ، حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« وَدِدتُ أن أغنياء الناس اجتمعوا ، فردوا على فقرائهم ، حتى نستوى نحن بهم ، وأكون أنا أولهم » ، ثم قال : « مالى وللدنيا ؟ أم مالى ولها ؟ وتكلم فأرقّ : حتى بكى الناس جميعاً ، يميناً وشمالا » ، ثم قطع كلامهُ ونزل ، فدنا منهُ رجاء بن حَيْوة ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، كلمت الناس بما أرَقّ قلوبهم وأبكاهم ، ثم قطعته أحوجَ ما كانوا إليه ، فقال : يا رجاء إنى أكره المباهاة » . (العقد الفريد ٢ : ١٤٣)

١٩٧ — آخر خطبة له

وخطب بخُناصِرة[2] خطبة لم يخطب بعدها حتى مات ! رحمهُ الله تعالى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنكم لم تُخلَقوا عَبَثاً ، ولم تُترَكوا سُدًى ، وإن لكم مَعَاداً يحكم الله فيه بينكم ، فخاب وخسِر من خرج من رحمة الله التى وسِعَت كل شىء ، وَحُرِم الجنة التى عَرْضُها السمواتُ والأرض ، واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف ربه ، وباع قليلا بكثير

---

(١) لاطئة : لازقة . (٢) خناصرة : بلد بالشأم من عمل حلب .

وفانياً بباق ، ألا تَرَون أنـكم فى أسلاب[1] المالـكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُرَدُّوا إلى خير الوارثين ، ثم أنتم فى كل يوم تشيِّعون غاديًا ورائحًا إلى الله ، قد قضى نَحْبه[2] وبلغ أجله ، ثم تغيِّبونه فى صَدْع[3] من الأرض، ثم تَدَعُونه غير مُوَسَّد ولا مُمَهَّد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وَوَاجه الحساب ، مرتَهَنًا بعمله ، غنيا عما ترك ، فقيراً إلى ما قدَّم ، وايمُ الله إنى لأقول لـكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منـكم من الذنوب أكثر مما عندى ، فأستغفر الله لى ولـكم ، وما تبلُغنا عن أحد منـكم حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سَدَدْناها ، ولا أحد منـكم إلا وددت أن يده مع يدى ، ولُحْمَتى[4] الذين يَلُونَنى ، حتى يستوى عيشنا وعيشـكم ، وايم الله إنى لو أردت غير هذا من عيش أو غَضارة[5] لـكان اللسان منى ناطقًا ذلولا ، عالما بأسبابه ، لـكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته » ، ثم بكى ، فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه ، ثم نزل ، فلم يُرَ على تلك الأعواد حتى قبضه الله .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ١٤٠ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والأغانى ٨ : ١٥٢ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٦ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢٢٢ ، ولابن عبد الحكم ص ٤١ و ١٣٦)

١٩٨ — خطبة أخرى

ورُوى أن آخر خطبة خطبها رحمه الله : حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس . الحَقُوا ببلادكم ، فإنى أنساكم عندى ، وأذكركم ببلادكم ، ألا وإنى قد استعملت عليكم رجالا ، لا أقولُ هُم خِيَارُكم ، ولـكنهم خير ممن هم شَرٌّ منهم ، ألا فمن ظلمه عامِلُهُ بِمَظْلِمةٍ فلا إذْنَ له علىَّ[6] ، ألا وإنى مَنَعتُ نفسى وأهل بيتى هذا

---

(١) جمع سلب بالتحريك : وهو مايسلب . (٢) النحب : الأجل ، والحاجة ، والنذر .

(٣) شق . (٤) اللحمة : القرابة . (٥) الغضـارة : النعمة ، والسعة ، والخصب .

(٦) أى يدخل على بلا إذن ، لا يحول بينى وبينه حاجب .

المالَ ، فإن ضَنِنْتُ به عليكم إنى إذن لضنين ، والله لولا أن أُنْعَش[1] سُنَّة ، أو أسير بحق ، ما أحببت أن أعيش فَوَاقًا » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢١٠ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٩)

١٩٩ — كلامه فى مرضه الذى مات فيه

ودخل عليه مَسْلَمة بن عبد الملك فى المَرْضَة التى مات فيها ، فقال له : يا أمير المؤمنين « إنك فطمْت أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عالة[2] ، ولا بد من شىء يصلحهم ، فلو أوصيتَ بهم إلىّ أو إلى نُظرائك من أهل بيتك ، لكفيتُك مَئونتهم إن شاء الله » فقال عمر : أجلسونى . فأجلسوه ، فقال :

« الحمد لله ، أبالله تخوّفنى يا مَسلمة ! أما ما ذكرتَ من أنى فطمت أفواه ولدى عن هذا المال ، وتركتهم عالة ، فإنى لم أمنعهم حقًّا هو لهم ، ولم أُعطهم حقًّا هو لغيرهم ؛ وأما ما سألت من الوَصَاة إليك ، أو إلى نظرائك من أهل بيتى ، فإن وصيتى بهم إلى الله الذى نزّل الكتاب ، وهو يتولّى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله ، فجعل اللهُ له من أمره يُسْرًا ، وَرَزَقَهُ من حيثُ لايَحْتَسِب . ورجل غَيَّرَ وَفَجَرَ ، فلا يكون عمرُ أولَ من أعانه على ارتكابه ، ادعُوا لى بَنِيَّ ، فدعَوهم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلاما ، فجعل يصعِّد بصره فيهم ويصوِّبه ، حتى اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال : « بنفسى فِتية تركتهم ولا مالَ لهم ! يا بنيّ : إنى قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لاتمُرون على مسلم ولا مُعاهَد إلا ولكم عليه حقٌّ واجب إن شاء الله ، يا بنى مَيَّلتُ[3] رأيى بين أن تفتقروا فى الدنيا ، وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان

---

(١) نعشه كنع وأنعشه : رفعه . (٢) فقراء جمع عائل من عال يعيل عيلة (بفتح العين) أى افتقر .

(٣) التمييل بين الشيئين كالترجيح بينهما ، تقول العرب : إنى لأميل بين ذينك الأمرين ، وأمايل بينهما أيهما آتى .

أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً فى النار ، قوموا يا َبنِيَّ عَصَمَكم الله ورزقكم » . قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

(العقد الفريد ٢ : ٢٨٠ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢٨٠)

٢٠٠ — مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شَوْذَبُ الخارجىّ — واسمهُ بِسْطام من بنى يشكر — فكتب إليه عمر بن عبدالعزيز : بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولرسوله، ولستَ أَوْلَى بذلك منى فهَلُمَّ إلىَّ أُنَاظِرْكَ ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان فى يدك ، نظرنا فى أمرك ، فكتب بسْطام إلى عمر : قد أنصفتَ ، وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبنى شَيبان حَبَشِيًّا اسمهُ عاصم ، ورجلا من بنى يَشْكُر ، فقدِما على عمر بخُنَاصِرَة ، فأُخْبِر بمكانهما ، فقال : فتِّشوهما لا يكن معهما حديد وأدخلوهما ، فلما دخلا قالا : السلام عليك ثم جلسا ، فقال لهما عمر : أخبرانى ما الذى أخرجكم مُخْرَجَكم هذا ؟ وما نقمتم علينا ؟ فقال عاصم : ما نقمنا سيرتك ، إنك لتتحرَّى العدل والإحسان ، فأخبرْنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس ومَشورة ، أم ابتززتم أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ، وَعَهِد إلىَّ رجلٌ كان قبلى ، فقمت ولم ينكره علىَّ أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم تَرَوْن الرضا بكل من عدل وأنصف ، من كان من الناس ، فاتركونى ذلك الرجل ، فإن خالفت الحق ورغِبْت عنهُ فلا طاعة لى عليكم ، فقالا : بيننا وبينك أمر ، إن أنت أعطيتَناه فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتناه فلستَ منا ولسنا منك ، فقال عمر : وما هو ؟ قالا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال، فالعنهم وتبرأ منهم ، فهذا الذى يجمع بيننا وبينك أو يُفَرِّق ، فتكلم عمر ، فحمِد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إنى قد علمت أنكم لم تخرجوا مَخْرجكم هذا لطلب دنيا ومَتاعِها ، ولكنكم أردتم الآخرة ، فأخطأتم سبيلها ، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعَّانا وقال إبراهيم : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وقال الله عزَّ وجلَّ : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » : وقد سميت أعمالهم ظلمًا ، وكفى بذلك ذما ونقصا ، وليس لعن أهل الذنوب فريضةً لابد منها ، فإن قلتم إنها فريضةٌ فأخبرنى متى لعنت فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنته . قال : أفيَسَعُك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرّهم، ولا يسعنى أن لا ألعن أهل بيتى وهم مصلون صائمون؟ قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا ، لِأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان ، فكان مَن أقرَّ به وبشرائعه قبل منه ، فإن أحدث حَدَثًا أقيم عليه الحد ، فقال الخارجى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده . قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء . قال عاصم : فأبرأ ممن خالف عملك ، ورُدَّ أحكامهم ، قال عمر : أخبرانى عن أبى بكر وعمر : أليْسَا مِن أسلافكما وممن تتوليان ، وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قالا : اللهم نعم . قال : فهل علمتما أن أبا بكر حين قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت العرب ، قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسَبَى الذرارىّ ؟ قالا : نعم . قال : فهل علمتم أن عمر قام بعد أبى بكر، فردَّ تلك السبايا إلى عشائرِها بفدية ؟ قالا : نعم، قال : فهل برئ عمر من أبى بكر ، أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟ قالا : لا . قال : فأخبرانى عن أهل النَّهْرَوان أليسوا من صالحى أسلافكم وممن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قالا : بلى . قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفُّوا أيديهم فلم يسفِكوا دمًا ، ولم يُخيفوا آمنًا ، ولم يأخذوا مالا ؟ قالا : نعم . قال : فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مِسْعَر بن فُدَيْك ، استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقُوا عبد الله بن خَبَّاب

ابن الأرَتّ : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه وقتلوا جاريته ؟ ثم صبّحوا حيًّا من أحياء العرب فاستعرضوهم ، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون الصبيان فى قدور الإِقِط[1] وهى تفور ؟ قالا : قد كان ذلك . قال : فهل برِئ أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قالا : لا . قال : فهل تَبرءون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قالا : لا قال : أرأيتم الدين واحداً أم اثنين ؟ قالا بل واحداً . قال : فهل يسعكم فيه شىء يعجز عنى ؟ قال : لا . قال : فكيف وسِعكم أن توليتم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة ، وتولى بعضهم بعضًا ، وقد اختلفوا فى أعظم الأشياء ، فى الدماء والفروج والأموال ، ولا يسعنى فيما زعمتم إلاّ لعنُ أهل بيتى والتبرؤ منهم ؟ وَيْحَكم ! إنكم قوم جهال ، أردتم أمراً فأخطأتموه ، فأنتم تَرُدُّون على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمن عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من أمِن عنده . قالا : ما نحن كذلك . قال عمر : بل سوف تُقِرون بذلك الآن ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعِث إلى الناس وهم عبدة أوثان ، فدعاهم إلى خلع الأوثان ، وشهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فمن فعل ذلك حَقَن دمه ، وأحرز ماله ، ووجبت حُرْمته ، وكانت له أُسْوَة المسلمين ؟ قالا : نعم . قال : أفلستم أنتم تلقَوْن من يخلع الأوثان ، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فتستحلون دمهُ وَماله ، وَتلقون من ترك ذلك وأباه من اليهود وَالنصارى وسائِر الأديان فيأمن عندكم وَتحرِّمون دمه ؟ فقال اليشكرى : أرأيت رجلا وَلِىَ قومًا وَأموالهم فعدل فيها ، ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أتراه أدى الحق الذى يلزمه لله عزّ وجلّ ؟ أو تراه قد سلم ؟ قال عمر : لا . قال : أفتسلّم هذا الأمر إلى يزيد[2] من بعدك وأنت تعرف أنه لايقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما ولاه غيرى ،

---

(١) الأقط بفتح الهمزة وكسرها : شىء يتخذ من المخيض الغنمى .

(٢) هو يزيد بن عبد الملك ، وقد ولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠١ — سنة ١٠٥ هـ) .

والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى . قال : أفترى ذلك مِنْ صُنع مَنْ ولاّه حقًّا ؟ فبكى عمر وقال : أنْظِرَانى[1] ثلاثاً فخرجا من عنده ثم عادا إليه ، فقال عاصم : أشهد أنك على حق ، فقال عمر لليشكُرِىّ : ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسنَ ما وَصفت ، وَلكن لا أفتات على المسلمين بأمر ، أعرِض عليهم ما قلت وأعلمُ حجتهم . فأما عاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالعطاء ، فتُوُفِّىَ بعد خمسة عشر يومًا ، فكان عمر يقول : أهلكنى أمر يزيد وَخُصِمت فيه ، فأستغفر الله ، فخاف بنو أمية أن يُخرج ما بأيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فوضعوا على عمر من سقاه سمًّا ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً ، حتى مرض ومات » .

(الكامل لابن الأثير ٥ : ١٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧١ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٦ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ١٣١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ ، ولابن الجوزى ٧٧)

٢٠١ — تأبينه ابنه عبد الملك

ولما دفن عمر بن عبد العزيز ابنَه عبدَ الملك ، وسوّى عليه قبره بالأرض ، وجعلوا على قبره خشبتين من زيتون ، إحداهما عند رأسه ، والأخرى عند رجليه ، استوى عمر قائمًا ، وأحاط به الناس ، فقال .

« رحمك الله يا بُنَىّ ، فقد كنت بَرًّا بأبيك ، والله ما زلتُ مذ وهبك الله لى بك مسروراً ، ولا والله ما كنتُ قطُّ أشدَّ سروراً بك ، ولا أرجَى لحظِّى من الله فيك ، منذ وضعتُك فى الموضع الذى صيَّرك الله إليه ، فغفر الله لك ذنبَك ، وجازاك بأحسنِ عملك ، وتجاوز عن سيئاتك ، ورَحِم الله كل شافع يشفَع لك بخير ، من شاهد أو غائب ، رضِينا بقضاء الله ، وسلّمنا لأمره ، والحمد لله ربِّ العالمين » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٨٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٢٦٤)

---

(١) أمهلانى .

٢٠٢ — خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد[1]

حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

« أيها الناس: والله ما خرجت أَشَرًا ولا بَطَرًا، ولا حرْصاً على الدنيا، ولا رغبة فى الملك، وما بى إطراء نفسى، وإنى لظَلوم لها إن لم يرحمنى الله، ولكن خرجت غضبا لله ودينه، داعياً إلى الله، وإلى سنة نبيه، لمَّا هُدِمت مَعَالِمُ الهدى، وأُطفِئ نور أهل التقوى، وظهر الجَبَّار العنيد[2]، المستحِلُّ لكل حُرْمة، والرَّاكب لكل بِدْعة، الكافر بيوم الحساب، وإنه لابنُ عمِّى فى النسب، وكَفِيئِى[3] فى الحَسَب، فلما رأيت ذلك استخَرْت الله فى أمره، وسألته ألاَّ يكلنى إلى نفسى، ودعوت إلى ذلك مَن أجابنى من أهل ولايتى، حتى أراح الله منه العباد، وطهَّر منه البلاد، بحَوله وقوته، لا بحولى وقوتى.

أيها الناس: إن لكم علىَّ ألاّ أضَعَ حجراً على حجر، ولا لَبِنةً على لبنة، ولا أَكرِىَ[4] نهراً، ولا أكنز مالا، ولا أعطيه زوجًا، ولا ولداً، ولا أنقُلَه من بلد إلى

(١) قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ، وكان قبل الخلافة منهمكا فى اللهو، وشرب الخمر، وانتهاك حرمات الله، فلما أفضت إليه الخلافة، لم يزدد إلا انغماسا فى اللذات، واستهتارا بالمعاصى، ذلك إلى ماارتكبه من إغضاب أكابر أهله، والإساءة إليهم، وتنفيرهم، فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته، وهجموا عليه وقتلوه، وكان المتولى لذلك يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وقد ولى الخلافة بعده، وتوفى هلال ذى الحجة سنة ١٢٦. (٢) يشير إلى ماحدث من الوليد بن يزيد من أنه استفتح فألا فى المصحف فخرج « وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ »، فنصبه غرضا للنشاب وأقبل يرميه حتى مزقه، وهو يقول:

أتوعد كل جبار عنيد ... فهأنذاك جبـار عنيد

إذا لاقيت ربك يوم حشر ... فقل يارب مزقنى الوليد

(٣) كفيئه وكفؤه بضم الكاف وكفاؤه بكسرها: مثله. (٤) كرى النهر: استحدث حفره.

بلد ، حتى أسُدَّ فقر ذلك البلد وخَصاصة[1] أهله ، فإن فَضَلَ فَضْلٌ ، نقلته إلى البلد الذى يليه ، ولا أُجَمِّركم[2] فى بعوثكم ، فأَفْتِنَكُمْ وأفتِنَ أهليكم ، ولا أُغْلِق بابى دونكم ، فيأ كلَ قويُّكم ضعيفكم ، ولا أحمل عَلَى أهل جزيتكم ما اجليهم به عن بلادهم ، وأقطع به نسلهم ، ولكم على إدْرَارُ العطاء فى كل سنة ، والرزق فى كل شهر ، حتى يستوى بكم الحال ، فيكونَ أفضلُكم كأدناكم ، فإن أنا وفيت لكم ، فعليكم السمع والطاعة ، وحسن المؤازرة والمكانفة[3] ، وإن لم أفِ لكم ، فعليكم أن تخلعونى إلا أن تستتيبونى ، فإن أنا تبت قبلتم منى ، وإن عرفتم أحداً يقوم مقامى ، ممن يُعْرَف بالصلاح ، يُعطيكم من نفسه مثل الذى أعطيتكم ، فأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من بايعهُ ، ودخل فى طاعته .

أيها الناس : إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولا وفاء له بنقض عهد ، إنما الطاعة طاعة الله فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع ، فإذا عصى الله ودعا إلى المعصية فهو أهل أن يُعصَى ويقتل ، أقول قولى هذا، وأستغفر الله العظيم لى ولكم .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ — ٢٩١ ، البيان والتبيين ٢ : ٦٩ ، الفخرى ص ١٢٠ وتاريخ الطبرى ٩ : ٢٦)

٢٠٣ وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه

لما وَلَّى يزيد بن معاوية سَلْمَ بن زياد بن أبيه على خراسان قال له :

« إن أباك كفى أخاه (يعنى معاوية) عظيماً ، وقد استكفيتك صغيراً ، فلا تتَّكِلَن عَلَى عذر منى لك ، فقد اتكلتُ عَلَى كِفاية منك ، وإياك منى قبل أن أقول إياى منك ، فإن الظنّ إذا أخلف منك أخلف منى فيك ، وأنت فى أدنَى حَظِّك فاطلب أقصاه ، وقد أتعَبَك أبوك ، فلا تُرِيحَنّ نفسَك ، وكن لنفسك تكن لك ، واذكر فى يومك أحاديثَ غَدِك تَسْعَدْ إن شاء الله تعالى » . (البيان والتبيين ٢ : ٧٦)

---

(١) الفقر والحاجة . (٢) جمر الجيش : حبسهم فى أرض العدو ولم يقفلهم . (٣) المعاونة.

خطب عتبة بن أبى سفيان[1] (توفى سنة ٤٤ هـ)

٢٠٤ — خطبة له فى تهدّد أهل مصر

بلغ عُتْبةَ بن أبى سفيان عن أهل مصر شىء فأغضبه ، فقام فيهم ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« يأهل مصر ، إياكم أن تكونوا للسيف حَصِيداً[2] ، فإن لله فيكم ذَبيحاً لعثمان ، أرجو أن يولّينى نُسُكَه ، إن الله جمعكم بأمير المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذى حق حقه ، وكان والله أذكرَكم إذا ذُكّر بخُطَّة ، وأصفحَكم بعد المقدرة عن حقه ، نعمة من الله فيكم ، ونعمة[3] منه عليكم ، وقد بلغَنَا عنكم نَجْمُ[4] قولٍ ، أظهرَهُ تقدُّم عفوٍ منا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أُنسِ الحق ، بإحياء الفتنة وإماتة السُّنَن ، فأطأَكم لله وطأةً ، لا رَمَق[5] معها ، حتى تُنكِرُوا منى ما كنتم تعرفون ، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أُشهد عليكم الذى يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ[6] ، وَمَا تُخْفِى الصُّدُور » .

(العقد الفريد ٢ : ١٠٨)

---

(١) ولاه أخوه معاوية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص (وقد مات عمرو فى شوال سنة ٤٣) وأقام عتبة واليا على مصر سنة واحدة وشهرا واحدا ، وتوفى فى ذى الحجة سنة ٤٤ (هكذا فى كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) وفى أسد الغابة فى معرفة الصحابة : « أنه توفى سنة ٤٤ وقيل سنة ٤٣ » ، ولكنى قرأت فى تاريخ الطبرى أن عتبة حج بالناس سنة ٤٦ ، وقال أيضا فى حوادث سنة ٤٧ « واختلفوا فيمن حج بالناس فى هذه السنة ، فقال الواقدى : أقام الحج فى هذه السنة عتبة بن أبى سفيان. وقال غيره : بل الذى حج فى هذه السنة عنبسة بن أبى سفيان » . (٢) أصله الزرع المحصود . (٣) هكذا فى الأصل وقد يكون « ومنة » . (٤) من نجم الشىء : إذا ظهر وطلع . (٥) الرمق : بقية الحياة .

(٦) بمسارقتها النظر إلى المحرم .

٢٠٥ – خطبة له فى تقريعهم وتهددهم

وخطب أيضاً وقد بلغهُ عن أهل مصر أمور فقال :

« يا حامِلِى ألأم ِ أنوفٍ رُكّبت بين أعين ، إنما قلّمت أظفارى عنكم ، لِيَلِينَ مَسِّى إياكم ، وسألتكم صلاحَكم لكم ، إذ كان فسادُكم راجعاً عليكم ، فأما إذا أبيتم إلا الطعن على الأمراء ، والعَتْب على السلف والخلفاء ، فوالله لأقطِّعن بطون السِّياط على ظهوركم، فإن حسَمت مُسْتَشْرِى[1] دائكم، وإلا فالسيفُ من ورائكم ، فكم من عظة لنا قد صَمَّت عنها آذانكم ، وزجْرَة منا قد مجّتها قلوبكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية ، ولا مُؤْيِساً لكم من المراجعة إلى الحسنى ، إن صرتم إلى التى هى أبر وأتقى » . (صبح الأعشى ١ : ٢١٦ ؛ والعقد الفريد ٢ : ١٥٩ ، والأمالى ١ : ٢٤٥)

٢٠٦ – خطبة له فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية

واحتبست كتب معاوية حتى أرْجَف أهل مصر بموته ، ثم ورد كتابه بسلامته ، فصعِد عتبة المنبر ، والكتاب فى يده فقال :

« يأهل مصر : قد طالت معاتبتنا إياكم بأطراف الرماح وظُبَات السيوف ، حتى صرنا شَجًى فى لَهَوَاتكم ، ما تُسِيغنا[2] حلوقكم ، وأقذاء فى أعينكم ، ما تَطرف[3] عليها جفونكم ، أفحين اشتدت عُرَى الحق عليكم عَقْدًا ، واسترخَت عُقَد الباطل منكم حَلاًّ ، أرْجفتم بالخليفة ، وأردتم توهين[4] السلطان ، وخضتم الحق إلى الباطل ، وأقْدَمُ عهدكم به

---

(١) استشرى الداء : عظم وتفاقم . (٢) هو ما اعترض فى الحلق من عظم أو نحوه ، واللهوات جمع لهاة : وهى اللحمة المشرفة على الحلق ، وأساغه : ابتلعه . (٣) جمع قذى: وهو مايقع فى العين والشراب، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر، وطرف بعينه : حرك جفنيها . (٤) إضعاف.

حديث ؟ فاربَحوا أنفسكم إذ خسرتم دينكم ، فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السارّ عنه ، والعهدِ القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا ماظهر ، نكِلكم إلى الله فيما بَطَن ، وأظهروا خيراً ، وإن أسررتم شرًّا ، فإنكم حاصدون ماأنتم زارعون ، وعلى الله نتوكل وبه نستعين » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٧ — خطبته فيهم وقد منعوا الخراج

وخطبهم وكانوا قد منعوا الخراج فقال :

« يأهل مصر ، قد كنتم تعتذرون لبعض المنع منكم ، ببعض الجَوْر عليكم ، فقد وَلِيَكم من يقول ويفعل ، ويفعل ويقول ، فإن رددتم تَرَادَّكم[1] بيده ، وإن استصعبتم تَرادَّكم بسيفه ، ثم رجا فى الآخرة ما أمّل فى الأولى ، إن البيعة متتابعة ، فلنا عليكم السمع والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأيُّنا غَدَر فلا ذمة له عند صاحبه ، والله ما انطلقت بها ألسنتنا حتى عُقدت عليها قلوبنا ، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم نَاجِزاً بناجز[2] ، ومن حَذَّر كمن بشر ، فنادَوه سمعاً وطاعةً ، فناداهم عدلاً عدلاً . (العقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٨ — خطبته فيهم إذ طعنوا على الولاة

وقدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر أن قبلك قوماً يطعنون على الولاة ويَعيبون السلف ، فخطبهم فقال :

« يأهل مصر : خفٌّ على ألسنتكم مَدْحُ الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم

---

(١) يقال : ترادا البيع : من الرد والفسخ ، ومراده : ردكم . (٢) الناجز والنجيز : الحاضر ، ومن أمثالهم : ناجزا بناجز ، أى حاضرا بحاضر ، كقولك يدا بيد ، وعاجلا بعاجل ، وقالوا أبيعكه الساعة ناجزا بناجز : أى معجلا .

تأتونه ، كالحمار يحمل أسفارًا، أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها ، وايمُ الله لا أداوى أدواءكم بالسيف ما صَلَحتم على السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتنى الدِّرَّة ، ولا أبطئ عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى ، فالزموا ما أمركم الله به تستوجبوا مافرض الله لكم علينا ، وإياكم وقال ويقول ، قبل أن يقال فعل ويفعل ، وكونوا خير قوس سهماً بهذا اليوم الذى ما قبله عقاب ، ولا بعده عتاب

(العقد الفريد ٢ : ١٦٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة ٣ : ٣٦١)

٢٠٩ — خطبته بمكة

وحج عتبة سنة إحدى وأربعين ، والناس قريبٌ عهدهم بالفتنة ، فصلى بمكة الجمعة ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد وَلينا هذا المقام الذى يُضَاعَفُ فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسىء فيه الوِزْر ، ونحن على طريق ما قَصَدنا له ، فلا تَمُدوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع من دوننا ، وربَّ متمنٍّ حَتفُهُ فى أمنيَّته ، فاقبلونا ما قَبِلنا العافية فيكم ، وقبلناها منكم ، وإياكم ولوًّا ، فإن لوًّا قد أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريح مَن بعدكم ، وأنا أسأل الله أن يعين كُلاًّ على كلٍّ » .

فصاح به أعرابى : أيها الخليفة ، فقال : لستُ به ولم تُبْعِد ، فقال : يا أخاه ، فقال : سمعتُ فقل ، فقال : « تالله لأن تُحْسِنوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحْسَنَّا ، فإن كان الإحسان لكم دوننا ، فما أحقَّكم باستتمامه ، وإن كان منا فما أولاكم بمكافأتنا ، رجل من بنى عامر بن صعصعة يلقاكم بالعُمومة ، ويقرُب إليكم بالخُئُولة ، وقد كثُر عِيالُه[1] ، ووطِئه زمانه ، وبه فقر ، وفيه أجر ، وعنده شكر » فقال عتبة : « أستغفر الله

---

(١) العيال جمع عيل كجيد : وهو من يلزم الإنفاق عليه .

منكم ، وأستعينه عليكم ، وقد أمرنا الله بغضك ، فليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك » .

(الأمالى ١ : ٢٤٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٩ — ٨١ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

٢١٠ — خطبته فى علته التى مات فيها

ولما اشتكى شكاته التى مات فيها تحامل إلى المنبر فقال :

« يأهل مصر لا غنى عن الرب ، وَلا مَهْرَب من ذنب ، إنه قد تقدَّمت منى إليكم عقوباتٌ كنت أرجو يومئذ الأجرَ فيها، وَأنا أخاف اليوم الوِزْر منها ، فليتنى لا أكون اخترت دنياى عَلَى مَعادى ، فأصلحتكم بفسادى ، وأنا أستغفر الله منكم ، وَأتوب إليه فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ، وَرجوت ما كنت أخاف اغتيالا به ، وَقد شِقى من هلك بين رحمة الله وعفوه ، والسلام عليكم سلام من لا ترَونه عائداً إليكم » ، فلم يعد . (العقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢١١ وصيته لمؤدب ولده

وَقال لعبد الصمد مؤدِّب ولده :

« ليكن أولَ ماتبدأ به من إصلاح بَنِيّ إصلاحُ نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت ، وَعلِّمهم كتاب الله ، ولا تُكرِههم عليه فيَمَلوه ، ولا تتركهم منهُ فيهجروه ، ثم روِّهم من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أشرفه ، وَلا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يُحْكموه ، فإن ازدحام الكلام فى السمع مَضَلَّة للفهم ، وَتَهدَّدْهم بى ، وأدِّبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يَعْجَل بالدواء قبل معرفة الداء ، وجنِّبهم محادثة النساء ، وروِّهم سِيَر الحكماء ، واستزدنى

بزيادتك إيام أزِدْك ، وإياك أن تتكل عَلَى عذر منى لك ، فقد اتكلتُ عَلَى كِفاية منك ، وزِدْ فى تأديبهم أزِدْكَ فى بِرِّى إن شاء الله تعالى » .

(البيان والتبيين ٢ : ٣٥ ، والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١ : ١٣٩)

٢١٢ — وصية سعيد بن العاص [١] لبنيه

لما وُلِد لسعيد بن العاص ابنهُ عمرو وتَرَعْرَع [٢] ، تفرّس فيه النجابة ، وكان يفضله على وَلَده ، فجمع بنيه ، وكانوا يومئذ أكثرَ من خمسة عشرَ رجلا ، ولم يَدْعُ عمرًا معهم ، وقال :

« يا بَنِيَّ ، قد عرفتم خِبْرَة الوالد بولده ، وإن أخاكم عمرًا ، لذو هِمَّةٍ وَاعِدَةٍ [٣] ، يسمو جَدُّه ، ويبعد صِيتُه [٤] ، وتشتد شَكِيمَته [٥] ، وإنى آمُرُكم إن نزل بى من الموت مالا مَحِيص عنه ، أن تُظاهِروه وتُوازِرُوه وتُعَزِّرُوه ، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألَّفْ بكم الكرامَ ، وَيَخْسَأْ [٦] عنكم اللئامَ ، ويُلْبِسكم عِزًّا لا تُنْهِجُه [٧] الأيام » .

فقالوا جميعًا : « إنك تُؤْثِره علينا ، وتُحابيه دوننا » فقال : « سأُريكم ما ستره

---

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وقد تقدم لك أن عثمان استعمله على الكوفة بعد الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وولاه معاوية المدينة ، فكان يوليه إذا عزل مروان ابن الحكم عن المدينة ويولى مروان إذا عزله ، ومات سنة ٥٧ وقيل سنة ٥٨ وقيل سنة ٥٩ هـ .

(٢) شب وانتقل عن حد الصغر . (٣) من قولهم شجرة واعدة : إذا ظهر لرائيها أن ستحمل إثمارها، وأرض واعدة : إذا رجى خيرها من النبت ، وظهر لرائيها أن قد قرب إمكان المرعى بها ، وفرس واعد : يعدك جريا بعد جرى، وسحاب واعد كأنه وعد بالمطر ، ويوم واعد يعد بالحر أو بالبرد أوله .

(٤) الصيت (بالكسر) والصات والصوت (بالفتح) : الذكر الحسن . (٥) الشكيمة : الأنفة، وفى اللجام : الحديدة المعترضة فى فم الفرس . وهو مثل يضرب للصرامة فى الأمور والمضاء فيها .

(٦) أى يبعد ويطرد . من خسأ الكلب كمنع : طرده ، وخسأ هو بنفسه : بعد . (٧) أى لا تبليه . أنهج الثوب ونهجه (كمنعه) : أخلقه وأبلاه ، ونهج الثوب مثلثة الهاء ، وأنهج : بلى .

البغى عنكم » ، وصرفهم ، ثم أمهلهم حتى ظن أن قد ذَهَلوا عما كان ، وراهق[١] عمرو البلوغ ، واستدعاهم دون عمرو ، فلما حضروا قال : « يا بنى ، ألم تَرَوا إلى أخيكم عمرو ؟ فإنه لا يزال يُلْحِف[٢] فى مسألتى مالى ، فَأَحُشُّ عَيْلَه[٣] لصغره ، وَأُحَسِّبُهُ[٤] بالشيء دون الشيء من مالى ، إلى أن اسْتَنْبَتُّ أَنَّ أمه بَاغِيَته[٥] على ذلك ، فزجرتها فلم تكفف ، وهذا مَخْرَجه الآن من عندى ، جاء يسألنى الصَّمْصَامة[٦] . كأنْ لا وَلَدَ لى غيرُهُ ، وَقد عزمت على أن أقسم مالى فيكم دونه ، لتعلم أُمُّه من يكيد » ، فقالوا كلهم : يا أبانا هذا عملك بإيثارك له علينا ، واختصاصك إياه دوننا ، فقال : « يا بنى ، وَاللهِ ما آثرته دونكم بشيء من مالى قطُّ ، ولا كان ما قلته لكم إلا اختلاقًا تساهلت فيه ؛ لما أمَّلته من صلاح أمركم » ، ثم قال لهم : ادخلوا الْمُخْدَعَ[٧] ، فدخلوا المخدع ، ثم أرسل إلى عمرو فأحضره ، فلما حضر قال :

---

(١) راهق الغلام : قارب الحلم (بضمتين) . (٢) يلح . (٣) العيل والعيلة : الافتقار والفاقة ، وأحش : أى أقطع وأمحو ، من حش الحشيش (كرد) : قطعه ، وحش فلانا : أصلح من حاله ، (وفى الأصل فأحسن بالنون أى أجمل فقره حسنا وأزيل قبحه بعطائى إياه والأول أحسن) .

(٤) حسبه (بالتشديد) وأحسبه : أطعمه وسقاه حتى شبع وروى . (٥) بغاه الشيء : أعانه على طلبه (ولا مانع أن يكون الأصل « أن أمه باعثته على ذلك ») . (٦) الصمصامة : سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وكان قد صار إلى سعيد بن العاص . وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بنى زبيد حين ارتدوا ، وكان خالد بن سعيد بن العاص « عم سعيد المذكور » من جملة أمرائه ، أوقع بهم وأسر ريحانة أخت عمرو ابن معد يكرب ، ففداها خالد وأثابه عمرو الصمصامة ، ولم يزل ذلك السيف عند آل سعيد بن العاص حتى اشتراه منهم الخليفة المهدى العباسى بخمسين ألف درهم ، ووهبه المهدى لابنه الهادى فدعا به بعد ما ولى الخلافة فوضعه بين يديه وأذن للشعراء ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فى السيف شعرا ، فبذهم ابن يامين البصرى ، فأعطاه الهادى السيف والجائزة ، ففرقها على الشعراء ، وقال : دخلتم معى ، وحرمتم من أجلى ، وفى السيف عوض ، ثم بعث إليه الهادى ، فاشترى منه السيف بخمسين ألفا ، ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى غلامه باغزا التركى ، فقتله به ، ومن عند باغزا انقطع خبره . « اقرأ خبر الصمصامة فى سرح العيون ، ص٢١٢ ، والأغانى ١٤ : ٢٦ ، وأنباء نجباء الأبناء ص١٠٣ ومروج الذهب ٢ : ٢٦٢» . (٧) المخدع بضم الميم وكسرها : الخزانة — بيت صغير يحرز فيه الشيء — .

« يا بَنَيّ : إنى عليك حَدِب[١] مشفق ، لصغر سنك ، وَنَفَاسة[٢] إخوتك على مكانك منى ، وإنى لا آمَن بَغْتَة الأجل ، ولى كَنز ادّخرته لك دون إخوتك ، وهأنا مُطْلعك عليه ، فا كتمْ أمره » .

فقال : « يا أبت ، طال عُمْرك ، وَعَلاَ أمْرُك ، إنى لأرجو أن يُحْسن الله عنك الدّفاع ، ويُطيل بك الإمتاع . فأما ما ذكرتَه من شأن الكنز ، فما يُعْجبنى أن أقطع دون إخوتى أمرا ، وأزرع فى صدورهم غِمْرا[٣] » .

فقال : « انصرف يا بنى ، فِداك أبوك ، فوالله مالى من كنز ، ولكنى أردت أن أبْلُوَ رأيك فى إخوتك وبنى أبيك » فانطلق عمرو ، وخرج إخوته من المخدع ، فاعتذروا إلى أبيهم ، وأعطوه مَوْثِقَهم على اتباع مشورته . (أنباء نجباء الأبناء ص ١٠٠)

---

(١) متعطف شفيق . (٢) نفس عليه بخير (كفرح) حسد ، ونفس عليه الشىء نفاسة لم يره أهلا له . (٣) الغمر محركة والغمر بكسر الغين : الحقد والضغن .

خطب عمرو بن سعيد الأشدق[1]

(قتل سنة ٦٩ هـ)

٢١٣ – خطبة له بالمدينة

قدم عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق المدينة أميرًا ، فخرج إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقعد عليه وَغَمَّضَ عينيه وعليه جُبَّة خَزَّ قِرْمِز[2] ، ومُطْرَف[3] خزقرمز ، وعمامة خزقرمز ، فجعل أهل المدينة ينظرون إلى ثيابه إعجاباً بها ، ففتح عينيه ، فإذا الناس ينظرون إليه ، فقال :

« ما بالكم يأهل المدينة ترفعون إلىّ أبصاركم ، كأنكم تريدون أن تضربونا بسيوفكم ؟ أغرّكم أنكم فعلتم ما فعلتم فعفَونا عنكم ، أما إنه لو أُثِبْتُمْ[4] بالأولى ما كانت الثانية ، أغرّكم أنكم قتلتم عثمان ، فوافقتم ثائرنا[5] منا رفيقاً ، قد فنِى غضبه وبقى حلمه ، اغتنموا أنفسكم ، فقد والله ملكناكم بالشباب المقتبل البعيد الأمل ، الطويل

---

(١) لقب بالأشدق لفصاحته ، والأشدق فى الأصل : من عظمت أشداقه (جمع شدق بالكسر ويفتح وهو جانب الفم) مشتق من الشدق (بفتحتين وهو سعة الشدق) وكانوا يتشادقون فى الكلام ويمتدحون فى الخطيب سعة الفم والشدقين ، وقالوا خطيب أشدق : أى بليغ ، وقال شاعرهم فى عمرو بن سعيد هذا :

تشادق حتى مال بالقول شدقه وكل خطيب لا أبالك أشدق

وقال آخرون : بل كان أفقم مائل الذقن « والفقم بالتحريك : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى » وقد ولى لمعاوية مكة ولابنه يزيد مكة والمدينة ، وكان له الفضل فى نيل مروان بن الحكم الخلافة ، وقد قدمنا لك خبر مقتله . (٢) القرمز : صبغ أحمر . (٣) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام .

(٤) الثواب : الجزاء . (٥) الثائر : الآخذ بالثأر ، ووافقتم : أى وجدتم .

الأجل، حين فرغ من الصغر، ودخل فى الكبر، حليم حديد[1]، ليِّن شديد، رقيق كثيف، رفيق عنيف، حين اشتد عظمه، واعتدل جسمه، ورمى الدهر ببصره، واستقبله بأشره، فهو إن عضَّ نَهَس[2]، وإن سطا فَرَس[3]، لا يُقلقَل له الحصى، ولا تُقْرَع له العصا[4]، ولا يمشى السُّمَّهَى[5]، فما بقى بعد ذلك إلا ثلاث سنين وثمانية أشهر حتى قَصَمه الله . (العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٤ — خطبة له بمكة

واستعمل سعيد بن العاص — وهو وال على المدينة — ابنهُ عمرو بن سعيد والياً على مكة، فلما قدم لم يَلْقَه قرشى ولا أموى إلا أن يكون الحارث بن نوفل، فلما لقيهُ قال له : ياحارِ، ما الذى منع قومَك أن يلقَونى كما لقِيتنى ؟ قال : ما منعهم من ذلك إلا ما استقبلتنى به، والله ما كَنَيْتنى، ولا أتممت اسمى، وإنما أنهاك عن التشذُّر[6] على أكفائك، فإن ذلك لا يرفعك عليهم، ولا يضعهم لك، قال : واللهِ ما أسأتَ الموعظة، ولا أتّهمك على النصيحة، وإن الذى رأيت منى نَخلَق[7]، فلما دخل مكة قام على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليهِ، ثم قال :

« أما بعد، معشَر أهل مكة، فإنا سكنّاها غبطةً، وخرجنا عنها رغبةً، وكذلك كنا إذا رفعت لنا اللُّهْوَةُ[8] بعد اللهوة أخذنا أسْناها، ونزلنا أعلاها، ثم شَرِج[9] أمر

---

(١) رجل حديد يكون فى السن والفهم والغضب، وحد عليه : غضب . (٢) نهس اللحم : أخذه بمقدم أسنانه ونتفه . (٣) فرس فريسته : دق عنقها . (٤) يشير إلى المثل المشهور « إن العصا قرعت لذى الحلم » وقد سبق شرحه فى ص ١٨٤ . (٥) السمهى والسميهى : الباطل والكذب، يقال : ذهب فى السميهى أى فى الباطل : وجرى فلان السمهى : أى جرى إلى غير أمر يعرفه .

(٦) تشذر : توعد وتهدد وتغضب وتسرع إلى الأمر والمراد هنا التكبر . (٧) الخلق : البالى، والمراد أنه لا يعود إليه . (٨) اللهوة بالضم والفتح : العطية أو أفضل العطايا وأجزلها .

(٩) من الشرج بالتحريك : وهو انشقاق القوس . قوس شريج : فيها شق، والمراد حدث ونجم .

بين أمرين ، فقَتَلْنَا وقُتِلْنا ، فوالله ما نَزَعْنا ولا نُزِعَ عنا ، حتى شَرب الدمُ دماً ، وأكل اللحم لحماً ، وقَرَع العظم عظماً ، فوَلِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة الله إياه ، وَاختياره له ، ثم وَلِيَ أبو بكر لِسابقته وفضله ، ثم ولى عمر ، ثم أُجِيلَتْ قِدَاحُ نُزِعْنَ من شِعَابٍ[1] جوْلَةَ سَمَقٍ ، ففاز بِحَظِيِّهَا[2] أصلُهَا وأعتقُها ، فكنا بعض قِداحها ، ثم شَرِج أمر بين أمرين فقَتَلْنَا وَقُتِلْنَا ، فوالله ما نزعنا ولا نُزِع عنا ، حتى شَرِب الدم دماً ، وَأكل اللحم لحماً ، وَقَرع العظم عظماً ، وعاد الحرامُ حلالا ، وَأُسْكِتَ كلُّ ذى حِسٍّ عن ضربِ مُهَنَّدٍ ، عَزْكاً عَزْكاً ، وَعَسْفاً عَسْفاً ، وَخزاً وَنَهْساً ، حتى طابوا عن حقنا نفساً ، والله ما أعطَوه عن هَوَادَةٍ ، ولا رضُوا فيه بالقضاء ، أصبحوا يقولون : حَقُّنا غُلِبْنا عليه ، فجزيناه هذا بهذا ، وهذا فى هذا . يأهل مكة : أنفسَكم أنفسَكم ، وَسُفَهَاءَكم سفهاءَكم ، فإن معى سَوطًا نَكالاً ، وسيفًا وَبَالاً[3] ، وكلٌّ منصوب على أهله » ، ثم نزل .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٥ — ملاحاة الوليد بن عقبة معه فى مجلس معاوية

تلاحى[4] الوليد بن عُقْبة ، وعمرو بن سعيد بن العاص فى مجلس معاوية ، فتكلم الوليد فقال له عمرو : كَذَبت أو كُذِبْتَ[5] ، فقال له الوليد : اسكت يا طليقَ اللسان ، منزوعَ الحياء ، ويا ألأم أهل بيته ، فلعمرى لقد بلغ بك البخل الغايةَ الشائنة المذلة لأهلها ، فساءت خلائقُك لبخلك ، فَمَنَعْتَ الحقوق ، ولزمتَ العُقوق ، فأنت غير مَشِيدِ البنيان ، ولا رفيع المكان ، فقال له عمرو : والله إن قريشًا لتعلم أنى غير حُلو المَذَاقة ، ولا لذيذ

---

(١) الشعاب جمع شعبة بالضم : وهى مابين الغصنين وطرف الغصن . يشير إلى أصحاب الشورى الستة.

(٢) الحظى : ذو الحظوة أى المكانة . (٣) أى سوطا ذا نكال . وسيفا ذا وبال .

(٤) تنازع. (٥) كذب الرجل: أخبر بالكذب .

اللَّأَكَةِ[١] ، وإنى لكالشجا[٢] فى الحلق ، ولقد علمتَ أنى ساكن الليل ، داهية النهار ، لا أتبّع الأفياء ، ولا أنتمى إلى غير أبى ، ولا يُجْهَل حسبى ، حامٍ لحقائق الذِّمار[٣] ، غير هَيُوب عند الوعيد ، ولا خائف رِعْدِيد[٤] ، فلِمَ تُعَيِّر بالبخل وقد جُبلت عليه ، فلعمرى لقد أورثتك الضرورة لؤمًا ، والبخل فُحْشًا ، فقطعتَ رحِمَك ، وجُرْت فى قضيتك ، وأضعت حق من وَلِيت أمره ، فلست ترْجَى للعظائم ، ولا تعرف بالمكارم ، ولا تستعِفّ عن المحارم ، لم تقدر على التوقير ، ولم يُحْكِمَ منك التدبير » فأُفحِمَ الوَليدُ ؛ فقال معاوية : ــ وساءه ذلك ــ كُفًّا لاأبا لكما ، لا يرتفع بكما القول إلى مالا نريد ، ثم أنشأ عمرو يقول :

وَليدُ إذا ما كنتُ فى القوم جالسًا ... فكن ساكنًا منك الوقارُ على بال
ولا يبدُرَنّ الدهرَ من فيك منطِق ... بلا نظر قد كان منك وإغفالِ[٥]

(الأمالى ٢ : ٤٠)

٢١٦ — خطبته حين غلب على دمشق

ولما غلب على دِمَشق ، صعِد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنه لم يَقُم أحد من قريشٍ قبلى على هذا المنبر ، إلاّ زعم أن له جنة ونارا ، يُدْخِل الجنةَ من أطاعه ، والنارَ من عصاه ، وإنى أخبركم أن الجنة والنار بيد الله ، وأنه ليس إلىّ من ذلك شىء ، غير أن لكم علىّ حُسْنَ المؤاساة والعطية » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٧٦)

---

(١) اللوك : أهون المضغ أو مضغ صلب . (٢) مااعترض فى الحلق من عظم ونحوه .
(٣) ماتجب حمايته . (٤) جبان . (٥) يبدر : يفرط ويسبق .

٢١٧ – خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان

روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد فى أيام عبد الملك فقال : لقد هَمَمْتُ اليوم يا أخى أن أفتِك بالوليد بن عبد الملك ، فقال له خالد : بئس والله ما هَمَمْتَ به فى ابن أمير المؤمنين ، وولىِّ عهد المسلمين ، فما ذاك ؟ قال : إن خيلى مَرّتْ به فعَبِثَ بها وأصْغَرَنى ، فقال له خالد : أنا أكْفيك ، فدخل على عبد الملك ، والوليدُ عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الوليد ابن أمير المؤمنين ، وولىّ عهد المسلمين ، مرت به خيلُ ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبث بها وأصغره ، وكان عبد المُلك مُطْرِقاً فرفع رأسه وقال :

(إنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ) فقال خالد : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) . فقال عبد الملك : أفى عبد الله تـكلمنى ؟ والله لقد دخل أمسِ علىّ فما أقام لسانَه لَحْنًا ، فقال خالد : أفعلى الوليد تعوِّل يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الملك : إن كان الوليد يَلْحَن ، فإن أخاه سليمانُ ، فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن ، فإن أخاه خالد ، فالتفت الوليد إلى خالد ، وقال لهُ : اسكت وَيْحَك يا خالد ! فوالله ما تُعَدُّ فى العِير ولا فى النَّفير ، فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين : ثم التفت إلى الوليد فقال لهُ : ويحك : فمن صاحب العير والنفير غيرُ جَدِّى أبى سفيان صاحب العير ، وجدى عُتْبة صاحب النفير[1] ؟ ولـكن لو قلت : غُنَيْمات وحُبَيْلات والطائف ، وَرَحِم الله عثمان لقلنا صدقت[2] » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٣٠٢ ومجمع الأمثال ٢ : ١١٥)

---

(١) انظر ص ١٤٧ . (٢) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طرد الحكم بن أبى العاص وجد عبد الملك» إلى الطائف — انظر ص ١٠٤ — أقام بها ، فكان يرعى غنيمات اتخذها يشرب من لبنها ، ويأوى إلى حبيلة » مصغر حبلة كغرصة : وهى الكرمة » وقوله رحم الله عثمان : أى لرده إياه ، وقد أبى أبو بكر وعمر أن يرداه .

٢١٨ — خالد بن عبد الله بن أسيد[1] وعبد الملك بن مروان

جلس يومًا عبد الملك بن مروان ، وعند رأسه خالدُ بن عبد الله بن أَسِيد ، وعند رجليه أُمَيَّة بن عبد الله بن أسيد ، وأُدخلت عليه الأموال التي جاءت من قِبَل الحجاج ، حتى وُضِعت بين يديه فقال :

« هذا والله التوفير ، وهذه الأمانة ، لا ما فعل هذا ، (وأشار إلى خالد) استعملته على العراق ، فاستعمل كل مُلِطٍّ[2] فاسق ، فأدّوا إليه العشرة واحداً ، وأدى إليَّ من العشرة واحداً ، واستعملت هـذا عَلَى خُراسان (وأشار إلى أمية[3]) فأهدى إليَّ بِرْذَوْنَيْن حَطِمَيْن[4] ، فإن استعملتكم ضَيَّعتم ، وإن عزلتكم قلتم استخفَّ بنا ، وقطع أرحامنا » .

فقال خالد بن عبد الله : « استعملتني عَلَى العراق ، وأهلُه رجلان : سامع مطيع مُناصح ، وعدو مُبْغِض مُكاشِح[5] ، فأما السامع المطيع المناصح فإنّا جَزَيناه ، ليزداد وُدًّا إلى وده ؛ وأما المبغض المكاشح ، فإنا دارَيناه ضِغنه ، وَسَلَلْنا حِقْده ، وكثّرْنا لك المودة في صدور رعيتك ، وإن هـذا جَبَى الأموال ، وزرع لك الْبَغْضاء في قلوب الرجال ، فيوشك أن تنبُتَ البغضاء فلا أموالَ ولا رجالَ » .

فلما خرج ابن الأشعث قال عبد الملك : « هذا والله ما قال خالد » .

(العقد الفريد ٢ : ١١٧)

---

(١) هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد ولاه عبد الملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزبير على البصرة وأعمالها سنة ٧١ هـ ، وعزله عنها سنة ٧٤ وولاها أخاه بشر بن مروان ، وكان على ولاية الكوفة ، فصارت ولايتها وولاية الكوفة إليه . (٢) لط حقه وألطه : جحده . (٣) هو أمية بن عبد الله أخو خالد هذا ، ولاه عبد الملك على خراسان ، حتى كانت سنة ٧٨ فعزله ، وجمع سلطانه للحجاج ، فبعث المهلب بن أبي صفرة إليها . (٤) فرس حطم كـكتف : إذا هزل وأسن فضعف وتهدم . (٥) الكاشح : الذي يضمر لك العداوة ، كشح له بالعداوة وكاشحه بمعنى .

٢١٩ — نصيحة لعمرو بن عتبة بن أبي سفيان

ورأى عمرو بن عُتْبة بن أبي سفيان رجلا يشتم رجلا ، وآخر يسمع منه ، فقال للمستمع :

« نَزِّه سمعك عن استماع الخَنا ، كما تنزه لسانك عن الكلام به ، فإن السامع شريكُ القائل ، وإنما نظر إلى شرّ ما في وِعائه فأفرَغه في وِعائك ، ولو رُدَّت كلمةُ جاهل في فِيه ، لسعِد رَادُّها ، كما شَقِيَ قائلها » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

٢٢٠ — تأديب معاوية لجلسائه

أذِن معاويةُ للأحنف بن قيس — وقد وافى معاويةَ محمدُ بن الأشعث — فقدَّمه عليه ، فوَجَدَ[1] من ذلك محمد بن الأشعث ، وأذِن له فدخل فجلس بين معاوية والأحنف ، فقال معاوية :

« إنّا والله ما أذِنّا له قَبْلَك ، إلا ليجلس إلينا دونك ، وما رأيتُ أحداً يرفع نفسَه فوق قدرها ، إلاّ مِنْ ذِلَّة يجدها ، وقد فعلتَ فِعْلَ مَنْ أحَسَّ مِنْ نفسه ذلا وضَعَة ، وإنّا كما نَملِك أموركم ، نملك تأديبكم ، فأَريدوا منا ما نُريده منكم ، فإنه أبْقَى لكم ، وإلاّ قَصَرْناكم كَرْهًا ، فكان أشدَّ عليكم وأعنف بكم » . (البيان والتبيين ٢ : ٢٢٠)

٢٢١ — كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه

ولما سقطت ثَنِيَّتَا معاوية لَفَّ وجههُ بعِمامة ، ثم خرج إلى الناس ، فقال :

« لئن ابتُليتُ لقد ابتُلِيَ الصالحون قبلي ، وإني لأرجو أن أكون منهم . ولئن

---

(١) وجد : غضب .

عُوقبتُ لقد عوقب الخاطئون قبلى ، وما آمَن أن أكون منهم . ولئن سَقَط عُضوان منى ، لَمَا بَقِيَ أكثرُ . ولو أتَى على نفسى لما كان لى عليه خِيارٌ تبارك وتعالى ، فرَحِم الله عبداً دعا بالعافية ، فوالله لئن كان عَتَبَ علىّ بعضُ خاصّتكم ، لقد كنتُ حَدِباً[1] على عامّتكم » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

٢٢٢ – تقريع عبد الملك بن مروان لأحد عماله

وروى الجاحظ قال :

« قال أبو الحسن : كان عبد الملك بن مَرْوَان شَدِيدَ الْيَقَظَة ، كثير التعاهد لوُلاته ، فبلغه أن عاملاً من عماله قبِل هَدِيّة ، فأمر بإشخاصه إليه ، فلما دخل عليه قال : « أقَبِلت هدية منذ وليّتك ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، بلادك عامرة ، وخَراجك موفور ، ورَعيّتك على أفضل حال » قال : « أجِبْ فيما سألتك عنهُ ، أقَبِلْتَ هدية منذ وَلّيتك ؟ قال : نعم ، قال : لئنْ كنت قبِلْت وَلَمْ تعوِّض إنك لَلَئيم ، ولئن أنلتَ مُهْديك لامن مالك ، أو استكفيتَه مالم يكن يُسْتَكفاه ، إنك لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن تعوِّض المُهْدِيَ إليك من مالك ، وقبلت ما اتّهمك به عند من استكفاك ، وبَسَط لسان عائبك ، وأطمع فيك أهلَ عملك إنك لجاهل ، وما فيمن أتى أمرًا لم يَخْلُ فيه من دناءة ، أو خِيانة ، أو جهل ، مُصْطَنَع ، نحّياه عن عمله » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

---

(١) أى عطوفا .

طلب معاوية البيعة ليزيد

لما كانت سنةُ ثلاثٍ وخمسين ، أظهر معاوية عهداً مُفْتعلا ، فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيدَ بعده ، فلم يزل يَرُوضُ الناس لبيعته سبع سنين ، ويشاور ، ويُعطى الأقارب ، ويُدانى الأباعد ، حتى استوثق له من أكثر الناس .

فقال لعبد الله بن الزبير : « ما ترى فى بيعة يزيد ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، إنى أناديك ولا أناجيك[1] ، إن أخاك مَنْ صَدَقَك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكّر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكر قبل التندم » فضحك معاوية وقال : « ثعلبٌ روّاغ ! تعلمت السَّجاعة[2] عند الكبر ، فى دونِ ما سَجَعت به على ابن أخيك ما يكفيك » .

ثم التفت إلى الأحنف بن قيس ، فقال : « ما ترى فى بيعة يزيد ؟ » . قال : « نخافكم إن صدقناكم ، ونخافُ الله إن كذبنا » .

فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يَفِدوا عليه ، فوفد عليه من كل مصرٍ قوم[3] ، وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حَزْم ، فخلا به معاوية ، وقال له : « ما ترى فى بيعة يزيد ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحَبُّ إلىّ رشداً من نفسك سوى نفسى ، وإن يزيد أصبح غنيًّا فى المال ، وَسَطاً فى الحَسَب ، وإن الله سائلٌ كلَّ راعٍ عن رعيتهِ ، فاتق الله ،

---

(1) ناجيته : ساررته .
(2) وفى العقد « الشجاعة » وهو تصحيف ، ولم أجد « سجاعة » فى كتب اللغة ، وإنما الذى فيها هو « سجع » كشمس مصدر سجع كقطع ، وأرى أنها سجاعة ككتابة ، وقد ورد فى كلام المبرد : « فإن المختار كان يدعى أنه يلهم ضربا من السجاعة لأمور تكون . . . . الخ » .

(3) هكذا ورد فى العقد الفريد ، وفى مروج الذهب : أن وفود تلك الوفود كان سنة تسع وخمسين ، والمفهوم مما ورد فى الإمامة والسياسة أن وفودها كان قبل سنة ٥٠ ، وفى حياة الحسن بن على رضى الله عنه كما يتبين لك مما سيرد بعد (وقد توفى الحسن سنة ٤٩ ، أو سنة ٥٠ أو سنة ٥١) .

وانظر مَن تولِّى أمرَ أمة محمد » فأخذ معاويةَ بَهْرٌ[1] حتى تنفَّس الصُّعَدَاء[2] ، وذلك فى يوم شاتٍ ، ثم قال : « يا محمد : إنك امرؤ ناصح ، قلت برأيك ، ولم يكن عليك إلا ذاك . قال معاوية : إنه لم يبق إلا ابنى وأبناؤهم ، فابنى أحبُّ إلىّ من أبنائهم ، اخرج عنى » .

ثم دعا الضحاك بن قيس الفِهْرِىّ ، فقال له : إذا جلستُ على المنبر ، وفرغت من بعض موعظتى وكلامى ، فاستأذِنِّى للقيام ، فإذا أذِنت لك فاحمَد الله تعالى . واذكر يزيد . وقل فيهِ الذى يَحِقّ له من حسن الثناء عليهِ . ثم ادعُنى إلى توليته من بعدى . فإنى قد رأيت وَأَجْمَعْتُ على توليتهِ . فأسألُ الله فى ذلك وفى غيره الخِيَرة[3] وحسن القضاء .

ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثَّقَفِىّ ، وعبد الله بن مَسْعَدة الْفَزَارِىّ ، وثور بن مَعْن السُّلَمِىّ ، وعبد الله بن عِصَامٍ الأشعرىّ ، فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاك ، وأن يصدقوا قوله ، ويدعوه إلى يزيد .

وجلس معاوية فى أصحابه ، وَأذِن للوفود فدخلوا عليه ، فخطبهم ، فلما فرغ من بعض موعظته ، وهؤلاء النَّفَر فى المجلس قد قعدوا للكلام — قام الضحاك بن قيس فاستأذن فأذن له .

٢٢٣ - خطبة الضحاك بن قيس الفهرى

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين وأمْتَع به ، إنَّا قد بَلَوْنا[4] الجماعة والأُلفة ، فوجدناها أحْقَنَ للدماء ، وآمَنَ للسُّبُل ، وخيراً فى العاقبة والآجلة ، ولا خير لنا أن نُتْرَك سُدًى ،

(١) البهر بالفتح : العجب (٢) تنفس طويل . (٣) أى أسأله أن يختار لنا الأفضل ، خاره على غيره خيرة بكسر الخاء مع سكون الياء وفتحها : فضله وخار الله له فى الأمر : جعل له فيه الخير .

(٤) خبرنا .

والأيام عُوّج[1] رواجع ، وَالأنفس يُغْدَى عليها ويُرَاحُ ، والله يقول : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ . ولسنا ندرى ما يختلف به العَصْرَان[2] ، وأنت يا أمير المؤمنين ميت ، كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه ؛ نسأل الله تعالى بك المَتاع ، وقد رأينا من دَعَةِ يزيد ابن أمير المؤمنين ، وحُسْن مذهبه ، وقَصْد[3] سيرته ، ويُمْن نَقيبَته[4] ، مع ما قسم الله له من المحبة فى المسلمين ، والشَّبَه بأمير المؤمنين ، فى عقله وسياسته وشيمته المَرْضيَّة ، ما دعانا إلى الرضا به فى أمورنا ، والقُنوع به فى الولاية علينا ، فَلْيُوَلِّه أمير المؤمنين — أكرمه الله — عهدَه ، وليجعله لنا ملجأً ومَفْزَعًا بعده ، نأوِى إليه إن كان كَوْن[5] ، فإنه ليس أحد أحقَّ بها منه ، فاعزم على ذلك ، عزم الله لك فى رشدك ، ووفقَكَ فى أمورنا » .

٢٢٤ — خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفى

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثَّقَفِيّ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا فى زمانٍ مختلفةٍ أهواؤه ، قدِ احْدَوْدَبَت علينا سِيسَاؤه[6] ، واقْطَوْطَبَتْ[7] علينا أدْوَاؤه ، وأناخت علينا أنباؤه ، ونحن نُشِير

---

(١) بمعنى رواجع جمع عائجة اسم فاعل من عاج إذا رجع : أى أن الأيام تموج على الإنسان فتسلبه ما أعطى من الحياة ومتع العيش . (٢) العصر : اليوم والليلة والعشى إلى احمرار الشمس والغداة .

(٣) القصد : استقامة الطريق . (٤) النقيبة : النفس ، وهى أيضا العقل ، والمشورة ، ونفاذ الرأى ، والطبيعة . (٥) أى إن حدث حدث . (٦) السيساء : منتظم فقار الظهر ، وحمله على سيساء الحق أى على حده ، والعرب تضربه مثلا لشدة الأمر ، قال الشاعر :

لقد حملت قيس بن عيلان حربنا ... على يابس السيساء محدودب الظهر

يقول : حملناهم على مركب صعب كسيساء الحمار ، أى حملناهم على مالا يثبت على مثله .

(٧) اقطوطب : افعوعل من قطب ، وقب القوم : اجتمعوا ، وقطب بين عينيه : جمع ، والمراد : اجتمعت وتراكمت علينا أدواؤه ، ولم أجد كلمة « اقطوطب » فى كتب اللغة ، وإنما الذى فيها « اقطوطى » أى قارب فى مشيه إسراعا .

عليك بالرّشاد ، وندعوك إلى السّداد ، وأنت يا أمير المؤمنين أحسَنُنا نظراً ، وأثبَتُنا[1] بَصَراً ، ويزيد ابن أمير المؤمنين قد عرفنا سيرَتَه ، وبلَوْنا عَلانِيَتَه ، ورضينا ولايَتَه ، وزادنا بذلك انبساطاً ، وبه اغتباطاً[2] ، مع ما منحه الله من الشَّبَه بأمير المؤمنين ، والمحبَّة في المسلمين ، فاعزِم على ذلك ، ولا تضِقْ به ذَرْعاً[3] ، فالله تعالى يُقيم به الأوَدَ[4] ، ويردَعُ به الألدَّ[5] ، ويُؤمن به السُّبُل ، ويَجمعُ به الشَّمْل ، ويُعْظِم به الأجر ، ويُحْسِن به الذُّخرَ » . ثم جلس .

٢٢٥ — خطبة ثور بن معن السلمى

فقام ثور بن مَعْنٍ السُّلَمِىّ ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أميرَ المؤمنين ، إنا قد أصبحنا فى زَمانٍ ، صاحِبُه مُشاغَبٌ[6] ، وظِلّه ذاهِب[7] ، مكتوبٍ علينا فيه الشقاء والسعادةُ ، وأنت يا أمير المؤمنين ميِّت ، نسأل الله بك المتاع ، ويزيد ابن أمير المؤمنين أقدَمُنا شَرَفًا ، وأبذَلُنا عُرْفا[8] ، وقد دعانا إلى الرضا به ، والقُنوعِ بولايته ، والحرصِ عليه ، والاختيار له ، ما قد عَرَفْنا من صِدْق لسانه ووفائه ، وحُسْن بَلائه . فاجعله لنا بعدك خَلَفًا ، فإنه أوسعنا كَنَفًا[9] ، وأقدمنا سلَفًا ، وهو رَتْقٌ لما فُتِقَ ، وزِمَام لما شَعِث[10] ، ونَكالٌ لمن فارقَ ونافَق ، وَسَلْمٌ لمن واظب . وحافِظٌ للحق . أسأل الله لأمير المؤمنين أفضلَ البقاء والسعادة ، والخِيَرة فيما أراد ، والتوطُّن فى البلاد ، وصلاَح أمر جميع العباد .

ثم جلس .

---

(١) لعله «وأثقبنا» . (٢) بسط فلانا فانبسط: سره والاغتباط : المسرة. (٣) ضاق بالأمر ذرعا : ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصا . (٤) الاعوجاج . (٥) الألد : الخصم الشحيح الذى لا يزيغ إلى الحق . (٦) صاحبه يعنى به معاوية ، أى يشاغبه المشاغبون، اسم مفعول من الشغب : وهو تهييج الشر . (٧) كناية عن دنو أجله . (٨) المعروف . (٩) الكنف : الظل والجانب . (١٠) شعث الأمر ، كفرح شعثا : انتشر وتفرق .

٢٢٦ — خطبة عبد الله بن عصام الأشعرى

فقام عبد الله بن عِصَام ، فحمد الله ، وأثنى عليهِ ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمْتَعَ به ، إنا قد أصبحنا فى دُنْيَا مُنْقَضِية ، وأهواء منجذمة[1] ، نخاف حَدَّها ، وننتظر جِدَّها ، شديدٍ مُنْحَدَرُها ، كثيرٍ وَعْرُها ، شامخةٍ مَرَاقِبُها[2] ، ثابتةٍ مراتبُها ، صعبةٍ مرا كبُها ، فالموتُ يا أمير المؤمنين وراءك ووراء العباد لايخلُد فى الدنيا أحد ، ولا يَبقى لنا أمَدٌ[3] ، وأنت يا أمير المؤمنين مسئول عن رعيتك ، ومأخوذ بولايتك ، وأنت أنْظَر الجماعة ، وأعلى عيناً بحُسْنِ الرأى لأهل الطاعة ، وقد هُدِيت ليزيدَ فى أكمل الأمور ، وأفضلِها رأياً ، وأجمعِها رِضاً ، فاقطع بيزيد قالَةَ[4] الكلام ، ونَخْوَةَ[5] المُبطِل ، وشَمَتَ المنافق ، واكْبِتْ[6] به الباذخ[7] المعادى ، فإن ذلك آلَمُ للشَّمَت ، وأسهل للوَعْثِ[8] ، فاعزم على ذلك ، وَلا تترامى بك الظنون » .

٢٢٧ — خطبة عبد الله بن مسعدة الفزارى

ثم قام عبد الله بن مَسْعَدَة الفزارى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتَعَ به ، إن الله قد آثرك بخلافته ، واختصَّك بكرامته ، وجعلك عِصْمَةً لأوليائه ، وذا نكايةٍ لأعدائه ، فأصبحت بأنْعُمِه جذِلا ،

---

(١) جذمه فانجذم : قطعه . (٢) المراقب : جمع مرقب (كجعفر) المكان المشرف ، يقف عليه الرقيب . (٣) الأمد : الغاية والمنتهى . (٤) قالة : جمع قائل ، أو مصدر قال كالقول ، والقال ، والقيل . (٥) الكبر والعظمة . (٦) كبته : صرعه وأخزاه ، ورد العدو بغيظه ، وأذله . (٧) بذخ كفرح ونصر : تكبر وعلا ، وشرف باذخ : عال. (٨) وعث الطريق من بابى تعب وقرب : إذا شق على السالك ، فهو وعث (بسكون العين وكسرها) .

ولِمَا حَمَّلك مُحتمِلا ، يكشف الله تعالى بك العمى[1] ، وَيَهْدِى بك العِدا ، ويزيدُ ابنُ أمير المؤمنين أحسنُ الناس برعيتك رأفةً ، وأحقُّهم بالخلافة بعدك ، قد ساسَ الأمور وأحكمته الدهورُ ، ليس بالصغير الفَهِيه[2] ، ولا بالكبير السَّفِيه ، قد احتجن[3] المكارم وارْتُجِيَ لحمل العَظائِم ، وأشد الناس فى العدو نكايةً ، وأحسنهم صُنْعاً فى الولاية ، وأنت أغنى بأمرك ، وأحفظَ لوصيتك ، وأحرزُ لنفسك ، أسأل الله لأمير المؤمنين العافيةَ فى غير جَهْدٍ[4] ، والنعمةَ فى غير تغيير » .

٢٢٨ - خطبة عمرو بن سعيد الأشدق

فقال معاوية لعمرو بن سعيد الأشدق : قم يا أبا أمية ، فقام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن يزيدَ بن معاوية أمَلٌ تأمُلونه ، وأجَلٌ تأمنونه ، طويل الباع ، رَحْبُ الذِّراع ، إن استضفتُم إلى حلمه وَسِعكم ، وَإن احتجتم إلى رأيه أرشدكم ، وإن افتقرتم إلى ذاتِ يده أغناكم ، جَذَعٌ[5] قارِحٌ[6] ، سُوبِقَ فسَبَقَ ، وَمُوجِدَ فَمَجَدَ ، وقُورِعَ ففاز سهمه ، فهو خَلَفُ أمير المؤمنين ، ولا خَلَفَ منه » . فقال له معاوية : « اجلس أبا أمية . فلقد أوسعت وأحسنت » .

قال معاوية : « أوَ كلُّكم قد أجمع على هذا رأيه ؟ » فقالوا : « كُلُّنا قد أجمع

---

(١) العمى هنا : ذهاب بصر القلب . (٢) الفهيه والفهّ : العيى ، فهه كفرح فهاهة .

(٣) احتجن المال : ضمه واحتواه . (٤) المشقة . (٥) الجذع : الشاب الحدث .

(٦) أى شديد مجرب ، وهو فى الأصل وصف للفرس ، قرح الفرس قروحا : إذا ألقى أقصى أسنانه (وله أربع أسنان يتحول من بعضها إلى بعض ، يكون جذعا — وذلك إذا كان فى السنة الثانية — ثم ثنيا « بفتح فكسر مع تشديد الياء » — فى السنة الثالثة — ثم رباعيا « بفتح أوله وثانيه وتخفيف الياء » — إذا سقطت رباعيته ، ونبت مكانها سن وذلك إذا استتم الرابعة — ثم قارحا — إذا سقطت السن التى تلى رباعيته ونبت مكانها نابه ، وهو قارحه الذى صار به قارحا ، وليس بعد القروح سقوط سن ، ولانبات سن ، وذلك إذا استتم الخامسة ودخل فى السادسة) .

رأيه على ما ذكرنا » . قال : « فأين الأحنف ؟ » فأجابه ، قال : « ألا تتكلم ؟ » فقام الأحنف .

٢٢٩ — خطبة الأحنف بن قيس

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسَوا فى مُنكَرِ زمانٍ قد سَلَف ، ومعروفِ زَمَانٍ مُؤْتَنَف[1] ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نِعْمَ الخَلَف ، فإنْ تُوَلِّه عهدَك ، فمن غير كِبَرٍ مُفْنٍ ، أو مَرَض مُضْنٍ ، وقد حَلَبْتَ الدهور[2] ، وجرَّبت الأمورَ ، فاعرِفْ من تُسْنِدُ إليه عهدك ، ومن توليه الأمر من بعدك ، واعصِ رأى من يأمرك ، ولا يقدِّر لك ، ويشير عليك ولا ينظر لك ، وأنت أنظَرُ للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة ، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضَون بهذا ، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن[3] حيا » .

٢٣٠ — خطبة الضحاك بن قيس

فغضب الضحاك بن قيس ، فقام الثانية ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النِّفاق من أهل العراق ، مُرُوءتُهم فى أنفسهم الشقاقُ ، وأُلْفَتُهم فى دينهم الفِراقُ ، يَرَون الحق على أهوائِهم[4] ، كأنما ينظرون

---

(١) مستأنف . (٢) هكذا فى مروج الذهب . وفى الإمامة والسياسة : « وقد حلبت الدهر أشطره » وأصله من حلب شطرى الناقة (بفتح الشين) ولها شطران : قادمان وآخران (بكسر الخاء) والشطر كل خلفين من أخلافها » والخلف (بكسر الخاء) لها كالضرع للبقرة ، وهو مثل يضرب للمجرب ، وأشطره بدل من الدهر منصوب . (٣) هذا وما ورد فى كلام الضحاك والأحنف بعد ، يدل على أن تلك الخطب كانت فى حياة الحسن بن على كما أشرنا إليه قبل . (٤) أى على أغراضهم وميولهم .

بأقفائهم . اختالوا جهلا وبطَرًا . لا يرقُبون من الله راقبةً ، ولا يخافون وبالَ عاقبةٍ ، اتّخذوا إبليسَ لهم ربًّا ، واتخذهم إبليس حزبًا . فمن يُقاربوه لا يَسُرُّوه ، ومن يفارقوه لا يَضُرُّوه . فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين فى نحورهم ، وكلامهم فى صدورهم ، ما الحسن وذوى الحسن فى سلطان الله الذى استخلَفَ به معاوية فى أرضه ؟ هيهات لا تُورَث الخلافة عن كَلالة . ولا يحجُب غيرُ الذَّكَرِ العَصَبَةَ . فوطِّنُوا أنفسكم يأهلَ العراق على المناصحة لإمامكم . وكاتبِ نبيكم[1] وصهرِه[2] ، يَسْلَمْ لكم العاجلُ ، وتربحوا من الآجل » .

٢٣١ — خطبة الأحنف بن قيس

ثم قام الأحنف بن قيس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين : إنا قد فَرَرنا[3] عنك قريشًا ، فوجدناك أكرَمَها زَنْدًا ، وأشدها عَقْدًا ، وأوفاها عَهْدًا ، وقد علمتَ أنك لم تفتح العراقَ عَنْوَةً[4] ، ولم تَظْهَر عليها قَعْصًا[5] ، ولكنك أعطيت الحسن بن علىّ من عهود الله ما قد علمتَ ، ليكون له الأمر من بعدك ، فإن تَفِ فأنت أهلُ الوفاء ، وإن تغدِر[6] تعلمْ والله أن وراء الحسن خيولًا جيادًا ، وأذرُعًا شِدَادًا ، وسيوفًا حِدَادًا ، إن تدنُ له شِبْرًا من غَدْر ، تجدْ وراءه باعًا من نَصْر ، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذُ أبغضوك ، ولا أبغضوا عليًّا وحَسَنًا منذُ أحبوهما ، وما نزل عليهم فى ذلك خَبَر من السماء ، وإن السيوف التى شَهَرُوها عليك مع علىّ يوم صفين لَعَلَى عواتقهم ، والقلوبَ التى أبغضوك بها ، لبَيْنَ جوانحهم ، وَايم الله إن الحسن لأَحَبُّ إلى أهل العراق من علىّ » .

---

(١) وكان معاوية من كتاب الوحى . (٢) وكانت أخته أم حبيبة بنت أبى سفيان زوج النبى عليه الصلاة والسلام . (٣) فر الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ما سنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه .

(٤) فتح البلد عنوة : أى قهرا . (٥) مات قعصا : أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه .

(٦) غدره وغدر به كنصر وضرب وسمع .

٢٣٢ — خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفى

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثَّقَفِيّ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إنَّ رأيَ الناس مختلِف ، وكثير منهم منحرِف ، لا يدعُون أحدًا إلى رشاد ، ولا يُجيبون داعيًا إلى سَداد ، مجانبون لرأى الخلفاء ، مخالفون لهم فى السُّنة والقضاء ، وقد وقفتَ ليزيدَ فى أحسنِ القضية ، وأرضاها لِحَمْل الرعية ، فإذا خار الله لك فاعزِم ، ثم اقطع قالةَ الكلام ، فإن يزيد أعظمُنا حِلْمًا وعلمًا ، وأوسَعُنا كَنَفًا ، وخيرنا سَلَفًا ، قد أحكمتْه التجاربُ ، وقَصَدت به سُبُل المذاهب ، فلا يصرفَنَّك عن بيعته صارف ، ولا يَقِفَنَّ بك دونها واقف ، ممن هو شاسِعٌ[١] عاصٍ ، يَنُوصُ[٢] للفتنة كلَّ مَناصٍ ، لسانُه ملتوٍ ، وفى صدره داءٌ دَوِىّ ، إن قال فشرُّ قائل ، وإن سكت فداءٌ غائلٌ[٣] ، قد عرفنا مَنْ هم أولئك ، وما هم عليه لك ، من المجانبة للتوفيق ، والتكلف للتفريق ، فاجْلُ ببيعته عنا الغُمَّة ، واجمع به شَمْلَ الأمة ، ولا تَحِد عنه إذ هُدِيتَ له ، ولا تَنْبُش عنه إذْ وُفِّقتَ له ، فإن ذلك الرأى لنا ولك ، والحقُّ علينا وعليك . أسأل الله العونَ وحسن العاقبة لنا ولك بمَنِّه » .

٢٣٣ — خطبة معاوية

فقام معاوية ، فقال :

« أيها الناس : إن لإبليس من الناس إخوانًا وَخُلّانا ، بهم يَستعدُّ ، وإياهم يستعين وعلى ألسنتهم ينطِق ، إن رجَوا طَمَعًا أو جَفوا[٤] وإن استُغنى عنهم أرْجفوا[٥] ،

---

(١) من شسع المنزل كمنع : بعد . (٢) ناص مناصا : تحرك . (٣) من غاله : أى أهلكه.

(٤) أسرعوا ، وجف البعير والفرس وجيفا : عدا ، وأوجفته : إذا أعديته ، قال تعالى : « فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ » أى ما أعملتم .

(٥) أرجف القوم: خاضوا فى أخبار الفتن ونحوها ، قال تعالى: « وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ » .

ثم يُلقِحُون[١] الفتن بالفُجُور ، ويشققون لها حَطب النفاق ، عَيَّابون مرتابون ، إن لَوَوْا عُروة أمرٍ حَنِفوا ، وَإن دُعُوا إلى غيّ أسرفوا ، وَليسوا أولئك بمُنْتَهِينَ وَلا بمُقْلِعِينَ وَلا متّعظين ، حتى تصيبهم صواعقُ[٢] خزيٍ وَبيل ، وتَحُلّ بهم قوارعُ[٣] أمر جليل ، تجتثّ[٤] أصولهم كاجتثاث أصول الفَقْع ، فأولى لأُولئك ثم أولَى ، فإنا قد قدّمنا وَأنذرنا ، إن أغنى التقدم شيئًا أو نفع النُّذُر[٥] » .

٢٣٤ — خطبة يزيد بن المقنع

ثم قام يزيد بن المُقَنَّع ، فقال :

« أمير المؤمنين هذا — وأشار إلى معاوية — ، فإن هلك فهذا — وأشار إلى يزيد — ، فمن أبَى فهذا — وأشار إلى سيفه » ، فقال معاوية : اجلس فإنك سيد الخطباء .

٢٣٥ — خطبة الأحنف

ثم تكلم الأحنف بن قيس ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : أنت أعلمنا بيزيدَ فى ليله وَنهاره ، وَسره وَعلانيته ، وَمَدْخله وَمَخرجهِ ، فإن كنت تعلمهُ لله رِضاً ولهذه الأمة ، فلا تشاور الناس فيهِ ، وَإن كنت تعلم

---

(١) فى الأصل « يلحقون » وهو تحريف ، وصوابه : « يلقحون » من ألقح الناقة والنخلة .

(٢) جمع صاعقة : وهى الموت وكل عذاب مهلك . وأرض وبيلة : وخيمة المرتع .

(٣) جمع قارعة ، وهى الداهية الفاجئة . قال تعالى : « وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » . (٤) تقتلع ، والفقع بالفتح ويكسر : البيضاء الرخوة من الكمأة .

(٥) النذر : الإنذار . قال تعالى : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ » أى إنذارى . وفى الإمامة والسياسة عقب هذه الخطبة : «وقدما معاوية الضحاك فولاه الكوفة ، ودعا عبد الرحمن فولاه الجزيرة » .

منه غير ذلك ، فلا تزوِّده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب ، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدَّمت يزيد على الحسن والحسين ، وأنت تعلم مَن هما ، وإلى ما هما ، وإنما علينا أن نقول : « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

قال صاحب العقد : فتفرق الناس ، ولم يذكروا إلا كلام الأحنف ، ثم بايع الناس ليزيد بن معاوية ، فقال رجل وقد دُعِيَ إلى البَيْعة « اللهم إنى أعوذ بك من شرِّ معاوية » فقال له معاوية : « تعوذْ من شر نفسك ، فإنه أشد عليك وبايعْ » فقال : « إنى أبايع وأنا كاره للبيعة » ، فقال له معاوية : بايع أيها الرجل فإن الله يقول : « فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .

أما ابن قتيبة فيقول :

قالوا : فاستخار اللهَ معاويةُ ، وأعرض عن ذكر البيعة ، حتى قدم المدينة سنة خمسين ، فتلقاه الناس ، فلما استقرَّ فى منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه ألاَّ يأذن لأحد من الناس حتى يخرجُ هؤلاء النفر ، فلما جلسوا تكلم معاوية فقال :

٢٣٦ — خطبة معاوية

« الحمد لله الذى أمرَنا بحَمْده ، ووعدَنا عليه ثوابَه ، نحمَدُه كثيراً ، كما أنعم علينا كثيراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وَحْدَه لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد: فإنى قد كبِر سِنِّى ، وَوَهَن عظمى ، وقرُب أجلى ، وأوشكتُ أن أُدْعَى فأُجيب ، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيته لكم رِضاً ، وأنتم عبادلةُ قريش وخِيارُها وأبناء خِيارها ، ولم يمنعنى أن أحضِرَ حَسَناً وحُسَيناً إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حُسْنِ رأيى فيهما ، وشديدِ محبتى لهما ، فردُّوا على أمير المؤمنين خيراً ، يرحمكم الله » .

٢٣٧ — خطبة عبد الله بن عباس

فتكلم عبد الله بن عباس فقال :

« الحمد لله الذى ألهمنا أن نحمده ، واستوجب علينا الشكرَ على آلائه ، وحُسْن بَلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وصلى الله على محمد وآل محمد . أما بعد : فإنك قد تكلمتَ فأنصَتْنا . وقلتَ فسمِعْنا ، وإن الله جل ثناؤه ، وتقدَّسَت أسماؤه ، اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته ، واختاره لوحيه ، وشرّفه على خلقه ، فأشرفُ الناس من تَشَرّف به ، وأولاهم بالأمرِ أخصُّهُم به ، وإنما على الأمة التسليم لنبيها إذ اختاره الله لها ، فإنه إنما اختار محمداً بعلْمه ، وهو العليم الخبير ، وأستغفر الله لى ولكم » .

٢٣٨ — خطبة عبد الله بن جعفر

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

« الحمد لله أهل الحمد ومُنْتَهاه ، نحمَدُه على إلهامِنا حمدَه ، ونرغب إليه فى تأدية حقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله واحدًا صَمَدًا[1] ، لم يتخذ صاحبةً ولا ولدا ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : فإن هذه الخلافة إنْ أُخِذ فيها بالقرآن : فـ « أُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ » وإن أُخِذ فيها بسنة رسول الله ، فأُولُو رسول الله ، وإن أُخِذ بسُنَّة الشيخين أبى بكر وعمر ، فأىُّ الناس أفضلُ وأكملُ وأحق بهذا الأمر من آلِ الرسول ؟ وايمُ الله لو وَلُوه بعد نبيهم ، لوضعوا الأمر موضِعَه ، لِحَقّه وصدقِهِ ، ولَأُطِيعَ اللهُ ، وعُصِىَ الشيطان ، وما اختلف فى الأمة سيفان ، فاتّقِ الله يا معاوية ، فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية ، فانظر لرعيتك ، فإنك مَسْئول عنها غداً

(١) الصمد : السيد لأنه يصمد إليه فى الحوائج : أى يقصد ، صمده من باب نصر : قصده .

وأما ما ذكرت من ابنَيْ عمى ، وتركك أن تُحضِرهما ، فوالله ما أصبتَ الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما مَعْدِن العلم والكرم ، فقُلْ أوْدَعْ ، وأستغفر الله لى ولكم » .

٢٣٩ — خطبة عبد الله بن الزبير

فتكلم عبد الله بن الزبير فقال :

« الحمد لله الذى عرّفنا دينَهُ ، وأكرمنا برسوله ، أحمَده على ما أبْلَى وأولى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ؛ أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريشٍ خاصّةً ، تتناولها بمآثرها السَّنِيَّة ، وأفعالِها المَرْضيَّة ، مع شرف الآباء ، وكَرَم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية ، وأنْصِفْ من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابنُ عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا عبد الله بن جعفر ذى الجناحين ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعَلِيٌّ خلَّف حَسَناً وحُسيناً ، وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

٢٤٠ — خطبة عبد الله بن عمر (المتوفى سنة ٧٤ هـ)

فتكلم عبد الله بن عمر فقال :

الحمد لله الذى أكرَمنا بدينه ، وشرّفنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أما بعد : فإن هذه الخلافة ليست بِهِرَقْلِيَّة ، ولا قَيْصَرِيَّة ، ولا كِسْرَوِيَّة ، يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنتُ القائمَ بها بعد أبى ، فوالله ما أدخلنى مع الستة من أصحاب الشُّورى ، إلاَّ على أن الخلافة ليست شرطاً مشرُوطاً ، وإنما هى فى قريش خاصّةً ، لِمَن كان لها أهلاً ، ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ، مَنْ كان أتقىْ وأرْضَى ، فإن كنت تريد الفِتْيان من قريش ، فلعمرى إن يزيد من فتيانها ، واعلم أنَّه لا يُغْنِي عنك من الله شيئاً » .

٢٤١ — خطبة معاوية

فتكلم معاوية فقال :

« قد قلتُ وقلتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابني أحبُّ إليَّ من أبنائهم، مع أن ابني إنْ قاولتموه⁽¹⁾ وجد مقالا ، وَإنما كَانَ هذا الأمر لبني عبد مَناف، لأنهم أهل رسول الله صلى الله عليهِ وَسلم ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليهِ وَسلم وَلّى الناسُ أبا بكر وَعمر ، من غير مَعْدِنِ الملك وَلا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بني عبد مَناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير وأنت يا بنَ عمرَ منها. فأما ابنا عَمّي هذان فليسا بخارجَيْن من الرأى إن شاء الله» ثم أمر بالرحلة وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد ، ولم يقطع عنهم شيئاً من صِلاتهم وأَعْطِيَاتهم⁽²⁾ ، ثم انصرف راجعاً إلى الشأم ، وَسكت عن البيعة ، فلم يَعْرِض لها إلى سنة إحدى وخمسين .

* * *

قال ابن قتيبة : ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمهُ الله (سنة ٥١) إلا يسيراً حتى بايع ليزيد بالشأم، وكتب ببيعتهِ إلى الآفاق، وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم فكتب إليهِ بذلك، وأمره أن يجمع مَنْ قِبَله من قريش وغيرهم من أهل المدينة، ثم يبايعوا ليزيد ، فلما قرأ كتابَ معاوية أَبَى من ذلك وَأَبَتْه قريش ، وكتب إلى معاوية : إن قومك قد أَبَوا إجابتك إلى بيعتك ابنَك ، فأرِني رأيك ، فكتب إليهِ يأمره أن يعتزل عمله ، وَيخبره أنه قد وَلّى المدينة سعيد بن العاص ، فخرج مروَان مُغاضِباً في أهل بيتهِ وأخواله من بني كِنانة حتى أتى دمشق ، وَدخل على معاوية ، فسلم عليهِ بالخلافة ، ثم قال:

---

(1) قاول : فاعل من القول، كحادث وخاطب وكالم. (2) أعطيات: جمع أعطية، وهو جمع عطاء.

٢٤٢ - خطبة مروان بن الحكم

« إن الله عظيمٌ خَطَرُه ، لايَقْدِرُ (١) قادرٌ قَدْرَهُ ، خَلَق من خَلْقه عِباداً ، جعلهم لدعائم دينه أوتاداً . هم رُقَباؤه على البلاد ، وُخَلَفَاؤه على العباد ، أسْفَرَ (٢) بهم الظُّلَمَ ، وَأَلَّفَ بهم الدينَ ، وشَدَّدَ بهم اليقينَ ، وَمَنَحَ بهم الظَّفَرَ ، وَوَضَع بهم من استكبر ، فـكان مَنْ قَبلَك من خلفائنا ، يعرفون ذلك فى سالف زماننا ، وَكنا نـكون لهم على الطاعة إخواناً ، وَعلى من خالف عنها أعواناً ، يُشَدُّ بنا العَضُدُ ، وَيُقام بنا الأَوَد ، وَنُسْتَشار فى القضية ، وَنُسْتَأمَر (٣) فى أمر الرعية ، وَقد أصبحنا اليوم فى أمور مستحِيرة (٤) ، ذات وجوه مستديرة ، تُفتَح بأزمَّة الضلال ، وَتُحْلَس (٥) بأسوأ الرحال ، يُؤْكل جَزُورها (٦) ، وَتُمْتَقُّ أحلابُها (٧) ، فمالَنا لانُستأمَر فى رَضاعها ، وَنحن فِطامُها وَأَوْلادُ فِطامِها ، وَأَيْمُ الله لولا عهودٌ مؤكَّدة ، وَمواثيقُ مُعَقَّدة (٨) ، لأقمتُ أَوَد وَليِّها ، فأقم الأمر يابنَ أبى سفيان ، واعدل عن تأميرك الصبيانَ ، وَاعلم أن لك فى قومك نُظَرَاء ، وَأن لهم على مناوأتك وُزَرَاء » .

فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً ، ثم كَظَم غيظه بحِلمه ، وَأخذ بيد مروان ، ثم قال :

---

(١) قدره من بابى نصر وضرب وقدره تقديرا : عظمه ، قال تعالى : «وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ» أى ماعظموه حق تعظيمه . (٢) سفر الصبح وأسفر : أضاء وأشرق ، أو هو متعد من سفرت الحرب أى ولت ، وسفرت المرأة كشفت عن وجهها ، فالمعنى كشف بهم الظلم . (٣) الاستئمار : المشاورة .

(٤) فى الأصل «مستخيرة» أى مستخير صاحبها ، من استخار الله فى أمره : طلب أن يجعل له فيه الخير ، وأرى أنها « مستحيرة » بالحاء : أى مستحير صاحبها أى متحير ، من استحار : إذا نظر إلى الشيء ، فغشى عليه ولم يهتد لسبيله ، ويؤيد هذا قوله بعد « ذات وجوه مستديرة » أى مستغلقة مبهمة ليست مستقيمة .

(٥) حلس البعير كضربه : غشاه بحلس (بكسر الحاء) وهو كساء على ظهر البعير تحت البرذعة « وفى الأصل « وتجلس بأسوأ الرجال » بجيمين وهو تصحيف » . (٦) الجزور : البعير ، أو خاص بالناقة المجزورة . (٧) امتق الفصيل مافى الضرع شربه كله ، والأحلاب جمع حلب (بفتحتين) وهو اللبن المحلوب.

(٨) اسم مفعول من عقد بالتشديد مضعف عقد الحبل والبيع والعهد : إذا شده .

٢٤٣ — خطبة معاوية

« إن الله قد جعل لكل شيء أصلا ، وَجعل لكل خير أهلا ، ثم جعلك في الكرم مني مُحْتِدا[1] ، والعزيز مني وَالداً ، اخترْتَ من قُرُوم[2] قادة ، ثم اسْتُلِلتَ سَيِّدَ سَادة ، فأنت ابن ينابيع الكرم ، فَمَرْحَبًا بك وَأهلا من ابن عم ، ذكرتَ خلفاء مفقودين ، شهداء صِدِّيقين ، كانوا كما نعتَّ ، وَكنتَ لهم كما ذكرتَ ، وقد أصبحنا في أمور مستحيرة ، ذاتِ وجوه مستديرة ، وبك والله يا بنَ العم نرجو استقامة أَوَدِها ، وذلولة[3] صعوبتها ، وسُفُور ظُلْمتها ، حتى يتطأطأ[4] جسيمُها ، ويُرْكَب بك عظيمُها ، فأنت نظير أمير المؤمنين ، وعُدَّته في كلّ شديدة وعضُده ، والثاني بعد وليّ عهده ، فقد وليّتك قومك ، وأعظمتُ في الخراج سَهمك ، وأنا مجيزٌ وَفْدَكَ ، ومحسنٌ رِفْدك[5] ، وعلى أمير المؤمنين غِناك ، والنزول عند رضاك[6] » .

٢٤٤ — مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر

وروى أن مروان لما ورد عليه كتابُ معاوية ، قرأه على أهل المدينة وقال :

« إن أمير المؤمنين قد كبِر سِنّه ، ودَقّ عظمه ، وقد خاف أن يأتيه أمر الله تعالى ، فيَدَعَ الناس كالغنم لاراعيَ لها ، وقد أحب أن يُعْلِم عَلَمًا ، ويقيم إمامًا » ، فقالوا : وفّق الله أمير المؤمنين وسدَّده ، ليفعل ، فكتب بذلك إلى معاوية ، فكتب إليه أنْ سمِّ يزيدَ ،

---

(١) المحتد: الأصل . (٢) جمع قرم بالفتح : وهو السيد . (٣) هكذا في الأصل ، وفي كتب اللغة : « الذل بالكسر والضم اللين وهو ضد الصعوبة ، ذل فهو ذلول ، يكون في الإنسان والدابة» .

(٤) طأطأ رأسه : خفضه فتطأطأ . (٥) الرفد : العطاء والصلة . (٦) قال المسعودى : « وجعله ولي عهد يزيد : ورده إلى المدينة ، ثم إنه عزله عنها ، وولاها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، ولم يف لمروان بما جعل له من ولاية عهد يزيد » ، وقال ابن قتيبة : « فكان أول مارزق ألف دينار في كل هلال ، وفرض له في أهل بيته مائة مائة » .

فقرأ الكتاب عليهم وسمَّى يزيد ، وخطبهم فحضَّهم على الطاعة ، وحذرهم الفتنة ، ودعاهم إلى بيعة يزيد وقال : سنَّة أبى بكر الهادية المهديَّة ، فقام عبد الرحمن بن أبى بكر ، فقال : « كذبتَ والله يا مروانُ ، وكذب معاوية معك ، إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة ، و بايع لرجل من بنى عدِىٍّ رضى دينه وأمانته ، واختاره لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يكون ذلك ، لا تُحْدِثوا علينا سُنَّة الروم ، كلما مات هِرَقْلٌ قام مكانه هرقل ، فقال مروان : « أيها الناس : إن هذا المتكلم هو الذى أنزل الله فيه : « وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي (١) » ، فقال له عبد الرحمن :

(١) أخرج : أبعث ، قال صاحب الأمالى : « فسمعت ذلك عائشة رضى الله عنها فقالت : ألابن الصديق يقول هذا ؟ استرونى فستروها ، فقالت : كذبت والله يامروان إن ذلك لرجل معروف نسبه » ، وقال المفسرون فى هذه الآية : « والمراد (بالذى قال) الجنس القائل ذلك القول ، وعن الحسن : هو فى الكافر العاق لوالديه ، المكذب بالبعث ، وعن قتادة : نعت عبد سوء : عاق لوالديه ، فاجر لربه ، وقيل نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر قبل إسلامه ، وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام ، فأفف بهما ، وقال : ابعثوا إلى جدعان بن عمرو ، وعثمان بن عمرو — وهما من أجداده — حتى أسألهما عما يقول محمد ، ويشهد ببطلانه أن المراد بالذى قال جنس القائلين ذلك ، وأن قوله : « الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » هم أصحاب النار ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . وعن عائشة رضى الله عنها إنكار نزولها فيه ، وحين كتب معاوية إلى مروان أن يبايع الناس ليزيد ، قال عبد الرحمن : لقد جئتم بها هرقلية ، أتبايعون لأبنائكم ؟ فقال مروان : يأيها الناس هو الذى قال الله فيه « والذى قال لوالديه . . . الآية » فسمعت عائشة فغضبت ، وقالت : « والله ماهو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، أما أنت يامروان ، فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك وأنت فى صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله » اه .

(وقولها فضض كجبل ويروى كعنق وغراب أى قطعة منها) .

وجاء فى السيرة الحلبية (١ : ٢ . ٣) : « عن الواقدى ، استأذن الحكم بن أبى العاص على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرف صوته ، فقال : « ائذنوا له لعنه الله ومن يخرج من صلبه إلا المؤمنين منهم — وقليل ماهم — ذوو مكر وخديعة ، يعطون الدنيا ، وما لهم فى الآخرة من خلاق » ، وكان لايولد لأحد ولد بالمدينة إلا أتى به النبى صلى الله عليه وسلم ، فأتى إليه بمروان لما ولد ، فقال : « هو الوزغ بن الوزغ ، الملعون بن الملعون » وعن جبير بن مطعم : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر الحكم بن أبى العاص ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ويل لأمتى مما فى صلب هذا » .

—

« يابن الزرقاء[1] ، أفينا تتأولُ القرآن ؟ » وتكلم الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير ، وعبدا لله بن عمر، وأنكروا بيعة يزيد ، وتفرق الناس ، فكتب مروان إلى معاوية بذلك .

قال ابن قتيبة : فقدم معاوية المدينة حاجًا ، ثم أرسل إلى الحسين بن عليّ وعبد الله ابن عباس فحضرا ، وابتدأ معاوية فقال :

٢٤٥ — خطبة معاوية

« أما بعد : فالحمد لله وَلِيِّ النعم ، ومُنزل النقَم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، المتعالي عما يقول المُلحِدون عُلوًّا كبيراً ، وأن محمداً عبدُه المختصُّ المبعوثُ إلى الجن والإنس كَافَّةً ، ليُنذِرَهم بقرآن: « لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » فأدَّى عن الله ، وَصَدَعَ[2] بأمره ، وصَبَر على الأذى في جَنْبِهِ ، حتى أوضح دينَ الله ، وأعزَّ أولياءه ، وقَمَع المشركين ، وظهر أمرُ الله وهم كارهون ، فمضى صلوات الله عليه ، وقد ترك من الدنيا ما بُذِل له ، واختار منها التركَ لما سُخِّر له ، زهادةً واختيارا لله ، وأَنَفَةً واقتداراً على الصبر ، وبَغْيًا لما يدوم ويبقَى ، وهذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم خَلَفَهُ رجلان محفوظان ، وثالثٌ مشكوك ، وبين ذلك خَوْضٌ طالما عالجناه ، مشاهدةً

وجاء في أسد الغابة في ترجمته : « ذكره عبد الرحمن بن حسان بن ثابت » في هجائه لعبد الرحمن ابن الحكم ، فقال :

إن اللعين أبوك فارم عظامه إن ترم ترم مخلجا مجنونا

وقد روى في لعنه ونفيه أحاديث كثيرة لاحاجة إلى ذكرها ، إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي صلى الله عليه وسلم ، مع حلمه وإغضائه على مايكره ، مافعل به ذلك إلا لأمر عظيم » ، وجاء في الفخرى ص ١٠٨ « ورويت أحاديث وأخبار في لعنة الحكم بن أبي العاص ، ولعنة من في صلبه ، وضعفها قوم » .

(١) في الفخرى ص ١٠٨ « وكان من أراد ذم مروان وعيبه يقول له يابن الزرقاء » قالوا : وكانت الزرقاء جدتهم من ذوات الرايات التي يستدل بها على بيوت البغايا في الجاهلية ، فلذلك كانوا يذمون بها » .

(٢) قوله تعالى : « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » أي شق جماعاتهم، بالتوحيد أو اجهر بالقرآن، أو أظهر أو احكم بالحق وافصل بالأمر، أو اقصد بما تؤمر، أو افرق به بين الحق والباطل .

وَمكاشفةً ، وَمعاينةً وَسَماعاً ، وَما أعلمُ منهُ فوق ماتعلمان ، وقد كان من أمر يزيدَ ماسَبَقتم إليهِ وَإلى تجويزه ، وقد علم الله ماأحاول به من أمر الرعية ، من سَدِّ الخلَل ، ولمِّ الصَّدْع بولاية يزيد ، بما أيقظَ العينَ ، وأحْمَدَ الفِعْلَ ، هذا معناىَ في يزيد ، وَفيكما فضلُ القرابة ، وَحُظْوة العِلم ، وَكمال المُروءة ، وقد أصبتُ من ذلك عند يزيد على المناظرة وَالمقابلة ، ما أعياني مِثلُه عندكما ، وعند غيركما ، مع علمهِ بالسنةِ وَقراءةِ القرآن ، وَالحِلم الذى يَرْجَحُ بالصُّمِّ[1] الصِّلاب ، وَقد علمتما أن الرسول المحفوظَ بعِصْمة الرسالة ، قدّم على الصِّديق وَالفاروق ، ومَنْ دونهما من أكابر الصحابة ، وَأَوائل المهاجرين ، يوم غزوة ذات السَّلاسِل[2] ، مَن لم يقارب القوم ، ولم يعانِدْهم[3] ، برتبةٍ فى قرابة موصولة ، وَلا سُنَّة مذكورة ، فقادهم الرجل بأمره ، وَجمع بهم صَلاتَهم ، وَحَفِظ عليهم فَيْئَهم ، وقال ولم يُقَلْ معهُ ، وفى رسول الله صلى الله عليهِ وَسلم أُسْوَة حسنة ، فمهلا بنى عبد المطلب ، فإنا وأنتم شَعْبَا نفعٍ وَجِدّ ، ومازلت أرجو الإنصاف فى اجتماعكما ، فما يقول القائل إلا بفَضْل قولِكما ، فرُدَّا على ذى رَحِم مُسْتعتِب ، ما يُحمَد به البصيرةَ فى عِتابكما ، وأستغفر الله لى ولكما » .

فتيسّر ابن عباس للكلام ، وَنَصب يده للمخاطبة ، فأشار إليهِ الحسين وقال : على رِسْلك ، فأنا المراد ، وَنصيبى فى التُّهَمَة أوفرُ ، فأمسك ابن عباس ، فقام الحسين :

---

(١) الصم جمع أصم : وهو الحجر الصلب المصمت . (٢) غزوة ذات السلاسل ، وهى وراء وادى القرى من أرض بنى عذرة : غزاها سرية عمرو بن العاص سنة ثمان للهجرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه يستنفر العرب إلى الشأم ، فلما كان على ماء بأرض جذام ، يقال له السلسل—وبذلك سميت تلك الغزوة غزوة ذات السلاسل — خاف فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده ، فبعث إليه رسول الله أبا عبيدة ابن الجراح فى المهاجرين الأولين ، فيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبى عبيدة حين وجهه : لا تختلفا ، فخرج أبو عبيدة ، حتى إذا قدم عليه ، قال له عمرو : إنما جئت مددا لى ، قال أبو عبيدة : لا ، ولكنى على ماأنا عليه ، وأنت على ماأنت عليه — وكان أبو عبيدة رجلا لينا سهلا ، هينا عليه أمر الدنيا — فقال له عمرو : بل أنت مدد لى ، فقال له أبو عبيدة : ياعمرو ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : لا تختلفا ، وإنك إن عصيتنى أطعتك ، قال : فإنى الأمير عليك ، وأنت مدد لى ، قال : فدونك ، فصلى عمرو بالناس .

(٣) المعاندة : المفارقة ، أى ولم يعتز عليهم برتبة .

٢٤٦ — خطبة الحسين

فحمد الله ، وصلى على الرسول صلى الله عليهِ وسلم ، ثم قال :

« أما بعد يامعاوية ، فلن يُؤَدِّيَ القائلُ — وإن أطنبَ — فى صفة الرسول صلى الله عليهِ وَسلم من جميعٍ جزءًا ، قد فهمتُ مَا أَلْبَسْتَ[1] به الخلفَ بعد رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ، من إيجاز الصفة ، وَالتنكُّب عن استبلاغ البَيْعة ، وهيهات هيهات يا معاوية ! فضَح الصبحُ فَحْمة الدُّجى ، وَبَهَرت[2] الشمسُ أنوارَ السُّرُج ، وَلقد فضَّلتَ حتى أفرطتَ ، واستأثرتَ حتى أجْحَفتَ ، ومنعتَ حتى بخِلت ، وَجرْتَ حتى جاوزت ، ما بذلتَ لذى حقٍ مِنْ أَتمٍّ حقهِ بنصيبٍ ، حتى أخذ الشيطانُ حظَّه الأوفر ، ونصيبهُ الأكمل ، وفهمت ما ذكرته عن يزيد ، من اكتماله وسياستهِ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، تريد أن توهم الناسَ فى يزيد ، كأنك تصِف محجوبًا ، أوتنعتُ غائبًا ، أو تخبر عما كان مما احتويتَهُ بعلمٍ خاصٍ ، وقد دَلَّ يزيدُ من نفسهِ على موقع رأيه ، فخذ ليزيدَ فيما أخَذَ به من استقرائه[3] الكلابَ المُهارِشةَ[4] عند التحارش ، والحمامَ السُّبَّق لأترابِهِنَّ ، وَالقَيْنَاتِ[5] ذواتِ المعازفِ ، وضروبِ الملاهى ، تجدْه ناصرًا ، ودع عنك ما تحاول ، فما أغناك أن تلقَى الله بوِزْر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه ، فوالله مابرحْتَ تقدِّم باطلا فى جَوْر ، وَحَنَقًا فى ظلم ، حتى ملأتَ الأسْقِيَة ، وما بينك و بين الموت إلا غَمْضَةٌ ، فتقدِمِ على عمل محفوظ. فى يوم مشهود ، ولات حين مناصٍ ، ورأيتُك عرَّضت بنا بعد هذا الأمر ، وَمَنَعْتَنا عن آبائنا تُرَاثًا ، ولقد — لعمرُ الله — أورثنا الرسول عليهِ الصلاة والسلام

---

(١) ألبسه : غطاه . (٢) يقال بهر القمر كنمع : غلب ضوءه ضوء الكواكب ، والسرج جمع سراج : وهو المصباح . (٣) استقراء الأشياء : تتبع أفرادها . (٤) المهارشة : تحريش بعضها على بعض . (٥) جمع قينة : وهى الجارية المغنية أو أعم ، والمعازف : الآلات التى يضرب بها كالعود ، جمع معزف كمنبر .

ولادة ، وجئت لنا بما حَجِجْتُمْ به القائمَ عند موت الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأذعن للحجة بذلك ، وردَّه الإيمان إلى النَّصَف ، فركبتم الأعاليلَ ، وفعلتم الأفاعيل ، وقلتم كان ويكون ، حتى أتاك الأمر يا معاويةُ ، من طريقٍ كان قصدُها لغيرك ، فهَناكَ[1] ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، وَذكرتَ قِيادةَ الرجل القوْمَ بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأميره له ، وقد كان ذلك ، ولعمْرو بن العاص يومئذ فضيلةٌ ، بصُحْبَة الرسول وبيعته له وماصار لعمر ويومئذٍ حتى أنِفَ القوم إمْرَتَه، وكرهوا تقديمهوَعَدُّوا عليه أفعاله،فقال صلى الله عليه وسلم : « لا جَرَمَ[2] معشر المهاجرين ، لاَ يَعْمَل عليكم بعد اليوم غيرى » . فكيف يُحْتَجّ بالمنسوخ من فعل الرسول ، فى أوْكَد الأحوال ، وأولاها بالمجتمَع عليه من الصواب ؟ أم كيف صاحبت بصاحبٍ تابعًا ، وحولك مَنْ لا يُؤْمَنْ فى صحبته ، ولا يُعْتَمد فى دينه وَقرابته ، وتتخطاهم إلى مُسْرِف مَفْتون ؟ تريد أن تُلبس الناسَ شُبهةً ، يَسْعد بها الباقى فى دنياه ، وَتَشْقَى بها فى آخرتك ، إن هـذا لهو الخُسران المبين ، وَأستغفر الله لى وَلـكم » .

فنظر معاوية إلى ابن عباس ، فقال : ما هذا يابن عباس ، وَلَمَا عِندكَ أدْهَى وأمرّ !
فقال ابن عباس : لعمرُ الله ، إنها لَذُرِّية الرسول عليه الصلاة وَالسلام ، وأحد أصحاب الـكساء[3]، ومن البيت المُطَهَّر ، فاله عمَّا تريد ، فإن لك فى الناس مَقْنعًا ، حتى يحكم الله بأمره ، وهو خير الحاكمين ، فقال معاوية : أعْوَدُ[4] الحِلم التحلُّمُ ، وخيرُه التحلمُ عن الأهل . انصرفا فى حفظ الله .

ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبى بكر ، وَإلى عبد الله بن عمر ، وَإلى عبد الله ابن الزبير ، فجلسوا .

---

(١) مسهل من هنأ ، يقال هنأه الطعام: إذا ساغ ولذ ، أى نهنيئا لك مانلت من الخلافة .

(٢) لا جرم : قال الفراء : هى كلمة كانت فى الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة، فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم ،وصارت بمنزلة حقا،فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها عن القسم ، ألا تراهم يقولون : « لاجرم لآتينك » .

(٣) انظر ص ٣٢ .

(٤) أعود : أنفع ، والعائدة : المنفعة .

٢٤٧ — خطبة معاوية

فحمد الله ، وأثنى عليه معاوية ، ثم قال :

«ياعبدَ الله بن عمر : قد كنتَ تحدِّثنا أنك لا تحب أن تبيتَ ليلةً وليس فى عُنقك بَيْعةُ جماعةٍ ، وَأنَّ لك الدنيا وما فيها . وإنى أحذرك أن تَشُقَّ عصَا المسلمين ، وتَسعى فى تفريق مَلَئِهم (١) ، وأن تسفِك دماءهم ، وإن أمرَ يزيد قد كان قضاء من القضاء ، وليس للعباد خِيَرَة من أمرهم ، وقد وَكَّد الناسُ بيعتَهم فى أعناقهم . وأعطَوا على ذلك عُهودهم موَاثيقَهم » . ثم سكت .

٢٤٨ — خطبة عبد الله بن عمر

فتكلم عبد الله بن عمر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا معاوية ، لقد كان قبلك خلفاء ، وكان لهم بَنُونَ ، ليس ابنك بخير من أبنائهم ، فلم يَرَوْا فى أبنائهم ما رأيتَ فى ابنك ، فلم يُحَابُوا فى هذا الأمر أحَدًا ، ولكن اختاروا لهذه الأمة حيثُ عَلِموا ، وأنت تحذِّرنى أن أشُقَّ عصا المسلمين ، وأفرِّق ملأهم ، وأسفِك دماءهم ، ولم أكن لأفعلَ ذلك إن شاء الله ، ولكن إن استقام الناسُ ، فسأدخلُ فى صالح ما تدخل فيه أمة محمد » .

فقال معاوية : يرحمك الله ، ليس عندك خلاف ، ثم قال معاوية لعبد الرحمن ابن أبى بكر نحو ما قاله لعبد الله بن عمر ، فقال له عبد الرحمن : إنك والله لوَدِدْنا أن نكِلَك إلى الله فيما جسَرت عليه من أمر يزيد ، والذى نفسى بيده لتجعلنَّها شُورَى ، أو لأُعيدنَّها جَذَعَةً ، ثم قام ليخرج ، فتعلق معاوية بطَرف ردائه ، ثم قال : على رِسْلك

---

(١) الملأ : الجماعة .

اللهم اكفنيه بما شئتَ ، لا تظهَرَن لأهل الشأم ، فإنى أخشى عليك منهم ، ثم قال لابن الزبير نحو ما قاله لابن عمر ، ثم قال له : أنت ثعلب رَوَّاغ ، كلما خرجتَ من جُحْر انجحَرْتَ[1] فى آخَر ، أنت ألَّبْتَ[2] هذين الرجلين ، وأخرجتهما إلى ما خرجا إليه .

فقال ابن الزبير : أتريد أن تبايع ليزيد ؟ أرأيتَ إن بايعناه أيُّكما نُطيع ؟ أنطيعك أم نطيعه ، إن كنت مَلِلتَ الخلافة فاخرج منها ، و بايِعْ ليزيد ، فنحن نبايعه ، فكثر كلامه وكلام ابن الزبير ، حتى قال له معاوية فى بعض كلامه : والله ماأراك إلا قاتلاً نفسَك ، ولكأنى بك قد تخبَّطْت فى الحِبالة . ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادى أن ينادى فى الناس ، أن يجتمعوا لأمرٍ جامعٍ فاجتمع الناس فى المسجد ، وقعد هؤلاء حول المنبر .

٢٤٩ — خطبة معاوية

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيدَ وفضلَه وقراءتَه للقرآن ، ثم قال :

« يأهل المدينة ، لقد همَمتُ ببيعة يزيد ، وما تركتُ قرية ولا مَدَرة[3] إلا بعثت إليها ببيعته ، فبايع الناس جميعاً وسلَّموا ، وأخَّرتِ المدينة بيعته ، وقلتُ: بَيْضَتُه[4] ، وأصله ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبَوا البيعة ، منهم من كان أجدرَ أن يصلَه . ووالله لو علمتُ مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له » .

فقام الحسين فقال : « والله لقد تركتَ مَن هو خيرٌ منه أباً وأماً ونفساً » ! فقال معاوية « كأنك تريدنفسك ؟ » فقال الحسين : « نعم . أصلحك الله » ! فقال معاوية : « إذن أخبرَك ، أما قولك : خيرٌ منه أماً ، فلعمرى أمُّك خير من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها امرأة من قريش ، لكان نساء قريش أفضلَهنّ . فكيف وهى ابنة رسول الله صلى

(١) أى دخلت ، جحر الضب كمنع : دخل الجحر ، وجحر فلان الضب : أدخله فيه ، فانجحر .

(٢) التأليب : التحريض والإفساد . (٣) المدرة : المدينة . (٤) جماعته وأصله .

الله عليه وسلم ثم فاطمة فى دينها وسابقتها ؟ فأمك لعمر الله خير من أمه[1] . وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ، فقضى لأبيه على أبيك » . فقال الحسين : «حَسْبُكَ جَهْلُك . آثرتَ العاجل على الآجل » . فقال معاوية : « وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً ، فيزيدُ والله خير لأمة محمد منك » . فقال الحسين : « هذا هو الإفك والزور ! يزيدُ شاربُ الخمر . ومشترى اللهو خيرٌ منى ! » فقال معاوية : « مهلاً عن شتم ابن عمك . فإنك لو ذُكِرت عنده بسوء لم يَشْتُمْك » ، ثم التفت معاوية إلى الناس . وقال :

« أيها الناس : قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبِض ولم يستخلف أحداً ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكانت بيعته بيعةَ هُدًى ، فعمل بكتاب الله وسنة نبيهِ ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر ، فعمِلَ عمر بكتاب الله وسنة نبيهِ ، فلما حَضرته الوفاة رأى أنْ يجعلها شُورَى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنعهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصنع عمر ما لم يصنعهُ أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين ، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد ، لِمَا وقع الناس فيهِ من الاختلاف . ونظراً لهم بعين الإنصاف » .

* * *

وروى من طريق آخر : أن معاوية لما خرج إلى المدينة ودنا منها ، استقبله أهلها ، فيهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن عليّ ، وعبدالرحمن بن أبى بكر ؛ فأقبل على عبد الرحمن بن أبى بكر ، فسبَّه وَقال : « لا مرحبا بك ولا أهلا » ؛ فلما دخل الحسين عليهِ قال : « لا مرحباً بك ولا أهلا ، بَدَنةٌ[2] يترقرق دَمُها والله مُهَرِيقُه » ؛ فلما دخل ابن الزبير قال : « لا مرحباً بك ولا أهلا ، ضَبُّ تَلْعَةٍ[3] ، مُدخلُ رأسهِ تحت ذَنَبِه » ؛ فلما دخل عبد الله بن عمر قال : « لا مرحباً بك ولا أهلا ، وسبَّه » ، فقال :

---

(١) وأم يزيد هى ميسون بنت بحدل الكلبية . (٢) البدنة : من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة ، الذكر والأنثى . (٣) التلعة : ماارتفع من الأرض وما انهبط منها .

« إنى لست بأهل لهذه المقالة » قال : « بلى ، و لِمَا هو شرّ منها » فدخل معاوية المدينة وأقام بها ، وخرج هؤلاء الرّهط معتمرين ، فلما كان وقت الحجّ خرج معاوية حاجًّا ، فأقبل بعضهم على بعض ، فقالوا : لعله قد ندم ، فأقبلوا يستقبلونه ، فلما دخل ابن عمر ، قال : « مرحبًا بصاحب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وابن الفاروق ، هاتوا لأبى عبدالرحمن دابة » ، وقال لابن أبى بكر : « مرحبًا بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق، هاتوا له دابة »، وقال لابن الزبير : « مرحبًا يابن حَوَارىّ رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وابن عمته ، هاتوا لهُ دابة » ، وقال للحسين : « مرحبًا يابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب المسلمين ، قرِّبوا لأبى عبد الله دابة ، وجعلت ألطافُهُ[1] تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ، وَيُحْسِن إذنَهم وشفاعتهم وحملهم على الدواب ، وخرج حتى أتى مكة ، فقضى حجه ، ولما أراد الشخوص أمر بأثقاله فقُدِّمت ، وأمر بالمنبر فقرِّب من الكعبة ، ثم أرسل إليهم ، فاجتمعوا ، وقال بعضهم لبعض : من يكلمهُ ؟ فأقبلوا على الحسين فأبى ، فقالوا لابن الزبير : هات ، فأنت صاحبنا . قال : على أن تعطونى عهد الله أن لا أقول شيئا إلا تابعتمونى عليهِ . قالوا : لك ذلك ، فأخذ عهودهم رجلا رجلا ، فدخلوا عليه ، فرحَّبَ بهم ، وقال : قد علمتم نظرى لكم ، وتعطفى عليكم ، وَصِلَتى أرحامَكم ، وَيزيد أخوكم وابن عمكم ، و إنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهَوْن، فسكتوا ، فقال : أجيبونى ، فسكتوا ، فقال : أجيبونى ، فسكتوا ، فقال : لابن الزبير : هات فأنت صاحبهم قال :

٢٥٠ — خطبة عبد الله بن الزبير

« نخيِّرك بين إحدى ثلاث ، أيَّها أخذت فهى لك رغبة ، وفيها خِيار ؛ إن شئت فاصنع فينا ما صنعهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبضهُ الله ولم يستخلف أحدًا ، فرأى

---

(١) الألطاف : جمع لطفة بالتحريك، وهى الهدية .

المسلمون أن يستخلفوا أبا بَكر ، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فما صنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رَهْطه الأَدْنَيْن مَن كان لها أهلا ، وإن شئت ، فما صنع عمر ، جعلها شُورى في ستة نَفَر من قريش يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وَلِيَهَا لكان لها أهلا » .

فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ماقال ابن الزبير ، فقال معاوية : « إني أتقدم إليكم ، وقد أعذَر من أنْذَر ، إني قائم فقائلٌ مقالةً ، فإياكم أن تعترضوا عليَّ حتى أُتِمَّهَا ، فإن صدقت فعليَّ صِدْقى ، وإن كذَبت فعليَّ كَذِبى ، وأقسم بالله لئن رَدَّ عليَّ رجل منكم كلمةً في مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمتُه ، حتى يُضْرَب رأسُهُ ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يُبْقِى إلا عليها ، وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفيهما ، فإن تكلم بكلمة يردّ بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معهُ ، حتى رقِي المنبر ، وحف به أهل الشأم ، واجتمع الناس ، فقام خطيبًا فقال :

٢٥١ — خطبة معاوية

قال بعد حمد الله ، والثناء عليه : إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوَارٍ[1] ، قالوا إن حسينًا ، وابن أبي بكر ، وابن عُمَر ، وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهْط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نُبْرِم أمراً دونهم ، ولا نقضى أمرًا إلا عن مشورتهم ، وإنى دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلَّموا وأطاعوا » .

فقال أهل الشأم : وما يعظُم من أمر هؤلاء ؟ ايذَن لنا فنضربَ أعناقهم ، لا نرضى حتى يبايعوا علانيةً ، فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر

---

(١) العوار : مثلثة : العيب .

وأحلى دماءهم عندهم ، أنصتوا فلا أسمع هذه المقالة من أحد، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا ثم قُرِّبت رواحله ، فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتم لا نبايع ، فلما دُعيتم وأُرْضيتم بايعتم . قالوا : لم نفعل . قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟ قالوا : خِفنا القتل وكادكم بنا وكادنا بكم .

(العقد الفريد ٢ : ٢٤٧ — ١٥٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٢١ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٩ ، والأمالي ٢ : ٧٣ ، وذيل الأمالي ص ١٧٧ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢١٠ ، ١ : ٩٥ والبيان والتبيين ١ : ١٦٣ — ١٦٤) .

تهنئة وتعزية

٢٥٢ – خطبة عبد الله بن همام السلولى

لما توفى معاوية واستخلف يزيد ابنه (سنة ٦٠) اجتمع الناس على بابه ، ولم يقدروا على الجمع بين تهنئة وتعزية ، حتى أتى عبد الله بن هَمّام السَّلُولى فدخل عليه فقال :

« يا أمير المؤمنين ، آجَرَكَ الله على الرزية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رُزِئت عظيماً ، وأُعطيت جسيماً ، فاشكر الله على ما أُعطيت ، واصْبِرْ له على ما رُزِيت فقد فقدتَ خليفة الله ، ومُنِحتَ خلافة الله ، ففارقت جليلاً ، ووُهِبت جزيلاً ، إذ قَضَى معاوية نَحْبَه ، فغفر الله ذنبه ، ووُلِّيت الرياسة ، فأُعطيت السياسة ، فأوْرَدَك الله موارد السرور ، ووفقك لصالح الأمور ، وأنشد :

فاصبر يزيدُ فقد فارقت ذا ثِقَةٍ ... واشكر حِباء الذى بالملك أصفاكا[1]
لا رُزْء أصبح فى الأقوام نعلمه ... كما رُزِئت ، ولا عُقْبَى كعقباكا
أصبحت والِىَ أمر الناس كلِّهم ... فأنت ترعاهمُ والله يَرْعاكا
وفى معاويةَ الباقى لنا خلَفٌ ... إذا نُعِيتَ ، ولا نسمعْ بِمَنْعاكا[2]

« وعبد الله بن همام هو أول من فتح الباب فى الجمع بين تهنئة وتعزية ، فولجه الناس ، كما روى من غير وجه » .

(زهر الآداب ١ : ٦١ ، ونهاية الأرب ٥ : ٢١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤١ – ٣٥ – ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٦) .

---

(١) أصفاه : آثره . (٢) هو أبو ليلى معاوية بن يزيد .

٢٥٣ - خطبة عطاء بن أبي صيفي الثقفي

وروى المسعودي أن يزيد بعد موت أبيه أذِن للناس ، فدخلوا عليه لا يدرون أيهنئونه أم يعزونه ، فقام عطاء بن أبي صَيْفِيّ ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أصبحت وقد رُزئت خليفة الله وأُعطيت خلافة الله ، وَمُنحت هبة الله ، وقد قضى معاوية نحبه ، فغفر الله له ذنبه ، وأعطيت بعده الرياسة ، وَوَليت السياسة ، فَاحتسِب[1] عند الله أعظم الرزية ، وَاحْمَدْه عَلَى أفضل العطية » .

(مروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٠٢ ، تهذيب الكامل ١ : ١٦ ، وصبح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٣٥)

٢٥٤ - خطبة عبد الله بن مازن

ثم قام عبد الله بن مازن ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ، رُزئت خير الآباء وَسُمِّيت خير الأسماء ، وَمُنحت أفضل الأشياء ، فهنأك الله بالعطية ، وأعانك على الرعية ، فقد أصبحت قريش مفجوعةً بِبُعْد سائسها ، مسرورة بما أحسن الله إليها من الخلافة بك ، وَالْعُقْبَى من بعده ، ثم أنشأ يقول :

اللهُ أعطاك التي لا فوقَهَا ... وقد أراد المُلْحِدون عَوْقَهَا

عنك فيأبَى اللهُ إلاَّ سَوْقَها ... إليك ، حتى قَلَّدُوك طَوْقَها

ثم قام عبد الله بن همام فخطب خطبته السالفة . (مروج الذهب ٢ : ٩٣)

---

(١) احتسب به أجرا عند الله : اعتده ينوي به وجه الله (واحتسب ابنه إذا مات كبيرا ، فإن مات صغيرا قيل افترطه) .

٢٥٥ — خطبة غيلان بن مسلمة الثقفي

وروى الجاحظ : أنه لما توفي عبد الملك ، وجلس ابنهُ الوليد دخل عليهِ الناس وهم لايدرون أيهنئونه أم يعزونه ، فأقبل غَيلان بن مسلمة الثقفي ، فسلم عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، أصبحتَ قد رزئتَ خيرَ الآباء ، وَسُمِّيت خير الأسماء ، وَأُعْطيت أفضل الأشياء ، فعظم الله لك على الرزية الصبر ، وأعطاك في ذلك نوافل[1] الأجر ، وأعانك على حسن الولاية والشكر ، ثم قضى عبدَ الملك[2] بخير القضية ، وأنزله بأشرف المنازل المرضية ، وأعانك من بعده على الرعية » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٣)

(١) النافلة في الصلاة وغيرها : الزيادة . (٢) أي قضى على عبد الملك باسقاط الجار .

خطب ولاة الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه المتوفى سنة ٥٣

٢٥٦ – خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده

كان الإمام عليّ عليه السلام ولّى زيادًا فارس – أو بعض أعمال فارس – فضبطها ضبطًا صالحًا ، وَجَبَى خراجها وحَماها ، فلما قتل الإمام بقى زياد فى عمله ، وخاف معاوية جانبه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من مُمالأته الحسن بن علىّ ، عليه السلام ، فكتب إليه يتهدده[1] ، فغضب زياد غضبًا شديدًا ، وجمع الناس ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، ثم قال :

« العجبُ من ابنِ آكِلَةِ الأكباد[2] ، وقاتِلةِ أَسَدِ الله ، وَمُظْهِرِ الخلاف ، وَمُسِرِّ النفاق، وَرئيسِ الأحزاب، وَمن أنفق ماله فى إطفاء نور الله ، كتب إلىّ يُرْعِد وَيُبْرِق[3]

---

(١) ومما ورد فى كتابه إليه قوله : « أمس عبد ، واليوم أمير ! خطة ماارتقاها مثلك يابن سمية ، وإذا أتاك كتابى هذا ، فخذ الناس بالطاعة والبيعة ، وأسرع الإجابة ، فإنك إن تفعل فدمك حقنت ، ونفسك تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش ، ونلتك بأهون سعى ، وأقسم قسما مبرورا أن لا أوتى بك إلا فى زمارة ، تمشى حافيا من أرض فارس إلى الشأم ، حتى أقيمك فى السوق ، وأبيعك عبدا ، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه » . (٢) هى هند أم معاوية ، وذلك أنها بعد انتهاء غزوة أحد بقرت بطن حمزة ابن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخذت كبده لتأكلها ، فلاكتها ثم أرسلتها ، وكان قد قتله وحشى مولى جبير بن مطعم ، دعاه سيده وقال له اخرج مع الناس ،فإن أنت قتلت حمزة بعمى طعيمة فأنت حر.

(٣) رعد الرجل وبرق (كنصر) وأرعد وأبرق : تهدد وتوعد .

عن سحابة جَفْلٍ[1] لا ماء فيها ، وَعمًّا قليل تصيِّرها الرياح قَزَعًا[2] ، والذى يدلُّنى عَلَى ضعفه تَهَدُّده قبل القدرة ، أفمن إشفاقٍ عَلَىَّ تُنْذِر وَتُعْذِر ؟ كلا ، ولكن ذهب إلى غير مَذْهَب ، وَقَعْقَعَ[3] لمن رَوِىَ بين صواعق تِهَامَة[4] ، كيف أرهَبهُ وبينى وبينه ابنُ بنت رسول الله صلى الله عليهِ وَآله ، وَابْنُ ابنِ عمه فى مائة ألف من المهاجرين والأنصار؟ والله لو أُذِن لى فيه أو نَدَبنى إليه ، لأُرِيَنَّهُ الكواكِب نهارًا ، وَلأُسْعِطَنَّهُ[5] ماء الخردل دُونَه ، الكلامُ اليوم ، والجمع غداً ، والمشورة بعد ذلك إن شاء الله » ثم نزل .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ ص ٦٨ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٩٧)

٢٥٧ — خطبته وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبة يستقدمه

وكتب إلى معاوية يردّ عليه ردّا شديد اللهجة[6] ، فغَمَّ ذلك معاوية وأحزنه ، وأوفد إليه المُغيرة بن شُعْبة بكتاب يتلطَّف به فيه ويستدنيه منه ، ويستلحقه بنسب أبيه

---

(١) الجفل : السحاب هراق ماءه ومضى . (٢) القزع : قطع من السحاب رقيقة .

(٣) القعقعة : صوت الرعد ، وتحريك الشىء اليابس الصلب مع صوت ؛ ومنه « مايقعقع له بالشنان » وسيأتى تفسيره فى خطبة الحجاج . (٤) روى : ارتوى ، والمراد نشأ وترعرع بينها ، وأمله (ربى) وذكروا أنه لما نصب الحجاج المجانيق لقتال عبد الله بن الزبير ، أظلتهم سحابة فأرعدت وأبرقت وأرسلت الصواعق ، ففزع الناس وأمسكوا عن القتال ، فقام فيهم الحجاج ، فقال : « أيها الناس لا يهولنكم هذا فإنى أنا الحجاج بن يوسف ، وقد أصحرت لربى ، فلو ركبنا عظيما لحال بيننا وبينه ، ولكنها جبال تهامة لم تزل الصواعق تنزل بها» . (٥) سعطه الدواء كمنعه ونصره وأسعطه إياه : أدخله فى أنفه .

(٦) ونص كتابه إليه : «أما بعد، فقد وصل إلى كتابك يامعاوية ، وفهمت مافيه ، فوجدتك كالغريق يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ، ويتعلق بأرجل الضفادع طمعا فى الحياة ، إنما يكفر النعم ويستدعى النقم من حاد الله ورسوله ، وسعى فى الأرض فسادا . فأما سبك لى فلولا حلم ينهانى عنك، وخوفى أن أدعى سفيها لأثرت لك مخازى لا يغسلها الماء . وأما تعييرك لى بسمية ، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن حمامة . وأما زعمك أنك تختطفنى بأضعف ريش وتتناولنى بأهون سعى ، فهل رأيت بازيا يفزعه صغير القنابر؟ أم هل سمعت بذئب أكله خروف ؟ فامض الآن لطيتك ، واجهد جهدك ، فلست أنزل إلا بحيث تكره ، ولا أجتهد إلا فيما يسوءك ، وستعلم أينا الخاضع لصاحبه ، الظالع إليه والسلام » .

أبي سفيان[١] ، وجعل المغيرة يترفق به ، وينصح له أن يصل حبله بحبله، ولا يقطع رَحِمه ، فتريّث زياد يومين أو ثلاثة يروِّى فى أمره ، ثم جمع الناس ، فصعِد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغَبُوا إلى الله فى دوام العافية لكم ، فقد نظرتُ فى أمور الناس منذُ قتل عثمان ، وفكَّرت فيهم فوجدتهم كالأضاحِى . فى كل عيدٍ يُذْبَحون ، ولقد أفنَى هذان اليومان : يوم الجمل وصِفِّين ما يُنِيف على مائة ألف ، كُلُّهم يزعُمُ أنه طالِبُ حقٍّ، وتابعُ إمامٍ ، وعلى بَصِيرةٍ من أمره ، فإن كان الأمر هكذا ، فالقاتلُ والمقتولُ فى الجنة ، كلاَّ : ليس كذلك ولكن أشْكَلَ الأمر ، والْتَبَسَ على القوم ، وإنى لخائفٌ أن يرجع الأمر كما بَدَا ، فكيف لامرئٍ بسلامةِ دينه ، وقد نظرتُ فى أمر الناس ، فوجدت أَحْمَدَ العاقبتين العافيةَ ، وسأعملُ فى أموركم ما تحمَدون عاقبتَه ومَغَبَّتَه ، فقد حَمِدت طاعَتكم إن شاء الله » ثم نزل .

وكتب إلى معاوية يستوثق منه[٢] ، فأعطاه معاوية جميع ما سأله ، وكتب إليه بخط يده ماوثق به ، فدخل إليه الشام، فقربه وأدناه، وأقره على ولايته ، ثم استعمله على العراق.

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ٦٩)

---

(١) وكانت ديباجة كتابه إليه : « من أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان إلى زياد بن أبى سفيان » وفيه يقول : « وحملك سوء ظنك بى، وبغضك لى على أن عققت قرابتى، وقطعت رحمى، وبتت نسبى وحرمتى، كأنك لست أخى، وليس صخر بن حرب أباك وأبى ! » وفى آخره يقول : « فإن أحببت جانبى ووثقت بى، فإمرة بإمرة ؛ وإن كرهت جانبى ، ولم تثق بقولى، ففعل جميل ، لا على ولا لى والسلام » .

(٢) وفى كتابه يقول : « إن كنت كتبت كتابك هذا عن عقد صحيح ، ونية حسنة ، وأردت بذلك برا فستزرع فى قلبى مودة وقبولا ، وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكرا وفساد نية، فإن النفس تأبى مافيه العطب، ولقد قمت يوم قرأت كتابك مقاما يعيا به الخطيب المدره ، فتركت من حضر ، لاأهل ورد، ولا صدر ، كالمتحيرين بمهمه ضل بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير » .

٢٥٨ — خطبته وقد استلحقه معاوية

وَلما أراد معاوية استلحاق زياد ، وقد قدم عليه الشأم ، جمع الناس وَصعد المنبر ، وأصعد زيادًا معهُ ، فأجلسهُ بين يديه عَلَى المِرقاة[1] التى تحت مرقاته ، وحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيهَا الناس : إنى قد عَرَفت نَسَبَنا أهلَ البيتِ فى زياد ، فمن كاَن عنده شهادة فَليَقُم بهَا » ، فقَام ناس ، فَشهدُوا أنه ابن أبى سفيان ، وَأنهم سمعوا ما أقرّ به قبل موته[2] ، فلمّا انقضى كلام معاوية وَمناشدتهُ ، قام زياد وأنصت الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

---

(١) المرقاة بفتح الميم وتكسر : الدرجة. (٢) فقام أبو مريم السلولى — وكان خمارا فى الجاهلية فقال : أشهد ياأمير المؤمنين أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف ، فأتانى ، فاشتريت له لحما وخمرا وطعاما ، فلما أكل قال : ياأبا مريم ، أصب لى بغيا ، فخرجت فأتيت سمية ، فقلت لها : إن أبا سفيان من قد عرفت شرفه وجوده وقد أمرنى أن أصيب له بغيا ، فهل لك؟ فقالت : نعم يجىء الآن عبيد بغنمه — وكان راعيا — فإذا تعشى ووضع رأسه أتيته ، فرجعت إلى أبى سفيان فقلت لم أجد إلا جارية الحرث بن كلدة سمية ، فقال : ائتنى بها على ذفرها وقذرها ، فقال له زياد : مهلا ياأبا مريم ، إنما بعثت شاهدا ، ولم تبعث شاتما ، فقال أبو مريم : لو كنتم أعفيتمونى لكان أحب إلى ، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ، والله لقد أخذ بكم درعها ، وأغلقت الباب عليهما ، فلم ألبث أن خرج على يمسح جبينه ، فقلت : مه ياأبا سفيان ، فقال : ماأصبت مثلها ياأبا مريم لولا استرخاء من ثدييها ، وذفر فى إبطها » — والذفر بالتحريك ويسكن : النتن ، والذفر بالتحريك : كل ريح ذكية من طيب أو نتن أو يخص برائحة الإبط المنتنة — وكانت أمه سمية قد وهبها أبو الخير بن عمرو الكندى الحارث بن كلدة — وكان طبيبا يعالجه — فولدت له على فراشه نافعا ، ثم ولدت أبا بكرة ، فأنكر لونه ، وقيل له إن جاريتك بغى ، فانتفى من أبى بكرة ومن نافع ، وزوجها عبيدا وكان عبدا لابنته ، فولدت على فراشه زيادا .

وذكروا أن عمر بن الخطاب كان قد بعث زيادا فى إصلاح فساد واقع باليمن ، فلما رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يسمع بمثلها ، وهو غلام حدث ، وأبو سفيان حاضر ، وعلى عليه السلام ، وعمرو ابن العاص ، فقال عمرو : لله أبو هذا الغلام لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه ، فقال أبو سفيان : أما والله —

« أيها الناس : هذا أمرٌ لم أشهدْ أوّلَه ، ولا علِمَ لى بآخِره ، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشَهِدت الشهود بما سَمِعْتم ، فالحمد لله الذى رفع مِنّا ما وضع الناس ، وحفِظ منا ما ضَيَّعوا ، فأما عُبَيْدٌ فإنما هو والدٌ مَبْرُور ، أو رَبِيبٌ[1] مشكور » ثم نزل .

(شرح ابن أبى الحديد ٤ : ص ٧٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥١ ، ٣ : ٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٦ ، وذيل الأمالى ص ١٨٩)

٢٥٩ — خطبته حين ولى البصرة (وهى البتراء)

وقدم زياد البَصرة « غرة جمادى الأولى سنة ٤٥ هـ » والياً لمعاوية بن أبى سفيان ، وضم إليه خُراسان وسِجِسْتان ، والفِسْق بالبصرة كثير فاشٍ ظاهر ، فخطب خطبةً بَتْراء لم يَحْمَدِ اللهَ فيها ، وقيل بل قال :

« الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيدَ من نِعَمه وإكرامه . اللهمّ كما زِدْتَنا نِعَمًا فألْهِمْنا شكرًا » أما بعدُ : فإن الجهالة الجَهْلاء[2] ، والضَّلالة العَمْياء ، والغَىّ المُوفِىَ بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حُلَماؤكم[3] ، من الأمور العِظَام ، ينْبُت فيها الصغير ، ولا يتحاشَى عنها الكبير ، كأنكم لم تَقرءوا كتابَ الله ، ولم تَسْمعوا

= إنه لقرشى، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك ، فقال : ومن أبوه ؟ قال : أنا والله وضعته فى رحم أمه ، قال : فهلا تستلحقه ، قال : أخاف هذا العير الجالس أن يخرق على إهابى » .

ومن كتاب لعلى عليه السلام إلى زياد ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه : « وقد كان من أبى سفيان فى زمن عمر بن الخطاب فلتة من حديث النفس ، ونزغة من نزغات الشيطان لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث » فلما قرأ زياد الكتاب قال : شهد بها ورب الكعبة ، ولم تزل فى نفسه حتى ادعاه معاوية ، وكان يقال له : زياد بن عبيد ، وزياد بن أبيه ، وزياد بن سمية ، وزياد بن أمه ، ولما استلحق قال له أكثر الناس : زياد بن أبى سفيان ، قال الطبرى : « وفى سنة ٤٤ استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبى سفيان فيما قيل » .

(١) الربيب هنا : زوج الأم .

(٢) هذا الوصف توكيد للمبالغة ، ومثله : وتد واتد ، وهمج هامج ، وليلة ليلاء ، ويوم أيوم (أى شديد ، أو آخر يوم فى الشهر) .

(٣) عقلاؤكم .

ما أعدَّ اللهُ من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السَّرْمَدِيّ[1] الذي لا يزول، أتكونون كمن طَرَفَتْ[2] عينيه الدنيا، وَسَدَّتْ مسامعه الشهواتُ، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحَدَثَ الذي لم تُسْبَقُوا إليه، مِنْ تَرْكِكم الضعيفَ يُقْهَر ويؤخذ ماله، هذه المواخيرَ[3] المنصوبة، والضعيفةَ المسلوبةَ في النهار المُبْصِر، والعددُ غيرُ قليل، ألم يكن منكم نُهَاةٌ، تمنع الغُوَاةَ[4] عن دَلَجِ[5] الليل، وغارة النهار؟ قرَّبتم القَرَابة، وباعدتم الدين! تعتذرون بغير العذر، وتُغْضُون على المختلس، كلُّ امرئٍ منكم يَذُبُّ[6] عن سفيهه، صَنِيعَ من لا يخاف عاقبةً ولا يرجو مَعَادًا، ما أنتم بالحُلَمَاء، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما تَرَوْنَ من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حُرَمَ[7] الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم، كُنُوسًا في مكانس الرِّيَب[8]، حرامٌ عليَّ الطعامُ والشرابُ، حتى أُسَوِّيَهَا بالأرض هَدْمًا وإحراقًا.

إني رأيت آخرَ هذا الأمر لا يصلُح إلا بما صلَحَ به أوله، لِينٌ في غير ضَعف،

---

(١) الدائم. (٢) طرف عينه: أصابها بشيء فدمعت، وطرف بصره: أطبق أحد جفنيه على الآخر، وطرفه عنه كضربه: صرفه ورده. (٣) جمع ماخور: وهو بيت الريبة معرب أو عربي من مخرت السفينة لتردد الناس إليه. (٤) جمع ناه، وغواة جمع غاو.

(٥) السير من أول الليل، وقد أدلجوا، فإن ساروا من آخره فادلجوا بالتشديد.

(٦) يدفع. (٧) جمع حرمة، وهي ما لا يحل انتهاكه. روى الشعبي قال: «لما خطب زياد خطبته البتراء بالبصرة ونزل، سمع تلك الليلة أصوات الناس يتحارسون، فقال: ماهذا؟ قالوا: إن البلد مفتون، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفتيان الفساق، فيقال لها: نادى ثلاثة أصوات، فإن أجابك أحد، وإلا فلا لوم علينا فيما تصنع!». (٨) كنوس جمع كانس: أي مستتر كقعود وجلوس جمع قاعد وجالس، وأصله من كنس الظبي كضرب: دخل في كناسه (ككتاب) وهو مستتره من الشجر، ويجمع كانس أيضا على كنس (كركع) ومنه الجوارى الكنس (وهي الخنس) وهي الكواكب السيارة، أو النجوم الخمسة: زحل، والمشترى، والمريخ، والزهرة، وعطارد. لأنها تكنس في المغيب كالظباء في الكنس (ككتب)، أو هي كل النجوم لأنها تبدو ليلا وتخفى نهارا (وخنوسها أنها تغيب كما يخنس الشيطان إذا ذكر الله عز وجل) ومكانس الريب: مكامنها المستترة جمع مكنس كمجلس.

وشدة فى غير عُنْف ، وإنى أُقْسِم بالله لآخذنَّ الولِىّ[١] بالمَوْلَى ، والمُقيمَ بالظاعن، والمُقْبِلَ بالمُدْبِر ، والمطيعَ بالعاصى ، والصحيحَ منكم فى نفسه بالسَّقِيم ، حتى يَلْقَى الرجلُ منكم أخاه ، فيقول: « أنجُ سَعْدُ فقد هلك سُعَيْد[٢] » أو تستقيم لى قَنَاتُكُمْ ، إن كِذْبة المِنبر بَلْقَاء[٣] مشهورة ، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حَلَّتْ لكم معصيتى[٤] ، فإذا سَمِعتموها منى فاغتمِزوها[٥] فىّ ، واعلموا أنَّ عندى أمثالها ، من نُقِب منكم عليه فأنا ضامن لما ذَهَبَ منه[٦] فإيَّاى ودَلَجَ الليل ، فإنى لا أُوتَى بمُدْلِجٍ إلاّ سَفَكْتُ دمه ، وقد أجَّلْتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبرُ الكوفةَ ويرجع إليكم[٧] ، وإياى ودَعْوَى الجاهلية[٨] ، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعْتُ لسانه ، وقد أحدثتم أحْدَاثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبةً ، فمن غرَّق قوماً غرَّقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نَقَب

---

(١) الولى : السيد ، والمولى هنا : العبد . (٢) سعد وسعيد هما ابنا ضبة بن أدّ خرجا فى طلب إبل لأبيهما ، فوجدها سعد فردها وقتل سعيد ، فكان ضبة إذا رأى سوادا تحت الليل قال : سعد أم سعيد ؟.

(٣) من البلق بالتحريك : وهو ارتفاع التحجيل فى الفرس إلى الفخذين (والتحجيل : بياض فى قوائم الفرس) ، والفرس البلقاء مشهورة لتميزها عما سواها ببلقها . (٤) فى الطبرى « قال الشعبى : فوالله ماتعلقنا عليه بكذبة ، ولاوعدنا خيرا ولا شرا إلا أنفذه » . (٥) عدوها من عيوبى ، واغتمزه : طعن عليه .

(٦) فى الطبرى: « وكان زياد أول من شد أمر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم فى العقوبة ، وجرد السيف ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس فى سلطانه خوفا شديدا ، حتى أمن الناس بعضهم بعضا ، حتى كان الشىء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد ، حتى يأتيه صاحبه ، فيأخذه ، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها ، وساس الناس سياسة لم ير مثلها ، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحدا قبله ، وكان يقول : « لو ضاع حبل بينى وبين خراسان علمت من أخذه » .

(٧) فى الطبرى : « استعمل زياد على شرطته عبد الله بن حصن ، فأمهل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد إليه وصول الخبر إلى الكوفة ، وكان يؤخر العشاء حتى يكون آخر من يصلى ، ثم يصلى ، يأمر رجلا يقرأ سورة البقرة ومثلها ، يرتل القرآن ، فإذا فرغ أمهل بقدر مايرى أن إنسانا يبلغ الخريبة (كجهينة موضع بالبصرة يسمى البصيرة الصغرى) ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ، ولا يرى إنسانا إلا قتله فأخذ ليلة أعرابيا ، فأتى به زيادا ، فقال : هل سمعت النداء ؟ قال : لا والله ، قدمت بحلوبة لى ، وغشينى الليل فاضطررتها إلى موضع ، فأقمت لأصبح ، ولا علم لى بما كان من الأمير ، قال : أظنك والله صادقا ، ولكن فى قتلك صلاح هذه الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه » . (٨) قولهم : يالفلان ، والغرض مناصرة العصبية.

بيتاً نَقَبْنَا عن قلبه ، ومن نَبَشَ قبرًا دَفَنَّاهُ حيًّا فيه ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم ، أَكْفُفْ عنكم يَدِى ولسانى ، ولا تَظْهر من أحد منكم رِيبةٌ بخلاف[1] ما عليه عامّتكم إلا ضربتُ عُنقه ، وقد كانت بينى وبين أقوام إِحَنٌ[2] ، فجعلت ذلك دَبْرَ أُذنى[3] وتحت قَدَمى ، فمن كان منكم مُحْسِنًا فليَزْدَد إحسانًا ، ومن كان منكم مسيئًا فلينْزِع عن إساءته ، إنى لو علمتُ أن أحدكم قد قتله السُّلُّ من بُغضى لم أكشف له قِناعًا ، ولم أهتِك له سِترًا ، حتى يُبْدِىَ لى صَفْحته[4] ، فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم ، وَأَعِينوا على أنفسكم ، فرُبَّ مُبتَئِس بقدومنا سَيُسَرُّ ، وَمَسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس : إنا أصبحنا لكم سَاسَةً ، وعنكم ذَادَةً ، نَسُوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، وَنَذُود عنكم بفَىْء الله الذى خوَّلنا[5] ، فلنا عليكم السمعُ والطاعةُ فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما وَلِينا ، فاستوجبوا عَدْلَنَا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أنى مهما قَصَّرتُ عنه ، فلن أقصِّر عن ثلاث : لست محتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقًا بلَيْل ، ولا حابسًا عطاءً ولا رزقًا عن إبّانه[6] ، ولا مُجَمِّرًا[7] لكم بَعْثًا ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساسَتُكم المؤدِّبُون لكم ، وكَهْفكم الذى إليه تأوُون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تُشْرِبوا قلوبكم بغضَهم ، فيشتدَّ لذلك غيظُكم ، ويطولَ له حزنُكم ، ولا تُدْرِكوا له حاجتَكم ، مع أنه لو استُجِيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم . أسأل الله أن يعين كُلاًّ على كلٍّ ، و إذا رأيتمونى أُنفِذ فيكم الأمر ، فَأَنفِذوه على

---

(١) أى تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم . (٢) جمع إحنة : وهى الحقد والضغينة .

(٣) أى خلف أذنى ، وقد اقتبسها من كلام معاوية كما مر بك . (٤) أى يجاهرنى بالعداوة .

(٥) ملكنا . والفىء : ما كان شمسا فينسخه الظل ، والخراج ، أى ندفع عنكم بظل الله ونعمته التى وهبنا ، أو ندفع عنكم بما صار فى أيدينا من أموال الخراج . (٦) وقته وموعده . (٧) جمر الجند : حبسهم فى أرض العدو ولم يقفلهم .

أذلاله[1] ، وايمُ الله إن لى فيكم لصَرْعَى كثيرة ، فليحذَر كل امرئ منكم أن يكون من صَرْعَاىَ » .

فقام إليه عبد الله بن الأهتم فقال : « أشْهَدُ أيها الأمير لقد أُوتيتَ الحكمة وفَصْلَ الخطاب » ، فقال له : « كذبت ذاك نبىُّ الله داود صلوات الله عليه » فقام الأحنف ابن قيس ، فقال: « إنما الثناء بعد البَلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نُثْنِىَ حتى نَبْتَلِىَ » فقال له زياد : صدقت ، فقام أبو بلال مِرْداس[2] ابن أُدَيَّة وهو يَهْمِس ويقول : أنبأنا الله بغير ما قلت . قال الله تعالى : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى ، أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى » وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم ، والمطيع بالعاصى والمقبل بالمدبر ، فسمعها زياد ، فقال : « إنا لانبلغ ما نريد فيك وفى أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضًا » .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٦ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ١٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٢٢٦ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٥٧ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤١ ، وذيل الأمالى ١٨٨)

٢٦٠ — خطبته بالكوفة وقد ضمت إليه

ولما مات المُغيرة بن شُعبة أمير الكوفة سنة ٥٠ هـ ، ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، فكان أول من جُمِعَ له الكوفة والبصرة[3] ، فاستخلَفَ عَلَى البصرة ، وشَخَصَ إلى الكوفة فأتاها ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن هذا الأمر أتانى وأنا بالبصرة ، فأردت أن أشْخَصَ إليكم فى ألفين من شُرطة

---

(١) أى وجوهه وطرقه جمع ذل بالكسر . وذل الطريق : محجته ، وأمور الله جارية على أذلالها أى مجاريها .

(٢) وهو من رؤساء الخوارج . (٣) وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة ، وستة أشهر بالبصرة .

البصرة ، ثم ذكرتُ أنكم أهل حق ، وأن حَقّكم طالمًا دَفَع الباطل ، فأتيتكم في أهل بيتي ، فالحمدلله الذي رَفَع مني ما وضع الناس ، وحفِظ مني ما ضيّعوا ، حتى فرغ من الخطبة[1] » . (تاريخ الطبري ٦ : ١٣١)

٢٦١ — خطبة أخرى له بالكوفة

وروى الطبري أيضا قال :

« فَجُمِعَت الكوفة والبصرة لزياد بن أبي سفيان ، فأقبل حتى دخل القصر بالكوفة ثم صعِد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنا قد جرَّبنا وجرَّبنا ، وسُسْنا وساسَنا السائسون ، فوجدنا هذا الأمر لايَصْلُحُ آخره إلا بما صلح أوله ، بالطاعة الليِّنة المشبَّهِ سِرُّها بعَلانيتها ، وغَيْبُ أهلها بشاهدهم ، وقلوبهم بألسنتهم ، ووجدنا الناس لايُصْلِحهم إلا لينٌ في غير ضعف ، وشدّةٌ في غير عُنف ، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا أمضيته على أذْلاَلِهِ ، وليس من كِذْبةٍ الشاهدُ عليها من الله والناس أكبَرُ من كذبة إمامٍ على المِنبر ، ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرّظهم ، وذكر قَتَلَتَه ولعنهم » . (تاريخ الطبري ٦ : ١٤٢)

٢٦٢ — خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة

وكان زياد قد وَلّى الكوفةَ عمرَو بن الحُرَيْث ، ورجع إلى البصرة ، فبلغه أن حُجْر بن عَدِيّ يجتمع إليه شيعة عَلِيّ ، ويُظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، وأنهم

---

(١) قال الطبري : فحصب على المنبر ، (أي رمى بالحصباء وهي الحصى) فجلس حتى أمسكوا ، ثم دعا قوما من خاصته ، وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ، ثم قال : ليأخذ كل رجل منكم جليسه ، ولا يقولن لا أدري من جليسي ، ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد ، فدعاهم أربعة أربعة ، يحلفون بالله ما منا من حصبك ، فمن حلف خلاه ، ومن لم يحلف حبسه وعزله ، حتى صار إلى ثلاثين ، ويقال بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان » .

حَصَبوا عمرو بن الحريث ، فَشَخص إلى الكوفة ، حتى دخلها ، فأتى القصر ، ثم خرج فصَعِد المنبر ، وعليه قَبَاء سُنْدُس ، ومُطْرَف خَزّ أخضر ، قد فَرَق شعره ، وحجر جالس في المسجد حوله أصحابُه أكثرَ ما كانوا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن غِبَّ البغى والغَيِّ وَخِيمٌ ، إنّ هؤلاء جَمُّوا[1] فأشِرُوا ، وأمِنونى فاجترءوا علىّ ، وايمُ الله لئن لم تستقيموا لأداوينّكم بدوائكم ، وقال : ما أنا بشىء إن لم أمنعْ بَاحَةَ[2] الكوفة من حُجْر ، وأدعْه نكالاً لِمَنْ بعده ، وَيْلُ أمِّكَ يا حجر ، سَقَطَ الْعَشَاءُ بِكَ عَلَى سِرْحَانٍ[3] » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٤٣)

٢٦٣ — خطبة أخرى له

وخطب زياد فقال :

« استوصُوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف والعالم والشيخ ، فوالله لا يأتينى شيخ بشابٍّ قد استخفّ به إلا أوجعتُه ، ولا يأتينى عالم بجاهل استخف به إلا نكّلْتُ به ، ولا يأتينى شريف بوضيعٍ استخف به إلا انتقمت له منه » .

(البيان والتبيين ٢ : ٧٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥١ : شرح ابن أبى الحديد م ٤ ص ٧٤)

٢٦٤ — خطبة أخرى

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس : لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا أنْ تنتفعوا بأحسن ما تسمعون منا ، فإن الشاعر يقول :

---

(١) من جم الماء جموما : كثر واجتمع . (٢) الباحة : الساحة . (٣) هو مثل : وأصله أن رجلا خرج يلتمس العشاء ، فوقع على ذئب فأكله . يضرب فى طلب الحاجة يؤدى بصاحبها إلى التلف .

احمل بقولى وإن قصّرتُ فى عملى   ينفعْك قولى ولا يَضْرُرْك تقصيرى

٢٦٥ — وصية لزياد

وروى الجاحظ عن عمرو بن عُبَيْدٍ أنه قال: كتب عبد الملك بن مَرْوان وصية زيادٍ بيده، وأمر الناس بحفظها وتدبُّر معانيها وهى:

« إن الله عز وجل جَعَلَ لعباده عقولا، عاقَبَهم بها على معصيته، وأثابهم بها على طاعته، فالناس بين مُحْسِنٍ بنعمة الله عليه، ومُسىء بخِذلان الله إياه، ولله النعمةُ على المحسن، والحجّة على المسىء، فما أولى مَنْ تَمّت عليه النعمةُ فى نفسه ورأى العِبْرَة فى غيره بأن يضع الدنيا بحيثُ وضعها الله، فيعطى ما عليه منها، ولا يتكثّر بما ليس له منها، فإن الدنيا دار فناء، ولا سبيل إلى بقائها، ولا بد من لقاء الله، فأحذركم الله الذى حذَّركم نفسه، وأوصيكم بتعجيل ما أخَّرته العَجَزَةُ، قبل أن تصيروا إلى الدار التى صاروا إليها، فلا تقدِرون على توبة، وليس لكم منها أَوْبة، وأنا أستخلف الله عليكم، وأستخلفه منكم ».

قال الجاحظ: وقد روى هذا الكلام عن الحجاج، وزيادٌ أحق به منه.

(البيان والتبيين ١ : ٢٠٦)

٢٦٦ — ما كان يقوله لمن ولاه عملا

وكان زياد إذا وَلّى رجلا عَمَلا قال لهُ:

« خذ عَهدك، وسِرْ إلى عملك، واعلم أنك مصروفٌ رأسَ سَنَتِك، وأنك تصير إلى أربع خِلال، فاختر لنفسك. إنا إن وجدناك أمينا ضعيفاً، استبدلنا بك لضَعْفك، وسلّمتك من معَرّتنا أمانتُك، وإن وجدناك قويًّا خائناً استهنّا بقوتك، وأوجعنا ظَهْرَك

وتَقَلَّنا غُرْمك ، وإن جَمَعْتَ علينا الجُرْمَين ، جَمَعنا عليك المَضَرَّتين ، وإن وجدناك أميناً قويّاً ، زِدْنا فى عملك ، ورفَعْنا ذِكرك ، وكثَّرْنا مالك ، وأوطأْنا عَقِبك » .

(الأمالى : ٢ : ٨٢)

٢٦٧ — خطبة الضحاك بن قيس الفهرى بالكوفة[١]

(قتل سنة ٦٤ هـ)

وخطب الضَّحّاك بن قيس الفِهْرِىّ على مِنْبر الكوفة — وقد كان بلغه أن قوماً من أهلها يشتُمون عثمان وَيَبْرَءُون منه ، فقال :

« بلغنى أنَّ رجالا منكم ضُلّالاً يشتُمون أَئِمَّةَ الهدى ، وَيَعيبون أسلافَنَا الصالحين ، أَمَا وَالذى ليس له نِدٌّ ولا شريك ، لئن لم تنتهُوا عما يبلُغُنى عنكم ، لأَضَعَنَّ فيكم سيفَ زِيَاد ، ثم لاتجدونى ضعيفَ السَّوْرة[٢] ، وَلا كَليلَ الشَّفْرة[٣] ، أَمَا إنى لصاحبُكم الذى أغرتُ على بلادكم[٤] : فكنتُ أولَ من غزاها فى الإسلام ، وشرب من ماء الثَّعْلَبِيَّة

---

(١) ولاه معاوية الكوفة سنة ٥٥ إلى سنة ٥٨ ثم جعله على شرطته ، ولما مات معاوية الثانى بايعه أهل دمشق على أن يصلى بهم ، ويقيم لهم أمرهم ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ، ويمنعه من إظهار ذلك أن بنى أمية كانوا بحضرته ، وكان يعمل فى ذلك سرا ، ثم نشبت الحرب بينه وبين مروان بن الحكم فى مرج راهط ، ودارت الدائرة على جيش الضحاك وقتل منتصف ذى الحجة سنة ٦٤ هـ.

(٢) سورة السلطان : سطوته واعتداؤه . (٣) الشفرة : حد السيف ، وكليل : غير قاطع .

(٤) وكان ذلك سنة ٣٩ هـ ، دعاه معاوية ، وقال : سر حتى تمر بناحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت ، فمن وجدته من الأعراب فى طاعة على فأغر عليه ، وإن وجدت له مسلحة أو خيلا فأغر عليها ، فسرحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف ، فأقبل الضحاك فنهب الأموال ، وقتل من لقى من الأعراب ومر بالثعلبية فأغار على مسالح على وأخذ أمتعتهم ، ومضى حتى انتهى إلى القطقطانة ، فأتى عمرو ابن عميس بن مسعود — وهو ابن أخى عبد الله بن مسعود — وكان فى خيل لعلى ، وأمامه أهله ، وهو يريد الحج ، فقتله وقتل ناسا من أصحابه ، فلما بلغ ذلك عليا سرح حجر بن عدى الكندى فى أربعة آلاف ، فلم يزل مغذا فى أثر الضحاك حتى لقيه بناحية تدمر فواقعه ، فاقتتلوا ساعة ، فقتل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلا ، وقتل من أصحاب حجر رجلان ، وحجز الليل بينهم ، فهرب الضحاك وأصحابه . فلما أصبحوا لم يجدوا لهم أثرا — شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٥٤ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٧٨ — .

ومن شاطئ الفُرات ، أُعاقِب من شئتُ ، وأعفو عمن شئت ، لقد ذعرتُ المُخَدَّرات في خُدُورهن ، وإنْ كانت المرأةُ ليَبكي ابنُها فلا تُرْهِبُه ولا تُسكِته إلا بذكر اسمي ، فاتقوا الله يأهلَ العراق ، أنا الضحاك بن قيس ، أنا أبو أُنَيْس ، أنا قاتل عَمْرو ابن عُمَيْس » .

فقام إليه عبد الرحمن بن عُبيد ، فقال : « صدق الأمير ، وأحسن القول ! ما أعرَفَنا والله بما ذكرتَ ! ولقد لقيناك بغربيّ تَدْمُر فوجدناك شُجاعاً مجرِّباً صَبُوراً[1] ! » ثم جلس ، وقال : أيفخَر علينا بما صَنَع ببلادنا أوّل ما قَدِم ؟ وايمُ الله لأذكِّرَنّه أبغضَ مواطنه إليه ، فسكت الضحاك قليلا ، وكأنه خَزِي واستحيا ، ثم قال : نعم ، كان ذلك اليوم بأَخَرَةٍ[2] - بكلام ثقيل - ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥٥)

٢٦٨ - خطبته عند موت معاوية

ولما مات معاوية (سنة ٦٠ هـ) خرج الضحاك بن قيس الفهري - وكان صاحبَ شُرْطته - حتى صعد المنبر ، وأكفانُ معاوية على يديه تلُوح ، فحمِد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن معاوية كان عمودَ العرب ، وحَدَّ العرب ، قطع الله عزّ وجلّ به الفتنةَ ، وملّكه على العباد ، وفَتَحَ به البلاد ، ألاَ إنه قد مات ، فهذه أكفانُهُ ، فنحن مُدْرِجوه فيها ومُدْخِلوه قبرَه ، ومُخَلُّون بينـهُ وبين عمله ، ثم هو في البَرْزَخ[3] إلى يوم القيامة ، فمن كان منكم يريد أن يَشْهَدَه فليحضُرْ عند الأولى[4] » .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٢ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٥٠)

---

(١) هذا المقول تهكم به كما ترى . (٢) يقال : جاء أَخَرة وبأَخرة بالتحريك : أي آخر كل شيء .

(٣) البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، من وقت الموت إلى البعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ .

(٤) وفي العقد « فمن أراد حضوره صلاة الظهر فليحضره » .

٢٦٩ — خطبة النعمان بن بشير بالكوفة[1]

(قتل سنة ٦٤ هـ)

خطب النُّعمان بن بَشِير على منبر الكوفة ، فقال :

« يأهل الكوفة : إنى والله ما وجدت مَثَلى وَمثلَكم إلا الضَّبُعَ والثعلب ، أتيا الضَّبَّ فى جُحْره ، فقالا : أبا الحِسْل[2] . قال : أجبتكما . قالا : جئناك نختصم . قال : فى بيته يُؤْتَى الحَكَمَ . قالت الضبع : فتحت عيني . قال : فِعْلَ النساء فعلت . قالت : فلقطتُ تمرةً . قال : حُلوا اجتنيت قالت : فاختطفها ثُعَالة[3] . قال : لنفسه بَغَى الخيرَ . قالت : فلطمته لَطمةً . قال : حقًّا قضيتِ . قالت : فلطمنى أخرى . قال : كان حرًّا فانتصر . قالت : فاقض الآن بيننا . قال : حَدِّثْ حديثين امرأةً ، فإن لم تفهم فأربعة[4] » . (العقد الفريد ١ : ٢٦٩ — ٢ : ١٥٨ ، ومجمع الأمثال للميدانى ٢ : ١٣)

---

(١) ولى الكوفة وحمص لمعاوية ويزيد ، وكان هواه معهما ، وميله إليهما ، فلما مات معاوية بن يزيد دعا الناس إلى بيعة عبدالله بن الزبيربالشام ، وكان أول من خالف من أمراء الأجناد — وكان واليا على حمص — وانضم إلى الضحاك بن قيس الفهرى ، أمده بجيش من أهل حمص عليه شرحبيل بن ذى الكلاع ونشبت الحرب بين الضحاك وبين مروان بن الحكم فى مرج راهط ، ودارت الدائرة على جيش الضحاك وقتل كما قدمنا ، فلما بلغ الخبر النعمان بن بشيرخرج عن حمص هاربا ليلا ومعه امرأته وولده وثقله ، فسار ليلته جمعاء متحيرا لايدرى أين يأخذ ، فاتبعه خالد بن عدى الكلاعى فيمن خف معه من أهل حمص ، فلحقه وقتله وبعث برأسه إلى مروان ، وكان قتله فى ذى الحجة سنة ٦٤ هـ . (٢) أبو حسل وأبو حسيل : كنية الضب ، وفى مجمع الأمثال أن المتخاصمين : الأرنب والثعلب . (٣) ثعالة : اسم الثعلب الذكر والأنثى .

(٤) وقد ذهبت أقوال الضب كلها أمثالا . قال الميدانى فى شرح المثل الأخير (١ : ١٣٠) : « أى زده وأراد بالحديثين حديثا واحدا تكرره مرتين ، فكأنك حدثتها بحديثين . والمعنى كرر لها الحديث لأنها أضعف فهما ، فإن لم تفهم فاجعلهما أربعة ، وقال أبوسعيد : فإن لم تفهم بعد الأربعة فالمربعة (والمربعة كمكنسة : العصا) ويروى ، فاربع « أمر من ربع كنع » أى كف ، تضرب فى سوء السمع والإجابة » .

٢٧٠ — خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه بين يدى معاوية
(قتل سنة ٦٧ هـ)

قدم عُبَيد الله بن زياد على معاوية بعد هلاك زياد ، فجعل يتصدَّى منه بخَلْوة ، ليَسْبُرَ من رأيه ما كَرِهَ أن يُشْرِكَ فى علمه ، فاستأذن عليه بعد انصداع الطُّلَّاب ، واشتغال الخاصَّة ، وافتراق العامَّة ، وهو يوم معاوية الذى كان يَخْلُو فيه بنفسه ، ففطِن معاوية لما أراد، فبعث إلى ابنه يزيد وإلى مَرْوان بن الحكم وإلى سعيد بن العاص ، وعبد الرحمن ابن الحكم، وعمرو بن العاص ، فلما أخذوا مجالسهم أذِن له ، فسلم ووقف واجِمًا يتصفح وجوه القوم ، ثم قال :

« صَريح العُقوقِ مُكاتَمَةُ الأدْنَيْنَ ، لا خيرَ فى اختصاصٍ وإن وَفَر ، أحمدُ الله إليكم على الآلاء[1] ، وأستعينه على اللَّأْواء[2] ، وأستهديه من عَمًى مُجْهِد ، وأستعينه على عدوّ مُرْصِد[3] ، وأشهد أنْ لا إله إلا الله المُنْقِذ بالأمين الصادق من شَفَا جُرُفٍ هارٍ[4] ، ومن بَدٍّ غارٍ[5] ، وصلوات الله على الزكىّ نبىّ الرحمة ، ونذير الأمة ، وقائد الهدى ، أما بعد يا أمير المؤمنين : فقد عَسَفَ بنا ظَنٌّ فَرَّع[6] ، وقَذْع[7] صَدَّع ، حتى طَمِع السَّحِيق[8] ، وبئس الرفيق ، ودَبَّ الوُشاة بموت زياد ، فكلهم مستحقِر[9]

---

(١) النعم . (٢) الشدة . (٣) أرصدت له : أعددت .

(٤) الشفا : حرف كل شىء ، والجرف كعنق وقفل : ماتجرفته السيول وأكلته من الأرض ، وهار الجرف : انصدع ولم يسقط فهو هار كقاض ، وهو مقلوب من هائر ، فإذا سقط فقد انهار وتهور .

(٥) البد : التعب ، والغارى : الملازم الشامل ، من غرا السمن قلبه لزق به وغطاه .

(٦) فرع بين القوم وفرق بمعنى واحد : أى أن هـذا الظن فرق بيننا وبينك فجافيتنا .

(٧) هى فى الأصل « فرع » وأراها محرفة عن قذع وهى التى تناسب المقام . قذعه قذعا (بالسكون) رماه بالفحش وسوء القول كأقذعه ، والقذع محركة : الخنا والفحش والقذر ، وصدع : شقق وفرق : أى أن مارمانا به الوشاة لديك من سوء القول فرق بيننا وبينك . (٨) البعيد . (٩) فى الأصل هكذا بمعنى محتقر ، أى محتقرلنا لمعاداته إيانا ، أو أنه لايبالى بمعاداتنا لما نابنا من الضعف بموت زياد ، وربما كان « متحفز للمداوة » أى متوثب مستوفز أو « مستحفر للمداوة » من استحفر : إذا مضى مسرعا .

للعداوة . وقد قَلّصَ الآزرة[١] ، وشمّر عن عِطافه[٢] ليقول : مَضَى زياد بما استُلْحِق به ، ودَلَّ على الأُناةِ[٣] من مُسْتَلْحِقه ، فليت أمير المؤمنين سَلِمَ في دَعَته[٤] ، وأسْلَمَ[٥] زِياداً في ضَيْعته ، فكان تِرْبَ[٦] عامّته ، وأحد رعيَّتِهِ ، فلا تَشْخَص[٧] إليه عين ناظر ، ولا إصبع مُشِير ، ولا تَنْدَلِق[٨] عليه ألسُنٌ كَلَمَتْه حَيًّا ، ونَبَشَتْه ميتاً ؛ فإن تكن يا أمير المؤمنين حابيتَ زيادا بأول رُفاتٍ ، ودَعوةِ أمواتٍ ، فقد حاباك زياد بجدٍّ هَصُور ، وعَزمٍ جَسور ، حتى لانت شكائمُ الشَّرِسِ ، وذَلّت صَعْبة الأشوس[٩] ، وبذَل لك يا أمير المؤمنين يَمينَه ويَساره ، تأخذ بهما المنيع ، وتَقهر بهما البديع ، حتى مضى والله يغفر له ، فإن يكن أَخَذ بحقٍّ أنزله مَنازلَ الأقربين ، فإن لنا بعده ما كان لهُ ، بِدالّةِ الرَّحِم ، وقرابة الحَميم ، فما لنا يا أمير المؤمنين نمشي الضَّرَاء[١٠] ، ونُشْتَفُّ النُّضَارَ[١١] ؟ ولك من خيرنا أ كله ، وعليك من حُوبنا[١٢] أثقله ، وقد شهد القوم ، وما ساءنى قربهم ليُقرّوا حقًّا ، ويردُّوا باطلا ، فإن للحق مَنارًا واضحاً . وسبيلا قَصْداً[١٣] . فقل يا أمير

(١) الآزرة والأزر بضمتين : جمع إزار ، وهو الملحفة . (٢) العطاف : الرداء ، وجمعه عطف بضمتين ، وأعطفه ، وكذا المعطف بالكسر ، وهو مثل إزار ، ومئزر ، ولحاف ، وملحف .

(٣) فى الأصل « الأنية » وأراه محرفا عن « الأناة » وهى الحلم . (٤) الدعة : الخفض .

(٥) أسلمه : خذله ، أى فليته ترك زيادا ضائع النسب مغمورا ولم يستلحقه .

(٦) الترب : من ولد معك : أى فكان تربا لأحد عامة الناس ، ولم يكن تربا لك فلا يقدر له قدر .

(٧) أى فلا ترتفع . (٨) اندلق السيل : اندفع ، والسيف انسل بلا سل ، أو شق جفنه فخرج منه ، وكلمته : جرحته وآذته. (٩) وصف من الشوس بالتحريك ، وهو النظر بمؤخر العين تكبرا ، أو تغيظا.

(١٠) الضراء : الشجر الملتف فى الوادى ، يقال توارى الصيد منه فى ضراء ، وفلان يمشى الضراء : إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر . (١١) اشتف ما فى الإناء : شربه كله ، والنضار : الذهب أو الفضة ، والمراد : نمنع منه ، ولا نمكن من أخذه ، أى يحال بيننا وبين الولاية.

(١٢) الحوب بضم الحاء وفتحها : الإثم ، أى وعليك من آثامنا التى ارتكبناها فى سبيل تأييد سلطانك أثقلها . وفى بعض النسخ : « من جوابنا » أى من جوابنا حين يسألنا المولى عما أتينا من أخذ الناس بالعسف والإرهاق لتمكين ملكك . . . . (١٣) القصد : استقامة الطريق .

المؤمنين بأى أمريك شئت ، فما نأرِز[1] إلى غير جُحْرِنَا ، ولا نستكثر بغير حَقِّنا ، وأستغفر الله لى ولكم » .

٢٧١ — ردّ معاوية على ابن زياد

فنظر معاوية فى وجوه القوم كالمتعجِّب ، فتصفحهم بِلَحْظه رجلا رجلا وهو مبتسم ، ثم اتَّجه تِلْقاءه ، وعقد حُبْوته[2] ، وحَسَر عن يده ، وجعل يُومئُ بها ، ثم قال معاوية :

« الحمد لله على ما نحن فيه ، فكلٌّ خير منهُ . وأشهد أن لا إله إلا الله ، فكل شىء خاضعٌ له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، دَلَّ على نفسه بما بَانَ عن عجزِ الخلق أنْ يأتوا بمثله ؛ فهو خاتَمُ النبيين ، ومُصَدِّق المرسَلين ، وحجَّة رب العالمين ، صلوات الله عليه وبركاته ؛ أما بعد : فرُبَّ خيرٍ مستور ، وشرٍّ مذكور ، وما هو إلاّ السَّهمُ الأخيبُ لمن طار به ، والحظُّ للرَّغِب لمن فاز به ، فيهما التفاضُلُ وفيهما التغابنُ ، وقد صَفَقَت[3] يداى فى أبيك صَفْقَةَ ذى الخَلَّة من رواضع الفُصْلان ، عامَلَ اصطناعى[4] له بالكفر لِمَا أوليتهُ ، فما رميتُ به إلا انتصلَ[5] ، ولا انتضيتهُ[6] إلا غَلَّقَ جَفْنَهُ ، ولزَّت[7] لَسْعَتُهُ ، ولا قُلْتُ إلاّ عانَدَ ، ولا قمتُ إلا قعد ، حتى اخْتَرَمه[8] الموت ، وقد أوْقع بِخَتْرِه[9] ، ودَلَّ على حِقده ، وقد كنت رأيتُ فى أبيك رأياً حَضَرهُ الخطَل ، والتبس به الزَّلَل ، فأخذ منى بحظِّ الْغَفلة ، وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى ، إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسُّوء ،

---

(١) من أرزت الحية : أى لاذت بجحرها ورجعت إليه . (٢) احتبى بالثوب : اشتمل ، أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوة ، وحسر : كشف . (٣) صفق له بالبيع ، وصفق يده ، وعلى يده صفقا وصفقة : ضرب يده على يده ، وذلك عند وجوب البيع . والفصلان جمع فصيل : وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، والخلة : الحاجة . (٤) اصطنعه لنفسه : اختاره لخاصة أمر استكفاه إياه .

(٥) انتصل السهم : سقط نصله . (٦) انتضى السيف : استله ، والجفن : غمد السيف .

(٧) لزه : طعنه . (٨) أهلكه . (٩) الختر : الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر ، وأوقع به : أهلكه .

فما بَرِحت هَنَاتُ(١) أبيك تحطب فى حبل القَطيعة ، حتى انتكثَ(٢) المُبْرَم ، وانحلّ عقد الوداد ، فيا لها توبةً تُؤْتَنَف(٣) من حَوْبة أورثَتْ ندما ، أَسْمَعَ بها الهاتفُ ، وشاعَتْ للشامت ، فليَهْنَأْ(٤) الواشِمَ مابه احتقر، وأراك تحمَد من أبيك جِدًّا وجُسورا(٥) هماأوفيَا به على شَرَف التَّقَحُّم(٦) ، وغَبْطِ النعمة ، فدَعْهما فقد أذكرْتَنا منه ما زهّدنا فيك مِن بَعْدِه ، وبهما مشيتَ الضراء ، واشتففت النضار ، فاذهب ، إليكَ ، فأنت نَجْلُ الدَّغَل(٧) ، ونَتْر النَّغَل(٨) ، والأجر شَرٌّ » .

٢٧٢ — مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد : « يا أمير المؤمنين إن الشاهد غيرَ حكم الغائب ، وقد حضرك زياد ، وله مواطِنُ معدودة بخير ، لا يُفسِدها التظنّى(٩) ، ولا تغيّرُها التُّهَم ، وأهلوه أهلوك التحقوا بك ، وتوسّطُوا شأنك ، فسافَرتْ به الرُّكبانُ ، وسَمِعت به أهل البُلدان ، حتى اعتقده الجاهلُ ، وشكَّ فيه العالِمُ ، فلا تَتَحجَّر(١٠) ياأمير المؤمنين ما قد اتسع ، وكَثُرَت فيه الشّهاداتُ ، وأعانك عليه قوم آخرون » .

فانحرف معاوية إلى من معه ، فقال : هذا وَقَذَ(١١) نفسه ببيعته ، وطعن فى إمْرته ، يعلم ذلك كما أعلمه ، يا لَلرِّجال من آل أبى سفيان ! لقد حَكَمُوا وَبَذَّم(١٢) يزيدُ وحدَه ،

---

(١) أعماله وسيئاته جمع هنة . (٢) انحل وانتقض . (٣) تؤتنف : تستأنف ، والحوبة : الإثم والذنب . (٤) من هنأه الطعام : أى ساغ ولذ ، والواشم فاعل من الوشم ، وشم يده : إذا غرزها بإبرة ثم ذر عليها النيلج ، والمراد به هنا المعادى — والوشيمة : العداوة — أى فهنيئا لأعدائه الذين حقروه ونالوا من عرضه ، فهو أهل لما قيل فيه : « رد معاوية بذلك على قول عبيد الله قيل » ولا تندلق عليه ألسن كلمته حيا ، ونبشته ميتا » . (٥) الجسور : الجسارة . (٦) تقحمت به دابته : ندت به وربما طوحت به فى وهدة أو وقصت به ، والقحمة كغرفة : الورطة والمهلكة ، والمراد التعرض الهلاك .

(٧) الدخل والفساد . (٨) نغل الأديم نغلا : فسد فى الدباغ ، والجرح فسد . (٩) التظنى : إعمال الظن ، وأصله التظنن . (١٠) أى فلا تضيق . تحجر عليه : ضيق ، وتحجر ماوسعه الله : حرمه وضيقه ، وفى الحديث : « لقد تحجرت واسعا » أى ضيقت ماوسعه الله ، وفى الأصل « فلا يتحجر » وهو تصحيف . (١١) فى الأصل « وفد » ولعله وقذ، يقال وقذه : أى غلبه وسكنه. (١٢) فاقهم .

ثم نظر إلى عبيد الله ، فقال : يابن أخي ، إني لأعرفُ بك من أبيك ، وكأني بك في غَمْرة لا يَخْطُوها[1] السابح ، فالزَمْ ابن عمك ، فإن لما قال حقًّا ، فخرجوا ولزم عبيد الله يزيدَ يَرِدُ مجلسه ، ويَطأ عَقِبَه أياما ، حتى رَمَى به معاوية إلى البصرة واليًا عليها[2] .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

٢٧٣ — وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه عند موته[3]

روى الطَّبَرِيّ قال :

لما كان المُهَلَّبُ بن أبي صُفْرَة بِزَاغُولَ من مَرْوِ الرُّوذِ (من خُراسان) أصابته الشَّوْصة[4] (وقوم يقولون الشَّوْكة[5]) فدعا حَبِيبًا ومن حضره من ولده ، ودعا بِسِهامٍ فَحُزِمت ، وقال : أتَرَونكم كاسِريها مجتمعةً ؟ قالوا : لا . قال : أفترونكم كاسريها متفرقةً ؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة ، فأوصيكم بتقوى الله وصِلَةِ الرَّحِم ، فإن صلة الرحم تُنْسِئُ[6] في الأجل ، وتُثْرِي المال ، وتُكثِر العدد ، وأنهاكم عن القطيعة ، فإن القطيعة تُعْقِب النار ، وتُورِث الذِّلة والقِلّة ، تَبَاذَلُوا وتَوَاصَلُوا تَحَابُّوا ، وأجمِعوا أمرَكم ولا تختلفوا ، وتَبَارُّوا تجتمعْ أموركم ، إن بَنِي الأم يختلفون ، فكيف بنِي العَلَّاتِ[7] ؟ وعليكم بالطاعة والجماعة ، ولتكن فِعالُكم أفضل من قولكم ، فإني أحب للرجل أن يكون لعَمَلِه فضلٌ على لسانه ، واتقوا الجواب ، وزَلّة اللسان ، فإن الرجل تَزِلُّ قدمه فينتعش من زَلّته ، ويزل لسانه فيَهْلِك ، اعْرِفوا لمن يَغْشَاكم حَقّه ، فكفى بغُدُوِّ

---

(١) في الأصل « لايخطرها » وأراه « لايخطوها » . (٢) قال الطبري : « ولى معاوية عبيدالله ابن زياد البصرة سنة ٥٥ هـ » . (٣) سترد خطبه إن شاء الله في باب « خطب الخوارج ومايتصل بها » وذكر الطبري أنه توفي سنة ٨٢ هـ ، وابن خلكان أنه توفي سنة ٨٣ هـ ، وكان الحجاج قد ولاه بعد فراغه من حرب الأزارقة على خراسان ، فوردها واليا عليها سنة ٧٩ هـ ولم يزل واليا عليها حتى أدركته الوفاة هناك .

(٤) الشوصة بالفتح وقد تضم الشين : وجع في البطن . (٥) الشوكة : حمرة تعلو الجسد .

(٦) تؤخر وتطيل . (٧) بنو العلات : بنو أمهات شتى من رجل واحد .

الرجل ورَواحِه إليكم تذكِرَةً له ، وآثِروا الجودَ على البخل ، وأحِبُّوا العرب ، واصطنعوا العرب ، فإن الرجل من العرب تَعِدُه العِدَةَ فيموتُ دونك ، فكيف الصنيعة عنده ؟ وعليكم فى الحرب بالأناةِ والمكيدة ، فإنها أنفعُ فى الحرب من الشجاعة ، وإذا كان اللقاء نزل القضاء ، فإنْ أخذ رجل بالحزم فظهَر على عدوه ، قيل : أتَى الأمر من وجهه ، ثم ظفر فحُمِد ، وإن لم يَظفر بعد الأناة ، قيل : ما فرَّطَ ولا ضيَّع ، ولكن القضاء غالب ، وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السُّنَن وأدَب الصالحين . وإياكم والخِفَّةَ وكثرة الكلام فى مجالسكم ، وقد استخلفتُ عليكم يزيدَ ، وجعلت حبيباً على الجند ، حتى يَقْدَم بهم على يزيد ، فلا تخالفُوا يزيد » فقال له المفضّل : لو لم تُقدِّمْه لقدَّمناه .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٩ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٨)

* * *

وعهد إلى ولده يزيد ، فكان من جملة ما قال له :

« يا بُنَىَّ ، استعقِل الحاجب ، واسْتَظْرِف الكاتب ، فإنَّ حاجِبَ الرجل وجهُهُ ، وكاتبه لسانُه » ، وكان يقول لبنيه : « يا بَنِى أحْسَن ثيابكم ما كان على غيركم » . ومن كلماته المأثورة قوله : « الحياة خيرٌ من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة ، ولو أُعْطيتُ مالم يُعْطَه أحد لأحببت أن تكون لى أذنٌ أسمع بها ما يقال فىَّ غداً إذا مِتُّ » ، وقوله : « عجبتُ لمن يشترى العبيد بماله ولا يشترى الأحرار بإفضاله » .

(وفيات الأعيان ٢ : ١٤٦ ، وسرح العيون ١٣٧)

خطب الحجاج بن يوسف الثقفى

(المتوفى سنة ٩٥ هـ)

٢٧٤ — خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير (سنة ٧٣ هـ)

لما قَتَل الحجاجُ عبد الله بن الزبير، ارتجَّت مكةُ بالبكاء، فصعد المنبر، فقال:

«ألَا إن ابن الزبير كان من أحْبار[1] هذه الأمة، حتى رغِب فى الخلافة ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكَنَّ بحَرَم الله، ولو كان شىءٌ مانعاً للعُصاة، لمنَع آدمَ حُرْمةُ الجنة، لأن الله تعالى خَلَقَه بيده، وأسْجَدَ له ملائكته، وأباحهُ جنّته، فلما عصاه أخرجه منها بخَطِيئته، وآدمُ على الله أكرمُ من ابن الزبير، والجنةُ أعظمُ حُرْمةً من الكعبة».

(سرح العيون ص ١٢٢ وتاريخ ابن عساكر ٤ : ٥٠)

٢٧٥ — خطبته بعد قتل ابن الزبير

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير متلثِّماً، فحط اللِّثام عنه ثم قال:

«مَوْجُ ليلِ التظلم، وانجلى بضَوءِ صُبْحه، يأهل الحجاز، كيف رأيتمونى؟ ألم أكشِف ظُلمةَ الجَوْر، وطَخْيَةَ[2] الباطل بنور الحق؟ والله لقد وطئكم الحجاج وطأةَ مُشْفِق، وعَطْفة رَحم، ووصْلَ قرابة، فإياكم أن تزلّوا عن سَنَنٍ أقمنا كم عليه،

---

(١) جمع حبر: بفتح الحاء وكسرها، وهو العالم أو الصالح. (٢) الطخية: الظلمة، ويثلث.

فأقطعَ عنكم ما وصلتُهُ لكم ، بالصارِمِ البتّار ، وأُقيم من أَوَدِكم ما يقيم المثقِّفُ من أَوَد(١) القَناةِ بالنار » ثم نزل وهو يقول :

أخو الحرب إن عضَّتْ به الحربُ عضَّها وإن شمّرتْ عن ساقها الحربُ شمّرا

(مواسم الأدب ٢ : ١٢٣)

٢٧٦ — خطبته حين ولى العراق (٢) (سنة ٧٥ هـ)

حدَّث عبدالملك بن عُمَير الليثى قال :

بينا نحن فى المسجد الجامع بالكوفة ، وأهلُ الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم فى العشرة والعشرين من موَاليه ، إذ أتى آتٍ ، فقال : هذا الحجاج قد قَدِم أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد مُعْتَمّاً بعِمامة قد غطّى بها أكثرَ وجهه متقلِّدًا سيفاً ، متنكبًا(٣) قوساً ، يؤُم المنبر ، فقام الناس نحوه حتى صعِد المنبر ، فمكث ساعة لايتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قبّحَ الله بنى أمية ، حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! حتى قال عُمَيْر بن ضابِئ البُرْجُمىّ : ألاَ أحصِبُه لكم ؟ فقالوا : أمْهِلْ حتى نَنظُر(٤) ، فلما رأى عيونَ الناس إليه ، حَسَر اللِّثام عن فيه ، ونهض ، فقال :

« أنَا ابنُ جَلاَ وَطَلاّعُ الثنايا متى أضعِ العِمَامَةَ تعرفونى(٥)

---

(١) مقوم الرماح. والأود : الاعوجاج .

(٢) ويروى : أنه خرج يريد العراق واليا عليها فى اثنى عشر راكبا على النجائب ، حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار ، فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر فقال : على بالناس ، فحسبوه وأصحابه خوارج فهموا به .

(٣) تنكب قوسه : ألقاها على منكبه . (٤) قال ابن نباتة « فلما سمعوا هذه الخطبة — وكان بعضهم قد أخذ حصى أراد أن يحصبه به — تساقط من أيديهم حزنا ورعبا » . (٥) البيت لسحيم بن وثيل الرياحى ، قاله الحجاج متمثلا ، وقوله « أنا ابن جلا » أى الواضح الأمر المنكشفه ؛ وقيل ابن جلا الصبح ، لأنه يجلو الظلمة . وهو مثل يضرب للمشهور المتعالم ، أى أنا الظاهر الذى لا يخفى وكل أحد يعرفنى ، ولم ينون جلا لأنه أراد الفعل ، فحكى على ما كان عليه قبل التسمية كقول الشاعر :

وَاللهِ مَا زيدٌ بنامَ صاحبُهْ ولا مُخالِطِ اللّيَانِ جَانبُهْ

وتقديره أنا ابن الذى يقال له جلا الأمور وكشفها . وقال بعضهم : ابن جلا — وابن أجلى — رجل =

ثم قال: يأهل الكوفة، أمَا والله إنى لَأَحمِلُ الشرَّ بحمله، وأحذوه بنَعْله، وَأَجزيه بمثله، وإنى لَأَرَى أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة، ورءوساً قد أينعَتْ وحان قِطافُها، وإنى لَصاحبُها، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحَى تترقرقُ، ثم قال:

هذا أوان الشدِّ فاشتدِّى زِيَمْ قد لفَّها الليلُ بِسوّاقٍ حُطَمْ
ليس بِراعِى إبلٍ وَلا غَنَمْ ولا بجزّارٍ على ظَهْرِ وَضَمْ[1]

ثم قال: قد لَفَّها الليل بعَصْلَبِيٍّ أَرْوَعَ خَرّاجٍ من الدَّوِّيِّ
مُهاجِرٍ ليس بأعْرابِيّ[2]

ثم قال: قد شمّرتْ عن ساقها فشُدُّوا وَجَدَّتِ الحربُ بكم فَجِدُّوا
والقوسُ فيها وَتَرٌ عُرُدُّ مثل ذِراعِ البَكْرِ أو أشدُّ
لا بُدَّ مما ليس منهُ بُدُّ[3]

= بعينه، قال فى اللسان: «وكان ابن جلا هذا صاحب فتك يطلع فى الغارات من ثنية الجبل على أهلها» والثنايا جمع ثنية: وهى الطريق فى الجبل، أراد به أنه جلد يطلع الثنايا فى ارتفاعها وصعوبتها، والعمامة: المغفر والبيضة قال ثعلب: العمامة تلبس فى الحرب وتوضع فى السلم.

(١) الشعر لرويشد بن رميض العنبرى والشد: العدو، وزيم: اسم فرس أو ناقة، وقيل اسم للحرب، والحطم، والحطمة: الراعى الظلوم الماشية يهشم بعضها ببعض، فلا يبقى من السير شيئا، وقد ضرب المثل برعاة الغنم فى الحمق فقيل: «أحمق من راعى ضأن ثمانين» قال الجاحظ فى البيان والتبيين ١: ١٣٩ «فأما استحماق رعاة الغنم فى الجملة فكيف يكون ذلك صوابا؟ وقد رعى الغنم عدة من جلة الأنبياء عليهم السلام» والوضم: كل ماقطع عليه اللحم.

(٢) العصلبى: الشديد القوى، والأروع: الذكى، أو من يعجبك بشجاعته، والدو والدوية والداوية ويخفف: الفلاة المتسعة التى تسمع لها دويا بالليل «وإنما ذلك الدوى من أخفاف الإبل، تنفسح أصواتها فيها، وتقول جهلة الأعراب: إن ذلك عزيف الجن» أى خراج من كل غماء شديدة، وهجر الرجل: خرج من البدو إلى المدن، والأعرابى بطبيعته غر ساذج ليس فى تجربته كأهل المدن.

وسيرد عليك إن شاء الله فى الجزء الثالث فى خطبة أبى بكر بن عبدالله بالمدينة:

«إنى لست أتاويًّا أعلم، ولا بدويًّا أفهم».

(٣) جد به الأمر: اشتد، وعرد: أى شديد، والبكر: الفتى من الإبل، ولابد من كذا: أى لامحيد عنه.

إنى والله يأهلَ العراق ، وَمَعْدِنَ الشقاق والنفاق ، ومساوى الأخلاق ، ما يُقَعْقَعُ لى بالشِّنان [(١)] ، ولا يُغْمَز جانبى كتغماز التين ، ولقد فُرِرتُ [(٢)] عن ذكاء ، وَفُتِّشْت عن تجربة ، وَجَرَيتُ إلى الغاية القُصْوَى ، وإن أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — نَثَرَ كِنَانَتَه [(٣)] ، بين يديه ، فَعَجَم [(٤)] عِيدانها ، فوجدنى أمرَّها عُوداً ، وأصلبَها مَكْسِراً [(٥)] فرماكم بى ، لأنكم طالما أوضعتم [(٦)] فى الفِتَن ، واضطجعتم فى مَرَاقِدِ الضلال ، وسَنَنْتم سُنَنَ الغىّ ، أما والله لألحُوَنَّكم [(٧)] لَحْوَ العصا ، وَلأقرعنكم قَرْعَ المَرْوَة [(٨)] ، وَلأعصِبَنَّكم عَصْبَ السَّلَمَة [(٩)] ، وَلأضرِبنكم ضربَ غَرَائب الإبل [(١٠)] ، فإنكم لكأهلِ قرية كانت آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ، فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، وإنى والله لا أعِدُ إلا وَفَيت ، ولا أهُمّ إلا أمضيتُ ، ولا أخلُق إلا فَرَيْتُ [(١١)] ، فإياى وهذه الشُّفَعاء ، والزَّرافاتِ [(١٢)] والجماعات ، وقالًا وقيلا [(١٣)] ، وما تقول ؟ وفيم أنتم وذاك ؟

---

(١) القعقعة : تحريك الشىء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره ، والشنان : جمع شن بالفتح ، وهو القربة البالية ، وهم يحركونها إذا أرادوا حث الإبل على السير لتفزع فتسرع : مثل يضرب لمن لا يروعه مالا حقيقة له ، وقد تمثل به معاوية من قبله . (٢) فر الدابة : فتح حنكها وكشف أسنانها لينظر سنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه . (٣) الكنانة : جعبة السهام . وفى رواية : « كب كنانته » أى قلبها . (٤) عجم العود : عضه ليعرف صلابته من خوره . (٥) وفى رواية « وأصلبها عمودا » .

(٦) أوضع إيضاعا : أسرع فى سيره كوضع . (٧) لحا العصا : قشر ، وفى رواية : « لحو العود » .

(٨) المرو : حجارة بيض براقة تورى النار .

(٩) السلمة : شجر كثير الشوك . قال الجاحظ فى البيان والتبيين « لأن الأشجار تعصب أغصانها ، ثم تخبط بالعصى لسقوط الورق وهشيم العيدان » (٣ : ٢١) . (١٠) قال الجاحظ أيضا : (٣ : ٢٧) « وهى تضرب عند الحرب ، وعند الخلاط ، وعند الحوض أشد الضرب » وقال الحارث بن صخر :

بضرب يزيل الهام عن سكناته كما ذيد عن ماء الحياض الغرائب

(١١) أخلق : أقدر ، وفريت : قطعت . (١٢) الشفعاء جمع شفيع ، وكانوا يجتمعون إلى السلطان فيشفعون فى أصحاب الجرائم ، فنهاهم عن ذلك ، والزرافات جمع زرافة بفتح الزاى وضمها : الجماعة من الناس . (١٣) القول فى الخير ، والقال ، والقيل ، والقالة فى الشر .

أما والله لَتَسْتَقِيمُنّ على طريق الحق ، أو لأَدَعَنّ لكل رجل منكم شُغْلا فى جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أَعْطِيَاتِكم[1] ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المُهَلّب بن أبى صُفْرة[2] ، وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سَفَكْتُ دمه ، وأَنْهبت[3] ماله ، وهدمت منزله » .

(الكامل للمبرد ١ : ١٨١ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٤ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٣ — ٣ : ٧ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢١٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٨ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، ومروج الذهب ٢ : ١٣٢ ، ومعاهد التنصيص ١ : ١١٥ ، والكامل لابن الأثير ٤ : ١٥٦ ، وسرح العيون ١١٦ ، وتاريخ ابن عساكر ٤ : ٥٣) .

٢٧٧ — خطبته وقد سمع تكبيرا فى السوق

فلما كان اليوم الثالث خرج من القصر ، فسَمِع تكبيراً فى السوق ، فرَاعَه ذلك ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

« يأهلَ العراق ، يأهلَ الشقاق والنفاق ، ومساوِئِ الأخلاق ، وَبَنِى اللَّكِيعَة[4] ، وعَبِيدَ العَصَا ، وأولادَ الإماء ، والفَقْع بالقَرْقَر[5] ، إنى سمعت تكبيراً لا يُراد الله به ، وإنما يراد به الشيطانُ[6] ، ألا إنها عَجَاجةٌ تحتها قَصْفٌ[7] ، وإنما مَثَلِى ومثلكم ما قال عمرو بن بَرّاق الهَمْدَانىّ :

وكنتُ إذا قومٌ غزَوْنى غزَوْتُهُمْ ... فهل أنا فى ذا يا لَهَمْدَانَ ظالمُ !

---

(١) أعطيات جمع أعطية ، وهى جمع عطاء . (٢) قائد الجيوش التى حارب الخوارج الأزارقة ، وفل شوكتهم ، وسيأتى . (٣) جعلته نهبا يغار عليه .

(٤) اللئيمة . (٥) القرقر : أرض مطمئنة لينة ، والفقع ويكسر : البيضاء الرخوة من الكمأة ، ويقال للذليل : هو أذل من فقع بقرقر ، لأنه لا يمتنع على من اجتناه ، أو لأنه يوطأ بالأرجل .

(٦) وفى رواية : « إنى سمعت تكبيرا ليس بالتكبير الذى يراد الله به فى الترغيب ، ولكنه التكبير الذى يراد به الترهيب » . (٧) العجاج : الغبار ، والقصف : شدة الريح .

متى تجمع القلبَ الذكى وصارماً وأنفاً حَمِيًّا تجتنبك المظالمُ

أمَا والله لاتقرَعُ عصًا عصًا إلا جعلتها كأمس الدَّابر[1] » .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٩ — ١ : ٢٠٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وإعجاز القرآن ١٢٤ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١١٤ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢١٢ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

٢٧٨ — خطبته وقد قدم البصرة

وخطب لمّا قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعدهم فقال :

« أيها الناس : من أعياه داؤُه ، فعندى دَواؤُه ، ومن استطال أجلَه ، فعَلَىَّ أن أُعَجِّلَه ، ومن ثقُل عليه رأسُه ، وضعتُ عنه ثِقْلَه ، ومن استطال ماضِى عُمره . قصَّرْتُ عليه باقيه ، إن للشيطان طَيْفا ، وللسلطان سَيْفاً ، فمن سقُمتْ سريرته ، صحّت عُقُوبته ، ومن وضعه ذنبه ، رفعه صَلْبُه ، ومن لم تسعْهُ العافية ، لم تضِقْ عنه الهَلَكة ، ومن سبقته بادِرَةُ فمِه ، سبق بدنَه بسَفْكِ دمه ، إنى أُنْذِرُ ثم لا أُنظِر[2] ، وأحذِّر ثم لا أعذِر ، وأتوعد ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيقُ[3] وُلاَتكم ، ومن استرخى لَبَبُه[4] ، ساء أدبُه ، إن الحزم والعزم سلبانى سَوْطى[5] ، وأبدلانى به سيفى ، فقائمه فى يدى ، ونِجادُه[6] فى عُنُقى ، وذُبابُه[7] قِلَادةٌ لمن عصانى ، والله لا آمُرُ أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذى يليه ، إلا ضربت عنقه » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٤٤ صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ وسرح العيون ١٢٢)

---

(١) وفى رواية الطبرى خاصة : « ألا يربع رجل منكم على ظلعه ، ويحسن حقن دمه ، ويبصر موضع قدمه ، فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها ، وأدبا لما بعدها » — يربع (كيمنع) يقف وينتظر ، والظلع (كشمس) : الغمز فى المشى ، ويقال : اربع على ظلعك ، أى إنك ضعيف ،فانته عما لاتطيقه. (٢) أنظره: أمهله. (٣) الترنيق: الضعف فى الأمر (وفى البدن والبصرأيضا).

(٤) اللبب : مايشد فى صدر الدابة يمنع استئخار الرحل ، والمراد أن الموادة واللين تفسد أدب الرعية .

(٥) هكذا فى نهاية الأرب ، وفى صبح الأعشى : « سكنا فى وسطى » والأول أصح ، أى أنه رأى من الحزم والعزم : المبالغة فى استعمال الشدة والقوة فى التأديب ، فطرح السوط ، واستبدل به ماهو أشد منه وهو السيف . (٦) النجاد : علاقة السيف . (٧) ذباب السيف : حده .

٢٧٩ — خطبته بعد وقعة دير الجماجم[1]

وخطب أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم فقال :

« يأهل العراق ، إن الشيطان قد استبطنَكم ، فخالط اللحم والدم والعَصَبَ ، والمَسَامِعَ والأطرافَ ، والأعضاء[2] والشِّغاف[3] ، ثم أفضى إلى المِخاخ[4] والأصْماخ ، ثم ارتفع فعشَّشَ ، ثم باض وفرَّخ ، فحَشا كم نفاقاً وشِقَاقاً ، وأشعركم خلافاً ، اتخذتموه دليلا تتّبعونه ، وقائداً تُطِيعونه ، ومُؤامَرا[5] تستشيرونه ، فكيف تنفعكم تجربة ، أو تعِظكم وَقْعة ، أو يحجُزكم إسلام ، أو ينفعكم بيان ؟ ألستم أصحابى بالأهواز[6] ؟

---

(١) وقعة دير الجماجم : هى وقعة نشبت بين الحجاج وبين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قرب الكوفة سنة ٨٣ هـ هزم فيها ابن الأشعث . وذلك أن عبيد الله بن أبى بكرة عامل الحجاج على سجستان كان قد غزا رتبيل ملك الترك ، وأوغل فى بلاده فأصيبوا ، وهلك أكثرهم ، فوجه الحجاج إلى رتبيل بن الأشعث على رأس جيش عظيم لمحاربته ، فسار إليه وامتلك بعض بلاده ، وكان يرى أن يتدرج فى الفتح ، فينتقصهم فى كل عام طائفة من أرضهم ، ولايتوغل فى بلادهم لكيلا يعرض جيشه للدمار والهلكة ، وكتب إلى الحجاج بذلك ، فأبى عليه الحجاج ، وكتب إليه يضعف رأيه ويأمره بالوغول فى أرضهم وإلا عزله ، وكان من جراء ذلك أن بايع الجند ابن الأشعث على خلع الحجاج وقتاله ثم خلع عبد الملك بن مروان ، وسار ابن الأشعث بهم من سجستان إلى العراق ، وتجهز الحجاج للقائه ، فسار بأهل الشام حتى نزل تستر (مدينة بالأهواز) فانهزمت مقدمته ، فرجع إلى البصرة حتى نزل الزاوية (موضع قرب البصرة) ودارت رحى الحرب بين الفريقين فهزم أهل العراق أهل الشام . فجثا الحجاج على ركبتيه وانتضى نحو شبر من سيفه ، واستمد لقاء الموت كريما فقويت بذلك قلوب جنده واستبسلوا حتى كان لهم النصر . وانهزم ابن الأشعث ، فأقبل نحو الكوفة ، حتى هزم هزيمة منكرة بدير الجماجم وتبدد أمره ، وفر إلى فارس حتى نزل مدينة بست ؛ فسمع رتبيل بمقدمه فأنزله عنده وأكرمه فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يبعث إليه بابن الأشعث ويتوعده إن لم يفعل ، فأراد رتبيل أن يرسله إليه ، فقتل ابن الأشعث نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر ، فمات فاحتز رتبيل رأسه ، وبعث به إلى الحجاج سنة ٨٥ هـ . (٢) فى العقد الفريد (والأعضاد) . (٣) الشغاف : غلاف القلب أو حبته . (٤) رواية نهاية الأرب « المخاخ » وهو الوارد فى كتب اللغة : مخ يجمع على مخاخ ومخخة (كمنبة) ، أما سائر المصادر التى روت هذه الخطبة ؛ فترويها (الأمخاخ) ، وهو مالم أره فى كتب اللغة . وقد روت جميع المصادر « الأصماخ » بهذا النص ، والذى فى كتب اللغة : « الصماخ من الأذن : الخرق الباطن الذى يفضى إلى الرأس جمعه أصمخة وصمائخ ، ومثل الصماخ الأصموخ كعصفور ، وجمعه أصاميخ ، فصواب الكلمة « الصمائخ » أو « الأصاميخ » . (٥) آمره فى كذا مؤامرة ؛ شاوره . (٦) يشير إلى وقعة تستر »

حيث رُمْتُمُ المكر ، وسعيتم بالغَدر ، واستجمعتم للكُفر ، وظننتم أن الله يَخْذُل دينه وَخِلافته ، وأنا أرميكم بطَرْفى ، وأنتم تتسَلَّلون لِوَاذًا[1] ، وتنهزمون سِرَاعًا ؟ ثم يوم الزَّاوية ، وما يوم الزَّاوية ! بها كان فَشَلكم وتنازعُكم وتخاذلكم ، وَبَرَاءة الله منكم ، ونُكُوص وَلِيِّكم عنكم ، إذ وَلَّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى أعطانها[2] ، لا يسأل المرء عن أخيه ، ولا يَلوى[3] الشيخ على بنيه ، حتى عضَّكم[4] السلاح ، وقَصَمتكم الرماح ، ثم يوم دَيْر الجماجم ، وما يوم دير الجماجم ! بها كانت المعارك والملاحم[5] ، بضرب يُزِيل الهام[6] ، عن مَقِيله[7] ، وَيُذْهِل الخليل عن خَليله ، يأهل العراق ، وَالْكَفَرَاتِ بعد الفَجَرات ، والْغَدَرات بعد الْخَتَرَات[8] ، وَالنَّزَوَات[9] بعد النزوات ، إنْ بَعَثتكم إلى ثغوركم غَلَلتم[10] وَخُنْتم ، وإن أَمِنتم أرجفتم ، وإن خِفْتم نافقتم ، لا تذكرون حَسَنة ، ولا تشكرون نِعْمَة ، هل استخفكم ناكث ، أو استغواكم غاوٍ ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم[11] خالع ، إلا اتبعتموه وآويتموه ، ونصرتموه وزكّيتموه ؟ يأهل العراق ، هل شغَب شاغب ، أو نَعَب ناعب ، أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟ يأهل العراق : ألم تَنْهَكم المواعظ ، ألم تزجُرْكم الوقائع ؟ » .

ثم التفت إلى أهل الشأم وهم حول المنبر ، فقال : « يأهل الشام ، إنما أنا لكم كالظليم[12] الرامح عن فِراخه ، يَنْفِى عنها المدَر[13] ، ويباعد عنها الحجَر ، وَيُكِنُّها

---

(١) أى يلوذ بعضهم ببعض : لاوذ لواذا وملاوذة . (٢) أعطان جمع عطن كسبب : مبرك الإبل حول الحوض كالمعطن ، ونوازع : أى مشتاقة . (٣) لايلوى على أحد ؛ أى لايقف ولا ينتظر .

(٤) فى نهاية الأرب « عظكم » بالظاء : عظته الحرب كعضته بالضاد .

(٥) جمع ملحمة وهى الوقعة العظيمة القتل . (٦) جمع هامة ، وهى الرأس .

(٧) موضعه ، أى الأعناق ، قال الشاعر :

بضرب بالسيوف رءوس قوم   أزلنا هامهن عن المقيل

(٨) جمع ختْرة ، والختر كشمس : الغدر والخديعة أو أقبح الغدر . (٩) جمع نزوة ، من نزا نزوانا : أى وثب . (١٠) غل كنصر غلولا : خان . (١١) استعضده : سأله أن يعضده .

(١٢) ذكر النعام ، والرامح : أى المدافع ، من رمحه : أى طعنه بالرمح . (١٣) قطع الطين اليابس .

من المطر ، ويحميها من الضِّباب[1] ، ويحرسها من الذّئاب ، يأهل الشام ؛ أنتم الجُنَّة والرِّداء ، وأنتم العُدّة والحذاء » .

(البيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٤ ، ومروج الذهب ٢ : ١٣٥ — وتاريخ ابن عساكر ٤ : ٥٥) .

٢٨٠ — خطبة أخرى له فى أهل الكوفة وأهل الشأم

وخطب فقال :

« يأهل الكوفة ، إن الفتنة تُلقَح بالنَّجوى[2] ، وتُنتَج بالشكوى ، وتُحصَد بالسيف ؛ أما والله إن أبغضتمونى لاتضرونى ، وإن أحببتمونى لاتنفعونى ، وما أنا بالمستوحِشِ لعداوتكم ، ولا المستريح إلى مودّتكم ، زعمتم أنى ساحر ، وقد قال الله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ » . وقد أفلحتُ ، وزعمتم أنى أعلم الاسم الأكبر ، فلِمَ تقاتلون من يعلم مالا تعلمون ؟ » .

ثم التفت إلى أهل الشأم فقال : « لَأَزْوَاجُكم أطيبُ من المسك ، ولَأبناؤكم آنَسُ بالقلب من الولد ، وما أنتم إلا كما قال أخو بنى ذُبْيَان :

إذا حاولتَ فى أسد فُجُورا ... فإنى لستُ منك ولستَ منى

هُمُ دِرْعِى التى اسْتَلْأَمتُ فيها ... إلى يوم النِّسَار وهمْ مِجَنّى[3]

ثم قال : « بل أنتم يأهل الشأم كما قال الله سبحانه : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٥)

٢٨١ — خطبة له بالبصرة

وخطب بالبصرة ، فقال :

قال الله تعالى : « فاتقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُم » ، فهذه لله ، وفيها مَثُوبة[4] ، وقال :

---

(١) جمع ضب ، وهو حيوان كالوزغة والحرباء . (٢) النجوى : المسارة . (٣) استلأم : لبس اللأمة ، وهى الدرع ، النسار : ماء لبنى عامر له يوم ، والمجن : الترس . (٤) ثواب .

« وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا » ، وهذه لعبد الله، وخليفة الله ، وحبيب الله ، عبد الملك بن مرْوَان؟ أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا فى بابٍ واحد ، فأخذوا فى بابٍ غيره[1] ، لـكانت دماؤهم لى حلالا من الله ، ولو قتل ربيعة ومصر لـكان لى حلالا .

« عَذِيرِى[2] من أهل هذه الْحَمْرَاء ، يرمى أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول : يكون إلى أن يقع هذا خَيْر[3] ، والله لأجعلنهم كالرَّسم[4] الدَّاثِر ، وكالأمس الغابر ، عذيرى من عبد هُذَيْل يقرأ القرآن كأنه رَجَزَ الأعراب ، أما والله لو أدركته لضربت عنقه — يعنى عبد الله بن مسعود[5] — ، عَذِيرى من سليمان بن داود ، يقول لربه : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْـكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » كان والله — فيما علمت — عبداً حَسُوداً بخيلا » . (مروج الذهب ٢ : ١٤٣ والعقد الفريد ٢ : ١٥٢)

٢٨٢ — خطبة أخرى له بالبصرة

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله كفانا مَئُونة الدنيا ، وأمرنا بطلب الآخرة ، فليته كفانا مَئُونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ، مالى أرى عُلَمَاءَكم يذهبون ، وجُهَّالـكم لايتعلمون ، وَشِرَارَكم لايتوبون ؟ مالى أراكم تحرصون على ما كُفِيتم ، وتضيِّعون مابه أُمِرتم ؟ إن العلم يوشك أن يُرفَع ، وَرَفْعُه ذهابُ العلماء ؛ ألا وإنى أعلم بشراركم من الْبَيْطَار بالفرس ، الذين لايقرءون القرآن إلا هَجْراً[6] ، ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا[7] ؛ ألا وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر ، يأكل منها البَرُّ والفاجر ، ألا وإن الآخرة أجل مستأخِر ، يحكم فيها ملك قادر

---

(١) وفى مروج الذهب : « لو أمر الناس أن يدخلوا فى هذا الشعب ، فدخلوا فى غيره » والشعب بالكسر : مسيل الماء فى بطن الأرض ؛ والطريق فى الجبل . (٢) العذير : العاذر والنصير ؛ والحال التى تحاولها تعذر عليها . (٣) وفى مروج الذهب ، يلقى أحدهم الحجر إلى الأرض ويقول : إلى أن يبلغها يكون فرج الله » . (٤) الرسم : الأثر، أو بقيته . والداثر : الدارس الممحو .

(٥) هو من بنى هذيل . (٦) أى هجرا له وتركا ، ومعناه أنهم لا يقرءونه ، ولا يتلونه.

(٧) الدبر من كل شىء : عقبه ومؤخره ، أى ولايأتون الصلاة إلا فى آخر وقتها .

ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر ، واعلموا أنكم مُلاقوه لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ، ألا وإن الخير كله بحذافيره فى الجنة ، ألا وإن الشر كله بحذافيره فى النار ، ألا وإن مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ، وأستغفر الله لى ولكم[1] » .

(العقد الفريد ٢ و ١٥٣)

٢٨٣ — خطبته فى أهل العراق يصارحهم بالكراهية

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يأهل العراق : إنى لم أجد دواء أدوى لدائكم ، من هذه المَغَازِى والبعوث ، لولا طيبُ ليلة الإياب ، وَفَرْحَة القَفَل[2] ، فإنها تُعقب راحةً ، وإنى لا أريد أن أرى الفَرَح عندكم ، ولا الراحة بكم ، وما أراكم إلا كارهين لمقالتى ، وأما والله لرؤيتكم أكْرَهُ ، ولولا ما أريد من تنفيذ طاعة أمير المؤمنين فيكم ، ماحمّلت نفسى مقاساتكم ، والصبرَ على النظر إليكم ، والله َ أسأل حسنَ العَوْن عليكم » ، ثم نزل .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٣)

٢٨٤ — خطبة أخرى

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يأهل العراق ، بلغنى أنكم تَروون عن نبيكم أنه قال : « مَنْ مَلَكَ على عشر رقاب من المسلمين ، جِيء به يوم القيامة مغلولةً يداه إلى عنقه ، حتى يفكَّهُ العدلُ ، أو يُوبِقهُ الجوْرُ » . وايمُ الله إنى لأحَبُّ إلىّ أن أُحْشَرَ مع أبى بكر وعمر مغلولا ، من أن أُحْشَرَ معكم مُطْلَقاً » .

(العقد الفريد ٣ : ١٧)

---

(١) وذكر صاحب العقد أيضا هذه الخطبة من قوله : « ألا وإن الدنيا عرض حاضر » إلى آخرها وعزاها إلى شداد بن أوس الطائى . انظر العقد الفريد ٢ : ١٥٨ .

(٢) الرجوع .

٢٨٥ – خطبته لما مات عبد الملك بن مروان

ولما مات عبد الملك بن مروان ، قام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إن الله تبارك وتعالى نَعَى نبيكم صلى الله عليه وسلم إلى نفسه فقال : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » ، وقال : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » . فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديُّون ، منهم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان الشهيد المظلوم ، ثم تَبِعهم معاوية ، ثم ولِيكم البازِلُ[1] الذَّكَر، الذى جربته الأمور ، وأحكمته التجارب ، مع الفقه وقراءة القرآن، والمروءة الظاهرة ، واللين لأهل الحق ، وَالوَطْء لأهل الزيغ ، فكان رابعاً من الولاة المهديين الراشدين ، فاختار الله له ماعنده ، وألحقَه بهم ، وَعَهِد إلى شبهه فى العقل والمروءة والحزم والجَلَد والقيام بأمر الله وخلافته ، فاسمعوا له وأطيعوه .

أيها الناس ، إياكم والزَّيْغ ، فإن الزيغ لا يَحيق إلا بأهله ، ورأيتم سيرتى فيكم ، وعرفت خِلافكم وطَيِّبكم ، على معرفتى بكم ، ولو علمت أن أحداً أقوَى عليكم منى ، أو أعرَفَ بكم ماوَليتكم ؛ فإياى وإياكم ،من تكلم قتلناه، ومن سكت مات بدائه غَمًّا »

ثم نزل . (العقد الفريد ٢ : ١٥٤)

٢٨٦ – خطبته حين أراد الحج

وأراد الحجاج أن يحج ، فاستخلف محمداً ولده على أهل العراق ، ثم خطب فقال :

« يأهل العراق ، يأهل الشقاق والنفاق ، إنى أريد الحج ، وقد استخلفت عليكم ابنى محمداً ، هذا وما كنتم له بأهْلٍ ، وأوصيته فيكم بخلاف ماأوصى به رسول الله

---

(١) الرجل الكامل فى تجربته .

صلى الله عليه وسلم فى الأنصار، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى أن يُقْبَل من مُحْسِنِهِم، وأن يُتَجَاوَز عن مُسِيئِهم، وإنى أمرته ألا يقبلَ من محسنكم، ولا يتجاوز عن مسيئكم؛ ألا وإنكم ستقولون بعدى مَقالةً ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى: ألَا وإنكم ستقولون بعدى: لا أحسنَ الله له الصَّحابة، ألَا وإنى مُعَجِّل لكم الإجابة: لا أحسن الله الخلافَة عليكم » ثم نزل.

(عيون الأخبار م ٢: ص ٢٤٥، والعقد الفريد ٢: ١٥٣ – ٣: ١٨، والبيان والتبيين ١: ٢٠٦، ومروج الذهب ٢: ١٤٤، وشرح ابن أبى الحديد م ١: ص ١١٤)

٢٨٧ — خطبته لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد فى يوم واحد

قال صاحب العقد: فلما كان غَدَاة الجمعة مات محمد بن الحجاج، فلما كان بالعشى أتاه بَرِيد من اليمن بوفاة محمد أخيه، ففرح أهل العراق، وقالوا: انقطع ظهر الحجاج وهِيض[1] جَناحُه، فخرج فصعِد المنبر، ثم خطب الناس، فقال:

« أيها الناس: مُحمدان فى يوم واحد! أَمَا والله ما كنت أحبُّ أنهما معى فى الحياة الدنيا، لِمَا أرجو من ثواب الله لهما فى الآخرة، وايمُ الله لَيُوشِكَنَّ الباقى منى ومنكم أَن يَفْنى، والجديدُ أن يبلَى، والحى منى ومنكم أن يموت، وأن تُدَال[2] الأرض مِنَّا كما أُدِلْنا منها، فتأكلَ من لحومنا، وتشرب من دمائنا، كما مشينا على ظهرها، وأكلْنَا من ثمارها، وشرِبنا من مائها، ثم نكون كما قال الله تعالى: « وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ[3] » ثم تمثل بهذين البيتين:

---

(١) هاض العظم: كسره بعد الجبور. (٢) أداله الله منه: نصره عليه.

(٣) الصور: القرن ينفخ فيه، وقيل إنه تمثيل لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نفخ فى البوق، وقيل: هو جمع صورة مثل بسرة وبسر (والبسر بالضم: التمر قبل إرطابه) أى نفخ فى صور الموتى الأرواح. وقرأ الحسن: « يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّوَرِ ». والأجداث جمع جدث كسبب وهو القبر، ونسل كضرب ونصر: أسرع.

عَزائى نبىُّ اللهِ من كل ميتٍ   وحَسْبى ثوابُ الله من كل هالِكِ
إذا ما لقيتُ الله عنىَ رَاضياً   فإن سرُورَ النفسِ فيما هنالك

(العقد الفريد ٢ : ١٥٤ — ٣ : ١٨ ، وسرح العيون ص ١٢٢)

٢٨٨ — خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته

ومرض الحجاج ففرح أهل العراق ، وأرجفوا بموته ، فلما بلغه تحامَل حتى صعِد المنبر فقال :

« إن طائفة من أهل العراق ، أهل الشقاق والنفاق ، نَزَغ[1] الشيطان بينهم فقالوا : مات الحجاج، ومات الحجاج فمَهْ ؟ وهل يرجو الحجاج الخيرَ إلا بعد الموت؟ والله ما يسُرّنى ألاّ أموتَ ، وأنّ لى الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رَضِيَ بالتخليد إلا لأهون خَلْقِه عليه إبليس ، قال : أَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ، قال : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ، ولقد دعا اللهَ العبد الصالحُ ، فقال : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُلْـكاً لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى » فأعطاه ذلك إلا البقاء ، فما عسى أن يكون أيها الرجل ؟ وكلكم ذلك الرجل ، كأنى والله بكل حىّ منكم ميتاً ، وبكل رَطْبٍ يابساً ، وَنُقِلَ فى ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولا ، فى ذراع عرضاً ، وأكلت الأرض لحمُهُ ، وَمصّت صَدِيده ، وانصرف الحبيب من ولده يقسم الخبيثَ من ماله . إن الذين يعقلون يعلمون ما أقول » ، ثم نزل .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٤ ، ٣ : ١٧ ، وسرح العيون ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١١٥)

---

(١) نزغ : أفسد وأغرى .

— ٢٨٩ —

وخطب الحجاج يوماً فقال :

« أيها الناس ، قد أصبحتم فى أجلٍ مَنْقُوص ، وعمل محفوظ ، رُبَّ دائبٍ مُضيع ، وساعٍ لغيره ، والموتُ فى أعناقكم ، والنارُ بين أيديكم ، والجنةُ أمامكم ، خذوا من أنفُسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما فى أيديكم لِمَا بين أيديكم ، فكأنَّ ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل ما ترَونه فإنه ذاهب ، هذه شمسُ عادٍ وثمُود وقرونٍ كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التى طَلَعت على التَّبابعة والأكاسرة ، وخزائنهم السائرة بين أيديهم ، وقصورهم المشيَّدة ، ثم طلعت على قبورهم ، أين الملوك الأولون ، أين الجبابرة المتكبِّرون ؟ المحاسبُ الله ، والصِّراط منصوب ، وجهنم تزْفِر [1] وتتوقّد ، وأهل الجنة ينعَمُون ، فى رَوْضَة يُحْبَرُون [2] ، جعلنا الله وإياكم من الذينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا » .

فكان الحسن البصرى رحمه الله يقول : « ألاَ تعجبون من هذا الفاجر ؟ يرْقَى عَتَبَاتِ المنبر ، فيتكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتِك فتكَ الجبَّارين ، يوافق اللهَ فى قوله ويخالفه فى فعله » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ ص ١٥٠)

---

(١) زفرت النار كضرب : سمع لتوقدها صوت . (٢) أحبره : سره . والحبور : السرور .

— ٢٩٠ —

وقال مالك بن دِينار : غدَوت إلى الجمعة ، فجلست قريباً من المنبر ، فصعِد الحجاج ، ثم قال :

« أمْرُؤٌ حاسَبَ نفسه ، امرؤ راقب ربه ، امرؤ زوَّر[1] عمله ، امرؤ فكَّر فيما يقرؤه غداً فى صحيفته ، ويراه فى ميزانه ، امرؤ كان عند همِّهِ آمِراً ، وعند هواه زاجراً ، امرؤ أخذ بعِنَان قلبه ، كما يأخذ الرجل بِخِطَامِ جمله ، فإن قادَه إلى حق تبِعَه ، وإن قاده إلى معصية الله كفَّه ، إننا والله ما خُلِقْنا للفناء ، وإنما خُلقنا للبقاء ، وإنما ننتقل من دار إلى دار » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٥٢١ ، العقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٨٨ ، شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٥٠)

— ٢٩١ —

وخطب يومًا ، فقال :

أيها الناس ، اُقْدَعُوا[2] هذه الأنفس ، فإنها أسْأَلُ[3] شىء إذا أُعطِيَتْ ، وَأَعْصَى[4] شىء إذا سُئِلت ، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خِطامًا وزِمامًا فَقَادَها بخطامها إلى طاعة الله ، وَعَطَفَها بزمامها عن معصية الله ، فإنى رأيت الصبر عن مَحَارِمِ الله ، أيسَرَ من الصبر على عذاب الله[5] » .

(شرح ابن أبى الحديد م : ص ١٥٠ ، وسرح العيون ١٢١ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

---

(١) زوره : حسنه . (٢) قدعه كنعه وأقدعه : كفه وكبحه . (٣) وفى عيون الأخبار : « أيها الناس ، احفظوا فروجكم ، وخذوا الأنفس بضميرها ، فإنها أسوك شىء . . . . . » وأسوك : أضعف ، من ساك الرجل سواكا : سار سيرا ضعيفا . (٤) وفى رواية « وأعطى شىء » وهو تحريف .

(٥) قال ابن أبى الحديد : « وأكثر الناس يروون هذا الكلام عن على عليه السلام » .

— ٢٩٢ —

وخطب فقال :

« اللهم أرِنى الغىَّ غيًّا فأجتنبَه ، وأرنى الهدى هُدًى فأتَّبِعَه ، ولا تَكِلْنى إلى نفسى فأضِلَّ ضلالا بعيداً ، والله ما أُحِبُّ أن ما مضى من الدنيا لِى بِعِمامتى هذه ، ولَمَا بقى منها أشبهُ بما مضى من الماء بالماء » .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين٢ : ٦٩ ، ١ : ٢٠٦ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٥٠ ، وسرح العيون ص ١٢٢)

— ٢٩٣ —

ومن كلامه :

« إنَّ امرأ أتت عليه ساعةٌ من عمره ، لم يَذْكر فيها ربه ، ويستغفر ربه من ذنبه ، ويفكِّر فى مَعَاده ، لجَديرٌ أن يطول حزنه ، ويتضاعف أسفهُ ، إن الله كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا بَقَاء لما كَتَب عليه الفناء ، ولا فناء لما كَتَبَ عليه البقاء ، فلا يَغُرَّنكم شاهِدُ[1] الدنيا ، عن غائب الآخرة ، واقهَروا طولَ الأمل بِقِصَر الأجل[2] » .

(شرح ابن الحديد م ١ : ص ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨ ، والبيان والتبيين : ٢ : ٩٩ ، سرح العيون ١٢١ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

---

(١) أى حاضرها . (٢) قال الشعبى : سمعت الحجاج يقول بكلام ماسبقه إليه أحد ، سمعته يقول : « إن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء . . . الخ » ، وروى الجاحظ عن أبى عبد الله الثقفى عن عمه قال سمعت الحسن البصرى يقول : لقد وقذتنى كلمة سمعتها من الحجاج ، قلت : وإن كلام الحجاج ليقذك؟ قال : نعم ، سمعته على هذه الأعواد يقول : « إن امرأ ذهبت ساعة من عمره فى غير ماخلق له لحرى أن تطول عليها حسرته » .

خطب قتيبة بن مسلم الباهلى (قتل سنة ٩٦ هـ)

٢٩٤ – خطبته يحث على الجهاد وقد تهيأ لغزو «طُخَارُسْتَان»

قدم قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهلى خراسان والياً عليها من قبل الحجاج[١] سنة ٨٦، فلما تهيأ لغزو أخْرُون وشُومان – وهما من بلاد طُخَارُسْتَان[٢] – خطب الناس وحثهم على الجهاد فقال:

«إن الله أحلَّكم هذا المَحَلَّ ليُعِزَّ دينهُ، وَيَذُبَّ بكم عن الحُرُمات، وَيَزِيد بكم المال استفاضَةً، والعدوَّ وَقْماً[٣] ووعَد نبيَّهُ صلى الله عليهِ وسلم النصرَ بحديثٍ صادق، وكتابٍ ناطق، فقال: (هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) ووعد المجاهدين فى سبيله أحسنَ الثواب، وأعظمَ الذخر عنده، فقال: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ[٤] فِى سَبِيلِ اللهِ، وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلاَ يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، ثم أخبر عمن قُتِل فى سبيله أنه حَىٌّ مرزوق، فقال: «وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

---

(١) ولى قتيبة خراسان بعد يزيد بن المهلب، وغزا بلاد ماوراء النهر، وافتتح بخارى، وسمرقند، وخوارزم، ووصل فى فتوحه إلى كشغر من بلاد الصين، وقتل سنة ٩٦ هـ. (٢) ناحية كبيرة شرقى خراسان على نهر جيحون، وقد ضبطها ابن خلكان هكذا – انظر وفيات الأعيان ١ : ٩٠ فى ترجمة بشار بن برد – وضبطها ياقوت فى معجم البلدان بفتح الطاء. (٣) وقمه: قهره وأذله. (٤) مجاعة.

قتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) فتنجّزوا موعودَ ربكم ، ووطِّنوا أنفسكم على أقصَى أثر ، وأمضى ألم ، وإيا كم والهُوَيْنَى » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٥٩)

٢٩٥ — خطبته وقد تهيأ لغزو بلاد السغد

ولما صالح قُتَيْبة أهلَ خُوَارَزْمَ ، وسار إلى السُّغْد[1] سنة ٩٣ هـ خطب الناس ، فقال :

« إن الله قد فتح لكم هذه البَلْدَة فى وقتٍ الغزوُ فيه مُمْكِنٌ ، وهذه السُّغْدُ شاغِرَةٌ[2] برجلها ، قد نقضوا العهد الذى كان بيننا ، ومنعونا ما كُنّا صالحنا عليه طَرْخُونَ ، وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله تعالى : (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) ، فسيروا على بركة الله ، فإنى أرجو أن يكون خُوَارَزْمُ والسُّغد كالنَّضِير[3] وقُرَيْظَة[4] ، وقال الله تعالى : (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٨٥)

---

(١) وكان قتيبة حين فتح بخارى سنة ٩٠ هـ ، وأوقع بأهلها ، هابه أهل السغد « وهى بين نهرى سيحون وجيحون ، وكانت قصبتها سمرقند ، وهى بالسين ، وربما قيلت بالصاد » وأتاه طرخون ملك السغد ، وسأله الصلح على فدية يؤديها إليه ، فأجابه قتيبة إلى ماطلب وصالحه ، ثم نقضوا عهودهم .

(٢) شغر الكلب كمنع : رفع إحدى رجليه ليبول .

(٣) بنو النضير : حى من يهود خيبر ، وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهود يأمن بها كل فريق الآخر ، ولكنهم لم يفوا بها حسدا منهم وبغيا ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه فى ديارهم ، إذا ائتمر جماعة منهم على قتله بأن يلقى عليه أحدهم صخرة من علو ، فاطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم ، فرجع ، ثم أرسل إليهم يأمرهم بالجلاء ، لما تقدم منهم من الغدر ، فهيئوا الرحيل ، فأرسل إليهم إخوانهم المنافقون يقولون : لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم ، فسار عليه الصلاة والسلام لقتالهم ؛ وتحصن بنو النضير فى حصونهم ، وظنوا أنها مانعتهم من الله ؛ فحاصرهم ست ليال ؛ ثم أمر بقطع نخيلهم كى يسلموا ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب ؛ فسألوه أن يجليهم ويكف عن دمائهم ؛ وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب ففعل ؛ وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم ؛ لئلا يسكنها المسلمون .

(٤) كان يهود بنى قريظة يساكنون المسلمين فى المدينة ؛ فانتهزوا فرصة اشتغال المسلمين بصد جموع الأحزاب — فى غزوة الخندق — ونقضوا عهودهم معهم ؛ وذلك أن حيى بن أخطب سيد بنى النضير الذين =

٢٩٦ — خطبته وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة

وأتى قتيبةُ السُّغْدَ فحصرها شهراً ، وخاف أهلُها طول الحصار ، فكتبوا إلى ملك الشاش وَفَرْغانة[1] « إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب ، فإن وُصِل إلينا كنتم أضعفَ وأذلَّ ، فهما كان عندكم من قوة فابذُلوها » فجمعوا جموعهم ، وولَّوْا عليهم ابناً لخاقان[2] ، وساروا وقد أجمعوا أن يبيِّتوا عسكر قتيبة ، وَنَمى ذلك إليه ، فانتخب أهل النجدة والبأس ووجوه الناس ، وخطبهم فقال :

« إن عدوَّكم قد رَأَوْا بَلاَءَ[3] الله عندكم ، وتأييدَه إياكم في مُزَاحفتكم ومُكاثَرتكم[4] ، كلَّ ذلك يُفْلِجُكم[5] الله عليهم ، فأَجْمَعُوا على أن يحتالوا غِرَّتكم وَبيَاتكُم ، وَاختاروا دَهَاقينهم[6] وملوكهم ، وأنتم دهاقين العرب وَفُرسانهم ، وَقد

— أجلوا من ديارهم ؛ توجه إلى كعب بن أسد القرظى ؛ فحسن له نقض العهد ؛ ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين ؛ فاشتد وجل المسلمين ؛ وزلزلوا زلزالا شديدا ؛ وأرسل الله على الأعداء ريحا باردة فى ليلة مظلمة وجنودا لم يروها ، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح : وكفى الله المؤمنين شر الأحزاب ، ولم يعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سار إلى بنى قريظة ، فتحصنوا بحصونهم ؛ وحاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة ؛ فلما ضاقوا بالحصار ذرعا ؛ طلبوا أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير ؛ من الجلاء بالأموال وترك السلاح ، فأبى الرسول إلا أن ينزلوا على حكمه ففعلوا ؛ فتواثبت الأوس فقالوا : يارسول الله ؛ إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ؛ وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ماقد علمت — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بنى قريظة قد حاصر بنى قينقاع ؛ وكانوا حلفاء الخزرج ؛ فنزلوا على حكمه ؛ فسأله إياهم عبد الله بن أبى بن سلول فوهبهم له — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فذاك إلى سعد بن معاذ — وكان جريحا من سهم أصيب به فى غزوة الخندق — وأرسل من يأتى به ؛ فقال : إنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ؛ وتقسم الأموال ؛ وتسبى النساء والذرارى ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقد حكمت فيهم بحكم الله ياسعد ؛ ثم أمر بتنفيذ الحكم ؛ فنفذ فيهم .

(١) الشاش وفرغانة : كورتان وراء نهر سيحون متاخمتان للصين .

(٢) خاقان : اسم لكل ملك من ملوك الترك ؛ وقد خققنوه على أنفسهم : أى رأسوه (بالتشديد) .

(٣) أى نعمته . (٤) كاثروهم فكثروهم : غالبوهم فغلبوهم . (٥) أى ينصركم عليهم ؛ ويظفركم بهم . (٦) جمع دهقان بكسر الدال وضمها : زعيم فلاحى العجم ، ورئيس الإقليم . معرب .

فَضَّلكم الله بدينه ، فأبلُوا[1] لله بَلاَء حسناً تستوجبون به الثوابَ ، مع الذَّبِّ عن أحسابكم » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٨٧) .

٢٩٧ - خطبه حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك

وقام بخراسان حين خَلَع سليمان بن عبد الملك[2] ، ودعا الناس إلى خلعه فقال للناس :

« إنى قد جمعتكم من عين التَّمْر[3] ، وَفَيْض البحر ، فضَمَمْت الأخ إلى أخيه ، والولد إلى أبيه ، وقسمت بينكم فيئكم ، وأجريت عليكم أُعْطِيَاتِكم غيرَ مُكدَّرة ولا مُؤَخَّرة ، وقد جرَّبتم الوُلاةَ قبلى ، أتاكم أُمَيَّة[4] ، فكتب إلى أمير المؤمنين : إنَّ خَرَاج خراسان لَا يَقُوم[5] بِمَطْبَخِى ، ثم جاءكم أبو سَعِيد[6] فدوَّم[7] بكم ثلاث سنين ، لا تدرون أفى طاعة أنتم أم فى معصية ؛ لم يَجْبِ فَيْئًا ، ولم يَنْكَأْ[8] عدوا ، ثم جاءكم بنوه بعده ، يزيد فحلٌ تبارَى إليه النساء ، وإنما خليفتكم يَزِيدُ بن ثَرْوان هَبَنَّقة القَيْسِى[9] » فلم يُجِبْهُ أحد فغضب ، فقال :

---

(١) الإبلاء : الإنعام والإحسان ، يقال : أبليت عنده بلاء حسنا ، وأبلاه الله بلاء حسنا ، وأبليته معروفا . والمعنى : فاصدقوا القتال ، وقدموا معروفا تبغون به ثواب الله . (٢) وسبب ذلك أن الوليد ابن عبد الملك أراد أن يجعل ابنه عبد العزيز ولى عهده ، ودس فى ذلك إلى القواد والشعراء ، فبايعه على خلع سليمان الحجاج وقتيبة ، ثم مات الوليد وقام سليمان بن عبد الملك ، فخافه قتيبة وخشى أن يولى سليمان يزيد ابن المهلب خراسان . (٣) بلد على الفرات قرب الكوفة . (٤) هو أمية بن عبد الله بن خالد ابن أسيد بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ، وكان عاملا عليها لعبد الملك بن مروان حتى كانت سنة ٧٨ فعزله وجمع سلطانه للحجاج فبعث المهلب إليها . (٥) فى الأصل « لا يقيم » وهو تحريف أو « لايقيم مطبخى . (٦) ابو سعيد : كنية المهلب بن أبى صفرة . (٧) من دومت الكلاب : أى أمعنت فى المسير : وفى رواية أخرى « فدوخ بكم البلاد » وستأتى . (٨) نكأ العدو ونكاه نكاية : قتل وجرح.

(٩) هو يزيد بن ثروان هبنقة ذو الودعات ، ويكنى أبا نافع أحد بنى قيس بن ثعلبة . يضرب به المثل فى الحمق فيقال : « أحمق من هبنقة » وله نوادر فى الحمق. منها أنه جعل فى عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف وهوذو لحية طويلة ، فسئل فى ذلك ، فقال: لأعرف بها نفسى ، ولئلا أضل، فبات ذات ليلة، وأخذ أخوه —

« لا أعزَّ اللهُ من نصرتم ، والله لو اجتمعتم على عَنز ما كسرتم قَرْنها ، يأهل السافلة ، ولا أقول أهلَ العالية . يا أوباش[1] الصَّدَقَة ، جمعتكم كما تُجْمَع إبل الصدقة من كلِّ أَوْب[2] . يا معشر بكر بن وائل ، يأهل النَّفخ[3] والكذب والبخل ، بأي يومَيْكم تفخَرون : بيوم حربكم ، أم بيوم سلمكم ؟ فوالله لَأنا أعزُّ منكم يا أصحاب مُسَيْلِمة . يابنى ذَمِيم ، ولا أقول تميم . يأهل الخَوَر[4] وَالقَصْف[5] والغَدر ، كنتم تُسَمُّون الغدر فى الجاهلية « كَيسَان[6] » يا أصحابَ سَجَاح[7] ، يا معشر عبد القيس القُسَاة ، تبدلتم بأَبْرِ النخل[8] أعِنَّةَ الخيل ، يا معشر الأزْد ، تبدلتم بقُلُوسِ[9] السُّفُن ، أعِنَّةَ الخيل وَالحُصُن[10] ، إن هذا لبدعة فى الإسلام ، والأعراب ، وما الأعرابُ ؟ لعنة الله على الأعراب ، يا كُنَاسة المِصْرين ، جمعتكم من منابت الشِّيح وَالقَيْصوم[11] ،

— قلادته فتقلدها ، فلما أصبح ، ورأى القلادة فى عنق أخيه ، قال يا أخى : أنت أنا فمن أنا ؟ ومنها : أنه ضل له بعير ، فجعل ينادى : من وجد بعيرى فهو له ، فقيل له فلم تنشده ؟ قال : فأين حلاوة الوجدان ؟ ومنها : أنه اختصمت الطفاوة وبنو راسب فى رجل ادعاه هؤلاء وهؤلاء ، ثم قالوا : رضينا بأول من يطلع علينا ، فبينا هم كذلك إذ طلع عليهم هبنقة ، فقصوا عليه قصتهم ، فقال : الحكم عندى فى ذلك أن يذهب به إلى نهر البصرة ، فيلقى فيه ، فإن كان راسبيا رسب فيه ، وإن كان طفاويا طفا ، فقال الرجل : لا أريد أن أكون من أحد هذين الحيين .

وقول قتيبة : « إنما خليفتكم هبنقة » ذلك لأن هبنقة كان يحسن إلى السمان من إبله ، فيرعيها فى العشب وينحى المهازيل ، فقيل له : ويحك ! ماتصنع ؟ فقال : إنما أكرم ما أكرم الله ، وأهين ما أهان الله ، وكذلك كان سليمان يعطى الأغنياء ، ولا يعطى الفقراء ويقول : « أصلح ما أصلح الله ، وأفسد ما أفسد الله » — انظر مجمع الأمثال ١ : ١٤٦ ، والبيان والتبيين ١ : ١٢٦ — . (١) الأوباش : السفلة ، جمع وبش كسبب .

(٢) الطريق والجهة . (٣) الفخر والكبر . (٤) الضعف . (٥) اللهو .

(٦) كيسان : علم للغدر . (٧) هى سجاح بنت الحارث ادعت النبوة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجزيرة فى بنى تغلب . (٨) أبر النخل أبرا : أصلحه . (٩) القلوس جمع قلس كشمس : وهو حبل ضخم من ليف أو خوص أو غيرهما من قلوس سفن البحر . (١٠) جمع حصان .

(١١) من نبات البادية زهره مر جدا .

ومنابت القِلْقِل[1] ، تركبون البقر والحُمُر فى جزيرة ابن كاوان[2] ، حتى إذا جمعتكم كما يُجْمَعُ قَزَع الخريف[3] قلتم : كيتَ وكيتَ ، أمَا والله إنى لابنُ أبيه[4] وأخو أخيه ، أمَا والله لأعصِبَنَّكم عَصْبَ السَّلَمَة ، إنّ حَوْلَ الصِّلِّيانِ الزَّمْزَمَة[5] ، يأهل خراسان ، هل تدرون مَنْ وَلِيُكُم ؟ وليكم يزيد بن ثَرْوان ، كأنى بأمير مِزْجاء[6] ، وَحَكَمٍ قد جاءكم ، فغلبكم على فيئكم وأظلالكم ، إن هاهنا نارًا ، ارْمُوها أرمِ معكم ، ارموا غَرَضكم الأقصى ، قد استُخْلِف عليكم أبو نافع ذو الوَدَعات ، إن الشأم أبٌ مكفُور ، حتى متى ينبطح أهل الشأم بأفنيتكم وظِلال دياركم ؟ يأهل خراسان انسِبُونى تجدونى عِراقىَّ الأم ، عراقى الأب ، عراقى المولِد ، عراقى الهوَى والرأىِ والدين ، وقد أصبحتم اليوم فيما تَرَون من الأمن والعافية ، قد فتح الله لكم البلاد ، وآمن سُبُلكم ، فالظَّعينة[7] تخرج من مَرْو إلى بَلْخ بغير جِوار ، فاحْمَدوا الله على النعمة ، وَسَلُوه الشكر والمزيد » . ثم نزل . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٠٥)

وورد كلام قتيبة فى هذا الصدد فى العقد الفريد ، والبيان والتبيين فى ثلاث خطب هذا نصها :

---

(١) نبت له حب أسود حسن الشم . (٢) هى جزيرة فى الخليج الفارسى بين عمان والبحرين .

(٣) القزع : كل شىء يكون قطعا متفرقة (ومنه قيل لقطع السحاب فى السماء قزع) وخرفت الثمار أخرفها كنصر : اجتنيتها ، والثمر مخروف وخريف ، وفى كلام سيدنا على رضى الله عنه «كما يجتمع قزع الخريف» .

(٤) أى ابن أبى . (٥) الصليان : نبت من أفضل المرعى يختل (يجز) للخيل التى لاتفارق الحى ، والزمزمة : صوت خفى لا يكاد يفهم ، يعنى صوت الفرس (بالتحريك) إذا رآه ، وأصلها صوت المجوس عند أكلهم — يتراطنون على الأكل ، وهم صموت لا يستعملون لسانا ، ولا شفة ، لكنه صوت تديره فى خياشيمها وحلوقها ، فيفهم بعضها عن بعض — وهو مثل يضرب للرجل يحوم حول الشىء ولا يظهر مرامه. والمعنى فى المثل : أن ماتسمع من الأصوات والجلب ، لطلب مايؤكل ويتمتع به . قال الميدانى : ويروى «حول الصليان الزمزمة» الصليان جمع صليب ، والزمزمة : صوت عابديها . (٦) هو مزجاء للمطى أى كثير الإزجاء لها ، زجاها وأزجاها : ساقها ودفعها : والمراد أنه قاس ظلوم . (٧) الظعينة : المرأة مادامت فى الهودج .

— ٢٩٨ —

قام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أتدرون من تُبايعون ؟ إنما تبايعون يَزِيد بن ثَرْوان — يعنى هَبنَّقة القيسى — كأنى بأمير مِزْجاء ، وحَكَمٍ قد أتاكم ، يحكم فى أموالكم ودمائكم وفروجكم وأبشاركم[1] ثم قال : الأعرابُ وما الأعراب ؟ لعنة الله على الأعراب ، جمعتكم كما يجمع قزَع الخريف[2] من منابت الشِّيح والقيصوم ، ومنابت القِلْقِل ، وجزيرة ابن كاوان ، تركبون البقر ، وتأكلون الهَبِيد[3] ، فحملتكم على الخيل ، وألبستكم السلاح ، حتى منع الله بكم البلاد ، وأفاء بكم الفىء » قالوا : مرنا بأمرك . قال : غرُّوا غيرى .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٠١)

— ٢٩٩ —

وخطب مرة أخرى ، فقال :

« يأهل العراق ، ألستُ أعلم الناس بكم ؟ أما هـذا الحى من أهل العالية ، فنَعَم الصَّدقة ، وأما هذا الحى من بكر بن وائل فعِلْجَةٌ[4] بَظْرَاء ، لا تجمع رجليها ، وأما هذا الحى عبد القيس فما ضرب العَيْر بذَنَبِه ، وأما هذا الحى من الأزْد ، فعُلُوجٌ[5] خلق الله وأنباطه[6] ، وايْمُ اللهِ لو ملكتُ أمر الناس لنَقَشْتُ أيديهم ، وأما هذا الحى من تميم ، فإنهم كانوا يسمُّون الغدرَ فى الجاهلية كَيْسَان » .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

---

(١) أبشار جمع بشر : وهو جمع بشرة ، وهى ظاهر الجلد . (٢) فى العقد الفريد : « كما يجمع مرخ الحريق » وفى البيان والتبيين والطبرى « قزع الخريف » والصواب ما ذكرنا . (٣) الحنظل .

(٤) مؤنث العلج ، وهو حمار الوحش السمين القوى. وأمه بظراء : طويلة البظر كشمس ، وهو مابين شفرى الرحم . (٥) جمع علج (بالكسر) وهو الرجل من كفار العجم . (٦) جيل من الناس كانوا ينزلون سواد العراق ثم استعمل فى أخلاط الناس وعوامهم .

— ٣٠٠ —

وخطب مرة أخرى ، فقال :

« يأهل خراسان، قد جرَّبتم الولاة قبلي ، أتاكم أمية ، فكان كاسمه أُميَّةَ الرَّأْيِ ، وأمية الدين ، فكتب إلى خليفته : إن خراج خراسان وَسِجِسْتان ، لو كان في مطبخه لم يَكفِهِ ، ثم أتاكم بعده أبو سعيد ، فدوَّخ بكم البلاد ، لا تدرون أفي طاعة الله أنتم أم في معصيته ، ثم لم يَجْبِ فَيْئاً ، ولم يَنْكَأ عدوًّا ، ثم أتاكم بنوه بعده ، مثل أَطْبَاءِ[1] الكلبة ، منهم ابن الرَّحْمَة[2] ، حِصَان يضرب في عانَةٍ[3] ، ولقد كان أبوه يخافه على أمَّهات أولاده ، ثم أصبحتم وقد فتح الله عليكم البلاد ، وَأَمَّن لكم السُّبُل ، حتى إن الظعينة لتخرج من مَرْو إلى سَمَرْقَنْد في غير جوار » .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

(١) جمع طبى كقفل . والطبى : لذات الخف والظلف كالثدى للمرأة .   (٢) يريد به يزيد ابن المهلب .   (٣) العانة : الأتان ، والقطيع من حمر الوحش ، والمراد بها النساء .

٣٠١ - كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم

وَخَرَجت خارجَةٌ بخُرَاسان ، فقيل لِقُتَيْبَةَ بن مسلم : لو وَجَّهْت إليهم وَكيع بن أبى سُودٍ[١] ، قال : ـ وكان وكيع رجلا عظيم الكِبْر ، فى أنفه خُنْزُوانة[٢] ، وفى رأسه نُعَرة[٣] ـ وإنما أنفه فى أُسْلُوب[٤] ، ومن عظُم كِبْره اشتد عُجْبه ، ومن أُعجِبَ برأيه لم يُشَاوِر كفِيًّا ، ولم يُؤَامِر[٥] نصيحا . ومن تفرّد بالنظر لم يكمُل له الصواب ، ومن تَبَجَّح[٦] بالانفراد ، وفَخَر بالاستبداد ، كان من الصواب بعيدا ، ومن الخذلان قريبا ، والخطأُ مع الجماعة ، خير من الصواب مع الفُرْقة ، وإن كانت الجماعة لا تخطئ ، والفرقة لا تُصيب ، ومن تكبّر على عدوه حَقَره ، وإذا حقره تهاون بأمره ، ومن تهاون بخصمه ، وَوَثِق بفَضْل قوّته قَلّ احتراسه ، ومن قل احتراسه كَثُر عِثاره ، وما رأيت عظيم الكبر صاحبَ حرب ، إلا كان منكوبا ، فلا والله حتى يكون عدوه عنده ، وخصمه فيما تغلب

---

(١) هو وكيع بن أبى سود التيمى ، أحد الأبطال البواسل ، كان مع قتيبة فى فتح بخارى ، وأبلى فى القتال بلاء محمودا - انظر خبره فى الطبرى ٨ : ٦٨ - وولاه الناس أمرهم حين ثاروا بقتيبة وقتلوه .

(٢) الخنزوان ، والخنزوانة ، والخنزوانية : الكبر ، يقال : هو ذو خنزوانات .

(٣) النعرة : الخيلاء والكبر . (٤) الأسلوب : الشموخ فى الأنف ، ويقال : إن أنفه لفى أسلوب إذا كان متكبرا ، قال الراجز :

أنوفهم ملفخر فى أسلوب ... وشعر الأستاه فى الجبوب

(وهو فى معنى المثل المشهور : أنف فى السماء واست فى الماء ، والجبوب كصبور : الأرض ، والأستاه جمع سته كشمس وسبب وهو الاست ، وقوله : ملفخر أصله : من الفخر ، ونظيره قول جميل بثينة :

وماأنس ملأ شياء لاأنس قولها ... (وقدقربت نضوى) أمصرتريد؟

أى من الأشياء ، وقول قطرى بن الفجاءة :

غداة طفت علماء بكر بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم

أى على الماء) . (٥) الكفى : الكافى ، ويؤامر : يشاور . (٦) تبجح به : افتخر وتباهى .

عليه ، أسمعَ من فَرَس ، وأبصر من عُقاب ، وأهدى من قَطَاة ، وأحذر من عَقْعَق[١] ، وأشد إقداماً من الأسد ، وأوثب من الفَهْدِ ، وأحْقَد من جمل ، وأروغ من ثعلب ، وأغدر من ذئب ، وأسخى من لافِظَة[٢] ، وأشحّ من صبي ، وأجمع من ذَرة[٣] ، وأحرس من كلب ، وأصبر من ضَبّ . فإن النفس تسمح من العناية على قدر الحاجة ، وتتحفّظ على قدر الخوف ، وَتَطْلُبُ على قدر الطمع ، وتطمع على قدر السَّبَب » .

(جمهرة الأمثال ١ : ١١٧)

ومن كلماته البليغة قوله حين قَدِم خُراسان :

« من كان فى يديه شيء من مال عبد الله بن خازم[٤] فَلْيَنْبذْه ، وإن كان فى فِيهِ فَلْيَلْفِظْه ، وإن كان فى صدره فَلْيَنْفُثْه » فَعَجِبَ الناس من حسن ما فَصَّل وقسم .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٤)

---

(١) العقعق : نوع من الغربان ، وهو ذو لونين : أبيض وأسود طويل الذنب ، يشبه صوته العين والقاف — ولذا سمى عقعقا — وقيل لأنه يعق فراخه ، فيتركهم بلا طعام ، وجميع الغربان يفعل ذلك — وقد ضربوا به المثل فى الحذر ، فقالوا : « أحذر من عقعق » — انظر جمهرة الأمثال — كما قالوا : « أحذر من غراب » وقالوا أيضا : « ألص من عقعق » لأن فى طبعه شدة الاختطاف لما يراه من الحلى — وقالوا : « أحمق من عقعق » لأنه كالنعامة التى تضيع بيضها وأفراخها ، وتشتغل ببيض غيرها ، وإياها عنى هدبة بقوله :

كتاركـة بيضها بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحا

انظر حياة الحيوان الكبرى للدميرى ٢ : ٢٠٩ ، ومجمع الأمثال .

(٢) رواه الميدانى : « أسمح من لافظة » وقال : قد اختلفوا فيها ، فقال بعضهم : هى العنز التى تشلى للحلب — أشلى دابته : أراها المخلاة لتأتيه ، وأشلاها : دعاها للحلب — فتجيء لافظة بجرتها فرحا بالحلب . وقال بعضهم : هى الحمامة لأنها تخرج ما فى بطنها لفرخها ، وقال بعضهم : هى الديك ، لأنه يأخذ الحبة بمنقاره فلا يأكلها ، ولكن يلقيها إلى الدجاجة ، والهاء فيها للمبالغة ههنا ، وقال بعضهم : هى الرحى لأنها تلفظ ما تطحنه أى تقذف ، وقال بعضهم : هى البحر لأنه يلفظ بالدرة ، قال الشاعر :

تجود فتجزل قبل السؤال وكفك أسمح من لافظة

(٣) الذر : صغار النمل ، وفى كلام عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زيادا جمع لهم (أى لأهل العراق) كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة » ، وقال الشاعر :

تجمع للوارث جمعـا كما تجمع فى قريتها الذر .

(٤) وكان من أمره أنه لما مات يزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، وثب أهل خراسان بعمالهم فأخرجوهم ، وغلب كل قوم على ناحية ، ووقعت الفتنة ، وغلب عبد الله بن خازم على خراسان ، ثم كتب إليه =

٣٠٢ – خطبة طارق بن زياد فى فتح الأندلس

لما دانت بلاد المغرب لموسى بن نُصَير – وكان والياً عليها من قِبَل الوليد بن عبد الملك – طَمَح بَصَره إلى فتح بلاد الأندلس ، فبعث مَوْلاه طارق بن زِيَاد على جيش جُلُّه من البَرْبَر سنة ٩٢ هـ فعَبَر بهم البحر ، وَنَمَى خبره إلى لُذَرِيق ملك القُوط ، فأقبل لمحاربته بجيش جَرَّار ، وخاف طارق أن يستحوذ الرعب على جنده لقلّتهم ، فأحرق السفن التى أقلّتهم ، حتى يقطع من قلوبهم كل أمَل فى العودة ، وقام فيهم ، فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثهم على الجهاد ، ورغبهم فى الشهادة ، فقال :

« أيها الناس ، أين المفرُّ ؟ البحرُ من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم واللهِ إلاّ الصِّدق[1] والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام فى مَآدِب[2] اللئام ، وقد استقبلكم عدوُّكم بجيشه ، وأسلحتُه وأقواته مَوْفُورَةٌ ، وأنتم لاَ وَزَرَ[3] لكم إلا سيوفُكم ، ولا أقواتَ إلا ما تستخلِصُونه من أيدى عَدُوكم ، وإن امتدَّت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تُنجِزوا لكم أمراً ، ذهبت رِيحُكم ، وتعوّضتِ القلوبُ من رُعْبها منكم الجُرْأَةَ عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خِذْلاَنَ هذه العاقبة من أمركم ، بمُنَاجَزَة[4] هذا الطَّاغِيَة ، فقد ألقت به إليكم مدينتُه الحَصِينة ، وإنَّ انتهاز الفُرصة فيه لَمُمْكِن ، إن سَمَحتم لأنفسكم بالموت ، وإنى لم أحذِّرْكم أمرا أنا عنه بِنَجْوة[5] ،

— عبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير – وقيل قبله – يدعوه إلى الدخول فى طاعته على أن يطعمه خراسان عشر سنين ، فأبى وحلف ألا يعطيه طاعة أبدا ، وكان ابن خازم يقاتل بحير بن ورقاء الصريمى بأبر شهر ، وخليفته على مرو بكير بن وشاح ، فكتب عبد الملك إلى بكير بعهده على خراسان ، ووعده ومناه ، فدعا إلى عبد الملك ، وأجابه أهل مرو ، وبلغ ابن خازم فخاف أن يأتيه بكير ، فيجتمع عليه أهل مرو وأهل أبر شهر ، فترك بحيرا وأقبل إلى مرو ، فاتبعه بحير فلحقه ، ودارت بينهما الحرب فقتل ابن خازم فى المعركة — انظر تاريخ الطبرى ٧ : ص ٤٤ ، وص ١٩٦ .

(١) أى الصدق فى القتال ، والصدق : الشدة ، يقال صدقه القتال .

(٢) جمع مأدبة بالفتح والضم : وهى طعام صنع لدعوة أو عرس .

(٣) لاملجأ .

(٤) أى مبارزته .

(٥) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

ولا حَمَلْتِكم على خطةٍ أرخصُ متاعٍ فيها النفوسُ ، أرْبأ[١] فيها بنفسي ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقِّ قليلا ، استمتعتم بالأرفهِ الألذِّ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظُّكم فيه أوفرُ من حظى .

وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحُورِ[٢] الحِسَان ، من بنات اليُونانِ ، الرّافلاتِ[٣] في الدُّرِّ والمَرْجانِ ، والحُلَل المنسوجة بالعِقْيانِ[٤] ، المَقْصُوراتِ[٥] في قصور الملوك ذوي التِّيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُزْبانا[٦] ، ورَضيكم لملوك هذه الجزيرة أصْهاراً[٧] وأخْتَانا[٨] ، ثقةً منه بارتياحكم للطِّعان ، وإسماحكم[٩] بمجالدة الأبطال والفُرْسان ، ليكون حظُّه منكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكونَ مَغْنَمُها خالصاً لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وَلِيُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكرًا في الدارين .

واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأني عند مُلْتَقَى الجمعين ، حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لُذَرِيق ، فقاتله إن شاء الله ، فاحملوا معي ، فإن هلكتُ بعده ، فقد كُفيتم أمرَه ، ولن يُعْوِزَكم بَطَلٌ عاقل تُسْنِدُون أموركم إليه ، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه ، فاخلفُوني في عزيمتي هذه ، واحمِلوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا المُهِمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخْذَلون » .

(نفح الطيب ١ : ١١٢ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٣٥)

---

(١) ربأ بنفسه : علا بها وارتفع ، أي أتنحى عن مشاركتكم . (٢) جمع حوراء ، من الحور بالتحريك : وهو شدة سواد العين وبياضها . (٣) رفلت : جرت ذيلها وتبخترت ، أو خطرت بيدها. (٤) الذهب . (٥) المخدرات : المخبوءات (٦) جمع عزيب . والعزيب والعزب والأعزب : من لا زوجة له . (٧) جمع صهر : كحمل، وهو زوج بنت الرجل وزوج أخته . (٨) جمع ختن كسبب ، وهو الصهر ، أو كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ . (٩) سمح وأسمح: جاد وكرم.

٣٠٣ — نص آخر لخطبة طارق

وروى ابن قُتَيْبَةَ هذه الخطبة فى الإمامة والسياسة بصورة أخرى ، قال :

لما بلغ طارقاً دُنُوُّ لذريق ، قام فى أصحابه ، فحمد الله ، ثم حض الناس على الجهاد ، وَرَغبهم فى الشهادة ، وَبَسَطَ لهم فى آمالهم ، ثم قال :

« أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، فليس ثَمَّ والله إلا الصدقُ والصبر ، فإنهما لا يُغْلَبان ، وهما جندان منصوران ، ولا تَضُرُّ معهما قِلَّة ، ولا تنفع مع الخَوَر والكَسَل والفَشَل والاختلاف وَالعُجْب كَثْرَةٌ . أيها الناس : ما فعلت من شىء فافعلوا مِثْلَه ، إن حملتُ فاحملوا ، وإن وَقَفْتُ فقِفُوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال ، ألا وإنى عامِدٌ إلى طاغيتهم ، بحيث لا أتهيَّبه حتى أخالطَهُ ، وَأُقْتَل دونه ، فإن قُتِلْتُ فلا تَهِنُوا[1] ولا تحزنوا ، وَلَا تَنَازَعُوا فتفشلوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . وَتُوَلُّوا الدُّبُرَ لعدوكم ، فتبدَّدُوا بين قتيل وأسير . وإياكم إياكم أن ترضَوا بالدَّنِيَّة ، ولا تمطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عُجِّل لكم من الكرامة والرَّاحة ، من المَهْنَة والذِّلَّة ، وما قد حل لكم من ثواب الشهادة ، فإنكم إن تَفْعَلوا[2] (والله معكم وَمُعِيذكم) تبُوءوا بالخسران المبين ، وسوءِ الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين ، وَهَأنَذَا حَامِلٌ حتى أغشاه ، فاحملوا بِحَمْلَتى » . (الإمامة والسياسة ٢ : ٥٣)

٣٠٤ — خطبة عثمان بن حيان المرى بالمدينة

وولى الوليدُ بن عبد الملك عثمانَ بن حَيَّان المُرِّى المدينة سنة ٩٤ هـ ، وقد خطب على المنبر ، فقال بعد حمد الله :

« أيها الناس : إنا وجدناكم أهلَ غِشٍّ لأمير المؤمنين ، فى قديم الدهر وحديثه ،

---

(١) فلا تضعفوا . (٢) إن تفلبوا وتهزموا .

وقد ضوَى[1] إليكم مَنْ يَزِيدُ كم خَبَالا : أهلُ العراق ، هم أهل الشقاق والنفاق ، هم والله عُشُّ النفاق ، وبَيْضَته التى تَفَلَّقَت عنه ، والله ما جرَّبت عِرَاقِيًّا قَطُّ إلا وجدتُ أفضَلهم عند نفسه ، الذى يقول فى آل أبى طالب ما يقول ، وما هم لهم بِشِيعَةٍ ، وإنهم لَأعْدَاء لهم ولغيرهم ، ولكن لِمَا يريد الله من سَفْك دمائهم ، فإنى والله لا أُوتَى بأحَدٍ آوَى أحداً منهم أو أكْرَاه منزلا ، أو أنزله ، إلا هدمت منزله ، وأنزلت به ما هو أهله[2] .

ثم إن البُلدان لَمَّا مَصَّرَها عمر بن الخطاب ، وهو مجتهد على ما يصلح رعيته ، جعل يمر عليه من يريد الجهاد ، فيستشيره : الشأمُ أحَبُّ إليك أم العراق ؟ فيقول : الشأم أحَبُّ إلىَّ .

إنى رأيت العراق دَاء عُضَالًا ، وبها فَرَّخ الشيطان ، والله لقد أعْضَلُوا بى[3] ، وإنى لَأُرَانى سَأُفَرِّقُهم فى البُلدان ، ثم أقول : لو فرقتهم لَأفسدوا من دخلوا عليه بِجَدَلٍ وَحِجاجٍ ، وكيف ؟ وَلِمَ ؟ وسرعةٍ وَجِيفٍ[4] فى الفتنة ، فإذا خُبِرُوا عند السيوف ، لم يُخْبَر منهم طائل[5] ، لم يصلُحُوا على عثمان ، فَلَقِيَ منهم الأَمَرَّيْن[6] ، وكانوا أوَّلَ الناس فَتَقَ هذا الفَتْقَ العظيم ، ونَقَضُوا عُرَا الإسلام عُرْوَةً عُرْوَةً ، وأنْغَلُوا[7] البلدان ، والله إنى لأتقرَّبُ إلى الله بكل ما أفعل بهم لما أعرف من رأيهم ومذاهبهم ، ثم وَلِيَهُم أمير المؤمنين معاوية ، فداجَهم[8] فلم يصلحوا عليه ، وَوَلِيَهم رجل الناس[9] جلدًا ،

---

(١) ضوى كرمى : انضم ولجأ ، والخبال : الفساد . (٢) ولم يترك بالمدينة أحدا من أهل العراق ، تاجرا ولا غير تاجر ، وأمر بهم أن يخرجوا ، وحبس بعضهم وعاقبهم ، ثم بعث بهم فى جوامع إلى الحجاج بن يوسف .
(٣) عضل به الأمر وأعضل : اشتد ، وأعضله أيضا . (٤) وجف يجف وجيفا : اضطرب . والوجيف : ضرب من سير الخيل والإبل . (٥) الطائل والطائلة والطول : الفضل والقدرة .
(٦) الأمران : الفقر والهرم ، وهو كناية عن اشتداد الأمر . (٧) أفسدوا ، من نغل الأديم كفرح : فسد فى الدباغ ، وأنغله : أفسده . (٨) المداجة مثل المداجاة وداجه عليه : وافقه .
(٩) يريد الحجاج بن يوسف .

فَبَسَط عليهم السيف وأخافهم ، فاستقاموا له ، أحبُّوا أو كرهوا ، وذلك أنه خَبَرَهم وعَرَفهم .

أيها الناس : إنا والله ما رَأينا شِعاراً قَطُّ مثل الأمن ، ولا رأينا حِلْسًا[1] قط شرًّا من الخوف ، فالزَموا الطاعة ، فإن عندى بأهل المدينة خِبْرَةً من الخلاف ، والله ما أنتم بأصحاب قتال ، فكونوا من أحلاس بيوتكم ، وَعَضُّوا على النواجذ ، فإنى قد بعثت فى مجالسكم من يسمع فيبلغنى عنكم ، إنكم فى فُضُول كلامٍ غيرُه ألزَمُ لكم ، فَدَعُوا عَيْبَ الوُلاةِ ، فإن الأمر إنما يُنْقَض شيئًا شيئًا حتى تكون الفتنة ، وإن الفتنة من البلاء ، والفتن تذهب بالدين وبالمال والولد » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٩٢)

٣٠٥ — وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد (قتل سنة ١٠٢ هـ)

ولما وَلِى يزيد بن المهلب خُراسانَ فى عهد سليمان بن عبد الملك ، فتح جُرْجَان[2] وطَبَرَسْتان[3] (سنة ٩٨) ، وقد أوصى ابنه مَخْلَدًا حين استخلفهُ على جُرْجان ، فقال :

« يا بُنَىَّ ، إنى قد استخلفتك على هذه البلاد ، فانظر هذا الحىَّ من اليمن ، فكن لهم كما قال الشاعر :

إذا كنتَ مُرتاد الرجالِ لِنَفْعِهم
فَرِشْ واصْطَنِعْ عند الذين بهم تَرْمِى[4]

وانظر هذا الحىَّ من ربيعة ، فإنهم شِيعتُك وأنصارك ، فاقضِ حقوقَهم ، وانظر هذا

---

(١) الحلس : بساط البيت ، وكساء على ظهر البعير تحت رحله ، والمراد : ما رأينا مركبا شرا من الخوف ، وفلان حلس من أحلاس البيت : للذى لا يبرح البيت . (٢) فى الجنوب الشرقى من بحر قزوين .

(٣) جنوبى بحر قزوين . (٤) راش السهم يريشه : ألزق عليه الريش ، وراش الصديق : أطعمه وسقاه وكساه وأصلح حاله ونفعه ، واصطنع عنده صنيعة : اتخذها ، والبيت لأبى دؤاد الإيادى .

الحىَّ من تميم ، فامطُرْهم(1) ، ولا تُزْهَ(2) لهم ، ولا تُدْنِهم فيطمَعوا ، ولا تُقْصِهم فَيَقْطَعُوا ، وانظر هذا الحىَّ من قيس ، فإنهم أكفاء قومك فى الجاهلية ، وَمُنَاصِفُوهم المنابرَ فى الإسلام ، ورِضاهم منك البِشْرُ .

يا بنى : إن لِأبيك صنائعَ فلا تُفْسِدْهَا ، فإنه كفى بالمرء نَقصًا أن يَهْدِم ما بَنَى أبوه ، وإياك والدماء فإنها لا بَقِيَّةَ معها ، وإياك وشتمَ الأعراض ، فإن الحرَّ لا يُرْضيه عن عِرْضه عِوَضٌ ، وإياك وضربَ الأبشارِ ، فإنه عارٌ باقٍ ، وَوِتْرٌ مطلوب ، واستعمِلْ على النجدة والفضل دون الهَوَى ، ولا تعزِل إلا عن عجز أو خيانة ، ولا يَمنعْك من اصطناع الرجل أن يكون غيرُك قد سبقك إليه ، فإنك إنما تصطَنِع الرجال لفضلها ، وليكن صَنيعُك عند من يكافئك عنه ، احمِل الناس على أحسن أدبك يَكفُوك أنفسهم ، وإذا كتبتَ كتابًا فأكْثِر النظر فيه ، وليكن رسولك فيما بينى وبينك من يَفقَه عنى وعنك ، فإن كتاب الرجل موضعُ عقله ، ورسوله موضع سِرِّه ، وأستودعك الله ، فلا بدَّ للمودِّع أن يسكت ، وللمشيِّع أن يرجع ، وما عفَّ من المنطق ، وقلَّ من الخطيئة أحبُّ إلى أبيك ، وكذلك سَلَكَ هذا المَسْلَكَ المحمود » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٥٥ ، وبلوغ الأرب ٣ : ١٧٣)

---

(1) مطرتهم السماء : أصابتهم بالمطر ، ومطرهم بخير : أصابهم وما مطر منه خيرا — وبخير .. : أى ماأصابه منه خير .

(2) الزهو : الكبر والتيه ، زهى كعنى ، وكذا قليلة .

٣٠٦ — نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيه

وقال عمر بن هُبَيْرَة[١] يؤدِّب بعض بنيه :

« لاتكونَنَّ أول مُشير ، وإياك والهَوَى والرأىَ الفَطِير[٢] ، وتجنب ارتجال الكلام ، ولا تُشِر على مستبدّ ، ولا على وَغْد ، ولا على متلوِّن ، ولا على لَجُوج ، وَخَفِ الله فى مُوَافَقَة هَوَى المستشير ، فإن التماس موافقته لُؤْم ، وسوء الاستماع منه خيانة » .

وقال : « من كثُر كلامه كثُر سَقَطه ، ومن ساء خُلُقه قلَّ صديقه » .

(البيان والتبيين ٢ : ٩٨)

---

(١) هو عمــر بن هبيرة الفزارى ، وكان عاملا على الجزيرة لعمر بن عبد العزيز ، وولى العراق (وأضيفت إليه خراسان) ليزيد بن عبد الملك .

(٢) كل شىء أعجلته من إدراكه فهو فطير — والعجين الفطير : ضد الخمير : أى الذى لم يختمر — « وكان عبد الله بن وهب الراسبى أمير الخوارج يقول : نعوذ بالله من الرأى الدبرى — والدبرى بالتحريك وتسكن الباء : الذى يعرض من بعد وقوع الشىء — ولا تقل دبرى بضمتين فإنه من لحن المحدثين » .

خطب خالد بن عبد الله القسرى [1]

(توفى سنة ١٢٦ هـ)

٣٠٧ – خطبته بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة

خطب خالد بن عبد الله القَسْرِىّ بمكة ، فقال :

« يأيها الناس ، إنكم بأعظم بلادِ الله حُرْمةً ، وهى التى اختار اللهُ من البلدان فوضع بها بَيْتَه ، ثم كتب على عباده حَجَّه ، مَنِ استطاع إليه سبيلا ، أيها الناس : فعليكم بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، وإياكم والشُّبُهات ، فإنى والله ما أُوتَى بأحد يَطْعَن على إمامه إلا صَلَبْتُهُ فى الحرم ، إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذى جعلها ، فسلِّموا وأطيعوا ، ولا تقولوا كَيْتَ وَكَيْتَ ، إنه لا رأْىَ فيما كتب به الخليفة أو رآه إلا إمْضاؤُه ، واعلموا أنه بلغنى أن قوماً من أهل الخِلاف يَقْدَمون عليكم ، وَيقيمون فى بلادكم ، فإياكم أن تُنْزِلُوا أحداً ممن تعلمون أنه زائغ عن الجماعة ، فإنى لا أجد أحدا منهم فى منْزل أحد منكم إلا هدمت منزله ، فانظروا مَنْ تنزِلون فى منازلكم ، وعليكم بالجماعة والطاعة ، فإن الفُرْقة هو البلاء العظيم » .

وَسُمِعَ يوماً يقول : « والله لو أعلم أن هذه الوحشَ التى تأمَن فى الحَرَم لو نطقَتْ

(١) ولاه الوليد بن عبد الملك مكة سنة ٨٩ هـ ، وولى العراقين فى عهد هشام بن عبد الملك ، وكانت أمه نصرانية ، قالوا وكان يتهم فى دينه ، وهو من خطباء العرب المعدودين المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، توفى سنة ١٢٦ هـ .

لم تُقِرَّ بالطاعة ، لأخرجتها من الحرم ، إنه لا يسكن حَرَم الله وَأَمْنَه مخالف للجماعة زارٍ[1] عليهم » .
(تاريخ الطبرى ٨ : ٨٠)

٣٠٨ — خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد

ومن غُلُوِّه أنه خطب على منبر مكة ، فقال :

« أيها الناس ، أيُّهما أعظم ؟ أخليفةُ الرجل على أهله ، أَمْ رسولُه إليهم ؟ والله لو لم تعلموا فضلَ الخليفة إلاّ أن إبراهيم خليلَ الرحمن استسقى رَبَّه ، فسقاه مِلْحاً أجاجاً ، واستسقاه الخليفة فسقاه عَذباً فُرَاتاً[2] » يعنى بئراً حفرها الوليد بن عبد الملك بالثَّنِيَّتين : ثَنِيَّة طُوَى ، وثنية الحَجُون[3] ، فكان يُنقل ماؤها ، فيوضع فى حَوْض من أَدَمٍ إلى جنب زمزم ، ليعرف فضله على زمزم »

(تاريخ الطبرى ٨ : ٦٧ ، وسرح العيون ص ٢٠٥ والأغانى ١٩ : ٦٠)

٣٠٩ — خطبته بمكة فى الحجاج

وَصَعِدَ خالد المنبر فى يوم جمعة — وهو على مكة — فذكر الحجاج — فحمِد طاعتَه ، وأثنى عليه خيراً ، فلما كان فى الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك ، يأمره فيه بِشَتْمِ الحجاج ونَشْرِ عيوبه ، وإظهار البَرَاءة منهُ . فصعِد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن إبليسَ كان مَلَكاً من الملائكة ، وكان يُظهِر من طاعة الله ما كانت الملائكة تَرَى له به فضلا ، وكان الله قد عَلِم من غِشّه وَخُبْثه ما خَفِي على ملائكته ،

---

(١) زرى عليه : عابه . (٢) ماء أجاج : ملح مر ، والفرات : الماء العذب جدا .

(٣) ذو طوى مثلث الطاء وينون : موضع قرب مكة ، والحجون : جبل مشرف بمكة . وفى سرح العيون أنه قال : « قد جئتكم بماء العاذبة ، لاتشبه ماء أم الخنافس » يعنى زمزم .

فلما أراد الله فضيحتَه أمره بالسجود لآدَمَ ، فظهر لهم ما كان يُخْفيه عنهم ، فلعنوه ، وإن الحجاج كان يُظْهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نَرَى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشه وَخبثه على ما خَفِي علينا ، فلما أراد الله فضيحته أجْرَى ذلك على يدى أمير المؤمنين ، فلعنهُ ، فالْعَنُوه لعنهُ الله » ثم نزل .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٨ — ٣ : ١١)

٣١٠ — خطبة له فى الحث على مكارم الأخلاق

وقام على المنبر بواسط ، فحمد الله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أيها الناس ، نافِسُوا فى المكارم ، وسارِعُوا إلى المَغَانم ، واْشْتَرُوا الحمدَ بالجود ، ولا تَكْسِبوا بالمَطْلِ ذَمًّا ، ولا تعتدّوا بالمعروف ما لم تعجّلوه ، ومهما يكن لأحد منكم عند أحد نعمةٌ فلم يبلغ شُكرها ، فالله أحسنُ لها جزاء ، وَأجزلُ عليها عَطاء . واعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نِعمةٌ من الله عليكم ، فلا تَمَلُّوا النِّعَم فتحوّلوها نِقَماً . واعلموا أن أفضل المال ما أكسَبَ أجرا ، وأورث ذِكْرًا ، ولو رأيتم المعروف رَجُلاً رأيتموه حَسَناً جميلا يَسُرّ الناظرين ، ولو رأيتم البخل رجلا رأيتموه مُشَوّهاً قبيحاً تنفِر عنهُ القلوبُ ، وَتُغْضِى عنهُ الأبصار .

أيها الناس ، إن أجْوَدَ الناس مَنْ أعطى مَنْ لا يَرْجُوه ، وأعظم الناس عَفْوًا مَنْ عفا عن قُدْرَةٍ ، وأوصل الناس مَنْ وصل مَنْ قَطَعَهُ ، ومن لم يَطِبْ حَرْثه ، لم يَزْكُ[1] نبتُه ، والأصول عن مَغَارِسِها تنمو ، وبأصولها تَسْمُو . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » . (صبح الأعشى ١ : ٢٢٣ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥ ، وسرح العيون ص ٢٠٥)

---

(١) لم ينم .

٣١١ — خطبة له يوم عيد

خطب فذكر الله وجلاله ، ثم قال :

« كنتَ كذلك ما شئتَ أن تكون ، لا يَعلم كيف أنت إلا أنت ، ثم ارتأيتَ أن تَخلُق الخَلْق ، فماذا جئتَ به من عجائب صُنعك ؟ والكبيرُ والصغيرُ مِنْ خَلْقِكَ ، والظاهرُ والباطِنُ مِن ذَرْئِك ، من صُنوف أفواجه[1] ، وأفراده وأزواجه ، كيف أدمجتَ[2] قوائم الذَّرَّة والبَعُوضة ، إلى ماهو أعظم من ذلك ، من الأشباح ، التى امتزجت بالأرواح » . (عيون الأخبار م٢ : ص ٢٤٦)

٣١٢ — قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه

وكان خالد إذا تكلم يظن الناس أنه يصنع الكلام ، لعذوبة لفظه ، وبلاغة منطقه ، فبينا هو يخطب يوماً إذ سقطتْ جَرَادة على ثوبه ، فقال :

« سبحانَ مَن الجرادةُ من خَلْقه ، أدمجَ قوائمها ، وطوّقها جَناحَها ، وَوَشَّى[3] جلدها ، وسلَّطها على ماهو أعظم منها » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦٣)

٣١٣ — خطبة يوسف بن عمر الثقفى[4] (قتل سنة ١٢٧ هـ)

قام خطيباً ، فقال :

اتقوا الله عبادَ الله ، فكم من مُؤمِّل أملاً لا يَبْلُغُه ، وجامعٍ مالاً لا يأكله ، ومانعٍ عما سوف يتركه ، ولعلَّه من باطلٍ جَمَعَه ، ومن حقّ مَنَعَه ، أصابه حَرَامًا ، وأورثه

---

(١) جمع فوج كشمس ، وهو الجماعة . (٢) من أدمج الحبل : أحكم فتله فى رقة .

(٣) نقش ونمنم وزين . (٤) هو ابن ابن عم الحجاج ، ولاه هشام بن عبدالملك اليمن سنة ١٠٦ هـ م ولاه العراق سنة ١٢٠ هـ بعد عزل خالد بن عبد الله القسرى ، وقتل سنة ١٢٧ هـ .

عَدُوًّا ، فاحتمل إصْره[1] ، وباء بِوِزْرِه ، وورد على ربه آسِفًا لاهِفًا ، قد خَسِرَ الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥)

٣١٤ — خطبة يوسف بن عمر

ولما قتل يوسف بن عمر زيد بن على سنة ١٢٢ هـ أقبل حتى دخل الكوفة فصعد المنبر فقال :

« يأهل المَدَرة الخبيثة : إنى والله ما تقرَن بى الصعبة ، ولا يقعقَع لى بالشِّنان ، ولا أخوَّف بالذئب ، هيهات ! حُبيتُ بالساعد الأشدّ .

أبشِرُوا يأهل الكوفة بالصَّغار والهوان ، لا عطاء لكم عندنا ولا رزق ، ولقد هممت أن أخرب بلادكم ودوركم ، وأحرمكم أموالكم ، أما والله ماعلوت منبرى إلا أسمعتكم ما تكرهون عليه ، فإنكم أهل بغى وخلاف ، ما مِنكم إلا من حارب الله ورسوله إلا حَكيم بن شَريك المحاربى ، ولقد سألت أمير المؤمنين أن يأذن لى فيكم ، ولو أذن لقتلت مقاتلتكم وَسبيت ذراريّكم » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٧٨)

---

(١) الإصر : الذنب .

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرّة

٣١٥ — خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصارى

وقد علم بقدوم جيش الشأم إلى المدينة (قتل سنة ٦٣ هـ)

لما كَرِهَ أهل المدينة خلافة يَزيد بن معاوية ، وبايعوا عبدالله بن حَنْظَلَة الأنصارىَ على خَلْعِه ، وَوَثَبوا على من كان بالمدينة من بنى أمية وحصروهم وأخافوهم ، وجَّه إليهم يزيدُ جيشاً من أهل الشأم بقيادة مُسْلِم بن عُقْبة المُرِّىّ ، ونُمِى إليهم خبرُ مَقْدَمِه عليهم ، فجمعهم عبد الله بن حنظلة ، فقال : « تبايعوننى على الموت ، وَإلاّ فلا حاجَة فى بيعتكم » فبايعوه على الموت ، ثم صعِد المنبر : فحمِد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنما خرجتم غَضَبًا لدينكم ، فأَبْلُوا إلى الله بَلاء حسناً ، ليُوجب لكم به الجنةَ وَمَغْفِرَتَه ، وَيُحِلّ بكم رِضوانَه ، واستعِدُّوا بأحسنِ عُدَّتكم ، وتأهَّبوا بأكمل أُهْبَتكم ، فقد أُخْبِرت بأن القوم نزلوا بِذِى خُشُب[1] ومعهم مَرْوان بن الحَكَم ، واللهُ إن شاء مُهْلِكُه بنقْضِه العَهْدَ وَالْمِيثَاقَ عند مِنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] » .

(١) ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة . (٢) وذلك أن أهل المدينة كانوا قد أخرجوا مروان بن الحكم وكبراء بنى أمية من المدينة ، وحلفوهم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن لقوا جيش يزيد ليردونهم عنهم إن استطاعوا ، فإن لم يستطيعوا مضوا إلى الشأم ، ولم يرجعوا معهم ، فحلفوا لهم على ذلك .

فتصايح الناس ، وجعلوا ينالون منه ويسبُّونه ، فقال لهم : « إن الشتم ليس بشيء ، تَصْدُقهم اللقاء ، والله ما صَدَق قوم قطُّ إلا نُصِروا » ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم إنا بك واثقون ، وعليك متوكلون ، وإليك ألجأنا ظهورَنا » ثم نزل .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٥٤)

٣١٦ — خطبة مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشأم

وأقبل مسلم بجيشه إلى المدينة ، فحاصرها من جهة الحَرَّة[(١)] ، ودعا أهلها إلى الطاعة ومراجعة الحق ، وأجَّلهم ثلاثاً فلم يُذْعِنوا لقوله ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وحملت خيل ابن حنظلة على أهل الشأم فانكشفوا ، وقُتِل صاحب رايتهم ، فأخذ مسلمٌ الرايةَ ، ونادى :

« يأهل الشأم ، أهذا القتالُ قتال قومٍ يريدون أن يَدْفعوا به عن دينهم ؟ وأن يُعِزُّوا به نصرَ إمامهم ؟ قبَّح الله قتالكم منذُ اليوم ، ما أَوْجَعَه لقلبي ، وأغيَظَه لنفسي ! أمَا والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تُحْرَمُوا العَطَاء ، وأن تُجَمَّرُوا في أقاصي الثغور ، شُدُّوا مع هذه الراية ، تَرَّحَ[(٢)] الله وجوهكم إن لم تُعْتِبوا[(٣)] » . (تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٧ — خطبة مسلم يحرضهم

ثم إن خيل مُسْلِم ورجاله أقبلت نحو ابن حَنْظَلة ورجاله حتى دَنَوا منه ، وأخذ مسلم يسير في أهل الشأم ويحرضهم ، ويقول :

« يأهل الشأم ، إنكم لستم بأفضلِ العرب في أحسابها ولا أنسابها ، ولا أكثرها

(١) الحرة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة . (٢) ترح ترحا كفرح فرحا : حزن ، وترحه تتريحا : أحزنه . (٣) أعتبه : أعطاه العتبى (كبشرى) وهي الرضا ، أي إن لم ترضوني بصدقكم القتال .

عَدَدًا ، ولا أوسعها بَلَدًا ، ولم يَخْصُصْكم اللهُ بالذى خَصَّكم به من النصر على عدوكم ، وحُسْن المنزلة عند أئمتكم ، إلا بطاعتكم واستقامتكم ، وإن هؤلاء القومَ وأشباهَهم من العرب غيّروا ، فغيَّر الله بهم ، فتِمُّوا[1] على أحسنِ ما كنتم عليه من الطاعة ، يُتْمِم الله لكم أحسنَ ما يُنيلكم من النصر وَالْفَلْج[2] » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٩)

٣١٨ — خطبة ابن حنظلة يحرّض أصحابه

وقام عبد الله بن حنظلة فى أصحابه حين رآهم قد أقبلوا يمشون تحت راياتهم ، فقال :

« يا هؤلاء : إن عدوَّكم قد أصابوا وَجْهَ القتال الذى كان ينبغى أن تقاتلوهم به ، وإنى قد ظننت ألاَّ تَلْبَثُوا إلا ساعةً ، حتى يَفْصِل اللهُ بينكم وبينهم ، إمَّا لكم وَإمَّا عليكم ، أمَا إنكم أهلُ البَصِيرَة ودارِ الهجرة ! واللهِ ما أظن ربَّكم أصبح عن أهل بلد من بُلْدَان المسلمين بِأَرْضَى منهُ عنكم ، ولا على أهل بلد من بُلدان العرب بأسخط منه على هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، إن لكل امرئٍ منكم ميتةً هو ميتٌ بهاَ ، واللهِ ما من ميتة بأفضلَ من ميتةِ الشهادة ، وقد ساقها الله إليكم ، فاغتنموها ، فوالله ما كلما أردتموها وجدتموها » .

ودارت الدائرة على أهل المدينة ، وقتِل ابن حنظلة فيمن قتل ، ودخل مسلم المدينة[3] وكانت وقعة الحرّة فى ذى الحجة سنة ٦٣ هـ . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٠)

---

(١) تم على الأمر وتمم عليه كضرب : أى استمر عليه . (٢) الفلج : الظفر والنصر .

(٣) انظر ص ١٩٥ .

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

٣١٩ - خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه

قام عُبَيد الله بن زياد بن أبيه خطيباً بعد موت يزيد بن معاوية - وهو يومئذ أمير العراق - فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

« يأهلَ البصرة، انسِبُونى، فوالله ما مُهاجَرُ أبى إلا إليكم، وما مَوْلِدى إلا فيكم، وما أنا إلا رجل منكم، ولقد وَلِيتكم وما أحصَى ديوانُ مُقاتِلتِكمُ إلا سبعين ألف مُقاتل، ولقد أحصى اليومَ ديوانُ مُقاتلتكم ثمانينَ ألفاً، وما أحصَى ديوانُ عُمَّالكم إلا تسعين ألفاً، ولقد أحصى اليوم مِائةَ وأربعين ألفاً[1]، وما تركتُ لكم ذا ظِنة[2] أخافُه عليكم، إلا وهو فى سِجْنكم هذا، وإن أمير المؤمنين: يَزيدَ بن معاوية قد تُوفِّىَ وقد اختلف أهل الشأم، وأنتم اليومَ أكثرُ الناس عَدَداً، وأعرضُه فِناءً، وأغناه عن الناس، وأوسَعُه بلاداً، فاختاروا لأنفسكم رجلا ترتضُونه لدينكم وجماعتكم، يجاهد عدوكم، ويُنْصِف مظلومكم من ظالمكم، ويَكُفّ سُفهاءكم، ويَجْبِى لكم فَيْئكم، ويَقْسِمهُ فيما بينكم، فأنا أول راضٍ مَن رَضيتموه وتابِع، فإن اجتمع أهل الشأم على رجل ترتَضُونه، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون، وإن كرهتم ذلك كنتم على جَدِيلتكم[3]

---

(١) وفى البيان والتبيين: « والله لقد وليكم أبى ومامقاتلتكم إلا أربعون ألفا، فبلغ بها ثمانين ألفا، وما ذريتكم إلا ثمانون ألفا، وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف، وأنتم أوسع الناس بلادا، وأكثره جنودا وأبعد مقادا، وأغنى الناس عن الناس ... الخ ». (٢) الظنة: التهمة. (٣) الجديلة: الطريقة، يقال: مازال على جديلة واحدة، أى على حال واحدة، وطريقة واحدة.

حتى تُعْطَوا حاجتكم ، فما بكم إلى أحد من أهل البُلْدان حاجةٌ ، وما يستغنى الناس عنكم » .

فقامت خطباء أهل البصرة ، فقالوا : قد سمعنا مَقَالتك أيها الأمير ، وإنّا والله ما نعلم أحداً أقوى عليها منك ، فهَلُمَّ فَلْنُبَايِعْكَ ، فقال : لا حاجة لى فى ذلك ، فاختاروا لأنفسكم ، فأبَوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كرّروا ذلك عليه ثلاث مرات ، فلما أبَوا بَسَط يده فبايعوه .

فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أكفّهم بالحيطان و باب الدار ، ويقولون : ظن ابن مَرْجانةَ أنّا نُوَلِّيهِ أمرنا فى الفُرْقة ! وأقام عبيد الله أميراً غيرَ كثير ، حتى جعل سلطانه يَضْعُف ، ويأمُر بالأمر فلا يُقْضَى ، وَيَرَى الرأى فيُرَدُّ عليه ، ويأمر بحبس المخطئ فيُحَال بين أعوانه و بينه .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٥)

٣٢٠ — خطبة أخرى له

وبلغه أن سَلَمَة بن ذُؤَيب يدعو الناس إلى ابن الزبير ، فأمر فنُودى : الصلاةُ جامعةٌ ، فتجمع الناس ، فأنشأ عبيد الله يَقُصّ أول أمره وأمرهم ، وما قد كان دعاهم إلى من يرتضُونه ، فيبايعه معهم ، وقال : « وإنكم أبَيْتم غيرى ، وإنه بلغنى أنكم مسحتم أكُفّكم بالحيطان وباب الدار ، وقلتم ما قلتم ، وإنى آمُرُ بالأمر فلا يُنفَذ ، وَيُرَدُّ علىّ رأيى ، وَتَحُول القبائل بين أعوانى وَطَلِبتى [1] ، ثم هذا سَلَمَة بن ذُؤَيب يدعو إلى الخلاف عليكم ، إرادةَ أن يُفَرّق جماعتكم ، ويضربَ بعضكم جِبَاهَ بعض بالسيف » .

فقال الأحنف بن قيس والناس جميعًا نحن نأتيك بِسَلَمَة ، فأتوه فإذا جَمْعُه قد كثُف وإذا الفَتْقُ قد اتّسع على الراتق ، وامتنع عليهم ، فقعدوا عن ابن زياد فلم يأتوه .

---

(١) طلبتك : ماطلبته .

وروى أنه قال فى خطبته : « يأهل البصرة ، والله لقد لَبِسْنا الخزَّ ولُيُمْنَةَ[1] واللّيِّنَ من الثياب ، حتى لقد أجمَنّا[2] ذلك ، وأجمّتْه جلودنا ، فما بنا إلى أن نُعقِبَها الحديدَ ؟ يأهل البصرة ، والله لو اجتمعتم على ذَنَبِ عَيْرٍ لِتَكسِرُوه ما كَسَرتموه » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠)

٣٢١ – خطبة عمرو بن حريث

ولما بايع أهلُ البصرة عبيدَ الله بن زياد – وكان خليفته على الكوفة عمرو ابن حُرَيْث – بعث وافدَيْنِ من قِبله إلى الكوفة: عَمْرو بن مِسْمَع ، وسعد بن القَرْحاء[3] التميمى ، ليعلم أهل الكوفة ما صنع أهلُ البصرة ، ويسألانهم البيعة لابن زياد ، حتى يصطلح الناس ، فجمع الناسَ عمرو بن حريث ، فحمد الله ، وأثنى عليهِ ، ثم قال :

« إن هذين الرجلين قد أتيا كم من قِبَل أميركم ، يدعُوانكم إلى أمر يجمع الله به كلمتكم ، وَيُصْلِح به ذاتَ بينكم ، فاسمعُوا منهما ، واقبلوا عنهما ، فإنهما برُشْدٍ ما أتيا كم » .

٣٢٢ – خطبة عمرو بن مسمع

فقام عمرو بن مِسْمَع ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وذكر أهل البصرة ، واجتماع رأيهم على تأمير عبيد الله بن زياد ، حتى يرى الناس رأيهم ، فيمن يولون عليهم وقال :

« قد جئنا كم لنجمعَ أمرَنا وأمركم ، فيكونَ أميرُنا وأميركم واحِدا ، فإنما الكوفة من البصرة ، والبصرةُ من الكوفة » .

---

(١) اليمنة : برد يمنى . (٢) أجمه : أراحه ، وأصله من أجم الفرس : تركه فلم يركبه فعفه من تعبه ، والجمام بالفتح : الراحة . (٣) القرحاء فى الأصل : الروضة فى وسطها نور أبيض.

وقام ابن القرحاء ، فتكلم نحوًا من كلام صاحبه ، فقام يزيد بن الحارث الشَّيْبانى فحَصَبهما أولَ الناس ، ثم حصبهما الناس بعدُ ، ثم قال : أنحن نبايع لابن مَرْجانة ؟ لا ولا كرامة ! ورجع الوفد إلى البصرة ، فأعلم الناس الخبر ، فقالوا : أهلُ الكوفة يخلعونه ، وأنتم تُوَلُّونه وتبايعونه ؟ فَوَثَب به الناس ، فاستجار بمسعود بن عمرو الأزدى فأجاره ومنعه ، ثم خرج إلى الشأم فى خِفارة رجال من الأزد وبكر بن وائل .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٣٠)

٣٢٣ — خطبة الأحنف بن قيس

واستخلف ابنُ زياد مسعودَ بن عمرو الأزدى على البصرة ، فقالت بنو تميم وقيس : لا نولى إلا رجلاً ترضاه جماعتنا ، فقال مسعود : قد استخلفنى ، فلا أدع ذلك أبدا ، وبينما هو على المنبر يبايع من أتاه ، إذ رماه رجل من الخوارج فقتله ، فخرجت الأزد إلى الخوارج ، فقتلوا منهم وجرَّحوا ، وطردوهم عن البصرة ، وجاءهم الناس ، فقالوا لهم : تعلمون أن بنى تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعود بن عمرو ؟ فبعثت الأزد تسأل عن ذلك ، فإذا أناس منهم يقولونه ، فاجتمعت الأزد عند ذلك ، وازدلفوا إلى بنى تميم ، وخرجت مع بنى تميم قيس ، وخرج مع الأزد بكر بن وائل ، فالتقى القوم ، واقتتلوا أشد القتال ، فقتل من الفريقين قتلى كثيرة ، فقالت لهم بنو تميم : اللهَ اللهَ يا معشر الأزد فى دمائنا ودمائكم ، بيننا وبينكم القرآن ، ومن شئتم من أهل الإسلام ، فإن كانت لكم علينا بيِّنة أنا قتلنا صاحبكم ، فاختاروا أفضل رجل فينا ، فاقتلوه بصاحبكم ، وإن لم تكن لكم بينة ، فإنا نحلف بالله ما قَتَلْنا ولا أمرنا ، ولا نعلم لصاحبكم قاتلاً ، وإن لم تريدوا ذلك ، فنحن نَدِى صاحبكم بمائة ألف درهم ، فاصطلحوا ، فأتاهم الأحنف ابن قيس ، فقال :

« يا معشر الأزْد : أنتم جِيرتُنا فى الدار ، وإخْوَتنا عند القتال ، وقد أتيناكم

فى رحالكم ، لإطفاء حَشِيشتكم[١] ، وَسَلّ سَخِيمَتكم[٢] ، ولكم الحكمُ مُرْسَلا[٣] ، فقولوا ، على أحلامنا وأموالنا ، فإنه لا يَتَعَاظَمُنا[٤] ذهاب شىء من أموالنا كان فيه صلاح بيننا » ، فقالوا : أَتَدُون صَاحِبَناَ عَشْرَ دِيَاتٍ ؟ قال : هى لكم ، فانصرف الناس واصطلحوا[٥] »

وروى الجاحظ وابن عبد رَبّهِ هذه الخطبة بصورة أخرى ، وها هى ذى :

قال بعد حمد الله والثناء عليه : « يا معشر الأَزْدِ وَرَبيعة ، أنتم إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الصِّهْر ، وأشِقّاؤنا فى النّسب ، وجيراننا فى الدار ، ويَدُنا على العدو ، وَاللهِ لَأَزْدُ البصرة أَحَبُّ إلينا من تميمِ الكوفة ، وَلَأَزْد الكوفة أحب إلينا من تميم الشأمِ ، فإن اسْتَشْرَف شَنآنُكم[٦] ، وَأَبَى حَسَدُ صدورِكم ، ففى أموالنا ، وَسَعَةِ أحلامنا ، لنا ولكم سَعَة » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٣١ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٧)

---

(١) أى ناركم الموقدة ، من حش النار : أوقدها ، فهى فعيلة بمعنى مفعولة (وإن كانت لم ترد فى كتب اللغة بهذا المعنى ، لكن القياس لايمنعها ، والوارد : الحشيشة طاقة الكلأ) . (٢) السخيمة : الحقد .
(٣) أى مطلقا كما تشاءون . (٤) تعاظمه : عظم عليه . (٥) واجتمع أهل البصرة على أن يجعلوا عليهم منهم أميرا يصلى بهم حتى يجتمع الناس على إمام ، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر شهرا ثم جعلوا عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب — وهو ببة — فصلى بهم شهرين ، ثم قدم عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر من قبل ابن الزبير ، فمكث شهرا ، ثم قدم الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المعروف بالقباع ، ثم مصعب بن الزبير ، أما أهل الكوفة فإنهم لما ردوا وفد البصرة ولوا عليهم عامر ابن مسعود القرشى ، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الأنصارى من قبل ابن الزبير كما تقدم .

(٦) استشرف : انتصب ، أى زاد واستحكم ، والشنآن : البغض والكراهية .

٣٢٤ — خطبة روح بن زنباع الجذامى بالمدينة(١)

لما نُعى هلاك يزيد بن معاوية إلى الحُصَيْن بن نُمَيْر — وهو على حرب ابن الزبير

(١) هو روح بن زنباع سيد جذام — إحدى قبائل اليمن — وقد خلفه مسلم بن عقبة المرى ، على المدينة بعد فراغه من قتال أهلها — فى وقعة الحرة — وشخوصه إلى مكة لقتال ابن الزبير — وقد نزل الموت بمسلم فى الطريق، وولى أمر الجيش الحصين بن نمير — ولما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثانى ، دعا حسان بن مالك ابن بحدل الكلبى — وكان على فلسطين والأردن — روح بن زنباع فاستخلفه على فلسطين ، ونزل هو الأردن فوثب نائل بن قيس الجذامى على روح ، فأخرجه من فلسطين ، وبايع لابن الزبير . « الطبرى ج ٧ : ص١٣ و ٣٤ ، والأغانى ١٧ : ١١١ » ، وكان لروح اليد الطولى فى ظفر مروان بن الحكم بالخلافة ، قال صاحب العقد « ج ٢ : ص ٢٥٩ » لما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن ، وبايع أهل مصر أيضا ابن الزبير ، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهرى على أهل الشأم ، فلما رأى ذلك رجال بنى أمية وناس من أشراف الشأم ووجوههم منهم روح بن زنباع وغيره ، قال بعضهم لبعض : إن الملك كان فينا أهل الشأم ، فانتقل عنا إلى الحجاز لانرضى بذلك ، هل لكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر فى هذا الأمر ؟ فقال : استخيروا الله ، فأتوا عمرو بن سعيد بن العاص ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فرأوه حدثا ، فجاءوا إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فرأوه حدثا حريصا على هذا الأمر ، فلما خرجوا من عنده قالوا : هذا حديث فأتوا مروان بن الحكم ، فقالوا : ياأبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر ، فقال : استخيروا الله ، واسألوه أن يختار لأمة محمد صلى الله عليه وسلم خيرها وأعدلها ، فقال له روح بن زنباع : إن معى أربعمائة من جذام ، فأنا آمرهم أن يتقدموا فى المسجد غدا ، ومر أنت ابنك عبد العزيز أن يخطب الناس ويدعوهم إليك ، فإذا فعل ذلك تنادوا من جانب المسجد : صدقت صدقت ! فيظن الناس أن أمرهم واحد ، فلما اجتمع الناس قام عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان ، كبير قريش وسيدها ، والذى نفسى بيده لقد شاب شعر ذراعيه من الكِبَر » فقال الجذاميون : صدقت صدقت ! فقال خالد بن يزيد : أمر دبر بليل ! فبايعوا مروان بن الحكم اهـ ومن أجل ذلك كان روح أثيرا عند عبد الملك بن مروان « كما يقول المبرد فى الكامل ٢ : ١٢٢ » ، ويقول ابن نباتة فى سرح العيون ص ١١٣ : « وكان روح بمنزلة نائب عبد الملك » ويقول صاحب العقد : « وكان روح بن زنباع وزير عبد الملك » — ٢ : ٧٠ ، ٣ : ٦ — قال ابن طباطبا فى الفخرى ص ١٣٦ : « والوزارة لم تتمهد قواعدها ، وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس =

بمكة ـ انصرف بجيشه إلى الشأم ، فلما صاروا إلى المدينة ، جعل أهلها يَهتِفون[1] بهم ، ويتوعدونهم ، ويذكرون قتلاهم بالحرّة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وَهَيْجَهَا ، صَعِدَ رَوْح بن زِنْبَاع الجُذَامِيّ على مِنْبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وكان فى ذلك الجيش ـ فقال :

« يأهل المدينة : ما هذا الإيعادُ[2] الذى توعِدُوننا ؟ إنا والله مادعوناكم إلى « كَلْب » لمبايعة رجل منهم ، ولا إلى رجل من « بَلْقَيْن »[3] ولا إلى رجل من « لَخْم » أو « جُذَام » ولا غيرهم من العرب ، ولكن دعوناكم إلى هذا الحَيّ من قريش ـ يعنى بنى أمية ـ ثم إلى طاعة يزيد بن معاوية ، وعلى طاعته قاتلناكم ، فإيّانا تُوعِدُون ؟ أمَا وَاللهِ إنا لَأبناء الطَّعْن والطَّاعُون ، وَفَضَلَاتُ الموت والمَنُون ، فما شئتم »[4] ، ومضى القوم إلى الشأم .　　　　(مروج الذهب ٢ : ١٠٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٨)

= وأما قبل ذلك ، فلم تكن مقننة القواعد ، ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية فاذا حدث أمر استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتبا أو مشيرا ، وأول وزير وزر لأول خليفة عباسى حفص بن سليمان أبو سلمة الخلال وزير السفاح » .　　(١) يصيحون .

(٢) يقال : وعده خيرا وبه ، ووعده شرا وبه — ومن هذا قوله تعالى :

« النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » فإذا أسقطوا الخير والشر ، قالوا فى الخير وعد وفى الشر أوعد ، وقالوا أوعده خيرا وشرا بالألف أيضا ، وأدخلوا الباء مع الألف فى الشر خاصة ، فقالوا أوعده بالسجن ونحوه .　　(٣) أصله بنو القين كما قالوا : بلحارث فى بنى الحارث ، وبلعنبر فى بنى العنبر . قال المبرد فى الكامل ٢ : ١٨٣ « وكذلك كل اسم من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة ، فإنهم يجيزون معه حذف النون التى فى قولك (بنو) لقرب مخرج النون من اللام ، وذلك قولك فلان من بلحارث وبلعنبر وبلهجيم » أى بنى الهجيم كزبير .　　(٤) وروى الجاحظ أن روحا خطب هذه الخطبة يدعو إلى بيعة يزيد بن معاوية ، وفى آخرها يقول : « وعندنا إن أجبتم وأطعتم من المعونة والعائدة ماشئتم » .

٣٢٥ — خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة

ولما اجتمع الرأى على البيعة لمروان بن الحكم ، قام رَوْح بن زِنْبَاع ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنكم تَذْكُرُون عبد الله بن عُمر بن الخطاب ، وَصُحْبتَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَقِدَمه فى الإسلام ، وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحبِ أمَّةِ محمد الضعيفُ ؛ وأما ما يذكر الناس من عبد الله ابن الزبير ، وَيَدْعُون إليه من أمره ، فهو والله كما يذكرون ، إنه لَابْنُ الزبير : حَوَارِىِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَابْنُ أسماء بنت أبى بكر الصِّدِّيق ذات النِّطَاقَيْن ، وهو بعدُ كما تذكرون فى قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق ، قد خلع خليفتين : يزيد وابنهُ معاوية بن يزيد ، وَسَفَكَ الدماء ، وشقّ عَصاَ المسلمين ، وليس صاحبَ أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم المنافقُ ؛ وأما مروان بن الحكم ، فوالله ما كان فى الإسلام صَدْعٌ قَطٌّ ، إلا كان مروان ممن يَشْعَب[1] ذلك الصَّدْع ، وهو الذى قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفّان يوم الدار[2] ، والذى قاتل علىّ بن أبى طالب يوم الجَمَل ، وإنا نرى للناس أن يُبايعوا الكبير ، ويستشِبّوا[3] الصغير — يعنى بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية — » .

فأجمع رأى الناس على البيعة لمروان . ثم لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص من بعد خالد . (تاريخ الطبرى ٧ : ٣٨.)

---

(١) يصلح . (٢) يوم تسور الثوار عليه داره وقتلوه . (٣) ينتظروه حتى يشب .

٣٢٦ — خطبة الغضبان بن القبعثرى يحض على قتل الحجاج

لما هلك بِشْر بن مَرْوَان ، وَوَلِىَ الحجاج العراق ، بلغ ذلك أهْلَ العراق ، فقام الغَضْبان بن القَبَعْثَرَى الشَّيبانى بالمسجد الجامع بالكوفة خطيباً ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يأهل العراق ، ويأهْلَ الكوفة ، إن عبد الملك قد وَلَّى عليكم من لا يَقْبَلُ من مُحْسِنكم ، ولا يتجاوز عن مُسيئكم ، الظَّلُومَ الغَشُومَ[1] الحَجَّاجَ ، ألاَ وإن لكم مِن عبد الملك منزلةً ، بما كان منكم من خِذْلان مُصْعَب[2] وَقَتْلِه ، فاعترضوا هذا الخبيثَ فى الطريق فاقتلوه ، فإن ذلك لا يُعَدُّ منكم خَلْعا ، فإنه متى يعلُ على مَتْن مِنْبركم ، وصدر سَرِيركم ، وقاعةِ قصرِكم ، ثم قتلتموه عُدَّ خَلْعا ، فأطيعونى وتَغَدَّوْا به ، قبل أن يتعشَّى بكم » .

فقال له أهل الكوفة : « جَبُنْتَ يا غَضْبَانُ ، بل ننتظر سيرته ، فإن رأينا مُنْكَرًا غَيَّرْنَاه » قال : ستعلمون ، فلما قَدِم الحجاج الكوفة بلغته مقالتُه ، فأمر به ، فأقام فى حبسه ثلاث سنين .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٦)

---

(١) الظلوم . (٢) وذلك أن مصعب بن الزبير لما كان على العراق حج سنة ٧١ ، فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ، ومعه وجوه أهل العراق ، وسأله أن يعطيهم ، فأبى وقبض يده ، فلما حرمهم ابن الزبير ماعنده فسدت قلوبهم ، فراسلوا عبد الملك بن مروان ، حتى خرج إلى مصعب وقاتله ، فما هو إلا أن التقوا حتى حولوا وجوههم ، وصاروا إلى عبد الملك ، وبقى مصعب فى شرذمة قليلة ، فجاءه عبيد الله ابن ظبيان — وكان مع مصعب — فقال : أين الناس أيها الأمير ؟ فقال : قد غدرتم يأهل العراق ! فرفع عبيد الله السيف ليضرب مصعبا ، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيضة ، فنشب السيف فى البيضة ، فجاء غلام لعبيد الله بن ظبيان فضرب مصعبا بالسيف فقتله ، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان ، فلما نظر إلى رأس مصعب خر ساجدا ، قال عبيد الله بن ظبيان — وكان من فتاك العرب — ماندمت على شىء قط ندمى على عبد الملك بن مروان ، إذ أتيته برأس مصعب فخر ساجدا ، أن لا أكون ضربت عنقه ، فأكون قد قتلت ملكى العرب فى يوم واحد .

٣٢٧ — خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة

وقدم مُطرِّف بن المغيرة بن شعبة المدائن فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس : إن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولانى عليكم ، وأمرنى بالحكم بالحق ، والعدل فى السيرة ، فإن عملتُ بما أمرنى به ، فأنا أسعد الناس ، وإن لم أفعل فنفسى أوبقتُ ، وحظَّ نفسى ضيعتُ ، ألا إنى جالس لكم العصرين فارفعوا إلىَّ حوائجكم ، وأشيروا علىَّ بما يصلحكم ويصلح بلادكم، فإنى لن آلُوَكم خيرا مااستطعت» ثم نزل . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٥٩)

٣٢٨ — خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة

وفى سنة ٧٧ هـ خرج المطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج وخلع عبد الملك بن مروان — وكان الحجاج قد استعمله على المدائن — وجمع إليه رءوس أصحابه فذكر الله بما هو أهله وصلى على رسوله ثم قال لهم :

« أما بعد — فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وأمر بالعدل والإحسان ، وقال فيما أنزل علينا (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) وإنى أشهد الله أنى قد خلعت عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف ، فمن أحب منكم صحبتى وكان على مثل رأيى فليتابعنى ، فإن له الأسوة وحسن الصحبة ، ومن أبى فليذهب حيث شاء ، فإنى لست أحب أن يتبعنى من ليست له نيّة فى جهاد أهل الجور ، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى قتال الظلمة ، فإذا جمع الله لنا أمرنا كان هذا الأمر شورى بين المسلمين ، يرتضون لأنفسهم من أحبوا » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٢)

٣٢٩ — خطبة سعيد بن المجالد

خرج الجَزْل بن سعيد فى طلب الخوارج الشبيبية وأقبل حتى انتهى إلى النهروان فأدركوه فلزم عسكره وخندق عليه، وجاء إليه سعيد بن المجالد حتى دخل عسكر أهل الكوفة أميراً فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يأهل الكوفة ، إنكم قد عجزتم ووهنتم وأغضبتم عليكم أميركم ، أنتم فى طلب هذه الأعاريب العُجْف منذ شهرين وهم قد خرّبوا بلادكم ، وكسروا خراجكم ، وأنتم حاذرون فى جوف هذه الخنادق لا تزايلونها ، إلا أن يبلغكم أنهم قد ارتحلوا عنكم ونزلوا بلدا سوى بلدكم ، اخرجوا على اسم الله إليهم » فخرج وأخرج الناس معه .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٩)

فتنة ابن الأشعث

جهَّز الحجاج عشرين ألفَ رجل من أهل الكوفة ، وعشرين ألف رجل من أهل البصرة ، لمحاربة رُتبيل ملِك الترك[1] ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ابن قيس الكندى ، فخرج بهم حتى قَدِم سِجِسْتان (سنة ٨٠ هـ) فجمع أهلها حين قَدِمها وخطَبَهم فقال :

٣٣٠ ـ خطبة ابن الأشعث بسجستان

صَعِدَ المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إن الأمير الحجاج ولاّنى ثَغْرَكم ، وأمرنى بجهاد عدوِّكم الذى استباح بلادَكم ، وأباد خِيارَكم، فإياكم أن يتخلف منكم رجلٌ فَيُحِلَّ بنفسه العُقُوبَةَ ، اخرُجوا إلى مُعَسْكركم فعسكروا به مع الناس » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٤)

* * *

٣٣١ ـ خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج

فلما حاز من أرض رُتبيل أرضاً عظيمة ، وملأ يديه من الغنائم والأسلاب ، حَبَس الناس عن الوُغُول فى أرضه ، وقال : نكتفى بما أصبناه العامَ من بلادهم ، حتى نَجْبِيَها ونعرِفَها ويجترئ المسلمون على طرقها ، ثم نتعاطى فى العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل

(١) انظر ص ٢٩٣ .

ننتقصهم فى كل عام طائفة من أرضهم ، ثم لا نُزايل بلادهم حتى يهلكهم الله ، وكتب إلى الحجاج بذلك . فورد عليه كتاب الحجاج يضعِّف رأيه ، ويأمره بالوغول فى أرضهم ، ويتهدَّده بالعزل إن لم يفعل ، فدعا ابن الأشعث الناس إليه .

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنى لكم ناصح ، ولصَلاحِكم مُحِبّ ، ولكم — فى كلّ ما يُحيط بكم نَفْعُه — ناظِرٌ ، وقد كان من رأيى فيما بينكم وبين عدوكم رأىٌ ، اسْتَشَرْتُ فيه ذوى أحلامكم ، وَأُولِى التجرِبة للحرب منكم ، فرضُوه لكم رَأْياً . ورأوه لكم فى العاجِل والآجل صَلاحًا ، وقد كتبتُ إلى أميركم الحجاج ، فجاءنى منه كتاب يعجِّزنى ويضعِّفنى ويأمرنى بتعجيل الوُغُول بكم فى أرض العدو ، وهى البلادُ التى هَلَكَ إخوانكم فيها بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم ، أمضِى إذا مضيتم ، وَآبَى إذا أبيتم » .

فثار إليه الناس ، فقالوا : لا ، بل نأْبَى على عدوّ الله ، ولا نسمع له ولا نطيع .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٢ — خطبة عامر بن واثلة الكنانى

فقام عامر بن وَاثِلة الكِنانى — وكان أول متكلم يومئذ ، وكان شاعراً خطيباً — فقال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه :

« أما بعد : فإن الحجاج وَاللهِ ما يرَى بكم إلا مارأى القائل الأول ، إذ قال لأخيه : « احمل عَبْدَكَ على الفرس ، فإن هلكَ هلكَ ، وإن نجا فَلَكَ » . إن الحجاج والله مايبالى أن يُخاطِر بكم ، فيُقْحِمَكم بلاداً كثيرةَ اللُّهُوب[1] وَاللُّصوب[2] ، فإن ظفِرتم فغنِمتم

(١) اللهوب جمع لهب كحمل ، وهو مهواة مابين كل جبلين ، أو الصدع فى الجبل ، أو الشعب الصغير فيه (والشعب كحمل : الطريق فى الجبل) . (٢) جمع لصب كحمل أيضا ، وهو الشعب الصغير فى الجبل أضيق من اللهب وأوسع من الشعب .

أ كل البلاد ، وحاز المال ، وكان ذلك زيادةً فى سلطانه ، وإن ظفِر عدوكم كنتم أنتم الأعداء الْبُغَضاء الذين لايبالى عَنَتَهم ، ولا يُبْقِى عليهم ، اخلعوا عدوّ الله الحجاج ، وبايعوا عبد الرحمن ، فإنى أُشْهِدكم أنى أولُ خالع » .

فنادى الناس من كلّ جانب : فعلنا فعلنا ، قد خلعْنا عدوّ الله .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٣ — خطبة عبد المؤمن بن شبث بن ربعىّ

وقام عبد المؤمن بن شَبَث بن رِبْعِىّ التميمى ثانياً ، فقال :

« عِبَادَ الله ، إنكم إن أطعتم الحجاج ، جعل هذه البلادَ بلادَكم ما بَقِيتم ، وَجَمَّركم تجميرَ فِرْعون الجنودَ ، فإنه بلغنى أنه أول من جمَّر البعوث ، ولن تعاينوا الأحِبَّة فيما أرى أو يموتَ أكثرُكم ، بايعوا أميركم ، وانصرفوا إلى عدوكم ، فانفوه عن بلادكم » ، فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه . (تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٤ — خطبة ابن الأشعث بالمربد

ولما كانت الحرب بينه وبين الحجاج بالمِرْبَد[1] خطب الناس ، فقال :

« أيها الناس : إنه لم يبقَ من عدوِّكم إلا كما يبقَى من ذَنَب الوَزَغة[2] تضرب به يميناً وَشِمَالاً ، فما تلبث إلا أن تموت[3] » .

(البيان والتبيين ٢ : ٨٧ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢١)

---

(١) موضع بالبصرة . (٢) الوزغة : سام أبرص ، سميت بها لخفتها وسرعة حركتها .

(٣) قال الجاحظ : فمر به رجل من بنى قشير فقال : « قبح الله هذا ورأيه ، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس ويعدهم الأضاليل ، ويمنيهم الباطل » وناس كثير يرون أن ابن الأشعث هو الحسن دون القشيرى .

٣٣٥ — خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضّى أهل العراق

ولما نزل ابن الأشعث بِدَيْر الجماجم ، واجتمع أهل الكوفة ، وأهل البصرة ، وأهل الثغور وَالمَسَالح[1] بدير الجماجم والقرّاء من أهل المِصرَين ، واجتمعوا جميعًا على حرب الحجاج ، يَجمعهم عليه بُغضُهم وكراهِيَتُهم له — وهم إذ ذاك مائةُ ألف مقاتل ، ممن يأخذ العطاء ، ومعهم مثلهم من مَوالِيهم ، واشتد القتال بين الفريقين ، بعث عبد الملك بن مروان ابنه عبد الله وأخاه محمدا ، وأمرهما أن يَعرِضا على أهل العراق نَزْعَ الحجاج عنهم ، وأن يجرى عليهم أعطياتهم ، كما تجرى على أهل الشأم ، وأن ينزل ابن الأشعث أيّ بلد من العراق شاء ، يكون عليه واليًا ما دام حيا ، وكان عبد الملك واليًا ، فعرضا ذلك على أهل العراق ، فقالوا : نرجع العَشِيَّة ، فاجتمعوا عند ابن الأشعث ، فلم يبق قائد ، ولا رأس قوم ، ولا فارس إلا أتاه .

فحمد الله ابنُ الأشعث ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فقد أُعطِيتم أمراً ، انتهازُكم اليومَ إياه فُرصةٌ ، ولا آمَن أن يكون عَلَى ذى الرأيِ غدًا حَسْرَةً ، وإنكم اليوم على النَّصَف ، وإن كانوا اعتدُّوا بالزاوية ، فأنتم تعتدّون عليهم بيوم تُسْتَر ، فاقبلوا ما عرَضوا عليكم ، وأنتم أعِزّاء أقوياء ، والقوم لكم هائبون ، وأنتم لهم منتقِصُون ، فلا والله لا زلتم عليهم أجْرِئاء ، ولا زلتم عندهم أعزاء ، إن أنتم قبِلتم أبداً ما بقيتم » .

فوثب الناس من كلّ جانب ، فقالوا : إن الله قد أهلكهم ، فأصبحوا فى الأَزْل[2] والضَّنْك والمجاعة والقِلَّة والذِّلة ، ونحن ذوو العدد الكثير ، والسِّعر الرفيع ، والمادّة القريبة لا والله لا نقبل ، فأعادوا خلع عبد الملك ثانيةً ، وكان ما كان مما أسلفنا لك ذكره .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٥)

---

(١) جمع مسلحة بالفتح ، وهى الثغر . (٢) الضيق والشدة .

٣٣٦ — عامر الشعبيّ والحجاج

وكان عامر الشَّعْبيّ[1] ممن خرج مع ابن الأشعث ؛ فلما أُتى الحجاج بأسْرَى الجماجم، أُتِىَ فيهم بالشعبيّ مُوثَقاً — وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مَرْوان إلى الحجاج فى أسْرَى الجماجم أن يَعْرِضهم على السيف ، فمن أقرّ منهم بالكفر فى خروجهم علينا فَيُخَلَّى سبيلُه ، ومن زعم أنه مؤمن فيُضْرَب عنقهُ — قال الشعبيّ : فلما جئت باب القصر لقيَنِى يَزِيد بن أبى مُسْلِم كاتبه ، فقال : إنّا لله يا شَعْبيُّ ! لِمَا بين دَفَّتَيْك من العلم ، وليس اليومُ بيوم شَفاعة . قلت له : فما المَخْرَج ؟ قال : بُؤْ[2] للأمير بالشِّرْك والنفاق على نفسك ، وبالحَرَى أن تنجوَ ، ثم لقيَنِى محمد بن الحجاج ، فقال لى مثل مَقالة يزيد ، فلما دخلت على الحجاج قال لى : وأنت ياشعبى ممن ألّب علينا مع ابن الأشعث ؟ اشهد على نفسك بالكفر . قلت : « أصلح الله الأمير ، نَبَا بنا المنزلُ[3] ، وأجْدَب بنا الجَنَابُ ، واُسْتَحْلَسَنا[4] الخوفُ ، وا كْتَحَلْنَا السهرَ ، وضاق المَسْلَك ، وَخَبَطَتْنَا فتنةٌ لم نكن فيها بَرَرَةً أتقياء ، ولا فَجَرَةً أقوياء » قال : صدقت والله ما بَرَرْتم بخروجكم علينا ولا قوِيتم ، خَلُّوا سبيل الشيخ .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، والعقد الفريد ١ : ١٥١ — ٣ : ١٢)

٣٣٧ — أيوب بن القِرِّية والحجاج

وكان الحجاج قد بعث أيوب بن القِرِّيَّة[5] رسولاً إلى ابن الأشعث ، حين خلع الطاعة بِسِجِسْتان ، فلما دخل عليه ، قال له ، لَتَقُومَنَّ خطيباً ، وَلَتَخْلَعَنَّ عبد الملك ،

---

(١) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل (بفتح الشين) الشعبى (نسبة إلى شعب ، وهو بطن من همدان) وهو كوفى تابعى جليل القدر وافر العلم ، توفى سنة ١٠٥ هـ ، وكانت أمه من سبى جلولاء .

(٢) ارجع . (٣) نبا منزله به : لم يوافقه . (٤) أى لم يفارقنا .

(٥) هو أبو سليمان أيوب بن زيد الهلالى ، والقرية جدته ، وكان أعرابيا أميا معدودا من جملة خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة .

ولتَسُبَّنَّ الحجاج ، أو لأضربَنَّ عنقك ، قال : أيها الأمير ، إنما أنا رسول ! قال : هو ما أقول لك ، فقام وخطب وخلع عبد الملك ، وَشَتَمَ الحَجَّاج ، وأقام هُنَالِك ، فلما انصرف ابن الأشعث مهزوماً ، كتب الحجاج إلى عُمَّاله بالرَّى وَ إِصْبَهان وما يليهما ، يأمرهم ألاّ يَمُرَّ بِهِم أحد من قِبَل ابن الأشعث إلاّ بعثوا به أسيرًا إليه ، وأُخِذَ ابن القِرِّيَّة فيمن أُخذ .

فلما أُدْخل على الحجاج ، قال : أَخْبِرْنى عما أسألك ؟ قال : سَلْنِى عما شئت ، قال : أخبرنى عن أهل العراق ، قال : أعلَمُ الناس بِحَقٍّ وباطلٍ ، قال : فأهل الحِجاز ، قال : أَسْرَعُ الناس إلى فتنةٍ ، وَأَعْجَزُهم فيها ، قال : فأهل الشأم ، قال : أطوعُ الناس لخلفائهم ، قال : فأهل مصر ، قال : عَبِيدٌ لمن غَلَب ، قال : فأهل البحرين ، قال : نَبَط[1] اسْتَعْرَبوا ، قال : فأهل عُمَان ، قال : عَرَبٌ اسْتَنْبَطُوا ، قال : فأهل المَوْصِل ، قال : أشجع فُرسان ، وأقتَلُ للأقْرَان ، قال : فأهل اليمن ، قال : أهل سمع وطاعة ، ولزومٍ للجماعة ، قال : فأهل اليمامة ، قال : أهل جفاء ، واختلافِ أهواء ، وأصبرُ عند اللِّقاء ، قال : فأهل فارس ، قال: أهل بأسٍ شديد ، وشَرٍّ عَتِيد ، وريف[2] كبير ، وقرًى يسير ، قال : أخبرنى عن العرب ، قال: سَلْنِى ، قالَ : قريشٌ ، قال : أعظَمُهَا أحْلامًا ، وأكرمها مَقامًا ، قال : فبنو عامر بن صَعْصَعَة ، قال: أطولها رِمَاحا ، وأكرمها صَبَاحا ، قال : فبنو سُلَيْم ، قال: أعظمهَا مجالِسَ ، وأكرمُهَا مَحَابِسَ[3] ، قال : فثَقِيف ، قال : أكرمُها جُدُودا ، وأكثرها وُفُودا قال : فبنو زُبَيْد ، قال : ألزمُها للرَّايات ، وأدركُهَا للتِّرات[4] ، قال : فقُضَاعَة ، قال : أعظمها أخْطارا ، وأكرمها نِجارا[5] ، وأبعدها آثارا ، قال : فالأنصار ، قال : أثبتها مقاما ، وأحسنها إسلاما ، وأكرمها أيّاما ، قال : فتَمِيم ، قال : أظهرها جَلَدا ، وأثراها عَدَدا ،

---

(١) النبط : جيل من الناس، كانوا ينزلون سواد العراق. (٢) الريف : أرض فيها زرع وخصب.

(٣) المحابس : جمع محبس كمقعد ، وهو الشجاعة . (٤) الترات جمع ترة : وهى الثأر .

(٥) النجار : الأصل .

قال : فبكر بن وائل ، قال : أثبتها صفوفا ، وأحدُّها سيوفا ، قال : فعبد القَيْس ، قال أسبقها إلى الغايات ، وأصبرُها تحت الرَّايات ، قال : فبنو أسد ، قال : أهل عَدَد وَجَلَد وَعُسْر وَنَكَد ، قال : فلخم ، قال : مُلوكٌ ، وفيهم نُوك[١] ، قال : فجُذام ، قال يُوقِدُون الحرب وَيَسْعَرُونها[٢] ، وَيُلْقِحُونها ثم يَمْرُونها[٣] ، قال : فبنو الحارث قال رُعاةٌ للقديم ، وحُماة عن الحَرِيم ، قال : فَعَكٌّ ، قال : لُيُوثٌ جاهِدَة ، فى قلوب فاسدة قال : فتَغْلِب ، قال : يَصْدُقون ـ إذا لَقُوا ـ ضَرْبا ، وَيَسْعَرُون للأعداء حربا ، قال فغسَّان ، قال : أكرمُ العرب أحسابا ، وأثبتُها أنسابا ، قال : فأى العرب فى الجاهلية كانت أمنعَ من أن تُضامَ ؟ قال قريش ، كانوا أهل رَهْوَة[٤] لا يُسْتَطاع ارتقاؤها وَهَضْبَة لا يُرَامُ انتزاؤها[٥] ، فى بلدة حَمَى الله ذِمارها ، ومنع جارها ، قال : فأخبرنى عن مآثر العرب فى الجاهلية ، قال : كانت العرب تقول : حِمْيَر أرباب المُلْك ، وَكِنْدَة لُباب الملوك ، وَمَذْحِج أهل الطِّعان ، وَهَمْدان أحْلاس[٦] الخيل ، والأزد آساد الناس ، قال : فأخبرنى عن الأرَضين ، قال : سلنى ، قال : الهند ، قال : بحرها دُر ، وجبلها ياقوت ، وشجرها عُود ، وورقها عِطْر ، وأهلها طَغَام ، كَقِطَع الحمام[٧] ، قال : فخُراسان ، قال : ماؤها جامد ، وعدوها جاحد ، قال : فعُمان ، قال : حَرُّها شديد ، وصيدها عَتِيد ، قال : فالبحرين ، قال : كُنَاسة بين المِصرين ، قال : فاليمن ، قال : أصل العرب ، وأهل البُيُوتات وَالحَسَب ، قال : فمكة ، قال : رجالها علماء جُفاةٌ ، ونساؤها كِساء عُراة ، قال : فالمدينة ، قال : رَسَخ العلم فيها ، وظهر منها ، قال : فالبصرة ، قال : شتاؤها جَليد ،

---

(١) النوك بالضم والفتح : الحمق . (٢) سعر الحرب كمنع ، وأسعرها : أوقدها .

(٣) مرى الناقة كرمى : مسح ضرعها لتدر . (٤) الرهوة : المكان المرتفع (والمنخفض أيضا ، ضد) . (٥) أى اعتلاؤها نزا نزوا ونزوانا : وثب ، وانتزى : افتعل من النزو ، وفى حديث وائل بن حجر : « إن هذا انتزى على أرضى فأخذها » . (٦) كناية عن إدامتهم ركوبها .

(٧) الطغام : أوغاد الناس ورذال الطير ، والقطع بالكسر : اسم ماقطع من الشىء ، ويقال : ثوب قطع وأقطاع أى مقطوع ، أو هو قطع بالضم جمع قطيع .

وحرها شديد ، وماؤها مِلْح ، وحر بها صُلْح ، قال : فالكوفة ، قال : ارتفعت عن حَرِّ البحر ، وَسَفُلَت عن بَرْد الشأم ، فطاب ليلها ، وكثُر خيرها ، قال : فواسط ، قَال : جَنَّة ، بين حَمَأة وَكَنَّة ، قَال : وما حَمَاتها وكَنَّتها[١] ؟ قَال : البصرة والكوفة يحْسُدَانها ، وما ضَرَّها ، وَدَجلة والزَّاب[٢] يتجاريان بإِفَاضة الخير عليها ، قال : فالشأم ، قال : عَرُوس ، بين نسوةٍ جُلوس ، قَال : ثَكِلَتْكَ أُمُّك يابن الْقِرِّيَّة ، لولا اتباعك لأهل العراق ! وقد كنت أنهاك عنهم أن تتبعهم ، فتأخذ من نفاقهم ، ثم دعا بالسيف ، وأومأ إلى السَّياف أنْ أَمْسِك ، فقَال ابن الْقِرِّيَّة : ثلاث كلمات أصلح الله الأمير كأنهن رَكْبٌ وُقُوف ، يَكنَّ مَثلاً بعدى ، قَال : هَات ، قَال : لكل جَوَاد كَبْوَة ، ولكل صَارِم نَبْوَة ، ولكل حليم هفوة ، قَال الحجاج : ليس هذا وقت المزاح ، يا غلام أَوْجِب جَرْحه ، فَضَرب عنقه .

وقيل إنه لما أراد قتله قال له : العرب تزعم أن لكل شيء آفة ، قال : صدقتِ العرب ، أصلح الله الأمير ، قال : فما آفة الحلم ؟ قال : الغضب ، قال : فما آفة العقل ؟ قال: العُجْب ، قال : فما آفة العلم ؟ قال : النسيان ، قال : فما آفة السخاء ؟ قال : المَنّ عند الْبَلَاء[٣] ، قال : فما آفة الكرام ؟ قال : مجاورة اللئام ، قال فما آفة الشجاعة ؟ قال : البغى ، قال : فما آفة العبادة ؟ قال : الْفَتْرَة ، قال : فما آفة الذِّهن ؟ قال : حديث النفْس قال : فما آفة الحديث ؟ قال : الكذب ، قال : فما آفة المال ؟ قال : سوء التدبير ، قال فما آفة الكامل من الرجال ؟ قال : الْعُدْم ، قال : فما آفة الحجاج بن يوسف ؟ قال : أصلح الله الأمير ، لا آفةَ لِمَنْ كَرُمَ حَسَبُه ، وطاب نسبه ، وزكا فرعُه ، قال : امتلأتَ شِقاقا ، وأظهرتَ نفاقا ، اضربوا عنقه ، فلما رآه قتيلا ندم ، وكان قتله سنة ٨٤ هـ .

* * *

(١) الكنة : امرأة الابن أو الأخ . (٢) الزاب الأسفل ، والزاب الأعلى : نهيران يصبان في دجلة.

(٣) الإبلاء : الإنعام والإحسان بلوت الرجل ، وأبليت عنده بلاء حسنا ، وأبلاه الله بلاء حسنا .

وفى رواية أخرى أنه لما دخل على الحجاج ، قال له : يا بن القِرِّيّة ، ما أعددتَ لهذا الموقف ؟ قال : « أصلح الله الأمير ، ثلاثة حروف ، كأنهن رَكْبٌ وُقُوف ، دنيا وآخرة ومعروف ، قال : اخرج مما قلت ، قال : « أفعلُ ، أما الدنيا فمالٌ حاضر ، يأكل منه البَرُّ والفاجر ، وأما الآخرة فميزانٌ عادل ، ومَشْهَدٌ ليس فيه باطل ، وأما المعروف فإن كان عَلَيَّ اعترفتُ وإن كان لى اعترفتُ[1] » قال : أمّا لى فاعترفْ بالسيف إذا وقع بك ، قال : « أصلح الله الأمير ، أقِلْنى عَثْرَتى وأسِغْنى رِيقى ، فإنه لابد للجواد من كَبْوَة ، وللسيف من نَبْوَة ، وللحليم من هَفْوَة[2] ؟ قال : كلا والله حتى أُورِدَك جهنّم ، ألستَ القائل برُستقاباذ : تَغَدَّوُا الجَدْىَ قبل أن يتعشا كم ؟ قال : فأرِحْنى فإنى أجِدُ حرّها ، قال : قَدِّمْه يا حَرَسِيٌّ فاضرب عُنُقَه ، فلما نظر إليه يتشحّط[3] فى دمه ، قال : لو كنا تركنا ابن القِرِّيّة ، حتى نسمع من كلامه ! ثم أمر به فأُخرج فرُمِىَ به[4] .

(وفيات الأعيان ١ : ٨٣ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٩ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ٣٧)

٣٣٨ — كلمة لابن القرية

وقال ابن القِرِّيّة : الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمقُ ، وفاجر : فالعاقلُ : الدِّينُ شريعتُه والحِلمُ طبيعتُه ، والرَّأىُ الحَسَنُ سَجِيَّته ، إن سُئِل أجاب ، و إن نَطَق أصاب ، وإن سمع العلم وَعَى ، و إن حُدِّث رَوَى ؛ وأما الأحمق : فإن تكلّم عَجِلَ ، و إن حدَّث وَهِل[5] ، وَإن استُنْزِلَ عن رأيه نزَل ، فإن حُمِل على القبيح حمل ؛ وأما الفاجر فإن ائتمنته خانَك ، وإن حدّثته شانَكَ ، وإن وَثِقْت به لم يَرْعَك ، وإن استُكْتِمَ لم يَكتُم ، وإن عُلِّمَ لم يَعْلَم ، وإن حُدِّث لم يَفْهَم ، وإن فُقِّهَ لم يَفْقَهْ » .

(زهر الآداب ٢ : ٨٦)

---

(١) أى وأعطيت الناس منه . (٢) وفى رواية : « فإنه ليس جواد إلا له كبوة ، ولا شجاع إلا له هبوة » والهبوة: الغبرة . (٣) يضطرب . (٤) وروى أبو الفرج الأصبهانى أنه قيل: « ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبى العقب صاحب قصيدة الملاحم، وابن القرية ، ومجنون بنى عامر » انظر الأغانى ج ١ ص ١٦٣ . (٥) ضعف وفزع .

فتنة يزيد بن المهلب

٣٣٩ – أيوب بن سليمان بن عبد الملك يسأل عمه الوليد أن يؤمن يزيد بن المهلب(١)

لما فَرَّ يزيدُ بن المُهَلَّب من سِجْن الحجاج وعذابه (سنة ٩٠ هـ فى خلافة الوليد ابن عبد الملك) نزل على أخيه سليمان متعوِّذاً به ، وكتب سليمان إلى الوليد يطلب له الأمان ، فكتب إليه يُقْسِم أنه لا يؤمنه حتى يبعث به إليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكتب معه كتاباً ، فلما دخل به على عمه ، قال :

« يا أمير المؤمنين نفسى فِدَاؤُك ، لَا تُخْفِر(٢) ذِمَّة أبى ، وأنت أَحَقُّ مَن مَنَعها ،

---

(١) وخبر ذلك أن الحجاج كان وفد على عبد الملك ، فمر فى منصرفه بدير فنزله ، فقيل له : إن فى هذا الدير شيخا من أهل الكتب عالما ، فدعا به وسأله : أتعلم مالى ، من يليه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فوقع فى نفسه أنه يزيد بن المهلب ، إذ كان لا يرى من هو أهل لذلك سواه ، وكان يكرهه لما يرى فيه من النجابة ، ويخشى منه ، وكان قد ولاه خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٢ ، فكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ، ويتهمهم بأنهم زبيرية الهوى ، ويخوفه غدرهم ، ومازال به حتى أجابه إلى ماسأل ، فعزل يزيد سنة ٨٥ ، وولى مكانه قتيبة بن مسلم ، وفى سنة ٨٧ حبس الحجاج يزيد وإخوته وعذبهم وأغرمهم ، وكان يزيد يصبر صبرا حسنا ، وكان الحجاج يغيظه ذلك ، فقيل له : إنه رمى بنشابة ، فثبت نصلها فى ساقه ، فهو لا يمسها شىء إلا صاح ، فأمر أن يعذب ويدهق ساقه (أى تغمز شديدا) فلما فعل به ذلك صاح – وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج – فلما سمعت صياح أخيها صاحت وناحت فطلقها ، ثم إن يزيد وإخوته أعملوا الحيلة فى الفرار من سجن الحجاج (سنة ٩٠) ولحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به ، وكتب الحجاج إلى الوليد : إن آل المهلب خانوا مال الله ، وهربوا منى ، ولحقوا بسليمان ، واستشفع سليمان أخاه الوليد ، ومازال به حتى شفعه فيه ، فلما ولى الخلافة سليمان سنة ٩٦ ولى يزيد أمر العراق ، ثم ولاه خراسان سنة ٩٧ .

(٢) خفر به كضرب ، وأخفره : نقض عهده وغدره .

ولا تقطع منا رجاء مَنْ رَجَا السلامةَ فى جِوَارنا ، لِمَكانِنا منك ، ولا تُذِلَّ مَنْ رَجَا الْعِزّ فى الانقطاع إلينا لِعِزّنا بك » (تاريخ الطبرى ٨ : ٧٣)

٣٤٠ — خطبة يزيد بين يدى الوليد

وتكلّم يزيد ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، إنّ بلاءكم عندنا أَحْسَنُ الْبَلاء ، فمن يَنْسَ ذلك فَلَسْنا ناسِيه ، ومن يَكْفُر فلسنا كافِرِيه ، وقد كان من بَلَائِنا أَهْلَ البيت فى طاعتكم ، وَالطَّعْنِ فى أعين أعدائكم ، فى المواطِنِ الْعِظَام ، فى المشارق والمغارب ، ما إنّ الْمِنَّة علينا فيها عظيمة » .

فأمّنه الوليد وكفّ عنه . (تاريخ الطبرى ٨ : ٧٤)

٣٤١ — خطبة مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدى عمر بن عبد العزيز

ولما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب[١] ، أقبل ابنه مَخْلد من خُراسان ، ودخل على الخليفة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

---

(١) وسبب ذلك : أن يزيد بن المهلب لما فتح جرجان وطبرستان سنة ٩٨ ، كتب بالفتح إلى سليمان ابن عبد الملك ، وفى كتابه يقول : « وقد صار عندى من خمس ماأفاء الله على المسلمين ، بعد أن صار إلى كل ذى حق حقه من الفىء والغنيمة ، ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله » وقد قال له كاتبه المغيرة بن أبى قرة : لا تكتب بتسمية مال ، فإنك من ذلك بين أمرين ، إما استكثره فأمرك بحمله ، وإما سخت نفسه لك به فسوغكه فتكلفت الهدية ، فلا يأتيه من قبلك شىء إلا استقله ، فكأنى بك قد استغرقت ماسميت ، ولم يقع منه موقعا ، ويبقى المال الذى سميت مخلدا عندهم عليك فى دواوينهم ، فإن ولى وال بعده

« إن الله يا أمير المؤمنين صَنَع لهذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكن أشقى الناس بولايتك ، عَلَامَ تحبس هذا الشيخ ؟ أنا أتحمل ما عليه ، فصَالِحْنى على ما إياه تسأل » فقال عمر : لَا ، إلاّ أن تحمل جميع ما نسأله إياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك بَيِّنة فخذ بها ، وإن لم تكن بَيِّنةٌ فصَدِّق مقالة يزيد ، وإلا فاستحْلِفْه ، فإن لم يفعل فصالِحْه ، فقال له عمر : ما أجد إلا أخْذَه بجميع المال » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٢)

= أخذك به ، وإن ولى من يتحامل عليك لم يرض منك بأضعافه ؛ فلا تمض كتابك ، ولكن اكتب بالفتح ، وسله القدوم ، فتشافهه بما أحببت مشافهة وتقصر ، فإنك إن تقصر عما أحببت أحرى من أن تكثر ، فأبى يزيد وأمضى الكتاب ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز (سنة ٩٩) — وكان عمر يبغض يزيد وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم — دعا يزيد وسأله عن تلك الأموال التى كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال : كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به (والتسميع : إزالة الخمول بنشر الذكر) ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى بشىء سمعت به ، ولا بأمر أكرهه ، فقال له : ما أجد فى أمرك إلا حبسك ، فاتق الله ، وأد ما قبلك ، فإنها حقوق المسلمين ، ولا يسعنى تركها ، ولم يزل يزيد فى محبسه ، حتى بلغه مرض عمر ، فأخذ يعمل للهرب مخافة يزيد بن عبد الملك ، لأنه كان قد عذب أصهاره آل أبى عقيل (إذ كانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف ، عند يزيد بن عبد الملك ، فولدت له ابنه الوليد) وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهد الله لئن أمكنه الله من يزيد بن المهلب ، ليقطعن منه طابقا (بفتح الباء وكسرها أى عضوا) فخشى ذلك فهرب من السجن سنة ١٠١ ، ومات عمر وأفضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك ولحق ابن المهلب بالبصرة ، فغلب عليها ، وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها (وهو عدى بن أرطاة الفزارى) فحبسه وخلع يزيد ، فسير إليه الخليفة العباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومسلمة ابن عبد الملك لحربه فقتل ابن المهلب فى أثناء المعركة سنة ١٠٢ هـ .

٣٤٢ — خطبة يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال

وقد سير يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد بن عبد الملك ومَسْلَمَة بن عبد الملك لقتاله

قام فى أصحابه فحرَّضهم ورغبهم فى القتال ، فكان فيما قال :

« إن هؤلاء القوم لن يردّهم عن غَيّهم إلا الطعْنُ فى عيونهم ، والضربُ بالمَشْرَفيّة[1] على هَامِهم ثم قال : إنه قد ذُكِر لى أن هذه الجرادة الصفراء — يعنى مَسْلَمَة بن عبد الملك — وعاقر ناقة ثمود[2] — يعنى العباس بن الوليد — (وكان العباس أزرق[3] أحمر ، كانت أمه رُومِيَّة) والله لقد كان سليمان أراد أن يَنْفِيَه ، حتى كلمته فيه ، فأقرَّه على نسبه ، فبلغنى أنه ليس هَمُّهما إلاّ التماسى فى الأرض ، والله لو جاءوا بأهل الأرض جميعاً ، وليس إلاّ أنا ، ما بَرِحتُ العَرْصَةَ[4] حتى تكون لى أولهم » ، قالوا : نخاف أن تعنِّيَنا[5]

---

(١) المشرفية : سيوف منسوبة إلى مشارف الشأم ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، والهام : جمع هامة ، وهى الرأس . (٢) هو قدار (كشجاع) بن سالف ، ويلقب بأحمر ، قال زهير فى وصف الحرب :

فَتُنْتِجْ لَكم غِلْمانَ أشأَمَ كلُّهم ... كأحمَرِ عادٍ ثمَّ تُرْضِعْ فتفْطِمِ

(قال الأصمعى : أخطأ زهير فى هذا ، لأن عاقر الناقة ليس من عاد ، وإنما هو من ثمود ، وقال المبرد : لا غلط ، لأن ثمود يقال لهم عاد الآخرة ، ويقال لقوم هود عاد الأولى) ويضرب به المثل فى الشؤم ، فيقال : « أشأم من أحمر عاد » لأن الله أهلك بفعله ثمود ، وذلك أنهم قالوا لنبيهم صالح حين دعاهم إلى الإيمان : ياصالح إن كنت صادقا فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة ، ووصفوها له ، فأخرجها الله بإذنه من الصخرة (إنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ) . فآمن بعضهم عند ظهور هذه الآية ، ثم قال لهم : (هٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ) . (والشرب : النصيب من الماء) . (٣) أى أزرق العينين . (٤) العرصة : كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء . (٥) عناه : أتعبه .

كما عنَّانا عبد الرحمن بن محمد[1] ، قال : إن عبد الرحمن فَضَح الذِّمار[2] وفضح حَسَبه ، وهل كان يَعْدُو أجله ؟ » ، ثم نزل . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٠٢)

٣٤٣ — خطبة أخرى له

ورويت له خطبة أخرى فى هذا الغرض ، وها كها :

عن خالد بن صفوان قال : خَطَبنا يزيد بن المهلَّب بواسِط ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أيها الناس : إنى أسمع قول الرَّعاع ، قد جاء العباس ، قد جاء مَسْلمة ، قد جاء أهل الشأم ! وما أهل الشأم إلاّ تسعة أسياف ، منها سبعةٌ معى ، واثنان علىّ ، وما مسلمة إلاّ جَرَادة صفراء ، وأما العباس فنسطوس[3] بن نسطوس ، أتاكم فى بَرَابِرة وصَقَالبة[4] وجَرَامِقة وجَرَاجِمة[5] ، وأقباط وأنباط[6] ، وأخلاط من الناس ؛ إنما أقبل إليكم الفلاحون والأوباش كَأَشْلاَء[7] اللحم ، والله ما لَقُوا قطّ حَدًّا كحدكم . ولا حديداً كحديدكم ، أَعِيرُونى سواعِدَكم ساعةً من نهارٍ تَصْفِقُون بها خراطيمَهم[8] ، فإنما هى غُدْوَةٌ أو رَوْحَة ، حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين » .

(البيان والتبيين ١ : ١٦٠ ، العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧٧)

---

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث السالف الذكر . (٢) ما يلزمك حفظه وحمايته .

(٣) هو فى العقد ، ومروج الذهب بالباء ، وفى البيان والتبيين بالنون ، وليس من ألفاظ العربية ، وأقول : هو إماعلم رومى ، فهو يشير إلى أصل العباس بن الوليد إذ كانت أمه رومية ، أو محرف من « نسطورى بن نسطورى » أى نصرانى نسطورى من النساطرة إحدى فرق المسيحية نسبة إلى نسطوريوس صاحب المذهب ، وكان أسقفا بالقسطنطينية . توفى حول سنة ٤٥٠ م . (٤) البرابرة : جيل بالمغرب ، والصقالبة : جيل بلادهم تتاخم بلاد الخزر « شمالى بحر الخزر ، وهو بحر قزوين » أى جنوبى الروسيا .

(٥) الجرامقة : قوم من العجم صاروا بالموصل فى أوائل الإسلام ، والجراجمة : قوم من العجم بالجزيرة ، أو نبط الشام . (٦) أنباط : جمع نبط كجبل وقد تقدم . (٧) أشلاء : جمع شلو كحمل ، وهو العضو وكل مسلوخ أكل منه شىء ، وبقيت منه بقية . (٨) صفقه بالسيف : ضربه ، والخراطيم : جمع خرطوم ، وهو الأنف .

٣٤٤ – خطبة أخرى له

وقال مُقاتِل : سمعت يزيد بن المهلب يخطب بواسط ، فقال :

« يأهل العراق ، يأهل السَّبْق وَالسِّباق ، ومكارم الأخلاق ، إن أهل الشأم في أفواههم لُقْمَةٌ دَسِمَةٌ ، قد رَتَبَتْ[1] لها الأشداقُ ، وقاموا لها على ساقٍ ، وهم غيرُ تاركيها لكم بِالْمِرَاءِ وَالجِدَالِ ، فالْبَسُوا لهم جُلُود النُّمور[2] » .

(البيان والتبيين ١ : ٢١٨)

٣٤٥ – خطبة الحسن البصرى يثبط الناس عن يزيد بن المهلب

وكان مَرْوان بن المهلّب وهو بالبصرة، يحث الناس على حرب أهل الشأم، ويسرّحهم إلى يزيد ، وكان الحسن البصرى يُثَبِّط الناس عنه ، وكان يقول فى تلك الأيام :

« أيها الناس : الزَموا رِحالكم ، وكُفُّوا أيديكم ، واتَّقُوا الله مَولاكم ، ولا يَقْتُل بعضُكم بعضاً عَلَى دُنيا زائلةٍ ، وطمعٍ فيها يسير ، ليس لأهلها بباقٍ ، وليس الله عنهم فيما اكتسبوا براضٍ ، إنه لم يكن فتنةٌ إلاّ كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التِّيه والخُيَلَاء ، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفىّ ، والمعروف التقىّ ، فمن كان منكم خفيًّا فَلْيَلْزَم الحقَّ ، وليحبِس نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكفاه والله بمعرفة الله إياه بالخير شرَفا ، وكفى له به من الدنيا خَلَفًا ؛ ومن كان منكم معروفا شريفا ، فترك ما يتنافس فيه نُظَراؤه من الدنيا – إرادةَ الله بذلك – فواهاً لهذا ، ما أسْعَدَه وَأرْشَدَهُ ، وَأعْظَمَ أجْرَهُ ، وَأهْدَى سبيله ! فهذا غدا – يعنى يوم القيامة – القَرِيرُ عيناً ، الكريمُ عند الله مَآباً » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٥٣)

---

(١) رتبت : أى ثبتت ولم تتحرك ، وذلك لامتلاء الأفواه. (٢) أى تنكروا لهم، واستعدوا لمناضلتهم.

٣٤٦ — خطبة مروان بن المهلب

فلما بلغ ذلك مَرْوَان بن المهلَّب ، قام خطيباً كما يقوم ، فأمر الناس بالجد والاحتشاد ثم قال لهم :

« قد بلغنى أن هذا الشيخ الضالّ المرائى — ولم يُسَمِّهِ — يثبط الناس ، والله لو أن جارَه نَزَع من خُصٍّ داره قَصَبة ، لَظَلّ يَرْعُفُ[1] أنفُه ، أينْكرُ علينا ، وعلى أهل مصرنا ، أن نطلب خيرنا ، وأن نُنْكِر مَظْلِمَتنا ؟ أمَا والله ليكفَّنَّ عن ذكرنا ، وعن جمعه إلينا سُقّاط الأُبُلّة[2] ، وعُلُوج فُرَاتِ البصرة ، قوما ليسوا من أنفسنا ، ولا ممن جرت عليه النعمة من أحدٍ منا ، أو لأُنْحِيَنَّ عليه مِبْرَداً خَشِنًا » .

فلما بلغ ذلك الحسَنَ ، قال : والله ما أكْرَهُ أن يُكرِمَنِي الله بهوانه ، فقال ناس من أصحابه : لو أرادك ثم شئتَ لمنعناك ، فقال لهم : قد خالفتكم إذَنْ إلى ما نهيتُكم عنه ، آمُرُكم ألاّ يقتل بعضكم بعضًا مع غيرى ، وأدعُوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضًا دونى ؟ فبلغ ذلك مروان بن المهلب ، فاشتدَّ عليهم وأخافهم ، وطلبهم حتى تفرّقوا ، ولم يدع الحسن كلامهُ ذلك ، وكفَّ عنه مروان .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣ ه)

---

(١) رعف : خرج من أنفه الدم . (٢) جمع ساقط : وهو اللئيم فى حسبه ونفسه ، والأبلة : موضع بالبصرة .

خطب الأحنف بن قيس التميمى [1]

٣٤٧ ـ الأحنف ومعاوية

كان الأحنف بن قيس ، قد شهد مع الإمام علىّ ، كرم الله وجهه ، وَقْعة صِفِّين ، فلما استقرّ الأمر لمعاوية ، دخل عليه يومًا ، فقال له معاوية : « والله يا أَحْنَفُ ما أذْكُرُ يوم صفين إلا كانت حَزَازَةً [2] فى قلبى إلى يوم القيامة » .

فقال له الأحنف :

« يا أمير المؤمنين لِمَ تَرُدُّ الأمور على أعقابها ؟ أمَا والله إن القلوب التى أبغضناك بها لَبَيْن جوانحنا، والسيوف التى قاتلناك بها لعلى عَوَاتِقنا، ولئن مَدَدْت بِشِبْر من غَدْر ، لَنَمُدَّنّ باعا من خَتْر [3] ، ولئن شئت لَتَسْتَصْفِيَنّ كَدَر قلوبنا بِصَفْو حلمك» ، قال معاوية: فإنى أفعل .

ثم قام وخرج ، وكانت أخت معاوية من وراء حِجَاب تسمع كلامه ، فقالت : يا أمير المؤمنين : مَن هذا الذى يَتَهَدّد ويتوعد ؟ قال: هذا الذى إذا غَضِب ، غَضِب لغضبه مائة ألف من بنى تميم ، لَا يَدْرُونَ فيمَ غَضِب .

(وفيات الأعيان لابن خلكان ١ : ٢٣٠ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١١٨)

---

(١) هو أبو بحر الضحاك بن قيس سيد بنى تميم ، والمضروب به المثل فى الحلم ، وهو من سادات التابعين ؛ أدرك عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولم يصحبه ؛ وشهد بعض فتوح خراسان فى زمن عمر وعثمان رضى الله عنهما ؛ وشهد مع على رضى الله عنه وقعة صفين ؛ ولم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين ؛ وبقى إلى زمن مصعب بن الزبير ؛ فخرج معه إلى الكوفة ؛ فمات بها سنة ٦٧ هـ (وقيل له الأحنف ؛ لأنه كان أحنف الرجل – مائلها – يطأ على وحشيها) . (٢) الحزازة : وجع فى القلب من غيظ ونحوه .

(٣) الباع : قدر مد اليدين ، والختر : أقبح الغدر .

٣٤٨ – الأحنف ومعاوية أيضا

جلس معاوية يوما ، وعنده وُجُوه الناس وفيهم الأحنفُ ، فدخل رجل من أهل الشأم، فقام خطيبًا، فكان آخِرَ كلامه أنْ لَعَنَ عليًّا رضى الله عنه، فأطْرَق الناس وتكلم الأحنف ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن هذا القائلَ ما قال آنِفًا ، لو علم أنّ رِضاك فى لَعْن المرسلين لَعَنَهم ، فاتقِ الله ، ودع عليا ، فقد لَقِىَ اللهَ ، وَأُفرِد فى حُفْرَته ، وَخَلَا بعمله ، وكان والله — ما عَلِمنا — المبرِّزَ بِشِقِّهِ[1] ، الطاهِرَ فى خُلُقه ، الميمونَ النَّقيبة[2] العظيمَ المصيبة » .

قال معاوية : « يا أحنف ، لقد أغضيْتَ العين على القَذَى ، وقلْتَ بغير ما ترى ، وايْمُ اللهِ لتَصْعَدَنّ المنبر فَلَتَلْعَنَنَّهُ طائعاً أو كارهاً » فقال الأحنف : « إن تُعْفِنى فهو خير ، وإن تجبرنى على ذلك ، فوالله لاتجرى به شفتاى » ، فقال معاوية : قم فاصْعَد . قال : « أمَا واللهِ لَأُنْصِفَنَّكَ فى القول والفعل » ، قال معاوية : وما أنت قائلٌ إن أنْصَفْتَنِى؟ » ، قال : « أصْعَدُ فأحمَد الله ، وأثنى عليه وأصلى على نبيه ، ثم أقول :

« أيهَا الناس : إن معَاوية أمرنى أن ألْعَنَ عليا ، ألاَ وإن عليا ومعَاوية اختلفَا واقتتلا ، وادَّعى كل واحد أنه مَبْغِيّ عليه وعلى فِئَته ، فإذا دعوتُ فأَمِّنوا رحمكم الله » ! ثم أقول : اللهم العن أنت وملائِـكتُكَ وأنبياؤك وجميع خلقك الباغِىَ منهماَ على صاحبه ، وَالْفِئَةَ الباغية على المبغِىِّ عليها ، اللهم الْعَنْهُم لعناً كبيرا ، أَمِّنوا ، رحمكم الله » ، يامعاوية لا أزِيد على هذا ، ولا أنقُص منه حرْفا ، ولو كان فيه ذهَابُ نفسى .

فقَال معاوية : « إذن نُعْفِيَك يا أبا بحر » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١١٨)

---

(١) الشق : الجانب ، ورواية العقد « المبرز سيفه » وبرز تبريزا : فاق أصحابه فضلا أو شجاعة .

(٢) النقيبة : النفس .

٣٤٩ – قوله فى مدح الولد

ودخل الأحنف على معاوية ، ويزيدُ بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجابا به ، فقال : يا أبا بحر ما تقول فى الولد ؟ فعلم ما أراد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، هم عِمادُ ظهورنا ، وثَمَر قلوبنا ، وقُرَّة أعيننا[1] ، بهم نَصُول على أعدائنا ، وهم الخَلَفُ منا لمن بعدنا ، فكن لهم أرضاً ذَليلة ، وسماء ظَليلة ، إن سألوك فأَعْطِهم ، وإن استعتبوك فأَعْتِبْهم[2] ، لا تمنعهم رِفْدك[3] ، فيمَلُّوا قُرْبَك ، ويكرهوا حياتك ، ويستبطئوا وفاتك » .

فقال : لله دَرُّك يا أبا بحر ! هم كما وصفت . (الأمالى ٢ : ٤٣)

٣٥٠ – شفاعته لدى مصعب بن الزبير

وأتى مصعبَ بن الزبير يكلمه فى قوم حبسهم ، فقال : « أصلح الله الأمير ، إن كانوا حُبِسُوا فى باطل ، فالحقُّ يُخرِجهم ، وإن كانوا حُبِسُوا فى حَقّ ، فالعفو يَسَعُهُمْ » ، فخلاهم[4] . (نهاية الأرب ٧ : ٢٣٨)

٣٥١ – نصيحته لقومه

وقال بخراسان : « يا بنى تميم تحابُّوا تجتَمِعْ كلمتكم ، وتَبَاذَلوا تعتدِلْ أمورُكم ، وابدءُوا بجهاد بطونكم وفُرُوجكم ، يَصْلُحْ لكم دينكم ، ولا تَغُلُّوا[5] يَسْلَمْ لكم جِهَادُكم » . (نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٦)

---

(١) قرت عينه : بردت ، وانقطع بكاؤها ، أو رأت ما كانت متشوقة إليه . (٢) استعتبه : طلب إليه العتبى (أى الرضا) وأعتبه : أعطاه العتبى . (٣) الرفد : العطاء . (٤) وفى وفيات الأعيان لابن خلكان ١ : ٢٤٤ ، أن هذا القول للشعبى كلم به عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراق .

(٥) أى لاتخونوا .

٣٥٢ — خطبته فى قوم كانوا عنده

وحَدَّث رجل من بنى تميم قال : حضرت مجلس الأحنف بن قيس ، وعنده قوم مجتمعون فى أمر لهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الكرم يَمْنَع الحُرَم[١] ، ما أقربَ النِّقْمَةَ من أهل البغى ، لاخيرَ فى لذة تُعقِبُ ندما ، لن يَهْلِكَ من قصَد[٢] ، ولن يفتقر من زَهَدَ ، رُبَّ هزلٍ قد عاد جِدًّا ، من أمِنَ الزّمان خانه ، ومَن تعظّم عليه أهانه ، دعوا المُزَاح ، فإنه يُؤَرِّث[٣] الضغائن ، وخير القول ما صَدَّقه الفِعْلُ ، احتملوا لمن أدَلَّ[٤] عليكم ، واقبلوا عذر من اعتذر إليكم . أطِع أخاك وإن عصاك ، وَصِلْه وإن جفاك ، أنْصِفْ من نفسك قبل أن يُنتَصَف منك ، وإياكم ومشاورةَ النساء ، واعلم أن كُفْرَ النعمة لؤم ، وَصُحْبَةَ الجاهل شؤم ، ومن الكرم الوفاءُ بالذِّمَم ، ما أقبح القطيعةَ بعد الصِّلة ، والجفاء بعد اللَّطَف[٥] ، والعداوة بعد الودّ ! لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، ولا إلى البخل أسرعَ منك إلى البَذْل ، واعلم أن لك من دنياك ما أصلحت به مثْوَاك[٦] ، فأنفق فى حقّ ، ولا تكونن خازناً لغيرك ، وإذا كان الغدرُ فى الناس موجوداً ، فالثقة بكل أحد عَجْز ، اعرف الحق لمن عَرَفه لك ، واعلم أن قطيعةَ الجاهل تَعْدِل صِلَةَ العاقل » .

(الأمالى ٢ : ٢٢)

---

(١) الحرم : جمع حرمة بالضم ، وهى مالا يحل انتهاكه . (٢) القصد والاقتصاد : ضد الإفراط .
(٣) التأريث : إيقاد النار . (٤) تدلل . (٥) اللطف : اسم من اللطف بالضم .
(٦) آخرتك .

٣٥٣ — كلمات حكيمة للأحنف

قال : فيَّ ثلاثُ خصال ما أقولهن إلا ليعتبر مُعتبر : ما دخلت بين اثنين قطُّ حتى يُدْخِلاَنى بينهما ، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء — يعنى الملوك — مالم أُدْعَ إليه ، وما حَلَلْتُ حُبْوتى(١) إلى ما يقوم الناس إليه » . وقال : « ألاَ أدلكم على المَحْمَدة بلا مَرْزِئة(٢)؟ الخلق السَّجيح(٣) والكف عن القبيح ، ألا أخبركم بأدْوإ الداء ؟ الخُلُق الدنيّ ، واللسانَ البَذِيّ » ، وقال : « ماخان شريف ، ولا كذب عاقل ، ولا اغتاب مؤمن » . وقال : « ما ادخَرتِ الآباء للأبناء ، ولا أبقَت الموتى للأحياء ، أفضلَ من اصطناع معروف عند ذوى الأحساب والآداب» ، وقال : « كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لَزِم شيئاً عُرِف به » . وسمع رجلا يقول : ما أبالى أمُدِحتُ أم ذممت . فقال له : « لقد استرحتَ من حيثُ تَعِب الكرامُ » ، وقال : « جنِّبوا مجالسنا ذكْر الطعام والنساء ، فإنى لَأُبْغِض الرجل يكون وصَّافاً لفَرْجه وبطنه ، وإن المُرُوءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه » . وكان يقول : إذا عَجِب الناس من حِلمه : « إنى لَأَجِد ما تجِدون ولكنى صَبور » . وكان يقول : « وجدت الحلم أنصرَ لى من الرجال » . وقال : « الكذوب لاحيلة له ، والحَسود لا راحة له ، والبخيل لامُروءة له ، والمَلول لاوفاء له ، ولا يسود سَيِّئُ الأخلاق ، ومن المروءة إذا كان الرجل بخيلا أن يكتم ذلك ويتجمَّل » . وقال : « أربعٌ من كُنَّ فيه كان كاملا ، ومن تعلَّق بِخَصْلة منهن كان من صَالِحِى قومه : دينٌ يُرْشِده ، أو عقل يُسَدِّده ، أو حَسَب يَصُونه ، أو حياء يَقْنَاه(٤) » . وقال : «المؤمن بين أربع : مؤمن يحسُده ، ومنافق يُبغضه ، وكافر يجاهده ،

(١) احتبى الرجل : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوة بالفتح ويضم .

(٢) رزأه برزئة : أصاب منه خيرا ، والشيء نقصه : أى دون أن تغرموا فى سبيلها مالا .

(٣) اللين السهل .

(٤) قنى الحياء كرضى ورمى : لزمه كاقتنى .

وشيطان يَفتِنه ؛ وأربع ليس أقل منهن : اليقين ، والعدل ، ودِرْهم حَلال ، وأخ فى الله »
وقال : « لَأَن أُدْعَى من بعيد ، أحب إلىّ من أن أُقْصَى من قريب » . وكان يقول :
« إياك وصَدْرَ المجلس ، وإن صدَّرك صاحبه ، فإنه مجلِسُ قُلْعَةٍ[1] » . وقال : « من لم
يصبر على كلمة سمع كلمات » . وقال : «رب غيْظ تجرَّعته مَخَافَة ماهو أشد منه» . وقال :
« من كَثُرَ كلامه كثر سَقَطه ، ومن طال صَمْتِه كثرت سلامته . وقال : « ثلاث
لا أَنَاةَ فيهن عندى » . قيل : « وما هنّ يا أبا بحر ؟ » . قال : « المبادرة بالعمل الصالح ،
وإخراج ميتك ، وأن تنْكِح الكفء أَيِّمَك[2] » . وكان يقول : « لَأَفْعَى تحكّك
فى ناحية بيتى ، أحب إلىّ من أيّم رددتُ عنها كُفئًا » .

(وفيات الأعيان ١ : ٢٣١ ، ومجمع الأمثال الميدانى ١ : ١٤٨ ؛ والأمالى
١ : ٢٣٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ص ٣٧ ، ٥٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥)

٣٥٤ — صفية بنت هشام المنقرية تؤبن الأحنف

وروى أنه لما حُمِلت جِنازة الأحنف ، وَدُلِّىَ فى قبره ، أقبلت ابنة عمه صَفِيَّة بنت
هشام المِنْقَريّة على نَجِيب لها مُخْتَصِرَة[3] ، فوقفت على قبره ، فقالت :

« لِلّٰهِ دَرُّكَ مِنْ مُجَنٍّ فى جُنَنٍ[4] ، وَمُدْرَجٍ[5] فى كَفَن ! إنا لله وإنا إليه راجعون !

---

(١) مجلس قلعة : يحتاج صاحبه إلى أن يقوم مرة بعد مرة . (٢) الأيم : من لا زوج لها بكرا
أو ثيبا , قال الجاحظ : وكان يقال : « مابعد الصواب إلا الخطاء ؛ وما بعد منعهن من الأكفاء ، إلا بذلهن
للسفلة والغوغاء » . (٣) النجيب : الجمل السريع الخفيف فى السير القوى ؛ واختصر : أمسك المخصرة
، والمخصرة كمكنسة : عصا يمسكها الخطيب يشير بها إذا خطب » ، وتخصر بالقضيب أيضا : أمسكه .
وفى رواية الجاحظ : « وقامت فرغانة بنت أوس بن حجر على قبر الأحنف بن قيس وهى على راحلة
فقالت . . . » ؛ وفى رواية أبى على القالى : « جاءت امرأة من قومه من بنى منقر عليها قبول من النساء ؛
فوقفت على قبره فقالت . . . . » — والقبول بالفتح ويضم : الحسن — . (٤) من أجنه : إذا ستره ؛
والجنن : جمع جنة كقبة ، وهى الوقاية ؛ والجنن كسبب : القبر والكفن . (٥) مطوى .

نسأل الله الذى فَجَعَنَا بموتك ، وابتلانا بفقْدك ، أن يُوسِع لك فى قبرك ، وأن يَغفر لك يوم حشْرك ، وأن يجعل سبيل الخير سبيلَكَ ، ودليلَ الرشاد دليلَك ، ثم أقبلت بوجهها على الناس ، فقالت : « مَعْشَرَ الناس ، إن أولياء الله فى بلاده ، شُهودٌ على عباده ، وإنا قائلون حَقًّا ، وَمُثْنون صِدْقًا ، وهو أهل لِحُسْن الثناء ، وطيِّب الدعاء ؛ أما والذى كنتَ من أجَله فى عِدَّة ، ومن المِضمارِ[1] إلى غاية ، ومن الحياة إلى نهاية ، الذى رفع عَمَلَكَ ، عند انقضاء أجَلك ، لقد عِشْتَ حميداً مَوْدوداً ، ولقد مُتَّ فقيداً سعيداً ، وإنْ كنتَ لَعَظِيم السِّلْم ، فاضِلَ الحِلْم ، صحيح الأَدِيم[2] ، مَنِيعِ الحَرِيم ، وَارِيَ الزِّناد ، رفيعَ العماد ، وإن كنت فى المحافل لشَريفاً ، وعلى الأرامل لَعَطُوفاً ، وفى العشيرة مُسَوَّداً ، وإلى الخلفاء مُوفَدًا ، ولقد كانوا لقولك مستمعين ، ولرأيك مُتَّبِعين » .

ثم انصرفت . (ذيل الأمالى ص ٢٨ ؛ وبلاغات النساء ص ٥٥ ؛ والبيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

---

(١) فى الأمالى : « ومن الضمان » ؛ وفى بلاغات النساء : « ومن الضمار » وأرى أن صوابه « ومن المضمار » لقوله بعد : « إلى غاية » .   (٢) الأديم : الجلد ؛ والمراد صحيح العرض .

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

٣٥٥ - وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وافدًا لأهل البصرة، ودخل معه النَّمِر بن قُطْبَةَ، وعلى النَّمِر عَبَاءة قَطَوَانيَّة[١]، وعلى الأحنف مِدْرَعَةُ[٢] صوف وشَمْلَة[٣]، فلما مَثَلا بين يدى معاوية اقتَحَمَتْهما[٤] عينُه. فقال النمر: يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلّمك، وإنما يكلمك من فيها، فأومأ إليه فجلس، ثم أقبل على الأحنف، فقال: ثم مَه؟ فقال:

«يا أمير المؤمنين، أهلُ البصرة عدد يسير، وَعَظْم كَسِير، مع تتابُع من المُحُول[٥]، واتصالٍ من الذُّحُول[٦]، فالمُكْثِر فيها قد أطرق، والمُقِلّ قد أملقَ، وبلغ منه المَخْنَق، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعِش الفقير، ويجبُر الكَسِير، ويسهِّل العَسِير، ويصفح عن الذُّحول، ويُدَاوِيَ المُحُول، ويأمر بالعطاء، ليكشف البَلاء، ويُزِيل اللَّأْواء[٧]، وإن السيِّد مَنْ يَعُمّ ولا يَخُصّ، ومن يدعو الجَفَلَى[٨] ولا يدعو النَّقَرَى، إن أُحسن إليه شَكَر،

---

(١) نسبة إلى قطوان: موضع بالكوفة منه الأكسية. (٢) المدرعة: ثوب ولا يكون إلا من صوف. (٣) الشملة: كساء دون القطيفة يشتمل به. (٤) ازدرتهما.

(٥) جمع محل كشمس: وهو القحط والجدب. (٦) جمع ذحل كشمس أيضا: وهو الثأر.

(٧) الشدة. (٨) الدعوة العامة، والنقرى: الدعوة الخاصة.

وإن أُسِيء إليه غَفَر ، ثم يكون مِن وراء ذلك لرعيَّته عِماداً ، يدفع عنهم المُلِمَّاتِ ، ويكشف عنهم المُعْضِلات » ، فقال له معاوية : هاهنا يا أبا بحر ، ثم تلا : (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ[1]) .

(زهر الآداب ١ : ٥٧)

٣٥٦ — وفد أهل العراق على معاوية وفيهم الأحنف

ولما قَدِم وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف ، خرج الآذن ، فقال : إن أمير المؤمنين يَعْزِم عليكم ألّا يتكلم أحد إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه قال الأحنف :

« لولا عَزْمَة أمير المؤمنين لأخبرته أن دافَّةً[2] دفّت ، ونازلةً نزلت ، ونائبةً نابت ، ونابتةً نَبَتَت ، وكلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرّه » ، فقال : حَسْبُك يا أبا بحر فقد كَفَيْتَ الغائبَ والشاهد .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٣)

وفد أهل العراق على معاوية ومعهم زياد وفيهم الأحنف

وفد أهل العراق على معاوية ، ومعهم زياد بن أبيه ، وفيهم الأحنف بن قيس ، فقال زياد :

٣٥٧ — خطبة زياد

« يا أمير المؤمنين : أشْخَصَتْ إليك أقواماً الرغبةُ ، وأقعد عنك آخرين العُذْرُ ، فقد جعل الله تعالى في سَعَة فضلك ما يُجْبَرُ به المتخلِّف ، ويُكافَأ به الشاخِصُ » .

---

(١) أي في معناه وفحواه . (٢) الدافة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد ، يقال : دفت علينا من بني فلان دافة ، والدافة أيضا : قوم من الأعراب يريدون المصر ، والدافة : الجيش يدفون نحو العدو أي يدبون .

٣٥٨ — خطبة معاوية

فقال معاوية : « مَرْحباً بكم يا معشر العرب ، أمّا والله لئن فرّقت بينكم الدعوة ، لقد جمعتكم الرَّحِم ، إن الله اختاركم من الناس ليختارنا منكم ، ثم حَفِظ عليكم نسبكم بأن تخيّر لكم بلاداً يُجتاز عليها المنازل ، حتى صَفّاكم من الأمم كما تُصَفَّى الفِضة البيضاء من خَبَثها ، فصُونوا أخلاقكم ، ولا تُدَنِّسوا أنسابكم وأعراضكم ، فإن الحسَن منكم أحسنُ لقربكم منه ، والقبيح منكم أقبحُ لبعدكم عنه » .

٣٥٩ — خطبة الأحنف بن قيس

فقال الأحنف : « والله يا أمير المؤمنين ما نَعْدَم منكم قائلا جَزِيلا[١] ، ورأيًا أصِيلا ، ووَعْدًا جميلا ، وإن أخاك زِياداً لَمُتَّبِعٌ آثارَك فينا ، فنستمتع الله بالأمير والمأمور ، فإنكم كما قال زُهَيْر — فإنه ألقى على المدّاحين فُصُول القول — :

وما يَكُ من خَيْر أتَوْه فإنما ... تَوَارثَه آباءُ آبائِهم قَبْلُ

وهل يُنْبِت الخطِّيَّ إلا وَشِيجُه ... وَتُغرَس إلا في مَنَابِتِها النخلُ »[٢]

(زهر الآداب ١ : ٥٨)

٣٦٠ — وفد العراق على معاوية وفيهم دَغفل النسابة

قدم وفد العراق على معاوية ، وفيهم دَغْفَل[٣] ، فقال له معاوية : يا دَغْفَل أخبِرْني عن ابنَيْ نِزَارٍ : ربيعةَ ومُضَرَ ، أيُّهما كان أعزّ جاهلية وعالمية ؟ فقال : يا أمير المؤمنين مضر بن نزار كان أعزّ جاهلية وعالمية . قال معاوية : وأيُّ مضر كان أعزّ ؟ قال :

---

(١) الجزيل : العاقل الأصيل الرأى . (٢) الخطى : الرمح ، نسبة إلى الخط : مرفأ السفن بالبحرين تنسب إليه الرماح لأنها تباع به لا أنه منبتها ، والوشيج : شجر الرماح جمع وشيجة . (٣) هو دغفل ابن حنظلة النسابة من بنى شيبان .

بنو النَّضر بن كِنانة ، كانوا أكثر العرب أمجاداً ، وأرفعَهم عمادًا وأعظمهم رَمادًا . قال : فأيٌّ بنى كنانة كان بعدهم أعزَّ ؟ قال : بنو مالك بن كِنانة ، كانوا يَعلُون من ساماهم ، ويكُفُّون من ناوَاهم ، ويَصْدُقون من عاداهم . قال : فمَن بعدهم ؟ قال : بنو الحْرث بن عبد مَنَاة بن كِنانة ، كانوا أعزّ بنيه وأمنَعهم ، وأجودهم وأنفَعهم . قال : ثم مَن بعدهم ؟ قال : بنو بكر بن عبد مَناة ، كان بأسُهم مرهوباً ، وعدوهم منكوباً ، وثأرهم مطلوباً . قال : فأخبرنى عن مالك بن عبد مَنَاة بن كِنانة ، وعن مُرّة وعامر ابنَىْ عبد مناة . قال : كانوا أشرافاً كرامًا ، وليس للقوم أكفاء ولا نُظَراء . قال : فأخبرنى عن بنى أسد ؟ قال : كانوا يُطْعِمون السَّدِيف[1] ، ويُكرمون الضيوف ، ويضربون فى الزُّحوف[2] ، قال : فأخبرنى عن هُذَيل ، قال : كانوا قليلا أكياس[3] ، أهل مَنَعة وبأس ، ينتصفون من الناس ، قال : فأخبرنى عن بنى ضَبَّة ؟ قال : كانوا جَمْرَة من جَمَرات العرب الأربع[4] ، لايُصْطَلَى بنارهم ، ولا يُفاتون بثارهم ، قال : فأخبرنى عن مُزينة ، قال : كانوا فى الجاهلية أهل مَنَعة ، وفى الإسلام أهلَ دَعة . قال : فأخبرنى عن تميم ، قال : كانوا أعزّ العرب قديمًا ، وأكثرها عظيما ، وأمنعها حَرِيمًا ، قال : فأخبرنى عن قيس ، قال : كانوا لايفرحون إذا أُدِيلوا[5] ، ولايجزَعون إذا ابتُلوا ، ولا يَبْخلون إذا سُئِلوا ، قال : فأخبرنى عن أشرافهم فى الجاهلية ، قال : غَطَفان بن سعد وعامر بن صَعْصَعَة وسُلَيم بن منصور ؟ فأما غطفان فكانوا كرامًا سادةً ، وللخَمِيس[6]

---

(١) شحم السنام . (٢) مصدر زحف أو جمع زحف كشمس وهو الجيش يزحفون إلى العدو .

(٣) جمع كيس : وهو العاقل . (٤) قال صاحب العقد : « جمرات العرب » هم بنو نمير بن عامر بن صعصعة ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضبة بن أد بن طابخة ، وبنو عبس ابن بغيض ، وإنما قيل لهذه القبائل جمرات ، لأنها تجمعت فى أنفسها ، ولم يدخلوا معهم غيرهم ، والتجمير : التجميع ، ومنه قيل : جمرة العقبة لاجتماع الحصى فيها ، ومنه قيل : لاتجمروا المسلمين فتفتنوهم ، وتفتنوا نساءهم ، يعنى لاتجمعوهم فى المغازى . . اه — العقد ٢ : ٥٧ . (٥) أداله الله من عدوه : نصره عليه .

(٦) الخميس : الجيش . سمى بذلك لأنه خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ، والمؤخرة .

قادة ، وعن البَيْض ذَادَة[1] ؛ وأما بنو عامر فكثيرٌ سادتُهم ، مَخْشِيَةٌ سَطْوَتهم ، ظاهرة نجدَتهم ؛ وأما بنو سُليم فكانوا يُدركون الثار ، ويمنعون الجار ، ويُعظمون[2] النار ، قال : فأخبرنى عن قومك بكر بن وائل واصدُقنى ، قال : كانوا أهلَ عزّ قاهر ، وشرف ظاهر ، ومجد فاخر ، قال : فأخبرنى عن إخوتهم تغلب ، قال : كانوا أسُودًا تُرْهَب ، وسِمامًا[3] لا تُقرَب ، وأبطالا لا تُكذب ، قال : فأخبرنى كم أُدِيلُوا عليكم فى قتلكم كُلَيْبًا ؟ قال : أربعين سنة ، لانتصف منهم فى مَوْطن نلقاهم فيه ، حتى كان يوم التحَاليق ، يوم الحرث بن عُبَاد بعد قتلة ابنه بُجَيْر ، وكان أرسله فى الصلح بين القوم فقتله مُهَلْهل ، وقال : بُؤْ بشِسْع[4] نعل كليب ، فقال الغلام : إن رضيَت بهذا بنو بكر رَضِيتُ ، فبلغ الحرث ، فقال : نِعْم القتيلُ قتيلا إن أصاح الله به بين بكر وتغلب وَ بَاء بكليب ، فقيل له : إنما قال مهلهل ما قالَ (الكلمة[5]) ، فتشمر الحرث للحرب ، وأمرنا بحلْق رءوسنا أجمعين ، وهو يوم التحاليق ، وله خبر طويل ، وقال :

قرِّبا مرْبَط النَّعامةِ منى ... لَقِحَت حَرْبُ وَائِلٍ عن حِيَالِ[6]
لم أكُن من جُنَاتِهَا — عَلِمَ اللـهُ — وَإنِّى بحرِّها اليومَ صَالِى
قرِّبا مِرْبَط النعامة منى ... إن بيعَ الكِرام بالشِّسْع غالى

فأُدِلْنا عليهم يومئذ ، فلم نزل منهم ممتنعين إلى يومنا هذا . قال : فمن ذهب بذكر ذلك اليوم ؟ قال : الحرثُ بن عُباد ، أسر مهلهلاً فى ذلك اليوم ، وقال له : دُلَّنى على مهلهل بن ربيعة ، قال : مالى إن دَلَلتُك عليه ؟ قال : أُطْلِقك ، قال : على الوفاء ؟ قال : نعم ، قال له : أنا مهلهل ، قال : وَيْحَك ! دُلَّنى على كفء كريم ، قال : امرؤ القيس[7]

---

(١) البيضة : حوزة كل شىء وساحة القوم ، وبيضة الدار : وسطها .

(٢) كناية عن الكرم . (٣) جمع سم مثلث السين . (٤) الشسع : سير يشد به النعل .

(٥) هى قوله (بؤ بشسع نعل كليب) . (٦) النعامة : اسم فرسه ، ولقحت الناقة : قبلت اللقاح وحالت حيالا : لم تلقح سنة ، أو سنتين ، أو سنوات . (٧) هو امرؤ القيس بن أبان التغلبى .

وأشار بيده إليه عن قُرْب ، فأطلقه الحرث ، وانطلق إلى امرئ القيس فقتله ، وبكر كله صَبَرت وأبْلَت لحُسْن بَلاؤها ، إلا ما كان من ابنى لُجَيْم : حَذيفة وَعِجْل ، وَيَشْكُر ابن بكر ، فإن سعد بن مالك بن ضُبَيْعة جدّ طَرَفَة بن العبد ، هجاهم فى ذلك اليوم ، فقال :

إنَّ لُجَيْماً عَجَزَتْ كُلُّهَا ... أنْ يُرْفِدُونى فارسًا وَاحِدَا[1]

وَيَشْكُرُ العامَ على خَتْرِهَا ... لم يسمع الناس لهم حامدا[2]

وقال فيهم أيضًا :

يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ الَّتِي ... وَضعت أرَاهِطَ فَاستراحوا[3]

إنا وَإخوتَنَا غداً ... كثمود حِجْرٍ يوم طاحُوا[4]

بِالمَشْرَفِيَّةِ لاَ نَفِرّ ... ولا نُبَاحُ وَلن تُبَاحُوا[5]

من صَدَّ عن نيرانها ... فأنَا ابْنُ قيس لاَ بَرَاحُ[6]

فقال معاوية : أنت والله يَا دغفل أعلم الناس قاطِبَةً بأخبار العرب » .

(ذيل الأمالى ٢٦)

---

(١) الإرفاد : الإعانة والإعطاء . (٢) الختر : الغدر أو أقبحه . (٣) أراهط : جمع الجمع لرهط . (٤) الحجر : واد بين المدينة والشأم : مساكن ثمود قوم صالح .

(٥) مشارف الشام : قرى من أرض العرب تدنو من الريف منها السيوف المشرفية . وفى ذيل الأمالى « ولا نباح ولن نباحوا » بالنون وقد أصلحته « ولن تباحوا » بالتاء على الالتفات من التكلم إلى الخطاب ، أى ولن تباحوا ياقوم مادمنا لكم حماة ، وقال مصحح الأمالى : « ولن نباحوا » كذا فى الأصل ، ولعل هنا تحريفا ، ووجه الكلام « كن يباح » . (٦) قولهم لا براح كقولهم لاريب ، ويجوز رفعه فتكون لا بمنزلة ليس .

٣٦١ — دغفل وجماعة من الأنصار

ووقف جماعة من الأنصار على دَغْفَل بعد ما كفّ ، فسلّموا عليه ، فقال : مَنِ القَوْمُ ؟ قالوا : سادَةُ اليمن ، فقال : « أمِن أهل مجدها القديم ، وشرفها العميم ، كِنْدَة ؟ قالوا : لا ، قال : « فأنتم الطوّال قَصَبا ، المُمَحَّصون نَسَبا ، بنو عبد المَدان ؟ » قالوا : لا ، قال : « فأنتم أقْوَدُهَا للزُّحُوف ، وأخرقُها للصفوف ، وأضربُها بالسيوف ، رَهْطُ عَمْرِو بنِ مَعْدِيكَرِب ؟ » قالوا : لا ، قال : « فأنتم أحْضَرُها قِرَاء[1] ، وأطْيَبُهَا فِنَاء ، وأشدها لِقاء ، رَهْطُ حاتم بن عبد الله ؟ » قالوا : لا ، قال : فأنتم الغارسون النخل ، والمطْعِمُون فى المَحْل[2] ، والقائلون بالعدل ، الأنصار ؟ » قالوا : نعم .

(الأمالى ٢ : ٢٨٧)

٣٦٢ — وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه : خَبِّرونى عن حَيٍّ من أحياء العرب ، فيهم أشَدُّ الناس ، وأسخَى الناس ، وَأخْطَبُ الناس ، وأطوعُ الناس فى قومه ، وأحلَمُ الناس ، وأحْضَرهم جوابا .

قالوا : يا أمير المؤمنين ما نعرف هذه القبيلة ، ولكن ينبغى لها أن تكون فى قريش ، قال : لا ، قالوا : فنى حِمْيَر وملوكها ، قال : لا ، قالوا : فنى مُضَر ، قال : لا ، قال مَصْقَلة ابن رُقَيَّة الْعَبْدى : فهى إذن فى ربيعة ، ونحن هم ، قال : نعم ، قال جُلَسَاؤه : ما نعرف هذا فى عبد القيس إلاّ أن تخبرنا به يا أمير المؤمنين ، قال : نعم .

أمّا أشدّ الناس ، فحكيم بن جَبَل ، كان مع على بن أبى طالب — رضى الله عنه —

---

(١) قرى الضيف كرى قرى بالكسر ، والقصر : وقراء بالفتح والمد : أضافه .

(٢) المحل : الجدب والشدة .

فقُطِعت ساقه ، فضمها إليه ، حتى مرّ به الذى قطعها ، فرماه بها فَجدّله[1] عن دابّته ، ثم جثا إليه فقتله واتكأ عليه ، فمرّ به الناس ، فقالوا له : يا حكيم ، مَنْ قطع ساقك ؟ قال : وِسادى[2] هذا ، وأنشأ يقول :

يَا سَاقُ لاَ تُرَاعى   إِنَّ مَعِى ذِرَاعى   أَحْمِى بها كُرَاعى[3]

وأما أسخى الناس فعبد الله بن سِوّار ، استعمله معاوية على السِّنْد ، فسار إليها فى أربعة آلاف من الجند ، وكانت توقَدُ معه نار حيثما سار ، فَيُطْعِم الناس ، فبينما هو ذاتَ يوم إذ أبصر نارا ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : أصلح الله الأمير ، اعتلّ بعض أصحابنا ، فاشتهى خَبِيصا[4] ، فعمِلنا له ، فأمر خَبّازه ألاّ يُطْعِم الناس إلاّ الخَبيص ، حتى صاحوا وقالوا : أصلح الله الأمير ، رُدّنا إلى الخبز واللحم ، فَسُمّى مُطْعِم الخَبِيص .

وأما أطوع الناس فى قومه ، فالجارُود بن بِشْر بن العَلاَء ، فإنه لما قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدّت العرب ، خطب قومه ، فقال :

« أيها الناس : إن كان محمد قد مات ، فإن الله حَىّ لا يموت ، فاستمسكوا بدينكم ، فمن ذهب له فى هذه الرِّدّة دينارٌ أو درهم أو بعير أو شاة ، فله عَلَىّ مِثْلاَه » فما خالفه منهم رجل .

وأما أحضَرُ الناس جوابا ، فَصَعْصَعَة بن صُوحان ، دخل على معاوية فى وفد أهل العراق ، فقال معاوية : مَرْحَباً بكم يأهل العراق ، قَدِمْتُم أرضَ الله المقَدّسة ، منها المَنْشَر ، وإليها المَحْشَر ، قَدِمتم على خيرِ أمير يَبَرُّ كبيركم ، ويرحمُ صغيركم ، ولو أن الناس كلّهم ولد أبى سفيان لكانوا حُلَماء عقلاء ، فأشار الناس إلى صعصعة فقام :

فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

---

(١) جدله : صرعه على الجدالة (كسحابة) وهى الأرض . (٢) الوساد : المتكأ ، والمخدة كالوسادة ويثلث . (٣) لا تراعى : لا تفزعى ، والكراع : جماعة الخيل . (٤) الخبيص : نقى الدقيق يخلط بالعسل ، والخبيصة : أخص منه ، وخبص الحلواء كضرب ، وخبصها : بالتشديد خلطها وعملها .

« أما قولك يا معاوية : إنا قَدِمْنا الأرض المقدَّسة ، فلعمرى ، ما الأرضُ تقدِّس الناسَ ، ولا يقدِّس الناسَ إلا أعمالُهم ، وأما قولك : منها المَنْشَر ، وإليها المَحْشَر ، فلعمرى ، ما ينفع قربُها ، ولا يَضُرُّ بُعْدُها مؤمنا ، وأما قولك : لو أن الناس كلهم ولدُ أبى سفيان لكانوا حُلَماء عقلاء ، فقد ولَدَهم خيرٌ من أبى سفيان آدمُ صلوات الله عليه ، فمنهم الحليم والسفيه ، والجاهل والعالم » .

وأما أحلم الناس ، فإن ولد عبد القَيْس قَدِموا على النبى صلى الله عليه وسلم بِصَدَقاتهم وفيهم الأشَجُّ[1] ، ففرّقها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول عطاء فرّقه فى أصحابه ، ثم قال : يا أشَجُّ ادنُ منى ، فدنا منه ، فقال : « إنَّ فيك خَلَّتين يحبّهما الله : الأناة ، والحلم » وكفى برسول الله صلى الله عليه وسلم شاهداً ، ويقال : إن الأشج لم يَغضب قطُّ[2] .

(العقد الفريد ٢ : ٥٦)

٢٦٣ — وفود العرب ومعاوية

عن عَمْرو بن عُتْبَة بن أبى سفيان ، قال :

عَقِمَت النساء أن يَلِدْنَ مثل عمِّى ! شهدته يوماً ، وقد قَدِمَت عليه وفود العرب ، فقضى حوائجهم ، وأحسَنَ جوائزهم ، فلما دخلوا عليه ليشكروه ، سبقهم إلى الشكر ، فقال لهم :

« جزاكم الله يا معشرَ العرب عن قريش أفضلَ الجزاء ، بتقدُّمكم إياهم فى الحروب ، وتقديمكم لهم فى السِّلم ، وحَقْنِكم دماءهم بِسَفْكِها منكم ، أمَا والله لا يُؤْثِر عليكم غيرَكم منهم حازِمٌ كريم ، ولا يرغبُ عنكم منهم إلا عاجزٌ لئيم ، شجرةٌ قامت على ساق ، فتفرّع أعلاها ، واجتمع أصلُها ، عَضَدَ اللهُ مَنْ عَضَدَها ، فيالَهَا كَلِمَةً لو اجتمعَتْ ! وأيدٍ لو ائتلفَتْ ! ولكن كيف بإصلاح ما يريد الله إفسادَه ؟ » . (العقد الفريد ٢ : ٤١)

---

(١) هو عبد الله بن عوف الأشج .

(٢) هذا المقال يزيد على العنوان الذى عنونته به ، وقد أردت من ذلك استيفاء حديث عبد الملك .

٣٦٤ — وفود عبد العزيز بن زُرارة على معاوية

وفد عبد العزيز[1] بن زُرارة على معاوية ، وهو سيد أهل الكوفة ، فلما أذِن له وقف بين يديه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين : لم أزَلْ أهُزُّ ذوائبَ[2] الرِّحال إليك ، إذ لم أجِد مُعَوَّلا إلا عليك ، أمتطِى الليل بعد النهار ، وأسِم[3] المَجاهِلَ بالآثار ، يقودنى إليك أمَل ، وتسوقنى بَلْوَى ، والمجتهد يُعْذَر ، وإذ بلغتُك فَقَطْنِى[4] » ، فقال معاوية : أحْطُطْ عن راحلتك رَحلَهَا .

وروى الجاحظ هذا القول بصورة أخرى ، فقال :

« ولما وصل عبد العزيز بن زُرارة إلى معاوية قال : « يا أمير المؤمنين ، لم أزل أستدِلُّ بالمعروف عليك ، وأمتطِى النهار إليك ، فإذا ألوى[5] بى الليل ، فَقَبَض البصرَ ، وعَفَّى الأثرَ ، أقام بدنى ، وسافر أملى ، والنفس تلُوم ، والاجتهاد يَعْــذِر ، وإذ بلغتك فَقَطْنى » .

وخرج عبد العزيز بن زرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصَّائفة[6] ، فهلك هناك ، فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك ، فقال معاوية لزرارة : أتانى اليوم نَعْىُ سيد شباب العرب ، قال زرارة : يا أمير المؤمنين هو ابنى أو ابنك ؟ قال : بل ابنك ، قال : للموت ما تَلِد الوالدة .

(العقد الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٣٧ ، والأمالى ١ : ٢٠١)

---

(١) فى صبح الأعشى « عبد العزى » وفى الأمالى : « قال رجل لعبد الملك بن مروان . . . الخ » .

(٢) جمع ذؤابة : وهى الجلدة المعلقة على آخرة الرحل ، وفى صبح الأعشى « ذوائب الرجاء » .

(٣) وسمه بسمة : علمه بعلامة . (٤) فحسبى . (٥) المراد جن على ، وأحدقت بى ظلمته ، يقال : ألوى به : ذهب به ، وألوت به العنقاء : طارت به ، وألوى بما فى الإناء : استأثر به .

(٦) الصائفة : غزوة الروم ، لأنهم كانوا يغزون صيفا لمكان البرد والثلج .

٣٦٥ — وفود زيد بن مُنْيَة على معاوية

قدم زيد بن مُنْيَة على معاوية من البصرة ، (وهو أخو يَعْلَى بن منية[١] صاحب جمل عائشة ، ومتولّى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة ، وكان عتبة بن أبى سفيان قد تزوج ابنة يعلى بن مُنْيَة) ، فلما دخل على معاوية شكا إليه ديناً لزمه ، فقال : يا كعبُ أعْطِه ثلاثين ألفاً ، فلما ولّى قال : وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى ، ثم قال له : الْحَق بِصِهْرِك ، (يعنى عتبة ، وكان يومئذ عامل مصر) فَقَدِم عليه مصر ، فقال :

« إنى سرت إليك شهرين أخُوضُ فيهما المَتَالِفَ ، ألبَس أرْدِيَةَ الليل مرةً ، وأخُوضُ فى لُجَج السَّراب[٢] أخرى ، مُوقَرًا[٣] من حُسْن الظن بك ، وهارباً مِنْ دهرٍ قَطِمٍ[٤] ، ودينٍ لَزِمٍ[٥] ، بعد غنى جَدَعْنا به أنوفَ الحاسدين ، فلم أجد إلا إليك مَهْرَبًا ، وعليك مُعَوّلا » ، فقال عتبة : « مرحبًا بك وأهلا ، إن الدهر أعاركم غِنى ، وخلَطكم بنا ، ثم استرد ما أمكنه أخذُه ، وقد أبقى لكم منا مالاضِيقَةَ[٦] معه ، وأنا واضع يدى ويدك بيد الله » ، فأعطاه ستين ألفا كما أعطاه معاوية .

(العقد الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧)

---

(١) فى صبح الأعشى والعقد «منبه» بالباء وهو تصحيف والصواب «منية» وهو اسم أمه ، واسم أبيه أمية ، والتصحيح من تاريخ الكامل لابن الأثير . وكان يعلى عاملا لعثمان رضى الله عنه على اليمن ، فلما ولى على رضى الله عنه الخلافة عزله ، وولى على اليمن عبيد الله بن عباس ، فانصرف يعلى إلى مكة ومعه مال كثير ، وانضم إلى السيدة عائشة رضى الله عنها فى قتال على فى وقعة الجمل . (٢) السراب : ماتراه نصف النهار كأنه ماء .

(٣) محملا من الوقر بالكسر : وهو الحمل الثقيل أو أعم ، وأوقر الدابة إيقارا .

(٤) يروى بالفاء والقاف ، فطمه وقطمه : قطعه ، وضبط فى صبح الأعشى بالقاف ، وبالطاء المكسورة وصف من قطم كفرح : اشتهى اللحم أو غيره . (٥) وفى صبح الأعشى : « ودين أزم » وأزم كضرب وفرح : عض بالفم كله شديدا . (٦) الضيقة : الفقر وسوء الحال ، ويفتح .

٣٦٦ — وفود ضرار بن حمزة الصدائى على معاوية

دخل ضِرار بن حمزة الصُّدَائِىّ[١] (وكان من خواصّ علىّ كرم اللهُ وجهه) على معاوية وافداً ، فقال له : يا ضِرار ، صف لى عليًّا ، قال : أَعْفِنِى يا أمير المؤمنين ، قال : لَتَصِفَنَّهُ ، قال : « أمّا إذْ لابُدَّ من وصفه ، فكان والله بعيدَ المَدَى[٢] ، شديد القُوَى ، يقول فَصْلا ، ويحكم عَدْلا ، يتفَجَّر العلم من جوانبه ، وتَنْطِق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وَزَهْرتها ، ويستأنس بالليل وَوَحْشَته ، وكان والله غزيرَ العَبْرَة ، طويل الفِكْرَة ، يُقَلِّبُ كَفَّه ، ويخاطب نفسه ، يُعْجِبه من اللباس ما قَصُر ، ومن الطعام ما خَشُن ، كان فينا كأَحدِنا ، يُجيبُنَا إذا سألناه ، وَيُنْبِئُنَا إذا استَنْبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا ، وَقُرْبِهِ منا ، لا نكاد نكلِّمه لهَيْبَته ، ولا نبتدئه لِعَظَمَته ، يُعَظِّم أهل الدين ، ويحبّ المساكين ؛ لايطمع القَوِىّ فى باطله ، ولا يَيْئس الضعيف من عدله. وأشهَد لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سُدُولَهُ[٣] ، وغارت نجومُه ، وقد مَثَل فى مِحْرابه قابضًا على لحيته ، يتململ تَمَلْمُلَ السَّلِيم[٤] ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غُرِّى غيرى ، أَلِى تعرَّضْتِ ، أمْ إلَىَّ تَشَوَّقْتِ ؟ هيهات هيهات ! قد باينتك ثلاثًا لارَجْعَة فيها ، فَعُمُرك قصير ، وخَطَرك[٥] حقير ، آهِ من قلة الزَّاد ، وَبُعْد السفر ، وَوَحشة الطريق ! » فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان كذلك ، فكيف حزنُك عليه ياضِرار ؟ قال : حزن من ذُبِح وَاحِدُها فى حجرها .

(الأمالى ٢ : ١٤٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٤٧ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٢٧٦ ، وزهر الآداب ١ : ٤٧)

---

(١) صداء كغراب : حى باليمن. (٢) الغاية . (٣) السدول : جمع سدل بالضم والكسر ، وهو الستر . (٤) السليم : الملدوغ ، وسمى بذلك تفاؤلا له بالسلامة ، كما تسمى البيداء مفازة : تفاؤلا بالفوز . (٥) الخطر : القدر .

الوافدات على معاوية

٣٦٧ – وفود سودة بنت عمارة على معاوية

وَفَدَت سَودة بنْتَ عِمَارة بن الأشْتَرَ الهَمْدانية ، على معاوية بن أبى سفيان ، فاستأذنت عليه فأذِن لها ، فلما دخلت عليه سلّمت ، فقال لها : كيف أنْتِ يابنة الأشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال لها : أنت القائلة لأخيك يوم صفين ؟ :

شَمِّرْ كَفِعل أبيك يا بْنَ عِمَارَةٍ ... يومَ الطِّعان وَمُلْتَقَى الأقْرَان

وَانصُر عَليًّا والحُسَيْنَ وَرَهْطَه ... واقْصِدْ لِهِنْدٍ وَابْنِهَا بِهَوَانِ

إنَّ الإمامَ أخو النبيِّ محمدٍ ... عَلَمِ الهدى ومَنَارَةِ الإيمان

فَقُدِ الجيُوشَ وَسِرْ أمامَ لِوَائِه ... قُدُمًا بأبيضَ صارمٍ وسِنَانِ [(١)]

قالت : إى والله ، ما مثلى من رَغِب عن الحق ، أو اعتذر بالكذب ، قال لها : فما حَمَلك على ذلك ؟ قالت : حُبُّ علىّ عليه السلام ، واتباع الحق ، قال : فوالله ما أرى عليك من أثر علىّ شيئًا ، قالت : أنشُدك الله يا أمير المؤمنين وإعادةَ ما مضى ، وتذْكارَ ما قد نُسى ، قال : هيهات ! ما مِثْلُ مَقام أخيك يُنْسَى ، وما لقيتُ من أحد ما لقيتُ من قومك وأخيك ، قالت : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، ما كان أخى خَفِيَّ المقَام ، ذليلَ المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وَإنَّ صَخرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ ... كَأنَّهُ عَلَمٌ فى رَأْسه نارُ [(٢)]

---

(١) القدم : الشجاع ؛ وفى بلاغات النساء : « فقه الحتوف وسر أمام لوائه » .

(٢) العلم : الجبل .

قال : صدقتِ ، لقد كان كذلك ، فقالت : مات الرَّأس وَبُتِرَ الذَّنَب ، وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائى مما استَعْفَيْتُ منه ، قال : قد فعلْتُ ، فقولى حاجتك ، قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سَيِّدا ، وَلأمورهم مُتَقَلِّدًا ، واللهُ سائلُك عن أمرنا وما افترض عليك من حَقِّنا ، ولا تزال تُقدم علينا من يَنْهض بعِزك ، وَيَبْسُط سلطانك ، فيحصُدُنا حَصاد السُّنْبُل ، ويدوسنا دِياسَ[1] البقر ، وَيَسُومُنا[2] الخسيسة ، وَيَسْلُبُنَا الجليلة ، هذا ابن أرطاة[3] قَدِمَ بلادى ، وقتل رجالى ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعةُ لـكان فينا عِزٌّ وَمَنَعَة ، فإمَّا عزلته عنا فشـكرناك ، وإمَّا لا فَعَرفناك ، فقال معاوية : إيَّاىَ تهدِّدين بقومك ؟ والله لقد هممت أن أحملك على قَتَبٍ[4] أشرس فأردّك إليه ، يُنفِذُ فيك حكمه ، فأطرقت تبكى ، ثم أنشأت تقول :

صَلَّى الإِلٰهُ عَلَى رُوحٍ تَضَمَّنَهُ ... قَبْرٌ فأَصْبَحَ فِيهِ الْعَدْلُ مَدْفُونا

قَدْ حَالَفَ الحقَّ لَا يَبْغِى بِهِ ثَمَنا ... فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : علىّ بن أبى طالب ، رحمه الله تعالى ، قال : وما صنع بك حتى صار عندك كذلك ؟ قالت : أتيته يوما فى رجل ولاّه صَدَقاتنا ، فـكان بيننا وبينه ما بين الْغَثِّ[5] والسَّمين ، فوجدته قائمًا يُصَلِّى ، فانفتل من الصلاة ، ثم قال برأفةٍ

---

(١) الدوس والدياس والدياسة : الوطء بالرجل . (٢) يكلفنا. (٣) هو بسر بن أرطاة ، وقيل ابن أبى أرطاة ، وكان معاوية فى أيام على سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة على ويأخذ البيعة له ، فسار إلى المدينة ، ففعل بها أفعالا شنيعة ، وسار إلى اليمن ؛ وكان عليها عبيد الله بن العباس من قبل على ، فهرب عبيد الله فنزلها بسر ، وذبح عبد الرحمن وقثم ابنى عبيد الله وهما صغيران بين يدى أمهما عائشة بنت عبد المدان ؛ فأصابها من ذلك حزن عظيم ؛ فأنشأت تقول :

يا من أحس بنيىّ اللذين هما ... كالدرتين تشظى عنهما الصدف

يا من أحس بنيىّ اللذين هما ... سمعى وقلبى ؛ فقلبى اليوم مختطف

يا من أحس بنيىّ اللذين هما ... مخ العظام ؛ فمخى اليوم مزدهف

(٤) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير ، والمراد به هنا البعير لوصفه بالأشرس ففيه مجاز ؛ أو الأشرس : الخشن الغليظ . (٥) الغث : المهزول .

وتعطف : ألكِ حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء ، فقال : اللهم إنك أنت الشاهد علىّ وعليهم ، إنى لم آمُرهم بظلم خَلْقك ، ولا تركِ حقّك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب ، فكتب فيها :

« بِسْمِ الله الرحمن الرحيم : قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ[١] ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْثَوْا[٢] فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ، إذا أتاك كتابى هذا فاحتفظْ بما فى يدك من عملنا،حتى يأتى من يَقْبِضُهُ منك والسلام » .

فأخذته منه والله ما خَزَمه بخِزَام ، ولا ختَمه بخِتام[٣] فقرأته ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : ألِيَ خاصَّةً ، أم لقومى عامَّةً ؟ قال : وما أنتِ وغيرَكِ ؟ قالت : هى والله إذَنْ الفحشاء واللؤم ، إن لم يكن عدلا شاملاً ، وإلاّ يَسَعْنى مايسعُ قومى ، قال:هيهات ! لَمَّظكم[٤] ابن أبى طالب الجرأةَ على السلطان فبطيئاً ما تفطَمُون ، وغرّكم قوله :

فلو كنتُ بوّاباً على باب جَنَّةٍ لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ ادْخُلُوا بِسَلَامِ

وقوله :

ناديْتُ همدانَ والأبوابُ مُغْلَقَةٌ ومثلُ هَمْدان سَنَّى فتحة البَاب[٥]
كَالْهِنْدُوَانِىّ لَمْ تُفْلَلْ مَضَارِبُهُ وَجْهٌ جميلٌ وَقَلْبٌ غيرُ وَجَّاب[٦]

اكتبوا لها ولقومها . (العقد الفريد ١ : ١٢٩ ، وبلاغات النساء ص ٣٥)

---

(١) القسط : العدل . (٢) عثا يعثو عثوا : أفسد . (٣) الخزام جمع خزامة بالكسر ، وهى فى الأصل : حلقة تجعل فى أحد جانبى منخرى البعير ، وحزامة النعل : سير رقيق يخزم بين الشراكين. الختام : الطين يختم به على الشىء ، (والخاتم : مايوضع على الطينة) . (٤) التلمظ : التذوق ، وأن يحرك الإنسان لسانه فى فمه بعد الأكل ، يتتبع به بقية من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيمسح به شفتيه ، واسم مابقى فى الفم اللماظة بالضم ، ويقال : لمظ فلانا (بالتشديد) لماظة: أى شيئا يتلمظه ، ولمظه من حقه شيئا : أعطاه (والعامة تبدل الظاء ضادا) . (٥) سناه تسنية:سهله وفتحه . (٦) سيف هندوانى بكسر الهاء ، ويجوز ضمها إتباعا للدال منسرب إلى الهند ، ووجاب من وجب القلب وجيبا إذا خفق .

٣٦٨ – وفود أم سنان بنت خيثمة على معاوية

حبس مروان بن الحكم ، وهو والى المدينة ، فى خلافة معاوية ، غلاما من بنى ليث فى جناية جناها ، فأتته جدة الغلام ، وهى أم سنان بنت خَيْثَمَة[1] المذحجيَّة ، فكلمته فى الغلام فأغلظ لها مروان ، فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانتسبت فعرفها ، فقال لها : مَرْحَبًا بك يابنة خَيثمة ، ما أقدمكِ أرضنا ، وقد عَهِدْتك تَشْتُمِيننا[2] وتُحَضِّين علينا عدوَّنا ؟ قالت : إن لبنى عبد مناف أخلاقا طاهرة ، وأعلاما ظاهرة ، وأحلاما وافرة ، لايجهلون بعد علم ، ولا يَسفَهُون بعد حِلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى النَّاس باتباع ماسَنَّ آباؤه لأنت ، قال : صدقتِ ، نحن كذلك ، فكيف قولك ؟

عَزَبَ الرُّقادُ ، فَمُقْلَتِى لَا تَرْقُدُ ... وَاللَّيْلُ يُصْدِرُ بالهموم ويُورِدُ[3]

يا آلَ مَذْحِجَ ، لا مُقَامَ ، فَشَمِّرُوا ... إنَّ العدوَّ لآل أحمدَ يَقْصِد

هذا علىٌّ كالهلال تحفُّه ... وَسَطَ السَّماء من الكواكب أسْعُدُ[4]

خيرُ الخلائق وابنُ عَمِّ محمد ... إنْ يَهْدِكم بالنور منه تهتدوا

مازالَ مُذْ شَهِدَ الحروبَ مُظَفَّرا ... وَالنَّصْرُ فوق لوائه ما يُفْقَدُ

قالت : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خَلَفًا بعده ، فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهى القائلة :

إمَّا هلكْتَ أبا الحسين فلم تَزَلْ ... بالحق تُعْرَف هاديا مَهْدِيًّا

فاذهب ، عليك صلاةُ رَبك مادعَتْ ... فوقَ الغصون حَمَامَةٌ قُمْرِيًّا[5]

---

(١) فى صبح الأعشى « جشمية » ، وهو تحريف : وتحريره : ماذكرنا . (٢) وفى بلاغات النساء : « تشنئين قربى » أى تبغضين . (٣) عزب : بعد . (٤) سعود النجوم عشرة : سعد بلع (بضم ففتح) وسعد الأخبية ، وسعد الذابح ، وسعد السعود ، وهذه الأربعة من منازل القمر ، وسعد ناشرة ، وسعد الملك ، وسعد البهام ككتاب ، وسعد الهمام كشجاع ، وسعد البارع ، وسعد مطر . وهذه الستة ليست من المنازل . (٥) ضرب من الحمام والجمع قمارى .

قد كنتَ بعد محمد خَلَفًا كما أوصى إليك بنا ، فكنت وَفيًّا
واليوم لاَ خَلَفٌ يؤَمَّل بَعْدَهُ هيهات نَأْمُلُ بعده إنسِيًّا

قالت : يا أمير المؤمنين لسانٌ نَطَق ، وقول صدق ، ولئن تحقّق فيك ما ظَنَنَّاه ، لحظّك الأوفر ، وَٱللهِ ما أورثك الشَّنَآنَ[1] فى قلوب المسلمين إلاّ هؤلاء ، فأدحِضْ مقالتهم ، وأبْعِدْ منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدَدْ من الله قُرْبا ، ومن المؤمنين حُبًّا ، قال : و إنك لتقولين ذلك ؟ قالت : يَاسبحان الله ، والله مامِثْلك مَنْ مُدِحَ بباطل ، ولا اعتُذِر إليه بكَذب ، و إنك لتعلم ذلك من رَأْينا ، وضمير قلوبنا ، كان والله علىٌّ أحبَّ إلينا منك ، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك قَال : مِمَّن ؟ قَالت : من مَرْوَان ابن الحكم وسعيد بن العاص . قال : و بمَ استحققتُ ذلكِ عندكِ ؟ قَالت بسَعَةِ حلمك ، وكريم عفوك ، قال : و إنهما يَطْمَعَان فى ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأى على مثل ما كنتَ عليه لعثمان بن عفان رحمه الله تعالى[2] . قال : والله لقد قاربتِ ، فما حاجتك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين إن مروان تَبَنَّكَ[3] بالمدينة تَبَنُّكَ من لا يريد منها البَرَاحَ ، لا يحكم بعدل . ولا يقضِى بسُنَّة ، يتتبع عَثَرَاتِ المسلمين ، و يكشِف عَوْرَاتِ المؤمنين ، حبس ابن ابنى ، فأتيته ، فقال : كَيْتَ وَكَيْت ، فألقمتُه أخشنَ من الحجر ، وألعقته أمرَّ من الصَّبِر ، ثم رجعتُ إلى نفسى باللَّائمة ، وقلت : لم لا أصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه ، فأتيتك يا أمير المؤمنين لتكون فى أمرى ناظراً ، وعليه مُعْدِياً[4] ، قال : صدقتِ ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحُجَّته ، اكتبوا لها بإطلاقه . قالت : يا أمير المؤمنين ، وأنَّى لى بالرَّجعة ، وقد نفِد زادى ، وكلت راحلتى ، فأمر لها براحلة موَطَّأة ، وخمسة آلاف درهم .

(العقد الفريد ١ : ١٣١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧)

---

(١) البغض . (٢) تريد أنهما يأملان الخلافة بعدك كما كنت تأملها بعد عثمان . (٣) تبنك به : أقام . (٤) أعداه عليه : نصره ، وأعانه ، وقواه .

٣٦٩ — وفود بكارة الهلالية على معاويه

استأذنت بَكارة الهلالية على معاوية بن أبى سفيان ، فأذِن لها وهو يومئذ بالمدينة ، فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسنَّت ، وعَشِى[1] بصرها ، وضَعُفت قوتها ، ترْعَش بين خادمين لها ، فسلمت وجلست فردّ عليها معاوية السلام ، وقال : كيف أنت يا خالة ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : غيَّرَكِ الدَّهرُ ، قالت : كذلك هو ذو غِيَر[2] ، من عاش كبِر ، ومن مات قُبِر ، قال عمرو بن العاص : هى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يا زيدُ دونك فاحتفر من دارنا ... سيفًا حُسامًا فى التراب دفينا

قد كنتُ أذْخَرُه ليوم كريهةٍ ... فاليوم أبْرَزَه الزمانُ مَصُونا

قال مروان : وهى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابنَ هندٍ للخلافة مالـكا ! ... هيهات ، ذاك — وإن أراد — بَعيدُ

مَنَّتْك نفسك فى الخلاء ضَلالة ... أغراك عمرو للشقـا وسَعِيدُ

قال سعيد بن العاص هى والله القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى ... فوق المنابرِ من أُمَيَّةَ خاطبا

فالله أخَّر مُـدَّتى فتطاولت ... حتى رأيت من الزمان عجائبا

فى كلِّ يوم للزمانِ خَطيبُهم ... بين الجميع لآل أحمدَ عائبا

ثم سكت القوم ، فقالت بكارة : نبحتنى كلابك يا أمير المؤمنين واعتوَرتنى ، فقصُر مِحْجَنِى[3] ، وكثُرَ عَجَبِى ، وَعَشِىَ بَصَرِى ، وَأنا وَاللهِ قائلةٌ ما قالوا ، لا أدفعُ ذلك بتكذيب ، وما خَفِى عليك منى أكثر ، فامضِ لشأنك ، فلا خيرَ فى العيش بعد

---

(١) ضعف . (٢) ذو أحداث . (٣) تناوبتنى وتداولتنى ، والمحجن : العصا المعطوفة الرأس .

أمير المؤمنين ، فضحك معاوية وقال : ليس يمنعنا ذلك من برِّك ، اذكرى حاجتك ، قالت : أما الآن فلا .

وقيل : إنه قد قضى حوائجها وردها إلى بلدها .

(العقد الفريد ١ : ١٣٠/ ، وبلاغات النساء ص٣٩)

٣٧٠ — وفود أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية

دخلت أَرْوَى بنت الحرث بن عبد المطلب على معاوية وهى عجوز كبير ، فلما رآها معاوية قال : مرحباً بك وأهلا يا عمَّة ، فكيف كنتِ بعدنا ؟ فقالت : « يابن أخى ، لقد كفرتَ يَدَ النعمة ، وأسأت لابن عمك الصُّحْبة ، وتسميتَ بغير اسمك ، وأخذت غير حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آبائك ، ولا سابقة فى الإسلام ، ولقد كفرتم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأتعسَ الله منكم الجُدود[١] ، وأضرع[٢] منكم الخُدود ، وردَّ الحق إلى أهله ، ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هى العليا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور ، فوليتم علينا من بعده — وتحتجُّون بقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقرب إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر — فكنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل فى آل فرعون ، وكان علىّ بن أبى طالب رحمه الله بعد نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنزلة هرون من موسى[٣] ، فغايَتُنا الجَنَّة ، وغايتكم النار » .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيتُها العجوز الضالة ، وأَقْصِرِى من قولك ، وَغُضِّى

---

(١) جمع جد : وهو الحظ . (٢) أذل ، وفى بلاغات النساء « وأصعر » . (٣) ورواية بلاغات النساء : « فكنا أهل البيت أعظم الناس فى الدين حظا ، ونصيبا وقدرا ، حتى قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، مغفورا ذنبه ، مرفوعا درجته ، شريفا عند الله مرضيا ، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون ، يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هرون من موسى حيث يقول : « يَابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى ، وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى » ولم يجمع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمل ، ولم يسهل لنا وعر » .

من طَرْفك، قالت : ومَن أنت ، لا أمّ لك ؟ قال: عمرو بن العاص، قالت: يابن اللَّخْناء[١] النابغة تتكلم ، وأمُّك كانت أشهر امرأة تغنّى بمكة ، وآخَذَهن لأجرة ! ارْبَع على ظَلْعك ، واعْنَ بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش فى اللُّباب من حَسَبها ، ولا كريم مَنْصِبها ، ولقد ادعاك خمسة[٢] نفر من قريش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم ، فقالت : كلهم أتانى ، فانظروا أشبَهَهم به ، فألحِقوه به ، فغَلَبَ عليك شَبَه العاص ابن وائل ، فلحِقْتَ به ، ولقد رأيت أمك أيام مِنًى بمكة مع كل عَبْد عاهر[٣] ، فأْتَمَّ بهم فإنك بهم أشْبَهُ .

فقال مروان : كُفّى أيتها العجوز ، وأقصرى لما جئت له ، ساخ بصرك مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهادتك ، فقالت : وأنت أيضاً يابن الزرقاء تتكلم ؟ فوالله لأنت إلى سُفْيان بن الحارث بن كَلَدة أشبهُ منك بالحَكَم ، وإنك لَشِبْهُه فى زُرْقَة عينيك ، وحُمْرة شعرك ، مع قِصَر قامته ، وظاهر دَمَامته[٤] ، ولقد رأيت الحَكَم مادّ[٥] القامَة ، ظاهر الإمّة[٦] ، سَبْط[٧] الشعر ، وما بينكما قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتان المُقْرِب[٨] ، فاسألْ أمك تخبرك بشأن أبيك إن صدقَتْ ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت: والله ما جَرّأ علىّ هؤلاء غيرُك ، وإن أمك لَلقائلةُ يوم أُحُد فى قتل حمزة رحمة الله عليه :

نحن جَزَيْناكم بيَوْمِ بَدْرِ والحربُ بعد الحرب ذاتُ سُعْرِ[٩]
ما كان عن عُتْبَةَ لى مِن صَبْرِ أبى وَعَمّى وَأخى وَصِهْرِى[١٠]

(١) رجل ألخن وأمة الخناء : لم يختتنا ، ولخن السقاء ، وغيره كفرح : أنتن ، والجوزة فسدت ، ومن شتم العرب « يابن اللخناء » كأنهم يقولون يادنىّ الأصل ، أو يالئيم الأم ، والنابغة أم عمرو ، وقد تقدمت — انظر ص ٢٥ . (٢) وفى بلاغات النساء « ستة » . (٣) فاجر . (٤) الدمامة : القبح.
(٥) ممتدها. (٦) الإمة بالكسر ويضم : الشأن والنعمة والهيئة . (٧) طويلة. (٨) الأتان : الحمارة ، والمقرب التى قرب ولادها فيكون بطنها كبيرا . (٩) السعر بالفتح مصدر سعر الحرب : أى أوقدها ، وبالضم : الجنون . (١٠) قتلوا أربعتهم يوم بدر : أبوها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس — قيل اشترك فى قتله على ، وحمزة ، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب — وعمها شيبة بن ربيعة — قتله حمزة — وأخوها الوليد بن عتبة — قتله على — وابن زوجها حنظلة بن أبى سفيان — وليست هند أمه ، قيل اشترك فى قتله حمزة ، وعلى ، وزيد بن حارثة — .

شَفَيْتَ (وَحْشِيٌّ) غَليلَ صدرى شَفَيْتَ نفسى وقضيْتَ نَذْرِى[1]

فَشُكْرُ وَحْشِىٍّ عَلَىَّ دَهْرِى حتى تَرِمَّ أعْظُمِى فى قبرى[2]

فأجبتها :

يابنت جبَّارٍ عظيمِ الـكفرِ خَزِيتِ فى بَدْرٍ وغير بدرِ

صَبَّحَكِ الله قُبَيْلَ الْفَجْر بالهاشميِّين الطِّوَالِ الزُّهْر[3]

بكل قَطّاعٍ حُسـامٍ يَفْرِى حمـزةُ لَيْثى ، وَعَلِىٌّ صَقْرِى

فقال معاوية لمروانَ وعمرو : وَيلـكما ! أنتما عَرَّضْتُمانى لها ، وأسمعْتُمانى ما أكره ، ثم قال لها : يا عمَّةُ اقصِدى قَصْدَ حاجتك ، ودعى عنكِ أساطيرَ النساء ، قالت : تأمر لى بألفَى دينار ، وألفَى دينار ، وألفى دينار ، قال : ما تصنعين يا عمَّةُ بألفى دينار ؟ قالت : أشترى بهاَ عينًا خَرْخارَة[4] فى أرضٍ خَوَّارة[5] ، تـكون لولد الحارث بن عبد المطلب ، قال : نِعْم الموضعُ وَضعتِهاَ ، فما تصنعين بألفى دينار ؟ قالت : أُزَوِّجُ بهـا فتيان عبد المطلب من أكفائهم ، قَال : نعم الموضع وضعتِها ، فما تصنعين بألفى دينار ؟ قالت : أستعين بها على عُسْر المدينـة ، وزيارة بيت الله الحرام ، قال : نعم الموضع وضعتِها ، هى لكِ نَعَمْ وكرامة[6] ، ثم قال : أما والله لو كان عَلِىٌّ ما أمر لكِ بها ، قَالت : صدقت ، إن عليًا أدّى الأمَانة ، وعمِلَ بأمر الله ، وأخذ به ، وأنت ضيعت أمَانتك ، وخُنت الله فى ماله ، فأعطيْتَ مالَ الله من لا يستحقه ، وقد فرض الله فى كتَابه الحقوقَ لأهلها وبينَّها ، فلم تأخذ بها ، ودعَانا (أى علىّ) إلى أخذ حقنا ، الذى فَرَضَ

---

(١) وحشى : غلام جبير بن مطعم قاتل حمزة يوم أحد . (٢) رم العظم كضرب وأرم : بلى فهو رميم .

(٣) الزهر : الحسان البيض الوجوه . (٤) الخرخار : الماء الجارى ، أى عين ماء جارية .

(٥) المراد أرض سهلة تصلح للزراعة ، من قولهم : خوار العنان ، أى سهل المعطف ، كثير الجرى .

(٦) يقال : نعم عين ونعمة ونعام ونعيم بفتحهن ، ونعمى ونعامى ونعام ونعم ونعمة بضمهن ، ونعمة ونعام بكسرهما : أى أفعل ذلك إنعاما لعينك وإكراما .

الله لنا َفشُغِل بحر بك عن وضع الأمور مواضعها ، وما سألتك من مالك شيئًا فتمُنَّ به إنما سألتك من حقنا ، ولا نرى أخذَ شيء غير حقنا ، أتذكر عليًّا ؟ فضَّ الله فاك[1] وأجهد بلاءك ، ثم علا بكاؤها وجعلت تندُب عليًّا ، فأمر لها بستة آلاف دينار ، وقال لها : ياأمة : أنفقى هذه فيما تحبّين ، فإذا احتجتِ فاكتُبى إلى ابن أخيك يُحْسِن صَفَدك[2] ومعونتك ، إن شاء الله . (العقد الفريد ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء ص ٣٢)

٣٧١ — أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أم البَراء بنت صَفْوان على معاوية فأذِن لها ، فدخلت عليه وعليها ثلاثة دروعٍ[3] (بُرُودٍ) تسحَبُها ذراعا ، قد لاثَت[4] على رأسها كَوْرًا كالمِنْسَف ، فسلّمت وجلست ، فقال لها معاوية : كيف أنتِ يابنــة صَفوان ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : كيف حالك ؟ قالت ضَعُفت بعد جَلَد ، وَكَسِلْتُ بعد نشاط ، قال : شتّان بينكِ اليوم وحين تقولين :

يا زيدُ دونَكَ صارمًا ذا رَوْنَقٍ عَضْبَ المَهَزَّةِ ليس بالخَوّارِ[5]

أَسْرِجْ جَوادك مُسْرِعًا وَمُشَمِّرًا للحرب غيرَ مُعَرِّدٍ لِفرَارِ[6]

أَجِب الإمامَ وَذُبَّ تحت لِوائِه وَالْقَ العَدُوَّ بِصَارِمٍ بَتَّارِ

يا ليتنى أصبحتُ لست قعيدةً فأَذُبَّ عنه عساكِرَ الفُجّارِ

قالت : قد كان ذلك ، ومثلك من عفا ، والله تعالى يقول : « عَفَا اللهُ عمّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنهُ » قال : هيهات ، أما والله لو عاد لعُدْتِ ، ولكنه

---

(١) تدعو عليه: أى نثر الله أسنانك . (٢) الصفد : العطاء . (٣) درع المرأة: قيصها (مذكر) ودرع الحديد مؤنث وقد يذكر . (٤) اللوث: عصب العمامة ، والكور: لوث العمامة وإدارتها ، والمنسف : مايتفض به الحب ، شيء طويل منصوب الصدر أعلاه مرتفع . (٥) العضب : السيف القاطع ، والخوار من خار : إذا ضعف وكل . (٦) عرد تعريدا ، وعرد كسمع: هرب .

اخْتُرِمَ[1] منك ، قالت : أجل ، واللهِ إنى لعلى بيِّنة مَن ربى ، وَهُدًى من أمرى ، قال : كيف كان قولك حين قتل ؟ قالت : أُنْسِيتُهُ ، قال بعض جلسائِه : هو والله حين تقول :

يا لَلرِّجال لِعُظْم هَوْل مصيبة فَدَحت ، فليس مُصَابُهَا بالحائل[2]
الشمس كاسفةٌ لفقْدِ إمامنا خير الخلائق والإمام العادل
يا خيرَ مَنْ رَكِبَ المَطِيَّ وَمَنْ مَشَى فوق التراب لمحْتَفٍ أو ناعِلِ
حاشا النبيَّ لقد هَدَدْتَ قُوَاءنا فالحق أصبح خاضعاً للباطل[3]

فقال معاوية : قاتلكِ الله ! فما تركْتِ مقالا لقائل ، اذكرى حاجتك ، قالت : أما الآن فلا ، وقامت فعَثَرت ، فقالت : تَعِسَ شانِئُ علىّ[4] ، فقال : زَعَمْتِ أنْ لا ، قالت هو كما علمت ، فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة ، وقال : إذا ضيعْتُ الحلم فمن يحفظه ؟ (صبح الأعشى ١ : ٢٦١ بلاغات النساء ص ٧٨)

٣٧٢ — دارمية الحجونية ومعاوية

وحَجَّ معاوية سَنَةً من سِنِيه ، فسأل عن امرأة من بنى كِنانة كانت تنزل بالحجون[5] ، يقال لها دَارِمِيَّة الحَجُونِيّة ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأُخبر بسلامتها ، فبعث إليها فجىء بها ، فقال : ما حالُكِ يا ابْنَةَ حام ؟ فقالت : لستُ لِحَامٍ إنْ عِبْتَنى ، إنما أنا امرأة من بنى كنانة ، ثمتَ من بنى أبيك ، قال : صدقْتِ ، أتدرين لِمَ بعثتُ إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيبَ إلا اللهُ ، قال : بعثت إليكِ لأسألك : عَلَامَ أحببْتِ عليًّا وأبغضْتِنى ، وواليْتِه وعاديْتِنى ؟ قالت : أوَ تُعفينى يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا أُعْفيك ،

---

(١) هلك . (٢) المتحول : المتغير . (٣) جمع القوة قوى ، وإنما قالت قواء بالمد للضرورة.
(٤) أى مبغضه . (٥) الحجون : جبل بمعلاة مكة .

قالت : «أما إذ أبيت فإنى أحببْتُ عليًا على عدله فى الرَّعية ، وَقَسْمه بالسَّوِيّة ، وأبغضتك على قتال مَن هو أولى منك بالأمر ، وطِلْبتك[1] ماليس لك بحق ؛ وواليتُ عليا على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوِلَاء[2] ، وعلى حُبِّه المساكينَ ، وإعظامِه لأهل الدين ؛ وعاديتك على سفكك الدماء ، وشقِّك العصا ، وجَوْرِك فى القضاء ، وحكمك بالهوى» .

قال : فلذلك انتفخ بطنُك ، وعظُم ثدياك ، وَرَبَتْ عجيزتك ، قالت: يا هذا بهند[3] والله كان يُضرَب المثل فى ذلك لا بِى ، قال معاوية : يا هذه اربَعِى[4] ، فإنا لم نقل إلا خيراً ، إنه إذا انتفخ بطنُ المرأة تَمَّ خَلْق ولدها ، وإذا عظُم ثدياها تَرَوَّى[5] رضيعها وإذا عظُمت عجيزتها رَزُن مجلسها ، فرجعت وسكنَتْ ، فقال لها:يا هذه هل رأيت عليًّا ؟ قالت : إى والله لقد رأيته ، قال : فكيف رأيته ؟ قالت : رأيته والله لم يفتنْه الملكُ الذى فتنك ، ولم تَشْغَله النعمة التى شغَلتك ، قال : فهل سمعتِ كلامه ؟ قالت : نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى ، كما يجلو الزيتُ الطَّست من الصدأ ، قال . صدقت ، فهل لك من حاجة ؟ قالت . أوَ تفعل إذا سألتك ؟ قال . نعم ، قالت . تعطينى مائة ناقة حمراء فيها فحلُها وراعيها ، قال : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذو بألبانها الصِّغار ، وأستحيى بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأُصلح بها بين العشائر ، قال : فإن أعطيتك ذلك ، فهل أحُلَّ عندكِ محلَّ علىّ بن أبى طالب ؟ قالت : ماء ولا كَصَدَّاء[6] ،

---

(١) الطلبة : الطلب . (٢) تشير إلى قوله : «اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه» .

(٣) هى أمه هند بنت عتبة . (٤) ربع : وقف وانتظر وتحبس . (٥) ارتوى .

(٦) صداء : عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها . ويروى عن ابنة هانئ بن قبيصة : أنه لما قتل لقيط بن زرارة (من دارم) تزوجها رجل من أهلها ، فكان لا يزال يراها تذكر لقيطا ، فقال لها ذات مرة : مااستحسنت من لقيط ؟ قالت : كل أموره حسن ، ولكنى أحدثك أنه خرج إلى الصيد مرة وقد ابتنى بى ، فرجع إلى ، وبقميصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من أعطافه ، ورائحة الشراب من فيه ، فضمنى ضمة ، وشمنى شمة ، فليتنى مت ثمة ، ففعل زوجها مثل ذلك ثم ضمها ، وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ قالت : ماء ولا كصداء .

وَمَرْعى ولا كالسَّعْدَان[1] ، وفتى ولا كمالك[2] ، سبحان الله أو دونه ، فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعُدْ بالحلم منى عليكمُ   فمن ذا الذى بعدى يُؤَمَّلُ للحِلْمِ
خُذِيها هنيئاً، واذكرى فِعلَ ماجدٍ   جزاكِ على حرب العداوة بالسِّلْمِ

ثم قال : أما والله لو كان علىٌّ حيًّا ما أعطاك منها شيئاً ، قالت : لا والله ولا وَبَرَة واحدة من مال المسلمين .

(العقد الفريد ١ : ١٣٢ وصبح الأعشى ١ : ٢٥٩ وبلاغات النساء ص ٦٧)

٣٧٣ — شداد بن أوس ومعاوية

وأمر معاوية شدَّاد بن أوس الطائِىَ أن يتنقّص عليًّا ، فقام فقال :

« الحمد لله الذى افترض طاعته على عباده ، وجعل رضاه عند أهل التقوى آثَرَ مِنْ رِضا خَلْقِه ، على ذلك مضى أولهم ، وعليه يمضى آخرهم ، أيها الناس : إن الآخرة وعدُ صادقٍ ، يَحْكم فيها مَلِكٌ قادر ، وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر ، يأكل منها البَرُّ والفاجر ، وإن السامع المطيع لله لاحُجَّة عليه ، وإن السامع العاصِىَ لله لاحجة له . وإن الله إذا أراد بالعباد صلاحاً عَمِل عليهم صُلَحاؤهم ، وقضى بينهم فقهاؤهم ، وَمَلَكَ المال سُمَحاؤهم ، وإذا أراد بهم شرًّا ، عَمِل عليهم سُفَهاؤهم ، وقضى فيهم جهلاؤهم ،

---

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أفضل مراعى الإبل ، ولا تحسن على نبت حسنها عليه ، وأول من قال ذلك الخنساء بنت عمرو بن الشريد ، وذلك أنها أقبلت من الموسم ؛ فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن ربيعة ؛ ففرجت عنها وهى تنشدهم مراثى فى أهل بيتها ؛ فلما دنت منها قالت : على من تبكين ؟ قالت : أبكى سادة مضوا ؛ قالت : فأنشدينى بعض ماقلت ؛ فأنشدتها ، فقالت الخنساء : مرعى ولا كالسعدان ثم أنشدتها مارثت به أخاها صخرا. وقيل إن المثل لامرأة من طيىء كان تزوجها امرؤ القيس بن حجر الكندى وكان مفركا (بفتح الراء تبغضه النساء) فقال لها : أين أنا من زوجك الأول ؟ فقالت : مرعى ولا كالسعدان.

(٢) قاله متمم بن نويرة فى أخيه مالك لما قتل فى الردة . والأمثال الثلاثة تضرب للشىء يفضل على أقرانه

وملاك المالَ مُخلاؤهم ، وإن من صلاح الوُلاة أن يصلُح قُرَناؤها،وَنصح لك يا معاوية مَنْ أسخطك بالحق ، وغشَّكَ مَنْ أرضاك بالباطل » .

قال : اجلس رحمك الله قد أمرنا لك بمال ، قال : « إن كان من مالك الذى تعهّدْت جَمْعَه مَخافَةَ تبِعَته ، فأصَبْتَه حلالا ، وَأنفقْتَه إفضالا ، فَنعَمْ ، وإن كان مما شاركك فيه المسلمون ، فاحْتَجَنْتَه[1] دونهم ، فأصَبْتَه اقترافا ، وأنفقتَه إسرافا ، فإن الله يقول فى كتابه : « إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

* * *

وروى أن معاوية قال له : « ياشداد ، أنا أفضَلُ ، أم علىّ ؟ وأيُّنا أحَبُّ إليك ؟ » ، فقال : « علىٌّ أقْدَمُ هِجْرَةً ، وأكْثَرُ مع رسول الله إلى الخير سابقَةً ، وأشجع منك قلبا، وأسلم منك نفسا ، وأما الحب ، فقد مضى عَلِىٌّ ، فأنت اليومَ عند الناس أرْجَى منه » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢١١)

٣٧٤ — معاوية ورجل من أهل سبأ

وقال معاوية لرجل من أهل سبأ : « ما كان أجهلَ قومك ، حين ملّكوا عليهم امرأة » ، فقال : « بل قومك أجهل ، قالوا حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحق ، وأراهم البينات: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » ، ألا قالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدِنا له ! » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

---

(١) احتجن المال : ضمه واحتواه .

٢٧٥ — حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان

سأل معاوية بعد الاستقامة[١] عبد الله بن عبد الحَجْر بن عبد المَدَان فقال له :

كيف علمك بقومك ؟ قال : كعلمى بنفسى ، قال : ما تقول فى مُرَاد ؟ قال : مُدْرِكُو الأوتار ، وحُمَاةُ الذِّمار ، وَمُحْرِزُو الخِطَار[٢] ، قال : فما تقول فى النَّخَع ؟ قال : مَانِعُو السَّرْب[٣] ، وَمُسْعِرُو الحرب ، وكاشِفُو الكَرب ، قال : وما تقول فى بنى الحَرْث ؟ ابن كَعْب ؟ قال : فَرَّاجُو اللِّكاك ، وفُرْسان العِرَاك ، وَلِزَازُ الضِّكاك ، تَرَاكِ تَرَاكِ[٤] ، قال : فما تقول فى سَعْد العشيرة ؟ قال : مانِعُو الضَّيْم ، وَبَانُو الرَّيْم ، وشافُو الغَيْم[٥] قال : ماتقول فى جُعْفِىٍّ ؟ قال : فُرْسان الصَّباح[٦] ، وَمُغْلُو الرِّماح ، وَمُبَارِزُو الرِّياح ، قال : ما تقول فى بنى زُبيد قال : كُمَاةٌ أنجاد[٧] ، سادات أمجاد ، وُقُرٌ عند الذِّياد[٨] صُبُرٌ عند الطِّراد ، قال : ماتقول فى جَنْب ؟ قال : كُفَاة يمنعون عن الحريم ، وَيَفرِجون عن الكَظِيم[٩] ، قال : فما تقول فى صُدَاء ؟ قال : سِمَامُ الأعداء ،

---

(١) أى بعد استقامة الأمر له : عام الجماعة . (٢) جمع وتر : وهو الثأر ؛ والذمار : مايلزمك حفظه وحمايته ؛ والخطار : جمع خطر بالتحريك ، وهو السبق يتراهن عليه . (٣) السرب : مارعى من المال . (٤) اللكاك : الزحام ؛ ومثلها الضكاك ؛ ولزه كرده : شده وألصقه واللزاز ككتاب : خشبة يلز بها الباب ؛ وفلان لزاز المظالم : أى يلز بها ويقرن ليذلها ومنه قول لبيد :

إنا إذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جشامها

وتراك : اسم فعل بمعنى اترك ، والأمر هنا للتعظيم ، أى دع هؤلاء ولا تتحدث بشأنهم ، فإنهم فى أسمى مكان . (٥) الريم : الدرجة والفضل والزيادة ، والغيم : العطش . (٦) الغارة .

(٧) ضبط فى الأمالى بفتح الزاى ، وهو خطأ ، زبيد كزبير : بطن من مذحج ، رهط عمرو بن معديكرب وكأمير : بلد باليمن ، وكماة جمع كمى : وهو الشجاع أو لابس السلاح ، والأنجاد جمع نجد ككتف ورجل : الشجاع الماضى فيما يعجز غيره . (٨) وقر جمع وقور ، وصبر جمع صبور ، والذياد والذود : الدفع .

(٩) الكظيم والمكظوم : المكروب .

وَمَسَاعِيرُ الْهَيْجَاء[1] ، قال : فما تقول فى رَهْطٍ ؟ قال : يُنَهْنِهُونَ[2] عادية الفوارس ، وَيَرِدُونَ الموتَ وِرْدَ الْخَوَامِسِ[3] قال : أنت أعلم بقومك .

(الأمالى ١ : ١٦٠)

٣٧٦ — حديث الخيار بن أوفى النهدى مع معاوية

دخل الخيار بن أَوْفَى النَّهْدِىّ على معاوية ، فقال له : يا خيار كيف تجدك ، وما صنعَ بك الدهر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، صدَعَ الدهر قَنَاتِى ، وَأَثْكَلنى لِدَاتِى[4] وأوهى عِمَادى ، وَشَيَّبَ سَوَادِى ، وأسرع فى تِلَادِى[5] ، ولقد عِشْتُ زمناً أُصْبِى الْكِعَابَ[6] ، وَأَسُرّ الأصحاب ، وَأُجِيدُ الضِّرابَ[7] ، فبان ذلك عَنِّى ، ودنا الموت منى ، وأنشأ يقول :

غَبَرْتُ زَماناً يَرْهَبُ الْقِرْنُ جانبى ... كأنى شَتِيمٌ باسلُ القلب خادِرُ[8]

يَخَافُ عَدُوِّى صَوْلَتِى وَيهابُنِى ... وَيُكْرِمُنِى قِرْنِى وجارى الْمجاوِرُ

وَتُصْبِى الْكِعَابَ لِمَّتِى وَشَمَائِلى ... كَأَنِّىَ غُصْنٌ ناعم النبْتِ ناضِرُ[9]

فَبَانَ شبــابى واعترتنِىَ رَثْيَةٌ ... كأنى قناةٌ أَطَّرَتْها المَآطِرُ[10]

أَدِبُّ إذا رُمْتُ الْقِيَامَ كأننى ... لدى المَشْىِ قَرْمٌ قَيْدُه مُتَقاصِرُ[11]

وَقَصْرُ الفتى شَيْبٌ وموت كلاهما ... له سائق يسعى بذاك وناظِرُ

وكَيْفَ يَلَذُّ الْعَيْشُ مَن ليس زائِلا ... رَهِينَ أمور ليس فيها مَصَادِرُ

---

(١) الهيجاء : الحرب ، وهو مسعر حرب (كمدرهم) أى موقد نارها . (٢) يكفون .

(٣) الخمس بالكسر : أن ترعى الإبل ثلاثة أيام ، وترد الرابع ، وهى إبل خوامس .

(٤) اللدة : من ولد معك . (٥) التلاد : المال القديم .

(٦) كعب ثدى الجارية : نهد ، وهى كاعب وكعاب . (٧) ضرب الفحل ضرابا : نكح .

(٨) القرن : كفؤك فى الشجاعة أو عام . والشتيم : الأسد العابس ، والخـدر : أجمة الأسد . ومنه أسد خادر . (٩) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن . (١٠) الرثية : وجع المفاصل واليدين والرجلين . والأطر والتأطير: عطف الشيء ، وتأطر الرمح : تثنى واعوج . (١١) القرم : الفحل .

فقال معاوية : أحسنت القول ! واعلم أن لها مصادر ، فنسأل الله أن يجعلنا من الصادرين بخير ، فقد أوردْنا أنفسنا مواردَ نَرغب إلى الله أن يُصْدِرنا عنها وهو راض .

(الأمالي ٢ : ٩٤)

٣٧٧ — حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية

قال معاوية لعَرَابة بن أَوْس بن حارثة الأنصارى : بأى شىء سُدْتَ قومك ياعرابة ؟ قال : أخبرك يامعاوية بأنى كنت لهم كما كان حاتم لقومه . قال : وكيف كان ؟ فأنشدته :

وأصبحتُ فى أمْرِ العَشيرةِ كلِّها ... كَذِى الحِلْمِ يُرْضَى مايقول و يُعْرَف
وذاك لأنِّى لا أعادى سَرَاتَهم ... ولا عن أخى ضَرَّائهم أتنكَّفُ[1]
وإنى لأُعطى سائلى ، ولربَّما ... أُكَلَّفُ ما لا أستطيع فأُكَلَّفُ
وإنى لَمذمومٌ إذا قيل : حاتم ... نبا نبْوَةً ، إن الكريم يُعنَّف

ووالله إنى لأعفو عن سفيههم ، وأحلُم عن جاهلهم ، وأسعى فى حوائجهم ، وأعطى سائلهم ، فمن فعل فعلى فهو مثلى ، ومن فعل أحسن من فعلى فهو أفضل منى ، ومن قصَّر عن فعلى فأنا خير منه ، فقال معاوية : لقد صدق الشمَّاخ حيث يقول فيك :

رأيت عَرَابة الأوْسىَ يسمو ... إلى الخيرات منقطعَ القرين
إذا ما رايةٌ رُفِعَت لمَجْدٍ ... تلقَّاها عَرَابة باليمين

(الأمالى ١ : ٢٧٧)

---

(١) أى أمتنع منه وآنف .

٣٧٨ — سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية

دخل سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه على معاوية ، وابنه يزيد إلى جانبه فقال له : « ائتمنك أبى واصْطَنَعك ، حتى بلَّغك باصطناعه إياك المَدَى الذى لا يُجارَى ، والغاية التى لا تُسامَى ، فما جازيتَ أبى بآلائه ، حتى قدَّمْتَ هذا عَلَىَّ ، وجعلت له الأمر دونى — وأومأ إلى يزيد — والله لَأَبى خير من أبيه ، وأمى خير من أمه ، ولأنا خير منه »

فقال معاوية : « أمّا ما ذكرت يابن أخى من تواتر آلائكم علىّ ، وتظاهر نعمائكم لدىّ ، فقد كان ذلك ، ووجب علىّ المكافأة والمجازاة ، وكان شكرى إياه أن طلبت بدمه ، حتى كابدتُ أهوال البَلاء ، وغشِيتُ عساكر المنايا ، إلى أن شُفِيت حَزَازات الصدور ، وتجلّت تلك الأمور ، ولستُ لنفسى باللائم فى التشمير ، ولا الزّارى[1] عليها فى التقصير ، وذكرتَ أن أباك خير من أبى هذا — وأشار بيده إلى يزيد — فصدقتَ ، لعمر الله لعثمانُ خير من معاوية ، أكرَم كريمًا وأفضل قديمًا ، وأقرب إلى محمد صلى الله عليه وسلم رَحِمًا ، وذكرت أن أمّك خير من أمه ، فلعمرى إن امرأة من قريش خير من امرأة من بنى كلب ، وذكرتَ أنك خير من يزيد ، فوالله يابن أخى ما يسرنى أن الغُوطة[2] عليها رجال مثلُ يزيد .

فقال له يزيد : « مَهْ يا أمير المؤمنين ، ابنُ أخيك استعمل الدالَّة عليك ، واستعتبك لنفسه ، واستزاد منك فزدْه ، وأجمِلْ له فى ردّك ، واحمِلْ على نفسك ، وولّه خُراسان بشفاعتى ، وأعنْه بمال يُظْهر به مَوْرُوثه » ، فولاّه معاوية خُراسان ، وأجازه بمائة ألف درهم فكان ذلك أعجب ما ظهر من حِلم يزيد .

(صبح الأعشى ١ : ٢٥٦ والإمامة والسياسة ١ : ١٣٩)

---

(١) زرى عليه : عابه . (٢) مدينة دمشق أو كورتها .

٣٧٩ — مصقلة بن هبيرة ومعاوية

مرض معاوية مرضاً شديداً ، فأرجَفَ به مَصْقلة بن هُبَيرة ، وساعده قوم على ذلك ثم تماثل[1] ، وهم فى إرجافهم ، فحمل زيادٌ مصقلَة إلى معاوية ، وكتب إليه أنه يجمعُ مرَّاقا من مُرَّاق العراق ، فيُرجِفون بأمير المؤمنين ، وقد حملتُه إليه ليرى رأيه فيه ، فقَدِم مصقلة ، وجلس معاوية للناس ، فلما دخل عليه ، قال : ادنُ منى ، فدنا منه ، فأخذ بيده فجذَبَه فسقط مصقلة ، فقال معاوية :

أبقَى الحوادثُ من خليــلك مثلَ جَنْدَلة المَرَاجِم[2]

صُــلْباً إذا خار الرجا لُ أبلَّ ممتنِع الشكائم[3]

قد رامنى الأعداءُ قبــلَك فامتنعتُ من المظَالِم

فقال مصقلة : « يا أمير المؤمنين ، قد أبقى الله منك ماهو أعظم من ذلك بَطْشا وحِلْمًا راجحاً ، وَكَلأً وَمَرْعى لأوليائك ، وسَما ناقِعًا لأعدائك ، كانت الجاهلية فكان أبوك سيد المشركين ، وأصبح الناس مسلمين وأنت أمير المؤمنين » وقام ، فوصله معاوية ، وأذن له فى الانصراف إلى الكوفة ، فقيل له : كيف تركت معاوية؟ فقال : زعمتم أنه كبِر وضعُف ، والله لقد غمَزَنى غمزة كاد يَحْطمنى ، وجذبنى جَذْبَة كاد يكسر عضواً منى .

(زهر الآداب ١ : ٥٧ والأمالى ٢ : ٣١٥)

٣٨٠ — روح بن زنباع ومعاوية

وَوَلّى معاوية رَوْح بن زِنْبَاع ، فعَتَبَ عليهِ فى جناية ، فكتب إليه بالقدوم ، فلما قدِم أمر بضربه بالسِّياط ، فلما أقيم ليضرب قال : « نَشَدتك الله يا أمير المؤمنين أن تَهْدِم منى رُكناً أنتَ بَنَيْته ، أو أن تضع منى خَسِيسةً أنت رفعتَهَا أو تُشْمِت بى عدوا أنت

(١) تماثل العليل : قارب البرء . (٢) الجندل : الحجارة ، والواحدة جندلة .

(٣) الأبل : الممتنع ، والألد : الجدل ، والشكائم جمع شكيمة : وهى من اللجام الحديدة المعترضة فى فم الفرس ، وفلان شديد الشكيمة : أنف أبى لاينقاد .

وَقْمَه[1] ، وأسألك بالله إلاّ أتى حلمُك وعَفوك دون إفساد صنائِعك » ، فقال معاوية :

« إذا اللهُ سَنَّى عَقْدَ أمرٍ تَيَسَّرا » خَلُّوا سبيله .

(الأمالى ٢ : ٢٥٩ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٤)

٣٨١ — مخاصمة أبى الأسود الدؤلى وامرأته بين يدى زياد بن أبيه

جرى بين أبى الأسود الدؤلى و بين امرأته كلام ، فى ابن كان لها منه ، وأراد أخذه منها ، فسار إلى زياد وهو والى البصرة .

فقالت المرأة : « أصلح الله الأمير ، هذا ابنى ، كان بَطْنى وِعاءه ، وحِجرى فِناءه ، وثَدْيى سِقاءه[2] ، أكْلَؤُه[3] إذا نام ، وأحفظه إذا قام ، فلم أزلْ بذلك سبعةَ أعوام ، حتى إذا استوفى فِصاله[4] ، وكَمُلَت خِصالُه ، واستوكعتْ[5] أوصالُه ، وأمَّلْتُ نفعه ، ورجوت دَفْعَه ، أراد أن يأخذه منى كرهًا[6] ، فآدِنى[7] أيها الأمير ، فقد رام قَهْرِى . وأراد قَسْرى[8] » .

فقال أبو الأسود : « أصلحك الله ، هذا ابنى حملتُه قبل أن تحمله ، ووضعته قبل أن تَضَعَه ، وأنا أقوم عليه فى أدبه ، وأنظر فى أَوَدِه ، وأمنحه عِلمى ، وأُلْهِمه حِلمى ، حتى يكمُل عقله ، و يستحكم فَتْلُه » .

فقالت المرأة : « صدق أصلحك الله ، حمله خِفًّا[9] ، وحملته ثِقْلا ، ووضعه شهوة ، ووضعته كرهًا » .

فقال له زياد : ارْدُد على المرأة ولدها ، فهى أحق به منك ، ودعْنى من سجعك أو قال : « إنها امرأة عاقلة يا أبا الأسود ، فادفع ابنها إليها ، فأخْلِقْ أن تُحْسِنَ أدَبَه » .

(الأمالى ٢ : ١٤ ، وأمالى السيد المرتضى ١ : ٢١٤)

---

(١) وقمه : قهره وأذله . وفى زهر الآداب : « كبته » . (٢) السقاء : جلد السخلة يكون للماء واللبن . (٣) أرعاه . (٤) فطامه . (٥) اشتدت ومتنت . (٦) الإباء والمشقة بالفتح والضم ، أو بالفتح : ماأكرهك غيرك عليه ، وبالضم ماأكرهت نفسك عليه . (٧) آداه على فلان : أعداه وأعانه . (٨) الإكراه . (٩) الخف : الخفيف .

٣٨٢ — صورة أخرى

وروى أحمد بن أبى طاهر طيفور هذا الخبر بصورة أطول وها كها :

قال أبو محمد القُشَيْرِىّ : كان أبو الأسود الدُّؤَلى من أكبر الناس عند معاوية بن أبى سُفيان ، وأقربهم مَجْلِسًا ، وكان لا ينطق إلا بعقل ، ولا يتكلم إلا بعد فهم ، فبينا هو ذات يوم جالس ، وعنده وجوهُ قريش وأشراف العرب ، إذ أقبلت امرأة أبى الأسود الدؤلىّ ، حتى حاذَتْ معاوية ، وقالت : السلامُ عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ؛ إن الله جعلك خليفة فى البلاد ، ورقيبًا على العباد ، يُستَسْقَى بك المطرُ ، وَيُستَنْبَتُ بك الشجر ، وتُؤَلَّف بك الأهواء ، وَيأمَن بك الخائف ، وَيُرْدَع بك الجانف[1] ، فأنت الخليفة المُصْطَفَى ، والإمام المُرتضَى ، فاسأل الله لك النعمةَ فى غير تغيير ، والعافية من غير تعذير[2] . قد ألجأنى إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ ضاق علىّ فيه المَنْهَجُ ، وتفاقَم علىّ منه المَخْرج ، لأمر كَرِهت عارَه[3] ، لَمَّا خشيت إظهاره ، فَلْيُنْصِفْنِى أمير المؤمنين من الخَصم ، فإنى أعوذ بِعَقْوَتِه[4] من العار الوَبيل ، والأمر الجليل ، الذى يشتدُّ على الحرائر ، ذوات البُعُول الأجائر[5] ، فقال لها معاوية : ومَنْ بَعْلُكِ هذا الذى تَصِفِينَ من أمره المنكَر ، ومن فعله المُشْهَرِ[6] ؟ فقالت : هو أبو الأسود الدُّؤلى ، فالتفت إليه فقال : يا أبا الأسود : ما تقول هذه المرأة ؟ فقال أبو الأسود : هى تقول من الحق بعضًا ، ولن يستطيع أحدٌ عليها نَقْصًا ؛ أما ما ذكرتْ من طلاقها فهو حق ، وأنا مُخبر أمير المؤمنين عنه بالصدق ، والله يا أمير المؤمنين ما طلقتها عن ريبة

---

(١) المائل : الجائر . (٢) أى من غير نقص ، من عذر فى الأمر تعذيرا : إذا قصر ولم يجتهد (أو من غير تشويه ، من عذر الشىء : لطخه بالعذرة كفرحة) . (٣) تشكى بذلك من طلاقها .

(٤) العقوة : ماحول الدار . (٥) البعول والبعولة : جمع بعل وهو الزوج ، والأجائر : جمع أجور ، أفعل تفضيل من جار . (٦) شهره كمنعه ، وشهره بالتشديد : أظهره فى شنعة .

ظهرت ، ولا لأى هفوة حضرت ، ولكنى كرهت شمائلها ، فقطعتُ عنى حبائلَها ، فقال معاوية : وأىّ شمائلها يا أبا الأسود كرهت ؟ قال : يا أمير المؤمنين : إنك مهيِّجها علىّ بجواب عَتِيد[1] ، ولسان شديد ، فقال معاوية : لابُدَّ لك من محاورتها ، فاردد عليها قولها عند مراجعتها ، فقال أبو الأسود : « يا أمير المؤمنين ، إنها كثيرة الصَّخَب ، دائمة الذَّرَب[2] ، مُهينة للأهل ، مُؤذية للبَعْل ، مُسيئة إلى الجار ، مُظْهِرة للعار ، إن رأتْ خيرًا كتمتْه ، وإن رأت شرًّا أذاعته » ، فقالت : « والله لولا مكانُ أمير المؤمنين ، وحضورُ من حَضَرَه من المسلمين ، لرَدَدْتُ عليك بَوَادِر كلامك ، بنوافذ أقْرَعُ بها كلَّ سِهامك[3] ، وإن كان لا يجمُل بالمرأة الحرة أن تشتِمَ بَعْلا ، ولا أن تُظهِر لأحدٍ جهلا » ، فقال معاوية : عَزَمتُ عليكِ لَمَا أجبتِه ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، ما عَلِمْتُه إلا سَئُولا جَهُولا ، مُلِحًّا بخيلا[4] ، إن قال فَشَرُّ قائل ، وإن سكت فذو دَغائل[5] ، لَيْثٌ حين يأمن ، وثعلب حين يخاف ، شحيح حين يُضاف[6] ، إن ذُكِر الجود انقمَع[7] ، لِمَا يعرِف من قِصَر رِشائه[8] ، ولؤم آبائه ، ضيفه جائع ، وجاره ضائع ، لا يحفظ جاراً ولا يحمى ذِمَارًا ، ولا يُدرك ثأرًا ، أكرم الناس عليه من أهانه ، وأهونهم عليه من أكرمه » ، فقال معاوية : سبحان الله لِمَا تأتى به هذه المرأة من السجع ! فقال

---

(١) حاضر مهيأ . (٢) الصخب : شدة الصوت ، والذرب : حدة اللسان وبذاءته .

(٣) البوادر : جمع بادرة ، وهى مايبدو من حدتك فى الغضب من قول أو فعل ، بنوافذ أى بحجج نافذة ماضية ، وكل السيف وغيره فهو كل وكليل : لم يقطع . (٤) وكان أبو الأسود معروفا بالبخل . ومن طريف مايروى عنه أن رجلا قال له : « أنت والله ظرف لفظ ، وظرف علم ، ووعاء حلم ، غير أنك بخيل » فقال : « وماخير ظرف لا يمسك مافيه ؟ » وسلم عليه أعرابى يوما ، فقال أبو الأسود : كلمة مقولة ، فقال له : أتأذن فى الدخول ؟ قال : وراءك أوسع لك ، قال : فهل عندك شىء ؟ قال : نعم ، قال : أطعمنى ، قال : عيالى أحق منك ، قال : مارأيت ألأم منك ! قال : نسيت نفسك . « أمالى المرتضى ١ : ٢١٤ » .

(٥) دغائل : جمع دغيلة كسفينة . والدغيلة والدغل بالتحريك : دخل فى الأمر مفسد .

(٦) ضافه يضيفه : نزل عليه ضيفا . (٧) انقمع : دخل البيت مستخفيا .

(٨) الرشاء فى الأصل : الحبل .

أبو الأسود : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنها مطلقة ، ومَن أ كثرُ كلامًا من مطلقة ؟ فقال لها معاوية : إذا كان رَوَاحًا[1] فتعالىْ أفصِلْ بينك وبينه بالقضاء .

فلما كانَ الرَّواح جاءت ومعها ابنها قد احتضنته ، فلما رآها أبو الأسود قام إليها لينتزع ابنه منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود ، لا تُعْجِل المرأة أن تنطق بحجتها ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنا أحق بحمل ابنى منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود دَعْهاَ تقل ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، حملتُه قبل أن تحمِلَه ، ووضعته قبل أن تضعه » ، فقالت : « صدق والله يا أمير المؤمنين : حَمَله خِفًا ، وحملتُه ثِقْلا ، ووضعه شهوة ووضعته كَرْهًا ، إن بطنى لَوِعاؤه ، وإن ثديى لَسِقَاؤه ، وإن حِجرى لِفنَاؤه ، فقَال معاَوية : سبحاَن الله لِماَ تأتين به ! فقَال أبو الأسود : إنها تقول الأبياَت من الشعر فتجيدها ، فقَال معاَوية : إنها قد غلبتك فى الـكلام ، فتكلّفْ لهاَ أبياتًا لعلك تغلبها ، فأنشأ أبو الأسود يقول :

مَرْحَبًا بالتى تجورُ علينا ثم سَهْلاً بالحامل المحمول
أغلقَتْ بابها علىَّ وقالت : إن خير النساء ذاتُ البُعُولِ
شَغَلت نفسَها علىَّ فَراغًا هل سَمِعتم بالفارغ المشغولِ ؟

فأجابته وهى تقول :

ليس من قال بالصَّواب وبالحـــقِّ كَمَنْ جار عن مَنَار السَّبيلِ
كاَنَ ثَدْيِى سِقَاءه حين يُضْحِى ثم حِجْرى فِناَؤُه بالأصِيلِ
لستُ أبغى بواحِدى بِابْنِ حَرْبٍ بَدَلاً مَاعَلِمْتُهُ والخليـــلِ[2]

فأجابها معاوية :

ليس مَنْ غذَاه حِينًا صَغِيرًا وسقاه من ثَدْيه بِخَذُولِ

---

(١) أى إذا كان الوقت رواحا ، والرواح : المشى . (٢) أى أقسم بخليل الله وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

هِىَ أَوْلَى به وأقربُ رُحْمًا من أبيــه بالوحى والتنزيل[1]
أُمُّه ما حَنَتْ عليه وقامت هِىَ أَوْلَى بِحَمْلِ هذا الضئيل[2]

فقضى لها معاوية عليه ، واحتملت ابنها وانصرفت . (بلاغات النساء ص ٥٣)

٣٨٣ — وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير

لما قَدِم الأحنف فى وجوه أهل البصرة ، إلى عبد الله بن الزبير ، تكلم أبو حاضر الأَسَيْدِىّ — وكان خطيبًا جميلا — فقال له عبد الله بن الزبير : اسكت فوالله لَوَدِدْتُ أن لى بكل عشرة من أهل العراق رجلا من أهل الشأم ، صَرْفَ الدينار بالدرهم ، قال : « يا أمير المؤمنين : إن لنا ولك مَثَلا ، أفتَـأْذَنُ فى ذكره ؟ » قال : نعم ، قال : « مَثَلنا ومثلك ومثل أهل الشأم قول الأعشى حيث يقول :

عُلِّقْتُهَا عَرَضًا وَعُلِّقَتْ رَجُلاً غيرى وَعُلِّقَ أُخرى غَيْرَهَا الرَّجُلُ[3]

أحبَّك أهْلُ العراق ، وأحببْتَ أهْلَ الشأم ، وأحب أهْلُ الشأم عبْدَ الملك ابن مَرْوان » . (البيان والتبيين ١ : ١٦٤)

٣٨٤ — كلام خطيب الأزد بين يدى عبد الملك بن مروان

بعث الحجاج خُطَبَاءَ من الأحماس[4] إلى عبد الملك بن مَرْوان ، فتكلموا ، فلما انتهى الكلام إلى خطيب الأَزْد ، قام فقال :

قد عَلِمَت العرب أنَّا حَىُّ فِعَال ، ولسنا بِحَىِّ مَقَال ، وَأَنَّا نَجْزى بِفِعلنا عند أحسن

---

(١) الرحم : الرحمة والرقة والتعطف . (٢) فى الأصل : « أم ماحنت عليه . . . » وهو تحريف ، إذ يختل وزن البيت . (٣) علق فلان امرأة (بالبناء للمجهول مشددا) : أحبها . (٤) الحمس كقفل : الأمكنة الصلبة جمع أحمس ، ولقب به قريش ، وكنانة ، وجديلة ، ومن تابعهم فى الجاهلية لتحمسهم فى دينهم ، أو لالتجائهم بالحمساء وهى الكعبة ، وأحماس العرب : من أمهاتهم من قريش ، وكانوا يتشددون فى دينهم ، وكانوا شجعان العرب لا يطاقون .

قولهم ، إن السيوف لتعرف أكُفَّنا ، و إن الموت لَيَسْتَعْذِب أرواحنا ، وقد علمتْ الحربُ الزَّبُون ، أنَّا نَقْرَع جِماحها ، ونَحلُب صَرَاها[1] » ثم جلس[2] .

(الأمالى ٢ : ٢٥٩)

٣٨٥ — سؤال عبد الملك للعجاج وما أجاب به

ودخل العَجَّاج[3] على عبد الملك بن مروان ، فقال : يا عجاجُ : بلغنى أنك لا تقدِر على الهِجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَن قَدَر على تشييد الأبْنِية ، أمكنه إخرابُ الأخْبِيَة ، قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عِزًّا يمنعنا من أن نُظْلَم ، وإن لنا حِلْمًا يمنعنا من أن نَظْلِمَ ، فَعَلَامَ الهِجاء ؟ فقال : لَكَلِمَاتُك أشعرُ من شعرك ! فأنَّى لك عِزٌّ يمنعك من أن تُظْلَمَ ؟ قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع ، قال : فما الحِلم الذى يمنعك من أن تَظْلِم ؟ قال : الأدب المُسْتَطْرَف ، والطَّبْع التَّالِد ، قال : يا عجاج لقد أصبحتَ حكيما . قال : وما يمنعنى وأنا نَجِىُّ[4] أمير المؤمنين ؟ » .

(الأمالى ٢ : ٤٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٤)

٣٨٦ — وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان

لما وَلِىَ الحجاج بن يوسف الحَرَمَيْن بعد قتله ابنَ الزبير ، استخَصَّ إبراهيم بن محمد ابن طَلْحَة ، فقرَّبه وعظم منزلته ، فلم تزل تلك حاله عنده ، حتى خرج إلى عبد الملك بن مَرْوان ، فخرج معه مُعَادِلًا ، لا يقصِّر له فى برّ و إعظام ، حتى حضر به عبد الملك ، فلما

---

(١) الصرى : بقية اللبن . (٢) وفى رواية الجاحظ : «وقالوا : ولما قدمت خطباء نزار عند معاوية ، فذهبت فى الخطب كل مذهب ، قام صبرة بن شيمان فقال : « ياأمير المؤمنين : إنا حى فعال ، ولسنا حى مقال ، ونحن نبلغ بفعالنا أكثر من مقال غيرنا (البيان والتبيين ١ : ١٦٤) ، وروى المبرد فى الكامل هذا القول عن صبرة أيضا — انظر تهذيب الكامل ١ : ١٦ — ، وقد تقدم لك أن صبرة بن شيمان من الأزد — انظر الجزء الأول ص٤٣٦ . (٣) هو العجاج بن رؤبة راجز مجيد مشهور ، مات سنة ٩٠ هـ . (٤) مسار .

دخل عليه لم يبدأ بشىء بعد السلام ، إلا أن قال له : « قَدِمْتُ عليك أميرَ المؤمنين برجل الحجاز ، لم أدع له بها نظيراً فى الفضل والأدب ، والمُروءة ، وحسن المَذهب ، مع قرابة الرَّحِم ، ووجوب الحق ، وعِظَم قدر الأُبوّة ، وما بلوْتُ منه فى الطاعة والنصيحة ، وحُسن المؤازَرة . وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة ، وقد أحضرته بابَك ، لِيَسْهُل عليه إذنك ، وتعرف له ما عرّفتك » . فقال : أذكرتَنا رَحِمًا قريبة ، وحقًّا واجبًا ، ياغلامُ : ائذن لإبراهيم بن محمد بن طلحة ، فلما دخل عليه أدناه عبد الملك حتى أجلسه على فراشه ، ثم قال له : يابن طلحة ، إن أبا محمد (الحجاج) ذكّرنا مالم نزل نعرِفك به من الفضل والأدب ، والمروءة ، وحسن المذهب ، مع قرابة الرحم ، ووجوب الحق ، وعِظَم قدر الأبوة ، وما بَلاَه منك فى الطاعة والنصيحة ، وحسن المؤازرة ، فلا تدعَنّ حاجةً فى خاصّةِ نفسك وعامتك إلا ذكرتها . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أول الحوائج ، وَأَحَقّ ما قُدِّم بين يدى الأمور ، ما كان لله فيه رِضًا ، ولحق نبيه صلى الله عليه وسلم أداء ، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة ، وعندى نصيحةٌ لا أجد بُدًّا من ذكرها ، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خالٍ ، فأَخلِنى يا أمير المؤمنين تَرِد عليك نصيحتى ، قال : أدُونَ أبى محمد ؟ قال : نعم ، دون أبى محمد ، قال عبد الملك : للحجاج قم ، فلما خَطرَف[1] السّتر أقبل على إبراهيم ، فقال : يابن طلحة قل نصيحتك ، قال : بالله يا أمير المؤمنين لقد عهِدْتَ إلى الحجاج فى تَغطرُسه وتَعجرُفه ، وَبُعْده من الحق ، وقُربه من الباطل ، فولّيته الحرمين ، وهما ماهما وبهما مَنْ بهما من المهاجرين والأنصار ، والمَوَالِى الأخيار ، يسومُهم الخَسْف[2] ويحكم فيهم بغير السُّنّة ، بعد الذى كان من سَفك دمائهم ، وما انتُهِك من حُرَمهم ، وَيطَؤهم بِطَغام أهل الشام ، وَرَعاعٍ لاَرَوِيَّةَ لهم فى إقامة حق ، ولا فى إزاحة باطل ، ثم تظن أن ذلك ينجيك من عذاب الله ؟ فكيف بك إذا جاثاك محمد صلى الله عليه وسلم غداً للخصومة بين يدى الله تعالى ؟ أما والله إنك لن تنجو هناك إلا بحُجّة تضمَن لك

---

(١) المراد أرخى ، من خطرف جلد المرأة : إذا استرخى . (٢) يوليهم الذل .

النجاة ، فاربَعْ على نفسك أو دَعْ ، وكان عبد الملك مُتكِئًا ، فاستوى جالسًا ، وقال : كذبْتَ وَمِنْتَ[1] فيما جئت به ! ولقد ظن بك الحجاج ظنا لم يجده فيك ، وقد يُظَن الخيرُ بغير أهله ، قم فأنت المائن الحاسد ! قال : فقمت والله ما أبصر شيئًا ، فلما خطرف الستر لحقني لاحق ، فقال للحاجب : امنع هذا من الخروج ، وأذِن للحجاج ، فدخل فلبث مَليًّا ، ولا أشك أنهما في أمرى ، ثم خرج الإذن لى ، فدخلت ، فلما كشف لى الستر ، إذا أنا بالحجاج خارج ، فاعتنقنى ، وقبّل ما بين عينَيّ ، وقال : أما إذا جزى الله المتواخِيَيْن خيرًا بفضل تواصُلِهما ، فجزاك الله عنى أفضلَ الجزاء ، فوالله لئن سلمتُ لك لأرفعنّ ناظريك ، ولأُعلِيَنّ كعْبك ، ولأُتبِعَنّ الرجال غُبارَ قدمَيْك ، قال : فقلت في نفسى إنه ليسخَرُ بى ، فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أدنانى مجلسى الأول ، ثم قال : يابن طلحة : هل أعلمت الحجاج بما جرى أو شاركك أحد في نصيحتك ؟ فقلت : لا والله ، ولا أعلم أحداً أظهرَ يدًا عندى من الحجاج ، ولو كنت محابيًا أحداً بدينى لكان هو ، ولكنى آثرتُ الله ورسوله والمسلمين ، قال : قد علمت أنك لم ترد الدنيا ، ولو أردتهاَ لكانت لك في الحجاج ، ولكن أردت الله والدار الآخرة ، وقد عزلته عن الحرمين لِمَا كرهتَ من ولايته عليهما ، وأعلمته أنك استنزلتنى له عنهماَ استقلالا لهماَ ، ووليته العراقين وما هنالك من الأمور ، التى لا يُدْحِضهاَ إلا مثله ، وإنما قلت له ذلك ليؤدى ما يلزمهُ من ذِمامك ، فإنك غير ذامّ لصحبتهِ مع يدك عنده ، فخرجت مع الحجاج وأكرمنى أضعاف إكرامه . (العقد الفريد ١ : ١٢١ ، وسرح العيون ص ١١٩)

---

(١) مان مينا : كذب .

٣٨٧ – قدوم الحجاج مع أشراف المصرين على عبد الملك

لما فرغ الحجاج من دير الجماجم ، وقدِم على عبد الملك ومعه أشراف أهل المِصْرَيْن – البصرة والكوفة – أدخلهم عليه ، فبينما هم عنده ، إذ تذاكروا البُلدان ؛ فقال محمد بن ابن عُمَيْر بن عُطَارد : « أصلح الله الأمير ، إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحَرِّها وَغَمَقِها[1] ، وسَفُلت عن الشأم وَوَبَائها ، وجاورها الفُرَاتُ ، فعَذُب ماؤها ، وطاب ثمرها » ، فقال خالد بن صَفْوَان الأهتمى : « أصلح الله الأمير ، نحن أوسعُ منهم بَرِّيَّةً ، وأسرع منهم فى السَّرِيَّةِ[2] ، وأكثر منهم قَنْداً[3] ، وعاجاً ، وساجاً[4] ، وناساً[5] ، ماؤنا صَفْو ، وخيرُنا عَفْو ، لا يخرج من عندنا إلا قائد وسائق وناعق[6] » ؛ فقال الحجاج : « أصلح الله أمير المؤمنين ! إنى بالبلدين خبير ، وقد وَطِئتهما جميعاً » ؛ فقال له : قل فأنت عندنا مُصَدَّق ، فقال : « أمّا البصرة فعجوزٌ شَمْطَاء ، دَفْرَاء ، بَخْرَاء ، أوتيتْ من كل حَلْيٍ وزينة ؛ وأما الكوفة ، فشابة حسناء جميلة ، لا حَلْيَ لها ولا زينة » . فقال عبد الملك : فضلت الكوفة على البصرة . (مروج الذهب ٢ : ١٤٨)

* * *

وروى الجاحظ قال :

قال خالد بن صفوان[7] – وَسُئِل عن الكوفة والبصرة – : « نحن مَنَابِتُنا قَصَب ، وأنهارنا عَجَب ، وسماؤنا رُطَب[8] ، وأرضنا ذهب » .

---

(١) الغمق : ركوب الندى الأرض ، أرض غمقة كفرحة : ذات ندى وثقل ، أو قريبة من المياه ، وفى الأصل : « وعمقها » وهو تصحيف (٢) السرية : من خمسة أنفس إلى ثلثمائة ، أو أربعمائة ؛ والمراد فى النهوض للقتال . (٣) القند : عسل قصب السكر . (٤) الساج : خشب أسود رزين يجلب من الهند ، ولا تكاد الأرض تبليه ، وهو يشبه الآبنوس . (٥) فى الأصل : « وباسا » بالباء ، وأراه بالنون . (٦) يريد بالسائق : الأمير ، وبالناعق : الخطيب . (٧) أى يصف البصرة ، وكذا مابعده . (٨) السماء : كل ماعلاك ، يشير إلى كثرة النخيل فى مشان البصرة ، « مشان كسحاب : قرية قريبة منها » ، وأن التمر لكثرته ووفرته يظللهم .

وقال الأحنف : « نحن أبعد منكم سَرِيّة ، وأعظم منكم تَجْرِيَة[1] ، وأكثر منكم ذُرِّيَّة ، وأغذى منكم بَرِّيَّة » .

وقال أبو بكر الهُذَلى : « نحن أكثر منكم ساجًا ، وعاجًا ، وَدِيباجًا ، وَخَراجًا ، وَنهراً عَجّاجًا[2] » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٦)

٣٨٨ – وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة

لما هزم المُهَلّب بن أبى صُفْرَة قَطَرِىَّ بن الفُجَاءة : صاحب الأزارقة . بعث إلى مالك بن بشير ، فقال له : إنى مُوفدك إلى الحجاج ، فسِرْ ، فإنما هو رجل مثلك ، و بعث إليه بجائزة فردها ، وقال : إنما الجائزة بعد الاستحقاق وتوجه ، فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير ، قال : مُلْك و بِشارة ! كيف تركتَ المهلب ؟ قال : أدركَ ما أمّل ، وأمّن من خاف ، قال : كيف هو لجنده ؟ قال : والد رءوف ، قال : فكيف رِضَاهم عنه ؟ قال : وسِعهم بالفضل ، وأقنعهم بالعدل ، قال : فكيف تصنعون إذا لقِيتم عدوكم ؟ قال : نلقَاهم بجِدّنا فنطمع فيهم ، و يلقَوننا بجِدّهم فيطمعون فينا ، قال: كذلك الجدّ إذا لقى الجدّ قال : فما حال قطرىّ ؟ قال: كادنا ببعض ما كِدناه . قال : فما منعكم من اتباعه ؟ قال : رأينا المُقَام من ورائه خيراً من اتباعه ، قال : فأخبرنى عن ولد المهلب ، قال : أعباء القتَال بالليل ، حُماة السَّرْح[3] بالنهار ، قَال : أيهم أفضل ؟ قال ذلك إلى أبيهم ، قال : لتقولَن ، قَال : هم كحَلْقة مضروبة لايُعْرَف طَرَفاها ، قَال : أقسمت عليك هل رَوَّأْت[4] فى هذا الكلام ؟ قَال : ما أطلع الله على غيبه أحداً ، فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

(العقد الفريد ١ : ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨)

---

(١) تجر كنصر تجرا وتجارة : اتجر ، وأرى أن « تجرية » مصدر صناعى لتجر يريد أن أهل البصرة أعظم وأطول باعا من أهل الكوفة فى التجارة — لأن البصرة ثغر على الخليج الفارسى ، فهى متصلة ببلاد الهند والشرق . (٢) العجاج : الصياح من كل ذى صوت . (٣) السرح فى الأصل : المال السائم .

(٤) روأ فى الأمر : نظر فيه وتعقبه ، ولم يعجل بجواب .

٣٨٩ — وفود كعب الأشقرى على الحجاج

أوفد المهلب بن أبى صفرة كَعْبَ بن مَعْدَان الأشْقَرى — ومعه مُرَّة بن تَليد الأزدى — إلى الحجاج بعد هزيمة الأزارقة، وَقَتْل أميرهم عَبْد رَبِّه الصغير، فلما دخلا عليه بَدَر كَعْبٌ فأنشده قصيدته التى مطلعها :

يا حَفْصُ : إنى عَدَانِى عنكم السَّفَرُ . وقد سَهِرْتُ فَآذَى عَيْنِيَ السَّهَر

فقال له الحجاج : أشاعر أم خطيب ؟ قال : كلاهما ، ثم أقبل عليه ، فقال له : أخبرنى عن بنى المهلب ، قال : « المُغِيرَة فارسُهُم وسَيِّدهم ، نار ذاكية[1] ، وصَعْدة[2] عالية ، وكَفَى بيزيدَ فارساً شجاعا ، ليث غابٍ ، وبحر جَمّ عُبَاب ، وَجَوَادُهم وسَخِيُّهم قَبيصَة ، ليث المُغار[3] ، وحامى الذِّمار ، ولا يَسْتحيي الشجاع أن يَفِرّ من مُدْرِك ، فكيف لا يفر من الموت الحاضر ، والأسد الخادر ؟ وعبدُ الملك سمّ ناقع ، وسيف قاطع ، وحبيبٌ الموتُ الزُّعاف ، إنما هو طَوْدٌ شامخ ، وفخر باذِخ[4] ، وأبو عُيَيْنة البَطَل الهُمَام ، والسيف الحسام ، وكفاك بالمفضَّل نجدةً ، ليثٌ هدَّار ، وبحر مَوَّار[5] ، ومحمدٌ ليثُ غاب ، وحُسامُ ضِراب ، قال : فكيف كانوا فيكم ؟ قال : كانوا حُمَاة السَّرْح نهارا ، فإذا أَلْيَلوا[6] ففُرسان البيات ، قال : فأيُّهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحَلْقة المُفْرَغة : لا يُدْرَى أين طرَفُها ، قال : فكيف كان لكم المهلب وكنتم له ؟ قال : كان لنا منه شفقةُ الوالد ، وله منّا بِرُّ الولد ، قال : فكيف جماعة الناس ؟ قال : على أحسن حال ، أدركوا ما رَجَوْا ، وأمِنوا مما خافوا ، وأرضاهم العَدْل ، وأغناهم النَّفَل[7] ، قال : فكيف كنتم أنتم وعدوكم ؟ قال : كنا إذا أخَذْنا عفَونا ، وإذا أخذوا يَئِسْنا منهم ،

---

(١) ذكت النار : اشتد لهبها . (٢) الصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك . (٣) أغار على العدو إغارة ومغارا . (٤) الطود : الجبل ، وباذخ : عال . (٥) مار : ماج واضطرب . (٦) أليلوا وألالوا : دخلوا فى الليل . (٧) الغنيمة والهبة .

وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم ، فقال الحجاج : إن العاقبة للمتقين ، قال : كيف أفلتكم قطرىّ ؟ قال : كدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذى نحب ، قال : فهلا اتبعتموه ؟ قال : كان الحدّ عندنا آثر من الفَلّ[1] ، قال : أ كنتَ أعددت لى هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقال : هكذا تكون والله الرجال ، المهلب كان أعلم بك حيثُ وَجّهك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وحمله على فرس ، وأوفده على عبد الملك بن مروان ، فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٣٢ ، والأغانى ١٣ : ٥٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ص ٤٠٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٩٣)

٣٩٠ — سليك بن سلكة والحجاج

دخل على الحجاج سُلَيْك بن سُلَكة[2] ، فقال :

« أصلح الله الأمير ! أعِرْنى سمعَك ، واغضُض عنى بَصرك ، واكفف عنى حزْبك ؛ فإن سمعت خطأً أو زَللا فدونَك والعقوبة ، فقال : قل ، فقال : عَصَى عاصٍ من عُرْض العشيرة ، فَحُلِّق على اسمى ، وهُدِمت دارى ، وَحُرِمْتُ عطائى ، قال : هيهات ، أما سمعت قول الشاعر :

جَانيكَ مَنْ يَجْنِى عليكَ وربّما ... تُعْدِى الصِّحَاحَ مَبَارِكُ الْجُرْبِ[3]

وَلَرُبَّ مَأْخُوذٍ بذنب عَشِيرِه ... ونجَا الْمُقَارِفُ صاحِبُ الذنب

---

(١) القوم المنهزمون . (٢) هو غير سليك بن سلكة الذى ضرب به المثل فى العدو ، فقيل : «أعدى من السليك» ، فإن سليكا العداء جاهلى ، (وهو سليك بن عمرو التميمى ، والسلكة أمه ، وهى أمة سوداء ، وكان أحد صعاليك العرب ولصوصهم العدائين الذين لا يلحقون ، ولا تتعلق بهم الخيل إذا عدوا ، وهم : السليك ابن السلكة ، والشنفرى ، وتأبط شرا ، وعمرو بن براق ، ونفيل بن براقة) ، قال صاحب القاموس فى مادة غرب : « وأغربة العرب سودانهم ، والأغربة فى الجاهلية : عنترة ، وخفاف بن ندبة ، وأبو عمير بن الحباب ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبى معيط ، إلا أنه مخضرم قد ولى فى الإسلام ... الخ » ، وقال ابن نباتة فى سرح العيون « وهو جاهلى قديم » — انظر ترجمته فى سرح العيون ص ٨٠ والأغانى ١٨ : ١٣٣ — . (٣) فى الأصل « جانيك من يجنى عليك وقد » على أن العروض حذاء كالضرب وهو صحيح ، ولكنى رأيت العروض فى البيت الذى يليه تامة ، فوضعت « وربما » بدل « وقد » للمشاكلة بين العروضين .

قال أصلح الله الأمير ، سمعْتُ الله قال غير هذا ، قال : وما ذاك ؟ قال : قال : « يٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ، فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ : مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ » .

قال الحجاج : علىّ بيزيد بن أبى مُسلم[1] ، فأُتِىَ به فَمَثَل بين يديه ، فقال : فُكَّ لهذا عن اسمه ، واصككْ[2] له بعطائه ، وابْنِ له منزله ، ومر مناديا ينادى فى الناس ، صدَق الله ، وكذَب الشاعر . (العقد الفريد ٣ : ٦)

٣٩١ — جامع المحاربى والحجاج

شكا الحجاج سُوء طاعة أهل العراق . وتنقَّم مذهبهم ، وتسخَّط طريقتهم ، فقال له جامع المُحَارِبى — وكان شيخاً صَالحاً خطيباً لَسِناً — : « أما إنهم لو أحبُّوك لأطاعوك ، على أنهم ما شَنِئوك لنسبك ، ولا لبلدك ، ولا لِذات نفسك ، فدع ما يبعدهم منك ، إلى ما يقرِّبهم إليك ، والتمِس العَافية ممن دونك ، تُعْطَهَا ممن فوقك ، وليكن إيقاعُك بعد وعيدك ، ووَعيدُك بعد وعدك . قال الحجاج : « إنى والله ما أرى أن أردَّ بنى اللَّكيعة إلى طاعتى إلا بالسيف » ، فقَال « أيها الأمير ، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخِيَار » ، فقَال الحجاج : « الخِيَارُ يومئذ لله » ، قال : « أجل ، ولكن لا تدرى لمن يجعله الله » ، فغضب الحجاج وقَال : « يا هَنَاهُ[3] إنك من محارب » ، فقَال جامع :

وللحَرْب سُمِّينَا ، وكانَ محَارِبًا إذا ما القَنَا أمسى من الطعن أحمرا

---

(١) كاتب الحجاج . (٢) صك له كقتل : كتب له صكا ، وهو الكتاب الذى يكتب فى المعاملات : (الشيك) .

(٣) هن : كلمة يكنى بها عن اسم الإنسان ، فإذا ناديت مذكرا بغير التصريح باسمه قلت : ياهن أقبل ، وقد تزاد الألف والهاء فى آخره فى النداء خاصة ، فيقال ياهناه أقبل ، أى يافلان ، وهذه الهاء تصير تاء فى الوصل ، وتضم على تقدير أنها آخر الاسم وتكسر لاجتماع الساكنين .

فقال الحجاج: « والله لَهَمَمْتُ أن أخلع لسانك، فأضربَ به وجهك »، فقال جامع: « إن صدَقْناك أغضبناك، وإن غَشَشْناك أغضبنا الله، فغضبُ الأمير أهون علينا من غضب الله » قال: أجل، وسَكَن، وشُغِل الحجاج ببعض الأمر، فانسلّ جامع، فمرّ بين صفوف خيل الشأم، حتى جاوز إلى خيل أهل العراق ـ وكان الحجاج لا يخلطهم فأبصر كَبْكَبَةً[1] فيها جماعةٌ من بكر العراق، وتميم العراق، وأزد العراق، وقيس العراق، فلما رأوه اشْرَأَبُّوا إليه، وبلغهم خروجه، فقالوا له: ما عندك؟ دافع الله لنا عن نفسك، فقال: وَيْحَكم! عُمُّوه بالخلع كما يَعُمُّكم بالعداوة، وَدَعُوا التعادىَ ما عادا كم، فإذا ظفرتم به تراجعتم وتعاقبتم، أيها التميمىّ: هو أعدى لك من الأزدىّ، وأيها القيسىّ: هو أعدى لك من التغلبىّ، وهل ظَفِر بمن ناوأه منكم إلا بمن بقى معه منكم؟» وهرب جامع من فَوره ذاك إلى الشأم، فاستجار بزُفَر بن الحارث.

(البيان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥١ — ١ : ١٥٢ ، وعيون الأخبار م ٢ ص : ٢١٢ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٣٠)

٣٩٢ — ليلى الأخيلية والحجاج

عن مَوْلى لعَنْبَسَة بن سعيد بن العاصى قال:

كنت أدخل مع عَنْبَسَة بن سعيد بن العاصى إذا دخل على الحجاج، فدخل يومًا، فدخلت إليهما، وليس عند الحجاج أحد إلا عنبسة، فأقعدنى، فجىء الحجاج بطَبَق فيه رُطب، فأخذ الخادم منه شيئًا فجاءنى به، ثم جِىء بطبق آخر، حتى كثرت الأطباق، وجعل لا يأتون بشىء إلا جاءنى منه بشىء، حتى ظننت أن ما بين يدىّ أكثر مما عندهما، ثم جاء الحاجبُ فقال: امرأة بالباب، فقال له الحجاج: أدخِلْها. فدخلت، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه، حتى ظننت أن ذَقَنه قد أصابَ الأرض، فجاءت حتى قعدت

---

(١) الكبكبة: الجماعة.

بين يديه ، فنظرتُ فإذا امرأة قد أسنّت ، حَسَنة الخلق ، ومعها جاريتان لها ، وإذا هى لَيْلَى الأَخْيَلِيَّة ، فسألها الحجاج عن نسبها ، فانتسَبَت له ، فقال لها : ياليلى ، ما أتى بك ؟ فقالت : « إخلافُ النُّجُوم[1] ، وقِلّة الغُيُوم ، وكَلَبُ البَرْد[2] ، وشدة الجَهْد ، وكنتَ لنا بعد الله الرِّفْد[3] » فقال لها : صِفى لنا الفِجاج[4] ، فقالت : « الفِجاج مُغْبَرّة والأرض مُقْشَعِرّة ، وَالمَبْرَك[5] مُعْتَلّ ، وذو العيال مُخْتَلّ[6] ، والهالكُ القُلّ[7] ، والناس مُسْنِتون[8] ، رحمةَ الله يَرْجُون ، أصابتنا سِنُونَ مُجْحفة مُبْلِطَة[9] ، لم تَدعْ لنا هُبَعًا ولا رُبَعًا[10] ، ولا عافِطَة ولا نافِطَة[11] ، أذهبَت الأموال ، ومزّقت الرجال ، وأهلكت العيال » ، ثم قالت : إنى قلت فى الأمير قولا ، قال : هاتى ، فأنشأتْ تقول :

أحَجّاجُ لا يُفْلَلْ سِلاحُك ، إنها الـ ... ـمنايا بكفّ الله حيثُ تَرَاها[12]

أحجاج لا تُعْطى العُصاة مُنَاهُمُ ... ولا اللهُ يُعطِى للعُصاةِ مُناها

إذا هبط الحجاجُ أرضاً مريضةً ... تتبَّعَ أقصَى دائها فشَفَاها

شفاها من الداء العُضَال الذى بها ... غلامٌ إذا هزَّ القناةَ سقاها

سقاها فرَوّاها بِشُرْبِ سِجالِه ... دماء رجالٍ حيثُ مال حَشَاها[13]

---

(١) أى أخلفت النجوم التى يكون بها المطر ، فلم تأت بمطر . (٢) كلب البرد : شدته ، وأصل الكلب : السعار (بالضم) الذى يصيب الكلاب والذئاب . (٣) الرفد (بالفتح) : المعونة ، مصدر رفده كضربه : أعانه وأعطاه ، وبالكسر : العطاء والصلة . (٤) الفجاج جمع فج : بالفتح ، وهو الطريق الواسع بين جبلين . (٥) أرادت به الإبل الباركة فيه . (٦) مختل : محتاج من الخلة بالفتح وهى الحاجة . (٧) القل : أى هالك من أجل القلة . (٨) أى مقحطون ، والسنة : القحط .

(٩) مجحفة : قاشرة ، ومبلطة : ملزقة بالبلاط ، والبلاط : الأرض الملساء ، والحجارة التى تفرش فى الدار ، وأبلط الرجل فهو مبلط : إذا لزق بالأرض . (١٠) الهبع : الفصيل ينتج فى الصيف (فى آخر النتاج) والربع : الفصيل ينتج فى الربيع (وهو أول النتاج) . (١١) العافطة : الضائنة (النعجة) ، من العفط ، وهو الضرط ، عفطت كضرب : ضرطت ، فهى عافطة ، والعفط أيضا : نثير الضأن ، تنثر بأنوفها كما ينثر الحمار ، والنافطة العنز ، من النفط ، نفطت العنز كضرب نثرت بأنفها ، أو عطست ، فهى نافطة ، أو لأنها تنفط ببولها أى تدفعه دفعا ، أو النافطة إتباع العافطة ، أو العافطة الأمة الراعية ، والنافطة الشاة . (١٢) السلاح مذكر ويؤنث كما فى هذا البيت . (١٣) السجال : جمع سجل كشمس ، وهو الدلو العظيمة .

إذا سَمِعَ الحجّاجُ رِزَّ كَتِيبةٍ أعدَّ لها قبل النزولِ قِراها[1]

أعدَّ لهَا مسمومةً فارسيَّةً بأيدى رجالٍ يحلِبُون صَرَاها[2]

فما وَلَدَ الأبكارُ والعُونُ مِثلَه ببَحْرٍ وَلا أرضٍ يجِفُّ ثَراها[3]

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحجاج : قاتَلَها الله ! والله ما أصاب صِفَتى شاعر مُذ دخلتُ العراق غيرها ، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد ، فقال : والله إنى لأُعِدّ للأمر عسى أن لا يكون أبداً ، ثم التفت إليها فقال : حَسْبُك ! قالت : إنى قد قلتُ أكثر من هذا . قال : حسبك وَيْحك ! حسبك ، ثم قال : ياغلام اذهب إلى فلان فقل له : اقطع لسانَها ، فذهب بها ، فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، فأمر بإحضار الحجّام ، فالتفتت إليه ، فقالت : ثَكِلتْكَ أمّك ! أمَا سمعتَ ما قال ؟ إنما أمرك أن تقطع لسانى بالصِّلة ، فبعث إليه يستَثْبِته ، فاستشاط الحجاج غضَباً ، وهمّ بقطع لسانه ، وقال : ارْدُدها ، فلما دخلت عليه ، قالت : كاد وأمانةِ الله يقطع مِقْوَلى ! ثم أنشأت تقول :

حَجّاجُ أنت الذى ما فوقَه أحــدٌ إلا الخليفةَ والمستــغفَر الصَّمَدُ[4]

حَجّاجُ أنت شِهابُ الحرب إن لَقِحت وأنت للناس نورٌ فى الدُّجَى يَقِدُ[5]

ثم أقبل الحجاج على جلسائه ، فقال : أتدرون مَن هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير ، إلا أنّا لم نَرَ قَطُّ أفصحَ لساناً ، ولا أحسن محاوَرة ، ولا أملحَ وجهاً ، ولا أرصَنَ شعراً منها ، فقال : هذه ليلى الأخيلية ، التى مات تَوبَةُ الخَفاجىّ من حُبِّها ، ثم التفت إليها فقال : أنشِدينا يا ليلى بعضَ ما قال فيك توبة ، قالت : نعم أيها الأمير هو الذى يقول :

وهل تبكِيَنْ ليلَى إذا مِتُّ قبلَهَا وقام على قبرى النساء النوائحُ ؟

---

(١) الرز : الصوت تسمعه من بعيد . (٢) الصرى : بقية اللبن . (٣) العون جمع عوان، كسحاب ، وهى التى كان لها زوج . (٤) الصمد : الذى يصمد أى يقصد فى قضاء الحوائج .

(٥) لقحت : أصله من لقحت الناقة أى قبلت اللقاح ، والشهاب : شعلة من نار ساطعة ، ويقد يتوقد .

كما لو أصابَ الموتُ ليلى بكيتُها ... وجاد لها دَمعٌ من العين سافِحُ[1]

وأُغبَطُ مِنْ ليلَى بما لا أناله ... بَلَى ، كلُّ ماقَرَّتْ به العينُ طائحُ

ولو أن ليلى الأخيَليةَ سلَّمَتْ ... علىَّ ، ودونى جَنْدَلٌ وَصَفائحُ[2]

لسلَّمْتُ تسليمَ البشاشةِ أو زَقا ... إليها صَدًى من جانب القبر صائحُ[3]

فقال : زِيدينا من شعره يا ليلى ، قالت : هو الذى يقول :

حَمامةَ بطنِ الوادِيَيْنِ تَرَنَّمِى ... سَقاكِ من الغُرِّ الغَوادى مَطِيرُها[4]

أبِينِى لنا ، لا زَال رِيشُكِ ناعِماً ... ولا زلتِ فى خَضراء غَضٍّ نضيرُها

وكنتُ إذا ما زُرتُ لَيلى تبرقعَتْ ... فقد رَابَنى منها الغَداةَ سُفُورُهَا

وقد رابنى منها صدودٌ رأيتُه ... وإعراضُها عن حاجتى وبُسُورُها[5]

وأُشْرِفُ بالقُورِ اليَفَاعِ لعلَّنى ... أرى نار ليلى أو يرانى بَصِيرُها[6]

يقول رجالٌ : لا يَضِيرُك نأيُها ... بَلَى ، كُلُّ ماشَفَّ النفوسَ يَضيرها

بَلَى، قد يَضيرالعينَ أن تُكثرالبُكا ... وَيُمْنَعَ منها نَوْمُها وسُرورُها

وقد زعمتْ ليلى بأنِّىَ فَاجِرٌ ... لِنَفْسِى تُقاها ، أو عليها فُجورُها

فقال الحجاج : يا ليلى ، ما الذى رابَه من سُفورك ؟ فقالت : أيها الأمير ، كان يُلِمّ بى كثيراً ، فأرسل إلىَّ يوماً : إنى آتيكِ ، وفَطِن الحى ، فأرصدوا له ، فلما أتانى سَفَرْتُ عن وجهى ، فعلِم أن ذلك لِشرّ ، فلم يزِد على التسليم والرجوع ، فقال : لله درُّكِ !

---

(1) سافح : منصب . (2) الجندل : الحجارة ، والصفائح : حجارة القبر العراض .

(3) زقا : صاح ، والصدى — وهو الهامة — طائر يخرج من رأس المقتول ؛ تزعم الأعراب أن روح القتيل تخرج ، فتصير هامة إذا لم يدرك بثأره ، فتصيح على قبره : اسقونى اسقونى حتى يثأر به ، وهذا مثل يراد به تحريض ولى القتيل على طلب دمه ، فجعله جهلة الأعراب حقيقة . (4) الغوادى : جمع غادية ، وهى السحابة تنشأ غدوة . (5) بسر كدخل : عبس وكلح . (6) القور : جمع قارة ، وهى الجبيل الصغير ، المنقطع عن الجبال ، واليفاع : التل .

فهل رأيتِ منهُ شيئاً تكرهينه ؟ فقالت : لا واللهِ الذى أسأله أن يُصْلِحك ، إنه قال مرة قولا ظننتُ أنه قد خضَع لبعض الأمر ، فأنشأتُ أقول :

وذى حاجةٍ قلنا له لا تَبُحْ بها فليس إليها ما حَيِيتَ سبيلُ

لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نخونَه وأنتَ لِأُخرى صاحبٌ وخليلُ

فلا والله الذى أسأله أن يصلحك ، مارأيت منه شيئاً ، حتى فرّق الموت بينى و بينه ، قال : ثم مَه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن خرج فى غَزاة له ، فأوصى ابنَ عم له ، إذا أتيْتَ الحاضِرَ من بنى عُبادة فنادِ بأعلى صوتك :

عَفَا اللهُ عنها ، هل أبيتَنَّ ليلةً من الدهر لا يَسْرِى إلىَّ خيالُها ؟

وأنا أقول :

وعنه عفا ربِّى وأحسنَ حالَه فعزَّت علينا حاجةٌ لا ينالُها

قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن مات ، فأتانا نعيُّه ، فقال : أنشدينا بعض مَراثيك فيه ، فأنشدت :

لِتَبْكِ العَذَارَى من خَفَاجةَ نِسْوَةٌ بماءِ شُئُونِ العَبْرَةِ المتحدِّر[1]

قال لها : فأنشدينا ، فأنشدته :

كأنَّ فتى الفِتيانِ تَوْبةَ لم يُنِخْ قَلائِصَ يَفْحَصْنَ الحَصَى بالكَرَاكِرِ[2]

فلما فرغت من القصيدة ، قال مُحصن الفَقْعَسِىّ : — وكان من جلساء الحجاج —

---

(١) الشئون : جمع شأن ، وهو مجرى الدمع إلى العين . وكتب مصحح الأمالى قال : « قوله المتحدر كذا فى النسخ ، وكتب بهامش بعضها لعله المتحادر بالألف قبل الدال ، لتستقيم القافية ، وفى هامش بعض النسخ بعد البيت الآتى :

فتىً لا تخطاه الرفاق ولا يرى لقدر عيالا دون جار مجاور » اه

(٢) القلائص جمع قلوص كصبور ، وهى الناقة الشابة ، أو الباقية على السير ، يفحصن : يقلبن ، من فحص المطر التراب قلبه ، وفحص القطا التراب : اتخذ فيه أفحوصا وهو مجثمه ، والكراكر : جمع كركرة بالكسر ، وهى زور البعير .

مَن الذى تقول هذه هذا فيه ؟ فوالله إنى لأظنها كاذبة ، فنظرت إليه ، ثم قالت : أيها الأمير إن هذا القائل لو رأى تو بة لسرّه أن لاتــكون فى داره عَذْراء إلا هى حاملٌ منه، فقال الحجاج: هذا وأبيك الجواب ، وقد كنتَ عنه غنيًّا ، ثم قال لها : سَلِى يا ليلى تُعْطَىْ ، قالت : أعطِ ، فمثلك أعطى فأحسَنَ ، قال : لك عشرون ، قالت : زِدْ فمثلك زاد فأجمَلَ ، قال : لك أربعون ، قالت: زد ، فمثلك زاد فأكْمَلَ ، قال : لك ثمانون ، قالت : زد ، فمثلك زاد فتمَّم ، قَال : لك مائة ، واعلمى أنها غَنَم ، قَالت : معاذَ الله أيها الأمير ، أنت أجْوَد جُوداً ، وأمْجَدُ مجداً ، وأوْرَى زَنداً ، من أن تجعلها غنما ، قَال : فما هى ؟ وَيْحَكِ يا ليلى ؟ قَالت : مائة من الإبل برُعَاتها ، فأمر لها بها ، ثم قَال : أَلَكِ حاجةٌ بعدها ؟ قالت : تدفع إلىّ النابغة الجَعْدِى ، قال : قد فعلتُ ، وقد كانت تهجوه ويهجوها ، فبلغ النابغة ذلك ، فخرج هارِبًا عائذاً بعبد الملك ، فاتبعته إلى الشأم ، فهرب إلى قُتَيْبَة بن مسلم بخُرَاسَان ، فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة ، فماتت بقُومَس[1] ، ويقال بحُلْوَان . (الأمالى ١ : ٨٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٦٥)

٢٩٣ الغضبان بن القبعثرى والحجاج

ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك ، يأمره أن يبعث إليه بثلاثين جارية ، عشرًا من النجائب ، وعشرًا من قَعَد النكاح ، وعشرًا من ذواتِ الأحلام ، فلما نظر إلى الكتاب لم يدرِ ما وَصَفَه من الجوارى ، فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه ، فقال له بعضهم : أصلح الله الأمير ، ينبغى أن يعرف هذا مَنْ كان فى أوّليّته بدويًّا ، فله معرفة أهل البَدْو ، ثم غزا فله معرفة أهل الغَزْو ، ثم شَرِب الشراب ، فله بَذَاء أهل الشراب ، قَال : وأين هذا ؟ قيل : فى حَبْسك ، قَال : ومن هو ؟ قيل الغضبان الشَّيْبَانىّ ، فأحضر

---

(١) قومس : صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل .

فلما مَثَل بين يديه ، قال : أنت القائل لأهل الكوفة يتغدَّون بى قبل أن أتعشَّى بهم[١] ؟ قال : أصلح الله الأمير : ما نَفَعتْ مَن قالها ، ولا ضرتْ مَن قيلت فيه ، قال : إن أمير المؤمنين كتب إلىَّ كتاباً لم أدرِ ما فيه ، فهل عندك شىء منه ؟ قال : يُقرأ علىَّ ، فقرئ عليه ، فقال : هذا بَيِّن ، قال : وما هو ؟ قال : « أمَّا النَّجيبة من النساء : فالتى عظُمت هامَتها ، وطالَ عُنقها ، وبَعُد ما بين مَنكبَيها وثَدْيها ، واتسعت راحتُهَا ، وَنَحُنت رُكْبتها ، فهذه إذا جاءت بالولد جاءت به كالَّيث ؛ وأما قَعَد النكاح ، فهن ذواتُ الأعجاز ، مُنكسِرات الثُّدِىِّ ، كثيرات اللحم يقرُب بعضهن من بعض ، فأولئك يَشْفِين القَرِم[٢] وَيُرْوين الظمآن ؛ وأما ذوات الأحلام ، فبناتُ خمس وثلاثين إلى الأربعين[٣] .

قال الحجاج : أخبرنى بشرِّ النساء ، قال : أصلح الله الأمير : شرُّهن الصغيرة النُّقْبَة[٤] ، الحَديدة الرُّكْبة ، السريعة الوَثْبَة ، الواسِطةُ[٥] فى نســاء الحى ، التى إذا غضِبت غضِب لها مائة ، وإذا سمِعت كلمةً قالت لا والله لا أنتهى حتى أُقِرَّها قَرَارَها ، التى فى بطنها جارية ، ويتبعها جارية ، وفى حجرها جارية ، قال الحجاج : على هــذه لعنة الله ، ثم قال : وَيْحك ، فأخبرنى بخير النساء ، قال : خيرهن القريبةُ القامةِ من السماء الكثيرة الأخذِ من الأرض ، الوَدُود الوَلُود ، التى فى بطنها غلام ، وفى حِجرها غلام ، ويتبعها غلام ، قال : ويحك فأخبرنى بشرِّ الرجال ، قال : شرهم السَّنُوط الرَّبُوط[٦] ، المحمود فى حَرَم الحىّ ، الذى إذا سقط لإحداهن دَلْوٌ فى بئر انحطَّ عليه حتى يُخرِجه ،

---

(١) انظر خطبته فى ص ٢٣٧ . (٢) القرم محركة : شدة شهوة اللحم ، وكثر حتى قيل فى الشوق إلى الحبيب . (٣) هنا سطر أسقطناه ، فلينظره فى الأصل من شاء . (٤) الوجه .

(٥) وسطهم (كوعد) : جلس وسطهم ، كتوسطهم . (٦) السنوط : الذى لاشعر فى وجهه ألبتة « الكوسج » كجعفر ، وفى الأصل « السبوط » بالباء ، ولم أجده فى كتب اللغة ، وإنما الذى فيها من هذه المادة : « أسبط بالأرض : لصق » فالوصف منه « مسبط » ومعناه على هذا : الكسل المتقاعد عن السعى ، والربوط ، يريد به الملازم لبيته الذى لايخرج منه للتصرف والعمل كأنه قد ربط نفسه فيه .

فمن يُزينه الخيرَ ، ويقلْنَ عافَى الله فلانًا ، قال : على هذا لعنة الله ، فاخبرني بخير الرجال ، قال : خيرهم الذي يقول فيه الشَّماخ التغلبيّ :

فتًى ليس بالراضي بأدْنَى معيشة ولا في بيــــوت الحيّ بالمتولِّج (١)

فتى يَمْلأُ الشِّيزَى ويُرْوِي سِنَانَه ويضرب في رأس الـكَمِيِّ المُدَجَّجِ (٢)

فقال له : حَسْبُك ، كم حَبَسْنا عطاءك ؟ قال : ثلاث سنــين ، فأمر له بها وخلَّى سبيله . (مروج الذهب ٢ : ١٤٧)

٣٩٤ - ابن القرية يعدد مساوئ المزاح

وقال الحجاج بن يوسف لابن القِرِّيَّة : ما زالت الحكماء تـكره المُزَاح وَتنهَى عنه ، فقال : « المزاح مِنْ أدنَى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب : المزاح أوَّلُه فَرَح وآخره تَرَح ، المزاح نقائض السفهاء كالشعر نقائض الشعراء ، والمزاح يُوغِر صـدر الصديق ، وينفرِّ الرفيق ، والمزاحُ يُبْدِي السرائر ، لأنه يُظهر المَعَاير ، والمزاح يُسقط المُروءة ، وَيُبْدِي الخَنَا ، لم يَجُرّ المزاح خيراً وكثيرًا ما جرّ شرًّا ، الغالِبُ بالمزاح واترٌ ، والمغلوب به ثائر ، والمزاح يجلُب الشتمَ صغيرُه ، والحربَ كَبيره ، وَليس بعد الحرب إلاّ عفوٌ بعد قدرة » ، فقَال الحجاج : « حسبُك ، الموت خير من عفوٍ معهُ قدرة » .

(زهر الآداب ٢ : ٨٥)

---

(١) الداخل .

(٢) الشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع ، يكنى عن كرمه ، والمدجج : الشاك في السلاح .

٣٩٥ — يزيد بن أبي مسلم وسليمان بن عبد الملك

لمّا وَلِي سليمان بن عبد الملك ، أُتى بيزيد بن أبي مُسْلم : مَوْلى الحجاج ، فى جامِعَة[1] ، وكان رجلا دَمِيما تقتحِمه[2] العين ، فلما رآه سليمان قال : لعن الله امرأ أجرّك رَسَنَك[3] ، وَوَلّى مثلك ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنك رأيتنى والأمر عنى مُدْبِر ، ولو رأيتنى والأمر علىّ مُقبل ، لاستعظمتَ من أمرى ما استصغرتَ ، ولاستجْللتَ ما استحقرتَ ، فقال له سليمان : « أين ترى الحجاج ، أيَهْوِى فى النار ، أم قد استقر فى قَعْرِها ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين : لا تقل هذا ، إنّ الحجاج قَمَع لكم الأعداء ، وَوَطّأ لكم المنابر ، وزرع لكم الهَيبة فى قلوب الناس ، وبعدُ فإنه يأتى يومَ القيامة عن يمين أبيك ، وشمال أخيك الوليد ، فضَعْه من النار حيث شئت » ، فصاح سليمان : اخرج إلى لعنة الله ، ثم التفت إلى جلسائه ، فقال : قبّحه اللهُ ما كان أحسن ترتيبَه لنفسه ولصاحبه ، ولقد أحسن المكافأة ، أطلقوا سبيله .

(أمالى السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، والعقد الفريد ١ : ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٠)

---

(١) الجامعة : القيد . (٢) تزدريه . (٣) الرسن : الحبل ، وأجره رسنه : تركه يصنع ماشاء ، يعنى الحجاج ، وكان سليمان يكتب إلى الحجاج فى أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كتبا فلا ينظر له فيها ، فحقد عليه ، وكتب إليه كتابا شديد اللهجة ، وفيه يقول « وأيم الله لئن أمكننى الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك ، ولأجعلنك شريدا فى الجبال ، تلوذ بأطراف الشمال » ويقول : فرويدك حتى تنظر كيف يكون مصيرك إن كانت بى وبك مدة أتعلق بها » فرد عليه الحجاج بكتاب يقول فيه : « ولعمرى إنك لصبى حديث السن تعذر بقلة عقلك ، وحداثة سنك ، ويرقب فيك غيرك » ويقول : « جمعت أمورا دلاك فيها الشيطان على أسوإ أمرك ، فكان الجفاء من خليقتك ، والحمق من طبيعتك ، وأقبل الشيطان بك وأدبر . . . الخ » انظر العقد الفريد ج ٣ ص ١٦ ، وقد مات الحجاج قبل أن يتولى سليمان الخلافة بسنة .

٣٩٦ — وفود العراق على سليمان بن عبد الملك

وقدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما اسْتُخْلِف ، فأمرهم بشتم الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : « إن عدو الله الحجاج كان عبداً زَبَّاباً[1] ، قِنَّوْر بن قِنَّوْر[2] ، لا نَسَبَ له في العرب » قال سليمان : أيّ شتم هذا ! إن عدو الله

---

(١) بائع زبيب ، قيل إنه كان يبيع الزبيب بالطائف ، وذكروا أنه كان أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه بالطائف — ويسمى كليبا — وفيه يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال ... وتعليمه سورة الكوثر ؟
رغيف له فلك دائر ... وآخر كالقمر الأزهر .

« يشير إلى خبز المعلمين ، فإنه مختلف في الصغر والكبر على قدر بيوت الصبيان » ويقول آخر :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف ... كما كان عبــدا من عبيد إياد
زمان هو العبــد المقر بذله ... يروّح صبيان القرى ويغادى

« راحهم وروحهم : ذهب إليهم رواحا » ، ثم صار دباغا كما يدل على ذلك هجاء كعب الأشقرى له ، وذلك أن المهلب بن أبي صفرة لما أطال قتال الأزارقة ، كتب إليه الحجاج يستبطئه ويضعفه ويعجزه في تأخير مناجزتهم ، فقال المهلب لرسوله : قل له : إن الشاهد يرى مالا يرى الغائب ، فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى ، فإن امكنتني الفرصة انتهزتها ، وإن لم تمكني فأنا أدبر ذلك بما يصلحه ، وإن أردت مني أن أعمل برأيك وأنت غائب ، فإن كان صوابا فلك ، وإن كان خطأ فعلي ، فابعث من رأيت مكاني » وقام كعب الأشقرى إلى المهلب ، فأنشده بحضرة رسول الحجاج أبياتا منها :

إن ابن يوسف غره من غزوكم ... خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا ... ضاقت عليه رحيبة الأقطار
ورأى معاودة الدباغ غنيمة ... أزمان كان محالف الإقتار

فبلغت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخاص كعب الأشقرى إليه ، فأعلم المهلب كعبا بذلك ، وأوفده إلى عبد الملك من ليلته ، وكتب إليه يستوهبه منه ، فقدم كعب على عبد الملك واستنشده ؛ فأعجبه ماسمع منه ، فأوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يقسم عليه أن يعفو عنه ، فلما دخل عليه قال : إيه يا كعب ، « ورأى معاودة الدباغ غنيمة » ! فقال له : أيها الأمير ، والله لقد وددت في بعض ماشاهدته في تلك الحروب وأزماتها ، ومايوردناه المهلب من خطرها ، أن أنجو منها ، وأكون حجاما ، أو حائكا ، فقال له الحجاج : أولى لك ، لولا قسم أمير المؤمنين لما نفعك ماأسمع ، فالحق بصاحبك ، وبعض الرواة ينكر هذا القول ، ويقول : هذه من أكاذيب الشعراء . — انظر الأغاني ج ١٣ ص ٥٧ ، وسرح العيون ص ١١٢ ، والعقد الفريد ٣ : ٦ . (٢) القنور : الشرس الصعب من كل شيء ، وكسنور : العبد .

الحجاج كتب إلىّ : « إنما أنت نقطة من مِداد ، فإن رأيت فىّ ما رأى أبوكَ وأخوكَ كنت لك كما كنت لهما ، وإلاّ فأنا الحجاج وأنت النقطة ، فإن شئت محوتك ، وإن شئت أثبتُّك » فالعنوه لعنه الله ، فأقبل الناس يلعنونه ، فقام ابن أبى بُرْدة بن أبى موسى الأشعرى فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنا نخبرك عن عدو الله بِعِلْم » قال : هاتِ ، قال : « كان عدو الله يتزيّنُ تزيُّنَ المُومِسَة[1] ، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار ، فإذا نزل عَمِل عَمَل الفراعنة ، وأكذبُ فى حديثه من الدَّجّال » ، فقال سليمان لرجاء بن حَيْوَة : « هذا وأبيك الشتمُ ، لا ما تأتى به السِّفْلة[2] » . (البيان والتبيين ١ : ٢١١)

٣٩٧ — كلام أبى حازم لسليمان بن عبد الملك

حج سليمان بن عبد الملك ، فلما قدِم المدينة للزيارة بعث إلى أبى حازم الأعرج ، وعنده ابن شِهاب ، فلما دخل قال : تكلم يا أبا حازم . قال : فِيمَ أتكلم ياأمير المؤمنين؟ قال : فى المَخْرَج من هذا الأمر . قال : يسيرٌ إن أنت فعلتَه . قال : ومَا ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا مِنْ حِلّها ، ولا تضَعْهَا إلا فى أهلها . قال : ومن يَقْوَى على ذلك ؟ قال : من قلّده الله من أمر الرعية ما قَلّدك ، قال : عظنى أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك . قال : يا أبا حازم أشر علىّ ، قال إنما أنت سوق ، فما نَفَق[3] عندك حُمِل إليك من خير أو شر ، فاختر أيّهما شئت. قال: مالك لا تأتينا ؟ قال: وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين؟ إن أدنيتنى فتَنْتَنِى ، وإن أقصيتنى أخزيتنى ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندى

---

(١) امرأة مومس ومومسة : فاجرة ، أو مجاهرة بالفجور «من الومس كوعد : وهو احتكاك الشىء بالشىء حتى ينجرد؛ وأومست : أمكنت من الومس » . (٢) سفلة الناس كنقمة وفرحة : أسافلهم وغوغاؤهم.
(٣) راج .

ما أخافك عليه : قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطانى منها قبِلْتُ ، وما منعنى منها رضيتُ .

(العقد الفريد ١ : ٣٠٦ ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٢)

٣٩٨ — أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضاً

ودخل عليه أبو حازم الأعرج ، فقال : يا أباحازم ما لنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم عمَّرتم دنياكم ، وأخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النُّقْلة من العُمْران إلى الخراب ، قال : فأخبرنى ، كيف القدوم على الله ؟ قال : أما المُحْسن فكالغائب يأتى أهله مسروراً ؟ وأما المسىء فكالعبد الآبق[1] يأتى مولاه محزوناً ، قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المَحارم ، قال : فأى القول أعدل ؟ قال : كلمة حق عند من تخافُ وترجو ، قال : فأى الناس أعقل ؟ قال : مَنْ عَمِل بطاعة الله ، قال : فأى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخرته بدنيا غيره ، قال : عِظْنى وأوجز ، قال : يا أمير المؤمنين ، نَزِّه ربك ، وعظِّمه أن يراك حيثُ نهاك ، أو يَفْقدك حيث أمرك ، فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال له بعض جلسائه : أسرفتَ وَيْحك على أمير المؤمنين ، فقال له أبو حازم : أسكت فإن الله عزّ وجلّ أخذ الميثاق على العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه ، ثم خرج فلما صار إلى منزله بعث إليه سليمان بمال ، فردَّه وقال للرسول : قل لهُ : والله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك ، فكيف أرضاه لنفسى ؟

(مروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٤٧)

---

(١) الآبق : الهارب .

٣٩٩ — وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز

لما استُخْلِف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، قَدِم عليه وفود أهل كل بلد ، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز ، فاشرأبَّ منهم غلام للكلام ، فقال عمر : مَهْلاً يا غلامُ ، لِيتكلمْ من هو أسَنُّ منك ، فقال الغلام : مهلا يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصْغَرَيه قلبِه ولسانه ، فإذا منح الله العبدَ لساناً لافظاً ، وقلبًا حافظًا ، فقد استجاد له الحِلْيَةَ ، ولو كان التقدم بالسنّ لكان فى هذه الأمة مَنْ هو أحق بمجلسك منك ، فقال عمر : صدقتَ ، تكلم ، فهذا السِّحر الحلال ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد التَّهنئة لا وفد المَرْزِئة[1] ، قدِمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله الذى مَنَّ بك علينا ، لم يُخْرِجنا إليك رغبةٌ ولا رهبة ، لأنا قد أمِنَّا فى أيامك ما خِفْنا وأدركْنا ما طلبنا ، فقال : عِظْنا يا غلامُ وأوجِز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن أناسًا غرَّهم حِلْمُ الله عنهم ، وطولُ أملِهم ، وحسنُ ثناء الناس عليهم ، فلا يغرَّنَّك حِلم الله عنك ، وطول أملك ، وحسن ثناء الناس عليك ، فتزِلَّ قَدَمك ، فنظر عمر فى سن الغلام ، فإذا هو قد أتت عليه بضعَ عَشرةَ سنة[2] ، فأنشأ عمر يقول :

تعلم فليس المرء يولد عالما ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا عِلْمَ عنده ... صغيرٌ إذا التفَّت عليه المحافل

(مروج الذهب ٢ : ١٦٩ ، وزهر الآداب ١ : ٩)

(١) رزأه ماله كجعل وعلم : أصاب منه شيئا ، ورزأه مرزئة : أصاب منه خيرا ، أى لسنا وافدين للعطاء.

(٢) وفى زهر الآداب : « فسأل عمر عن سن الغلام فقيل عشر سنين ».

٤٠٠ — خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنئه

وعزى خالد بن صفوان عمر بن عبد العزيز وهنأه بالخلافة ، فقال :

« الحمد لله الذى مَنَّ على الخلق بك ، والحمد لله الذى جعل موتكم رحمةً ، وخلافتكم عِصْمة ، ومصائبكم أُسْوَةً ، وجعلكم قدوة » (زهر الآداب ٣ : ٣٤٧)

٤٠١ — خطبة عبد الله بن الأهتم

دخل عبد الله بن الأهتم على عمر بن عبد العزيز — رحمه الله تعالى — مع العامة ، فلم يفجأ عمر إلا وهو ماثلٌ بين يديه يتكلم ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن الله خَلَق الخلق ، غنيًّا عن طاعتهم ، آمنًا من معصيتهم ، والناسُ يومئذٍ فى المنازل والرأى مختلفون ، والعرب بِشرٍّ تلك المنازل ، أهل الوَبَر وأهل المَدَر ، تحتازُ دونهم طيباتُ الدنيا وَرَفَاغَة[1] عيشها ، مَيِّتهم فى النار ، وحيُّهم أعمى ، مع ما لا يُحْصَى من المرغوب عنه ، والمزهود فيه ، فلما أراد الله أن يَنْشُر فيهم رحمته ، بعث إليهم رسولا منهم « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ، فلم يمنعهم ذلك أن جرَحوه فى جسمه ، ولقَّبوه فى اسمه[2] ، ومعه كتاب من الله لا يَرْحَل إلا بأمره ولا ينزل إلا بإذنه ، واضطروه إلى بطن غار ، فلما أُمر بالعزيمة أسْفَر لأمر الله لونُه ، فأَفْلَج[3] الله حُجَّته ، وأعلى كلمته ، وأظهر دعوته ، ففارق الدنيا نقيًّا تقيا ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قام بعده أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فسلك سُنَّته وأخذ سبيله ، وارتدت العرب فلم يقبل منهم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا الذى كان قابلا منهم ،

---

(١) الرفاغة والرفاغية : سعة العيش والخصب . (٢) فوصفوه بأنه ساحر ، وكذاب ، وكاهن ، وشاعر . (٣) نصر .

فانتضى السيوف من أغمادها ، وأوقد النيران من شُعَلها ، ثم ركب بأهل الحق أهلَ الباطل ، فلم يَبْرَح يفصِل أوصالهم ، ويسقى الأرضَ دماءهم ، حتى أدخلهم فى الذى خرجوا منهُ ، وقرّرهم بالذى نفَرُوا منه ، وقد كان أصاب من مال الله بَكْرًا[1] يرتوى عليه ، وحَبَشية تُرْضِع ولداً له ، فرأى ذلك غُصَّة عند موته فى حلقه ، فأدّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وَبَرِئَ إليهم منه ، وفارق الدنيا نقيًّا تقيًّا ، على مِنهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنه . ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فمصّر الأمصار ، وخالَط الشدة باللين ، فحسَر عن ذراعيه ، وشمّر عن ساقيه ، وأعدّ للأمور أقرانها[2] ، وللحرب آلتها ، فلما أصابه قِنّ[3] المغيرة بن شُعبة ، أمر ابن عباس يسأل الناس : هل يُثْبِتون قاتله ؟ فلما قيل له قِنّ المغيرة ، استهل[4] بحمد الله أن لا يكون أصابه ذو حق فى الفيء ، فيستحِلّ دمه بما استحلّ من حقه ، وقد كان أصاب من مال الله بضعًا وثمانين ألفًا ، فكسر بها رِباعه[5] ، وكرِه بها كفالة أهله وولده ، فأدّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وفارق الدنيا نقيًّا تقيًّا على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنهما ، ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ظُلّع[6] ، ثم إنك يا عمر ابن الدنيا ، ولدتك ملوكها ، وألقمتك ثَدْيَها ، فلما وَلِيتَها ألقيتَها حيث ألقاها الله ، فالحمد لله الذى جلا بك حَوْبتها[7] ، وكشف بك كُربتها ، امضِ ولا تلتفت ، فإنه لا يَذِلّ على الحقّ شىء ، ولا يعِزّ على الباطل شىء ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين والمؤمنات » ، ولما أن قال : « ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ظُلَّع » سكت الناس كلهم إلا هشامًا فإنه قال : « كذبت » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٩ . والعقد الفريد ٢ : ١٤٣ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٩ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٣٦) .

---

(١) الفتى من الإبل . (٢) أسبابها التى تقاد بها ، جمع قرن كسبب : وهو الحبل يجمع به البعيران .
(٣) القن : عبد ملك هو وأبوه ، أو الذى ولد عندك ولا تستطيع إخراجه عنك (٤) صاح .
(٥) الرباع جمع ربع كشمس : وهو الدار . (٦) جمع ظالع : وهو المتهم والمائل ، وأصله من ظلع البعير كمنع : غمز فى مشيه . (٧) الحوبة : الهم والحاجة .

٤٠٢ — مقام محمد بن كعب القرظىّ بين يدى عمر بن عبد العزيز

قام محمد بن كعب القَرَظىّ بين يدى عمر بن عبد العزيز، فقال :

« إنما الدنيا سُوقٌ من الأسواق، فنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم، وكم من قوم قد غرَّهم مثلُ الذى أصبَحْنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعَبَهُم، فخرجوا من الدنيا مُرْمِلين[1]، لم يَأخذوا لما أحَبُّوا من الآخِرَة عُدَّةً، ولا لِمَا كَرِهوا جُنَّةً، واقتسم ما جمعوا مَن لم يَحْمَدهم، وصاروا إلى من لا يَعْذِرهم، فانظر الذى تحبُّ أن يكون معك إذا قَدِمت، فقَدِّمه بين يديك حتى تخرج إليه، وانظر الذى تكرَه أن يكون معك إذا قَدِمت، فابتغ به البَدَلَ، حيث يجوز البدل، ولا تذهبنّ إلى سِلْعة قد بَارَتْ على غيرك، ترجو جَوَازَها عنك. يا أمير المؤمنين، افتح الأبواب، وسَهِّل الحِجَاب، وانصر المظلوم، ورُدَّ الظالم ».

(عيون الأخبار م ٢ ص ٣٤٣، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٣٤)

٤٠٣ — وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك

وفد أهل الحجاز من قريش على هِشَام بن عبد الملك بن مروان، وفيهم محمد ابن أبى الجَهْم[2] بن حُذَيفة العَدَوى، وكان أعظَمَهم قدراً، وأكبرهم سِنّاً، وأفضلَهُم رأياً وَحِلْماً، فقام متوكِئاً على عصا، فقال :

أصلح الله أمير المؤمنين، إن خطباء قريش قد قالت فيك فأطنَبَت، وأثْنَت عليك فأحسنت، ووالله ما بلغ قائلهم قدرَك، ولا أحصى مُثْنِيهم فضلَك، أفتأْذَنُ لى فى الكلام؟ قال: تكلم، قال: أفأوجز أم أُطْنِب؟ قال: بل أوجز، قال: « تولاَّكَ اللهُ أميرَ المؤمنين

---

(١) أرمل : نفد زاده وافتقر . (٢) فى الأمالى « إسمعيل بن أبى الجهم » .

بالحسنى ، وَزَيَّنك بالتقوى، وَجمع لك خيرَ الآخِرَة والأولَى، إن لى حوائجَ أفأذكرها؟ قال : هاتها ، قال : كَبِرَت سِنّى ، وضعُفت قواى ، واشتدت حاجتى ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبُر كسرى ، وَيَنْفِيَ فَقْرِى » ، قال : يابن أبى الجهم ، وما الذى يجبُر كسرك ، وينفِى فقرك ؟ قال : ألف دينار ، وألف دينار ، وألف دينار ، فأطرق هشام طويلاً ، ثم قال : هيهات يا بن أبى الجهم ، بيتُ المال لا يحتمل ما سألت ! فقال : أما إن الأمر لواحد ، ولكن الله آثرك لمجلسك ، فإن تُعْطِنا فحقّنا أدَّيْتَ ، وإن تمنعنا نسأل الذى بيده ما حوَيت ، إن الله جعل العطاء محبَّةً ، والمنع مَبْغَضَةً ، وَلَأَن أُحِبَّك أحبُّ إلَىَّ من أن أبْغِضك ، قال : فألف دينار لماذا ؟ قال : أقضى بها دينًا قد حُمّ[1] قضاؤه ، وَفَدَحنى[2] حَمْله ، وأرهقنى[3] أهلُه ، قال : نِعْمَ المسلك أسْلَكتها، دينًا قضيتَ ، وأمانة أديتَ ، وألف دينار لماذا ؟ قال: أزَوِّج بها من أدرك من ولدى ، فأشدّ بهم عَضُدى ويكثُر بهم عَدَدى قال : ولا بأس أغْضَضْتَ طَرْفا ، وحصَّنت فرجا ، وأمْرَتَ[4] نسلا ، وألف دينار لماذا ؟ قال : أشترى بها أرضًا يعيش بها ولدى ، وأستعين بفضلها على نوائب دهرى ، وتكون ذخراً لمن بعدى ، قال : ولا بأس ، أردتَ ذُخراً ، ورجوت أجراً ، ووصلت رَحِمًا ، قد أمرنا لك بما سألت ، قال : فالمحمودُ اللهُ على ذلك ، وجزاك الله يا أمير المؤمنين والرحمَ خيراً ، وخَرج ، فقال هشام : تالله ما رأيتُ رجُلاً ألطفَ فى سؤال ، ولا أرْفَق فى مَقَال من هذا ، هكذا فليكن القرشىّ ، وإنا لنعرف الحق إذا نَزَل ، ونكره الإسراف والبُخل ، وما نُعطى تبذيراً ، ولا نمنع تقتيراً ، وما نحن إلاّ خُزّان الله فى بلاده ، وأمناؤه على عباده ، فإن أذِن أعطينا ، وإذا منع أبَيْنا؛ ولو كان كل قائل يَصْدُق ، وكل سائل يستحق ، ماجَبَهْنا[5] قائلا ، ولا رَدَدنا سائلا ، فنسأل الذى بيده ما استحفَظَنا أن يُجْرِيه على أيدينا ، فإنه يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء

(١) حم الأمر : قضى وقدر . (٢) أثقلنى . (٣) الإرهاق : أن تحمل الإنسان على مالايطيقه . (٤) كثرت . (٥) جبهه كنحه : لقيه بما يكره .

وَيَقدِرُ[1] ، إنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، لقد تكلمت فأبلغتَ ، وما بلغ فى كلامه ما قَصَصْتَ ، فقال : إنه مبتدى ، وليس المبتدى كالمُقْتَدى .

(صبح الأعشى ١ : ٢٦٤ ، والأمالى ١ : ١٤٧ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٨٥)

٤٠٤ — مقام خالد بن صفوان بين يدى هشام

قال خالد بن صفوان : وفدت على هشام فوجدته قد بدأ يشرب الدُّهن ، وذلك فى عام باكَرَ وَسْمِيُّه ، وتتابع وَلِيُّه[2] ، وأخذت الأرض زُخْرُفَها ، فهى كالزَّرابىّ[3] المَبْثوثة ، والقباطِىّ[4] المنشورة ، وَثَرَاها كالكافور ، لو وُضِعَت به بَضْعَة[5] لم تُتْرَب[6] ، وقد ضُربت له سُرادقات حِبَر[7] ، بعث بها إليه يوسف بن عمر من اليمن ، تتلألأ كالعِقْيان[8] ، فأرسل إلىّ ، فدخلت عليه ، ولم أزل واقفاً ، ثم نظر إلىّ كالمستنطق لى ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتمَّ الله عليك نِعَمَه ، ودفع عنك نِقَمَه ، وجعل ما قَلَّدك من هذا الأمر رُشْدا ، وعاقبةَ ما يئول إليه حَمْدا ، وأخلَصَه لك بالتُّقَى ، وكثّره لك بالنَّماء ، ولا كدَّر عليك منه ما صَفَا ، ولا خالط سُرُورَه بالرَّدى ، فلقد أصبحتَ للمؤمنين ثقة ومُسْتَرَاحا ، إليك يقصدون فى مظالمهم ، ويفزَعون فى أمورهم ، هذا مَقَامٌ زَيَّنَ الله به ذِكْرى ، وأطاب به نَشْرى[9] ، إذ أرانى وجه أمير المؤمنين ، ولا أرى لمقامى هذا شيئاً هو أفضل من أن أنبّه أمير المؤمنين لفضل نعمة الله عليه ، ليحْمَد الله على ما أعطاه ،

---

(١) يقبض ويضيق . (٢) الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمى بذلك لأنه يسم الأرض ، والولى : المطر بعد الوسمى . (٣) جمع زربى بالكسر ويضم : النمارق والبسط ، أو كل مابسط واتكئ عليه (والنمارق : الوسائد الصغيرة) . (٤) قباطى بضم الأول مع تشديد الآخر ، وقباطى بفتح الأول مع تخفيف الآخر جمع قبطية بالضم على غير قياس ، وقد تكسر : ثياب كتان بيض رقاق كانت تعمل فى مصر .

(٥) البضعة وقد تكسر : القطعة من اللحم . (٦) أتربه وتربه : جعل عليه التراب .

(٧) حبر جمع حبرة كعنبة : ضرب من برود اليمن . (٨) العقيان : الذهب .

(٩) النشر : الرائحة الطيبة .

ولا شيء أحضَرُ من حديثٍ سَلَف لملك من ملوك العجم ، إن أذِن لى فيه حدَّثته به ؛ قال :هات ، قلت : « كان رجل من ملوك الأعاجم جُمِعَ له فَتاء[1] السِّنّ ، وصحّة الطباع ، وسَعَة المُلك ، وكثرة المال ، وذلك بالخَوَرْنق ، فأشرف يومًا ، فنظر ما حوْله ، فقال لمن حضره : هل علمتم أحداً أُوتى مثلَ الذى أوتيتُ ؟ فقال رجل من بقايا حَمَلَة الحُجَّة : إن أذِنت لى تكلمتُ . فقال : قل ، فقال : أرأيتَ ما جُمِع لك ، أشيء هو لك ، لم يزل ولا يزول ، أم هو شيء كان لمن قَبلك زال عنهُ ، وصار إليك ، وكذلك يَزُول عنك ؟ قال : لا . بل شيء كان لمن قبلى ، فزال عنه ، وصار إلىّ ، وكذلك يزول عنى ، قال: فسُررتَ بشيء تَذْهب لَذَّته ، وتبقى تَبِعَتَه ، تكون فيه قليلا، وتُرْتَهَن به طويلا ؟ فبكى وقال : أين المَهْرَب ؟ قال : إلى أحد أمرين : إما أن تُقيم فى ملكك ، فتعمَل فيه بطاعة ربك ، وإما أن تُلقِى عليك أمساحًا[2] ، ثم تلحَق بجبل ، تعبد فيه ربك . حتى يأتى عليك أجلُك، قال: فالى إذا أنا فعلت ذلك؟ قال: حياة لا تموت ، وشباب لا يَهْرَم ، وصحة لا تَسْقَم ، وملك جديد لاَ يَبْلَى ، قال : فإذا كان السحَر فاقرَعْ علىّ بابى ، فإنى مختار أحد الرأيين، فإن اخترت ما أنا فيه ، كنتَ وزيراً لا يُعْصَى، وإن اخترت فَلَوات الأرض وقفْر البلاد ، كنتَ رفيقاً لا يخالَف ، فقرع عليه عند السحر بابه ، فإذا هو قد وضع تاجه ، وخلع أطماره ، ولبس أمساحه ، وتهيأ للسياحة ، فلزما والله الجبل ، حتى أتاهما أجلهما » ، وأنشده قول عَدِىّ بن زيد :

وتفكَّرْ ربُّ الخَوَرنَقِ إذ أصـــبح يومًا وللهُدَى تفكِيرُ
سرَّه حالُه وكثرةُ ما يمْـــلِك والبحرُ مُعْرِضاً والسَّدِير[3]
فارعَوَى قلبُه ، فقال : وما غِبْـــطةُ حَىّ إلى الممات يصير ؟[4]

فبكى هشام وقام ودخل ، فقال لى حاجبه : لقد كَسَبْت نفسَك شراً ، دعاك أمير المؤمنين.

---

(١) الفتاء كسماء : الشباب . (٢) الأمساح جمع مسح كحمل : وهو الكساء من شعر كثوب الرهبان.

(٣) معرضا : من أعرض للشيء إذا ظهر وبرز . (٤) الغبطة : المسرة .

لتحدثه وتُلْهِيَه ، وقد عرفت علّته ، فما زدت على أن نَعيتَ إليه نفسَه ، فأقمت أيامًا أتوقع الشر ، ثم أتانى حاجبه ، فقال : قد أمر لك بجائزة ، وأذِن لك فى الانصراف .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤١ ؛ الأغانى ٢ : ٣٣)

٤٠٥ — خالد بن صفوان يصف جريراً والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لِشَبيبة بن عِقال — وعنده جرير والفرزدق والأخطل ، وهو يومئذ أمير — ألا تخبرنى عن هؤلاء الذين قد مَزّقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ، وأغْرَوا بين عشائرهم ، فى غير خير ولا برّ ولا نَفْع ، أيهم أشعر ؟ فقال شبيبة : « أما جرير فيغرِف من بحر ، وأما الفرزدق فينحَتُ من صخر ، وأما الأخطل فيُجيد المدح والفخر » ، فقال هشام : ما فسّرت لنا شيئاً نُحَصِّله ، فقال : ماعندى غير ماقلت . فقال لخالد بن صفوان : صِفهم لنا يابن الأهتم ، فقال :

« أما أعظمُهم فخراً ، وأبعَدهم ذكراً ، وأحسَنُهم عُذْراً ، وأسيرهم مَثَلاً ، وأقلهم غزَلا ، وأحلاهم عِلَلا ، الطَّامِى إذا زَخَر ، والحامى إذا زَأر[1] ، والسامى إذا خَطَر ، الذى إن هدَر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العِنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسَنُهم نعتًا ، وأمدحهم بيتًا ، وأقلُّهم فوْتًا ، الذى إن هجا وَضَع ، وإن مدح رفع ، فالأخطل ؛ وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكهم لعدوه ستراً ، الأغرُّ الأبلق ، الذى إن طَلَبَ لم يُسْبَق ، وإن طُلِبَ لم يُلْحَق ، فجرير ، وكلهم ذكىّ الفؤاد ، رفيع العماد ، وَارِى الزِّناد » .

فقال له مسلمة بن عبد الملك : ماسمعنا بمثلك ياخالد فى الأولين ، ولا رأينا فى الآخرين ، وأشهَدُ أنك أحسنهم وصفًا ، وألينهم عِطفًا ، وأعفهم مقالا ، وأكرمهم فعالا » .

فقال خالد : « أتم الله عليكم نِعمَه ، وأجزل لديكم قِسَمَه ، وآنسَ بكم الغُربة ،

---

(١) وفى رواية زهر الآداب : « إذا ذعر » .

وفرّج بكم الكُرْبة ، وأنت والله ما علمتُ أيها الأمير كريمُ الغِراس ، عالم بالناس ، جَواد في المَحْل[1] ، بَسّام في البَذْل ، حليم عند الطيش ، في ذِرْوة قريش ، ولُباب عبد شمس ، ويومُك خيرٌ من أمس » .

فضحك هشام وقال : « ما رأيت كتخلصك يابن صفوان في مدح هؤلاء ووصفهم ، حتى أرضيتَهم جميعًا ، وسَلِمْت منهم » .

(الأغاني ٧ : ٦٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٣)

٤٠٦ — خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة

قال أبو المنذر هِشام بن محمد السَّائِب الـكَلْبيّ : كان بِلال بن أبي بُردة[2] جَلْدا حين ابْتُلِيَ ، أحضره يوسف بن عمر في قيوده ، لبعض الأمر ، وهم بالحِيرَة ، فقام خالد بن صفوان ، فقال ليوسف : « أيها الأمير ، إن عدوَّ الله بِلالاً ضربني وحبسني ، ولم أفارق جماعةً ، ولا خلعتُ يداً من طاعة » ، ثم التفت إلى بلال فقال : « الحمد لله الذي أزال سلطانك ، وهدَّ أركانك ، وأزال جَمالك ، وغيَّر حالك ، فوالله لقد كنتَ شديدَ الحِجاب ، مستخفًا بالشريف ، مُظْهِراً للعصبيَّة[3] » .

فقال بلال : « يا خالد ، إنما استطَلْتَ عليَّ بثلاث ، هن معك عليَّ ، الأميرُ مُقْبِل عليك ، وهو عني مُعْرِض ؛ وأنت مُطْلَق ، وأنا مأسور ؛ وأنت في طينتك وأنا غريب » ، فأفحمه .

وكان سبب ضرب بلالٍ خالداً في ولايته ، أن بلالا مرَّ بخالد في مَوْكِب عظيم ، فقال خالد : سحابةُ صيف عن قليل تَقَشَّعُ[4] ، فسمعه بلال ، فقال : والله لا تَقَشَّعُ أو يصيبَك منها شُؤْبوب[5] بَرَدٍ ، وأمر بضربه وحبسه .

(زهر الآداب ٣ : ١٩٠)

---

(١) القحط والجدب . (٢) هو بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري .

(٣) وكان أصله من العرب اليمانين . (٤) تنكشف وتتفرق . (٥) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

٤٠٧ – خطبة الكميت بن زيد بين يدى هشام يستعطفه

روى صاحب العقد قال :

كان الكُمَيْت بن زيد الأسدى يمدح بنى هاشم ويعرِّض ببنى أمية ، فطلبهُ هِشام ، فهرب منهُ عشرين سنة[1] ، لا يستقرّ به القرارُ، من خوف هشام، وكان مَسْلَمَة بن عبدالملك له على هشام حاجةٌ فى كل يوم يَقضيها له ، ولا يردُّه فيها ، فلما خرج مسلمة يومًا إلى بعض صُيُوده ، أتى الناسُ يسلِّمون عليهِ ، وأتاه الكميت بن زيد فيمن أتى ، فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

قِفْ بالديار وُقُوفَ زائِرْ وتأَنَّ ، إنك غيرُ صاغِرْ[2]

حتى انتهى إلى قوله :

يا مَسْلَمَ بنَ أبى الوليـــدِ لِمَيِّتٍ إن شئت ناشِرْ[3]

عَلِقَتْ حِبَالِى مِن حبا لِك ذِمَّة الجار المُجاوِرْ

فالآنَ صِرْتُ إلى أُمَيَّـــةَ ، والأمورُ إلى المصايرْ

والآنَ كنتُ به المصيـــبَ كمُهْتَدٍ ، بالأمس حائرْ

فقال مسلمة : سبحانَ الله ! مَن هذا الهِنْدِكىّ[4] الجُلْحابُ[5] ، الذى أقبل من أُخْرياتِ الناس ، فبدأ بالسلام ، ثم أمَّا بعدُ ، ثم الشعر ؟ قيل لهُ : هذا الكميت بن زيد ، فأُعجب به لفصاحته وبلاغته ، فسألهُ مَسْلَمَة عن خبره ، وما كان فيهِ طول غيبتهِ ، فذكر لهُ سُخْط أمير المؤمنين عليهِ ، فضمِن لهُ مسلمةُ أمانَه ، وَتوجَّه به حتى أدخله على هشام — وهشام لا يعرفه — فقال الكميت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ،

---

(١) يلاحظ أن مدة خلافة هشام كانت عشرين سنة من سنة ١٠٥ — إلى سنة ١٢٥ هـ . (٢) صاغر : ذليل.

(٣) نشره وأنشره : أحياه . (٤) رجل هندكى : من أهل الهند ، (وهو هنا على التشبيه) .

(٥) الجلحاب : الشيخ الكبير ، والضخم الأجلح ، (والأجلح : الذى انحسر الشعر عن جانبى رأسه).

الحمد لله ، قال هشام : نعم . الحمد لله ، ما هذا ؟ قال الكميت : مبتدئ الحمد ومبتدعه ، الذى خصّ بالحمد نفسه ، وأمرَ به ملائكته ، جعله فاتحة كتابه ، ومنتهى شكره ، وكلام أهل جنّته ، أحمده حمدَ من علِمَ يقينًا ، وأبصر مُستَبينًا ، وأشهد لهُ بما شهد به لنفسه « قائمًا بالقسط[١] » وحدَه لا شريك لهُ ، وأشهد أن محمداً عبده العربىّ ، ورسوله الأمّىّ ، أرسله والناس فى هفَوات حَيْرة ، ومُدْلهمّات ظُلمة ، عند استمرار أُبّهة[٢] الضلال ، فبلَّغ عن الله ما أُمر به ، ونَصَح لأمته ، وجاهد فى سبيله ، وعبَدَ ربه ، حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

ثم إنى يا أمير المؤمنين ، تِهتُ فى حَيْرة ، وحِرتُ فى سَكْرة ، ادْلأمّ[٣] بى خطرُها ، وأهاب[٤] بى داعيها ، وأجابنى غاويها ، فاقطَوْطيْتُ[٥] إلى الضلالة ، وتسكّعت[٦] فى الظُّلمة والجهالة ، جائراً عن الحق ، قائلاً بغير صدق ، فهذا مَقامُ العائذ[٧] ، ومَنطِق التائب ، ومُبْصِر الهدى بعد طول العَمَى ، يا أمير المؤمنين كم من عاثرٍ أقلْتم عثرته ، ومجترم[٨] عفوتم عن جُرْمه » .

فقال له هشام — وأيقن أنه الكميت — وَيحَك ! مَن سَنَّ لك الغَواية ، وأهاب بك فى العَمَاية[٩] ؟ قال : الذى أخرج أبى آدم من الجنة : « فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » ، وأمير المؤمنين كريح رحمةٍ أثارتْ سحاباً متفرقاً ، فلَفَقَتْ[١٠] بعضه إلى بعض ، حتى التحم فاستحكم هَدْرُ[١١] رَعْده ، وتلألؤ برقه ، فنزل الأرضَ فرَوِيَتْ ، واخْضَلّت[١٢]

---

(١) العدل . (٢) الأبهة : العظمة والبهجة والكبر . (٣) ادلأم الليل : ادلهم أى اسود وأظلم ، وفى الأصل « اذلأم » وهو تصحيف . (٤) أى دعانى ؛ وفى الأصل « وأهب » وهو تحريف ؛ (ويقال أيضا هيبت به أى دعوته لينزو) . (٥) اقطوطى : قارب فى مشيه إسراعا .

(٦) تسكع : مشى مشيا متعسفا لايدرى أين يأخذ من بلاد الله ، وتحير . (٧) اللاجئ : المستجير.

(٨) جرم فلان وأجرم واجترم : أذنب . (٩) العماية : الغواية . (١٠) من لفق الثوب كضرب : ضم شقة إلى أخرى فخاطهما . (١١) من هدر البعير كضرب هدرا وهديرا : صوت ؛ وفى الأصل « هدار » وهو تحريف . (١٢) ابتلت .

واخضرّت، وأسقيت، فروى ظمآنها، وامتلأ عطشانها، فكذلك نعدّك أنت يا أمير المؤمنين، أضاء الله بك الظلمة الداجية[1] بعد العموس[2] فيها، وحقن بك دماء قوم أشعر خوفك قلوبهم[3]، فهم يبكون لما يعلمون من حزمك وبصيرتك، وقد علموا أنك الحرب وابن الحرب إذا احمرّت الحدق، وعضّت المغافير[4] بالهام، عزّ بأسك، واستربط جأشك[5]، مسعار هتّان، وكّاف[6] بصير بالأعداء، مغرى الخيل بالنّكراء[7]، مستغن برأيه عن رأى ذوى الألباب، برأى أريب، وحلم مصيب فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء، وتمّم عليه النّعماء، ودفع به الأعداء»، فرضى عنه هشام وأمر له بجائزة.

وروى صاحب الأغانى خطبة الكميت[8] فقال:

---

(١) المظلمة. (٢) فى الأصل: «الغموس» بالغين؛ وهو تحريف، والصواب «العموس» من عمس كـكرم وفرح عماسة وعموسا: اشتد واسود وأظلم. (٣) أشعر الخوف والهم قلبى: لزق به، وكل ماألزقته بشيء: أشعرته به. (٤) المغفر كمنبر، وبهاء؛ وككتابة: زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة؛ أو حلق يتقنع بها المتسلح. (٥) أى صار رابطا من ربط جأشه رباطة (بالكسر) اشتد قلبه. (٦) فلان مسعر حرب ومسعار: أى موقد نار الحرب، ومطر هتان: هطال، ووكاف كذلك، وهما كناية عن الجود.

(٧) النكراء: الأمر الشديد. (٨) وكان سبب غضب هشام على الكميت: أن حكيم بن عياش الكلبى كان ولعا بهجاء مضر والكميت مضرى — فكانت شعراء مضر تهجوه ويجيبهم، وكان الكميت يقول هو والله أشعر منكم، قالوا فأجب الرجل، قال إن خالد بن عبد الله القسرى — والى العراق وهو يمنى — محسن إلى، فلا أقدر أن أرد عليه، قالوا فاسمع بأذنك مايقول فى بنات عمك وبنات خالك من الهجاء، وأنشدوه ذلك فحمى الكميت لعشيرته؛ فقال قصيدته المذهبة؛ وبلغ ذلك خالدا فقال والله لأقتلنه، ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن؛ وتخيرهن نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب؛ فرواهن الهاشميات — وهى قصائد قالها الكميت فى مدح بنى هاشم، وكان معروفا بالتشيع لهم مشهورا بذلك، وتعد هذه القصائد من جيد شعره ومختاره وهى مطبوعة مشهورة — ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك، فاشتراهن جميعا، فلما أنس بهن استنطقهن، فرأى فصاحة وأدبا، فاستقرأهن القرآن فقرأن واستنشدهن الشعر، فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات؛ فقال: ويلكن! من قائل هذا الشعر؟ قلن الكميت بن زيد الأسدى، قال وفى أى بلد =

حمِد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال: « أما بعد : فإنى كنت أتَدَهْدَى ، فى غَمْرَةٍ،[1] وأعوم فى بحر غَواية ، أخنَى علىّ خَطَلُها ، واستفزّنى وهَلُها[2] ، فتحيرت فى الضلالة ، وتَسَكَّعت فى الجهالة ، مُهْرَعا عن الحق ، جائِراً عن القصد ، أقول الباطل ضلالا ، وأفوه بالبهتان وَبَالا ، وهذا مَقام العائذ ، مُبْصِر الهدى ، ورافض العَمَاية ؛ فاغسِل عنى يا أمير المؤمنين الحَوْبة[3] بالتَّوْبة ، واصفح عن الزّلة ، واعفُ عن الجَرِمَة[4] » ، ثم قال :

كم قال قائلكم لَعَا لك ، عند عَثْرته لِعَاثِرْ[5]

وغفرتمُ لذوى الذنوب من الأكابر والأصاغرْ

=هو ؟ قلن: فى العراق ثم فى الكوفة . فكتب إلى خالد عامله بالعراق : ابعث إلى برأس الكميت ، فبعث إليه خالد فى الليل ، فأخذه وأودعه السجن ، وعزم لينفذن أمر الخليفة فيه ، وأعمل الكميت الحيلة فى الفرار ، فبعث إلى زوجه حبى (بضم ففتح الياء المشددة) فلما دخلت عليه لبس ثيابها ، وتنقب نقابها ، وأقامها مكانه ، وخرج متنكرا ، وظل متواريا مدة ، حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه ، خرج ليلا فى جماعة من بنى أسد ، ومازال يسير حتى بلغ الشأم ؛ واستجار بمسلمة بن عبدالملك ، فأجاره واحتال له فى عفو الخليفة عنه ، فقال له : إن معاوية بن هشام مات قريبا ؛ وقد جزع عليه جزعا شديدا ، فإذا كان الليل فاضرب رواقك على قبره ، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك فى الرواق ، فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بثيابك ، ويقولوا : هذا استجار بقبر أبينا ، ونحن أحق من أجاره ؛ فأصبح هشام على عادته متطلعا من قصره إلى القبر ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : لعله مستجير بالقبر ؛ فقال : يجار من كان إلا الكميت فإنه لاجوار له ، فقيل : فإنه الكميت ، قال : يحضر أعنف إحضار ، فلما دعى به ربط الصبيان ثيابهم بثيابه ، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر ، وهم يقولون : ياأمير المؤمنين استجار بقبر أبينا ، وقد مات ومات حظه من الدنيا ، فاجعله هبة له ولنا ؛ ولاتفضحنا فيمن استجار به ، فبكى هشام حتى انتحب ؛ ثم أقبل على الكميت ؛ فقال له : ياكميت : أنت القائل كذا وكذا — مما أورده فى هاشمياته؟— فقال : لاوالله ؛ ولا أتاتان من أتن الحجاز وحشية ؛ ثم خطب بين يديه يستعطفه ، فعفا عنه وأجازه ، وتوفى الكميت سنة ١٢٦ هـ .

(١) دهدى الحجر فتدهدى : دحرجه ، كدهدهه ، والغمرة : الانهماك فى الباطل ، والشدة .

(٢) الوهل : الضعف والفزع . (٣) الحوبة : الإثم . (٤) الجرمة ككلمة : الجريمة .

(٥) يقال للعاثر : لعا لك ، وهو دعاء له بأن ينتعش .

أَبَنِي أُمَيَّةَ : إِنكُمْ أَهلُ الوسائلِ والأوامِرْ
ثِقَتِي لِكُلِّ مُلِمَّةٍ وعشيرتي دون العشائِرْ
أنتمْ مَعادِنُ للخلا فةِ كابراً من بعد كابِرْ
بالتِّسعةِ المتتابِعِين خلائفاً وبخيرِ عاشِرْ[1]
وإلى القيامةِ لا تزا لُ لِشافِعٍ منكم وواتِرْ

ثم قطع الإنشاد ، وعاد إلى خطبته فقال : « إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصَباحته[2] ، ومَناط المنتجعين بحَبْله ، مَنْ لا تَحُلُّ حُبْوَتَه لإساءة المذنبين ، فضلاً عن استشاطةِ غضبه بجهل الجاهلين ، فقال له : ويلَكَ يا كميت ! من زَيَّنَ لك الغَواية ، ودَلاَّكَ في العَمَاية ؟ قال : الذي أخرج أبانا من الجنة ، وأنساه العَهد ، فلم يجد له عَزْمًا » فرضي عنه ، وأمر له بجائزة .

(العقد الفريد ١ : ١٥٤ ، والأغاني ١٥ : ١١٣)

٤٠٨ — مخاصمة عديّ بن أرطاة لامرأته عند شريح القاضي

دخل عَدِيّ بن أَرْطَاة على شُرَيح[3] القاضي يخاصم امرأة له ، فقال : السلام عليكم ، قال : وعليكم ، قال : استمع مني ، قال : قل أَسْمَع ، قال : إني رجل من أهل الشأم ، قال : من مَكان سَحيق ، قال : وإني قَدِمت إلى بلدكم هذا ، قال : خيرَ مَقْدَم ، قال : وإني تزوجت امرأة ، قال : بالرِّفاء[4] والبنين ، قال : وإنها ولدت غلامًا ، قال : لِيَهْنِكَ الفارس ، قال : وقد كنتُ شرطْتُ لها صَداقها ، قال : الشرط أَملَكُ ، قال :

---

(١) هشام بن عبد الملك هو عاشر خلفاء بني أمية . (٢) الصباحة : الجمال ، صبح ككرم فهو صبيح .

(٣) هو أبو أمية شريح بن الحارث الكندي ، كان من كبار التابعين ، وأدرك الجاهلية ، واستقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة ، وقد أقام قاضيا خمسا وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة وذكاء ، ومعرفة ، وعقل ، وإصابة ، توفي سنة ٨٧ هـ ، وهو ابن مائة سنة ، وقيل ابن مائة وعشرين .

(٤) أي بالالتئام وجمع الشمل ، ورفأ الثوب كمنع : لأم خرقه ، وضم بعضه إلى بعض .

وقد أردت الخروج بها إلى بلدى ، قال : الرجل أحقُّ بأهله ، قال : فاقضِ بيننا . قال : قد فعلت ، قال : فعلى مَنْ حكمتَ ؟ قال : على ابن أمّك ، قال : بشهادة مَن ؟ قال بشهادة ابن أختِ خالتك .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٢٤)

٤٠٩ — كلمة لعمرو بن عتبة بن أبي سفيان

وقد تشاحَّ بنو هاشم ، و بنو أمية فى ميراث بينهم

عن سُفْيان بن عَمْرو بن عُتبة بن أبى سفيان قال : وقع ميراث بين بنى هاشم و بين بنى أمية ، تشاحُّوا فيه ، وتضايقوا ، فلما تفرقوا أقبل علينا أبونا عمرو ، فقال :

« يا بَنِيَّ : إن لقريش دَرَجًا تزلُّ عنها أقدامُ الرجال ، وأفعالًا تخشع لها رقابُ الأموال ، وغاياتٍ تقصُر عنها الجيادُ المُسَوَّمة[1] ، وألسُنًا تَكِلُّ عنها الشِّفار المشحوذة ولو اختلفت الدنيا ما تزيَّنت إلا بهم ، ولو كانت لهم ضاقت بِسَعة أخلاقهم ، ثم إنه ليخيَّل إلىَّ أنَّ منهم ناسًا تخلّقوا بأخلاق العوامّ ، فصار لهم رِفق فى اللؤم ، وخُرْق[2] فى الحِرْص ، ولو أمكنهم لقَاسَمُوا الطير فى أرزاقها ، إن خافوا مكروهًا تعجَّلوا له الفقر ، وإن عُجِّلَت لهم نعمةٌ أخَّرُوا عليها الشكر ، أولئك أنضاء[3] الفكر ، وعَجَزَة حَمَلَة الشُّكر » .

(الأمالى ٢ : ٢٣٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٤٠)

---

(١) الخيل المسومة : المرسلة وعليها ركبانها ، أو المعلمة ، أى التى جعل عليها سومة (بالضم) أى سمة وعلامة ، أو المرعية . (٢) كقفل وسبب : ضد الرفق ، وأن لايحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور.

(٣) جمع نضو كحمل : وهو المهزول .

٤١٠ - خطبة دينار

وكان سِماك بن عبيد العبسى فى حصار نهاوند (سنة ٢١ هـ) أسر رجلا من أهلها يسمى دينار فأتى - حذيفة بن اليمان فصالحه على الخراج - فنسبت إليه ماه.

وكان يواصل سماكا ويهدى له ويوافى الكوفة كلما كان عمله إلى عامل الكوفة فقدم الكوفة فى إمارة معاوية فقام فى الناس بالكوفة فقال :

« يا معشر أهل الكوفة : أنتم أول ما مررتم بنا، كنتم خيار الناس ، فعمِرتم بذلك زمان عمر وعثمان ؛ ثم تغيّرتم وفشت فيكم خصال أربع : بخل وخِب[1] وغدر وضيق ، ولم يكن فيكم واحدة منهن ، فرمقتكم فإذا ذلك فى مولَّديكم ، فعلمت من أين أتيتم ، فإذا الخب من قبل النبط ، والبخل من قبل فارس ، والغدر من قبل خراسان ، والضيق من قبل الأهواز » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٤٥)

٤١١ – رجل يمدح خالد بن عبد الله القسرى

وقال رجل لخالد بن عبد الله القَسْرى: « والله إنك لتبذُل ما جلّ، وتجبُر ما انفلّ، وتُكثِر ما قلّ ، ففضلك بديع ، ورأيك جميع ، تحفظ ما شذ ، وتؤلِّف ما ندّ » .

(زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

---

(١) الخب : الخداع .

خطب الخوارج وما يتصل بها

٤١٢ – خطبة حيان بن ظبيان السلمى

روى ابن جرير الطبرى فى تاريخه قال :

كان حَيَّان بن ظَبْيان السُّلَمى يرى رأى الخوارج – وكان ممن ارْتُثَّ[١] يوم النَّهْرَوان ، فعفا عنه علىّ عليهِ السلام ، فى الأربعمائةِ الذين كان عفا عنهم، من المرْتَثِّين يوم النهر – فكان فى أهله وعشيرته : فلبث شهراً أو نحوه ، ثم إنه خرج إلى الرَّىِّ ، فى رجال كانوا يرَوْن ذلك الرأى ، فلم يزالوا مقيمين بالرى حتى بلغهم قتل علىّ كرّم الله وجههُ ، فدعا أصحابَه أولئك ، وكانوا بِضعة عشر رجلا ، فأتوه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الإخوان من المسلمين : إنه قد بلغنى أن أخاكم ابن مُلْجَم أخا مُرَادٍ قعد لقتل علىّ بن أبى طالب عند أغباش[٢] الصبح ، مُقابِلَ السُّدَّة[٣] التى فى المسجد مسجد الجماعة ، فلم يبرح راكداً ينتظر خروجه ، حتى خرج عليهِ حين أقام المقيم الصلاة : صلاةَ الصبح ، فشدّ عليهِ ، فضرب رأسهُ بالسيف ، فلم يَبق إلا ليلتين حتى مات » .

فقال سالم بن ربيعة العبسى : لايقطعِ الله يميناً عَلَت قَذَالَه[٤] بالسيف ، فأخذ القوم يحمدون الله على قتله عليه السلام ، ورضى الله عنه ولا رضى عنهم ولا رحمهم ، ثم إن حيان بن ظبيان قال لأصحابه :

---

(١) ارتث : حمل من المعركة رثيثا ، أى جريحا وبه رمق . (٢) أغباش جمع غبش بالتحريك : وهو ظلمة آخر الليل . (٣) السدة : باب الدار ، وهى هنا مايبقى من الطاق المسدود .

(٤) القذال : جماع مؤخر الرأس .

« إنه واللهِ ما يَبْقَى على الدهر باقٍ ، وما يلبثُ الليالى والأيامُ ، والسّنونَ والشهورُ على ابن آدمَ ، حتى تُذِيقهُ الموتَ ، فيفارقَ الإخوان الصالحين ، ويدَعَ الدنيا التى لا يبكى عليها إلا العَجَزَةُ ، ولم تزل ضارَّةً لمن كانت له هَمّا وشَجَنًا[1] ، فانصرفوا بنا رَحِمَكم الله إلى مِصْرِنا ، فلْنَأْتِ إخواننا ، فلندْعُهم إلى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإلى جهاد الأحزاب ، فإنه لا عُذْرَ لنا فى القعود ، وَوُلاتُنا ظَلَمَةٌ ، وَسُنَّة الهُدَى متروكة ، وَثَأْرُنَا[2] الذين قتلوا إخواننا فى المجالس آمِنون ، فإن يُظْفِرنا الله بهم نَعمِدْ بَعْدُ إلى التى هى أهدَى وأرضَى وأقومُ ، وَيَشْفِى اللهُ بذلك صدُورَ قومٍ مُؤْمِنِينَ ، وإن نُقْتَل فإن فى مفارقة الظالمين راحةً لنا ، ولنا بأسلافنا أُسوة » .

فقالوا له : كُلُّنا قائلٌ ما ذكرتَ ، وحامدٌ رأيَك الذى رأيتَ ، فرِدْ بنا المِصْرَ ، فإنا معك راضون بهداك وأمرك ، فخرج وخرجوا معه مقبلين إلى الكوفة ، حتى نزلها ، فلم يزل بها حتى قدم معاوية ، وبعث المغيرة بن شُعْبة واليًا على الكوفة .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٩٩)

---

(١) الشجن : الهم والحزن .   (٢) الثأر : قاتل حميمك .

ائتمار الخوارج

ثم إن الخوارج فى أيام المغيرة فزِعوا إلى ثلاثة نفَرٍ منهم: المستَوْرِد بن عُلفة التَّيْمى ، وَحَيَّان بن ظَبْيَان السُّلَمى ، ومُعاذ بن جُوَيْن بن حُصَين الطائى ، فاجتمعوا فى منزل حيان بن ظبيان ، فتشاوروا فيمن يُوَلُّونَ عليهم ، فقال لهم المستورد :

٤١٣ — مقال المستورد بن علفة

« يأيُّها المسلمون والمؤمنون ، أراكم الله ما تحبُّون ، وعزل عنكم ما تكرهون ، وَلُّوا عليكم مَنْ أحببتم ، فوالذى يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ[1] ومَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، ما أبالى مَنْ كان الوالى علىَّ منكم ، وما شرفَ الدنيا نريد ، وما إلى البقاء فيها من سبيل ، وما نريد إلا الخلودَ فى دار الخلود » .

٤١٤ — مقال حيان بن ظبيان

فقال حيان بن ظبيان : « أما أنا فلا حاجة لى فيها ، وأنَا بك وبكل امرئ من إخوانى راض ، فانظُروا مَن شئتم منكم فسَمُّوه ، فأنا أوّل من يبايعه » .

---

(١) بمسارقتها النظر إلى المحرم .

٤١٥ — مقال معاذ بن جوين

فقال لهم معاذ بن جوين : « إذا قلتما أنتما هذا ، وأنتما سيدا المسلمين ، وَذَوَا أنسابهم ، فى صلاحكما ودينكما وَقَدْرِكما ، فمن يَرْأَس المسلمين ؟ وليس كلكم يصلُحُ لهذا الأمر ، و إنما ينبغى أن يَلِى على المسلمين — إذا كانوا سواء فى الفضل — أبصرُهم بالحرب ، وأفقهُهم فى الدين ، وأشدُّهم اضطلاعاً [1] بما حُمِّل ، وأنتما بحمد الله ممن يُرْضَى لهذا الأمر ، فليَتَوَلَّه أحدكما » :

قالا : فتولَّه أنت : فقد رضيناك ، فأنت — والحمد لله — الكاملُ فى دينك ورأيك ، فقال لهما : أنتما أَسَنُّ منى ، فليتولَّه أحدكما ، فقال حينئذ جماعة من حضر : قد رضينا بكم أيها الثلاثة ، فولُّوا أيَّكم أحببتم ، وكانت خاتمة ذلك النقَّاش أن بايعوا المستورد ، واتَّعدوا أن يتجهَّزوا و يتيسَّروا و يستعدُّوا ، ثم يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٠٠)

٤١٦ — خطبة المغيرة بن شعبة أمير الكوفة

يحذر أهلها من إيواء الخوارج ونصرتهم

وَنَمَى إلى المُغِيرة بن شُعْبة أن الخوارج خارجة عليه ، فقام فى الناس ، فحمِد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد علِمتم أيها الناس أنى لم أزل أحِبّ لجماعتكم العافيةَ ، وأكُفُّ عنكم الأذى ، و إنى والله لقد خشيتُ أن يكون ذلك أدبَ سَوْء لِسُفهائكم ، فأمَّا الحُلَماء الأتقياء فلا ، وايمُ الله لقد خشيتُ أن لا أجد بُدًّا من أن يُعصَب الحليم التقىّ ، بذنبِ

---

(١) أى قوة على حمله .

السفيه الجاهل ، فكُفُّوا أيها الناس سفهاءكم، قبل أن يشمَل البلاء عَوامَّكم، وقد ذُكِر لى أن رجالا منكم يريدون أن يظهَرُوا فى المصر بالشِّقاق والخلاف ، وأَيمُ اللهِ لا يخرجون فى حَيّ من أحياء العرب فى هذا المصر إلا أَبَدْتُهم ، وجعلتهم نَكَالاً لمن بعدهم ، فنظرَ قومٌ لأنفسهم قبل الندم ، فقد قمت هذا المقام إرادةَ الحجَّة والإعْذار » .

ثم نزل ، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم ، ثم قال لهم :

« إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم ، وقد قلت ما قد سمعتم ، فليكفِنى كلُّ امرئٍ من الرؤساء قومَه ، وإلاَّ فوالذى لا إله غيرُه لأتحوَّلَنَّ عما كنتم تعرفون ، إلى ما تُنكِرُون وعما تحِبون إلى ما تكرهون ، فلا يلُمْ لائمٌ إلا نفسَه ، وقد أعذَر من أنذر » .

فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم ، فناشدوهم اللهَ والإسلام إلاَّ دلُّوهم على من يرَون أنه يريد أن يَهِيجَ فتنة ، أو يفارق جماعة ، وجاء صعصعة بن صُوحان ، فقام فى عبد القيس ، فقال :

٤١٧ — خطبة صعصعة بن صوحان

«يا معشر عباد الله : إن اللهَ — وله الحمدُ كثيراً — لمَّا قسم الفضلَ بين المسلمين خصَّكم منه بأحسن القَسْم ، فأجبتم إلى دين الله ، الذى اختاره الله لنفسه ، وارتضاه لملائكته ورُسُله ، ثم أقمتم عليه حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلف الناس بعده ، فثبتَت طائفةٌ ، وارتدَّت طائفة ، وأدْهَنَت طائفة ، وتربَّصت طائفة ، فلزِمتم دينَ الله إيمانًا به وبرسوله ، وقاتلتم المرتدِّين، حتى قام الدين ، وأهلك الله الظالمين، فلم يزل الله يَزيدكم بذلك خيراً فى كل شىء ، وعلى كل حال ، حتى اختلفت الأمة بينها ، فقالت طائفة : نريد طلحة والزبير وعائشة ، وقالت طائفة : نريد أهل المغرب[1] ، وقالت

---

(١) أى معاوية ، وكان واليا على الشام ، وهى بالنسبة للعراق فى المغرب .

طائفة : نريد عبد الله بن وَهب الراسبي : راسب الأزْد ، وقلتم أنتم : لا نريد إلا أهل البيت ، الذين ابتدأنا اللهُ من قِبَلهم بالكرامة ، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً ، فلم تزالوا على الحق لازمين له ، آخذين به ، حتى أهلك الله بكم ، وبمن كان على مثل هُدَاكم ورأيكم ، الناكثينَ يومَ الجمل ، والمارقين يوم النهر ، (وسكت عن ذكر أهل الشأم لأن السلطان كان حينئذ سلطانَهم) ، ولا قومَ أعدى لله ولكم ، ولأهل بيت نبيكم ، ولجماعة المسلمين ، من هذه المارقة الخاطئة ، الذين فارقوا إمامنا[1] . واستحلُّوا دماءنا ، وشهدوا علينا بالكفر ، فإياكم أن تُؤْوُوهم في دُوركم ، أو تكتموا عليهم ، فإنه ليس ينبغي لحيّ من أحياء العرب أن يكون أعدَى لهذه المارقة منكم ، وقد والله ذُكر لي أن بعضهم في جانب من الحي ، وأنا باحث عن ذلك وسائلٌ ، فإن كان حُكِيَ لي ذلك حقًّا ، تقربت إلى الله تعالى بدمائهم ، فإن دماءهم حلال ، ثم قال : يا معشر عبد القيس : إن وُلاتنا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرأيكم ، فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلا ، فإنهم أسرعُ شيء إليكم وإلى أمثالكم » .

وأقبل أصحاب المستورد يأتونه ، فليس منهم رجل إلاّ يُخبره بما قام به المغيرة بن شعبة في الناس ، وبما جاءهم رؤساؤهم وقاموا فيهم ، وقالوا له : اخرج بنا فوالله ما نأمن أن نؤخَذ في عشائرنا ، فخرج بهم من الكوفة ، ووجَّه المغيرة لقتالهم مَعْقل بن قيس الرِّياحيَّ فلما علم المستورد بمَسِير معقل إليه جمع أصحابه . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٠٦)

(١) أى علياً عليه السلام .

٤١٨ - خطبة المستورد

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن هذا الخَرِف مَعْقِل بن قيس قد وُجِّه إليكم ، وهو من السَّبَئِيَّة[1] المفترين الكاذبين ، وهو لله ولكم عدو ، فأشيروا علىّ برأيكم » . فقال له بعضهم : والله ما خرجنا نريد إلا اللهَ ، وجهادَ مَن عادى الله ، وقد جاءونا فأين نذهب عنهم ؟ بل نقيم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقالت طائفة أخرى : بل نعتزل ونتنحَّى ، ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء .

فقال : « يا معشر المسلمين : إنى والله ما خرجت ألتمس الدنيا ، ولا ذِكرها ، ولا فَخْرها ، ولا البقاء ، وما أُحِبُّ أنها لِى بحذافيرها ، وأضعافِ ما يُتنافَس فيه منها ، بقِبَال[2] نَعْلى ، وما خرجت إلا التماسَ الشهادة ، وأن يَهْدِينى الله إلى الكرامة ، بهوان بعض أهل الضلالة ؛ وإنى قد نظرت فيما استشرتكم فيه ، فرأيت أن لا أُقيم لهم حتى يَقْدَموا علىّ ، وهم حامُون متوافِرون ، ولكن رأيت أن أسير حتى أُمعِن ، فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا فى طلبنا ، فتقطعوا وتبدَّدوا ، فعلى تلك الحال ينبغى لنا قتالُهم ، فاخرجوا بنا على اسم الله عز وجل » .

---

(١) السبئية : أتباع عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى من صنعاء ، أسلم زمن عثمان ثم تنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، وغلا فى على ، وزعم أنه نبى . ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ، ودعا إلى ذلك قوما من غواة الكوفة وأتى قوم منهم إلى على فقالوا له : أنت هو ، قال : ومن هو ؟ قالوا : أنت الله ، فاستعظم الأمر ، وأمر بنار فأججت فى حفرتين ، وأحرقهم بها ، فجعلوا يقولون وهم يرمون فى النار : الآن صح عندنا أنه الله ، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله ، ثم إن عليا خاف من إحراق الباقين منهم شماتة أهل الشام ، وخاف اختلاف أصحابه عليه ، فنفى ابن سبأ إلى ساباط المدائن ، فلما بلغه مقتل على قال : لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ما صدقنا موته ، وزعم أن المقتول لم يكن عليا ، وإنما كان شيطانا تصور الناس فى صورة على ، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ، ومن ابن سبأ انشعبت أصناف الغلاة . (٢) قبال النعل : زمام بين الأصبع الوسطى والتى تليها .

فخرجوا فمضَوْا على شاطئ دجلة ، فعبروه ومضوا فى أرض جُوخَى ، حتى بلغوا المَذَار فأقاموا فيها ، وأقبل معقل بن قيس ، فأقام بالمدائن ثلاثاً ، ثم جمع أصحابه ، فقال :

(تاريخ الطبرى ٦ : ١١٠)

٤١٩ — خطبة معقل بن قيس

« إن هؤلاء المارقة الضُّلّال إنما خرجوا فذهبوا على وجوههم ، إرادة أن تتعجلوا فى آثارهم ، فتتقطعوا وتتبدَّدوا ، ولا تلحَقُوا بهم إلا وقد تعِبتم ونَصِبتم [1] ، وإنه ليس شىء يدخل عليكم من ذلك إلا وقد يدخل عليهم مثله » فخرج فى آثارهم حتى لحقهم بالمذار مقيمين.

ودارت بينهما رَحَى الحرب بشدة ، ودعا المستورد مَعْقِلا للمبارزة فتبارزا ، وطعنه المستورد حتى خرج سنان الرمح من ظهره ، وضربه معقل بالسيف حتى خالط سيفُه أمَّ الدِّماغ ، فوقع ميتاً ، وقُتل معقِل ، وشدَّ أصحابه على الخوارج ، فما لبثوهم أن قتلوهم.

(تاريخ الطبرى ٦ : ١١١)

٤٢٠ — كلمات حكيمة للمستورد

كان المستورد يقول : إذا أفضيتُ بسِرِّى إلى صديق فأفشاه لم أَلُمْه ، لأنى كنت أولَى بحِفظه ، ويقول : لاتفْش إلى أحدٍ سرًّا وإن كان مخلِصًا إلا على جهة المشاورة ، ويقول : كن أحرصَ على حفظ سِرِّ صاحبك ، منك على حَقْنِ دمك ، ويقول : أوّل ما يَدُلُّ عليه عائبُ الناس معرفتُه بالعيوب . ولا يَعيب إلا مَعِيبٌ ، ويقول : المال غير باقٍ عليك ، فاشترِ من الحمد ما يبقى عليك ، ويقول : بذلُ المال فى حقِّه استدعاء للمَزيد من الجَوَاد [2] ، وكان يُكثِر أن يقول : لو ملكتُ الأرض بحذافيرها ، ثم دُعيت إلى أن أستفيد بها خطيئة ما فعلت .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٥٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ص ٤٥٣)

---

(١) تعبتم .　(٢) أى من المولى الكريم جل وعلا .

ائتمار الخوارج ثانية

٤٢١ — خطبة حيان بن ظبيان

فلما كانت سنة ٥٨ هـ ، جمع حَيَّان بن ظبيان السُّلَمِيّ أصحابه إليه ، ثم إنه حَمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال لهم :

« أما بعد ، فإن الله عزَّ وجلَّ كتب علينا الجهاد ، فَمِنَّا مَنْ قَضَى نَحْبَهُ[1] ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَظِرُ ، وأولئك الأبرارُ الفائزون بفضلهم ، ومن يكن منَّا مَنْ ينتظر فهو من سَلَفنا القاضينَ نحبَهم ، السابقين بإحسان ، فمن كان منكم يريد الله وثوابَه ، فليَسْلُك سبيلَ أصحابه وإخوانه ، يُؤْتِهِ اللهُ ثَوَابَ الدُّنيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ، وَاللهُ مَعَ المُحْسِنِينَ »

٤٢٢ — خطبة معاذ بن جوين

قال مُعاذ بن جُوَيْن الطائي : « يأهل الإسلام : إنا والله لو علمْنا أنَّا إذا تركْنا جهادَ الظَّلَمَة ، وإنكارَ الجَوْر ، كان لنا به عند الله عُذرٌ ، لكان تركُهُ أيْسَرَ علينا وأخفَّ من ركوبه ، ولكنا قد علِمْنا واستيْقنّا أنه لا عُذْرَ لنا ، وقد جَعَل لنا القلوبَ والأسماعَ ، حتى نُنكِر الظلم ، ونغيِّر الجور ، ونجاهد الظالمين » . ثم قال ابسُط يدك نبايعك ، فبايعه ، وبايعه القوم ، فضربوا على يد حَيَّان فبايعوه ، وذلك فى إمارة عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفى[2] » .

* * *

(١) النحب : الأجل والنذر .   (٢) وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان .

ثم إن القوم اجتمعوا بعد ذلك بأيام إلى منزل مُعاذ بن جوين ، فقال لهم حيان : عباد الله ، أشيروا برأيكم ، أين تأمرونني أن أخرج ؟ فقال مُعاذ : إني أرى أن تسير بنا إلى حُلْوان[1] حتى ننزلها ، فإنها كُورة بين السهل والجبل ، وبين المِصر والثَّغر — يعني بالثغر الرّيّ — فمن كان يرى رأينا من أهل المصر والثَّغر والجبال والسَّواد[2] لحق بنا .

٤٢٣ — رد حيان بن ظبيان

فقال له حيان : « عَدُوُّكَ مُعاجِلُك قبل اجتماع الناس إليك ، لعمري لا يتركونكم حتى يجتمعوا إليكم ، ولكن قد رأيت أن أخرج معكم في جانب الكوفة والسَّبَخة ، أو زُرارة[3] والحِيرة ، ثم نقاتلهم حتى نلحق بربنا ، فإني والله لقد علمت أنكم لا تقدرون — وأنتم دون المائة رجل — أن تهزموا عدوكم ، ولا أن يشتد نكايتكم فيهم ، ولكن متى علم الله أنكم قد أجهدتم أنفسكم في جهاد عدوه وعدوكم ، كان لكم به العُذْرُ ، وخرجتم من الإثم » قالوا : رأينا رأيك .

٤٢٤ — مقال عتريس بن عرقوب

فقال لهم عِتْرِيس بن عُرْقوب : ولكن لا أرى رأيَ جماعتكم ، فانظروا في رأيِ لكم ، إني لا إخالكم تجهلون معرفتي بالحرب ، وتجربتي للأمور ، فقالوا له : أجَلْ ، أنت كما ذكرت ، فما رأيك ؟ قال : ما أرى أن تخرجوا على الناس بالمِصْر ، إنكم قليل في كثير ، والله ما تَزيدون على أن تُجْزِروهم[4] أنفسكم ، وتُقِرُّوا أعينهم بقتلكم ، وليس هكذا تكون المكايدة ، إذا آثرتم أن تخرجوا على قومكم ، فكيدوا عدوكم

(١) بلد بفارس . (٢) أي سواد العراق . (٣) محلة بالكوفة . (٤) أي تملكوهم .

مايضرهم » قالوا : فما الرأى ؟ قال : تسيرون إلى الكُورة التى أشار بنزولها مُعاذ ابن جُوين ، يعنى حُلوان ، أو تسيرون بنا إلى عين التَّمْر ، فنقيم بها ، فإذا سمع بنا إخواننا أتَوْنا من كل جانب وأوْب(١) » .

٤٢٥ – رد حيان

فقال له حيان : « إنك والله لو سِرْت بنا أنت وجميع أصحابك نحو أحد هذين الوجهين ، ما اطمأننتم به حتى يلحَق بكم خيول أهل المصر ، فأنّى تَشْفُون أنفسكم ؟ فوالله ما عدّتكم بالكثيرة ، التى ينبغى أن تطمعوا معها بالنصر فى الدنيا على الظالمين المعتدين ، فاخرجوا بجانب من مِصركم هذا ، فقاتِلُوا عن أمر الله مَنْ خالف طاعة الله ، ولا تَرَبَّصُوا ولا تنتظروا ، فإنكم إنما تبادرون بذلك إلى الجنة ، وتخرجون أنفسكم بذلك من الفتنة » قالوا : أما إذا كان لابدّ لنا ، فإنا لن نخالفك ، فاخرج حيث أحببت .

٤٢٦ – خطبة حيان

ثم إن أصحاب حيان بن ظبيان اجتمعوا إليه ، فقال لهم : يا قوم : إن الله قد جمعكم لخيْرٍ ، وعلى خيرٍ ، والله الذى لا إلهَ غيرُهُ ، ما سُررت بشىء قط فى الدنيا بعد ما أسلمتُ سرورى لمخرجى هذا على الظلَمة الأئمّة ، فوالله ما أحبّ أن الدنيا بحذافيرها لى ، وأن الله حرَمنى فى مخرجى هذا الشهادةَ ، وإنى قد رأيت أن نخرج حتى ننزل جانب دار جرير فإذا خرج إليكم الأحزاب ناجزتموهم » .

فقال عِتريس بن عُرقوب : أمّا أن نقاتلهم فى جوف المصر ، فإنه يقاتلنا الرجال ،

---

(١) الأوب : الطريق والجهة .

وتصمَد النساء والصِّبيان والإماء فيرموننا بالحجارة ، فقال لهم رجل منهم : انزلوا بنا إذن من وراء المصر الجسرَ — وهو موضع زُرارة ، وإنما بنيت زرارة بعد ذلك إلا أبياتاً يسيرة كانت منها قبل ذلك — فقال لهم معاذ بن جوين : لا . بل سيروا بنا فلننزل بَانِقيَا[1] ، فما أسرعَ ما يأتيكم عدوكم ، فإذا كان ذلك استقبلْنا القوم بوجوهنا ، وجعلنا البيوت فى ظهورها ، فقاتلناهم من وجه واحد ، فخرجوا ، فبُعث إليهم جيشٌ ، فقُتلوا جميعاً .　　　　　　　　(تاريخ الطبرى ٦ : ١٧٢)

٤٢٧ — خطبة مسلم بن عبيس

حين خرج لقتال الأزارقة

لما ملك نافع بن الأزرق — زعيم الأزارقة[2] — بلاد الأهواز ، وفشا عماله فى السَّواد ارتاع لذلك أهلُ البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس ، فشكَوا ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان ، وسيرتهم ما ترى ، فقال الأحنف : إن فِعْلهم فى مصركم إن ظفِروا به كفِعلهم فى سوادكم ، فجِدُّوا فى جهاد عدوكم ، فاجتمع إليه عشرة آلاف ، فأتى عبدَ الله بن الحرث بن نَوْفل أمير البصرة ، فسأله أن يؤمِّر عليهم فاختار لهم مُسْلم بن عُبَيْس ، وكان ديِّناً شجاعاً ، فأمَّره عليهم وشيَّعه .

---

(١) بانقيا : ناحية من نواحى الكوفة .　　(٢) قدمنا لك فى «مناظرة عبد الله بن الزبير للخوارج» أن الخوارج كانوا قد مضوا إلى مكة سنة ٦٤ ليمنعوا الحرم من جيش يزيد ، وناصروا ابن الزبير ، وقاتلوا معه ، ثم ناظروه : فلم يرقهم ما سمعوا منه ، فتفرقوا عنه ، وصارت طائفة كبيرة منهم إلى البصرة ، وبايعوا نافع بن الأزرق الحنفى ، وسموه أمير المؤمنين ، وخرج بهم إلى الأهواز ، فغلبوا عليها وعلى ما وراءها من أرض فارس وكرمان ، ونسبوا إليه فقيل لهم : الأزارقة ، وهذه الفرقة من أشد فرق الخوارج بأساً ، وأصلبها عوداً ، وأكثرها عدداً وأحفلها حوادث وأنباء .

فلما نفذ من جسر البصرة أقبل على الناس فقال : « إنى ما خرجت لامتيار[1] ذهب ولا فضة ، وإنى لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفُهُم ورماحُهم ، فمن كان شأنُه الجهادَ فلينهَض ، ومن أحب الحياة فليرجع » .

فلما صاروا « بِدُولَابَ » خرج إليهم نافع ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وقتل فى المعركة ابن عبيس وابن الأزرق سنة ٦٥ هـ .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٨٠)

(١) أى لجلب ، وأصله من امتار لأهله : جلب لهم الميرة بالكسر ، وهى الطعام .

خطب المهلب بن أبي صفرة

٤٢٨ — خطبته فى حث جنده على قتال الأزارقة

وكَانَ المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة ـ وهو على قتال الأزارقة ـ يأمر أصحابه بالتحرُّز ويخوفهم البَيَاتَ ، وإن بعُد منهم العدوّ ، ويقول : « احذروا أن تُكادوا كما تَكيدون ، ولا تقولوا هَزَمنا وغَلَبْنا . فإن القوم خائفون وَجِلون ، والضرورةُ تفتح باب الحيلة » ثم قام فيهم خطيبًا فقال : « يأيها الناس ، إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم إن قَدَروا عليكم فتنوكم فى دينكم ، وسفكوا دماءكم فقاتلوهم على ما قاتل عليه أوَّلَهُم عليٌّ بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فقد لَقِيهم قبلكم الصابر المحتسِب مُسْلِم بن عُبَيْس ، والعَجِل المفرِّط عثمان بن عُبَيْد الله[1] ، والمَعْصِيُّ المخالَف

---

(١) هو أخو عمر بن عبيد الله بن معمر الذى ولاه ابن الزبير البصرة (تولاها بعد عبد الله بن الحرث ابن نوفل) . وولى عثمان محاربة الأزارقة بعد مسلم بن عبيس ، فخرج إليهم فى اثنى عشر ألفا ، فلما عبروا إليهم دجيلا نهض إليهم الخوارج —وذلك قبيل الظهر— فقال عثمان بن عبيد الله لحارثة بن بدر : أما الخوارج إلا ماأرى ؟ فقال له حارثة : حسبك بهؤلاء ، فقال : لا جرم ، والله لا أتغدى حتى أناجزهم ، فقال له حارثة : إن هؤلاء لايقاتلون بالتعسف ، فأبق على نفسك وجندك ، فقال : أبيتم أهل العراق إلا جبنا ؛ وأنت ياحارثة ماعلمك بالحرب ؟ أنت والله بغير هذا أعلم (يعرض له بالشراب) فغضب حارثة فاعتزل وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قتيلا ، وانهزم الناس ، وولى حربهم بعده حارثة بن بدر فهزموه أيضا ، فهرب يركض حتى أتى دجيلا ؛ فركب سفينة هو وجماعة من أصحابه ، وأتاه رجل من بنى تميم ، وعليه سلاحه ، والخوارج وراءه ، فصاح به : ياحارث ليس مثلى ضيع ، فقال الملاح : قرب ، فقرب إلى جرف ، فطفر بسلاحه فى السفينة ، فساخت بالقوم جميعا ، فماتوا غرقا ، وتوجه الخوارج نحو البصرة ، ففزع الناس ، وخافوهم خوفا شديدا ، واختاروا لقتالهم المهلب بن أبى صفرة ، فولاه القباع (وهو الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى ، والى البصرة من قبل ابن الزبير بعد عمر بن عبيد الله) .

حارثة بن بدر ، فَقُتِلوا جميعًا وقَتلوا ، فالقومُ بجِد وحَدّ فإنما هم مَهَنتكم[1] وعبيدكم ، وعارٌ عليكم، ونقصٌ في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيئكم، ويطئُوا حريمكم».

(الكامل للمبرد ٢ : ١٨٩ ؛ وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص: ٣٨٥)

٤٢٩ — خطبة أخرى له في جنده

وخطب أصحابه ، وقد مال الخوارج بأجمعهم على العسكر ، وانهزم الناس بسُولاف فقال :

« واللهِ ما بكم من قِلّة، وما ذهب عنكم إلا أهلُ الجبن والضعف ، والطَّمَع والطَّبَع[2] فإن يَمْسَسْكم قرْحٌ[3] فقد مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُه، فسيروا إلى عدوكم على بركة الله » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣٨٦)

٤٣٠ — نص آخر

وروى الطبري خطبة المهلب في أصحابه يوم هزموا فقال :

ثم إن الخوارج شدت على الناس بأجمعها شدَّة منكرة ، فأجفَل الناس، وانصاعوا[4] منهزمين، لا تلوي[5] أمٌّ على ولد ، حتى بلغ البصرةَ هزيمةُ الناس! وخافوا السِّباء[6] ، وأسرع المهلَّب حتى سبقهم إلى مكان يَفَاعٍ[7] ، في جانب عن سَنَن المنهزمين ، ثم إنه نادى الناس : إليَّ إليَّ عباد الله ، فثاب إليه جماعة من قومه ، فاجتمع إليه منهم نحو من ثلاثة آلاف ، فلما نظر إلى من قد اجتمع رَضِيَ جماعتهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

---

(١) جمع ماهن ، وهو العبد والخادم . (٢) الشين والعيب . (٣) القرح ويضم: عض السلاح ونحوه مما يخرج بالبدن ، أو بالفتح : الآثار ، وبالضم : الألم . (٤) انصاع : انفتل راجعا مسرعا . (٥) مر لا يلوي على أحد : أي لا يقف ولا ينتظر . (٦) السبي . (٧) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

« أما بعد : فإن الله ربَّما يَـكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فَيُهْزَمون ، ويُنْزِل النصر على الجمع اليسير فَيَظْهَرُون ، ولعمرى ما بكم الآن من قِلَّة ، إنى لجماعتكم لراض ، وإنكم لأنتم أهلُ الصبر وفُرْسان أهل المِصْر ، وما أحبُّ أن أحداً ممن انهزم معكم ، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خَبالاً[1] ، عَزَمت على كل امرئ منكم لَمَا أخذ عشرة أحجار[2] ، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم ، فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجت خيلهم فى طلب إخوانكم ، فوالله إنى لأرجو ألاَّ ترجعَ إليهم خيلُهم ، حتى تستبيحوا عسكرهم ، وتقتلوا أميرهم » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٨٨)

٤٣١ — خطبته فى جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة

ولما كتب إليه مُصْعَب بن الزبير أن اقْدَم علىَّ ، واستخلِف ابنك المُغيرة ، جمع الناس فقال لهم : « إنى قد استخلفت عليكم المُغيرةَ ، وهو أبو صغيركم : رِقَّةً ورحمة ، وابنُ كبيركم : طاعةً وبِرًّا وتبجيلا ، وأخو مثلِهِ : مُواساةً ومناصحةً ، فَلْتَحْسُنْ له طاعتُكم ، ولْيَلِن له جانبُكم ، فوالله ما أردت صواباً قط إلا سَبَقَنى إليه » ثم مضى إلى مصعب .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٨ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٨٩).

---

(١) فسادا . (٢) وفى الكامل للمبرد : وقال المهلب لأصحابه : أعدوا مخالى فيها حجارة ، وارموا بها فى وقت الغفلة ، فإنها تصد الفارس ، وتصرع الراجل ، وقال رجل من الخوارج :

أتانا بأحجار ليقتلنا بها ... وهل تقتل الأبطال ويحك بالحجر ؟

٤٣٢ – خطبة الزبير بن عليّ في الأزارقة

وكان نافع بن الأزرق قبل قتله استخلف عُبَيْد الله بن بَشِير بن الماحوز السَّلِيطى ، وقُتل ابن الماحوز يوم سِلى وَسِلَّبْرَى[1] ، فاجتمعت الخوارج بأرَّجان ، فبايعوا الزُّبير بن عليّ السليطى ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفاً بيِّناً . فقال لهم : اجتمعوا .

فحمِد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال :

« إن البلاء للمؤمنين تمحيصٌ وأجرٌ ، وهو على الكافرين عقوبة وخِزْى ، وإن يُصَبْ منكم أمير المؤمنين ، فما صار إليه خيرٌ مما خلَّفَ ، وقد أصبتم منهم مسلم ابن عُبَيْس ، وربيعاً الأجْذَم[2] ، والحجّاج بن بَاب ، وحارثة بن بدر ، وأشجيتم المهلَّب ، وقتلتم أخاه المُعَارِكَ[3] ، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين « إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » فيوم سِلَى كان لكم بَلاء وتمحيصاً ، ويوم سُولَاف[4] كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تُغْلَبُنَّ على الشكر في حِينه ، والصبرِ في وقته ، وثِقوا بأنكم المستخلَفون في الأرض ، والعاقبةُ للمتّقين » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٦ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٨٨)

---

(١) مجموع اللفظين موضع واحد بالأهواز قرب جند يسابور ، وقعت فيها وقعة بين الخوارج والمهلب ، وقتل فيها ابن الماحوز رئيس الخوارج ، وفى ذلك يقول رجل منهم :

بسلى وسلبرى مصارع فتية ... كرام وجرحى لم توسد خدودها

(٢) كان مسلم بن عبيس تقدم إلى أصحابه « يوم دولاب » فقال : إن أصبت فأميركم الربيع بن عمرو الأجذم ، فلما أصيب ابن عبيس أخذ الربيع الراية ، فلم يزل يقاتلهم نيفا وعشرين يوما حتى قتل ، ثم أخذها الحجاج بن باب الحميرى ، فلم يزل يقاتلهم زهاء شهر حتى قتل أيضا ، التقى هو وعمران بن الحارث الراسبى فاختلفا ضربتين ، فسقطا ميتين . (٣) وكان ابن الماحوز وجه بعض جيشه إلى نهر تيرى ؛ وبها المعارك ابن أبى صفرة ، فقتلوه وصلبوه ، فنمى الخبر إلى المهلب ، فوجه ابنه المغيرة ، فدخل نهر تيرى ، فاستنزله ودفنه ، وسكن الناس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه . (٤) وفى ذلك اليوم يقول رجل من الخوارج :

وكائن تركنا يوم سولاف منهم ... أسارى وقتلى فى الجحيم مصيرها

٤٣٣ — خطبة عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار

وانحط الزبير بن عليّ على أَصْفَهَان[1] ، فحصر بها عتَّاب بن ورقاء الرِّياحيّ سبعة أشهر ، وعتَّابٌ يحاربه في بعضهن ، فلما طال به الحصار ، وأصابه الجَهْد الشديد ، دعا أصحابه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس ما تنتظرون وقد أصابكم من الجَهْد ما قد تَرَون ؟ فوالله إنْ[2] بقى مع هذا الحصار إلا أن يموت أحدكم على فِراشه ، فيجيء أخوه فيدفنه إن استطاع ، وبالحَرَى أن يضعُف عن ذلك ، ثم يموت هو ، فلا يجد من يدفنه ولا يصلِّي عليه ، فاتقوا اللهَ ، فوالله ما أنتم بالقليل الذين تَهُون شوكتهم على عدوهم ، وإن فيكم لفُرْسانَ أهل المصر ، وإنكم لصُلحاء من أنتم منه ، ولقد حار بتموهم مراراً فانتصفتم منهم اُخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم ، وبكم حياة وقوة ، قبل أن لا يستطيع رجل منكم أن يمشي إلى عدوه من الجَهْد ، وقبل أن لا يستطيع رجل أن يمتنع من امرأة لو جاءته ، فقاتَل رَجُلٌ عن نفسه وَصَبَرَ وَصَدق ، فوالله إني لأرجو إن صدَقتموهم أن يُظْفركم الله بهم ، وأن يُظْهِركم عليهم .

فلما أصبح الغد صلّى بهم الصبح ، ثم خرج إلى الخوارج ، وهم غارُّون ، فلم يشعروا بهم حتى غَشُوهم ، فقاتلوهم بجدٍّ لم يرَ الخوارج منهم مثله ، فَعَقَرُوا منهم خلقاً ، وقتلوا رئيسهم الزبير بن عليّ ، وانهزمت الخوارج .

ثم أدارَ الخوارج أمرهم بينهم ، فولَّوْا عليهم قَطَرِيَّ بن الفُجاءة المازنيّ وبايعوه

(تاريخ الطبري ٧ : ١٦٦ ، والكامل للمبرد ٢ : ٢٠٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣٩١)

---

(١) أصبهان : بفتح الهمزة والباء ، وقد تكسر همزتها ، وقد تبدل باؤها فاء .

(٢) إن هنا نافية .

٤٣٤ – نصيحة عرهم العدوى لخالد بن عبد الله

ولما بعث خالد بن عبد الله بن خالد بن أَسِيد[1] أخاه عبد العزيز لقتال الأَزَارِقة[2] قام إليه عرْهَم أخو بنى العَدَوية، فقال:

« أصلح الله الأمير، إن هذا الحى من تميم تَئِطُّ[3] بقريش منهم رَحِمٌ داسّةٌ ماسّة، وإن الأزارقة ذؤبان العرب وسِباعُها، وليس صاحبهم إلاّ المُباكِر المُناكِر، المُحَرَّب[4] المجرَّب، الذى أرْضَعَتْه الحربُ بلبانِها، وَجَرَّسَته[5] وَضَرَّسَته، وذاك أخو الأزْدِ المهلّب بن أبى صُفرة، والله إن غَثَّكَ أَحَبُّ إلينا من سَمِينه، ولكني أخاف عَدَوَاتِ الدهر وغدرَه، وليس المُجَرَّب كمَن لاَ يَعْلَم، ولا الناصح المشفق، كالغاشّ المُتَّهَم »، قال له خالد: اسكت، ما أنت وذا؟ وقد هزمت الأزارقة عبد العزيز، وأحدوا امرأته[6] وَفرّ عنها.

(ذيل الأمالى ص ٣٣)

---

(١) كان والى البصرة وأعمالها من قبل عبد الملك بن مروان من سنة ٧١ إلى سنة ٧٤ (انظر ص ٢٣٣).

(٢) قال أبو العباس المبرد فى الكامل (٢ : ٢٠٧) : « ومضى قطرى إلى كرمان، فانصرف خالد إلى البصرة، فأقام قطرى بكرمان أشهرا، ثم عبد لفارس، وخرج خالد إلى الأهواز، وندب الناس رجلا فجعلوا يطلبون المهلب، فقال خالد: « ذهب المهلب بحظ هذا المصر، إنى قد وليت أخى قتال الأزارقة » فولى أخاه عبد العزيز، واستخلف المهلب على الأهواز فى ثلثمائة، ومضى عبد العزيز فى ثلاثين ألفا، فجعل عبد العزيز يقول فى طريقه: « يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمهلب فسيعلمون ! » إلى أن قال: فناهضهم عبد العزيز، فواقفوه ساعة ثم انهزموا عنه مكيدة فاتبعهم، فقال له الناس: لاتتبعهم فإنا على غير تعبية فأبى، فلم يزل فى آثارهم حتى اقتحموا عقبة، فاقتحمها وراءهم، والناس ينهونه ويأبى وكان لهم فى بطن العقبة كمين، فلما صاروا وراءهم خرج عليهم الكمين، وانحاز عبد العزيز، واتبعهم الخوارج يقتلونهم كيف شاءوا ». (٣) أصله من أط الرحل أطيطا: صوت.

(٤) من حرب السنان: حدده. (٥) التجريس: التحكيم والتجربة، وضرسته الحرب تضريسا: جربته وأحكمته أيضا. (٦) وكان عبد العزيز قد خرج بامرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود، فسبى الخوارج النساء يومئذ وكانت أم حفص ممن سبين، قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد (٢ : ٧٥) : «فأقاموها

٤٣٥ — خطبة قطرىّ بن الفجاءة[1]

وصعِد قَطَرِىُّ بن الفجاءة مِنْبر الأزارقة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنى أُحذِّركم الدنيا ، فإنها حُلْوَة خَضِرَة[2] ، حُفَّتْ[3] بالشهوات ، وراقت[4] بالقليل ، وَتَحَبَّبَت بالعاجلة[5] ، وَحَلِيت[6] بالآمال ، وتزيَّنَت بالغرور ، لا تدوم حَبْرَتها[7] ، ولا تُؤْمَن فَجْعَتها ، غرَّارة ضرَّارة ، خوَّانة غدَّارة ، وحائلة[8] زائلة ، ونافدة[9] بائدة ، أكَّالة غوَّالة[10] ، بدَّالة نقَّالة ، لاَ تَعْدُو إذا هى تناهت إلى أمنيَّة أهل الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن تكون كما قال الله تعالى : « كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ

= فى السوق حاسرة بادية المحاسن ، فاعترضوها وقلبوها ، وكانت من أكمل الناس كمالا وحسنا ، فتزايدت فيها العرب والموالى ، حتى بلغوها تسعين ألفا ، فأقبل رجل من الخوارج من عبد القيس من خلفها ، فضرب عنقها ، فأخذوه ورفعوه إلى قطرى بن الفجاءة ، فقالوا : ياأمير المؤمنين ، إن هذا استهلك تسعين ألفا من بيت المال ، وقتل أمة من إماء المؤمنين : فقال له : ماتقول ؟ قال : ياأمير المؤمنين ، إنى رأيت هؤلاء قد تنازعوا عليها ؛ حتى ارتفعت الأصوات ؛ واحمرت الحدق ؛ فلم يبق إلا الخبط بالسيوف ؛ فرأيت أن تسعين ألفا فى جنب ماخشيت من الفتنة بين المسلمين هينة ، فقال قطرى : خلوا عنه ، عين من عيون الله أصابتها » اهـ .

(١) أورد الشريف الرضى رحمه الله هذه الخطبة فى نهج البلاغة ؛ وعزاها إلى الإمام على كرم الله وجهه وكذلك القضاعى فى دستور معالم الحكم ؛ وقال ابن أبى الحديد فى شرحه (م ٢ : ص ٢٤٢) : « وهذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ فى البيان والتبيين ؛ ورواها لقطرى بن الفجاءة ؛ والناس يروونها لأمير المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها فى كتاب المونق لأبى عبيد الله المرزبانى ، مروية لأمير المؤمنين عليه السلام وهى بكلام أمير المؤمنين أشبه وليس يبعد عندى أن يكون قطرى قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره ، وقد لقى قطرى أكثرهم » .

(٢) أى ناضرة ، من خضر الزرع كفرح ، فهو أخضر وخضر وهو من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم — انظر خطبته فى الجزء الأول ص ١٥١ : (٣) أى أطافت بها الشهوات . (٤) أعجبت أهلها بمتاع قليل ليس بدائم . (٥) أى وتحببت إليهم باللذة العاجلة ، (والنفس مولعة بحب العاجل) .

(٦) حليت المرأة فهى حال وحالية كتحلت . وفى رواية : « وتحلت » . (٧) الحبرة : السرور . وفى رواية : « لاتقوم نضرتها » ؛ لاتقوم : لاتثبت . والنضرة : النعمة والغنى والحسن .

(٨) أى متحولة متغيرة من حال بحول . وفى رواية « خاتلة » أى خادعة . (٩) أى هالكة فانية من نفد ينفد كفرح . (١٠) أى مهلكة من غاله يغوله .

السَّمَاء ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيماً[1] تذرُوهُ الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً » ، مع أن امرأً لم يكن منها فى حَبرة ، إلاَّ أعقبَتْهُ بعدها عَبْرَةً ، ولم يَلْقَ من سَرَّائها بطنا ، إلاَّ مَنَحَته من ضَرَّائها ظَهْراً[2] ، ولم تَطُلَّه غَيْثَةُ[3] رخاء ، إلاَّ هَطَلَت[4] عليه مُزْنَةُ بلاء ، وَحَرِيٌّ إذا أصبحَت له منتصرةً ، أن تُمسِيَ له خاذلةً متنكِّرة ، وإن جانبٌ منها اعذَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى[5] ، أمرَّ عليه منها جانب وأَوْبَى[6] ، وإن آتت امرأً من غَضَارتها[7] وَرَفاهتها نِعَماً ، أرْهَقَتْه من نوائبها تَعَباً ، ولم يُمْسِ امرؤ منها فى جَناح أمْنٍ ، إلاَّ أصبح منها على قَوَادِمِ[8] خَوْف ، غَرَّارةٌ غُرُورٌ مافيها ، فانيةٌ ، فانٍ ماعليها ، لا خير فى شيء من زادها إلاَّ التقوى ، من أقَلَّ منها استكثر مايُؤْمنه ، ومن استكثر منه استكثر مما يُوبِقه[9] ، ويُطِيل حُزْنه ، وَيُبْكِي عينيه ، كم واثقٍ بها قد فَجَعته ، وذى طُمَأْنينة إليها قد صَرَعته[10] ، وذى اختيالٍ[11] فيها قد خدعته ، وكم من

---

(١) الهشيم : ماتهشم وتحطم ، وتذروه : أى تطيره . (٢) كنى بالبطن والظهر عن إقبالها عليه وإدبارها عنه لأن الملاق لك بالصدر ملاق بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمعطيك ظهره مدبر عنك .

(٣) طله السحاب يطله : إذا أمطره مطرا قليلا ، وربما كانت « غيثة » مصحفة عن « غبية » والغبية بفتح الغين : المطرة غير الكثيرة ، وفى رواية « ديمة » والديمة بالكسر : مطر يدوم فى سكون بلا رعد وبرق .

(٤) هطلت السماء كجلس هطلا : تتابع مطرها ، وفى رواية : « هتنت » هتنت السماء كجلس أيضا هتنا : انصبت ، أو هو فوق الهطل ، والمزنة : السحابة أو ذات الماء .

(٥) أى صار عذبا حلوا . (٦) أمر : صار مرا وأوبى : مسهل عن أوبأ ، أى صار وبيئا ، وبئت الأرض كفرح وكرم وعنى ، وأوبأت : صارت كثيرة الوباء ، وهو الطاعون أو كل مرض عام . (٧) الغضارة : النعمة والسعة والخصب ، وأرهقه : حمله على مالا يطيقه ، وفى رواية : « لاينال امرؤ من غضارتها رغبا » والرغب بالتحريك ماترغب فيه ، وفى رواية : «فإن آتت امرأ من غصونها ورقا » ، وفى رواية : « وإن لبس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها نعما ، أرهقته من نوائبها غما » .

(٨) القوادم : أربع أو عشر ريشات فى مقدم الجناح ، الواحدة قادمة ، وخص الخوف بالقوادم لأنها مقاديم الريش ، والراكب عليها بعرض سقوط قريب . (٩) يهلكه . (١٠) وفى رواية : « وذى حكم ثنته إليها قد صرعته » . (١١) الاختيال : الكبر والعجب ، والأبهة : العظمة ، والبهجة والكبر والنخوة .

ذى أُبَّهَةٍ فيها قد صَيَّرَته حقيراً ، وذى نَخْوة قد رَدَّته ذليلا ، وكم من ذى تاج قد كَبَّته[١] لليدين والفم ، سُلْطَانها دُول ، وعيشها رَنِق وعَذْبها أُجَاجٌ ، وحُلوها صَبِر ، وَغِذاؤها سِمَام[٢] وأسبابها رِمَامٌ[٣] ، وقِطاعها سَلَع[٤] ، حَيُّهَا بعَرَض موت ، وصحيحها بعَرَض سُقْم ، ومنيعها بعَرَض اهتِضَام ، مليكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، وجامعها مَحْرُوب[٥] ، مع أن وراء ذلك سَكَرَاتِ الموت ، وَهَوْلَ المُطّلَع ، والوقوف بين يدى الحكَمَ العَدْل « لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَساءوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » .

ألستم فى مساكن من كان أطولَ منكم أعماراً ، وأوضح منكم آثاراً ، وأعدَّ عَدِيداً ، وأكثف جُنُوداً ، وأعتَدَ عَتَاداً[٦] ، وأطول عِمَاداً ، تَعَبَّدُوا[٧] للدنيا أىَّ تعبُّد ! وآثروها أىَّ إيثار ! وَظَعَنوا عنها بالكُرْه والصَّغار ! فهل بلغكم أن الدنيا سَمَحت لهم نفساً بفِدية ، أو أغنَت عنهم فيما قد أهلكتهم بخَطْب[٨] ؟ بل قد أرهقتهم بالفوادِح[٩] ، وضعضعَتهم بالنوائب ، وَعَفَّرَتهم بالمصائب[١٠] ، وقد رأيتم تنكُّرها

(١) صرعته وقلبته . (٢) رنق الماء كفرح ونصر : كدر ، فهو رنق كعدل وكتف وجبل ؛ وأجاج : ملح مر ، وسمام جمع سم مثلث السين . (٣) أسباب جمع سبب : وهو الحبل ، ورمام : بالية ، حبل أرمام ، ورمام : أى بال . (٤) السلع : شجر مر ، أو سم : أو ضرب من الصبر ، أو بقلة خبيثة الطعم . (٥) مسلوب ، من حربه حربا كطلبه طلبا : سلب ماله فهو محروب وحريب ، وفى رواية : « وجارها محروب » . (٦) العتاد : العدة ، وقد عتد ككرم عتادا فهو عتيد : أى حاضر مهيأ معد ، وفى رواية : « وأعند عنودا » من عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : أى مال ، وفى رواية : « وأشد عقودا » . (٧) أى استعبدتهم الدنيا ، تعبده : اتخذه عبدا . (٨) أى بشأن وأمر . (٩) الفوادح : النوائب المثقلة ، من فدحه الدين إذا أثقله ، وفى رواية : « القوادح » والقوادح جمع قادح : وهو أكال يقع فى الشجر والأسنان ، وفى رواية : « وأوهقتهم » أى جعلتهم فى الوهق بفتح الهاء وتسكينها : وهو حبل كالطول . (١٠) وفى رواية : « وعقرتهم بالفجائع » وفى رواية « وعفرتهم للمناخر ، ووطئتهم بالمناسم » ، عفرتهم للمناخر : ألصقت أنوفهم بالعفر (كسبب ويسكن) وهو التراب والمناخر جمع منخر بفتح الميم والخاء ، وبكسرهما ، وبضمهما وكمجلس : الأنف ، والمناسم جمع منسم كمجلس وهو خف البعير .

لمن دَانَ[١] لها ، وأخلَدَ إليها ، حين ظعَنُوا عنها لفراق الأبَد ، إلى آخر المُسْنَد[٢] ، هل زوَّدَتهم إلاَّ السَّغَبَ[٣]، وأحلتهم إلا الضَّنْك ، أو نوَّرت لهم إلاَّ الظُّلْمَة ، أو أعقبتهم إلا الندامة ؟ أفهذه تُؤْثِرُون ، أم على هذه تحرِصون ، أم إليها تطمئنون ؟ يقول الله جلّ ذكره : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فبئست الدار لمن لم يتَّهِمْها ، ولم يكن فيها على وَجَل منها .

فاعلموا ــ وأنتم تعلمون ــ أنكم تاركوها لابُدّ ، فإنما هى كما وصفها الله باللّعِب واللهو وقد قال الله تعالى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ[٤] » ، واتعظوا فيها بالذين قالوا : « مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » ، حُمِلُوا إلى قبورهم فلا يُدْعَون رُكْبَانًا ، وأُنزِلوا الأجْداث فلا يُدْعَون[٥] ضِيفانًا ، وَجُعِل لهم من الصَّرِيح أكْنان ، ومن التراب أكفان ، ومن الرُّفات جيران[٦] ، فهم جِيرة لا يُجيبون داعيًا ، ولا يمنعون ضيمًا ، ولا يبالون مَنْدَبَةً[٧] ، إن أخصَبوا[٨] لم يَفرَحوا ، وإن قَحِطُوا[٩] لم يَقْنَطُوا ، جمع وهم آحاد ، وجِيرة وهم أبعاد ، متناءون لا يَزورون ولا يُزارون ، حُلَماء قد ذهبت أضغانهم ، وَجُهَلاء

---

(١) أى خضع لها وذل ، وفى رواية : « لمن رادها » أى طلبها : رودا، وأخلد إليها : مال .

(٢) المسند : الدهر ، وفى رواية « إلى آخر الأمد » . (٣) الجوع ، وفى رواية : « الشقاء » والضنك : الضيق . (٤) نزلت فى عاد قوم هود ، الريع : المرتفع من الأرض ، آية : أى أبنية وقصورا يفتخرون بها ، ويعبثون بالفقراء ، ويتطاولون عليهم من أجلها ، والمصانع : المبانى من القصور والحصون . (٥) وفى رواية « فلا يرعون » أى فلا يرعاهم أحد . (٦) الأكنان جمع كن بالكسر : وهو وقاء كل شىء وستره . والضريح : القبر أو الشق وسطه ، وفى رواية : « وجعل لهم من الصفيح أجنان » والأجنان جمع جنن كسبب : وهو القبر ، والصفيح : الحجارة العراض ، والرفات : العظام البالية . (٧) المندبة : الندب على الميت . (٨) وفى رواية : « إن جيدوا » من جادهم الغيث إذا أمطروا . (٩) قحط الناس كمسع ، وقحطوا وأقحطوا مبنيين للمجهول (قليلتان) ، وبكل روى .

قد ماتت أحقادهم ، لا يُخْشَى فَجْعُهُم ، وَلا يُرْجَى دفعهم ، وكما قال الله تعالى : « فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلاّ قَلِيلا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » ، استبدلوا بظهر الأرض بطنًا ، وبالسَّعَة ضِيقًا ، وبالأهل غُربة ، وبالنور ظُلْمة ، ففارقوها كما دخلوها ، حُفَاةً عُرَاةً فُرَادى ، غير أن ظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة ، وإلى خلود الأبد ، يقول الله تعالى: « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » فاحذَروا ما حذّركم الله ، وانتفعوا بمواعظه ، واعتصِموا بحبله ، عَصَمَنا الله وإياكم بطاعته ورزقنا وإياكم أداء حقه » .

(البيان والتبيين ١ : ٦٣ . وصبح الأعشى ١ : ٢٢٣ . والعقد الفريد ٢ : ١٦٠ . وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٠ . ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٠ . ونهج البلاغة ١ : ١٢٢ . دستور معالم الحكم ص ٥١)

٤٣٦ — خطبة عبد ربه الصغير

ولما دبّت عقاربُ الخلاف بين الأزارقة ، ولعبت بهم يد الشقاق ، خلعوا قَطَرِيّ ابن الفجاءة ، وَوَلَّوْا عَبْدَ رَبِّه الصغير ، فانفصل إلى عبد ربه أكثر من[1] الشّطْر ، ونشبت الحرب بينه وبين المهلب ، فأجْلَت الوقعة عنهُ قتيلا ، وقد جمع أصحابه فى الليلة التى قتل فى صَبِيحتها ، فقال :

« يامعشر المهاجرين : إن قَطَرِيًّا وَعُبَيْدَةَ[2] هرَبا طلبَ البقاء ، ولا سبيل إليه ، فالقَوا عدوكم ، فإن غلبوكم على الحياة ، فلا يغلبُنّكم على الموت ، فتلقّوا الرماحَ بنحوركم والسيوفَ بوجوهكم ، وهَبُوا أنفسكم لله فى الدنيا ، يَهَبْها لكم فى الآخرة » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٥)

---

(١) أما قطرى فقد ارتحل ومن معه إلى طبرستان فوجه الحجاج إليه جيشا عليه سفيان بن الأبرد فقاتلوه ، وتفرق عنه أصحابه وقتل سنة ٧٨ هـ ، وبقتله انتهت حروب الأزارقة . (٢) هو عبيدة ابن هلال اليشكرى من كبراء الأزارقة .

٤٣٧ – خطبة صالح بن مسرّح[1]

وروى الطبرى فى تاريخه قال :

كان صالح بن مُسَرَّح يرى رأى الصُّفْرِيّة[2] ، وكان رجلا ناسكا مُخْبِتا[3] ، مصفرّ الوجه ، صاحب عبادة ، وكان بِدَارَا[4] وأرض المَوْصِل والجزيرة ، له أصحاب يُقرِئُهم القرآن ، ويفقِّهم ويَقُصُّ عليهم ، وكان قصصه :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، اللهم إنا لانَعْدِل بك ، ولا نَحفِد[5] إلا إليك ، ولا نعبد إلا إياك ، لك الخَلْق والأمر ، ومنك النفع والضّر ، وإليك المصير ، ونشهد أن محمداً عبدُك الذى اصطفيته ، ورسولُك الذى اخترْته وارتضيْته لتبليغ رسالاتك ، ونصيحة عبادك ، ونشهد أنه قد بلّغ الرسالة ، ونصح الأمة ، ودعا إلى الحق ، وقام بالقِسْط ، ونصر الدين ، وجاهد المشركين ، حتى توفاه الله صلى الله عليه وسلم .

أُوصيكم بتقوى الله ، والزهدِ فى الدنيا ، والرغبةِ فى الآخرة ، وكثرةِ ذكر الموت ، وفِراقِ الفاسقين ، وحُبّ المؤمنين ، فإنّ الزَّهادَةَ فى الدنيا تُرغِّب العبد فيما عند الله ،

---

(١) هو صالح بن مسرح أحد بنى امرىء القيس ، وهو زعيم فرقة من الخوارج الصفرية ، تسمى : « الصالحية » نسبة إليه : وقد خرج على بنى أمية سنة ٧٦ هـ ، فبعث إليه محمد بن مروان أمير الجزيرة جيشا بقيادة عدى بن عدى بن عميرة فهزمه صالح ونزل عسكره وحوى مافيه ، وبعث محمد بن مروان إليهم جيشا آخر فقاتلهم ، فخرجوا من أرض الجزيرة إلى الموصل ، فسرح إليهم الحجاج جيشا يقوده الحارث بن عميرة فحاربهم وقتل فى المعركة صالح .   (٢) الصفرية : فرقة من الفرق الرئيسية الخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصفر ، وقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار ، وقيل لأنهم نهكتهم العبادة أو لخلوهم من الدين وليس هذا موضع تفصيل عقائدهم .   (٣) أخبت لله : خشع وتواضع .   (٤) دارا : بلد بين نصيبين وماردين من أرض الجزيرة .   (٥) حفد كضرب : خف وأسرع .

وتفرِّغ بَدَنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تخيف العَبْدَ من ربه ، حتى يَجْأَر(١) إليه ويَستكين له ، وإنَّ فِراق الفاسقين حَقٌّ على المؤمنين ، قال الله فى كتابه : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » ، وإن حب المؤمنين لَلسَّبَبُ الَّذى يُنال به كرامة الله ورحمته وجنَّته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين ، ألا إن من نعمة الله على المؤمنين أنْ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، فعلَّمهم الكتاب والحكمة وزَكَّاهم وَطَهَّرهم ، وفَقَّهَهم فى دينهم ، وكان بالمؤمنين رءوفاً رحيماً ، حتى قبضه الله ، صلوات الله عليه ، ثم وَلِى الأمر من بعده التقىّ الصدّيق ، على الرضا من المسلمين ، فاقتدى بهَدْيه ، واستَنَّ بسنته ، حتى لحق بالله رحمهُ الله ، واستخلَف عمرَ فولاّه الله أمر هذه الرعية ، فعمِل بكتاب الله ، وأحيا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يُحْنِق فى الحق على جِرَّته(٢) ، ولم يَخَفْ فى اللهِ لَوْمَة لائم ، حتى لحِق به رحمة الله عليه ، وولى من بعده عثمان ، فاستأثر بالفَىْء ، وعطّل الحدود ، وجار فى الحكم ، واستذلَّ المؤمن ، وَعزَّز المجرم ، فسار إليه المسلمون فقتلوه ، فبرِئَ الله منه ورسولُه وصالحُ المؤمنين ، وَوَلِىَ أمرَ الناس من بعده علىٌّ ابن أبى طالب ، فلم يَنْشَب أنْ حكَّمَ فى أمر الله الرجالَ ، وشكَّ فى أهل الضلال ، وركَن(٣) وأدهَن، فنحن من علىٍّ وأشياعه بَرَاء ، فتيسَّروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحزِّبة ، وأئمة الضلال الظَّلَمَة ، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ، واللَّحاق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ، وَأنفقوا أموالهم التماسَ رضوان الله فى العاقبة ، ولا تجزَعوا من القتل فى الله ، فإن القتل أيسرُ من الموت ، والموت نازل بكم — غيرَ ماتَرْجُمُ الظنون — فمفرِّقٌ بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحَلائلكم ودنياكم ،

---

(١) جأر إليه كمنع : رفع صوته بالدعاء ، وتضرع واستغاث . (٢) أحنق الصلب : لزق بالبطن . والجرة : مايخرجه البعير من جوفه ويمضغه ، كنى بذلك عن عدم إضماره الحقد والدغل .

(٣) ركن إليه : مال .

وإن اشتدَّ لذلك كُرْهُكم وجَزَعكم ، ألا فبيعوا اللهَ أنفسكم طائعين وأموالكم تدخلوا الجنة آمنين ، وتُعانِقُوا الحورَ العين ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذاكرين ، الذين يَهْدون بالحق وبه يَعْدلون » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٧ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٩)

٤٣٨ — خطبة أخرى له

وروى الطبرى أيضاً قال :

« بينا أصحابُ صالح يختلفون إليه ، إذ قال لهم ذات يوم : ما أدْرى ما تنتظرون ؟ وحتى متى أنتم مُقيمون ؟ هذا الجَوْر قد فَشَا ، وهذا العَدْل قد عَفَا ، ولا تزداد هذه الوُلاة على الناس إلا غُلُوًّا وعُتُوًّا ، وتباعُدا عن الحق ، وجُرْأة على الرب ، فاستعِدُّوا ، وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكارِ الباطل والدعاءِ إلى الحق ، مثلَ الذى تريدون ، فيأتوكم فنلتقى ، وننظر فيما نحن صانعون ، وفى أى وقت إن خرجنا نحن خارجون » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٩)

٤٣٩ — خطبة أخرى

وقال لأصحابه ليلة خرج : « اتقوا الله عبادَ الله ، ولا تَعْجَلوا إلى قِتال أحد من الناس إلا أن يكونوا قوماً يريدونكم ويَنْصِبون(١) لكم ، فإنكم إنما خرجتم غضباً لله ، حيث انتُهِكت محَارِمُه ؟ وعُصِى فى الأرض ، فسُفِكت الدماء بغير حِلها ، وأُخِذت الأموال بغير حقّها ، فلا تَعيبوا على قوم أعمالا ثم تعمَلوا بها ، فإن كلّ ما أنتم عاملون ،

(١) أى يعادونكم .

أنتم عنهُ مسئولون ، وإن عُظمكم رَجَّالة ، وهذه دوابُّ لمحمد بن مروان فى هذا الرُّسْتاق[1] ، فابدءوا بها فشُدُّوا عليها ، فاحملوا أرجُلكم ، وتقوَّوا بها على عدوكم » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٠)

٤٤٠ — خطبة زائدة بن قدامة

وخَلَف على رياسة الخوارج الصُّفرية بعد مقتل صالح بن مُسَرِّح أحدُ أصحابه ، وهو شَبيب بن يزيد الشيبانى ، فكتَّب الحجاج لقتاله الكتائب ، وكان أميرها فى بعض الوَقَعات زائدة بن قُدَامة ، وجاء شبيب حتى وقف مُقَابِلَ القوم ، فخرج زائدة يسير بين الميمنة والميسرة ، يحرِّض الناس ويقول :

« عبادَ الله ، إنكم الطيِّبون الكثيرون ، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون ، فاصبِروا جُعِلْتُ لكم الفِدَاء إنها حَمْلتان أو ثلاث ، ثم هو النصر ليس دونه شىء ، ألا تَرَونهم والله لا يكونون مائتى رجل ؟ إنما هم أكلة رأس ، وهم السُّرَّاق المُرَّاق ، إنما جاءوكم ليُهَرِيقوا دماءكم ، ويأخذوا فَيْئكم ، فلا يكونوا على أخذه أقوى منكم على منعه ، وهم قليل وأنتم كثير ، وهم أهل فُرقة ، وأنتم أهل جماعة ، غُضُّوا الأبصار ، واستقبلوهم بالأسِنَّة ، ولا تحملوا عليهم حتى آمُرَكم » ، فما برح يقاتلهم مُقْبِلا غير مُدْبِر حتى قتل .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٥ ، شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٥)

٤٤١ — خطبة الحجاج بن يوسف

ولما هزم شَبِيب الجيشَ الذى كان الحجاج وجَّهه إليه مع عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث ، أقبل نحو المدائن ، وبلغ ذلك الحجاج ، فقام فى الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

---

(١) الرستاق . يستعمل فى الناحية التى هى طرف الإقليم ، (معرب) .

« أيها الناس : والله لَتُقَاتِلُنَّ عن بلادكم وعن فيئكم ، أو لَأَبْعَثَنَّ إلى قوم هم أطوع وأسمع ، وأصبَرَ على اللَّأْوَاءِ والغيظ منكم ، فيقاتلون عدوكم ، ويأكلون فيئكم — يعنى جند الشأم — » .

فقام إليه الناس من كل جانب ، فقالوا : نحن نقاتلهم ، وَنُعْتِب الأمير ، فَلْيَنْدُبْ بنا الأمير إليهم ، فإنا حيث سرّه .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٣ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٨)

٤٤٢ — خطبة أخرى للحجاج

وبعث الحجاج إلى عَتّاب بن وَرْقاء ليأتيه — وكان مع المهلب — ووجّهه فى جيش لقتال شبيب ، وخطب الناس حين وجّهه فقال :

« يأهل الكوفة اخرجوا مع عَتّاب بن ورقاء بأجمعكم ، لا أُرَخِّص لأحد من الناس فى الإقامة إلا رجلاً قد وَلَّيْنَاه من أعمالنا ، ألاَ إن للصابر المجاهدِ الكرامةَ والأَثَرَةَ ، ألا وإن للنَّاكِلِ الهاربِ الهوانَ وَالجَفْوَةَ ، والذى لا إله غيرُه لئن فعلتم فى هذا المَوْطِن، كفعلكم فى المواطن التى كانت ، لأُوَلِّيَنَّكم كَنَفاً خَشِناً ، ولأُعْرُكَنَّكم بكَلْكَلٍ ثقيل » ، ثم نزل .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٥)

٤٤٣ — خطبة شبيب بن يزيد الشيبانى

وعرض شبيب أصحابه بالمدائن فكانوا ألف رجل ، فخطبهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر المسلمين : إن الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان ، وأكثر من ذلك قليلاً ، وأنقص منه قليلاً ، وأنتم اليوم مِئُون ومئون ، ألا إنى مُصَلّى الظهر ، ثم سائر بكم إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٩)

٤٤٤ — خطبة عتاب بن ورقاء

ولما تواقف الفريقان للقتال ، جعل عتاب يسير فيما بين الميمنة إلى الميسرة ، يمرّ بأهل رايةٍ رايةٍ، فيحثهم على تقوى الله ويأمرهم بالصبر، ويقص عليهم قَصَصًا كثيرًا منه قوله:

« يأهل الإسلام : إن أعظم الناس نصيبًا فى الجنة الشهداء ، وليس الله لأحد من خلقه بأحمَدَ منه للصابرين ، ألا تَرَوْنَ أنه يقول : « وَاُصْبِرُوا إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ، فمن حَمِد اللهُ فِعلَه فما أعظمَ درجَتَه ، وليس الله لأحدٍ أمقتَ منهُ لأهل البغى ، ألا تَرَوْن أن عدوكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه؟ لايرَون إلا أنّ ذلك لهم قُرْبَة عند الله، فهم شِرار أهل الأرض ، وكِلاب أهل النار » .

فلم يجبهُ أحد ، فقال : أين القُصَّاص يَقُصُّون على الناس ويحرضونهم ؟ فلم يتكلم أحد ، فقال : أين من يَروى شعر عنترة فيحرك الناس ؟ فلم يجبه أحد ، ولا رد عليه كلمة ، فقال : إنا لله ! والله لكأنى بكم وقد فَرَرتم عن عتاب بن ورقاء ، وتركتموه تسْفِى فى استِهِ الريحُ ، وحمل عليه شبيبٌ فتفرّق عنهُ كثير من أصحابه وخَذَلوه ، وثبتَ فى عصابة قليلة صَبَرت معهُ ، وقاتل حتى قتل .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ص ٤٢٠)

٤٤٥ — خطبة الحجاج

ولما رأى الحجاج عَجْز أهل الكوفة عن قتال شبيب فى مَواطِنَ كثيرة ، فى كلِّها يقتُل أمراءهم، ويَفُلّ جنودهم ، كتب إلى عبد الملك يستمده ، فبعث إليه سُفيانَ بن الأبرد الكَلْبى ، فى أربعة آلاف ، وحبيب بن عبد الرحمن الحَكَمِى من مَذْحِج فى ألفين ، ودخلا فيمن معهما من أهل الشأم الكوفةَ ، فشدُّوا للحجاج ظهرَه ، فاستغنى بهما عن أهل الكوفة ، فقام على منبرها ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يأهل الكوفة ، فلا أعزّ اللهُ من أراد بكم العزّ ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا ، ولا تشهدوا معنا قتال عدونا ، الحقوا بالحيرة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملا ، ومن لم يكن شَهِد قتال عتّاب ابن وَرْقاء[1] » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م١ : ص ٤٢٠)

٤٤٦ — خطبة عبد الله بن يحيى الإباضى[2]

لما استولى عبد الله بن يحيى الكِنْدىّ على بلاد اليمن سنة ١٢٩ ، خطب الناس ، فحمد الله جلّ وعزّ ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ووعظ وذكّر وحذّر ، ثم قال :

« إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى ، وسنّة نبيه ، وإجابة من دعا إليهما ، الإسلامُ ديننا ، ومحمدٌ نبيُّنا ، والكعبةُ قِبْلَتنا ، والقرآنُ إمامنا ، رضِينا بالحلال حَلالا ، لا نبغى به بَدِيلا ، ولا نَشْتَرِى به ثَمَنًا قليلا ، وحرَّمْنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا ، ولا حول

---

(١) ولم تن همة شبيب عن القتال ، وقد هاجم الكوفة ودخلها ، ونهض الحجاج لمدافعته ، فشتت جموعه فانصرف عن الكوفة ، وأتبعه الحجاج جيشا عليه سفيان بن الأبرد فالتقيا على جسر دجيل ، وحمى بينهما وطيس القتال حتى جن الليل ، فقال شبيب لأصحابه : اعبروا معاشر المسلمين ، فإذا أصبحنا باكرناهم ، فعبروا أمامه وزال حافر فرسه عن حرف السفينة ، فسقط فى الماء ، وكان هلاكه سنة ٧٧ هـ

(٢) هو عبد الله بن يحيى الكندى ، وكان من حضرموت ، وكان مجتهدا عابدا من رؤساء الخوارج الإباضية : (والإباضية فرقة من فرق الخوارج الرئيسية تنسب إلى زعيمها عبد الله بن إباض — بكسر الهمزة —) وقد خرج ابن يحيى باليمن فى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، إذ رأى جورا ظاهرا وعسفا شديدا ، وسيرة فى الناس قبيحة فقال لأصحابه إنه لا يحل لنا المقام على ما نرى ولا الصبر عليه . وكتب إلى جماعة من الإباضية بالبصرة وغيرها يشاورهم فى الخروج فوافقوه ، وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدى ، وبلخ بن عقبة المسعودى فى رجال من الإباضية فحرضوه على الخروج ، وكثر جمعه وسموه طالب الحق ، وتوجه إلى صنعاء سنة ١٢٩ (وكان عامل مروان على صنعاء القاسم بن عمر) فجرت بينه وبين ابن يحيى حروب ومناوشات كانت النصرة فيها لابن يحيى ، فدخل صنعاء ، وأحرز ما فيها من الخزائن والأموال .

ولا قوّة إلا بالله ، وإلى الله المُشْتَكَى ، وعليه المُعَوَّل ، من زَنَى فهو كافر ، ومن سَرَق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شكَّ في أنه كافر فهو كافر ، ندعوكم إلى فرائِضَ بيِّنات ، وآياتٍ مُحْكَمات ، وآثارٍ مُقْتَدًى بها ، ونشهد أن الله صادق فيما وَعَد ، عَدْلٌ فيما حَكَمَ ، وندعو إلى توحيد الرب ، واليقين بالوعيد والوَعْد ، وأداء الفرائِض ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكَر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والعداوة لأعداء الله .

أيها الناس : إن من رحمة الله أن جعل في كلِّ فَتْرة بقايا من أهل العلم ، يَدْعُون من ضلَّ عن الهدى ، ويصبرون على الألم في جَنْب الله تعالى ، يُقْتَلون على الحق في سالف الدهور شُهداء ، فما نَسِيَهم رَبُّهم ، وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا . أوصيكم بتقوى الله ، وحسنِ القيام على ما وكلكم الله بالقيام به ، فأبْلوا لله بلاءً حسنًا في أمره وذكره ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم » .

(الأغاني ٢٠ : ٩٨ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٥٥)

خطب أبى حمزة الشارى

٤٤٧ — خطبته حين دخل المدينة

ولما دخل أبو حمزة المدينة[1] سنة ١٣٠ ، رقى المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال:

« يأهل المدينة : سألناكم عن وُلاتكم هؤلاء ، فأسأتم ـ لعمرُ الله ـ فيهم القولَ ، قلتم والله مافيهم الذى يعلم ، أخذوا المال من غير حِلّه ، فوضعوه فى غير حقّه ، وَجاروا فى الحكم ، فحكموا بغير ما أنزل الله ، واستأثَروا بفَيْئنا ، فجعلوه دُولةً بين الأغنياء

(١) بعد أن استولى عبدالله بن يحيى على اليمن سنة ١٢٩ ، أقام بصنعاء أشهرا يحسن السيرة فى الناس ويلين جانبه لهم ، ويكف الأذى عنهم فكثر جمعه وأتته الشراة من كل جانب (والشراة كقضاة جمع شاركقاض وهم الخوارج ، من شرى يشرى كرمى: أى باع ، سموا بذلك لقولهم : شرينا أنفسنا فى طاعة الله : أى بعناها ووهبناها ، أخذا من قوله تعالى :

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ » أو لقولهم : شرينا الآخرة بالدنيا ، أى اشتريناها) فلما كان وقت الحج وجه ابن يحيى أبا حمزة « وهو المختار بن عوف الأزدى ثم السلمى من أهل البصرة » إلى مكة ، فأقبل إليها يوم التروية « وهو ثامن ذى الحجة » وعليها وعلى المدينة عبد الواحد ابن سليمان بن عبد الملك ، فكره عبد الواحد قتالهم ، ثم خلى مكة لهم ، فدخلها أبو حمزة بغير قتال ، ومضى عبد الواحد إلى المدينة ، فجهز جيشا لقتالهم أمر عليه عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فسار حتى نزل قديدا « وقديد كزبير » وبلغ أبا حمزة إقبال أهل المدينة إليه ، فاستخلف على مكة ، وشخص إليهم ، وبعث إليهم يسألهم أن يكفوا عنهم ، ويقول لهم : خلوا سبيلنا إلى الشأم لنسير إلى من ظلمكم ، وجار فى الحكم عليكم ، ولا تجعلوا حدنا بكم ، فإنا لانريد قتالكم ، فشتمهم أهل المدينة وقالوا : يا أعداء الله : أنحن نخليكم وندعكم تفسدون فى الأرض ؟ فقال الخوارج : يا أعداء الله أنحن نفسد فى الأرض ؟ إنما خرجنا لنكف أهل الفساد ، ونقاتل من قاتلنا ، واستأثر بالفىء ، فانظروا لأنفسكم ، واخلعوا من لم يجعل الله له طاعة ، فإنه لاطاعة لمن عصى الله ، فادخلوا فى السلم ، وعاونوا أهل الحق ، فأبوا عليهم ، ونشب القتال بينهم ، فهزمهم أبو حمزة هزيمة لم يبق بعدها منهم باقية ، وقد بلغت قتلى قديد ألفين ومائتين وثلاثين رجلا ، منهم من قريش أربعمائة وخمسون ، ودخل أبو حمزة المدينة لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة ١٣٠ هـ ، وهرب عبد الواحد بن سليمان إلى الشأم .

منهم ، وَجعلوا مَقَاسِمَنا وحُقوقَنا فى مهور النساء ، وفُرُوج الإماء[1] ، فقلنا لكم : تعالَوا نحن وأنتم إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم، وجارُوا فى الحكم ، فحكموا بغير ما أنزل الله نُناشدهم الله أن يتَنَحَّوا عنا وعنكم ، ليختار المسلمون لأنفسهم ، فقلتم : لا يفعلون ، فقلنا لكم : تعالَوا نحن وأنتم نقاتلهم ، فإن نَظْهَر نحن وأنتم نأْتِ بمن يُقيم فينا وفيكم كتابَ الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فقلتم : لا نَقْوَى على ذلك ، فقلنا لكم : فخلُّوا بيننا وبينهم ، فإن نظفَر نعدِل فى أحكامكم ، ونحمِلكم على سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ونقسِم فيئكم بينكم ، فأبيتم وقاتلتمونا دونهم ، فقاتلناكم وقتلناكم ، فأبعدكم الله وأسحقكم » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٠٧ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٥٨ ؛ والعقد الفريد ٢ : ١٦٢)

٤٤٨ — خطبة أخرى له

وروى أنه لما دخل المدينة قام فخطب ، فقال فى خطبته :

« يأهل المدينة مررتُ بكم فى زمن الأحول هِشام بن عبد الملك ، وقد أصابتكم عاهة بثماركم ، وكتبتم إليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم ، فكتب إليكم بوضعه عن قوم من ذوى اليسار منكم ، فزاد الغنىَّ غِنًى ، وزاد الفقير فقراً ، فقلتم : جزاك الله خيراً ، فلا جزاكم الله خيراً ، ولا جزاه خيراً » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٠٨ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٥٨)

---

[1] وفى رواية : «وسألناكم ، هل يقتلون بالظن ؟ فقلتم : نعم ، وسألناكم : هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام ؟ فقلتم : نعم » .

٤٤٩ — خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيبون صحابه[1]

وبلغ أبا حمزة أن أهل المدينة يعيبون أصحابه ، لحَدَاثة أسنانهم ، وخِفّة أحلامهم ، فصعد المنبر ، وعليه كِساء غَليظ ، وهو متنكِّبٌ قوساً عربية ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وآله ، ثم قال :

« يأهلَ المدينة ، قد بلغتنى مقالتكم لأصحابى ، ولولا معرفتى بضعف رأيكم وقلة عقولكم ، لأحسنتُ أدبكم ، وَيْحكم ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُنْزِل عليه الكتابُ ، وَبُيِّن له فيه السننُ ، وشُرِع له فيه الشرائعُ ، وبُيِّن له فيه ما يأتى وما يذَر ، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ، ولا يُحْجِم إلا عن أمر الله ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه وسلم ، وقد أدى الذى عليه ، وعَلَّم المسلمين مَعَالم دينهم ، ولم يدعْهم من أمرهم فى شُبْهة ، وولَّى أبا بكر صلاتهم ، فولاه المسلمون أمر دنياهم ، حين ولاّه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر دينهم ، فعمِل بالكتاب والسنة ، وقاتل أهل الرِّدَّة ، وشمّر فى أمر الله ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون رحمةُ الله عليه ومغفرته ، ثم ولى بعده عمر بن الخطاب فسار بسيرة صاحبه ، وعمل بالكتاب والسنة ، وجنّد الأجناد ، ومَصّر الأمصار ، وجَبَى الْفَيْء ، وفَرَض الأعْطِيَة ، وشمَّر عن ساقه ، وحَسَر عن ذراعه ، وجَلَد فى الخمر ثمانين ، وجمع الناس فى شهر رمضان[2] ، وغزا العدو فى بلادهم ، وفتح المدائن والحصون ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته ، ثم ولِيَ من بعده عثمان بن عفان ، فسار ستَّ سنين بسيرة صاحبيه ـ وكان دونهما ـ ثم سار فى الست الأواخِر بما أحْبَط به الأوائلَ ، واضطرب حبل الدين بعدها ، فطلبها[3] كل امرئ

---

(١) روى الجاحظ أن هذه الخطبة كانت بمكة ، وذكر أن اسم أبى حمزة « يحيى بن المختار » .

(٢) أى لصلاة القيام ، وفى رواية : « وقام فى شهر رمضان » .

(٣) أى الخلافة ، يشير إلى تطلع طلحة والزبير إليها ، وطمع معاوية فيها .

لنفسه ، وأسَرّ كل رجل منهم سريرةً أبداها الله عنه ، حتى مضَوا على ذلك ، ثم ولِيَ علىّ بن أبي طالب ، فلم يبلغ من الحق قَصْدًا ، ولم يرفع له مَناراً ، ثم مضى لسبيله :

ثم ولى معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنُ لعينه[1] ، وحِلْف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، مُؤلَّف طليق . فسفك الدم الحرام ، واتخذ عبادَ الله خَوَلا[2] ، ومالَ اللهِ دُولاً[3] ، وَبَغَى دينه عِوَجًا ودَغَلا[4] ، وأحلّ الفَرْج الحرام ، وعمل بما يشتهيه ، حتى مضى لسبيله ، فالعنوه لعنه الله ، ثم ولى بعده ابنه يزيد ، يزيد الخُمور ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصيُود ، ويزيد القرود[5] ،

---

(١) انظر ص ٢٣ و ٢٤ .   (٢) عبيدا .   (٣) جمع دولة بالضم : أي متداولا بين عشيرته دون سائر المسلمين .   (٤) الدغل : الفساد كالدخل .   (٥) روى المسعودى فى مروج الذهب — ج ٢ : ص ٩٤ — قال :

« وكان يزيد صاحب طرب ، وجوارح ، وكلاب ، وقرود ؛ وفهود ؛ ومنادمة على الشراب ؛ وجلس ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد — وذلك بعد قتل الحسين — فأقبل على ساقيه ، فقال :

اسقنى شربة تروى مشاشى   ثم صل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندى   ولتسديد مغنمى وجهادى

(والمشاش كغراب : النفس والطبيعة) ، ثم أمر المغنين فغنوا ، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهى ، وأظهر الناس شرب الشراب ، وكان له قرد يكنى بأبى قيس ؛ يحضره مجلس منادمته ؛ ويطرح له متكأ ، وكان قردا خبيثا ، وكان يحمله على أتان وحشية ؛ قد ريضت وذللت لذلك بسرج ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ، فجاء فى بعض الأيام سابقا فتناول القصبة ؛ ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعلى أبى قيس قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشهر (مخطط) وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق (أى مصبغة بمثل الشقائق) وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان فقال فى ذلك بعض شعراء الشأم فى ذلك اليوم :

تمسك أبا قيس بفضل عنانها   فليس عليها إن سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذى سبقت به   جياد أمير المؤمنين أتان !

وروى ابن طباطبا فى الفخرى ص ٤٩ قال : « كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفا بالصيد لا يزال لاهيا به ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلال المنسوجة منه « الجلال بالكسر جمع جل بالضم والفتح : ماتلبسه الدابة لتصان به » ويهب لكل كلب عبدا يخدمه ، قيل إن عبيد الله بن زياد أخذ من بعض =

الفاسقُ في بطنه ، المأبون[1] في فرجه، المخالف القرآن، واتبع الكُهّان، ونادم القرد، وعمل بما يشتهيه، حتى مضى على ذلك لعنه الله، وفعل به وفعل، ثم ولى مَرْوان بن الحكم، طريدُ لعينُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وابن لعينه، فاسقٌ في بطنه وفَرجه، فالعنوه والعنوا آباءه.

ثم تداولها بنو مَرْوان بعده ، أهلُ بيت اللعنة ، طُرَدَاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وقومٌ من الطُّلقاء ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا التابعين بإحسان ، فأكلوا مال الله أكلاً ، وَلَعِبوا بدين الله لعباً ، واتخذوا عباد الله عَبيداً ، يورث ذلك الأكبرُ منهم الأصغرَ ، فيا لها أمة ! ما أضيعَها وأضعفَها ! والحمد لله ربّ العالمين ، ثم مضوا على ذلك من سيئ أعمالهم، واستخفافهم بكتاب الله تعالى ، قد نَبَذُوه وراء ظهورهم لعنهم الله ، فالعنوهم كما يستحقون ، وقد ولىَ منهم عمر بن عبد العزيز ، فبلغ ولم يَكَدْ وَعَجَزَ عن الذى أظهره حتى مضى لسبيله — ولم يذكره بخير ولا شرّ — .

ثم وَلِيَ يزيد بن عبد الملك ، غلامٌ ضعيف سَفيه ، غير مأمون على شيء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشُدَّه[2] ، ولم يُؤْنَسْ رُشدُه ، وقد قال الله عزّ وجلّ : « فَإِنْ آنَسْتُمْ

= أهل الكوفة أربعمائة ألف دينار جباية وجعلها في خزائن بيت المال ، فرحل ذلك الرجل من الكوفة ، وقصد دمشق ليشكو حاله إلى يزيد ، وكانت دمشق في تلك الأيام فيها سرير الملك — فلما وصل إلى ظاهر دمشق سأل عن يزيد فعرفوه أنه في الصيد ، فكره أن يدخل دمشق ، وليس يزيد حاضرا فيها ، فضرب مخيمه ظاهر المدينة ، وأقام به ينتظر عود يزيد من الصيد ، فبينما هو في بعض الأيام جالس في خيمته ، لم يشعر إلا بكلبة قد دخلت عليه ، وفي قوائمها الأساور من الذهب ، وعليها جل يساوى مبلغا كبيرا ، وقد بلغ منها العطش والتعب ، وكادت تموت ، فعلم أنها ليزيد وأنها قد شذت منه ، فقام إليها وقدم لها ماء وتمهدها بنفسه ، فما شعر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل ، وعليه زى الملوك ؛ وقد علته غبرة ، فقام إليه ، وسلم عليه ، فقال له أرأيت كلبة عابرة بهذا الموضع ؟ فقال : نعم يامولانا ، هاهى في الخيمة، قد شربت ماء واستراحت وقد كانت على غاية من العطش والتعب ، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ، ونظر إلى الكلبة وقد استراحت ، فجذب بحبلها ليخرج ، فشكا الرجل إليه حاله وعرفه ماأخذ منه ابن زياد ، فطلب دواة وكتب إليه برد ماله وخلعة سنية ، وأخذ الكلبة وخرج ، فرد الرجل من ساعته إلى الكوفة ، ولم يدخل دمشق .

(١) أبنه بشيء كنصر وضرب : اتهمه ، فهو مأبون ، بخير أو شر ، فإن أطلقت فقلت مأبون فهو للشر والأبنة كعقدة : العيب . (٢) بلغ أشده : أى قوته ، وهو مابين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة ، وقد اختلف المؤرخون في مقدار سن يزيد ، فقيل إنه توفى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل ابن سبع وثلاثين ، وكانت ولايته أربع سنين وشهرا ، والمراد أنه لم يبلغ أشده لسفهه وعكوفه على اللذات والشهوات .

مِنهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إليهم أَمْوَالَهُمْ[1] » فأمرُ أمة محمد فى أحكامها وفروجها ودمائها أعظم عند الله من مال اليتيم ، وإن كان عند الله عظيما ، غلام مَأبونٌ فى بطنه وفرجه ، يشرب الحرام ، ويأكل الحرام ، ويلبس الحرام ، يلبس بُرْدتين قد حِيكَتا له ، وقُوِّمتا على أهلهما بألف دينار ، وأكثر وأقل ، قد أخذت[2] من غير حِلِّها ، وصُرِفت فى غير وجهها، بعد أن ضُربت فيها الأبْشَار[3] ، وَحُلِقَتْ فيها الأشعار ، وهتكت فيها الأستار ، واستُحِلَّ ما لم يُحِلَّ الله لعبد صالح ، وَلا لنبىّ مُرْسَل ، ثم يُجْلس حبّابةَ عن يمينه ، وَسَلاّمةَ عن شماله ، تغنيانه بمزامير الشيطان ، وَيشرب الخمر الصُّراح المحرَّمة نصا بعينها ، حتى إذا أخذت منهُ مأخذها ، وخالطت رُوحَهُ ولحمه ودمه ، وغلبتْ سَوْرتها على عقله ، مَزّق حُلَّتيه ، ثم التفت إليهما فقال : أتأذنان لى أن أطير[4] ؟ نعم ، فطرْ إلى لعنة الله ، وحريق ناره ، وأليم عذابه ، طرْ إلى حيثُ لا يردّك الله .

---

(١) الآية الكريمة فى اليتامى ، وأولها : « وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ . . . . » . (٢) أى الدنانير . (٣) فيها : أى فى تحصيلها . والأبشار : جمع بشر ، وهو جمع بشرة : ظاهر الجلد ، والمراد ضرب الناس فى جباية الأموال . (٤) ذكر ذلك ابن طباطبا فى الفخرى ص ١١٧ قال : « كان يزيد بن عبد الملك خليع بنى أمية شغف بجاريتين اسم إحداهما سلامة ، والأخرى حبابة نقطع معهما زمانه ، قالوا : فغنت يوما حبابة :

بين التراقى واللهاة حرارة   ماتطمئن ولا تسوغ فتبرد

فأهوى يزيد ليطير ، فقالت : ياأمير المؤمنين لنا فيك حاجة ، فقال : والله لأطيرن ، قالت : فعلى من تدع الأمة ؟ قال : عليك وقبل يدها ، فخرج بعض خدمه وهو يقول : « سخنت عينك فما أسخنك » وروى أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى « ج ١٣ ص ١٤٨ » قال : « كانت حبابة مولدة من مولدات المدينة ، حلوة جميلة الوجه ظريفة حسنة الغناء ؛ وقد قال يزيد بن عبد الملك : ماتقر عينى بما أوتيت من الخلافة حتى أشترى سلامة وحبابة ، فأرسل فاشتريتا له ، فلما اجتمعتا عنده قال : أنا الآن كما قال القائل :

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عينا بالإياب المسافر

وذكروا أن مسلمة بن عبد الملك أقبل على يزيد يلومه فى الإلحاح على الغناء والشراب ، وقال له : إنك وليت بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله ، وقد تشاغلت بهذه الأمة عن النظر فى الأمور ، والوفود ببابك ، —

ثم ذكر بنى أمية وأعمالهم وَسِيَرَهم فقال: « أصابوا إِمْرَةً ضائعة ، وقوماً طَغاماً جُهّالا ، لا يقومون لله بحقّ ، ولا يفرّقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم ، فملكوا الأمر ، وتسلّطوا فيه تسلط رُبُوبيّة ، بَطْشُهم بطش الجبابرة ، يحكمون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويأخذون بالظِّنّة ، ويعطّلون الحدود بالشفاعات ، ويأمَنُون الخَوَنة ، ويُقْصُون ذوى الأمانة ، ويأخذون الفريضة من غيرِ موضعها ، ويَضَعونها فى غير أهلها ، وقد بيّن الله أهلها ، فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ ، وَالْغَارِمِينَ

= وأصحاب الظلامات يصيحون ، وأنت غافل عنهم ، فقال : صدقت والله وأعتبه ، وهم بترك الشراب ؛ ولم يدخل على حبابة أياما ، فدست حبابة إلى الأحوص أن يقول أبياتا فى ذلك ، وقالت له : إن رددته عن رأيه ، فلك ألف دينار ، فقال :

ألا لاتلمه اليوم أن يتبلدا	فقد غلب المحزون أن يتجلدا
بكيت الصبا جهدى فمن شاء لامنى	ومن شاء آسى فى البكاء وأسعدا
وإنى وإن فندت فى طلب الغنى	لأعلم أنى لست فى الحب أوحدا
إذا أنت لم تعشق ولم تدر ماالهوى	فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا
فما العيش إلا ماتلذ وتشتهى	وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

ومكث يزيد جمعة لايرى حبابة ، ولا يدعو بها ، فلما كان يوم الجمعة ، قالت لبعض جواريها : إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعلمينى ، فلما أراد الخروج أعلمتها ، فتلقته والعود فى يدها ، فغنت البيت الأول ، فغطى وجهه ، وقال : مه لاتفعلى ، ثم غنت : فما العيش إلا ماتلذ وتشتهى : فعدل إليها ، وقال : صدقت والله ، فقبح الله من لامنى فيك ، ياغلام ، مر مسلمة أن يصلى بالناس ، وأقام معها يشرب وتغنيه ، وعاود ماكان فيه ، ثم قال لها : من يقول هذا الشعر ؟ قالت : الأحوص ، فأحضره ثم أنشده قصيدة مدحه فيها ، فقال له : ارفع حوائجك ، فكتب إليه فى نحو أربعين ألف درهم من دين وغيره ، فأمر له بها ، انظر أيضا تاريخ الطبرى ٨ : ١٧٩ ، ومروج الذهب ج ٢ : ص ١٧٥ ، ومما ذكره المسعودى : أن حبابة اعتلت فأقام يزيد أياما لايظهر للناس ، ثم ماتت ، فأقام أياما لايدفنها حتى جيفت فقيل له : إن الناس يتحدثون بجزعك وإن الخلافة تجل من ذلك ، فدفنها وأقام على قبرها ، فقال :

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى ٭ فباليأس تسلو النفس لا بالتجلد

ثم أقام بعدها أياما قلائل ومات .

وَفِى سَبِيلِ ٱللهِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ(١) » فأقبل صِنْفٌ تاسع ليس منها ، فأخذ كلَّها : تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله ، فالعنوهم لعنهم الله .

وأما إخواننا من هذه الشيعة — وليسوا بإخواننا فى الدين ، لكنى سمعت الله عزَّ وجلَّ قال فى كتابه : « يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفِرْية على الله ، لا يرجعون إلى نظرٍ نافذٍ فى القرآن ، ولا عقل بالغٍ فى الفقه ، ولا تفتيشٍ عن حقيقة الصواب ، قد قلّدوا أمورهم أهواءهم ، وجعلوا دينَهم العصبيَّةَ لحزبٍ لزموه ، وأطاعوه فى جميع ما يقوله لهم ، غيًّا كان أو رشداً ، ضَلالةً أو هدى ، ينتظرون ٱلدُّوَل فى رَجْعة الموتى(٢) ، وَيُؤمنون بالبعث قبل الساعة ، ويدَّعون علمَ الغيب لمخلوق ، لا يعلم أحدهم ما فى بيته ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبُه ، أو يحويه جسمُه ، ينقِمون المعاصى على أهلها ويعملون إذا وَلُوا بها ، يُصِرُّون على الفتنة ولا يعرفون المَخْرَج منها ؛ جُفاةٌ فى دينهم ،

(١) الصدقات : الزكاة . العاملين عليها : الساعين فى تحصيلها وجمعها . والمؤلفة قلوبهم : الذين أسلموا ونيّتهم ضعيفة فى الإسلام ، فتستألف قلوبهم . وفى الرقاب : أى وفى فك رقاب المكاتبين ، فيعاونون بشىء منها . والغارمين : أى المدينين لأنفسهم فى غير معصية ، ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء .

(٢) كان بعض الشيعة يعتقدون فى أئمتهم الذين ماتوا ، أنهم أحياء لم يموتوا ، إلا أنهم غائبون عن أعين الناس ؛ فالشيعة الكيسانية يقولون إن محمد بن الحنفية رضى الله عنه لم يمت ، وإنه فى جبل رضوى (بالحجاز) بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ، وإنه يعود بعد الغيبة فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، وفيه يقول كثير من أبيات :

يغيب ولايرى فيهم زمانا　　　برضوى عنده عسل وماء

انظر الملل والنحل للشهرستانى ١ : ١٥٥ والفصل لابن حزم ٤ : ١٣٧ والفرق بين الفرق ص٢٨ والاثنا عشرية « وهى إحدى فرقتى الشيعة الإمامية ؛ سموا بذلك لوقوفهم عند الإمام الثانى عشر وهو محمد ابن الحسن العسكرى ، ويلقبونه بالمهدى المنتظر » يزعمون أنه دخل فى سرداب بسر من رأى ، وغاب هناك ، وأنه يخرج فى آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا وهم ينتظرونه — ويسمونه المنتظر لذلك — ويقفون فى كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا فيهتفون باسمه ، ويدعونه للخروج ، حتى تشتبك النجوم ، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية — انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ — .

قليلة عقولهم[١] ، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينَهم ، وزعموا أن مُوَالاتَهم لهم تُغنيهم عن الأعمال الصالحة ، وتُنجيهم من عقاب الأعمال السيئة ، قاتلهم الله أنَّى يُؤفـكون[٢] .

فأيّ هؤلاء الفرق بأهل المدينة تتبعون ، أم بأى مذاهبهم تقتدون ؟ وقد بلغنى أنـكم تنتَقِصون أصحابى ! قلتم هم شباب أحداث، وأعرابٌ جُفاة ، ويْحَـكم بأهل المدينة ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون فى الخير إلا شبابا أحداثاً ؟ أما والله إنى لعالم بتتابُعِـكم فيما يضركم فى مَعَادكم ، ولولا اشتغالى بغيركم عنـكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم شبابٌ والله مُـكْتَهِلون[٣] فى شبابهم ، غَضيضةٌ عن الشر أعينُهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلُهم ، أنضاء[٤] عبادة ، وأطلاحُ سَهَر[٥] ، باعوا أنفساً تموت غداً ، بأنفس لا تموت أبداً ، قد نظر الله إليهم فى جَوف الليل ، منحنية أصلابُهم على أجزاء القرآن ، كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مَرّ بآية من ذكر النار شَهَق شهقةً ، كأن زَفير جَهَنّم بين أذنيه ، قد أكلت الأرض رُكبَهم وأيديهم وأنوفهم وجِباهَهم ، ووصلوا كَلالَ[٦] الليل بكَلال النهار ، مُصْفرّة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم ، من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك فى جَنْبِ الله ، مُوفُون بعهد الله ، مُنجزون لوعد الله ، حتى إذا رأوا سِهام العدو وقد فُوِّقت[٧] ، ورماحهم وقد أُشْرِعَت[٨] ، وسيوفهم وقد انْتُضِيَت[٩] ، وبَرَقَت الـكتيبة وَرَعَدَت بصواعق الموت ، استخفّوا بوعيد الـكتيبة لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد

(١) وفى البيان والتبيين « جفاة عن القرآن ؛ أتباع كهان » . (٢) أفكه عنه كضرب : صرفه وقلب رأيه . (٣) أى قد أحرزوا وزانة الكهول وسداد رأيهم . (٤) جمع نضو كحمل، وهو المهزول . (٥) جمع طلح وهو كنضو وزنا ومعنى . (٦) الـكلال : التعب والإعياء .

(٧) فوق السهم : جعل له فوقا (بالضم) وهو موضع الوتر من السهم ؛ أى أعدت للرمى .

(٨) سددت . (٩) استلت .

الـكتيبة ، ولَقُوا شَبَا[1] الأسنّة ، وشائك السهام ، وظُبَاتِ السيوف بنحورهم ، ووجوههم وصدورهم ، فمضى الشاب منهم قُدُما ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، واختضبت محاسن وجهه بالدماء ، وعُفِّر[2] جَبِينه بالثّرَى ، وانحطت عليه طير السماء ، وتمزقته سباع الأرض ، فطوبَى لهم وحسن مآب ، فكم من عين فى منقار طائر طالما بكى بها صاحبها فى جَوْف الليل من خَوف الله ، وكم من يد قد أُبينَت عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً ، وكم من وجهٍ رقيق ، وجَبِينٍ عَتِيق[3] ، قد فُلق بعَمَد الحديد ، ثم بكى ، وقال : آهِ ، آهِ على فراق الإخوان ، رحمةُ الله على تلك الأبدان ، وأدخل أرواحهم الجنان » . الأغانى ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٥٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦١ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦١) .

٤٥٠ — خطبة أخرى

ورقى المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أُوصيكم بتقوى الله وطاعته ، والعمل بكتابه ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وصلَة الرَّحم ، وتعظيم ما صغَّرت الجبابرةُ من حق الله ، وتصغير ما عظَّمت من الباطل ، وإماتةِ ما أحيَوْا من الجَوْر ، وإحياء ما أماتوا من الحقوق ، وأن يُطاع الله ، ويُعْصَى العبادُ فى طاعته ، فالطاعة لله ولأهل طاعة الله ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ندعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ، والقَسْمِ بالسوِيَّة ، والعدلِ فى ارعية ، ووضع الأخماسِ فى مواضعها التى أمر الله[4] بها ، تعلمون يأهل المدينة أنَّا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أَشَراً

---

(١) جمع شباة : وهى حد كل شىء ، والظبات : جمع ظبة ؛ وهى حد السيف. (٢) أصابه العفر : وهو التراب . (٣) كريم .

(٤) قال الله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ ، فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » .

ولاَ بطراً ، ولا عَبَثًا ، ولا لهواً ، ولا لدولة مُلك نريد أن نخوض فيه ، ولا لثأر قديم نِيل منا ولكنا لما رأينا مصابيحَ الحقِّ قد أطفِئت ، ومعالِم العدل قد عُطِّلَت ، وكثُر الادِّعاء فى الدين وَعُمِل بالهوى ، وَعُنِّفَ القائلُ بالحق ، وقُتِلَ القائم بالقِسْط ، ضاقت علينا الأرضُ بما رَحُبَت ، وسمعنا داعياً[1] يدعو إلى طاعة الرحمن ، وَحُكْمِ القرآن ، فأجَبْنا داعِىَ الله وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِىَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ[2] فى الأرْضِ ، فأقبلْنَا من قبائلَ شتَّى ، النفرُ[3] منا على بعير واحد ، عليه زادهم وأنفسهم ، يتعاوَرون لِحَافًا واحداً ، قليلون مُستضعَفون فى الأرض ، فآوانا الله وأيدنا بنصره ، وأصبحنا والله جميعا بنعمته إخوانًا ، وعَلَى الدين أعوانًا ، ثم لقينَا رجالَكم بقُدَيْدٍ ، فدعَوْناهم إلى طاعة الرحمن ، وحكم القرآن ، ودعَوْنا إلى طاعة الشيطان ، وحكم مروان وآل مروان ، فشتَّان لعمرُ الله ما بين الغىِّ والرشد ! ثم أقبلوا يُهْرَعون وَيَزِفُّون[4] ، قد ضرب الشيطان بجرَانه[5] ، وغلت بدمائهم مَرَاجِلُه ، وصَدَّقَ عَلَيهم إبْلِيسُ ظَنَّهُ ، وأقبل أنصار الله عصائبَ وكتائبَ ، بكل مُهَنَّد ذى رَوْنق ، فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المُبْطلون .

وأنتم يأهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يُسْحِتْكم[6] اللهُ بعذَابٍ من عنده أو بأيدينا ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، يأهل المدينة إن أوَّلكم خير أول ، وآخركم شرُّ آخر ، يأهل المدينة : الناس منا ونحن منهم ، إلا مشركاً عابِدَ وَثَن ، أو كافرًا من أهل الكتاب ، أو إمامًا جائرًا أو شادًا على عضُده ، يأهل المدينة : من زعم أن الله تعالى كلَّف نفسًا فوق طاقتها ، أو سألها مالم يؤتها ، فهو لله عدوٌّ ولنا حرب[7] » .

(تاريخ الطبرى ۹ : ۱۰۸) ، الأغانى ۲۰ : ۱۰٤ ، وشرح ابن أبى الحديد م ۱ ص ٤٥٨ ، والعقد الفريد ۲ : ۱٦۱)

---

(۱) يريد عبد الله بن يحيى الكندى . (۲) أى لايعجز الله بالهرب منه فيفوته .

(۳) النفر : جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة . (٤) زف الظليم وغيره كضرب زفا وزفيفا وزفوفا ، وأزف : أسرع . (٥) جران البعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره : أى استولى عليهم .

(٦) أسحته : استأصله . (۷) روى أنه قال عقب ذلك : « يأهل المدينة أخبرونى عن ثمانية أسهم فرضها الله تعالى فى كتابه على القوى ، على حبه الضعيف ، فجاء تاسع ، ليس له منها ولا سهم واحد ، =

٤٥١ — خطبة له فى سبّ أهل المدينة وتقريعهم

وخطب المدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يأهل المدينة : مالى رأيت رَسْم الدين فيكم عَفِيًّا ، وآثاره دارسةً ، لا تَقبلون عظَتَه ولا تَفقَهون من أهله حُجَّة ، قد بليت فيكم جِدَّتُه ، وانطمست عنكم سُنَّتُه ، تَرَون معروفَه منكرًا ، والمنكرَ من غيره معروفًا ، إذا انكشفت لكم العِبَر ، وأوضحت لكم النُّذُر[1] ، عَمِيت عنها أبصاركم ، وصمّت عنها أسماعكم ، ساهين في غَمْرَة ، لاهين في غفلة ، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نُشِر ، وتنقبض عن الحق إذا ذُكر ، مستوحشةً من العلم ، مستأنسةً بالجهل ، كلما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحق نفورًا ، تحملون قلوبًا فى صدوركم كالحجارة أو أشد قسوة من الحجارة ، أو لم تَلِنْ لكتاب الله الذى لو أُنْزِل على جَبَل لرأيتَه خاشعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ الله ، يأهل المدينة ، ما تُغْنِي عنكم صحة أبدانكم إذا سقِمَت قلوبكم ، إن الله قد جعل لكل شىء سببًا غالبًا ينقاد له ، ويطيع أمره . وجعل القلوبَ غالبةً على الأبدان ، فإذا مالت القلوب مَيْلا ، كانت الأبدان لها تَبَعًا ، وإن القلوب لا تلين لأهلها إلا بصحتها ، ولا يصحِّحها إلا المعرفةُ بالله ، وقوّة النية ، ونفاذ البصيرة ، ولو استشعَرَتْ تقوى الله قلوبُكم ، لاستعملَتْ فى طاعة الله أبدانكم ، يأهل المدينة : داركم دارُ الهِجْرة ، ومَثْوَى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا نَبَتْ به داره ، وضاق به قرارُه ، وآذاه الأعداء وتجهمت[2] له ، فنقله الله إليكم ، بل إلى قوم لعمرى لم يكونوا أمثالكم ، مُتوازرين مع الحق على الباطل ، مختارين الآجلَ على العاجل ، يصبِرون للضَّرَّاء رجاء ثوابها ، فنصروا الله ، وجاهدوا فى سبيله ، وآوَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه ، واتبعوا النُّورَ

= فأخذ جميعها لنفسه مكابرا محاربا لربه ، ما تقولون فيه وفيمن عاونه على فعله ؟ يأهل المدينة بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى ... الخ » وقد حذفته هنا لوروده فى الخطبة السالفة .

(1) النذر : جمع نذير، وهو المنذر . (2) تجهمه وتجهم له : استقبله بوجه كريه .

الّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ ، وآثَرُوا الله على أنفسهم ولو كانَ بهم خَصاصةٌ[1] . قال الله تعالى لأمثالهم ولمن اهتدى بهداهم : « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، وأنتم أبناؤهم ومن بقى من خَلَفهم ، تتركون أن تقتدوا بهم ، أو تأخذوا بسنتهم ، عُمْى القلوب ، صُمّ الآذان ، اتبعتم الهوى ، فأرْداكم عن الهدى وأسهاكم ، فلا مواعظُ القرآن تزجركم فتزدجرون ، ولا تعظكم فتعتبرون ، ولا توقظكم فتستيقظون ، لبئس الخَلَف أنتم من قوم مَضَوا قبلكم ، ماسِرتم بسيرتهم ، ولاحفِظتم وصيتهم ، ولا احتذيتم مثالهم ، لوشُقّت عنهم قبورهم ، فعُرضت عليهم أعمالكم ، لعَجِبُوا كيف صُرف العذاب عنكم ! »

(الأغانى ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٥٨)

* * *

وجاء فى رواية العقد الفريد :

« يأهل المدينة : أوّلكم خيرُ أوّل ، وآخركم شر آخر ، إنكم أطعتم قُرّاءكم وفقهاءكم فاختَتَانوكم[2] عن كتاب غيرِ ذى عِوَج ، بتأويل الجاهلين ، وانتحال المُبْطلين ، فأصبحتم عن الحق ناكبين[3] ، أمواتاً غيرَ أحياءٍ وَمَا تَشْعُرُونَ ، يأهل المدينة : يا أبناء المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ما أصحَّ أصلَكم ، وأسقم فرعَكم ! كانَ آباؤكم أهلَ اليقين ، وأهل المعرفة بالدين ، والبصائر النافذة ، والقلوب الواعية ؛ وأنتم أهل الضلالة والجهالة ، استعبدتكم الدنيا فأذلتكم ، والأمانىّ فأضلتكم فتح الله لكم بابَ الدين فسَدَدْتموه ، وأغلق عنكم باب الدنيا ففتحتموه ، سِرَاعٌ إلى الفتنة ، بطاء عن السُّنّة ، عُمْىٌ عن البرهان ، صُمٌّ عن العِرْفان ، عَبيد الطامع ، حُلفاء الجزَع ، نِعْمَ ما ورّثكم آباؤكم لو حفِظتموه ، وبئس ما تورّثون أبناءكم إن تمسّكوا به ، نصر الله آباءكم على الحق ، وخذلكم على الباطل ، كان عدد آبائكم قليلا طيّباً ، وعددكم كثير

---

(١) الخصاصة : الفقر . (٢) خانوكم . (٣) أى عادلين عنه منصرفين

خبيث ، اتبعتم الهوى ، فأرْدَاكم ، واللهو فأسهاكم ، ومواعظُ القرآن تزجُركم فلا تَزْدَجِرُون ، وتعبِّركم[1] فلا تعتبرون » (العقد الفريد ٢ : ١٦١)

٤٥٢ — خطبة أخرى

وخطب فقال : « أما بعد ، فإنك فى ناشئ فتنة[2] ، وقائد ضلالة ، قد طال جُثومها ، واشتدَّ عليك غُمُومُها ، وتلوَّنت[3] مَصَايِدُ عدو الله فيها ، وما نَصَب من الشَّرَك لأهل الغفلة عمَّا فى عواقبها[4] ، فلن يَهُدَّ عمودَها ، ولن يَنزِع أوتادَها ، إلا الذى بيده مُلك الأشياء ، وهو الله الرحمن الرحيم ، ألا وإن لله بقايا من عباده لم يتحيَّروا فى ظُلَمِها ، ولم يُشايعوا أهلَها على شُبَهها ، مَصَابِيحُ النور فى أفواههم تَزْهُو ، وألسنتهم بحُجَج الكتاب تنطق ، ركبوا مَنْهَج السبيل ، وقاموا على العَلَم[5] الأعظم ، هم خُصماء الشيطان الرجيم ، بهم يُصْلح اللهُ البلاد ، وَيَدْفَع عن العباد ، فطُوبى لهم وللمستصبحين[6] بنورهم ، وأسأل الله أن يجعلَنا منهم[7] » .

(العقد الفريد ٢ : ١٦٢)

---

(١) المراد : تعظكم ، من العبرة ؛ ولم أجده فى كتب اللغة بهذا المعنى ، وإنما الذى فيها : « عبر الدراهم : وزنها » . (٢) من إضافة الصفة للموصوف أى فى فتنة ناشئة ، أى حية شابة .

(٣) تعددت وصارت ذات ألوان : أى نصب العدو لنا المصايد ، ودبر المكايد للإيقاع بنا .

(٤) أى ولسنا منهم . (٥) العلم : الجبل ، والمراد أنهم لايستخفون فى دعوتهم .

(٦) أى المستضيئين . (٧) ذكر الجاحظ هذه الخطبة ، وقال : ذهب عنى إسنادها ؛ وهى لأبى حمزة كما فى العقد الفريد .

٤٥٣ — خطبته حين خرج من المدينة

وخطب حين خرج من المدينة ، لقتال جيش مروان[1] فقال :

« يأهل المدينة : إنا خارجون لحرب مَرْوان ، فإن نظْهر نعدِل فى أحكامكم ، ونحمِلكم على سنة نبيكم ، ونقسِمْ بينكم فيئكم ، وإن يكن ما تَمَنَّوْن لنا : فَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١١٠ ، والأغانى ٢٠ : ١١٠ وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٦١)

٤٥٤ — عمران بن حطان والحجاج

ولما ظَفِر الحجّاج بعِمْران[2] بن حِطّان الشّارِى . قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ، فقال عمران : لبئس ما أدَّبك أهلك ياحَجّاج ! كيف أمِنْتَ أنْ أجيبَك بمثل ما لَقِيتَنى به؟ أبَعْدَ الموتِ منزلةٌ أصانعك عليها ؟ فأطرق الحجاج استحياء وقال: خَلُّوا عنه، فخرج إلى أصحابه ، فقالوا : والله ما أطلقَك إلا اللهُ ، فارجع إلى حربه معنا ، فقال : هيهات ! غَلَّ يدًا مُطْلِقُها ، وأسَرَ رقبةً مُعْتِقُها .

(زهر الآداب ٣ : ١٧٨)

---

(١) وذلك أن مروان بن محمد جهز جيشا من أهل الشأم، واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية ، وأمره أن يمضى فيقاتلهم ، فإن هو ظفر بهم مضى حتى يبلغ اليمن ، ويقاتل عبد الله بن يحيى ، فسار إليهم ، وخرج أبو حمزة لقتاله ، فقاتلهم ابن عطية حتى قتلهم ، وقتل أبا حمزة ؛ وبعث برأسه إلى مروان ، وصلبه هو وكبار أصحابه (سنة ١٣٠) ولم يزالوا مصلبين حتى أفضى الأمر إلى بنى العباس ، ثم سار ابن عطية إلى اليمن ، فقاتل عبد الله بن يحيى وقتله ، وبعث برأسه إلى مروان .

(٢) كان رأس القعد من الخوارج الصفرية وخطيبهم وشاعرهم .

الخطب الوعظية والوصايا

٤٥٥ — خطبة سحبان بن زفر الوائلي[1] (توفي سنة ٥٤ هـ)

خطب فقال :

« إن الدنيا دارُ بَلاغ ، والآخرة دار قَرَار ، أيها الناس : فَخُذوا من دار مَمَرِّكم لدار مَقَرِّكم ، ولا تَهْتِكُوا أستارَكم عند من لا تَخْفَى عليه أسرارُكم ، وأخرِجُوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانُكم ، ففيها حَيِيتم ولغيرها خُلِقْتُم ، إن الرجل إذا هلك ، قال الناس : ما تَرَك ؟ وقالت الملائكة ما قدَّم لله ؟ قَدِّموا بعضاً يكون لكم ، ولا تخلفوا كُلاًّ يكون عليكم » . (سرح العيون ص ٩٥)

---

(١) هو سحبان بن زفر الوائلي ، وقد ضرب به المثل في الفصاحة والبيان ، فقيل : « أخطب من سحبان وائل » ومع ذلك لم يؤثر عنه إلا هذه الخطبة الموجزة ، على أنها تعزى إلى الإمام علي — انظر نهج البلاغة ١ : ٢٦٠ — وذكر المبرد في الكامل عن الأصمعي أن أعرابيا خطبها بالبادية — تهذيب الكامل ١ : ٢٨ — وكذا ذكر أبو علي القالي — في الأمالي ١ : ٢٥٨ — وابن عبد ربه — في العقد الفريد ٢ : ١٦٤ — وأبو الفضل الميداني — في مجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، وابن قتيبة في عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ — والحصري — في زهر الآداب ٢ : ٤ — قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأمير المؤمنين علي عليه السلام ، ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه ، فأورده كما يورد الناس كلام غيرهم » — م ٣ : ص ٢ .

وقد روى ابن نباتة في سرح العيون أنه قدم على معاوية وفد من خراسان ؛ فيهم سعيد بن عثمان بن عفان ، فطلب سحبان فلم يوجد في منزله ، فاقتضب من ناحية اقتضابا ، وأدخل عليه ، فتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ما تنحنح ، ولا سعل ، ولا توقف ، ولا ابتدأ في معنى ، فخرج منه ، وقد بقي عليه منه شيء ، فما زالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ؛ فأشار إليه سحبان أن لا تقطع كلامي ، فقال معاوية : الصلاة ، قال : هي أمامك : نحن في صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ، فقال سحبان : « والعجم والجن والإنس » اهـ ، ولعل هذه الإطالة هي التي عاقت الرواة عن حفظ ما يقول .

٤٥٦ — خطبة معاوية

وخطب معاوية بدمشق ، فقال :

أيها الناس : سافِرُوا بأبصاركم فى كَرِّ الجديدين[1] ، ثم ارْجِعُوها كليلة عن بلوغ الأمَل ، فإن الماضِىَ عِظَةٌ للباقى ، ولا تجعلوا الغرورَ سبيل العجز عن الجدّ ، فَتَنْقَطِعَ حجتكم فى مَوْقِفٍ اللهُ سائِلُكم فيه ، ومحاسِبُكم فيما أسلفتم ، أيها الناس : أمْسِ شَاهِدٌ فاحْذَرُوه ، واليوم مؤدِّب فاعْرِفوه ، وغداً رسولٌ فأَكْرِموه » .

(مواسم الأدب ٢ : ١١٦)

٤٥٧ — خطبة عبد الملك بن مروان

وخطب عبد الملك بن مروان ، فقال :

« أيها الناس : اعْمَلوا لله رغبةً ورهبةً ، فإنكم نَبات نِعْمَته ، وَحَصِيد نِقْمَته ، ولا تَغرِس لكم الآمالُ ، إلا ما تجتنيه الآجالُ ، وَأَقِلُّوا الرغبة فيما يورث الْعطَبَ ، فكل ما تزرعه العاجلةُ ، تَقْلَعه الآجِلة ، واحذروا الجديدين ، فهما يكرَّان عليكم ، إن عُقْبَى من بَقِىَ لُحوق بمن مضى ، وعلى أَثَرِ من سَلَف ، يمضى من خَلَف ، فَتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » .

(مواسم الأدب ٢ : ١١٨)

---

(١) الجديدان : الليل والنهار .

٤٥٨ — خطبة لعمر بن عبد العزيز[1]

قال أبو العباس المبرِّد : حُدِّثْت فى بعض الأسانيد أن عمر بن عبد العزيز قال فى خطبة له :

« أيها الناس : إنما الدنيا أَمَلٌ مُخْتَرَم ، وَأَجَلٌ مُنْتَقَص ، وبلاغٌ إلى دارٍ غيرها ، وَسَيْرٌ إلى الموت ليس فيه تعريج ، فرحِم الله امرأً فـكَّر فى أمره ، وَنَصَحَ لنفسه ، وراقب ربه ، واستقال ذنبَه ، ونوَّر قلبه ، أيها الناس : إن أباكم قد أُخرج من الجنة بذَنْبٍ واحد ، وإن ربكم وعد على التوبة ، فليكن أحدكم من ذنبه على وَجَل ، ومن رَبِّه على أَمَل » .

(تهذيب الكامل ١ : ٢٧)

(١) هذه الخطبة مختلف فى قائلها أيضا ، فقد عزاها المبرد إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كما ترى وروى الميدانى فى مجمع الأمثال (٢ : ٢٧٧) الشطر الأول منها ، وعزاه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

كلام الحسن البصرى

(المتوفى سنة ١١٠ هـ)

٤٥٩ — خطبة له

قال الحسن البصرى رحمه الله [١] :

« يابن آدم : بِعْ دنياك بآخرتك تَرْبَحْهُمَا جميعاً ، ولا تبِعْ آخرتك بدنياك فتَخْسَرَهما جميعاً . يابن آدم : إذا رأيت الناس فى الخير فنافِسْهُم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشرّ فلا تَغبِطهم عليه ، الثَّواء [٢] هاهنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمّتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أُسرِع بخياركم ، فماذا تنتظرون ؟ المعايَنَةَ ؟ فكأنْ قَدْ ، هيهات هيهات ! ذهبت الدنيا بحاليها [٣] ، وبقيت الأعمال قلائدَ فى أعناق بنى آدم . فيالها موعظةً لو وافقت من القلوب حياةً ! أمَا إنه والله لا أُمّةَ بعد أمتكم ، ولا نبيّ بعد نبيكم ، ولا كتابَ بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم ، وإنما يُنتظر بأولكم أن يَلْحقه آخرُكم ، من رأى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فقد رآه غادياً ورائحاً ، لم يضع لَبِنةً على لبنة ، ولا قَصَبة على قصبة ، رُفِع له عَلَمٌ فشمّر إليه [٤] ، فالوَحَاء الوَحَاء [٥]

---

(١) هو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى ، من سادات التابعين ، وأورع العباد والمتنسكين وإمام أهل العلم والرأى فى عصره ، وأستاذ واصل بن عطاء شيخ المعتزلة . (٢) الإقامة .

(٣) أى بزمنها الحالى ، من حليت المرأة كرضى فهى حال وحالية : لبست الحلى ، والمعنى ذهبت بزخرفها الذى تزينت به للناس فأضلتهم وأغوتهم ، وهى فى نسخة : « بحال بمالها » وفى أخرى : « بحال بالها » وهو تحريف . (٤) وفى نسخة : « فيما إليه » . (٥) الوحا ويمد : العجلة والإسراع .

وَالنَّجاءَ النجاء ، عَلَامَ تعرَّجون ؟ أُتِيتُمْ وَرَبِّ الكعبة ! قد أُسرع بخياركم : وأنتم كل يوم تَرْذُلون[١] ، فماذا تنتظرون؟ إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه الصلاة والسلام على عِلْمٍ منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه ، وكان صَفْوَته من خَلْقه ، ورسوله إلى عباده ، ثم وضعه من الدنيا مَوْضِعا ينظر إليه أهلُ الأرض[٢] ، وآتاه منها قُوتاً وبُلْغَة ، ثم قال : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » . فرغِبَ أقوام عن عيشه ، وسخِطُوا ما رضى له رَبُّه ، فأبعدهم الله وأسحقهم[٣] .

يابن آدم : طَإِ الأرض بقَدَمِك ، فإنها عن قليل قَبْرك ، واعلم أنك لم تزَل فى هَدْم عمرك مُنذ سقطْت من بطن أمّك . رحم الله رجلا نظر فتفكّر ، وتفكّر فاعتبَر ، وأبصر فصَبَر ، فقد أبصر أقوام ولم يصبِروا ، فذهب الجزَع بقلوبهم ، ولم يُدْرِكوا ما طَلَبوا ، ولم يَرْجِعوا إلى ما فارقوا .

يابن آدم : اذكر قوله : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ[٤] فى عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، اقْرَأْ كِتَابَكَ ، كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » . عَدَلَ وَاللهِ عليك مَن جعلك حَسِيبَ نفسك ، خذوا صفا الدنيا ، وذَرُوا كَدَرها ، فليس الصفو ما عادَ كَدَرا ، ولا الكَدَر ما عاد صَفْوا ، دعُوا ما يَرِيبكم إلى ما لا يريبكم ، ظهر الجفَاء وقلّت العُلَماء ، وعفَتِ[٥] السُّنة ، وشاعت البِدْعة ، لقد صَحِبتُ أقوامًا ما كانت صحبتُهم إلا قُرَّةَ العين ، وجِلاء الصدور ، ولقد رأيت أقوامًا كانوا — من حسناتهم أن تُرَدَّ عليهم — أشفقَ[٦] منكم — من سَيِّئَاتكم أنْ تُعَذَّبوا عليها — ، وكانوا فيما أحلّ الله لهم من الدنيا أزهَدَ منكم فيما حرّم الله عليكم منها ، ما لى أسمع حَسِيسا ، ولا أرى

---

(١) أى تصيرون أرذالا جمع رذل : وهو الدون الخسيس . (٢) أى موضعا ساميا .

(٣) أى أبعدهم ، وفى نسخة : « وسحقهم » أى أهلكهم . (٤) أى عمله يحمله فى عنقه ، والتعبير به لما كانوا يتيمنون ويتشاءمون بالطائر السانح والبارح ، استعير لما هو سبب الخير والشر .

(٥) محيت . (٦) أخوف

أنيساً ، ذهب الناس وبقى النِّسناس[1] ، لو تكاشفتم ما تدافنتم ، تهادَيتم الأطباقَ ، ولم تهادَوا النصائحَ ، قال ابن الخطاب : « رَحِمَ الله امرأ أهدى إلينا مَسَاوِيَنا » أعِدُّوا الجواب، فإنكم مسئولون ، المؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكنه أخذه من قِبَلِ ربّه ، إن هذا الحق قد جَهَدَ أهلَه، وحال بينهم وبين شهواتهم ، وما يصبر عليه إلا من عرَف فضله ، ورجا عاقبته ، فمن حمِد الدنيا ذمَّ الآخرة ، وليس يكره لِقاء الله إلا مُقيمٌ على سُخْطه .

يابن آدم : الإيمان ليس بالتحلِّي ولا بالتمنِّي ، ولكنه ما وَقَر في القلوب ، وصَدَّقه العمل .

(البيان والتبيين ٣ : ٦٨ وعيون الأخبار م٢ ص ٣٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٦٩)

٤٦٠ — خطبة أخرى

وكان إذا قرأ : « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ[2] » قال :

عَمَّ ألهاكم ؟ عن دار الخلود ، وجَنة لا تَبِيد[3] ، هذا والله فَضَح القومَ ، وهَتَك السِّتر ، وأبدى العَوَارَ[4] ؛ تُنفق مثل دِينك في شهواتك سَرَفاً ، وتمنع في حق الله دِرْهما ! ستعلم يا لُكَع[5] ، الناس ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، ومنافق ؛ فأما المؤمن : فقد ألجمه الخوفُ وقوَّمه ذِكْرُ العَرْض ؛ وأما الكافر : فقد قمَعَه السيفُ ، وشرَّده الخوفُ، فأذعَن بالجِزْية ، وسَمَح بالضَّريبة ؛ وأما المنافق : ففي الحُجُراتِ والطُّرُقات ، يُسِرّون غيرَ ما يُعْلنون ، ويُضمرون غير ما يُظْهِرُونَ ، فاعتبروا إنكارهم ربهم ، بأعمالهم الخبيثة ، وبلَك ؟ قتلتَ وليَّه ، ثم تتمنَّى عليه جَنَّته ؟ » .   (البيان والتبيين ٣ — ٦٩)

---

(١) في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « ذهب الناس وبقي النسناس » قيل : فما النسناس ؟ قال : « الذين يتشبهون بالناس ، وليسوا من الناس » ولهم في تفسير النسناس كلام كثير، منه : أنهم خلق على صورة الناس خالفوهم في أشياء ، وليسوا منهم .

(٢) التباهي بالكثرة .   (٣) لا تفنى .   (٤) العوار مثلث العين : العيب .

(٥) اللكع : اللئيم والأحمق .

٤٦١ — خطبة أخرى

وكان يقول : « رحم الله رجلاً خَلاَ بكتاب الله ، فعَرَض عليه نفسَه ، فإن وافقه حمِد ربَّه ، وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه أعتَبَ وأنَاب ، وراجع من قريب ، رحم الله رجلاً وَعَظ أخاه وأهله فقال: «يا أهْلِي: صلاتَكم صلاتَكم، زكاتَكم زكاتَكم، جيرانَكم جيرانَكم، إخوانَكم إخوانَكم، مساكينَكم مساكينَكم، لعل الله يرحمكم، فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبد من عباده ، فقال : « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصلاَةِ والزَّكاةِ ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » . يابن آدم : كيف تكون مسلِماً ولم يسلَمْ منك جارُك ، وكيف تكون مؤمنًا ولم يأمنْك الناسُ ؟ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٦٩)

٤٦٢ — خطبة أخرى

وكان يقول : « لا يستحق أحد حقيقةَ الإيمان ، حتى لا يَعيب الناس بعيبٍ هو فيه ولا يأمر بإصلاح عيوبهم ، حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصْلح عيبًا إلا وجد فى نفسه عيبًا آخر ينبغى له أن يُصْلِحَهُ ، فإذا فعل ذلك شُغِل بخاصَّة نفسه عن عيب غيره ، وإنك ناظر إلى عملك بوزْنِ خيره وشره ، فلا تَحقِرَنَّ شيئا من الخير وإن صَغُر فإنك إذا رأيته سَرَّكَ مكانُه ، ولا تحقِرَن شيئًا من الشرِّ وإن صَغُر فإنك إذا رأيته ساءك مكانه » .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٣ — خطبة أخرى

وكان يقول : « رَحم الله عبداً كسَب طيِّبًا ، وأنفق قَصْدًا ، وقدَّم فضلا ، وجِّهوا هذه الفُضول(١) حيث وجَّهها الله ، وضعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بَلاغَهم، ويُؤْثِرون بالفضل ، ألَا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا ففضحها ، فلا والله ما وجد ذو لُبٍّ فيها فَرَحًا ، فإياكم وهذه السُّبُلَ المتفرقة ، التى جِماعُها الضلالةُ ، وميعادها النار ، أدركتُ من صَدْرِ هذه الأمة قومًا كانوا إذا جَنَّهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون خُدودهم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجُون مولاهم فى فِكاك رقابهم ، إذا عملوا الحسنة سَرَّتْهم ، وسألوا الله أن يتقبَّلها منهم ، وإذا عملوا سيئة ساءتهم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم ، يابن آدم : إن كان لا يُغنيك ما يكفيك ، فليس هاهنا شىء يُغنيك ، وإن كان يغنيك ما يكفيك ، فالقليل من الدنيا يكفيك ، يابن آدم : لاتعمل شيئًا من الحق رِياء ، ولا تتركه حياء » .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٤ — خطبة أخرى

وكان يقول : « إن العلماء كانوا قد استغنَوْا بعلمهم عن أهل الدنيا ، وكانوا يقْضُون بعلمهم على أهل الدنيا ، مالا يقضِى أهلُ الدنيا بدنياهم فيها ، وكان أهل الدنيا يبذُلون دنياهم لأهل العلم رغبةً فى علمهم ، فأصبح اليومَ أهل العلم يبذلون علمهم لأهل الدنيا رغبةً فى دنياهم ، فرغِب أهل الدنيا بدنياهم عنهم ، وزهِدوا فى علمهم ، لما رأوا من سوء موضعه عندهم » ، وكان يقول : لا أذهب إلى من يُوارِى

---

(١) جمع فضل: وهو الزيادة من المال وغيره .

غنى غناه ، ويبْذِى لى فقره ، ويغْلِق دونى بابه ، ويمنعنى ما عنده ، وأدَع من يفتح لى بابه ، ويبْذِى لى غناه ، ويدعونى إلى ما عنده » .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٥ — خطبة أخرى

وكان يقول : « يابن آدم ، لاغِنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر ، مؤمن مُتَّهم ، وعِلج اغتمّ ، وأعرابى لافقه له ، ومنافق مكَذِّب ، ودنياوى (١) مُترَف ، نَعق بهم ناعق فاتبعوه ، فَراشُ نار (٢) ، وذِبَّان طمَع ، والذى نفسُ الحسنِ بيده ، ما أصبح فى هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهمومًا حزينًا ، وليس لمؤمن راحةٌ دون لقاء الله ، الناس ما داموا فى عافية مستورون ، فإذا نزل بَلاء صاروا إلى حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه ، أىْ قومِ : إن نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم ، فسارعوا إلى ربكم ، فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة ، ولا يزال العبد بخيرٍ ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسَبَة من همِّه » .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٦ — خطبة أخرى

وقال فى يوم فِطْر — وقد رأى الناس وهيئاتِهم — : إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مِضماراً لخلْقه ، يستَبِقون فيه بطاعته إلى مَرْضاته ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلّف آخرون فخابوا ، فالعَجَب من الضاحك اللاعب ، فى اليوم الذى يفوز فيه المحسِنون ، ويخسر فيه المُبْطِلون ، أمَا والله أن لو كُشِف الغِطاء ، لشُغِل محسن بإحسانه ، ومُسىء بإساءته ، عن تَرجيل (٣) شَعر ، أو تجديد ثوب » .

(البيان والتبيين ٣ : ٧١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٠٣)

---

(١) نسبة إلى دنيا . (٢) أى هم كالفراش يتهافت على النار يحسبها نافعة له فتحرقه .

(٣) وفى رواية الكامل للمبرد : « ترطيل » بالطاء ، والترطيل : تليين الشعر بالدهن وتكسيره وإرخاؤه وإرساله .

٤٦٧ – مقام الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة

لما وَلِيَ عُمَرَ بن هُبَيْرة الفَزارى العراق ــ وذلك فى أيام يزيد بن عبد الملك ــ استدعى الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، والشَّعْبِىّ ، سنة ثلاث ومائة ، فقال لهم : إن يزيدَ خليفةُ الله ، استخلفهُ على عباده ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عَهْدَنا بالسمع والطاعة ، وقد وَلاّنى ما تَرَوْن ، فيكتب إلىّ بالأمر من أمره ، أعرف فى تنفيذه الهَلَكَة ، فأخاف إن أطعتُه غضبَ اللهِ ، وإن عصيته لم آمَنْ سَطوته ، فما تَرَون ؟ فقال ابن سيرين والشعبى قولا فيه تَقِيَّة ، وكان ابن هُبيرة لا يستشفِى دون أن يسمع قول الحسن ، فقال : قل ما عندك يا أبا سعيد ، فقال : « يابن هبيرة : خَفِ الله فى يزيدَ ولا تخَفْ يزيدَ فى الله ، إن الله يمنعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث إليك مَلَكاً ، فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سَعَة قصرك ، إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينْجيك إلا عملُك ، يابن هبيرة : إن تَعصِ الله ، فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تركبَنّ دين الله وعباده بسلطان الله ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

وفى رواية أخرى قال : « أقول واللهِ إنه يُوشِك أن ينزل بك مَلَكٌ من ملائكة الله فَظٌ غليظ ، لا يَعْصِى اللهَ ما أمَرَهُ ، فيخرجك من سَعَة قصرك ، إلى ضيق قبرك ، فلا يُغْنِى عنك ابن عبد الملك شيئاً ، وإنى لأرجو أن الله عزّ وجلّ سيعصمك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، فاتق الله أيها الأمير ، فإنك لا تأمن أن ينظر الله إليك ، وأنت على أقبح ما تكون عليهِ من طاعة يزيد ، نظرةً يمقُتك بها ، فيُغلِق عنك باب الرحمة ، واعلم أنى أخوِّفك ما خوَّفك الله سبحانه حين يقول : « ذٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ » وإذا كنت مع الله عزّ وجلّ فى طاعته كفاك بَوَائق[1] يزيد ، وإن كنت مع يزيد على معصية الله وكلك الله إلى يزيد حين لا يُغنِى عنك شيئاً » .

---

(١) جمع بائقة وهى الداهية .

فبكي عمر بن هبيرة بكاء شديداً ، ثم أجازهم ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبي لابن سيرين : سَفْسَفْنا[1] له فَسَفْسَفَ لنا .

(وفيات الأعيان ١ : ١٢٨ ، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٢ ، مروج الذهب ٢ : ١٧٨ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٤٣ ، شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٥٩ ، أمالي السيد المرتضى ١ : ١١٠)

٤٦٨ — مقام الحسن عند النضر بن عمرو

وأحضر النَّضْر بن عمرو — وكان والياً على البصرة — الحسن البصري يومًا ، فقال: يا أبا سعيد إن الله عزّ وجل : خلق الدنيا وما فيها من رِياشها[2] ، وبهجتها ، وزينتها لعباده ، وقال عز وجل : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينَ » ، وقال عزَّ مِن قائل : « قُلْ مَنْ حرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا » فقال الحسن :

« أيها الرجل : اتق الله في نفسك ، وإياك والأمانيَّ التي ترجَّحْت[3] فيها فتَهلِكَ ، إن أحداً لم يُعْطَ خيراً من خير الدنيا ، ولا من خير الآخرة بأُمنِيَّته ، وإنما هي داران ، مَن عمِل في هذه أدرك تلك ، ونال في هذه ما قُدِّر له منها ، ومن أهمل نفسه خسرها جميعًا ، إن الله سبحانه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لنفسه ، وبعثه برسالته ورحمته ، وجعله رسولا إلى كافَّة خلقه ، وأنزل عليه كتابًا مُهَيمِنًا ، وحَدَّ له في الدنيا حدوداً ، وجعل له فيها أجلاً ، ثم قال عز وجل : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » وأمرنا أن نأخذ بأمره ، ونهتدي بهَدْيه ، وأن نسلك طريقته ، ونعمل بِسُنَّته ، فما بلغنا إليه فبفضله ورحمته ، وما قصَّرنا عنه فعلينا أن نستعين ونستغفر ، فذلك باب مَخْرَجنا ، فأما الأماني فلا خيرَ فيها ، ولا في أحدٍ من أهلها » :

---

(١) سفسف عمله : لم يبالغ في إحكامه . (٢) الرياش : اللباس الفاخر والمال والخصب والمعاش .
(٣) أي ملت إليها ، من ترجحت به الأرجوحة : مالت .

فقال النضر : والله يا أبا سعيد إنا على مافينا لَنُحِبّ ربنا ، فقال الحسن :

« لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى عليه : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ » فجعل سبحانه اتباعه صلى الله عليه وسلم عَلَمًا للمحبة ، وأكذبَ من خالف ذلك ، فاتق الله أيها الرجل فى نفسك ، وايمُ الله لقد رأيتُ أقوامًا كانوا قبلك فى مكانك ، يَعْلُون المنابرَ ، وتهتزّ لهم المراكبُ ويَجُرُّون الذيول بَطَرًا ورِياء الناس، يبنون المَدَر[1] ، ويُؤْثِرون الأَثَر[2] ، ويتدافعون فى الثياب ، أُخرِجوا من سلطانهم ، وسُلِبوا ما جمعوا من دنياهم ، وقَدِموا على ربهم ، ونزلوا على أعمالهم ، فالويلُ لهم يوم التغابُن[3] ، ويا ويْحَهم — يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٠)

٤٦٩ — مقام آخر له عند النضر

ودخل عليه يوما آخر فقال :

« أيها الأمير أيّدَكَ الله ، إن أخاكَ من نَصَحك فى دينك ، وَبصَّرك عيوبَكَ ، وهداك إلى مَراشِدك ، وإن عدوّك من غرّك ومنّاك ، أيها الأمير اتق الله فإنك أصبحتَ مخالفا للقوم فى الهدى والسيرة ، والعلانية والسّريرة ، وأنت مع ذلك تتمنّى الأمانى ، وتَرَجَّحُ فى طلب العذر ، والناس أصلحك الله طالبان ، فطالب دنيا ، وطالب آخرة ، وايم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح ، وتعب الآخر واختُرِم[4] ،

---

(١) المدر : قطع الطين اليابسة ؛ والمراد يبنون القصور . (٢) استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة واستبد بها ، والاسم : الأثرة بالتحريك ، والأثرة بالضم والكسر ، والجمع أثر كفرصة وفرص . (٣) غبنه فى البيع يغبنه ، والتغابن : أن يغبن بعض القوم بعضا ، وسمى يوم القيامة يوم التغابن لأن أهل الجنة تغبن أهل النار بأخذ منازلهم فى الجنة لو آمنوا . (٤) هلك .

فاحذر أيها الأمير أن تَشْقَى بطلب الفاني ، وتركِ الباقي ، فتكون من النادمين ، واعلم أن حكيما قال :

أين الملوكُ التي عن حظها غفَلَتْ حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر[1] ، ومن الضَّلالة بعد الهدى ، لقد حُدِّثت أيها الأمير عن بعض الصالحين أنه كان يقول : « كفى بالمرء خيانة أن يكون للخَوَنة أميناً ، وعلى أعمالهم معينا » . (الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥١)

٤٧٠ — مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التى بناها بواسط

وروى أن الحجاج بنى داراً بوَاسِط[2] ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما دخلها قال : « الحمد لله : إن الملوك ليَرَوْن لأنفسهم عزّا ، وإنا لَنَرَى فيهم كل يوم عِبَرا ، يَعْمِد أحدهم إلى قصر فيشيِّده ، وإلى فرش فينَجِّده[3] ، وإلى ملابس ومراكب فيحسِّنها ، ثم يحُفُّ به ذُبابُ طَمَع ، وفَراشُ نار ، وأصحاب سوء ، فيقول : أنظروا ما صنعتُ ! فقد رأينا أيها المغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أمّا أهل السموات فقد مقتوك ، وأما أهل الأرض فقد لعنوك ، بنيتَ دار الفناء ، وخرَّبتَ دار البقاء ، وغُررتَ فى دار الغُرور ، لتَذِلَّ فى دار الحُبُور ، ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ، لَيُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يكتمونه » .

وبلغ الحجاج ما قال ، فاشتدّ غضبُهُ ، وجمع أهل الشأم ، فقال : يأهل الشأم أيشتمنى عبد من عَبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تُنكرون ! ثم أمر بإحضاره فجاء وهو يحرك شفتيه بما لم يُسْمَع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال : يا أبا سعيد ، أمَا كَانَ لإمارتى عليك حقّ ، حين قلت ما قلت ؟ فقال : يرحمك الله أيها الأمير ، إن من خوَّفك حتى

---

(١) الحور : النقصان ، والكور : الزيادة ، وهو حديث شريف : « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » أى من النقصان بعد الزيادة ؛ وقيل : من فساد أمورنا بعد صلاحها : وأصله من كور العمامة وهو لفها وجمعها . (٢) واسط : مدينة بالعراق من الجنوب بين دجلة والفرات ، بناها الحجاج ومات بها .

(٣) التنجيد : التزيين ، والنجاد : الذى يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما .

تبلغَ أمنَك أرفقُ بك وأحبّ فيك من أمّنك حتى تبلغ الخوف، وما أردتُ الذى سبق إلى وهمك ، والأمران بيدك : العفو والعقوبة ، فافعل الأولَى بك ، وعلى الله فتوكل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاستحيا الحجاج منهُ ، واعتذر إليهِ وأكرمهُ وحَبَاه

وفى رواية أخرى : « فلما دخل ، قال له الحجاج : هاهنا ، فأجلسهُ قريباً منه ، وقال: ما تقول فى علىّ وعثمان ؟ قال : أقول قول من هو خيرٌ منّى عند من هو شرٌّ منك، قال فرعون لموسى : « فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ؟ قال : عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » عِلْمُ علىّ وعثمان عند الله قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ودعا بغالية[1] وغلّف بها لحيته ، فلما خرج تبعهُ الحاجب فقال له : ما الذى كنت قلت حين دخلت عليهِ ؟ قال : قلتُ : « يا عُدَّتى عند كُرْبَتى ، ويا صاحبى عند شِدّتى ، ويا ولىّ نعمتى ، ويا إلهى وإلهَ آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ارزقنى مودّته ، واصرف عنى أذاه » ففعل ربى عز وجل .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٣ ، والمنية والأمل لابن يحيى المرتضى ص ١٤ ، وأمالى السيد المرتضى ١ : ١١٢)

٤٧١ — صفة الإمام العادل[2]

لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن أن يكتب إليهِ بصفة الإمام العادل ، فكتب إليهِ الحسن رحمهُ الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قِوامَ كل مائل ، وقَصْدَ[3] كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونَصَفَةَ[4] كل مظلوم ، ومَفْزَع كل ملهوف ، والإمام العَدْل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتاد

---

(١) طيب . (٢) أوردت هذا الكتاب هنا ، والكتابين التاليين له لانتظامها فى سلك الوصايا .
(٣) هداية ورشاد . (٤) اسم من الإنصاف .

لها أطيبَ المرعى ، ويذُودها عن مراتع الهَلَكة ، ويحميها من السباع ، ويكنُفها من أذى الحر والقُرّ[1] ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعَى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدّخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة ، البرّة الرفيقة بولدها ، حملَته كُرهاً ، ووضعتهُ كُرهاً ، وربّتهُ طفلا ، تسهَر بسَهَره ، وتسكُن بسكونه ، تُرْضِعهُ تارةً ، وتَفطمهُ أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتمّ بشِكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصِىّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يربِّى صغيرهم ، ويَمُون كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلُح الجوانح بصلاحه ، وتفسُد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسْمعهم ، وينظر إلى الله ويُريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله كعبد ائتمنهُ سيده ، واستحفظهُ مالَه وعيالَه ، فبدّد المال ، وشرّدَ العيال ، فأفقر أهله ، وفرّق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجُرَ بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يَليها ؟ وأن الله أنزل القِصاص حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلَهم مَنْ يقتصُّ لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموتَ وما بعده ، وقلةَ أشياعِك عنده ، وأنصارِك عليه ، فتزوّد له ، ولما بعده من الفَزَع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيهِ ، يطُول فيهِ ثَواؤك ، ويفارقك أحبّاؤك ، يُسْلِمونك فى قعره فريداً وحيداً ، فتزوّد له ما يَصْحبك يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أخيهِ ، وأُمِّهِ وَأبيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بُعثِرما فِي الْقُبُورِ ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، فالأسرار ظاهرة ، وَالكتاب لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إلاَّ أحْصَاهَا ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مَهَل ، قبل حلولِ الأجَلِ ، وانقطاع الأمَل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد

---

(١) مثلث القاف : البرد .

الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلِّط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يَرْقُبُون فى مؤمنٍ إلاًّ[1] ولاَ ذِمَّةً ، فتبوء بأوزارك ، وأوزارٍ مع أوزارك ، وتحمِلَ أثقالَك ، وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يغرّنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيباتِ فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك . لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوفٌ بين يدى الله فى مجتمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عَنَتِ[2] الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ ، إنى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلُغ بعظتى ما بلغه أولو النُّهى من قبلى ، فلم آلُك[3] شفقةً ونُصْحًا ، فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لِمَا يرجوله فى ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »

(العقد الفريد ١ : ١٢ ، الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٦)

٤٧٢ - موعظته لعمر بن عبد العزيز

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز رحمهما الله : اكتب إلىّ يا أبا سعيد بموعظة فأوجز ، فكتب إليه :

« أما بعد يا أمير المؤمنين : فكأن الذى كان لم يكن ، وكأن الذى هو كائن قد نزل ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر ، وإن أذاقك تعجيل مرارته ، فلنِعْم ما أعقبك من طيب حلاوته ، وحُسْن عاقبته ، وأن الهَوَى ، وإن أذاقك طعم حلاوته ، فابئس ما أعقبك من مرارته ، وسوء عاقبته ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الفائز من حَرَص على السلامة فى دار الإقامة ، وفاز بالرحمة فأُدْخِل الجنة » .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤)

---

(١) عهداً . (٢) خضعت وذلت . (٣) لم أقصر .

٤٧٣ - موعظته لعمر بن عبد العزيز أيضا

وَ كتب إليه عمر بن عبد العزيز : اكتُبْ إليّ يا أبا سعيد بذمٍّ الدنيا ، فكتب إليه :

«أما بعد يا أمير المؤمنين : فإن الدنيا دار ظَعْن[1] وانتقال ، وليست بدار إقامةٍ على حال ، وَ إنما أُنزِل إليها آدمُ عقوبةً ، فاحذَرها فإن الراغب فيها تارك ، وَالغنى فيها فقير ، وَالسعيد من أهلها من لم يتعرّض لها ، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق ، وجدها تُذِل من أعزها ، وتفرّق من جمعها ، فهى كالسّم يأكله من لا يعرفهُ ، ويرغب فيه من يجهله ، وَفيهِ وَالله حَتْفُه ؛ فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جراحهُ ، يحتمى قليلا ، مخافة ما يكرَه طويلا ، الصبرُ على لأْوَائها[2] ، أيسر من احتمال بلائها ، وَاللبيب مَن حَذِرها وَلم يغترّ بزينتها ، فإنها غدّارة ختّالة[3] خدّاعة ، قد تعرّضت بآمالها ، وتزينت لخطّابها ، فهى كالعَروس ، العيونُ إليها ناظرة ، وَالقلوب عليها وَالِهه[4] ، وَهى - وَالذى بعث محمداً بالحق - لأزوَاجها قاتِلة ، فاتق يا أمير المؤمنين صَرْعتها ، واحذر عَثْرتها ، فالرّخاء فيها موصول بالشدة والبلاء ، والبقاء مؤدٍّ إلى الهَلَكة وَالفناء .

واعلم يا أمير المؤمنين ، أن أمانيّها كاذبة ، وَآمالها باطلة ، وَصَفْوها كدر ، وعيشها نكَد ، وَتاركها موفّق ، وَالمتمسك بها هالك غَرِق ، وَالفطن اللبيب من خاف ماخوّفه الله وَحَذِر ما حذّره ، وَقدّر من دار الفناء إلى دار البقاء ، فعند الموت يأتيه اليقين ؛ الدنيا والله ياأمير المؤمنين دار عقوبة ، لها يجمع من لاعقل له ، وَبها يغترّ من لا علم عنده ، والحازم اللبيب من كان فيها كالمداوى جراحه ، يصبر على مرارة الدواء ، لما يرجو من

---

(١) ارتحال . (٢) شدتها .

(٣) خداعة . (٤) من الوله بالتحريك ، وهو ذهاب العقل من شدة الوجد .

العافية ، وَيخاف من سوء عاقبة الدار ، وَالدنيا وَايمُ الله يا أمير المؤمنين حُلْم ، وَالآخرة يَقَظَة ، وَالمتوسط بينهما الموت ، وَالعباد فى أضغاثِ أحلام ، وَ إنى قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم :

فإن تنجُ منها تنجُ من ذى عظيمة وَ إلاّ فإنى لا إخالُك ناجيا »

ولما وصل كتابه إلى عمر ، بكى وانتحَب حتى رحمهُ من كان عنده ، وقال : يرحم الله الحسن ، فإنه لا يزال يوقظنا من الرَّقدة ، وينبِّهنا من الغفلة ، وَلِلّهِ هو مِنْ مُشْفِقٍ ما أنصحَهُ ! وَوَاعظٍ ما أصدقَه وأفصحَه !

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٢١)

٤٧٤ — كلمات حكيمة للحسن البصرى

وقال : احذر من نَقَل إليك حديثَ غيرك ، فإنه سينْقُل إلى غيرك حديثَك . أيها الناس : إنكم لا تنالون ما تحِبُّون إلا بترك ما تشتهون ، وَلا تُدركون ما تأمُلون إلا بالصبر على ما تكرهون . الصبر صبران : صبرٌ عند المصيبة ، وَصبر عن المعصية ، فمن قَدَر على ذلك فقد نال أفضل الصبرين . أفضل الجهاد جهاد الهوَى . لا تكن ممن يجمع عِلْمَ العلماء وَحِكَمَ الحكماء ، ويجرى فى الحق مَجْرَى السُّفهاء . من خاف الله أخاف اللهُ سبحانه منه كل شىء ، ومن خاف الناسَ أخافهُ الله من كل شىء . لولا ثلاثةٌ ما طأطأ ابنُ آدم رأسهُ : الموت ، والمرض ، والفقر ، وإنه بعد ذلك لوثَّاب . احذروا العابد الجاهل ، والعالم الفاسق ، فإن فيهما فتنةً لكل مفتون . تركُ الخطيئة أهونُ من معالجَة التَّوْبة . لاتكن شاةُ الراعى أعقلَ منك ، تزجرها الصَّيحة ، وتطردها الإشارة . المؤمن تلقاه الزمانَ بعد الزمان ، بأمر واحد ، ووجه واحد ، ونصيحة واحدة ، وإنما يتبدَّل المنافق ليستأْكِل كل قوم . المؤمن صدَّق قولُه فعلَه ، وسرُّه علانيتَه ، ومَشْهَدُه مَغيبَه . لايزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت الفِكرة من عمله

والذكرُ من شأنه ، والمحاسَبة من همَّته ، ولا يزال بشرٍّ ما استعمل التسويفَ ، واتَّبع الهوى ، وأكثر الغفلة ، ورجَّح فى الأمانى . الحق مُرٌّ لا يصبر عليه إلا من عرَف حُسنَ العاقبة ، ومن رجا الثواب خاف العقاب حادِثوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الدُّثور[1] ، واقْدَعوا[2] هذه النفوس ، فإنها طُلَعَة[3] ، وإنكم إلاّ تَزَعُوها[4] تَنزِعْ بكم إلى شرّ غاية . يابن آدم : نهارك ضيفك ، فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك ، وإن أسأت إليه ارتحل بِذَمّك ، وكذلك ليلُك إنما أنت أيها الإنسان عَدَد ، فإذا مضى لك يوم فقد مضى بعضُك . وقيل له يا أبا سعيد : من أشدُّ الناس صُراخاً يوم القيامة ؟ فقال : رجل رُزِق نعمةً فاستعان بها على معصية الله . وكان يقول : لو قمتَ الليل حتى ينحنِيَ ظهرُك ، وَصُمْت النهار حتى يَسْقَم جسمُك ، لم ينفعك ذلك إلا بورَع صادق . وسمع رجلاً يُكثر الكلام ، فقال : يابن أخى أمسِك عليك لسانك . فقد قيل : ما شىء أحقّ بِسَجْنٍ من لسان . وكان يقول : لو لم يكن من شؤم الشراب إلا أنه جاء إلى أحب خَلْق الله إلى الله فأفسده ، لكان ينبغى للعاقل أن يتركه (يعنى العقل) ويقول : ما أطال أحد الأمل إلا أساء العمل ، وما أساء العمل إلا ذلّ .

وقال : « يا عجباً لِقوم قد أُمروا بالزاد ، وأُوذِنوا بالرحيل ، وأقام أولهم على آخرهم ، فليت شعرى ! ما الذى ينتظرون ؟ وقال : اجعل الدنيا كالقنطرة : تجُوز عليها ، ولا تَعمرُها ، وقال : ليس العَجَب ممن عَطِب كيف عطب ، إنما العجب مِمّن نجا كيف نجا » ، وقال : « من أخلاق المؤمن قوة فى دين ، وحِرْص على العلم ، وَقناعة فى فقر ، ورحمة للمجهود ، وَإعطاء فى حق ، وَبِرّ فى استقامة ، وَفِقهٌ فى يقين ، وَكَسْب فى حلال » .

(الحسن البصرى لابن الجوزى فى مواضع متفرقة ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٦ — ٨٣ ، أمالى السيد المرتضى ١ : ١١٠ — ١١١ . وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ . وزهر الآداب ١ : ١٧٨ ، ٢ : ٢٠٥)

---

(١) دثور القلوب : امحاء الذكر منها . (٢) كفوها واكبحوها . (٣) نفس طلعة : تكثر التطلع إلى الشىء ، وفى رواية : « فإنها طامحة » . (٤) وزعه كوضع : كفه ، وفى رواية : « منعوها » .

٤٧٥ — خطبة واصل بن عطاء[1] المنزوعة الراء

الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذى علا فى دُنُوِّه ، ودنا فى عُلُوِّه ، فلا يحويه زمان ، ولا يُحيط به مكان ، ولا يئوده[2] حِفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثالٍ سبق ، بل أنشأه ابتداعا ، وَعدَّله اصطناعا ، فأحسنَ كل شيء خَلقه ، وتمَّم مشيئته ، وأوضح حِكمته ، فدل على أُلوهيَّته ، فسبحانه لَا مُعقِّبَ[3] لحكمه ، ولا دافعَ لقضائه ، تواضع كل شيء لِعَظمته ، وذلَّ كل شيء لسلطانه ، ووسع كلَّ شيء فضلُه ، لَا يعزُب عنه مثقالُ حَبة ، وهو السميع العليم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، إلٰهًا تقدَّست أسماؤه ، وعَظُمت آلاؤه ، وعلا عن صفات كل مخلوق ، وتنزَّه عن شبيه كل مصنوع ، فلا تبلُغه الأوهام ، ولا تُحيط به العقول ولا الأفهام ، يُعْصَى فيحلُم ، وَيُدْعَى فيسمَع ، ويقبل التوبةَ من عباده ، ويَعفُو عن السَّيِّئاتِ ، وَيَعْلَمَ ما تفعلون ، وأشهد شهادةَ حق ، وقولَ صدق ، بإخلاصِ نيَّة ، وصِحَّة طَوِيَّة ، أن محمد بن عبد الله عبْده ونبيه ، وخالصته[4] وصَفيّه ، ابتعثه إلى خلقه بالبيِّنة والهدى ودين الحق ، فبلَّغ مَأْلُكته[5] ، ونصح لأمته ، وجاهد فى سبيل الله ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا يَصُدُّه عنه زعم زاعم ، ماضيا على سنته ، مُوفيا على قصده ، حتى أتاه اليقين ، فصلى الله على محمد ، وعلى آل محمد

---

(١) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء شيخ المعتزلين ، وأحد الأئمة المتكلمين ، وكان يلثغ بالراء ، فيجعلها غينا ، فاستطاع بمهارته أن يخلص منها كلامه ، خطب يوما عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق سنة ١٢٦ شبيب بن شيبة ، وخالد بن صفوان ، والفضل بن عيسى ، ثم تقاهم واصل ، فارتجل هذه الخطبة وعراها من حرف الراء ، وأبدع فى القول :

فقضل عبد الله خطبة واصل وضوعف فى قسم الصلات له الشكد

(والشكد بالضم : العطاء) وتوفى واصل سنة ١٣١ هـ . (٢) يثقله ، آده أودا (كنصر) بلغ منه المجهود . (٣) لا راد له . (٤) هذا الشيء خالصة لك : أى خاصة . (٥) المألكة : بضم اللام وتفتح : الرسالة .

أفضلَ وأزكى ، وأتم وأنمى ، وأجلّ وأعلى صلاة صلاها على صفوة أنبيائه ، وخالصة ملائـكته ، وأضعاف ذلك ، إنه حميد مجيد .

أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله ، والعمل بطاعته ، والمجانَبة لمعصيته ، وَأحُضكم على ما يُدْنيكم منه ، وَيُزْلفكم لديه ، فإن تقوى الله أفضلُ زاد ، وأحسن عَاقبة في مَعاد ، ولا تُلهينكم الحياة الدّنيا بزينتها وخُدَعها ، وفوارِن لذّاتها ، وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ، وَمُدة إلى حين ، وَكل شيء منها يزول ، فكم عاينتم من أعاجيبها ، وكم نصبَتْ لكم من حبائلها ، وَأهلكت من جَنح إليها ، واعتمد عليها ! أذاقتهم حُلواً ، ومزجت لهم سماً ، أين الملوك الذين بَنَوا المدائن ، وشيدوا المصانع ، وَأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحُجَّاب ، وَأعدُّوا الجياد ، وَمَلَكوا البلاد ، واستخدموا التِّلاد ، قَبَضَتهم بَجْحِفها[1] ، وطحنتهم بكلكلها[2] ، وعضتهم بأنيابها ، وَعاضتهم من السَّعة ضيقاً ، ومن العِزَّة ذُلاً ، ومن الحياة فَناء ، فسكنوا اللحود ، وَأكلهم الدُّود ، وأصبحوا لا تَرَى إلا مَساَكِنَهُم ، وَلا تجد إلا مَعاَلِمهم ، وَلَا تُحِسّ منهم من أحد ، ولا تسمع لهم نَبْسًا ، فتزودوا عافاكم الله ، فإن أفضل الزاد التقوى ، وَاتقوا الله يا أولِي الألباب لعلكم تُفلِحُون ، جعلنا الله وَإياكم ممن ينتفع بمواعظه ، وَيعمل لحظِّه وَسعادته ، وَممن يَسْتَمِعُ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُ أحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ ، وَأُولَئِكَ هُمْ أولُو الألْبَاب إن أحسن قَصَص المؤمنين ، وأبلغ مواعظ المتقين ، كتاب الله ، الزّكية آياته ، الواضحةَ بيناتُه ، فإذا تُلِي عليكم فأنصِتُوا له ، واسمعُوا لعلّكم تُفْلِحُون ، أعوذ بالله القوى ، من الشيطان الغَوِيّ ، إن الله هو السميع العليم ، قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أحَدٌ ، ثم قال :

---

(١) الجحف : شقان على البعير يحمل فيهما العديلان ، والمراد أحتوت عليهم .

(٢) الكلكل : الصدر .

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم، والوحى المبين، وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم. (مفتاح الأفكار ص ٢٧٠)

٤٧٦ — وصية عبد الملك بن مروان لبنى أمية

وقال عبد الملك بن مَرْوَان: «يا بنى أُمَيَّة: ابذُلوا نَدَاكم، وَكُفُّوا أذاكم، وَاعفُوا إذا قَدَرتم، ولا تَبْخلوا إذا سُئِلتم، فإن خير المال ما أفاد حمداً، أو نَفَى ذما، ولا يقولَنَّ أحدُكم: ابدأ بمن تَعُولُ، فإنما الناس عِيَالُ الله، قد تكفَّل الله بأرزاقهم، فمن وَسَّعَ أخلفَ الله عليه، وَمن ضَيَّق ضَيَّق الله عليه».

(الأمالى ٢ : ٣٢)

٤٧٧ — وصية عبد الله بن شداد لابنه[1]

لما حضرت عبد الله بن شدّاد الوفاةُ، دعا ابناً له يقال له محمد، فقال:

«يا بُنَيَّ، إنى أرى داعِيَ الموت لا يُقْلِع، وأرى من مَضَى لا يرجِع، ومن بقى فإليه يَنزِع[2]، وَإنى مُوصِيك بوصية فاحفظها، عليك بتقوَى الله العظيم، وَلْيكُن أوْلَى الأمور بك شُكرُ الله، وَحُسْنُ النية فى السِّرِّ والعَلاَنية، فإن الشكور يزداد، وَالتقوى خيرُ زاد، وَكن كما قال الحُطَيئة:

وَلستُ أرَى السعادةَ جمعَ مَالٍ ... ولكنَّ التَّقِيَّ هو السعيدُ
وَتقوَى اللهِ خيرُ الزادِ ذُخْرًا ... وَعند الله للأتقَى مَزيدُ
وَما لا بُدَّ أن يأتِى قريبٌ ... وَلكنَّ الذى يمضى بَعيدُ

---

(١) هو عبد الله بن شداد بن الهادى، واسمه أسامة الليثى، خرج مع القراء فى فتنة ابن الأشعث على الحجاج، قيل: إنه غرق بدجيل، وقيل: هلك هو وعبد الرحمن بن أبى ليلى فى الجماجم، اقتحم بهما فرساهما الماء فذهبا. (٢) يشتاق.

ثم قال : أىْ بُنَىَّ ، لاتزهَدَنَّ فى معروف ، فإن الدهر ذو صُرُوف ، وَالأيام ذات نوائب ، على الشاهد وَالغائب ، فكم من راغبٍ أصبح مطلوباً مالديه ، واعلم أن الزمان ذو ألوان ، وَمَنْ يَصْحَبِ الزمان يَرَ الهوان ، وَكن أىْ بُنَىَّ كما قال أبو الأسود الدُّؤلى :

وَعُدَّ من الرحمن فَضْلاً وَنِعْمَةً ... عليك ، إذا ما جاء للعُرْفِ طالبُ[1]

وَإن امرأً لا يُرْتَجَى الخيرُ عنده ... يكُن هَيِّناً ثِقْلاً على مَن يصاحبُ

فلا تمنعَنْ ذا حاجةٍ جاء طالبًا ... فإنك لاتَدْرِى متى أنت راغِبُ

رأيتُ التَوَا هذا الزمانِ بأهله ... وَبينهم فيه تكونُ النوائبُ[2]

ثم قال : أى بنى ، كن جَوَاداً بالمال فى موضع الحق ، بخيلا بالأسرار عن جميع الخلق ، فإن أحمدَ جُود المرء الإنفاقُ فى وجهِ البِرّ ، وَإن أحمدَ بُخل الُحرِّ الضِّنُّ[3] بمكتوم السر ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصارى :

أجُودُ بمكنون التلاد ، وإننى ... بسرِّكَ عمَّن سالَنى لَضَنِينُ[4]

إذا جاوز الإثنين سرٌّ فإنه ... بِنَثٍّ ، وتكثيرِ الحديثِ ، قَمِينُ[5]

وعندى له يومًا إذا ما ائتمنتَنى ... مكانٌ بِسَوْدَاءِ الفُؤَادِ مَكِينُ[6]

ثم قال : أى بنى ، وإن غُلِبْتَ يوما على المال ، فلا تدَع الحيلة على حال ، فإن الكريم يحتال ، والدَّنىّ عيّال[7] ، وكن أحسَنَ ماتكون فى الظاهر حالا ، أقلَّ

---

(١) العرف : المعروف . (٢) التوا أصله التواء قصره لضرورة الشعر ، التوى به الزمان : اعوج .

(٣) الضمن بالكسر والضنانة بالفتح : البخل . (٤) سال يسال من باب خاف لغة فى سأل المهموز ، وليس مسهلا للوزن كما ظن بعضهم .

(٥) نث الحديث : أفشاه ، وقمين : جدير ، وقطع همزة الإثنين للضرورة .

(٦) سوداء الفؤاد ، وسويداؤه ، وسواده ، وأسوده : حبته . (٧) العيال جمع عيل كجيد : وهو مايلزم الإنفاق عليه ، ويكون اسما للواحد (كما استعمله هنا) .

ما تـكون فى الباطن مالا ، فإن الـكريم من كرُمت طبيعتُه ، وظهرت عند الإنفاد[1] نِعمتُه ، وكن كما قال ابن خَذّاق العبدى[2] :

وَجدْتُ أبى قَدَ أوْرَثه أبوه ... خِلَالاً قد تُعَدُّ من المَعَالى[3]

فأ كرمُ ما تـكونُ عَلَىَّ نفسى ... إذا ما قَلَّ فى الأَزَمات مالى

فَتَحْسُنُ سِيرَتى وأصونُ عِرْضى ... ويجُمل عند أهل الرأى حالى

وإن نِلْتُ الغنى لم أغْلُ فيه ... ولم أخْصُصْ بجَفْوَتىَ المَوَالِي[4]

ثم قال : أى بنى ، وإن سمعت كلمة من حاسد ، فـكن كأنك لست بالشاهد ، فإنك إن أمضيتها حِيَالَها[5] ، رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب العاقل ، هو الفَطِن المتغافل ، وكن كما قال حاتم الطائى :

وما من شِيمتى شتمُ ابنِ عَمّى ... وما أنا مُخْلِفٌ من يرْتجِينى

وَكِلْمَةِ حاسِدٍ فى غير جُرْمٍ ... سمعتُ فقلتُ مُرّى فانفُذِينى[6]

فعابُوها عَلَىَّ ولم تَسُؤْنى ... ولم يَعْرَق لها يوما جَبينى

وذو الوَجْهَين يلقانى طَلِيقا ... وليس إذا تغيَّب يأتَلِينى[7]

سمعتُ بِعَيْبِه فصفحتُ عنه ... مُحَافَظَة عَلَى حَسَبى وَدِينى

ثم قال: أى بنى، لاَ تُؤَاخِ امرَأً حتى تعاشره، وتتفقَّد مَوَارِدَه ومَصَادِرَه، فإذا استطعت العشرة ، ورضيت الخِبرة[8] ، فواخِهِ عَلَى إقالة العَثْرة ؛ والمواساة فى العُسْرَة ، وكن كما قال المقنّع الـكِنْدِى :

أُبْلُ الرجال إذا أردتَ إخاءهم ... وَتوَسَّمَنَّ فِعَالَهُم وَتَفَقّدِ

---

(١) الفقر . (٢) هو يزيد بن خذاق شاعر قديم . (٣) بنقل حركة الهمزة من أورثه إلى الدال من قد . (٤) الموالى جمع مولى : وهو هنا القريب . (٥) قعد حياله وبحياله : بإزائه ، أى إن تركتها تجرى فى مجراها . (٦) نفذهم : جازهم . (٧) ائتلى : قصر ، أى لايقصر فى نهش عرضى . (٨) الخبر والخبرة بكسر الخاء فيهما ، ويضمان : العلم بالشىء كالاختبار .

فإذا ظَفِرْتَ بِذِى اللَّبابَة وَالتُّقَى … فَبِهِ الْيَدَيْنِ (قَرِيرَ عَيْنٍ) فاشْدُدِ[1]

وإذا رأيت (ولا مَحَالَةَ) زَلَّةً … فعلى أخيك بِفَضْل حِلْمِك فارْدُدِ

ثم قال: أى بنى، إذا أحببْتَ فلا تُفْرِط، وإذا أبغضْتَ فلا تُشْطِط[2]، فإنه قد كان يقال: أَحْبِبْ حَبِيبَك هَوْنًا مَّا، عسى أن يكون بَغِيضَك يومًا مَّا، وَأَبْغِض بغيضَك هَوْنًا مَّا، عسى أن يكون حبيبك يومًا مَّا، وكن كما قال هُدْبَة بن الخَشْرَم العُذْرى:

وكن مَعْقِلًا للحلم واصْفَح عن الخَنَا … فإنك رَاءٍ ما حَيِيتَ وسامِعُ[3]

وَأَحْبِبْ إذا أَحْبَبْتَ حُبًّا مُقَارِبًا … فإنك لا تدرى متى أنت نازِعُ[4]

وَأَبْغِض إذا أَبْغَضْتَ بُغْضًا مقاربا … فإنك لا تدرى متى أنت راجعُ

وعليك بصُحبة الأخيار، وصِدق الحديث، وإياك وصحبةَ الأشرار، فإنه عار، وكن كما قال الشاعر:

أَصْحَبِ الأخيارَ وارغَبْ فيهمُ … رُبَّ مَنْ صاحبتَه مِثْلُ الجَرَبْ

وَدَعِ الناس فلا تَشْتِمْهُمُ … وإذا شاتمت فاشْتِمْ ذا حَسَبْ

إنَّ مَنْ شاتم وَغْدًا كالذى … يشترى الصُّفْرَ بأعيان الذَّهَبْ[5]

وَاصْدُقِ الناسَ إذا حَدَّثتَهم … وَدَعِ الناسَ فمن شاء كَذَبْ

(الأمالى ٢ : ٢٠٤ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥٧ ، ١٣٨)

---

(١) لب من باب تعب ؛ وفى لغة كقرب مع الفتح فى المضارع لبابة : أى صار ذا لب يتضح وهو العقل . (٢) شط فى حكمه . وأشط : جار . (٣) المعقل : الملجأ ، والخنا : الفحش .

(٤) نزع عن الشىء : انتهى عنه . (٥) الصفر كقفل ، وكسر الصاد لغة : النحاس .

٤٧٨ — وصية أسماء بن خارجة لابنته[1]

زوّج أسماء بن خارجةَ الفَزاريُّ بنته هنداً من الحجاج بن يوسف ، فلما كانت ليلةُ أراد البِناء بها ، قال لها أسماء : « يا بُنَيَّةُ ، إن الأمهاتِ يؤدِّبْنَ البناتِ ، وإن أمَّكِ هلكتْ وأنت صغيرةٌ ، فعليكِ بأطيبِ الطِّيب الماء ، وأحسنِ الحسن الكُحْلِ ، وَإياكِ وكثرةَ المعاتبة ، فإنها قطيعة الودّ ، وإياكِ والغَيْرة ، فإنها مِفتاح الطلاق ، وكوني لزوجكِ أمَةً ، يكن لك عبْدًا ، واعلمي أني القائلُ لأمِّك :

خذى العَفوَ مِنى تَسْتَديمى مَوَدَّتى ... ولا تنطِقى فى سَوْرَتى حين أغضَبُ[2]

ولا تنقُرينى نَقْرة الدُّفِّ مرةً ... فإنكِ لا تدرِينَ كيف المغيَّبُ

فإنى وجدتُ الحبَّ والصدر وَالأذَى ... إذا اجتمعا لم يلبثِ الحبُّ يَذْهَبُ

(الأغانى ١٨ : ١٢٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٥)

٤٧٩ — رجل ينصح لهشام بن عبد الملك

وخرج الزُّهرىّ يوماً من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : ما رأيتُ كاليوم ، ولا سمعتُ كأربعِ كلمات ، تكلّم بهن رجلٌ عند هشام ، دخل عليه فقال :

« يا أمير المؤمنين ، احفظ عنى أربعَ كلمات ، فيهن صلاحُ مُلْكِك ، وَاستقامةُ رعيَّتك » . قال : وما هنّ ؟ قال: « لا تَعِدْ عِدَةً لا تثِقُ من نفسك بإنجازها، ولا يغرَّنَّك المُرْتقَى وإن كان سهلا إذا كان المُنْحَدَرُ وَعْرًا ، واعلم أن للأعمال جزاء ، فاتّقِ العواقب ، وَأنّ للأمور بغَتات ، فكن على حَذَر » .

قال عيسى بن دأب : فحدثتُ بهذا الحديث المهدىّ ، وَفى يده لقمةٌ قد رفعها إلى فِيه،

---

(١) أورد الجاحظ هذه الوصية بصورة أوجز ، وذكر أنها وصية عبد الله بن جعفر لابنته

(٢) السورة : الحدة .

فأمسكها، وقال : وَيْحَكَ ! أَعِد علىّ ، فقلت : يا أمير المؤمنين أَسِغْ[1] لقمتك ، فقال : حديثُك أعجبُ إلىّ . (زهر الآداب ٣ : ١٨٠)

٤٨٠ — وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب[2] رسالة إلى الكتاب يوصيهم فيها ، قال :

« أما بعدُ حفظكم الله يأهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم ، فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسَلين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرّمين أصنافاً ، وإن كانوا فى الحقيقة سَواء ، وصرّفهم فى صنوف الصناعات ، وَضُروب المحاولات، إلى أسباب مَعَايِشهم ، وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشرَ الكُتّاب فى أشرف الجهات ، أهلَ الأدب وَالمُروءة وَالعلم وَالرِّواية ، بكم تنتظم للخلافة محاسنُها ، وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يُصْلِح الله للخلق سلطانَهم ، وتعمُر بلادهم ، لا يستغني المِلكُ عنكم ، ولا يوجَد كافٍ إلا منكم ، فموقعكم من الملوك مَوْقع أسماعهم التى بها يسمعون ، وأبصارهم التى بها يُبْصِرون ، وَألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يَبطِشُون ، فأمتعكم الله بما خصَّكم من فضل صناعتكم ، ولا نزَع عنكم ما أضْفاه[3] من النعمة عليكم .

وليس أحد أحوجَ إلى اجتماع خِلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكُتّاب ، إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسهِ ، ويحتاج منهُ صاحبُه الذى يثِقُ به فى مُهِمّات أموره ، أن يكون حليماً فى موضع الحِلم ، فهيماً فى موضع الحُكم ، مقداماً فى موضع الإقدام ، مِحْجاماً فى موضع الإحجام ، مُؤْثِرًا للعَفاف ، والعدل والإنصاف ، كَتُومًا للأسرار ، وَفيًّا عند

(١) ابتلع . (٢) هو عبد الحميد بن يحيى العامرى ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين، قتله السفاح سنة ١٣٢ هـ . (٣) أسبغه .

الشدائد ، عالما بما يأتى من النوازل ، يضع الأمور مواضِعَها ، وَالطَّوارق أما كنَها ، قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكَمَهُ ، فإن لم يُحْسِكمه ، أخذ منهُ بمقدار يكتفى به ، يعرف بغريزة عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ما يَرِد عليهِ قبل ورُوده ، وعاقبةَ ما يصدُر عنهُ قبل صُدوره ، فيُعِدُّ لكل أمر عُدَّته وعَتَادَه[1] ، ويهيِّئ لكل وجهٍ هيئته وعادتَه ، فتنافَسُوا ، يا معشر الكتاب ، فى صنوف الآداب ، وتفقهوا فى الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عزَّ وجلَّ والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثِقافُ[2] ألسنتكم ، ثم أجِيدُوا الخطَّ ، فإنه حِليةُ كتبكم ، وارووُا الأشعار ، واعرفوا غريبَها وَمعانيَها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثَها وَسِيَرها ، فإن ذلك مُعِينٌ لكم على ما تسمو إليه هِمَمُكم ، ولا تضيِّعوا النظر فى الحساب ، فإنه قِوَام كُتَّاب الخراج ، وارغَبوا بأنفسكم عن المطامع سَنِيِّها[3] ، ودَنيِّها ، وَسَفْسافِ[4] الأمور وَمحاقِرها ، فإنها مَذلَّة للرِّقاب ، مَفْسَدَةٌ للكُتَّاب ، ونزِّهوا صِناعتكم عن الدَّناءات ، وَارْبَئوا[5] بأنفسكم عن السِّعاية وَالنَّميمة ، وما فيهِ أهل الجهالات ، وَإيا كم وَالكِبْرَ وَالصَّلَفَ وَالعظمة ، فإنها عداوَة مجتلَبة من غير إحْنَة ، وَتحابُّوا فى الله عزَّ وجلَّ فى صناعتكم ، وتواصَوا عليها بالذى هو أليَقُ بأهل الفضل والعدل وَالنُّبل من سَلَفكم

وإن نَبَا الزمان برجل منكم فاعطِفوا عليهِ وواسُوه ، حتى يرجع إليهِ حاله ، وَيَثُوب[6] إليهِ أمرُه ، وإن أقعد أحدَكم الكِبَرُ عن مَكسَبه ولقاء إخوانه ، فزُوروه وعظِّموه وشاوِروه ، واستظهِروا[7] بفَضْل تجربتهِ ، وقِدَم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعهُ واستظهر به ليوم حاجتهِ إليهِ ، أحفظَ منهُ على ولده وأخيهِ ، فإن عَرَضَتْ فى الشُّغل مَحْمَدَة ، فلا يُضيفها إلا إلى صاحبهِ ، وإن عَرضت مَذَمَّة ، فليحمِلْها

---

(١) العتاد : العدة . (٢) الثقاف فى الأصل : ماتسوى به الرماح . (٣) رفيعها .

(٤) الردىء من كل شىء . (٥) ربأ : علا وارتفع . (٦) يرجع . (٧) تقووا .

هو من دونه ، وليحذر السَّقطةَ والزَّلة ، والمَلَل عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشَر الكتاب ، أسرعُ منهُ إلى القرّاء ، وهو لكم أفسد منهُ لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحِبهُ الرجل ، يَبْذل له من نفسه ما يجب له عليهِ من حقّه ، فواجبٌ عليهِ أن يعتقد له من وفائهِ ، وشكره ، واحتماله ، وصَبره ، ونصيحتهِ ، وكتمان سره ، وتدبير أمره ، ما هو جزَاء لحقهِ ، ويصدِّق ذلك بفعاله عند الحاجة إليهِ ، والاضطرار إلى ما لديه .

فاستشعروا ذلكم ـ وفقكم الله من أنفسكم ـ فى حالة الرخاء والشدة والحِرمان والمواساة والإحسان ، والسَّرَّاء والضَّرَّاء ، فنِعْمت الشِّيمة هذه لمن وُسِم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فإذا وُلِّيَ الرجل منكم ، أو صُيِّر إليهِ من أمر خلق الله وعِياله أمرٌ ، فليراقب الله عز وجل ، وليُؤْثِرْ طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقاً ، وللمظلوم مُنْصِفاً ، فإن الخلق عِيال الله ، وأحبُّهم إليهِ أرفقُهم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مُكْرِماً ، وللفَيْء موفِّراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية متألِّفاً ، وعن إيذائهم متخفِّفاً ، وليكن فى مجلسهِ متواضعاً حليماً ، وفى سِجِلَّات خراجهِ واستقضاء حقوقهِ رَفيقاً ، وإذا صحِبَ أحدكم رجلا فليختبر خلائقهُ ، فإذا عَرف حَسَنها وقبيحها ، أعانه على مايوافقه من الحَسَن ، واحتال لصَرْفهِ عما يهواه من القبيح ، بألطف حيلة ، وأجمل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها ، التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رَمُوحاً[1] لم يَهِجْها إذا ركِبها ، وإن كانت شَبُوباً[2] اتقاها من قِبَل يديها ، وإن خاف منها شُرُوداً توقَّاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حَرُوناً قمَعَ برِفقٍ هواها فى طريقها ، فإن استمرَّت عطَفَها يسيراً ، فيَسْلس له قيادُها ، وفى هذا الوصف من السياسة دلائلُ لمن ساس الناس وعاملهم ، وخدمهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعتهِ ، ولطيف حيلتهِ ، ومعاملتهِ لمن يحاوره

---

(١) رمحه الفرس كمنع : رفسه . (٢) شب الفرس كضرب ونصر : رفع يديه.

من الناس ويناظره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أولى بالرفق بصاحبه ومُداراته وتقويم أَوَده ، من سائس البهيمة التى لا تُحير[1] جوابًا ، ولا تعرف صوابًا ، ولا تفهم خطابًا ، إلا بقدر ما يُصَيِّرها إليه صاحبُها الراكب عليها ؛ ألا فأمعنوا رحمكم الله فى النظر ، وأعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر ، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النَّبْوَةَ ، والاستثقال والجفوة ، ويَصِير[2] منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة ، إن شاء الله تعالى .

ولا يجاوزنَّ الرجل منكم — فى هيئة مجلسه ، وملبسه ، ومركبه ، ومطعمه ، ومشربه ، وبنائه[3] وخدمه وغير ذلك من فنون أمره — قدرَ حقه ، فإنكم — مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم — خَدَمةٌ لا تُحمَلون فى خدمتكم على التقصير ، وحفظة لا تُحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير ، واستعينوا على عفافكم بالقصد فى كل ما ذكرته لكم ، وقصصته عليكم ، واحذروا متالف السَّرَف ، وسوء عاقبة التَّرَف ، فإنهما يُعقِبان الفقر ، ويُذِلاّن الرقاب ، ويَفضحان أهلهما ، ولا سيما الكتاب ، وأرباب الآداب ، وللأمور أشباهٌ ، وبعضُها دليل على بعض ، فاستدلوا على مُؤْتَنَف[4] أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها مَحَجَّةً ، وأصدقها حُجَّةً وأحمدها عاقبة .

واعلموا أن للتدبير آفةً مُتلِفة ، وهى الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته ، فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصدَ الكافى من منطقه ، وليوجز فى ابتدائه وجوابه ، وليأخذ بمَجامع حُجَجه ، فإن ذلك مَصْلحة لفعله ، ومَدْفعة للتشاغل عن إكثاره ،

---

(١) لا ترد . (٢) تأمنوا ، مجزوم فى جواب الأمر ، أو بعبارة أخرى جواب لشرط محذوف مع فعل الشرط أى إن تعملوا . . . تأمنوا ، ومن ثم يجوز فى « ويصير » ثلاثة أوجه الجزم ، والنصب والرفع كما هو مشهور . فقول بعضهم : « ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناسخ » مردود .

(٣) بنى على أهله ، وبها بناء ، وابتنى : زفها . (٤) مبتدأ .

وَلْيَتضرّع إلى الله فى صلة توفيقه ، وإمداده بتسديده مخافةَ وقوعه فى الغلط المُضر ببدنه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظانّ ، أو قال قائل : إن الذى برز من جميل صنعته ، وقوة حركته ، إنما هو بفضل حيلته ، وحسن تدبيره ، فقد تعرّض بظنه أو مقالته إلى أن يَكِلَهُ الله عز وجل إلى نفسه ، فيصيرَ منها إلى غير كاف ، وذلك على من تأمّله غيرُ خاف .

ولا يقُل أحد منكم إنه أبصَرُ بالأمور ، وأحمَلُ لعبْء التدبير من مُرَافِقِه فى صناعته ومُصَاحِبِه فى خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب من رَمَى بالعُجْب وراء ظهره ورأى أن صاحبه أعقَل منه ، وأحمَد فى طريقته ، وعلى كل واحد من الفريقين أن يَعْرِف فضل نعم الله جل ثناؤه ، من غير اغترار برأيه ، ولا تزكيَةٍ لنفسه ، ولا تكاثر على أخيه أو نظيره ، وصاحبه وعشيره ، وحمدُ الله واجب على الجميع ، وذلك بالتواضع لعظمته والتذلّل لعزته ، والتحدث بنعمته .

وأنا أقول فى كتابى هذا ما سبق به المَثَلُ : « مَنْ يَلْزم النَّصِيحة[1] يَلْزَمه العمل » وهو جوهر هذا الكتاب وغُرّة كلامه ، بعد الذى فيه من ذِكْرِ الله عز وجل ؛ فلذلك جعلته آخره ، وتممته به ، تولاّنا الله وإياكم يا معشر الطَّلَبة والكَتَبة ، بما يتولى به مَن سبق علمُهُ بإسعاده و إرشاده ، فإن ذلك إليه و بيده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

(صبح الأعشى ١ : ٨٥)

---

(١) فى نسخة : « الصحة » ، وذكر الجاحظ فى البيان والتبيين (٢ : ٤٦) أن هذا القول من كلام الأحنف السائر فى أيدى الناس .

الصراع بين الأموية والعباسية

٤٨١ — خطبة قحطبة بن شبيب الطائى(١)

لما دخل أبو مسلم الخراسانى زعيم الدعوة العباسية مدينة مَرْو سنة ١٣٠ هـ هرب منها نصر بن سَيَّار — أمير خُراسان من قِبَل مَرْوان بن محمد الأموى — ثم سار إلى نُباتة ابن حنظلة : عامل جُرْجان(٢) ، فوجَّه أبو مسلم قَحْطَبَة بن شَبيب فى جيش لقتاله(٣) ، وقَدِم قحطبة ، فنزل بإزاء نُبَاتة، وأهل الشأم فى عِدَّة لم يرَ الناس مثلها، فلما رآهم أهل خراسان هابوهم ، حتى تكلموا بذلك وأظهروه ، وبلغ قحطبةَ ، فقام فيهم خطيباً ، فقال :

« يأهل خراسان : هذه البلاد كانت لآبائكم الأوّلين ، وكانوا يُنْصرون على عدوهم لعدلهم وحسْنِ سيرتهم ، حتى بدّلوا وظَلَموا ، فسخِطَ الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانَهم وسلَّط عليهم أذلّ أمة ، كانت فى الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ، واستنكحوا نساءهم ، واستَرَقُّوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، و يوفون بالعهد ، و ينصرون

---

(١) هو أحد النقباء الاثنى عشر الذين اختارهم محمد بن على بن عبد الله بن عباس من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ١٠٣ ، أو ١٠٤ ، وكان قدم على أبى مسلم خراسان منصرفا من عند إبراهيم الإمام ، ومعه لواؤه الذى عقده له إبراهيم .

(٢) من قبل يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق. (٣) وكان قحطبة قبل ذلك قدتعبأ لقتال تميم بن نصر بن سيار ثم زحف إليه فاقتتلوا قتالا شديدا ، وقتل تميم بن نصر فى المعركة ، وقتل معه مقتلة عظيمة واستبيح عسكرهم ، ثم توجه إلى نيسابور ، وكان نصر بن سيار نزل بها ، فبلغه ذلك ، فارتحل هاربا ، وتفرق عنه أصحابه ، فسار إلى نباتة بن حنظلة بجرجان ، ونزل فى آخر أمره ساوة بين همذان والرى ، فمات بها كمدا .

المظلوم ، ثم بدّلوا وغيّروا وجاروا فى الحكم ، وأخافوا أهل البرّ والتقوى من عِتْرَة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلّطكم عليهم ، لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشد عقوبةً ، لأنكم طلبتموهم بالثأر ، وقد عهِد إلىّ الإمام[1] أنكم تلقَوْنهم فى مثل هذه العِدَّة ، فينصركم الله عز وجل عليهم ، فتَهزمونهم وتقتلونهم » .

وقد قرئ على قحطبة كتابُ أبى مسلم : « من أبى مسلم إلى قحطبة ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فناهِضْ عدوَّك ، فإن الله عز وجل ناصِرك ، فإذا ظَهَرْتَ عليهم ، فأثخِنْ فى القتل » فالتقَوْا فى مستَهلّ ذى الحِجّة سنة ١٣٠ هـ فى يوم الجمعة ، فقال قحطبة :

٤٨٢ — خطبة أخرى له

« يأهل خراسان : إن هذا يوم قد فضّله الله تبارك وتعالى على سائر الأيام ، والعملُ فيه مضاعَفٌ ، وهذا شهر عظيم ، فيه عيد من أعظم أعيادكم عند الله عز وجل ، وقد أخبرنا الإمامُ أنكم تُنْصرون فى هذا اليوم من هذا الشهر على عدوكم ، فالقَوْه بجد واحتساب ، فإن الله مع الصابرين » ثم ناهضهم فاقتتلوا وصبر بعضهم لبعض ، فانهزم أهل الشام ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وقتل نباتة ، وبعث قحطبة برأسِهِ ورأس ابنه حَيّة إلى أبى مسلم .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٠٦)

---

(١) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وكان نصر بن سيار حين أظهر أبو مسلم الدعوة العباسية فى خراسان وقويت شوكته . كتب إلى مروان يعلمه بحال أبى مسلم ومن معه ، وأن الذى تدعو الدعاة إليه هو إبراهيم الإمام ، فأرسل مروان إلى عامل البلقاء (فى أطراف الشأم) أن يسير إلى الحميمة (كجهينة) حيث يقيم إبراهيم فيشده وثاقا ، فحمل إلى مروان فحبسه فى حران ثم قتله فى سجنه ، ولما قبض على إبراهيم الإمام خاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من أقاربهم ، فهربوا إلى الكوفة ، فأخلى لهم أبو سلمة الخلال دارا بالكوفة ، وكتم أمرهم حتى وصل أبو مسلم بالجنود من خراسان إلى الكوفة ، ودخل على بنى العباس ، وسلم على السفاح بالخلافة ، وبويع بها سنة ١٣٢ هـ .

استدراك على الجزء الأول

سقطت هذه الخطبة سهوا فى أثناء الطبع فأوردناها هنا

خطبة السيدة عائشة حين أنبئت بقتل عثمان

كانت السيدة عائشة خرجت إلى مكة للحج وعثمان محصور ، ثم خرجت من مكة تريد المدينة ، فلما كانت بسَرِف أنبئت بمقتل عثمان ، فانصرفت إلى مكة فقصدت الحِجْرَ فسترت فيه ، واجتمع إليها الناس فقالت :

« أيها الناس : إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيدَ أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس ، ونقَموا عليه استعمال من حَدَثت سِنُّه ، وقد استُعْمِل أمثالُهم قَبله ، ومواضعَ من الحِمَى حماها لهم ، فتابعهم ونزع لهم عنها ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالعُدوان ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، والله لإصبع من عثمان خير من طِباق الأرض أمثالهم ، والله لو أن الذى اعتدّوا به عليه كان ذنبا لَخَلَص منه كما يَخلُص الذهب من خَبَثه ، أو الثوب من دَرَنه ، إذ ماصُوه (1) كما يُماص الثوب بالماء » (الكامل لابن الأثير ٣ : ١٠٢)

---

(١) الموص : غسل لين والدلك باليد .

سقط من هامش ص (٣٠) مايأتى :

جاء فى مقال الحسن بن على رضى الله عنهما للمغيرة بن شعبة ص ٣٠ : « وإن حد الله فى الزنا لثابت عليك ، ولقد درأ عمر عنك حقا الله سائله عنه » . وخبر ذلك أن المغيرة بن شعبة كان عاملا على البصرة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فاتهمه أبو بكرة — أخو زياد — هو ونفر معه بأنه زنى بأم جميل بنت الأفقم ، وكتبوا بذلك إلى عمر ، فعزل المغيرة وولى مكانه أبا موسى الأشعرى — وكان ذلك سنة ١٧ هـ — وارتحل المغيرة وأبو بكرة ومن معه حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المغيرة ، وقد أقسم بين يدى عمر أنه ماأتى إلا امرأته ، وكان الشهود عليه : أبا بكرة ، وشبل بن معبد البجلى ، ونافع بن كلدة ؛ وزيادا ، فبدأ عمر بأبى بكرة ، فشهد عليه أنه زنى بأم جميل ، وشهد شبل ونافع بمثل ذلك ، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ، إذ سأله هل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبهها ، فنحاه وأمر بالثلاثة فجلدوا الحد ، وقرأ : « فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ » فقال المغيرة : اشفنى من الأعبد فقال : اسكت ، أسكت الله نأمتك ، أما والله لو تمت الشهادة لرجمتك بأحجارك .

اقرأ القصة فى تاريخ الطبرى ٤ : ٢٠٧ — .

انتهى الجزء الثانى

ويليه

الجزء الثالث وأوله : الباب الرابع فى خطب ووصايا

العصر العباسى الأول

فهرس

الجزء الثانى

من جمهرة خطب العرب

الباب الثالث

الخطب والوصايا فى العصر الأموى

خطب الزبيريين وما يتصل بها

خطب عبد الله بن الزبير

عبد الله بن الزبير ومعاوية

خطب عتبة بن أبى سفيان

خطب قتيبة بن مسلم الباهلى

الوافدات على معاوية

خطب أبى حمزة الشارى

الخطب الوعظية والوصايا

كلام الحسن البصرى

الصراع بين الأموية والعباسية

استدراك على الجزء الأول

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

(غ)

(ق)

(ك)

تم فهرس أعلام الخطباء

